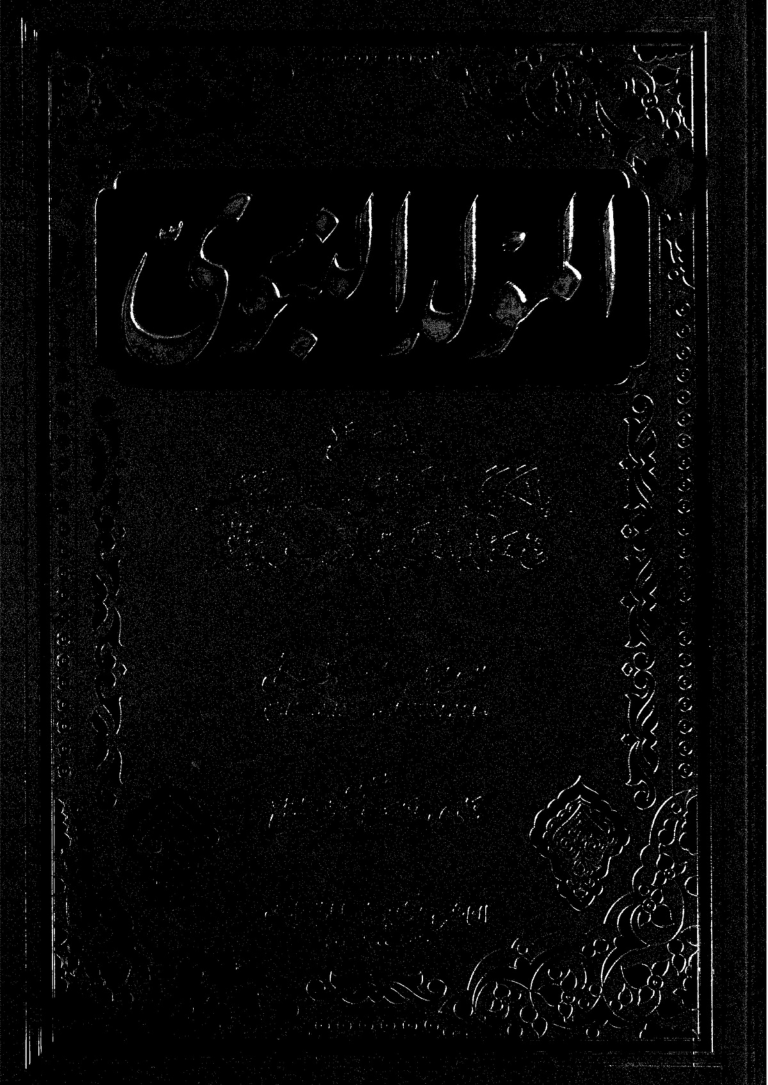
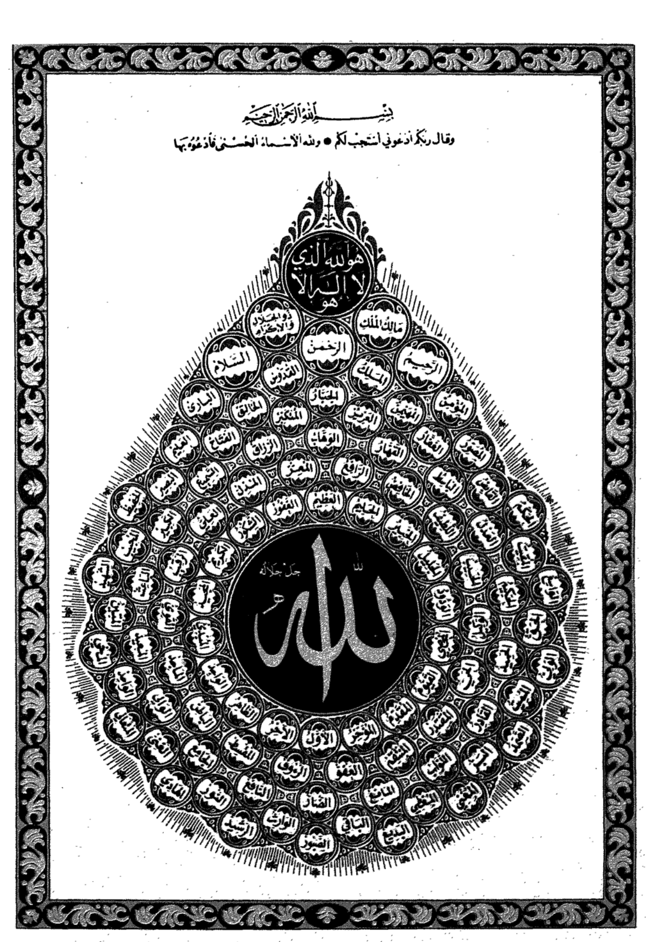
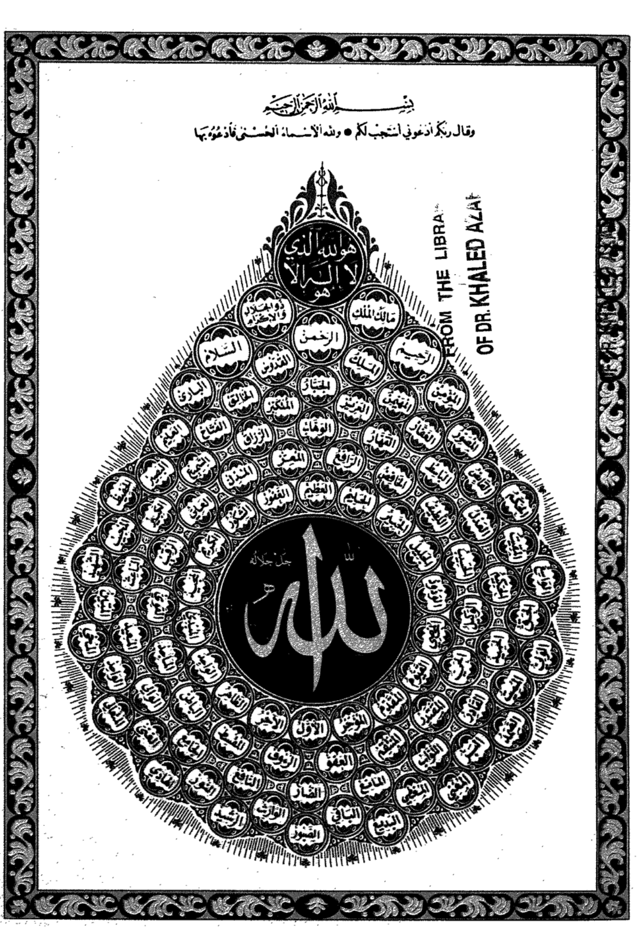




بسم الله الرحمن الرحيم
وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ● ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها
هو الله الذي لا إله إلا هو
مالك الملك
ذو الجلال والإكرام
الرحمن
الرحيم
السلام
القدوس
الملك
الله
جل جلاله


بسم الله الرحمن الرحيم
وقال ربكم ادعوني أستجب لكم • ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها
هو الله الذي لا إله إلا هو
الله
جل جلاله

إهـــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور/ خالد عزب

الإسكندرية

شرح المولد النبوى

المسمى

بالكوكب الأنور على عقد الجوهر في مولد النبى الأزهر صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة جعفر بن البرزنجى

١٢٥٠-١٣١٧هـ - ١٨٣٤-١٨٩٩م

تحقيق

نادى فرج درويش

الناشر: مركز ابن العطار للتراث
ت: ٤٠٥٢٦٠٠

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٢١٥٥

السـيد / نادي فرج درويش

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : بشرح المولد النبوي المسمى بالكوكب الأنور على عقد الجوهر تأليف : جعفر بن حسن البرزنجي - تحقيق / نادي فرج درويش

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

تحريرا فى / / ١٤ هـ
الموافق ١٨ / ٨ / ٢٠٠١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نحمد الله تعالى على آلائه التى أصبحت القلوب بصفائها مشرقة، وأضحت الأسرار ببهائها رياضًا مونقة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل قلوب العافين بعروة كرمه الوثقى متعلقة، وبحب رسوله مشرفة متشوقة، ونشهد أن نبينا ورسولنا محمدًا عبده ورسوله أرسله بحقٍ شرعه، وشرعٍ حققه، وأخمد بنور برهانه لهب الباطل وأزهقه. اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن آمن به وصدقه.

وبعد:

فسيرة رسول الله ﷺ خير سيرة، وعترته خير عترة، وشجرته خير شجرة نبتت فى حرم، وبسقت فى كرم، واستوت فى عظم، فهو جملة الجمال، وكل الكمال، فضائله أكثر من أن تحصى، ومناقبه لا تستقصى.

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه ... فأين الثريا من يد المتناول؟

نعم.. ذكر سيرة المصطفى تزيد فى الإيمان، وتضىء القلوب بأنوار العرفان؛ لأن الله تعالى جعل محبة رسول الله مشروطة بمحبته ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ [1]، وطاعته منوطة بطاعته ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [2]، وبيعته مقرونة ببيعته ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [3]، وذكره مقرونًا بذكره، فما ذكر أحدٌ محمدًا بالرسالة إلا

(1) سورة آل عمران: 31.

(2) سورة النساء: 80.

(3) سورة الفتح: 10.

وذكر الله بالربوبية ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [1].

ضمَّ الإله اسم النبى إلى اسمه إذ قال فى الخمس المؤذن أشهد

وشقَّ له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

ولقد احتفى كون الله ـ تعالى ـ كله برحمته للعالمين وإبراز ما حلاَّه الله به من حسن أخلاقه وكريم شمائله وصفاته، وما خصه به من المكارم والمحاسن، تجد ذلك واضحًا فى أصدق كتاب وأعظم بيان: ﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا * وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾ [2].

فهو ﷺ الشاهد لمن آمن به واهتدى، وعلى من جحد واعتدى، البشير بالثواب لمن أطاع مولاه،النذير بالعقاب لمن آثر هواه، الداعى إلى الله بإذنه إظهارًا للحجة، السراج المنير لمن آمن به واستضاء بنوه فأبصر المحجَّة.

من زمن آدم عليه السلام ورسول الله مستور الصورة منشور الذكر، أخذ الله الميثاق له من الأنبياء على تصديقه، وضمن نصره وتوفيقه ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [3].

فمن ثَمَّ فقد أخذ رسولنا صفوة آدم، ونوْح نوح، فى بعض درسه علم إدريس فى ضمن وجده حزن يعقوب، شطر حسنه كل حسن يوسف، فى سرّ وجده صبر أيوب، فى طىّ جوفه بكاء داود، بعض غنى نفسه يزيد على ملك سليمان، حاز خلة الخليل، ونال تكليم الكليم، وزاد رفعة على الملأ الأعلى، فكان برهانه أوضح وأحلى.. هو بين الأنبياء والمرسلين: واسطة العقد، وزينة الدهر، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر، فهو

(1) سورة الشرح: ٤.

(2) سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

(3) سورة آل عمران: ٨١.

صدرهم وبدرهم، قطب ولايتهم، عين كتيبتهم، واسطة قلادتهم، بيت قصيدتهم، نقطة دائرتهم، شمس ضحاهم، هلال ليلهم، نوره أنور، وبرهانه أزهر، وسره أظهر، وفضله أعلى، وذكره أحلى، صورته أجمل، ودينه أكمل، ولسانه أفصح، ودعاؤه أنجح، وعلمه أنفع، ونداؤه أسمع، حوائجه أقضى، وشفاعته أمضى، نصره مؤيد، واسمه محمد، جسمه لله أعبد، ورسمه بين الخلائق أوحد، واسمه فى الإنجيل أحمد، هو حبيب المولى، وهو بالمؤمنين من أنفسهم أولى.

من هذا النبع الصافى الدفاق، هفا قلب المحب المشتاق ليعبر عن حبه فى ساحة رحمة الخلاق، وحب رسول الله ﷺ ينبع من عقيدة صادقة صافية، ويقين راسخ، وعاطفة نبيلة، عاقلة رشيدة، لا يشوبها الغلو، ولا يمسخها الهوى، ولا يعبث بها التعصب المقيت ولكن:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

ولكن ماذا يقول المادحون:

إذا كان رب العرش جل جلاله
أثنى عليك فما مقدار ما يمدح الورى
ونادى جميع الرسل كلاً باسمه
وخصَّك أنت بالرسول وبالنبى

أنقول: جمَّلك الله يا رسول الله؟! فأنت جملة الجمال، وكل الكمال، نور الحق، وقدوة الخلق، مجتبى الله ومصطفاه، وخيرته من خلقه ومرتضاه.

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون فى طور من الإغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما أثنى على أخلاقك الخلَّاق

أمام هذا الكون الإنسانى المحشود بالفضائل، الموصول بالله انطلقت عاطفة الحب الإيمانى تمدح دينها فى رسولها، وتشيد بفضائل رسولها، منطلقة من تمسكها بدينها، وستظل هذه العاطفة صداحة مغردة تهفوها القلوب، وتلهج

بها الألسنة، وتتلألأ بها المآذن، حتى سماع المنادى من مكان قريب.

وهذا المولد الذى بين أيدينا للشيخ الجليل جعفر بن حسن البرزنجى طيب الله ثراه، وأثابه خير الجزاء ـ من قبيل هذا الحب العاقل الرشيد، ولقد كان لهذا المولد مع العارفين المحبين رحلة طويلة، ومدة مديدة، وتناقله الناس ينبئ عن صدق لهجة مؤلفه وعظيم وفائه.. ثم يأتى نبته الصالح ليواصل مسيرة الحب والصدق، فأضاف إلى التقى زهدًا، والشهد زبدًا، وقلد لنا جواهر سلفه بلآلئ البيان بشرح مستفيض وتبيان، مقتنصًا الشوارد، ومقيدًا الأوابد، عازيًا الفروع إلى أصولها، والروايات إلى مصادر نقولها، حتى تعم الفائدة، ويعظم النفع، فجزى الله الجميع الخير والسعادة، وأنالنا بحب رسوله الحسنى وزيادة..

اللهم اجمعنا تحت لوائه وفى زمرته، واسقنا من حوضه، واجعلنا من أهل شفاعته ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

القاهرة فى منتصف شهر شوال سنة ١٤١٧ هـ

الموافق ٢٢ فبراير ١٩٩٧ م

من المحبين لله ورسوله
أ. د. على محمد عبد الوهاب
وكيل كلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذى وهب لنا العقول والأذهان، ومنحنا فصاحة اللسان، وألهمنا التبيان، وحثنا على التحلى بالحلى الأدبية، والتخلق بالمكارم العلية، ورغبنا فى الاقتداء بالسنن السنية، والاهتداء بالأقوال المرضية، وأرشدنا إلى الطريق الأسنى، وأمرنا بالإحسان والأفعال الحسنى، ونهانا عن الأخلاق الدنيئة اللئيمة، والأفعال الرديئة الذميمة، وأنعم علينا بالبلاغة والبيان فقال جلَّ وعلا فى محكم القرآن:

﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً﴾.

فبالبيان تستخرج الحقائق، وتنمق الحكم الرقائق، ويتوصل إلى معرفة الخالق، ويستعان على شرح العلوم، ويتفنن فى الكلام المنثور والمنظوم، وبمكارم الأخلاق يستدل على فضل الطبع وكرم النحر وطيب الأعراق، وبالاستمساك بحبل المروءة والآداب تظهر نتيجة العقل وثمرة الألباب.

فهدانا سبحانه وما كنا لنهتدى لولا عونه وفضله، ووفقنا ولم نكن نتوفق لولا امتنانه وطوله. نحمده تعالى والحمد من إحسانه الجسيم، ونشكره والشكر من إنعامه العميم.

ونصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى الكريم، المخصوص فى الأنبياء بمزية التفضيل والتقديم، المحفوف بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الذى أُوتى من البيان الحظ الأوفى، والقسم الأفضل الأعلى، فلا كلام يعدل كلامه ولا بيان كبيانه، فهو أفصح الناطقين، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، صلى الله عليه وعلى آله وعلى جميع النبيين والمرسلين وسلم تسليمًا كثيراً.

وبعد:

فإن التأليف غير موقوف على زمان، والتصنيف ليس بمقصور على أوان، لكنها صناعة ربما قصرت فيها سوابق الأفهام، وسبيل ربما حادت عنها أقدام الأوهام.

قال بعض الحكماء: لكل شيء صناعة، وصناعة التأليف صناعة العقل.

وقال أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ: لولا تفسير العلماء ونقلهم آثار الأوائل فى الصحف لبطل أول العلم وضاع آخره.

ولذلك قيل: لا يزال الناس بخير ما بقى الأول حتى يتعلم الآخر.

وقال ابن فارس ـ صاحب «مجمل اللغة» ـ: لو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، وللفظت القلوب كل مرجع.

والذى عليه فى التأليف المدار: هو حسن الانتقاء والاختيار مع الترتيب والتبويب والتهذيب والتقريب.

هذا ما حدث لكتاب **«الكوكب الأنور على عقد الجوهر فى مولد النبى الأزهر»** فقد تناوله الشارح وهو حفيد المؤلف بالشرح والتحليل وبيَّن فى هذا الكتاب كل ما هو جميل من نبينا عليه الصلاة والسلام، وشرح كل غامض وأزال كل إشكال بالتفحيص والتمحيص، وبدأ بميلاد النبى ﷺ، وتعرض لأقوال العلماء والفقهاء، ثم شرح الإشكالات حول هذا الموضوع، ثم انتقل من حدث إلى حدث حتى وصل إلى نهاية الكلام عن هذا الأمر، ولم يكن ابن البرزنجى بدعًا من المؤلفين حين ألف هذ المُؤلف، ولكن سبقه علماء فى هذا الأمر، وعلى رأسهم العلامة جلال الدين السيوطى فقد ألف: «حسن المقصد فى عمل المولد».

ونتعرض فى هذا الكتاب لكثير من أقوال العلماء حول هذا الموضوع، وذكر أول من ألف فى هذا الموضوع.

ولقد ذكر الكتاب فى كثير من المصادر والمراجع العربية، والمؤلف علم من أعلام الإسلام.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين.

نادى فرج درويش

ترجمة الشارح

هو العالم الفاضل السيد «جعفر البرزنجى ـ مفتى الشافعية بالمدينة المنورة ـ ابن العلامة السيد إسماعيل ابن العلامة السيد زين العابدين ابن العلامة السيد محمد الهادى ابن العلامة السيد زين ابن العلامة السيد جعفر ـ مؤلف المولد المذكور ـ ابن العلامة الإمام السيد حسن ابن العلامة السيد عبد الكريم الشهير بالمظلوم ـ المدفون بجدة ـ ابن الإمام العلامة السيد محمد المدنى ابن السيد رسول البرزنجى» رحمهم الله تعالى.

ولد ونشأ فى «السليمانية» من أعمال شهرزور بالعراق عام ١٢٥٠ هـ ـ الموافق سنة ١٨٤٣ م.

سافر «جعفر» إلى مصر، فدخل الأزهر، وعاد مع أبيه إلى المدينة المنورة عام ١٢٧١ هـ، واستكمل فيها دراسته.

تصدر للفتوى والتدريس ـ بعد وفاة أبيه ـ عام ١٢٧٧ هـ.

سافر إلى استانبول، فعين قاضيًا لـ «صنعاء»، فأقام فيها ست سنوات.. ثم عاد إلى المدينة مستعفيًا.

دعى للقضاء بـ «سيواس» فى تركيا سنة ١٣٠٧ هـ، فأقام عامين.

عاد إلى المدينة مفتيًا ومدرسًا إلى أن توفى عام ١٣١٧ هـ الموافق سنة ١٨٩٩ ميلادية.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ يحسن ـ مع العربية ـ اللغة التركية، والفارسية، والكروية..

وكان له اشتغال بالتاريخ والأدب.

فمن أعماله:

ـ «نزهة الناظرين ـ ط»: فى تاريخ المسجد النبوى.

ـ «الشجرة الأترجية فى سلالة السادة البرزنجية ـ خ»: أوراق منه.

ـ «تاج الابتهاج على النور الوهاج فى الإسراء والمعراج ـ ط».

ـ «شواهد الغفران ـ خ»: بخطه، فى الرباط (٤٣٥ ك)، فى فضائل رمضان.

ـ «الكوكب الأنور على عقد الجوهر فى مولد النبى الأزهر ـ ط»: شرح لقصة (المولد النبوى)، من تأليف «جعفر بن حسن البرزنجى» المتوفى عام ١١٧٧ هـ ـ سنة ١٧٦٤ م.

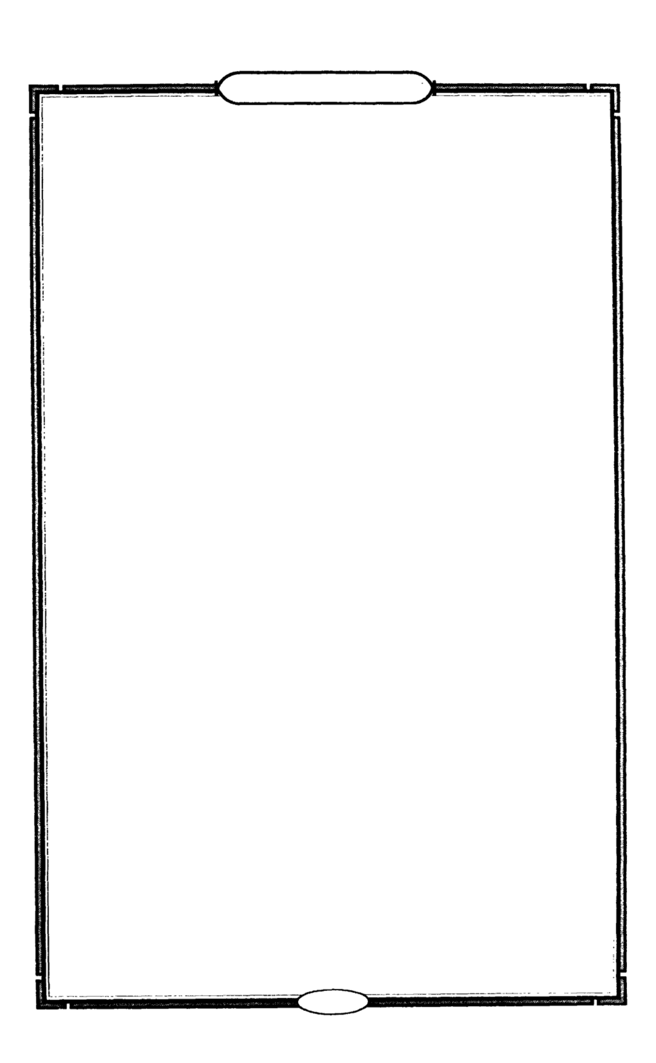
كما أن له نظم أيضًا[1].

* * *

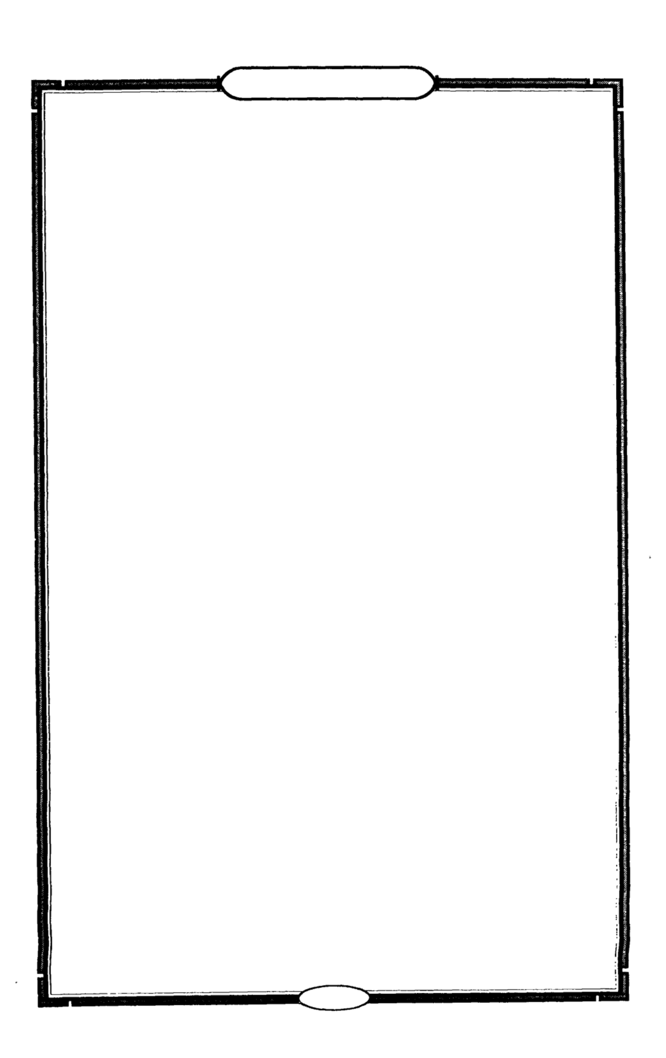
(١) الأعلام ـ خير الدين الزركلى ـ الجزء الثانى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت، نوفمبر سنة ١٩٨٤م.

ـ محمد سعيد دفتر دار ـ فى جريدة (المدينة المنورة) ١٤، ٢١، ٢٨ ذى القعدة عام ١٣٧٩هـ.

ـ المعجم الشامل للتراث المطبوع ـ جزء أول ـ معهد المخطوطات العربية ـ بالقاهرة سنة ١٩٩٢ م.



الكوكب الأنور
على
عقد الجوهر



بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

سبحان من أطلع فى سماء الأزل شمس الحقيقة المحمدية وأنار الوجود بإظهار بدره المنير واصطفاه، وأينع فى رياض ربيع أوصافه الملكية أزاهير أفنان حضرته واجتباه، أحمده أن أنشأ هذا النظام البديع من ذلك النور الذى هو معدن أسراره الإلهية واختاره محطًا لنظره ومظهراً لجوده وقامعًا لمن عبد سواه وأشكره أن شرح بحقائق دقائق مولد الذات الأحمدية صدور أوليائه الذين أرشدهم بفضله وهداه، وسرَّح ضياء قلوب المخلصين فى مراتع محاسنه البهية ووشَّح بعقد الجوهر أعناق أفهامهم فنشروا وجمعوا فرائد وصفه وثناه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهًا تنزَّه فى ذاته الوحدانية وصفاته الأحدية عن أن يتخذ ولدًا أو شريكًا وتقدَّس عن النظائر والأشباه، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذى أضاء الكون شموس محاسنه النورانية وشخصت نواظر الحور العين لبديع محيَّاه، وقطعت صوارم بروق هيبته النبوية حجاب قلوب الجاحدين لدين الله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه كنوز المعارف الإلهية الذين بذلوا أنفسهم فى نصرة الحق يبتغون فضله ورضاه.

(وبعد):

فيقول المفتقر إلى ربه الجليل جعفر بن إسماعيل إن الكتاب المسمى: **«عقد الجوهر فى مولد النبى الأزهر»** للسيد الفاضل، والهمام الواصل، العلامة الإمام، والجهبذ الخِرِّيت[1] القمقام[2]، مفيد الطالبين، مفتى المسلمين، الجدّ المرحوم السيد جعفر بن السيد حسن البرزنجى، لا برح فى مقعد صدق عند

(١) الخِرِّيت: الحاذق والماهر بالشىء.

(٢) القمقام: البحر.

الكريم المنجى.. كتابٌ قدره جليل، وهو على جلالته أدل دليل، وفاق فى بلاغته جميع المؤلفات فى هذا الشان، وطربت بادرًا لمقاصده العقول والأذهان، كيف لا وهو الحاوى للمعجزات العظيمة، والحاكى للشمائل الكريمة.

ولعمرى لقد أظهر فيه من كنوز الفصاحة وأسرار البلاغة، وأجرى جواد السبق فأحرز قصباته فى ميدان البراعة، وأتى بمنوال لم يُسْبَق إليه، وجزم بعذوبة موارده الواردون عليه.

وهو ـ وإن شُرِحَ ـ يحتاج إلى شرح يحرر مقاصده وينقح فرائده ويوضح ما فيه من مطويات الرموز ومخبآت الأسرار، ويكشف عن وجوه عرائس فوائده الأستار، ويُعْرِب عن عجائب تدقيقه ومحاسن تحقيقه، ويفصح عن جواهر تنميقه وبدائع تأنيقه، فاستخرت الله تعالى فى شرح ذلك، وإن كنت بمعزل عما هنالك، موشحًا ذلك بما وقفت عليه من الأحاديث المرضية عند العلماء، وما ظفرت به من الأقوال المستحسنة لدى الفضلاء، فوضعت عليه هذا الشرح اللطيف والأنموذج الشريف من غير أن يطلبه منى طالب، أو يرغب إلىَّ فى تصنيفه راغب؛ لكن تطلبت نفسى فيه مدح الأمين المأمون، زكى المنابت طيب الأغراس، الذى ظهرت عند حمله وولادته ورضاعه آيات حيرت عقول ذوى الأنفاس، فأودعته نفائس كأنهن الياقوت والمرجان، وعرائس لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان.

وسميته «**الكوكب الأنور على عقد الجوهر**» راجيا من الله أن يهدينى إلى الصراط المستقيم، ويقلدنى قلادة العبودية من خزائن إنعامه الجسيم، ويتوجنى بتاج القبول، ويبلغنى كل مقصود ومأمول، وأن يغفر لى ولمشايخى ولوالدى، ولمن أحسن إليهما وإليهم وإلىَّ، وأن يحشرنا والمسلمين يوم القيامة تحت لواء سيد الأنام، وأسأله أن يجعله بفضله العميم خالصًا لوجهه الكريم، وذخرًا لى يوم الحساب، وخيرًا جاريًا بعدى إذا صرت رميمًا تحت التراب، إنه هو البر التواب الكريم الوهاب، وأسأله أن يعيننى على التكميل، فهو حسبى ونعم الوكيل.

مقدمة فى أصل عمل المولد [1]

اعلم أنه بدعة لأنه لم ينقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة الفاضلة التى شهد النبى ﷺ بخيريتها، لكنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير للفقراء، ومن قراءة القرآن وإكثار الذكر والصلاة على النبى، وإظهار الفرح والسرور به ﷺ، ولأجل ذلك لما ظهرت بعد تلك القرون الثلاثة لم يزل أهل الإسلام فى سائر الأقطار يحتفلون فى شهر مولده - خصوصا فى ليلته - بعمل المولد، فى ولائم مشتملة على كثرة المطاعم والإحسان والصدقات والمبرات، مع الإكثار من قراءة القرآن والذكر، وقراءة مولده وما ورد فيه من الخبر الثابت وما اشتمل عليه من كراماته ومعجزاته.

على أنه ليس قيدا فى استحباب عمل المولد المذكور وإنما هو لزيادة الأجور، ولقد قال الإمام الجليل الشمس ابن الجوزى[2]: إن مما جرب أن من فعل ذلك كان له أمانا فى ذلك العام.

وأول من أحدث ذلك الملك المظفر صاحب إربل، وكان يحتفل فيه احتفالاً هائلاً.

قال سبط ابن الجوزى فى «مرآة الزمان» حكى لى بعض من حضر سماط المظفر فى بعض الموالد أنه عدّ فيه خمسة آلاف رأس غنم شوى، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة فرس، ومائة ألف صحن حلوى. وكان يحضر عنده فى المولد أعيان العلماء والصوفية، فيخلع عليهم ويطلق لهم العطية، وكان يصرف على

---

(١) أفردها بالتأليف - بين مؤيد ومعارض -: الحافظ السيوطى «حسن المقصد فى عمل المولد»، وابن حجر الهيثمى «أصل عمل المولد النبوى». وانظر آراء الفريقين فى السيرة النبوية (١/٤٥٩).

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن على بن يوسف، أبو الخير، شمس الدين العمرى الدمشقى، الشافعى، الشهير بابن الجوزى (٧٥١ - ٨٣٣ هـ) حافظ، مقرئ، توفى فى شيراز. انظر: الأعلام (٧/٤٥)، شذرات الذهب (٧/٢٠٤).

المولد ثلاثمائة ألف دينار.

واستدل شيخ الإسلام والحافظ أبو الفضل ابن حجر العسقلانى لكونه بدعة حسنة بخبر الصحيحين: أنه ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هذا يوم أغرق الله فيه فرعون ونجّى موسى فنحن نصومه شكرا لله تعالى. فقال ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه، وقال: «إن عشت إلى قابل...» الحديث[1].

قال - أعنى شيخ الإسلام -: فيستفاد منه فضل الشكر لله تعالى بأنواع العبادات على ما منّ به فى يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم من كل سنة، وأى نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبى ﷺ نبى الرحمة فى ذلك اليوم.

وسبقه لنحو هذا الحافظ ابن رجب الحنبلى[2] رحمه الله تعالى.

واستدل الحافظ السيوطى - رحمه الله تعالى - بما أخرجه البيهقى عن أنس - رضى الله عنه -: أن النبى ﷺ عَقّ عن نفسه بعد النبوّة. مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عَقّ عنه فى سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة ثانية فيحمل ذلك على أن هذا الذى فعله ﷺ إظهار للشكر على إظهار الله إياه رحمة للعالمين، وتشريع، كما كان يصلى على نفسه، فلذلك يستحب لنا أيضا إظهار الشكر له تعالى بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرّات.. انتهى.

وتعقبه النجم الغيطى[3] بأمور منها: أن ما ورد من أنه ﷺ عَقّ عن نفسه بعد النبوة حديث منكر، بل قال الإمام النووى - رحمه الله - إنه باطل لا أصل له.

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠٠٢)، مسلم (١١٣٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن احمد بن رجب السّلامى البغدادى، أحد حفاظ الحديث، ولد ببغداد سنة (٧٣٦ هـ) ونشأ بها، وتوفى فى دمشق سنة (٧٩٥ هـ) وله تصانيف عديدة منها: شرح جامع الترمذى، وجامع العلوم والحكم. وغيرها. انظر: الأعلام (٣/ ٢٩٥)، وشذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

(٣) هو نجم الدين محمد بن أحمد الغيطى، توفى سنة (٩٨١ هـ)، ولعل المؤلف يشير إلى كتابه: «بهجة السامعين والناظرين بمولد سيد الأولين والآخرين».

أقول: أما القول ببطلانه فغير صواب فقد رواه أحمد والبزار والطبرانى من طرق، قال ابن حجر العسقلانى - رحمه الله - فى أحدها: أن رجاله رجال الصحيح إلا واحداً وهو ثقة، وقال العلامة ابن حجر الهيثمى: قال فى «المجموع»: باطل، وكأنه قلَّد فى ذلك إنكار البيهقى وغيره، وليس الأمر كما قالوه.. انتهى.

وقال الحلبى فى «سيرته»: قال الإمام أحمد: هذا منكر، أى حديث منكر، والحديث المنكر من أقسام الضعيف لا أنه باطل كما قد يتوهم، والحافظ السيوطى لم يتعرض لذلك وجعله أصلاً لعمل المولد. انتهى.فلا يسقط التخريج المذكور[1].

واستدل العلامة المحدث محمد بن مسعود الكازرونى[2] بما رواه فى كتابه «المنتقى فى مولد النبى المصطفى» من أن عبد المطلب كان حال ولادته ﷺ فى فناء البيت الحرام فرآه يتمايل على مقام إبراهيم، وسمع هاتفا يُكبِّر فى جوفه ويهتف بمقال منه: «هذا محمد نبيى وصفيى» إلى أن قال:«اشهدوا ملائكتى أنى قد فتحت له خزائنى، فاتخذوا يومه هذا الذى ولد فيه عيداً إلى يوم القيامة»[3].. انتهى.

وفى الحقيقة أن مولده ﷺ عيد للإسلام وأى عيد يشمل القريب من أمته والبعيد، وأى نعمة أعظم من ظهور هذا النبى الكريم فى هذا الوقت العظيم الذى حصل فيه التفضيل على سائر الموجودات إذ هو الذى جعله الله رحمة للعالمين، فعمت به النعمة على جميع الخلائق.

وينبغى أن يتحرى اليوم بعينه؛ فإن كان ولد ليلاً فليقع الشكر بما يناسب الليل، وإن كان ولد نهاراً - وهو الأصح - كما يأتى؛ فبما يناسبه كالصيام

(١) إنسان العيون (١/ ١٣٠).

(٢) هو محمد بن مسعود بن محمد، سعد الدين الكازرونى، أحد المحدثين، أجاز له المزى وجماعة من أهل الحديث، وله عديد من المؤلفات، توفى سنة (٧٥٨ هـ). انظر: الأعلام (٧/ ٩٦)، وكشف الظنون (١٨٥١).

(٣) لم أعثر على من أخرجه فيما تحت يدى من مصادر.

والصدقة، ولابد أن يكون ذلك اليوم بعينه من أيام ذلك الشهر بعينه حتى يطابق قصة موسى عليه السلام فى يوم عاشوراء، ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالى بعمل المولد فى أى يوم من الشهر، بل توسع قومٌ فنقلوه الى أى يوم كان من السنة، وفيه ما فيه.

وينبغى أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من نحو ما ذُكِر، وأما السماع واللهو وغيرهما فما كان مباحًا لعين السرور بذلك اليوم فلا بأس به، وما كان حرامًا أو مكروهًا فيمنع، وكذا خلاف الأولى.

وبالجملة فلا بأس بفعل الخير فى سائر الأيام والليالى التى وقع الاختلاف فى تعيينها للمولد ـ حسبما يأتى ـ على حسب الاستطاعة، بل يحسن فى أيام الشهر كلها ولياليه، وقد جاء عن الإمام الزاهد القدوة المعمر أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن جماعة ـ رحمة الله عليهم ـ أنه لما كان بطيبة ـ على مُشَرِّفها أفضل الصلاة والسلام ـ كان يعمل بها طعاما فى المولد النبوى ويطعم الناس ويقول: لو تمكنت لعملت بطول الشهر كل يوم مولدًا.

ورؤى أبو لهب عمه ﷺ فى المنام، والرائى له بعض أهله ـ وقيل: هو أخوه العباس ـ بعد سنة من وفاته، فقيل له: ما حالك؟ قال: فى النار إلا أنه يخفف عنى فى كل ليلة إثنين، وأمصّ من بين أصبعى هاتين ماء، وإن ذلك عن إعتاقى لثُوَيبَة عندما بشَّرتنى بولادة النبى ﷺ وبإرضاعها له"[1].

قال ابن الجوزى: فإذا كان هذا أبو لهب الكافر الذى نزل القرآن بذمه ـ الذى لا ذم فوقه ـ جوزى فى النار بفرحة ليلة مولده ﷺ، فما حال المسلم الموحد الذى يُسَرُّ بمولده، ويبذل ما يقدر عليه فى محبته ﷺ، لعمرى أن يكون جزاؤه من الرب الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم.

(١) أخرجه البخارى: كتاب النكاح، باب (٢١)، رقم الحديث (٥١٠١).

وما أحسن ما قاله الحافظ الشمس محمد بن ناصر الدين الدمشقى[1] فى ذلك:

إذا كان هـذا كافراً جاء ذمُّه وتبَّتْ يداهُ فى الجحيمِ مُخَلَّدا
أتى أنه فى يوم الإثنين دائمًا يُخَفَّف عنه للسَّرورِ بأحْمَدَا
فما الظنُّ بالعبدِ الذى عاش عُمره بأحمـد مسروراً ومات مُوَحِّدا

نسأل الله أن يميتنا على محبته، ويحشرنا تحت لوائه، ويثيبنا الجنة، ووالدينا ومشايخنا وأحبابنا وكافة المسلمين آمين يا رب العالمين.

تتمة

اختلف العلماء فى تفضيل ليلة مولده الشريف على ليله القدر، فقال بعضهم: إن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر، ذكره فى «المواهب» وأقره.

وتعقبه العلامة ابن حَجَر رحمه الله فى «النعمة الكبرى» وقال: «وقد نص الشارع على أفضلية ليلة القدر ولم يتعرض لليلة مولده ولا لأمثالها بتفضيل أصلا، فوجب علينا أن نقتصر على ما جاء عنه ولا نبتدع شيئا من عند أنفسنا القاصرة عن إدراكه إلا بتوقيف منه ﷺ».

قال الزرقانى[2] فى «شرح المواهب»: وهو وجيه، ثم قال: وإذا قلنا بأفضلية ليلة مولده وقلنا إن الولادة نهاراً فهل الأفضل يوم المولد أو يوم البعث؟ والأقرب كما قال شيخنا إن يوم المولد أفضل لـمَنٍّ الله به فيه على العالمين، ووجوده يترتب عليه بعثه، فالوجود أصل والبعثة طارئة عليه، وذلك قد يقتضى تفضيل المولد لأصالته.. انتهى.

وأما ليلة الإسراء: فقد قال بعض المفسرين: إنها أفضل من ليلة القدر لكن

---

(١) هو الحافظ محمد بن أبى بكر بن ناصر الدين الدمشقى، توفى سنة (٨٤٢ هـ)، ومن مؤلفاته «اللفظ الرائق فى مولد خير الخلائق».

(٢) هو محمد بن عبد الباقى بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقانى المصرى، ولد سنة (١٠٥٥ هـ) بالقاهرة، وتوفى بها فى سنة (١١٢٢ هـ). انظر الأعلام (٦/ ١٨٤).

بالنسبة له ﷺ لأنه أوتى فيها ما لا يحيط به الحدّ، ولذا كان الإسراء بالجسم يقظة من خصائص نبينا ﷺ، قال الحافظ ابن حجر: وهذا إنما يصح إن قام دليل على أن إنعام الله على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وهذا لا يعلم إلا بوحى، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيه بلا علم.. انتهى.

وظاهره أن الخلاف بين الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ وبين ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن، وأما الليلة المعينة التى أسرى به فيها فأفضل من ليلة القدر فى كل عام، كما أن ليلة القدر فى كل عام أفضل من نظائر الليلة التى أسرى به فيها فى كل عام لما ورد فى أرجحية العمل فيها بخلاف ليلة الإسراء فإنه لم يأت فيها حديث صحيح ولا ضعيف، والله اعلم.

* * *

واعلم أن المصنف رحمه الله تعالى افتتح كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز وعملاً بالحديث المشهور، ولأنه أحق بالبداءة بالبسملة من كثير من التصانيف لاشتماله على أفضل العلوم والمعلومات، ولا ينافيه قوله: بعد إبتدىء الإملاء... إلخ؛ لأن ذلك بمعنى الإخبار عما قبله كما يأتى، فقال:

(بسم الله) الباء يحتمل أن تكون زائدة وأن تكون أصلية، فعلى الأوّل لا تحتاج إلى متعلق، وعلى الثانى فلابد لها من متعلق. واختلفوا فى هذا المتعلق فقيل: إنه فعل. وقيل: إنه اسم. وكل منهما خاص أو عام، مقدّم أو مؤخر فالجملة ثمانية، والأولى أن يكون فعلا خاصًا مؤخرًا. أما كونه فعلا فلأن الأصل فى العمل للإفعال، وأما كونه خاصًا فلأن كل شارع فى فعل إذا أتى بالبسملة يضمر فى نفسه ما جعل التسمية مبدأ له، كما أن المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله كان المعنى. بسم الله أحل أو أرتحل. وأما كونه مؤخرا فلإفادة الحصر، ولأن تقديم بسم الله تعالى على القراءة أهم وأدل على الاختصاص، وأدخل فى التعظيم وأوفق فى الوجود، كيف وقد جعل آلة لها

من حيث أن الفعل لا يعتد به شرعا ما لم يصدّر باسمه تعالى لحديث: «كل أمرٍ ذى بال. . .»[1] إلخ.

واختلف هل الاسم عين المسمى أو غيره؟ واستدل القائلون بالأول بنحو: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[2] فأمر بتسبيح اسم الله تعالى، والمسبح هو البارى، فاقتضى أن اسم الله تعالى هو هو.

وأجيب بأنه ضَمَّنَ سبح معنى اذكر اسم ربك، فإن قيل: لم قال سبحانه: بسم الله. ولم يقل: بالله؟ قلت: قال الأخفش: لأمرين؛ لأن التبرك والاستعانة المطلوبين من العبد لسانا فى ابتداء كل أمر ذى بال إنما يحصل بذكر اسم الله تعالى، أو للفرق بين اليمين والتيمن، فلو قيل: بالله: لظن يمينا، فأزيل الاشتباه بذكر الاسم.

وقال قطرب: لإجلال الله تعالى ليقع به الفرق بين ذكره وبين الخلق.

قال الإمام المحقق الجدّ محمد بن رسول البرزنجى[3] فى «أنهار السلسبيل على البيضاوى»: أقول: وفيه إشارة دقيقة إلى أن حقيقة ذاته تعالى وكنهه لا يمكن أن يدرك، وما لا يدرك كيف يذكر، وإنما المدرك أسماؤه تعالى وصفاته، أو أن لسان الخلق ليس له أن يذكر الذات المقدس مع كمال تقدسه، فلولا التوسل بذكر اسمه ليكون شفيعًا له فى ذكره لكان مظنة أن لا يقبل منه وأن يعاقب. . انتهى.

والاسم مشتق من السمو وهو العلو، وقيل: من الوسم وهى العلامة. والله أصله: إله المُنكَّر، واختار صاحب «الكشاف» أن أصله: الإله المُعَرَّف، والأوّل

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٦٦٣٤) للرُّهاوى فى الأربعين البلدانية. وضعفه فى الجامع الصغير (٦٢٨٤)، وحسنه النووى فى الأذكار.

(٢) سورة الواقعة: ٧٤.

(٣) هو محمد بن رسول بن محمد بن محمد بن رسول، الشافعى الأشعرى، ولد فى أحد نواحى «السلمانية» وتوفى مطعونًا فى «صاد قبلاق»، وله مؤلف مطبوع اسمه: «تعليق على تعليقات السيالكوتى». انظر الأعلام (٦/ ١٢٥)، سلك الدرر (٣/ ٦٥).

أولى؛ لأن تعبير «الكشاف»[1] إن لم يكن مراده أصله القريب يوهم أن الألف واللام معتبران فى الأصل وليس كذلك للوفاق على زيادتهما على الأصل، ثم حذفت الهمزة منه حذفًا اعتباطيًا غير قياسى، وعوض عنها الألف واللام وجوبًا، ولذلك قيل: يا أللهُ بالقطع وحذفت الألف الأخيرة من الله خطا، وقيل: تخفيفًا، وقيل: لغة، فاستعمل فى الخط ثم فخمت تعظيما، ولئلا يلتبس باللات عند من يقف عليها بالهاء.

والله والإله كلاهما مختصان به تعالى إلا أن الفرق بينهما أن الأول مختص بالمعبود بحق، والثانى يطلق على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسمٌ لكل كوكب ثم غلب على الثريا.

وقال الأكثرون: ليس بمختص بالمعبود بحق بل هو علمٌ على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد لم يتسم به سواه، تسمى به قبل أن يسمى، وأنزله على آدم من جملة الأسماء، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[2] أى هل تعلم أحدًا سمى الله غير الله.

وقال ابن الخازن: وهو الصحيح المختار. ودليله ما ذكر، يعنى: لا يقال لغير الله، فهو خاص لا مختص به سبحانه وتعالى إذ لا يسمى به غيره، فهو أخص الأسماء وهو أعرف المعارف وأعظم الأسماء، لأنه دل على الذات الموصوف بصفات الألهية كلها، فهو اسمٌ جامعٌ لمعانى سائر الأسماء الحسنى كلها وما سواه خاص بمعنى فلذا يضاف إليه جميع الأسماء ولا يضاف هو إلى شىء.

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى الزمخشرى، معتزلى مجاهر، من أئمة العلم بالدين، والتفسير، والأدب، ولد فى زمخشر (من قرى خوارزم) سنة (٤٦٧ هـ) وانتقل إلى مكة ومنها إلى عديد من البلدان ثم إلى خوارزم، وتوفى بها سنة (٥٣٨ هـ) وله مؤلفات عديدة منها: «الكشاف فى تفسير القرآن» و «أساس البلاغة» و «المفصل» وغيرها. انظر: الأعلام (١١٨/٧)، وفيات الأعيان (٨١/٢)، سير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠)، طبقات المفسرين (٣١٤/٢)، مرآة الجنان (٢٦٩/٢)، المنتظم (٣٧/١٨).

(٢) سورة مريم: ٦٥.

وهو عربي عند الأكثرين، وعند المحققين أنه الاسم الأعظم، وقد ذكر فى القرآن العظيم فى ألفين وثلاثمائة وستين موضعا، وعدم الاستجابة لكثيرين لعدم استجماعهم لشرائط الدعاء التى من جملتها أكل الحلال، وقد نظمها البدر بن جمَاعة[1] فى قوله:

قالوا شروط للدعاء المستجـــاب لنا
عشرٌ بهـا يُبشر الداعى بإفـلاحِ
طهـارةٌ وصـــلاحٌ معهمـا ندمٌ
وقت خشوع وحسن الظنِ يا صـاحِ
وحِلُّ قوتٍ ولا يدعــو بمعصيةٍ
واسمٌ يناسب مقرونا بإلحـاحِ

واختار النووى ـ رحمه الله ـ أنه الحى القيوم. وقيل: هو لفَظة هو. وقيل: الله الرحمن الرحيم. وقيل: الرحمن الرحيم الحى القيوم. وقيل: الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، رآه رجل مكتوبا فى الكواكب فى السماء. وقيل: ذو الجلال والإكرام. وقيل: الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وقيل: رب رب. وقيل: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. وقيل هو: الله الله الله الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم. وقيل: هو مخفى فى الأسماء الحسنى. وقيل: كل اسم دعا العبد ربه به مستغرقا بحيث لا يكون فى فكره حالتئذ غير الله. وقيل: كلمة التوحيد. وقيل: الاسم الأعظم مما استأثر الله به.

---

(1) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى الحموى الشافعى، بدر الدين أبو عبد الله، قاضى، من العلماء بالحديث، وسائر علوم الدين، ولد فى حماة سنة (٦٣٩ هـ) وولى الحكم والخطابة فى القدس، ثم القضاء بمصر، ثم الشام، ثم مصر التى توفى بها سنة (٧٣٣ هـ) وله مؤلفات عديدة. انظر: الأعلام (٥/ ٢٩٧)، فوات الوفيات (٢/ ١٧٤).

تنبيه

قال القسطلاَّنى نقلاً عن «الفتح»: وهل يجوز تفضيل بعض أسماء الله على بعض؟ فمنع من ذلك أبو جعفر الطبرى[1] وأبو الحسن الأشعرى[2] والقاضى أبو بكر الباقلانى[3] لما يؤدى ذلك إلى اعتقاد نقصان المفضول على الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم، وأن أسماء الله تعالى عظيمة. وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة المراد بها مزيد ثواب الداعى بها.. انتهى.

(الرحمن الرحيم) هما صفتان بنيتا للمبالغة من الرحمة، فالرحمن البالغ فى الرحمة والإنعام، ومن ثم لم يسم به غيره تعالى، وتسمية أهل اليمامة مسيلمة ـ لعنه الله ـ به من التعنت فى الكفر.

ويجوز صرفه وعدمه.

والرحيم: ذى الرحمة الكثيرة، فالرحمن أبلغ من الرحيم، وإن صح فى الحديث: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما». لزيادة بنائه فإن رحمن خمسة أحرف ورحيم أربعة أحرف، وهى تدل غالبًا على زيادة المعنى، وإنما قلنا غالبًا ليخرج مثل: حذر، وحاذر؛ فإن الأول أبلغ مع أن الثانى فيه زيادة البناء، والاستدلال على الأغلبية بقولهم: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الآخرة»

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى، أبو جعفر، المؤرخ والمفسر، ولد فى آمل طبرستا، واستوطن بغداد، وتوفى بها سنة (٣١٠ هـ) له مؤلفات عديدة منها: «أخبار الرسل والملوك» المعروف بتاريخ الطبرى، و «جامع البيان فى تفسير القرآن» المعروف بتفسير الطبرى، وغيرها. انظر: الأعلام (٦/ ٦٩)، وفيات الأعيان (١/ ٤٥٦)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧).

(٢) هو على بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابى أبو موسى الأشعرى، وهو مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد فى البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة ثم رجع عنه وجاهر بخلافهم، وتوفى ببغداد سنة (٣٢٤ هـ)، وقيل أن مؤلفاته بلغت ٣٠٠ مصنف. انظر: الأعلام (٢/ ٢٦٣)، وفيات الأعيان (٤/ ٣٢٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥).

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، من كبار علماء الكلام، ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفى بها سنة (٤٠٣ هـ)، وله مؤلفات عديدة منها: «إعجاز القرآن» و «الملل والنحل» وغيرها. انظر: الأعلام (٦/ ١٧٦)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨١)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠).

فيه نظر لهذا الحديث الدال على استوائهما فى ذلك، وأتى به تتميما لوصفه تعالى بالرحمة.

والرحمة: رقة فى القلب، وانعطاف وميل روحانى غايته الإنعام، فهى مستحيلة فى حقه تعالى باعتبار مبدئها.

وهى: الرقة فى القلب والانعطاف جائزة باعتبار غايتها.

وهى الإنعام؛ وحينئذ تكون مجازا مرسلاً أصليًا من إطلاق اسم السبب وإرادة المسبب، ويكون الرحمن الرحيم مجازا مرسلا تبعيًا كذلك، ويصح أن يكون فى الكلام كناية اصطلاحية وهى لفظ أطلق وأريد لازم معناه.

وما ذكرناه من اعتبار الغاية هو أحد القولين فيه للخلف، وإنما قالوا باعتبار غايتها لأن أسماء الله تعالى المشتقة من المعانى الإنفعالية إنما تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال كالتفضل والإحسان والمغفرة دون المبادى التى تكون انفعالات، فالرحمة المشتق منها الاسمان فى اللغة معناها: رقة القلب والانعطاف، والرقة والانعطاف: انفعال يتنزه عنه، واجب الوجود؛ فلا يُسَوَّغ اشتقاق الاسمين منها إلا باعتبار غايتها.

وهى: التفضل والإحسان فتكون من صفات الأفعال، فالرحمن بمنزلة الخالق والرازق.

وقيل: باعتبار مبدأ تلك الأفعال الذى هو إرادة ذلك، فتكون من قبيل صفات الذات، فالرحمن والرحيم بمنزلة المريد.

قال بعضهم: منشأ الاختلاف أن من رحم شخصا أراد به الخير ثم فعله به، فالشيخ الأشعرى أخذ المجاز الأقرب وهو الإرادة، والقاضى أبو بكر أخذ المجاز المقصود وهو الفعل.. انتهى. قال جدنا محمد بن رسول فى «أنهاره»: وعلى القولين يتعين التأويل.. انتهى.

وقد علمت أن هذين القولين هما مذهب الخلف، وأما مذهب السلف فالإيمان بذلك والتسليم، فإنه كما جاز أن يكون سمع الله وبصره صفتين

حقيقيتين، وإطلاق السميع والبصير عليه حقيقة مع عدم لزوم التجسيم لعدم استلزامها ثبوت الجارحة له تعالى، كذلك جاز أن تكون الرحمة صفة حقيقية لله تعالى، ويكون إطلاق الرحمن الرحيم عليه حقيقة ولا يستلزم ثبوت الانفعال، وإنما اختير هذان الوصفان فى الابتداء للإشارة الواضحة التامة إلى غلبة جانب الرحمة وسعتها وسبقها لطفًا بالعباد. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [1].

وفى الحديث: «إن الله كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى»[2].

وقدم الرحمن على الرحيم لما مر؛ ولأنه خاص إذ لا يقال لغير الله تعالى بخلاف الرحيم.

وهما من أذكار المضطرين لأنه بهما يسرع لهم تنفيس الكرب، وفتح أبواب الفرج.

وجملة البسملة تحتمل الخبرية مطلقا والإنشائية مطلقًا، وقد قيل بكل منهما. ووجَّه الأول بعضهم وتلقاه من بعده بالقبول، وتعقبه الخفاجى[3] فى «نسيم الرياض»، وقد أجابوا عنه.

واستظهر بعض المحققين أنها خبرية الصدر لصدق تعريف الخبر عليه؛ أعنى عدم توقف ثبوت مدلوله خارجًا على النطق، إنشائية العجز؛ أعنى الجار والمجرور لتوقف الاستعانة والمصاحبة التبركية على النطق بذلك، ويوضحه ما ذكره العلامة المحقق الصبَّان[4] فى «بسملته» ونصه: وهل هى ـ أى الجملة ـ

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٢) أخرجه البخارى (٦٨٧٢).

(٣) هو أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجى، صاحب التصانيف فى الأدب واللغة، ولد ونشأ بمصر سنة (٩٧٧ هـ) ورحل إلى بلاد الروم واتصل بالسلطان العثمانى «مراد» فولاه قضاء سلانيك، وعاد إلى مصر وتوفى بها، وله مؤلفات عديدة منها: «نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض» و «شرح درة الغواص وأوهام الخواص للحريرى» وغيرها. انظر: الأعلام (١/٢٣٨)، وخلاصة الأثر (١/٣٣١).

(٤) هو محمد بن على الصبان، أبو العرفان، عالم بالعربية والأدب، ولد وتوفى بمصر، وله مؤلفات عديدة منها: =

إنشاء أو خبر؟ لنا فى ذلك تفصيلٌ حسنٌ حاصله: الباء إن كانت للاستعانة أو المصاحبة فالجملة المقدرة ـ أعنى أؤلف مثلا ـ خبر لصدق حد الخبر عليه، وهو الكلام الذى يتحقق مدلوله خارجا بدون ذكره لتحقق التأليف مثلا بدون ذكر أؤلف، ومتعلقها ـ أعنى الجار والمجرور ـ إنشاء لصدق حد الإنشاء عليه، وهو الكلام الذى لا يتحقق مدلوله خارجا بدون ذكره لعدم تحقق الاستعانة باسمه تعالى والمصاحبة له بدون ذكر بسم الله.

فإن قلت: الجار والمجرور ليس بكلام، فكيف جعل إنشاء؟ قلت: هو فى معنى الكلام؛ لأنه فى معنى أستعين باسم الله أو أصاحب اسم الله، فبان أن مجموع أؤلف بسم الله الرحمن الرحيم على تقديرى الباء المذكورين خبراً صدراً إنشاء عجزاً. . انتهى المقصود منه.

ثم الأصح أن بسم الله الرحمن الرحيم بهذه الألفاظ العربية على هذا الترتيب من خصائص المصطفى ﷺ وأمته المحمدية، وما فى سورة النمل جاء على جهة الترجمة عما فى ذلك الكتاب، فإنه لم يكن عربيًا كما أتقنه بعض المحققين، وعند الطبرانى عن بريدة ـ رفعه ـ: «أنزل علىَّ آية لم تنزل على نبىٍّ بعد سليمان غيرى: بسم الله الرحمن الرحيم»[1].

وأما حديث: «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب». رواه الخطيب فى الجامع معضلاً فلا يرد، وعلى فرض صحته فلا ينافى الخصوصية لأنها لم تكن بالألفاظ العربية.

= «الكافية الشافية فى علمى العروض والقافية» و «إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهل بيته الكرام» و«إسعاف الراغبين» فى السيرة، توفى سنة (١٢٠٦ هـ). انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٧)، الجبرتى (٢/ ٢٢٧).

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٢٦) لأبى عبيد وابن مردويه والبيهقى فى الشعب.

[فضائل بسم الله الرحمن الرحيم]

وهى آية عظيمة فضائلها كثيرة، وفوائدها شهيرة، أفردها العلماء بالتصانيف، فلنذكر شيئًا منها إذ لا بأس به باعتبار الفن الذى نحن فيه - وهو فن الحديث - لتعود بركتها علينا إن شاء الله تعالى.

فمما ورد فى فضلها من الأخبار والآثار:

أنه لما نزلت حلف الله بعزته وجلاله أن لا يُسَمَّى على شىء إلا بارك فيه[1].

وأنه من أراد الله أن ينجيه من الزبانية التسعة عشرة فليقرأها ليجعل الله له بكل حرف منها جُنَّة - أى وقاية - من كل واحد منهم[2].

وأنه من قرأها موقنًا سَبَّحت معه الجبال، إلا أنه لا يُسمع ذلك منها[3].

وأنه من قرأها كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة[4].

ومن خُتِمَ له باسم الله مات سعيدًا أو من وُضِعَ فى قبره فقيل: بسم الله وعلى ملة رسول الله لُقّن الجواب.

وقال علىٌّ - كرم الله وجهه -: كلمة بسم الله مسهلة للوعور، مجنبة للشرور، شفاء لما فى الصدور، وأمان يوم النشور.

وقال أبو بكر الوراق - رحمه الله تعالى -: إن بسم الله الرحمن الرحيم روضةٌ من رياض الجنة، لكل حرف منها تفسير على حِدَته فى الأخبار عن النبى ﷺ قال: «ليلة أسرى بى إلى السماء عرض علىَّ جميع الجنان، فرأيت فيها أربعة أنهار: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣٠) لابن مردويه والثعلبى.

(٢) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣٠) لوكيع والثعلبى.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣١) لأبى نعيم والديلمى.

(٤) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣١) للديلمى.

من خمر، ونهر من عسل، كما قال الله تعالى فى القرآن: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [1] الآية فقلت لجبريل عليه السلام: من أين تجىء، وإلى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر، ولا أدرى من أين تجىء، فاسأل الله أن يريك. فدعوت ربى، فجاءنى ملك فسلَّم على، ثم قال: يا محمد غَمِّض عينيك، فغمضت عينى، ثم قال: افتحهما، فإذا أنا عند شجرة ورأيت قبة من زمردة بيضاء ولها باب من ذهب أحمر - وقيل: زمرد أخضر - لو أن جميع ما فى الدنيا من الجن والإنس وقفوا على تلك القبة لكانوا مثل طائر جالس على جبل أو كرة ألقيت فى البحر، فرأيت هذه الأنهار الأربعة تجرى من تحتها، فلما أردت أن أرجع قال لى الملك: لم لا تدخل القبة؟ قلت: كيف أدخل وعلى بابها قفلٌ، وكيف أفتحه؟! قال: فى يدك مفتاحه. فقلت: أين هو؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما دنوت من القفل قلت: بسم الله الرحمن الرحيم، فانفتح القفل، فدخلت القبة، فرأيت هذه الأنهار تخرج من أربعة أركان القبة، فلما أردت الخروج من القبة قال ذلك الملك: هل رأيت يا محمد؟ قلت: رأيت. قال: فانظر ثانيًا. فلما نظرت رأيت مكتوبًا على أربعة أركان القبة: بسم الله الرحمن الرحيم، ورأيت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله، ونهر اللبن يخرج من هاء الله، ونهر الخمر يخرج من ميم الرحمن، ونهر العسل يخرج من ميم الرحيم، فقلت: إن أصل هذه الأنهار الأربعة من التسمية، فقال الله: يا محمد من ذكرنى بهذه الأسماء من أمتك، وقال بقلب خالص: بسم الله الرحمن الرحيم سقيته من هذه الأنهار الأربعة»[2]. . هذا وفضائلها أكثر من أن تحصى وفى هذا القدر كفاية.

وقد علمت أن البسملة من كلام المصنف - رحمه الله - ولا ينافيه قوله: (أبتدىءُ الإملاءَ...) إلخ مع التصريح بذكر متعلق الجار لأن هذا إخبار عما

---

(١) سورة محمد: ١٥.

(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مراجع.

حصل منه أولا، وحينئذ يكون المضارع فى قوله: أبتدىء بمعنى الماضى، أى ابتدأ.

والغرض من هذا الإخبار التوصل إلى التعليل المأخوذ من قوله الآتى، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا ما ظهر فى توجيه عبارة المصنف ـ رحمه الله ـ وتعليل بعضهم بأن غرضه إدراج الابتداء بالتسمية فى سلك التسبيح ليكون ذلك أعون له على ما قصده من هذا الصنيع البديع لا يخفى ما فيه.

والإملاء مصدر أملى إذا ألقى الكلام على من يكتبه، ويقال: أملل فمصدره الإملال، وقد جاء القرآن بهما، قال تعالى: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [2] فيحتمل أن يكون باقيا على مصدريته وأن يكون بمعنى الكلام المملى، وفيه إشارة إلى سهولته وعدم تكلفه فى ذلك.

(باسم الذَّات) الإضافة على معنى اللام أى باسم للذات خاص بها وهو لفظ الجلالة كما تقدم **(العَلِيَّة)** التاء فيه للمبالغة، وقد منع أبو على الفارسى[3] دخولها فى صفات الله تعالى تنزيها له تعالى لأنها من خصائص المؤنث، ولقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا﴾ [4] وهو قول حسن، لكن الذى يظهر جوازه كما يقال لمن كثر علمه: علاَّمة، ولمن تبحر فى علم النسب: نسَّابة، واستعملها بعض المتبحرين فى بعض خطبه، وتبعه المصنف، ثم العلو هنا معنوى لا مكانى لاستحالته عليه تعالى.

والذَّات: أصلها مؤنث ذو المقتضية لموصوف، والملازمة للإضافة كرجل ذى مال ثم استعملوها استعمال الأسماء المستقلة فقالوا: ذات قديمة، ونسبوا

---

(١) سورة الفرقان: ٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٣) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الفارسى الأصل، أبو على، أحد الأئمة فى علم العربية، ولد فى «فسا» من بلاد فارس سنة (٢٨٨ هـ) وتجول فى كثير من البلدان ثم عاد إلى بلاد فارس وتوفى بها سنة (٣٧٧ هـ)، وله مؤلفات عديدة. انظر: الأعلام (٣/١٧٩)، وفيات الأعيان (١/١٣١).

(٤) سورة النساء: ١١٧.

للفظها فقالوا: ذاتى، وقد تستعمل بمعنى نفس الشىء وحقيقته كما هنا، ففى كلامه ـ كما قال بعضهم ـ إشارة إلى جواز إطلاق الذات عليه تعالى، وهو الصحيح لقوله ﷺ: «تفكروا فى كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله تعالى»[1].

ومنع العلامة ابن حجر فى «شرح الأربعين» جواز إطلاق النفس عليه تعالى، قال: لأنها تشعر بالتنفيس والحدوث فامتنع إطلاقه عليه ـ سبحانه وتعالى ـ إلا فى حيز المقابلة إذ هى قرينة ظاهرة على أن المراد بها فى حقه سبحانه وتعالى غير حقيقتها وما يتبادر منها.

وأيضا ففى إطلاقها عليه تعالى إيهام شمول قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [2] لذلك تعالى الله عنه علوًا كبيرًا. قال: ولقد بالغ بعض العلماء فجعل ﴿وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [3] راجعًا لعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأصل: ولا أعلم ما فيها ثم أوقع الظاهر موضع المضمر فصار معناه: ولا أعلم ما فى مخلوقتك. قال: وهو وإن كان فيه تكلف إلا أنه مؤيد لما ذكرته، فتأمل ذلك فإنه مهم وإن لم أر من عرج عليه.. انتهى ببعض حذف.

لكن صرح اللقانى[4] ـ رحمه الله تعالى ـ بجواز إطلاقها عليه تعالى بدون مقابلة لأن النفس تطلق بمعنى الذات، ويدل له قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [5] فالحق جواز إطلاقها عليه تعالى من غير مشاكلة.

(مُسْتَدِرًا) حال من فاعل أبتدئ اسم فاعل استدر إذا طلب الدر، والدَّر بالفتح اللبن، ومنه لله درّه. قال فى «المختار»: يقال لله دره أى علمه، ولله

---

(1) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٢٧٢٦) لأبى الشيخ فى العظمة، وابن مردويه، وابن نصر السجزى فى الإبانة، والبيهقى فى الأسماء والصفات، وانظر كشف الخفا (١/ ٣٧١).

(2) سورة الأنبياء: ٣٥.

(3) سورة المائدة: ١١٦.

(4) هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقانى، برهان الدين، فاضل متصوف، مصرى مالكى، ولد بمصر بقرية لقانه إحدى قرى البحير، وتوفى بقرب العقبة سنة (١٠٤١ هـ)، وله مؤلفات عديدة منها: «جوهرة التوحيد» وهو منظومة فى العقائد، وغيرها. انظر: الأعلام (١/ ٢٨)، سلك الدرر (٢/ ٨١).

(5) سورة الأنعام: ٥٤.

درّه من رجل ويقال فى الذم: لا درّه أى لا كثر خيره.. انتهى.

قال العلامة الحفنى[1] فى «حاشية المنح» واستعمال الدرّ فى الخير ونفيه فى الشر مجاز وإلا فحقيقة الدرّ اللبن وإنما استعمل ما ذكر فى المدح تعظيمًا، ومعنى لله درّه أن اللبن الذى نبت اللحم بسببه وربى به لا ينتسب لغير الله لخروج كمال الممدوح به عن العادة فلم يضف لغيره سبحانه وتعالى.. انتهى. وأصله مصدر درًّ، إذا نزل، فالمعنى: طالبًا منه سبحانه وتعالى أن يدر أى يصب.

(**فَيْضَ البَرَكَاتِ**) الفائضة الكثيرة الزائدة فى الكثرة من فاض الماء إذا كثر حتى سال، فإضافته للبركات من إضافة الصفة للموصوف. والبركات جمع بركة، وهى لغة: النمو والزيادة، وعرفًا: ثبوت الخير الإلهى فى الأشياء، والظاهر صحة إرادة كل منهما (**على ما**) يحتمل أن تكون ما موصولة أى الذى (**أناله**) أى أعطاه لنا من النعم التى لا يمكن عدّها وحصرها (**و**) على ما (**أولاه**) كذلك فهو من عطف الرديف، وأخرّه عما قبله مراعاة للسجع، ويحتمل أن تكون (**ما**) نكرة موصوفة فيكون ما بعدها صفة لها، ثم أردف الابتداء باسم الله بالثناء عليه بما هو أهله من أنواع الحمد عملاً برواية: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله وبالحمد لله...» الحديث[2]. فقال:

(**وأُثَنِّى**) بضم الهمزة وفتح المثلثة وتشديد النون أى آتى ثانيا بصيغة الاستقلال إظهارًا لتعظيم الله سبحانه وتعالى بتأهيله للعلم تحدثًا بنعمة الله تعالى عملاً بقوله عز وجل: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [3] وهذا لا ينافى الخضوع والتواضع للمولى.

---

(١) هو محمد بن سالم بن أحمد الحفنى، ولد بمصر وتعلم فى الأزهر وعمل بالتدريس فيه، وله مؤلفات عديدة منها: «حاشية على شرح العضد للسعد» و «حاشية على الجامع الصغير للسيوطى» وحاشية على شرح الهمزية لابن حجر الهيثمى المعروفة بـ «المنح المكية»، توفى سنة (١١٨١ هـ) انظر: الأعلام (٦/ ١٣٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٨٤)، البيهقى فى السنن (٣/ ٢٠٩)، مجمع الزوائد (٢/ ١٨٨).

(٣) سورة الضحى: ١١.

(بحمد) لا يقال أن البداءة المطلوبة بالحمد فاتت لتقدم البداءة بالبسملة لأنا نقول الابتداء قسمان: حقيقى وإضافى؛ فالحقيقى حصل بالبسملة، والإضافى بالحمدلة.

والحمد لغة: الثناء بالكلام على الجميل الاختيارى على جهة التبجيل والتعظيم سواء كان فى مقابلة نعمة أم لا، وإنما عبرنا بالكلام - كما عبر به بعض المحققين - ليشمل التعريف حينئذ: الحمد القديم وهو حمد الله نفسه بنفسه وحمده لأنبيائه وأوليائه وأصفيائه، والحمد الحادث وهو حمدنا لله تعالى وحمد بعضنا لبعض.

وأما تعبير بعضهم باللسان فيلزم عليه أن لا يكون التعريف شاملاً للقديم إلا أن يراد باللسان الكلام على سبيل المجاز المرسل من إطلاق السبب - وهو اللسان - وإرادة المسبب - وهو الكلام -، ولا يرد بأن التعاريف تصان عن المجاز لأن محمل ذلك ما لم يكن المجاز مشهورا كما هنا.

واصطلاحًا: فعلٌ ينبىء عن تعظيم المُنعِم من حيث كونه مُنعِمًا على الحامد أو غيره، سواء كان ذلك قولا باللسان أو اعتقادا بالجنان أو عملاً بالأركان التى هى الأعضاء.

وأتى بصيغة التنكير للتكثير والتعظيم، إذ المراد به الثناء بجميع صفاته، قال بعضهم: والمراد الإيجاد، وفيه نظر لأنه لا مانع من كونه للإخبار أيضًا؛ لأن الإخبار بالحمد حمد كما هو معلوم.

وَعَدَلَ عن الحمد لله بالصيغة المعروفة الشائعة للحمد، وإن كان الثناء بها من حيث تفضيلها أوقع فى النفس من الثناء به؛ لأنه ثناء بجميع الصفات برعاية الأبلغية، فالثناء به أبلغ من الثناء بها فى الجملة.

(مَوَارِدُهُ) جمع مورد وهو المحل الذى يؤخذ منه الماء من نحو بحر **(سائغةٌ)** اسم فاعل ساغ الشراب إذا سهل ابتلاعه **(هنيَّة)** أى محمودة العاقبة وأصلها - وإن كان مختار قول «القاموس» عدمه - هنيئة بالهمز قلبت الهمزة ياء ثم

أدغمت فيها الأولى فصارت هنيًّة بالتشديد لأجل التسجيع، ففى قول بعضهم: خففها لأجل التسجيع بدليل مقابلتها بسائغة نُظِرَ، إلا أن يكون مراده: خففها بتسهيلها ياء ثم أدغمت الياء فيها.

وفى كلامه استعارة تصريحية حيث شبه الصيغ الدالة على الحمد بموارد للمشابهة فى مطلق الإيصال.

ومع هذا فيصح أن تكون قرينة لاستعارة البحر فى النفس للحمد لشبهه له فى عموم النفع على مختار صاحب «الكشاف» على سبيل الاستعارة المكنية.

وكل من قوله: «سائغة هنية» سهلة التناول لفصاحتها واختصارها، مع اشتمالها على جميع أنواع المحامد، وكونها موفية بجميع أنواع النعم، فالمراد بذلك الصيغة الواردة عن الشارع نحو : «لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». و: «الحمد لله حمدا موافيًا لنعمه مكافئًا لمزيده».

ولا ريب فى أنها لذيذة محمودة العاقبة. قال بعضهم: وربما كان ذلك دليلاً على أن يضبط قوله: وأُثْنى بضم الهمزة وسكون المثلثة على معنى أن أحمده بأحسن المحامد وأفضلها، فلو حلف ليثنين على الله أحسن الثناء فطريق البر أن يقول: لا أحصى ثناء... إلخ؛ لأن أحسن الثناء ثناء الله على نفسه، وكذا لو حلف ليحمدن الله بمجامع الحمد أو بأجل التحاميد فطريقه أن يقول: الحمد لله حمداً... إلخ. والحاصل أن العبد لا يطيق الثناء على الله كما ينبغى ولو فى مقابلة نعمة واحدة فكيف يحصى نعمته وإحسانه والثناء بها عليها وإن اجتهد فى ذلك فالكل معترف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، فنوكل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شىء علمًا جملة وتفصيلاً.

وكما أنه لا نهاية للثناء عليه لأن الثناء تابع للمثنى عليه، فكل ثناء أثنى به عليه وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدر الله أعظم، وسلطانه أعز، وصفاته أكبر وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ.

(مُمْتطيًا) بضم الميم الأولى وسكون الثانية اسم فاعل امتطى إذا ركب المطية، وهي الدابة تمط أى تمد فى سيرها، حال من فاعل أثنى.

(مِنَ الشُّكْرِ) هو الحمد عرفًا لكن بإبدال الحامد بالشاكر، وعرفًا: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع وغيره إلى ما خلق لأجله و (من) يجوز أن تكون بيانية وتبعيضية، والأصح هو الوجه الثانى؛ إذ لا غاية للنعم حتى يتوقف بالشكر عليها. قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[1] لأن العقول قاصرة عن تعديد ما فى أقل الأشياء من المنافع والحكم، فكيف يمكن الإحاطة بكل ما فى العالم من المنافع والحكم؟!.

فإن قيل: فإذا كانت النعم غير متناهية وما لا يتناهى لا يحصل العلم به فكيف أمر بتذكرها فى قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[2]؟ فالجواب: أنها وإن كانت غير متناهية بحسب الأشخاص والأنواع إلا أنها متناهية بحسب الأجناس وذلك يكفى فى التذكير الذى يفيد العلم بوجود الصانع الحكيم، وقد جعل سبحانه وتعالى العجز عن شكره شكرًا، كما جعل الاعتراف بالعجز عن معرفته معرفة، ولذلك قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك.

(الجميلِ) أى الحسن صفة كاشفة أو مخصصة لأنه قد يصحبه فى بعض الأحيان ما يحبط ثوابه كالرياء ونحوه، فالمراد ما كان بإخلاص وحضور قلب.

(مَطَايَاه) جمع مطية فعيلة بمعنى مفعولة أى ممطية بمعنى مركوبة وهو هنا مستعار لصيغ الشكر لشبهها لها فى مطلق الإيصال على سبيل الاستعارة التصريحية، ومع هذا فيصح أن تكون قرينة لاستعارة بالكناية، فيكون قد شبه الشكر بجهة شاقة صعبة بعيدة لا يمكن الوصول إليها إلا بالمطايا، وطوى ذكر

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٢) سورة البقرة: ٤٧.

المشبه به ـ وهو الجهة المذكورة ـ ورمز له بشىء من لوازمه ـ وهو المطايا ـ على سبيل التخييل، فهو القرينة كما تقدم، وإنما كان الشكر لا يمكن الوصول إليه إلا بمشقة لما مر ولأنه يؤذن بازدياد النعم على الشاكر. قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [1] فينبغى زيادة الاعتناء بشأنه، وبالجملة فمقام الشكر لا يمكن من كل أحد القيام به كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2].

(وأُصلِّى) من الصلاة، وهى من الله الرحمة المقرونة بالتعظيم، ومما سواه ـ تعالى ـ من الملائكة وغيرهم الدعاء، وهو أحسن مما اشتهر من أنه بالنسبة للملائكة الاستغفار، وبالنسبة لغيرهم الدعاء؛ لأن الاستغفار من جملة الدعاء. والتحقيق أن الصلاة معناها العطف، فإن أضيف إلى الله كان بمعنى الرحمة، وإن أضيف إلى غيره كان بمعنى الدعاء كما ذهب إليه ابن هشام فى «مغنيه» ونقله عنه شيخنا الباجورى فى «حواشيه على السمرقندية»، وإنما كان هذا هو التحقيق لأن الأصل عدم تعدد الوضع.

وخص الأنبياء بلفظها فلا تستعمل فى غيرهم إلا تبعًا؛ تمييزًا لمراتبهم الرفيعة، وألحق بهم الملائكة لمشاركتهم لهم فى العصمة وإن كان الأنبياء أفضل من جميعهم، ومن عداهم من الصلحاء أفضل من غير خواصهم.

(وأُسلِّم) من السلام وهو التسليم من الآفات المنافية لغاية الكمالات، وجمع بينهما لنقلهم عن العلماء كراهة إفراد أحدهما عن الآخر ـ أى لفظا لا خطًا ـ خلافا لمن عمم، وللآية[3] ولحديث: «إن جبريل قال: ألا أبشرك إن الله تعالى قال: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلَّمتُ عليه». وجملة الصلاة والسلام خبرية لفظًا إنشائية معنى لقصده بها الإنشاء فلا تفيد الإنشاء إلا بالقصد؛ لأن الجملة المضارعية موضوعة للإخبار فتتوقف إفادتها الإنشاء على القصد، وبهذا تعلم ما فى قول البرماوى تبعا للقليوبى من أن

---

(١) سورة إبراهيم: ٧.
(٢) سورة سبأ: ١٣.
(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ (سورة الأحزاب: ٥٦).

الجملة المضارعية تفيد الإنشاء من غير قصد، ولا يصح أن تكون خبرية لفظا ومعنى؛ لأن الإخبار بالصلاة ليس بصلاة وإن تكلَّف بعضهم صحة ذلك، بخلاف جملة الحمدلة لما مر، والمراد أتضرع إلى الله وأطلب منه الصلاة والسلام.

(على النُّور) المراد به النبى ﷺ مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[1] وأصله من نار ينور إذا نفر، ومنه نوار للظبية، وبه سميت المرآة، فوضع لانتشاره أو لإزالته الظلام، فكأنه ينفر منه، ثم أطلق على الله وعلى النبى ﷺ وعلى القرآن.

وإنما أحلنا ذلك إلى الله؛ لأنه ﷺ طاهرٌ لا عيب فيه، ونحن فينا المعائب والنقائص، فكيف يُثْنى من فيه معائبٌ ونقائصٌ على طاهرٍ كامل، ولأن المصلى والمسلم فى الحقيقة هو الله تعالى ونسبتهما للعبد مجازى بمعنى السؤال، ولأننا لم ندرك مراد الله تعالى فأحلنا ذلك إليه لأنه أعلم بما يليق به وأعرف بما أراده له ﷺ.

(الموصوف بالتَّقَدُّم والأوليَّة) أى بالنسبة إلى سائر المخلوقات ولا يردّ عليه بما فى رواية السدّى[2]: أن الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء، وبما فى رواية عبادة بن الصامت: أول ما خلق الله القلم[3]، لما عليه المحققون أن نوره ﷺ خلق قبل الأشياء، ولحديث جابر بن عبد الله قال: قلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أخبرنى عن أى شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال ﷺ: «يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره» الحديث[4].

وقد جُمع بين هذا الحديث وما قبله بأن أول خلقه القلم بالنسبة إلى ما عدا

---

(١) سورة المائدة: ١٥.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدى، تابعى، حجازى الأصل، توفى سنة (١٢٨ هـ)، انظر: الأعلام (١/ ٣١٧).

(٣) مستدرك الحاكم (٢/ ٤٥٤)، ميزان الاعتدال (٨٢٩٨)، حلية الأولياء (٧/ ٣١٨).

(٤) انظر: كشف الخفا للعجلونى (١/ ١٣٠) وقال المحدث الغمارى فى «المغير على الجامع الصغير»: هذا الحديث موضوع.

النور النبوى المحمدى والماء والعرش، فالأولية فيه حقيقية وفى غيره نسبية[1].

واختلفوا فى الإضافة فى قوله: «من نوره» والذى صفا لنا من كلامهم أنها يحتمل أن تكون حقيقية على معنى اللام نظير ما قاله البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [2]؛ فالمراد خلقه من نور مخلوق له تعالى قبل خلق نور المصطفى، فخلقه منه لا من نور قائم بذاته تعالى، وأضافه إليه لتوليه خلقه وإيجاده، وفيه نظر؛ لأنه يقتضى عدم أولية خلق نور نبينا ﷺ مع أنه متفق على أولية خلقه، كذا قال بعضهم، ويجاب عن ذلك: بأن النور المخلوق له هو نور المصطفى ﷺ لا غيره.

ومعنى خلقه منه تكوينه إلى حالة أخرى غير الحالة الأولى كما يقال: اتخذت الخبز من الدقيق والماء، ونحو ذلك؛ فإن ذلك لا يقتضى أن الخبز غير الدقيق والماء وإنما التغاير فى الأحوال والصفات، أو تكون الإضافة بيانية أى من نور هو ذاته تعالى، وقد عهد إطلاق النور عليه تعالى فى القرآن كما مر لا بمعنى أنها مادة خلق منها، وفيه نظر لأن الإضافة البيانية لا تأتى فى الإضافة للضمير كما نص عليه اللقانى، وعلى تقدير صحة كون الإضافة بيانية فلتكن «من» فى قوله: «من نوره» بمعنى الباء، فالمراد خلقه بذاته بمعنى تعلق الإرادة به قبل كل شىء من غير واسطة شىء فى وجوده، وبهذا التوجيه علم أن مآل كون الإضافة حقيقية أو بيانية واحد، وهذا هو الصواب عندى لأن ذات الله تبارك وتعالى منزهة عن أن تكون نورا؛ لأنه عرض، وقد تعالى عن الجوهر والعرض لسلامته من هذه التكلفات، ولا تستشكل الأولية بأن النور عرض لا يقوم بنفسه لأن هذا من خرق العوائد بالنسبة لنا.

أقول: ولا يبعد أن يجاب بمثل هذا عن القول بأن النور المحمدى جوهر لا عرض، والجوهر لابد له من حيز سابق فى الوجود على المتحيز، والله سبحانه

---

(١) قال السيوطى فى «قوت المغتذى على سنن الترمذى»: وأما حديث أولية النور المحمدى فلم يثبت.

(٢) سورة السجدة: ٩.

وتعالى على كل شىء قدير، ثم ليس المراد بالنور الذى هو الحقيقة المحمدية مقابل الظلمة كما توهم، بل المراد أنها شىء يسمى نوراً ولا يعلم كنهه إلا الله تعالى، فتلك الحقيقة من مواقف العقول. ثم قوله ﷺ: «كنت نوراً بين يدى ربى قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»[1] لا ينافى ما مر أن نوره مخلوق قبل الأشياء، وأن الله قدر مقادير الخلق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، لأن نوره مخلوق قبل الأشياء، وجعل يدور بالقدرة حيث شاء الله، ثم كتب فى اللوح المحفوظ، ثم جسَّم صورته على شكل أخص من ذلك النور، ولأن فى التعبير ببين اليدين مرتبة أظهرت له لم تكن قبله.

ويروى أنه لما خلق الله آدم ألهمه أن قال: يا رب لم كنيتنى أبا محمد؟ قال الله تعالى: يا آدم ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى نور محمد فى سرادق العرش، فقال: يا رب ما هذا النور؟ فقال: هذا نور نبى من ذريتك اسمه فى السماء أحمد وفى الأرض محمود، لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضًا»[2].

ويشهد لهذا ما رواه الحاكم فى صحيحه أن آدم ـ عليه السلام ـ رأى اسم محمد مكتوب على العرش، وأن الله تعالى قال: «لولا محمد ما خلقتك»[3] ولله در صالح بن الحسين الشاعر:

وكان لدى الفردوس فى زمن الصبا
وأثواب شمل الأنس محكمة السُّدَى

يشاهد فى عدن ضياء مشعشعا
يزيد على الأنوار فى الضوء والهُدى

فقال : إلهى ما الضياء الذى أرى
جنود السماء تعشوا إليه ترددا

(١) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (١/ ٩٠) لابن القطان فى كتاب الأحكام، وسكت عنه !.
(٢) عزاه القسطلانى فى «المواهب اللدنية» لابن طغربك فى «المولد الشريف» ولم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.
(٣) انظر: اللآلئ المصنوعة (١/ ٢٩٧)، مجمع الزوائد (٩/ ٤١).

فقال : نبيٌ خير من وطأ الثَّرى
وأفضل من فى الخير راح أو اغتدا
تخيَّرته من قبل خلقك سيدا
وألبسته قبل النبيين سؤددا
وأعددته يوم القيامةِ شافعا
مُطَاعًا إذا ما الغير حَادَ فحيَّدا
فيشفعُ فى إنقاذ كل موحد
ويُدْخِله جناتِ عدنٍ مُخَلَّدا
وإن له أسماء سميَّته بها
ولكننى أحببتُ منها مُحَمَّدا
فقال إلهى امنن علىَّ بتوبة
تكونُ على غسلِ الخطيئةِ مُسعدا
بحرمة هذا الاسم والزلفة التى
خَصَصْتَ بها دون الخليقةِ أحمدا
أقلنى عِثارى يا إلهى فإن لى
عدواً لعينًا جارَ فى القصدِ واعتدا
فتاب عليه ربّه وحماه من
جنايةِ ما أخطأه لا مُتَعَمَّدا

وقوله: ضياء مشعشا. . . إلخ لا ينافى ما تقدم من أنه ليس المراد بالنور ما قابل الظلمة وإنما هو عبارة عن حقيقة لا يعلمها إلا هو عز وجل؛ لاحتمال أن تكون تلك الحقيقة لها نور يقابل الظلمة.

وصح خبر: متى كنت نبيًا؟ قال: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»(1)،

---

(1) مستدرك الحاكم (٢/٦٠٩) وصححه ووافقه الذهبى، وأحمد فى مسنده (٥/٥٩)، طبقات ابن سعد (١/٩٥)، البخارى فى التاريخ الكبير (٧/٣٨٤)، الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠/٣٥٣)، مجمع الزوائد (٨/٣٢٣).

ولفظ: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» لم يوجد مرويا، وكذلك حديث: «كنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين»(1) لا أصل له.

قال الخفاجى فى «شرح الشفاء»: ليس معناه أنه موضوع كما توهم فإنه رواية بالمعنى وهى جائزة لأنه بمعنى الحديث الذى قبله، وليس المراد من ذلك التقدير بل الإشارة إلى كون روحه العلية ثبت لها ذلك الوصف دون غيرها فى عالم الأرواح، وكل ما له من جهة الله تعالى ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيه، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ، وقد علم من هذا: أن فسره بعلم الله بأنه سيصير نبيّا لم يصل إلى هذا المعنى؛ لأن علم الله تعالى محيط بجميع الأنبياء، ووصف النبى ﷺ فى ذلك الوقت ينبغى أن يفهم منه أمر ثابت له فى ذلك الوقت خاص به، ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير فى المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبى وآدم بين الروح والجسد، لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم فى ذلك الوقت وقبله، فلابد من خصوصية للنبى، ولأجلها أخبر بهذا الخبر ليعرفوا قدره عند الله.

وروى أنه تعالى لما خلق نور نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره أن ينظر إلى نور الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به، وقالوا: يا ربنا من غشينا نوره؟ فقال: هذا نور محمد بن عبد الله، إن آمنتم به جعلتكم أنبياء. قالوا: آمنا به وبنبوته، فقال: أشهد عليكم؟ قالوا: نعم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(2) وفى هذه الآية كما قال التقى السبكى من التنويه بقدره العلى ما لا يخفى(3)، وفيها مع ذلك أنه على تقدير مجيئه يكون مرسلاً إليهم وإلى أممهم، فتكون رسالته عامة لجميع الخلق، فهو نبى الأنبياء

---

(1) انظر: تذكرة الموضوعات للفتنى (٨٦)، الأسرار المرفوعة (٢٧١)، تنزيه الشريعة (٣٤١/٢)، كشف الخفاء (١٩١/٢)، الدر المنتثرة (١٢٦).

(2) سورة آل عمران: ٨١.

(3) يشير المؤلف إلى كتاب: «التعظيم والمنة فى: ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾» للإمام السبكى.

عليهم الصلاة والسلام، ولذا يكونون كلهم يوم القيامة تحت لوائه ﷺ.

(المُنْتَقِلُ) بضم الميم وتقديم النون على التاء وكسر القاف اسم فاعل انتقل، من أب سابق إلى لاحق، من آدم عليه السلام إلى عبد الله، وضبطها بعضهم بتقديم التاء على النون وكسر القاف المشددة من تنقل بمعنى كثر انتقاله، وهو أولى لاستفادة الكثرة منها صراحة، ولله در الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي حيث قال:

تنقَّلَ أحمد نورا مبينا تلألأ فى جباه الساجدينْ

تقلَّب فيهم قرنًا فقرنا إلى أن جاءَ خير المرسلينْ

(فى الغُرَرِ) بضم الغين المعجمة جمع غُرة وهى بياض فوق الدرهم فى جبهة الفرس والمراد بها هنا الجباه لعلاقة الحالية (الكريمة) التى كرمت وشرفت على غيرها لكونها غرر أصوله ﷺ (والجِبَاهْ) عطفها على الغرر تفسيرى لما مر، جمع جبهة وهى أعلا الوجه، ثم انتقال النور فى الجباه إنما هو بالتبعية لانتقال مادة جسمه الشريف ﷺ فى الأصلاب، فالنور تابع لتلك المادة، وأصل ذلك ما جاء فى الخبر: إن الله تعالى لما خلق آدم جعل ذلك النور فى ظهره، فكان يلمع فى جبينه فيغلب على سائر نوره، ثم رفعه على سرير مملكته، وحمله على أكتاف ملائكته، فطافوا به فى السموات والأرض ليرى عجائب ملكوته، ثم لما أهبط آدم وحوّاء إلى الأرض ولدت له أربعين ولدًا فى عشرين بطنًا، فى كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج ذكر هذا البطن لأنثى تلك البطن، وبالعكس، تنزيلاً لاختلاف البطون منزلة اختلاف القبائل، فكان اختلاف البطون فى شرعه بمنزلة اختلاف الأنساب لضرورة التوالد والتناسل، وبارك الله فى نسله فى حياته حتى بلغوا أربعين ألفًا، ووضعت شيثًا وحده إشارة إلى أنه أفضل أولاده وأن النور المحمدى انتقل فيه دون غيره، ولذا جعله وصيًا عليه، ثم أوصى شيث ولده يانَش بتحتية ونون مفتوحة بما أوصاه به آدم أن لا يضع هذا النور إلا فى المُطَهَّرات من النساء، ولم تزل هذه

الوصية محفوظة معمولا بها من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى عبد الله بن عبد المُطَّلب، ولله در العارف سيدى على الوفائى الشاذلى[1] حيث أشار إلى بعض هذه المعارف بقوله:

لو أبصرَ الشيطانُ طلعةَ نُوره ... فى وجه آدمَ كان أوَّلَ مَنْ سَجَدْ
أو لَوْ رأى النُّمروذُ نورَ جماله ... عَبَدَ الجليلَ مع الخليلِ وما عَنَدْ
لَكِنْ جمالُ الله جلَّ فلا يُرى ... إلاَّ بتخصيصٍ من الله الصَّمَدْ[2]

وروى أن الله تعالى جعل نور محمد ﷺ فى ظهر آدم عليه الصلاة والسلام، فكانت الملائكة تقف خلفه صفوفًا ينظرون تلألأ نوره، فقال آدم: يا رب اجعل هذا النور فى مقدّمى كى تستقبلنى الملائكة، فجعله فى وجهه، فقال آدم: يا رب اجعله فى موضع أراه، فجعله فى سبابته، فكان ينظر إلى حسنه فيزداد حسنًا وبهاءً، ثم إن آدم قال: يا رب لعله بقى من هذا النور شىء فى ظهرى، فقال له: نعم نور خواص أصحابه. فقال: يا رب اجعله فى بقية أصابعى، فجعل نور أبى بكر فى الوسطى، ونور عمر فى البنصر، ونور عثمان فى الخنصر، ونور على فى الإبهام، فكانت هذه الأنوار تتلألأ فى أصابع آدم ـ عليه السلام ـ ما دام فى الجنة، فلما هبط إلى الأرض ومارس أعمال الدنيا زالت هذه الأنوار من أصابعه ورجعت إلى ظهره.

(وأستَمْنحُ الله تعالى) أى أطلب من الله تعالى أن يمنح؛ أى يعطى إذ المَنْحُ العطاء **(رُِضوانًا)** بكسر الراء وضمها ضد السخط، والمراد هنا لازمه وهو الإنعام، وقد يراد به الثواب والجنة **(يَخُصُّ العتْرَةَ)** فيه زيادة الاعتناء بتمييزهم عن غيرهم برضوان كثير عظيم وهم أهل بيته؛ لقوله ﷺ: «عترتى أهل بيتى»[3] وهم على الأصح مؤمنو بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف

---

(١) هو على بن محمد بن محمد بن وفا، أبو الحسن القرشى الأنصارى الشاذلى (٧٥٩ ـ ٨٠٧ هـ) متصوف، شاعر، توفى بالقاهرة. انظر: الأعلام (٥/٧)، الضوء اللامع (٧/٢١ رقم الترجمة ٤٦).

(٢) المجموعة النبهانية (٢/٥٥).

(٣) مسند أحمد (٥/١٨٢)، السنة لابن أبى عاصم (٢/٦٤٤)، الترمذى (٣٧١٨).

(الطَّاهِرَة) ذاتًا وصفاتًا (النَّبوِيَّة) أى المنسوبة للنبى ﷺ، والطهارة النظافة والخلوص من الأدناس والمعائب، وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [1] ولله در من قال:

وآله أمناء الله مَنْ شَهِدَتْ   لقدرهم سورةُ الأحزابِ فى العِظَمِ

يشير إلى هذه الآية الكريمة المنوهة بقدرهم العلى، وقد اشتملت على غرر من مآثرهم والاعتناء بشأنهم حيث ابتدأت بإنما المفيدة لحصر إرادته تعالى إذهاب الرجس عنهم، وهو الإثم والشك فيما يجب الإيمان به، وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة، وقد جاء فى أحاديث كثيرة تحريمهم على النار كحديث: «إن فاطمة أحصنت فرجها فحرَّمها الله وذريتها على النار»[2] وحديث أنه ﷺ قال: «يا فاطمة، لم سميت فاطمة؟» قال على: لم سميت فاطمة يا رسول الله ﷺ؟ قال: «إن الله فطمها وذريتها من النار»[3]. وحديث: «إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك»[4]. وورد أيضا: «يا عباس إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك»[5]. وصح: «يا بنى عبد المطلب - وفى رواية: يا بنى هاشم - إنى قد سألت الله عز وجل أن يجعلكم رحماء نجباء، وسألته أن يهدى ضالكم، ويؤمن خائفكم، ويشبع جائعكم»[6]. وحديث قال لعلى: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا من أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا»[7].

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) مستدرك الحاكم (٣/١٥٢)، الأحاديث الصحيحة للألبانى (٢/٤٤١)، مجمع الزوائد (٩/٢٠٢) كنز العمال (٣٤٢٢٠)، تاريخ دمشق (٤/٣٢٣)، المطالب العالية لابن حجر (٣٩٨٧).

(٣) جمع الجوامع للسيوطى (٧٧٨٠)، اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (١/٢٠٨)، الموضوعات لابن الجوزى (١/٤٢١).

(٤) المعجم الكبير للطبرانى (١١/٢٦٣)، مجمع الزوائد (٩/٢٢)، جمع الجوامع (٤٨٨٣)، كنز العمال (٣٤٢٣٦)، اللآلئ المصنوعة (١/٢٠٨)، الأحاديث الضعيفة للألبانى (٤٥٧).

(٥) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(٦) مجمع البحرين (٣٧٩٨).

(٧) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

وهذا هو فائدة ذلك التطهير وغايته إذ منه إلهام الإنابة إلى الله تعالى وإدامة الأعمال الصالحة، ولذا اختصوا بمشاركته ﷺ فى تحريم صدقة الفرض والزكاة والنذر والكفارة وغيرها، وخالف بعض المتأخرين فبحث أن النذر كالنفل، وليس كما قال.

وحكمة ختم الآية بـ ﴿تَطْهِيرًا﴾: للمبالغة فى وصولهم لأعلاه ورفع التجوّز عنه، ثم تنوينه تنوين التعظيم والتكثير والإعجاب المفيد أنه تطهير بديع ليس من جنس ما يتعارف ويؤلف، ثم أكد ﷺ ذلك كله بتكرير طلب ما فى الآية لهم بقوله: «اللهم هؤلاء أهل بيتى...»[1] الحديث، وبإدخاله نفسه معهم فى العد لتعود عليهم بركة اندراجهم فى سلكه.

وقال بعد ذلك: «ألا من آذى قرابتى فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى»[2] وفى رواية: «والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد بى حتى يحبنى، ولا يحبنى حتى يحب ذوى» فأقامهم مقام نفسه.

وصح حديث: «إن لكل بنى أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم، وهم عترتى، خلقوا من طينتى، ويل للمكذبين بفضلهم، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[3]. وحديث: «والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا كبَّه الله فى النار»[4].

وإذا تقرر ذلك فنقول: قال الشيخ الإمام العارف بالله الولى الكبير الشيخ أحمد زروق المغربى البرنسى فى «قواعده» ما نصه: قاعدة أحكام الصفات الربانية لا تتبدل، وآثارها لا تنتقل، فمن ثم قال الحاتمى قدَّس سرَّه: نعتقد فى أهل البيت أن الله تعالى تجاوز عنهم جميع سيئاتهم لا بعمل عملوه ولا

---

(١) الترمذى (٣٩٩٢)، أحمد (٤/ ١٠٧)، البيهقى (٢/ ١٥٢)، المستدرك (٢/ ٤١٦)، الطبرانى فى الكبير (٣/ ٤٧)، التاريخ الكبير للبخارى (٢/ ٧٠)، الدر المنثور (٥/ ١٩٨)، موارد الظمآن للهيثمى (١١٤٥).

(٢) كنز العمال (٣٤١٩٧).

(٣) أخرجه البخارى (٣٤٩٩)، مسلم (١١٠).

(٤) البخارى (٦٠٦٦)، مسلم (٢١٤)، مستدرك الحاكم (٣/ ١٥٠).

بصالح قدموه، بل بسابق عناية الله تعالى لهم، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (١) فعلق الحكم بالإرادة التى لا تتبدل أحكامها، فلا يحل لمسلم أن يتنقص ولا أن يشنأ عرض من شهد الله بتطهيرهم وذهاب الرِّجس عنهم، والعقوق لا يخرج من النسب ما لم تذهب أصل النسبة، وهو الإيمان وما تعين عليهم من الحقوق، فأيدينا فيها نائبة عن الشريعة، وما نحن فى ذلك إلا كالعبد يؤدّب أولاد سيده بإذنه، فيقوم بأمر السيد ولا يهمل فضل الولد، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٢) قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: «إلا أن تودوا قرابتى» وما نزل بنا من قِبَلهم من الظلم نتزله منزلة القضاء الذى لا سبب له إذ قال عليه الصلاة والسلام: «فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها»(٣) وللجزء من الحُرمة ما للكل. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (٤) فأثنى بصلاح الأب، فما بالك بنبوته، فبان أن لهم من الفضل ما لا يقدر قدره غير من خصصهم به فافهم. ذكر هذا العلامة الشيخ محمد بن عنقاء الحسينى المكّى ـ رحمه الله تعالى ـ عن الشيخ أحمد زروق، عن الشيخ محيى الدين قدّس سرّه.

قال ابن عنقاء: وهو كلام نفيس نفيس، ثم ذكر عن أجلاَّء مشايخه ومشايخهم أنهم كانوا يسلكون هذا المسلك الحسن، ويرون هذا الرأى الصائب المستحسن، ثم قال ـ رحمه الله ـ عقب ذلك: إذا علمت ذلك فإيضاح وجه الاستدلال: أن إرادة الله تعالى أزلية لأنها من صفات الذات، وكانت شهادته سبحانه وتعالى لهم بالتطهير وإذهاب الرجس فى الأزل مع أنا نراهم لا

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٣) البخارى: فضائل الصحابة (٣٧١٤)، البيهقى (٧/ ٦٤)، مستدرك الحاكم (٣/ ١٥٨)، مشكاة المصابيح (٦١٣٠)، كنز العمال (٣٤٢٢٢ ـ ٣٤٢٢٣).

(٤) سورة الكهف: ٨٢.

يخلون من الذنوب الملوثة البتة، كيف لا والعصمة إنما هى للأنبياء، ونعلم من كثير منهم الانهماك فى الكبائر فضلاً عن الصغائر ولا سيما من كان من أرباب الدولة منهم، ونرى منهم الغلاة والمبتدعة، وقد علم سبحانه وتعالى ذلك منهم فى الأزل ومع ذلك فقد شهد لهم بما ذكر، إذ المؤاخذة بالمعصية منافية للشهادة المذكورة، ويؤخذ مما تقرر: امتناع وقوع الردة المتصلة بالموت منهم البتة؛ لأنه لو مات أحد منهم عليه لزم التناقض فى كلامه تعالى، وهو محال، فقول الشيخ ابن عربى قدَّس سرَّه: «ما لم تذهب أصل النسبة» وهو الإيمان إنما أتى به لمجرد تتميم المسئلة فلا يخالف ما ذكرناه.

فإن قلت: يلزم على ما تقرر أن لا تقام عليهم الحدود الشرعية لأنهم غير مؤاخذين بذنوبهم وهو مخالف لقوله ﷺ: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ»[1] الحديث رواه الشيخان وغيرهما، قلت: لا يلزم ذلك؛ لأن المراد عدم المؤاخذة بالنسبة إلى الآخرة لا إلى أحكام الدنيا، فتقام عليهم الحدود ولا تقال عثراتهم فيها، وذلك لا يحط من قدرهم وسموّ فخرهم.

قال خاتمة المحققين الشيخ أحمد بن حجر الهيثمى ـ رحمه الله تعالى ـ فى فتوى له: من عُلمت نسبته إلى البيت النبوى، والسر العلوى، لا يُخرجه عن ذلك عظم جناية، ولا عدم ديانة وصيانة، ومن ثم قال بعض المحققين: ما مثال الشريف الزانى والسكران والسارق مثلاً إذا أقمنا عليه الحدّ؛ إلا كأمير أو سلطان تلطخت رجلاه بقذر فغسله عنهما بعض خدمه، ولقد بَرَّ فى المثال وحقق، وليتأمل قول الناس فى أمثالهم: الولد العاق لا يحرم الميراث.. انتهى.

ونقل السيد العلامة ابن عنقاء ـ رحمه الله تعالى ـ عن جمع سماهم من

---

(١) أخرجه البخارى (٤/٢١٣)، الترمذى (١٤٣٠)، النسائى: كتاب قطع السارق باب (٦)، البيهقى فى السنن (٨/٣٣٢)، والدارمى (٢٢٠٠)، البغوى فى شرح السنة (١٠/٣٢٨).

أكابر الأئمة الحنفية وغيرهم: أنه مما ينبغى اعتقاده أن من الممنوع فى حق أهل البيت النبوى أن يموت أحد منهم مُصِراً على معصية من بدعة أو غيرها، بل لابد أن يمنَّ الله عليهم بتوبة صحيحة، ولا يقبضهم إلا بعدها، ثم قال: والظاهر أن مأخذهم هو الآية والأحاديث المذكورة. قال: وهذه منقبة تحار فى أدنى أدنى منها الأفكار وتبذل نفائس الأعلاق، وفضيلة تميزوا بها على سائر الخلق على الإطلاق تدل على أن لهم من الفخر والقدر الجليل ما لا يقدر قدره سوى من منحهم ذلك من خزائن فضله الجزيل، وتشهد بالجاه العريض الطويل عند الملك الجليل، لمُشَرِّفهم هذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. . انتهى كلام العلامة ابن عنقاء ملخصًا من «المنهج الأعدل».

(و) أطلب منه رضوانًا (يَعُمُّ أصحابه) بفتح أوله وقد يكسر، أى أصحابه ﷺ إذ هو كالعلم لهم لغلبة استعماله فيهم فلا يستعمل فى غيرهم، ولهذا جاز النسبة إليه بأن يقال صاحبى كما يقال بصرى، وهو من اجتمع به بعد بعثته ولو ساعة فى حياته مؤمنًا به ومات على ذلك ولو لم يرو عنه شيئًا أو لم يره، فيدخل فى ذلك الأعمى والصغير ولو غير مميز كمن حنَّكه ﷺ أو وضع يده على رأسه أو غير ذلك، ويخرج من آمن به ولم يجتمع كالنجاشى فلا يكون صحابيًا بل هو تابعى لأنه أسلم على يد الصحابة فى حياته ﷺ، وسيأتى أنه أسلم على يده عمرو بن العاص الصحابى، وهى لطيفة: صحابى أسلم على يد تابعى، ولا يعلم مثله.

وهم أفضل من آل لا صحبة لهم والنظر لما فيهم من البضعة الكريمة إنما يقتضى الشرف من حيث الذات وكلامنا فى وصف يقتضى أكثرية العلوم والمعارف، ولابدّ وأن يكون الاجتماع فى عالم الدنيا بالجسد والروح، فيدخل فى ذلك عيسى ـ عليه السلام ـ فإنه اجتمع به بالروح والجسد فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء، ويخرج غيره من الأنبياء فإنهم لم يجتمعوا عليه إلا

بأرواحهم على الراجح.

قال الحافظ فى «الفتح»: وهل تختص بجميع بنى آدم أو تعم غيرهم من العقلاء؟ محل نظر؛ أما الجن: فالراجح دخولهم لأنه ﷺ بعث إليهم قطعًا، وأما الملائكة: فيتوقف عدّهم فيهم على ثبوت بعثته إليهم فإن فيه خلافًا بين الأصوليين حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته، وعكس بعضهم.. انتهى ملخصًا.

لكن قال العلامة ابن حجر: إنه مرسل إلى الملائكة أيضًا، كما رجحه جمع محققون كالسبكى ومن تبعه، وردوا على من خالف ذلك. وصريح آية: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [1] إذ العالم ما سوى الله. وخبر مسلم: «وأرسلت إلى الخلق كافة»[2] يؤيد ذلك، بل قال البارزى[3]: إنه أرسل حتى للجمادات بعد جعلها مدركة.. انتهى[4].

فالحق أنه مرسل لجميع المخلوقات حتى الجمادات؛ إلا أن إرساله للجن والإنس إرسال تكليف، ويكفر منكره، ولغيرهم كالمعصوم وغير المكلف إرسال إذعان لشرفه ودخوله تحت دعوته واتباعه تشريفًا على سائر المرسلين، وهذا هو المعتمد.

وأفضل الصحابة بعد عيسى: سيدنا أبو بكر، كما أن أفضل الصحابيات سيدتنا فاطمة الزهراء، بل هى وأخوها إبراهيم أفضل من سائر الصحابة حتى الخلفاء الأربعة، قاله العلقمى.

(و) يَعُمُّ (الأَتْبَاع) أى التابعين الذين اجتمعوا بالصحابة وطال اجتماعهم على الأصح بخلاف الصحابى كما مر، والفرق أن اجتماع لحظة منه ﷺ تُعَد

---

(١) سورة الفرقان: ١.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٤١٢)، البيهقى فى السنن (٢/ ٤٣٣).

(٣) هو هبة الله بن عبد الرحيم البارزى، توفى سنة (٧٣٨ هـ)، ولعل المؤلف ينقل عن كتابه «توثيق عُرى الإيمان فى تفضيل حبيب الرحمن».

(٤) انظر فتوى الإمام شهاب الدين الرملى فى جواهر البحار (٤/ ١٣٠) لمعرفة آراء العلماء فى تلك المسألة.

على من حصلت له من انشراح الصدور وحقائق القرب وغرائب العلم والحكمة - كما هو مشاهد فى الصحابة - ما لا يُعَد عُشُرَ معاشرها صحبة غيره وإن جلَّ قدره واتسع علمه سنين؛ لعظم منصب النبوة ونورها، كذا قرره بعضهم.

والذى قرره شيخنا الباجورى[1] فى «حاشية الجوهرة» عدم اشتراط طول الاجتماع كما فى الصحابى مع النبى ﷺ قال: وهذا ما صححه ابن الصلاح والنووى، وهو المعتمد، والطريقة المشهورة أنه يشترط التمييز فى التابعى دون الصحابى، والمعتمد عندنا عدم اشتراطه فى التابعى كما لا يشترط فى الصحابى.

وأفضل التابعين أويس القرنى، كما أن أفضل التابعيات: حفصة بنت سيرين على خلاف فى المسئلة.

(و) يَعُمُّ (مَنْ وَالاَه) أى اتخذ النبى ﷺ وليًا وإمامًا، وبايعه ولو فى مجرد الإيمان، وهذا يشمل جميع المؤمنين (وأستجديه) أى اطلب جدواه أى عطيته وأسأله أن تكون (هداية) أى دلالة، وفى بعض النسخ: (استهديه) هداية (لسُلُوك) بضم السين المهملة مصدر سلك إذا مرَّ (السُبُل) بضم الموحدة وإسكانها وبهما قرىء فى السبع قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2] بضم الباء وإسكانها جمع سبيل، وهو الطريق (الواضحة) الظاهرة (الجَلِيَّه) التى لا خفاء فيها بالكلية، والمراد بالسبل فيما تقدم أحكام الدين التى يكون العمل بها سببًا فى الوصول إلى الجنة، ففى الكلام استعارة مصرحة حيث شبه ما ذكر بالطرق الحسية الموصلة للمقصود واستعار اللفظ الدال على المشبه به للشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة حالية، وكل من الواضحة والجليلة ترشيح.

(١) هو إبراهيم بن محمد الباجورى له «حاشية على البردة» و «تحفة البشر على مولد ابن حجر» وغيرها. توفى سنة (١٢٧٦ هـ).

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩. والقراءة بالسكون هى قراءة أبو عمرو.

(و) أن تكون (حفظًا) أى صيانة (من الغَواية) بكسر المعجمة وفتحها وهو أفصح أى الضلالة (فى خِطَط) بكسر الخاء المعجمة وطائين مهملتين الأولى منهما مفتوحة جمع خطة وبكسرها أيضًا وهى المكان المختلط للعمارة، والمراد بها طرق الضلال (الخَطَأ) بفتح الخاء المعجمة العدول عن طريق الصواب والوقوع فى الإثم والذنب. قال فى «النهاية»: ويقال لمن أراد شيئا ففعل غيره خطأ (وخُطَاه) بضم الخاء المعجمة، جمع خُطوة بالضم أيضًا، وهى بعد ما بين القدمين فى المشى، وأما الخَطوة بالفتح فهى نقل القدم وتجمع على خَطَوات مثل شَهْوة وشَهَوات، وعلى خِطاء بالكسر والمد؛ كركوة وركاء كما فى «الصحاح» وغيره، والضمير للخطأ، ففى كلامه استعارة بالكناية حيث شبه الخطأ بمفازة مهلكة لها طرق مختلفة، وطوى ذكر المشبه به وهو المفازة، ورمز إليه بشىء من لوازمه على سبيل التخييل وهو لفظ الخطط، ولفظ الخطاء ترشيح، والقرينة التخييل (وأَنْشُرُ) بضم الشين المعجمة أى أبسط وأوضح (مِنْ) تبعيضية (قِصَّة) بكسر القاف وشد الصاد المهملة أى حديث (المَولِد النبوى) بفتح الميم وكسر اللام مصدر ميمى بمعنى الولادة أى وما سبقه من الحمل ولحقه من نحو نشأته وبعض ما اتفق له فى صغره وكبره قبل مبعثه وبعده، وسيرته الزكية، وشمائله الشريفة، وأخلاقه الحسنة، وغير ذلك، وهذا كله غير داخل فى كلامه لكنه لما كان من المعلوم اشتمال لفظ المولد على ما ذكر وأنه كالترجمة لذلك، على أن نقص الترجمة غير معيب عند المصنفين وإنما المعيب عكسه وهو زيادة الترجمة على ما جعلت مبدأ له ودالة عليه إجمالاً اكتفى بذكر المولد عن غيره، فوضح أن اقتصاره على ذلك مما لا مرية فى حسنه عند المصنفين (بُرُودًا) بضم الموحدة والراء جمع بُرْد بضم فسكون أصله كساء ملفق من شقتين وفى «القاموس»: البُرْد ثوب مخطط، والمراد هنا حمل الكلام (حِسَانًا) بكسر الحاء المهملة جمع حسن أى رائقة الألفاظ والمعانى (عَبْقَرِيَّة) بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح القاف نسبة

لعَبْقَر موضع بالبادية، والعرب تزعم أنه بلد الجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب، وفى «القاموس»: عَبْقَر موضع كثير الجن، بلدة ثيابها فى غاية الحسن، وعليه فالمعنى أنشر من خبر المولد الشريف النبوى أحاديث فى النفع والرغبة، أكسية حسانًا تشبه الأكسية المنسوبة إلى تلك البلدة فى الحسن والظرافة الكاملة التى لا خلل فيها ولا قصور، ففى الكلام استعارة مصرحة حيث شبه ما يتعلق بالمولد الشريف من الأخبار بالبرود المذكورة بجامع أن كلاً تُسر به النفوس، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وذكر المولد قرينة على ذلك، وقوله: عبقرية ترشيح.

(ناظمًا) حال من فاعل أنشر، والنظم: إدخال اللآلئ فى السلك أى جامعًا على وجه الترتيب فى مؤلفى هذا البديع المعانى الرائق الألفاظ والمبانى **(من)** فرائد اللآلىء أسماء آبائه الشُّم العرانين الواقعين فى عمود **(النَّسَبِ الشَّرِيفِ عِقْدًا)** بكسر العين المهملة وسكون القاف، وهو القلادة، والمراد بها هنا: اللآلىء لأنها من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء، إذ هى التى تنظم دون العقد فهو تشبيه بليغ **(تَحَلَّى)** بحذف إحدى التائين مبنيًا للفاعل جريًا على القاعدة من أن الفعل المضارع إذا ابتدىء بتائين جاز حذف إحديهما كما قال فى «الخلاصة»:

وما بتائين ابتدى قد يقتصر ... فيه على تا كتبين العبر

من الحلية أى تزين **(المَسَامِعُ)** الأسماع **(بحِلاَه)** بضم الحاء المهملة وكسرها، وهو أفصح وقد تفتح، وعلى أنها بضم الحاء وكسرها فجمع حِلية بالكسر كما يأتى، وعلى أنها بفتحها فمن الحُلى بالضم جمع حَلى بالفتح كثدى وثدى، أو هو جمع الواحد حلية كظبية، وعلى كل فيطلق على التحلية بمعنى لبس الحلى بما يتزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة، والمراد بها إما الصفات من غير تشبيه أو بعد تشبيهها بالحلى، وقد يطلق مفتوحها على ما يحلو فى الفم والعين والقلب، ولا يناسب هنا؛ إذ الأسماع لا تتحلى بالذوق وإنما

تتزين بسماع زينة الأخبار الواردة فى مدح نسبه الشريف المشبه بعقد الجوهر الذى هو ﷺ واسطته العظمى، وفى كلامه استعارة بالكناية: حيث شبه أسماء آبائه ﷺ بلؤلؤ نفيس، وطوى ذكر المشبه به ـ وهو اللؤلؤ النفيس ـ ورمز إليه بشىء من لوازمه ـ وهو النظم ـ على سبيل التخييل، فهو قرينة المكنية، وذكر العقد ترشيح.

وفى تحلى المسامع أيضًا استعارة تصريحية تبعية حيث شبه سرور المسامع عند سماع ذلك النسب الشريف بالتحلى بالحى المحسوس بجامع انشراح النفس لكلٍّ، واستعار التحلى للسرور، واشتق منه تحلى بمعنى تسر؛ فهى استعارة تصريحية تبعية لجريانها فى الفعل بعد جريانها فى المصدر، وشاهد ذلك: حديث مسلم: «إن الله اصطفى كِنَانَة من ولد إسماعيل، واصطفى من كِنَانَة قريشًا»[1] الحديث، وحديث الترمذى: «إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم، ثم تخير القبائل فجعلنى فى خير قبيلة»[2] الحديث، وغير ذلك من الأحاديث كما يأتى إن شاء الله تعالى.

(وأستعينُ) أى أطلب العون فى إتمام ما أنا بصدده وهو هذا التأليف **(بحولِ الله)** أى قدرته **(وقوّته)** كذلك **(القوية)** العظيمة التامة التعلق بكل ممكن **(فإنه)** أى الأمر والشأن **(لا حول)** لا قدرة لأحد على فعل شىء ما **(ولا قوّة)** له كذلك **(إلا بـ)** إعانة **(الله)** العلى العظيم، وفى الحديث: «لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوّة على طاعة الله إلا بإعانة الله»[3]. وجاء فى الحديث أنها: كنز من كنوز الجنة. أى لقائلها ثواب نفيس مُدَّخر فى الجنة، فهو كالكنز فى كونه نفيسًا مدخرًا؛ لاحتوائها على التوحيد الخفى، وأنها تدفع سبعين بابًا من البلاء أدناها الهَمُّ. وجاء: «والذى نفسى بيده إنَّ لا

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل (١)، الترمذى (٣٦٠٦)، أحمد (٤/١٠٧)، دلائل النبوة (١/ ١٣٠)، جمع الجوامع (٤٦٨١)، التاريخ الكبير (١/ ٤)، ابن حبان (٦٢٠٤).

(٢) الترمذى (٣٦٠٧)، الشفا (١/ ٨٢)، مناهل الصفا (١٢٥).

(٣) مجمع الزوائد (١/ ٩٩)، كنز العمال (٣٩٤٧)، تاريخ بغداد (١٢/ ٣٦٢)، أمالى الشجرى (١/ ٣٠).

حول ولا قوّة إلا بالله شفاء من سبعين داء أدناها الهم والغم والحزن»[1] وفرق بين الهم والغم: أن الغم يعرض منه السهر، والهم يعرض منه النوم.

قيل: ومعنى كونها من كنوز الجنة أنها بساط الرضا والتسليم الذى هو جنة الدنيا، فقد قال عبد الواحد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ: الرضا باب الله الأعظم، ومستراح العابدين، وجنة الدنيا.. انتهى.

ومعنى كونها بساط الرضا والتسليم أنها كلمة استسلام وتفويض، وأن العبد لا يملك من أمره شيئًا، وليس له حيلة فى دفع شر ولا قوة فى جلب خير إلا بإرادة الله.

وفى الخبر: أن رسول الله ﷺ ليلة الإسراء مرَّ على إبراهيم ـ عليه الصلاة السلام ـ فقال إبراهيم: يا محمد، مُرْ أمتك أن يكثروا من غراس الجنة. قال: «وما غراس الجنة؟» قال: لا حول ولا قوة إلا بالله[2].

ولما أراد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أن يشرع فى المقصود فصلً كلامه بتعطيرة من الصلاة والسلام على ضريح صاحب المقام المحمود عليه الصلاة والسلام، وهكذا كلما أراد الانتقال من أسلوب إلى أسلوب لما هو عادة أهل المدينة المنورة عند عمل المولد الشريف يجتمعون أولا على قراءة القرآن العظيم، وعند الفراغ والتختيم يشرع قارىء المولد فى إملاء كيفية المولد الشريف، والحاضرون منصتون بخشوع وخضوع، فعند وصول القارىء إلى تعطيرة من تلك التعطيرات يرفعون بها أصواتهم، ويصلّون ويسلّمون على سيد أهل الأرض والسموات، فقال ـ رحمه الله تعالى الملك المتعال ـ:

[عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ]

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ) يا الله، وهو بفتح العين وكسر الطاء المهملة، دعاء بتطييب

---

(١) مجمع البحرين (٤٥٤٧).

(٢) سيأتى تخريجه فى أحاديث الإسراء والمعراج.

قبره الشريف ﷺ وإنزال الرحمة عليه أى أدم ذلك أو زده فإنه لا شك أنه عليه الصلاة والسلام لم يزل يترقى فى درجات الكمال وهكذا إلى ما لا نهاية.

(قَبْرُهُ الكريمِ) أى المكرّم بتكريم الله تعالى والمشرّف بتشريفه، وقد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة على سائر الأماكن، واختلفوا فى هل هو أفضل من العرش؟ فقال جمع من المتأخرين: إنه أفضل من العرش، وهو الذى مال إليه المحققون كالسبكى، والسمهودى[1]، وابن حجر وأمثالهم، وخالفهم بعض محققى المتأخرين وقال: إن العرش أفضل وصنف فى ذلك رسالة ساق فيها أدلة كثيرة ونذكر بعضها هنا ليتنبه له؛ فقال: وأما قول التاج السبكى نقلاً عن ابن عقيل الحنبلى[2]: إن القبر الشريف أفضل من العرش فلم يقم عليه دليل ولم يرد فى ذلك نص عن رسول الله ﷺ ولا عن الخلفاء الراشدين ولا عن أحد من فقهاء الصحابة والتابعين ولا عن أحد من الأئمة المجتهدين؛ بل هو قول محدث بعد الثمانمائة، فالحق أن عرش الرحمن أفضل من قبر النبى ﷺ، كيف لا وقد ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز فى مواضع كثيرة، ووصفه بأوصاف جليلة، فسماه عظيمًا وكريمًا ومجيدًا فقال: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[3]. وقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[4]. وقال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴾[5]. وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[6]. فى عدة

---

(١) هو على بن عبد الله بن أحمد الحسنى، نور الدين أبو الحسن (٨٤٤ ـ ٩١١هـ) مؤرخ المدينة المنورة ومفتيها، ولد بسمهود إحدى قرى صعيد مصر، واستوطن المدينة وتوفى بها، له تصانيف عديدة منها: «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» و «خلاصة الوفا» وغيرهما. انظر: الأعلام (٤/٣٧).

(٢) هو على بن عقيل بن محمد بن عقيل، أبو الوفاء، عالم العراق، وشيخ الحنابلة فى بغداد فى وقته، له تصانيف عديدة منها: «الجدل على طريقة الفقهاء» و «الفصول فى فقه الحنابلة». انظر: الأعلام (٤/٣١٣)، سير أعلام النبلاء (١٩/٤٤٣).

(٣) سورة التوبة: ١٢٩.

(٤) سورة المؤمنون: ١١٦.

(٥) سورة البروج: ١٥.

(٦) سورة الأعراف: ٥٤.

آيات؛ فأضافه سبحانه إلى نفسه وجعله محل استوائه مع تنزهه عن الاستقرار والمماسة وما يوجب الجسمية، ويكفى فى تشريفه تلك الإضافة والاختصاص، ولا يرد أن الكعبة بيت الله لأن السرير أخص من البيت، ولأن الكعبة شرفت بيمين الله، والعرش باستواء الرحمن بالمعنى الذى أراده مع التنزيه، ثم إن شرف العرش سابق منذ خلق الله العرش، وشرف القبر الشريف حدث بدفنه فيه، وشرف العرش أبدى باق ببقاء الله، وشرف القبر يزول ببعثه ﷺ منه.

وأما حديث الإعداد لدفنه فيرد عليه أن الوسيلة فى الفردوس الأعلى معدة له ﷺ، ومكثه فيها أطول من مكثه فى القبر الشريف، فيلزم أن تكون أفضل من القبر الشريف، مع أنهم لم يقولوا إن الفردوس الأعلى أفضل من العرش.

قال ابن قاسم: هل البقعة المذكورة هذه أفضل من منزلته فى الجنة أو منزلته فيها أفضل كما هو المتبادر إلى الفهم؟ قال: وقد يقال هذه أفضل ما دام فيها، فإذا صار فى الجنة صارت منزلته أفضل. وقد يقال: يحتمل أن تكون هذه منقولة من منزلته فى الجنة أو تنقل إليها فلها حكمها.. انتهى.

قال: وهو إنما يدل على مساواة القبر الشريف للمنزلة الشريفة فغايته أنه فى فضلها، فهل قال أحدٌ أن منزلته فى الجنة أفضل من العرش؟ لم نره لأحد، ولا نفضل الجنة على العرش.

قال: وأما قول ابن حجر فى «حاشية الإيضاح»: قال جمع إنها أفضل من العرش وهو ظاهر، يدل له أن مدفن الشخص هو الذى خلق منه، فقد يرد عليه أن الكلام فى مدفنه ﷺ، والطينة إنما هى التى صارت جزءاً من جسده الشريف ﷺ، ولا نزاع فيه، فهو استدلال على غير المدعى، ومن ثم قال بعضهم: الاستشكال فى مكان الطينة لا فى الطينة.

وأما حديث: أن المرء يدفن فى البقعة التى أخذ منها ترابه عندما خلق. فرواه عبد الرزاق موقوفا، والموقوف يحتج به فى الفضائل لا فى التفضيل.

وأما استدلال بعضهم بأن القبر الشريف تنزل عليه من الكمالات ما يقصر العقول عنه، فكيف لا يكون أفضل الأمكنة؟ فأقول: القبر الشريف تنزل عليه الكمالات، والعرش الكريم تنزل عنه الكمالات، وفرق بين المقامين.

فإن قلت: إن نزول ذلك من الله لا من العرش، قلت: فعلى النبى ﷺ لا على القبر الشريف.

وأما عبادة النبى ﷺ فى القبر - الذى مال إليه السبكى والسمهودى - فمعارض بعبادته فى مكانه فى الجنة؛ فإن ترقياته ﷺ فى الجنة دائمة - كما قال السمهودى نفسه - والجنة لا تفنى وهى أبدية سرمدية، فترقياته فى الجنة غير متناهية بخلاف ترقياته فى القبر الشريف لأن مكثه به متناه، فكذا ترقياته التى فيه؛ لأن ما كان فى مُتَنَاهٍ فهو مُتَنَاه، فيلزم أن يكون مكانه فى الجنة أفضل من قبره بعين هذا الدليل.

وقد قال ﷺ: «لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1] فهذا صريح فى تفضيل الجنة، ومعلوم أن العرش أفضل من الجنة، ولم يقل أحد أن الجنة أفضل من العرش، فيلزم تفضيل العرش على القبر الشريف بدرجتين.

ولنا أدلة على تفضيل العرش سنوردها هنا، فاستمع وأنصف:

الأول: أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض بمدة مديدة، لا يعلمها إلا الله، بل هو أول مخلوق بعد القلم واللوح، كما قاله إمام المحققين الشيخ محيى الدين بن عربى[2] قدَّس الله سره، وهو باق أبدى، وهو مُذْ خُلِقَ تشرَّف بشرف الاستواء عليه، كما أراد الله ورسوله من غير تكييف ولا تجسيم، والقبر الشريف إنما تشرف بدفنه ﷺ فيه سنة عشر من الهجرة.

(١) أخرجه البخارى (٤/ ٢٠، ١٤٤)، أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣)، الترمذى (١٦٥١)، أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٣٧).

(٢) هو محمد بن على بن محمد بن أحمد، أبو بكر الطائى الحاتمى الدمشقى، الصوفى، صاحب «الفتوحات المكية» وغيرها من الكتب، توفى سنة (٦٣٨ هـ).

الثانى: أن العرش لم يصعد إليه مخلوق قط، وهو من محض النور، وهو من محض الرحمة باق لا يفنى، والقبر الشريف من أجزاء الأرض التى داس عليها - قبل أن يكون بيتًا له ﷺ - الناس حتى الكفار، وعُصى الله تعالى عليها، وإنما ظهر شرفه بسكناه ﷺ فيه ودفنه فيه، وليس من محض النور ولا من محض الرحمة، وأيضًا فهو يفنى.

الثالث: أن العرش أول ما تشرَّف بشرف الانتساب إلى الله واختصاصه به تعالى، ومذهب أهل السنة: وجوب الإيمان بصفة الاستواء لله تعالى، والتسليم، من غير إثبات كيفية وجسمية وجهة، كما قال الإمام مالك - رضى الله عنه -: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، فهذا الاختصاص لا يفارق العرش، وأيضًا فشرف القبر بواسطة، وشرف العرش بغير واسطة.

الرابع: أن الأنبياء والشهداء والصالحين يوم القيامة يكونون فى ظل العرش، وأرواح الشهداء تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش، وأن موسى عند البعث يأخذ بقائمة من قوائم العرش، وأن النبى ﷺ يكون تحت العرش ساجدًا مرة، وقائمًا أخرى، وأن خُلْعَتُه التى يُكساها قبل الأنبياء - التى لا يقوم لها البشر - تُرمى على ساق العرش، فهذه غاية قربه ﷺ من العرش، وأن القبر الشريف كان يُمشى عليه ويُنام عليه قبل وفاته، وهو الآن فيه بعد وفاته، فإن كان هذا العرش - وهو عرش الفصل والقضاء - غير العرش المحيط، فذاك أجل وأعظم، إذ لم يرد ليلة المعراج أنه وقف تحته. وإن كان هو هو، فهذا غاية قربه ﷺ من العرش فى أفخر أحواله، ووقت تميز فضله على جميع أولاد آدم، وما هو إلا لعظمة العرش، ومزيد شرفه، وكمال علوه، وغاية رفعة قدره، فأين هذا من ذاك؟!.

الخامس: قال النووى رحمه الله: الجمهور على أن العرش أفضل من السموات، وأن البيت المعمور الذى فى السماء أفضل من الكعبة التى فى الأرض، وبالاتفاق أن العرش أفضل من السموات ومن البيت المعمور فهو

أفضل من الكعبة بمراتب، وقد جعل بعضهم شرف القبر من شرف الكعبة؛ لأنه منها، فيكون على هذا الوجه العرش أشرف من القبر الشريف بمراتب.

السادس: إذا كان شرف ما ضَمَّ الأعضاء الشريفة بالمجاورة والملامسة؛ فيجب أن يقال: إن كل مكان غزاه النبى ﷺ أو مشى عليه أو بات فيه أو لبسه ـ كعمامته وقميصه ـ أفضل من العرش، ولا أظن أحدًا يقول بذلك.

السابع: أن كمالاته ﷺ فى التزايد أبد الآبدين، فكل ما جاوره آخرًا كان خيرًا من الذى جاوره أولاً، ومعلوم أنه فى الجنة أكمل حالاً وأكثر ترقيًا منه فى الدنيا وفى البرزخ، وأن مدة إقامته فى الجنة أكثر منها فيهما؛ لأنها فى الجنة أبدى، فيلزم أن يكون منزلته فيها أفضل من العرش، بل يلزم كون الوسيلة ـ وهى مقامه فى الجنة ـ أفضل من قبره الشريف بعين علَّة المجاورة.

الثامن: تقدم أن الله سبحانه وتعالى ذكر العرش فى كتابه العزيز فى مواضع إظهار عظمته، ووصفه بأوصاف جليلة: أنه رب العرش العظيم، وأنه رب العرش الكريم، وأنه ذو العرش المجيد؛ على من قرأ بجر المجيد أنه نعت العرش[1]، وأنه ذو العرش يُلْقِى الروح من أمره على من يشاء من عباده.

وفى الأدعية النبوية: «يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما يريد». وورد: «أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك»، ومعلوم أنه تعالى ذو كل شىء، وخالق كل شىء، فلولا أن للعرش مزية وفضلاً على بقية الأماكن لما اختص بذلك وتلك الإضافة، ثم إنه قد ورد فى فضل العرش وعظمه أحاديث كثيرة، بخلاف القبر الشريف فإنه لم يرد فيه شىء.

وقد قال العلامة ابن حجر نفسه فيما تعقب به من قال بأفضلية مولده ﷺ على ليلة القدر ـ أى كما تقدم فى المقدمة فى أول الكتاب ـ: أن الشارع إذا نص على أفضلية شىء وجب علينا أن نقتصر عليه ولا نبتدع شيئًا من عند أنفسنا القاصرة عن إدراكه إلا بتوقيف منه ﷺ، ثم تجرؤ بعضهم على هذا

(١) هى قراءة حمزة والكسائى والمفضل عن عاصم (زاد المسير ١٩/٧٨، السبعة لابن مجاهد ٦٧٨).

الكلام ونسبته إلى سيد الأنام مما يوجب عليه الوبال وغضب الملك المتعال؛ وما ألجأه لذلك إلا التساهل والاسترواح لما غلبه من التقليد المحض والجمود على الأخذ بكل ما قيل من غير محص إذ لم نر فى ذلك حديثًا ضعيفًا فضلاً عن الأحاديث الصحيحة، وهكذا كل من مال إلى الإجماع أو إلى غير ذلك.. انتهى كلامه ملخصًا مع بعض زيادات.

(بعَرْف) بفتح العين وسكون الراء المهملتين آخره فاء، أى ريح طيبة **(شَذِىٍّ)** بفتح الشين وكسر الذال المعجمتين وتشديد الياء، صفة مشبهة بمعنى قوى الرائحة من الشذا والياء نسبية **(من صلاة)** أى رحمة عظيمة تغشاه فى كل وقت وحين **(وتسليم)** أى سلامة من كل نقص وشين، وفى بعض النسخ زيادة **(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْه)** ومعنى بارك عليه: أعطه بركة كثيرة وخيرًا زائدًا على ما هو حاصل له ﷺ؛ إذ الكامل يقبل الكمال، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه.

* * *

[نسبه الشريف ﷺ]

تمهيد:

قال الحافظ ابن حجر: قال ابن حزم وكذا ابن عبد البر: من زعم أن ما ورد من أن علم النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر على إطلاقه فليس بمنصف، بل ذلك محمول على التعمق فيه، وفى علم النسب ما هو فرض عين وما هو فرض على الكفاية وما هو مستحب؛ فمن ذلك أن يعلم أن سيدنا محمداً رسول الله هو ابن عبد الله الهاشمى، فمن زعم أنه لم يكن هاشميًا فهو كافر، وأن يعلم أن الخليفة من قريش، وأن يعرف من يلقاه بنسب فى رحم محرمة ليجتنب ما يحرم عليه منهم، وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة، وأن يعرف أمهات المؤمنين وأنَّ نكاحهن حرام، وأن يعرف الصحابة وأنَّ حبهم مطلوب، وأنَّ يعرف الأنصار ليحسن إليهم لثبوت الوصية بذلك وأنَّ حبهم إيمان وبغضهم نفاق.. اهـ ملخصًا.

وقد نحا المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ هذا القصد فى الإهتمام بشأن هذا النسب الشريف ذى القدر المنيف فقال رحمه الله تعالى: **(فأقول هو)** سيد الأولين والآخرين والملائكة المقربين والخلائق أجمعين سيدنا ومولانا وذخرنا وملاذنا أبو القاسم **(محمد)** ﷺ بحذف تنوينه لوصفه بابن الآتى، قال بعض المحققين: وهذا الإسم أفضل الأسماء عند جماعة مطلقًا، وهو اسم منقول من الصفة إذ أصله اسم مفعول من حمد المضعف عينه لقصد المبالغة؛ فكان الأصل محموداً من حمد مبنيًا للمفعول ثم ضعف فصار الفعل حمد من التضعيف والمفعول محمد كذلك، وذلك للمبالغة لتكرار الحمد له مرة بعد المرة. قال فى «الفتح»: المحمد الذى حمد مرة بعد أخرى والذى تكاملت فيه الخصال المحمودة.

وسمى بذلك: تفاؤلاً بأن يكثر حمده، وقد تحقق له ذلك فهو ﷺ أجلّ

المحمودين، وأفضل الحامدين من المخلوقين، كيف لا وقد سماه الله تعالى بهذا الاسم قبل الخلق بألفى عام كما ورد فى حديث ابن مالك من طريق أبى نعيم فى مناجاة موسى.

وروى ابن عساكر عن كعب الأحبار قال: أنزل الله على آدم عصيًا بعدد الأنبياء والمرسلين، ثم أقبل على ابنه شيث، فقال: أى بُنى أنت خليفتى من بعدى فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى، فكلما ذَكَرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإنى رأيت اسمه مكتوبًا على ساق العرش وأنا بين الروح والطين، ثم إنى طفت السموات فلم أر فيها قصراً ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوبًا عليه، ولقد رأيت اسم محمد مكتوبًا على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، فأكثر ذكره فإن الملائكة ـ من قبل ـ تذكره فى كل ساعاتها[1].

وقال ﷺ: «لما عرج بى إلى السماء ما مررت بسماء إلا وجدت ـ أى علمت ـ اسمى فيها مكتوبا: محمد رسول الله و أبو بكر من خلفى»[2].

ووجد على الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقى مصلح أمين، ذكره فى «الشفا».

وقال أبو عبد الله بن مالك: دخلت بلاد الهند فسرت إلى مدينة يقال لها: نميلة أو ثميلة فرأيت شجرة كبيرة تحمل ثمرًا كاللوز له قشر، فإذا كسرت ثمرتها خرج منها ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بالحمرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأهل الهند يتبركون بها ويستسقون بها إذا منعوا الغيث، حكاه القاضى أبو البقاء فى «منسكه».

وفى كتاب «روض الرياحين» عن بعضهم مثله وأنه قال: فحدّث بذلك أبو

(١) عزاه السيوطى فى الخصائص (١/ ١٢) لابن عساكر.

(٢) مختصر ابن عساكر (٤/ ٣٢٢)، والحديث حوله كلام. انظر: الفوائد المجموعة ص (٣٣٣).

يعقوب الصياد، فقال: ما أستعظم هذا، كنت اصطاد على نهر إيلة فاصطدت سمكة على جناحها الأيمن لا إله إلا الله، وعلى جناحها الأيسر محمد رسول الله ﷺ، فلما رأيتها قذفتها فى الماء احترامًا لها.

ثم إن فى هذا الاسم خصائص، منها: كونه على أربعة أحرف ليوافق اسمه تعالى اسم محمد فإن عدد الجلالة أربعة أحرف كمحمد، ومنها: أنه قيل إنما أكرم به الآدمى؛ أنه كان صورته على شكل كتب هذا اللفظ محمد، فالميم رأسه، والحاء جناحاه، والميم سرته، والدال رجلاه.

قيل: ولا يدخل النار ممن يستحقها ـ أعاذنا الله منها ـ إلا ممسوخ الصورة إكرامًا لصورة اللفظ كما حكاهما ابن مرزوق، والأول ابن العماد.

ومنها: أنه ﷺ قال: «قال الله تعالى عزَّ وجلَّ: وعزتى وجلالى لا أعذب أحدا سمى باسمك فى النار» أى باسمك المشهور وهو محمد أو أحمد.

ومنها قال ﷺ: «يوقف عبدان ـ أى اسم أحدهما أحمد والآخر محمد ـ بين يدى الله عز وجل، فيؤمر بهما إلى الجنة، فيقولان: ربنا بما استأهلتنا الجنة ولم نعمل عملا تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة فإنى آليت على نفسى أن لا أدخل النار من اسمه أحمد أو محمد»[1].

ومنها ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فيدخل الجنة كرامة لنبيه ﷺ»[2].

ومنها: «من ولد له مولود فسماه محمدا حبًا لى وتبركًا باسمى كان هو ومولوده فى الجنة»[3].

قال بعض الحفاظ: وهذا أصح الأحاديث الواردة فى فضل التسمية بمحمد ﷺ.

ومنها: «من أراد أن يكون حمل زوجته ذكرا فليضع يده على بطنها وليقل:

(١) مسند الفردوس للديلمى (٨٨٣٧، ٦٠٠٩).
(٢) مجمع البحرين (٣٣٧٦).
(٣) انظر الموضوعات لابن الجوزى (١/ ١٥٤)، الأسرار المرفوعة ص (٤١٥).

إن كان هذا الحمل ذكراً فقد سميته محمداً فإنه يكون ذكراً»[1].

ومنها عن عطاء قال: ما سمي مولود في بطن أمه محمداً إلا كان ذكراً.

قال ابن الجوزي في «الموضوعات»: وقد رفع هذا بعضهم[2].

وإلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة والأخبار الشهيرة الواردة في خصائص هذا الاسم الشريف وفضل التسمية به.

وقد حمى الله هذا الاسم الكريم أن يُسمى به أحد من العرب إلا حين شاع قبيل مولده ﷺ أن نبيًا يبعث اسمه محمد، فسمى جماعة أبناءهم رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته. وسيأتي إن شاء الله تعالى عدَّهم عند قول المصنف: «وسمّيه إذا وضعتيه محمداً».

* * *

(ابن) لفظ مختص بالذكر إجماعًا، حكاه الفاكهاني، (عبد الله) ومعنى عبد الله: الخاضع الذليل له تعالى، وقد جاء: «أحب أسمائكم» وفي رواية: «أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن»[3] وجاء: «أحب الأسماء ما تعبد به»[4].

وسمي ﷺ بعبد الله في القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ [5] لأن وصف العبودية أشرف الأوصاف ومن ثم ذكر في أفخر مقاماته: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [6]، ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [7]، ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ﴾ [8].

---

(١) انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٥٤)، الأسرار المرفوعة ص (٤١٥).

(٢) انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٥٤)، الأسرار المرفوعة ص (٤١٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٣٣)، النسائي (٦/ ٢١٨).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٤٥)، البيهقي في السنن (٩/ ٣٠٦)، الدارمي (٢/ ٢٩٤)، مجمع الزوائد (٨/ ٤٩).

(٥) سورة الجن: ١٩.

(٦) سورة الإسراء: ١.

(٧) سورة الفرقان: ١.

(٨) سورة النجم: ١٠.

ولم يختلف فى اسمه، وكنيته أبو قُثَم بقاف فمثلثة، وهو من أسمائه ﷺ مأخوذ من القُثم بقاف مضمومة فمثلثة، وهو الإعطاء، أو من الجمع، يقال للرجل الجموع للخير: قَثُوم وقُثَم. وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو أحمد، فإن قلنا بالمشهور من وفاته والمصطفى ﷺ حمل فلعله كُنّى بإلهام، وإن قلنا بعد ولادته فظاهر.

قال أهل السير: كان عبد الله والد النبى ﷺ أنهد فتى فى قريش وأصبحهم خلقًا وأحسنهم أخلاقًا، وكان نور النبى ﷺ فى وجهه،وكان يقال له الذبيح، فقد روى عن النبى ﷺ: «أنا ابن الذبيحين»[1] يعنى بهما عبد الله وإسماعيل، وبهذا الحديث استدل من يقول الذبيح اسماعيل لكن رُدَّ بأن الحديث لم يثبت، نعم ثبت فى حديث الحاكم فى «مستدركه» عن معاوية أن رجلاً قال له: يا ابن الذبيحين، فتبسم ﷺ ولم ينكر عليه، فقيل لمعاوية: وما الذبيحان؟ فقال: الذبيح الأول إسماعيل، وأما الثانى فعبد الله بن عبد المطلب[2].

وسبب تسميته ذبيحًا ما رواه الطبرانى بسنده المتصل إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كان عبد المطلب نذر إن أكمل له عشرة من الولد نحر أحدهم تقربًا إلى الله تعالى، فلما كملوا نام عبد المطلب عند الكعبة فرأى قائلا يقول: أوف بنذرك لرب هذا البيت، فاستيقظ فزعًا مرعوبًا، وأمر بذبح كبش وتصدق به، ثم نام فرأى أَنْ قَرِّبْ ما هو أكبر من ذلك، فقرَّبَ ثوراً، ثم نام فرأى أن قَرِّبْ ما هو أكبر من ذلك، فقرَّبَ جملاً، ثم نام فرأى أن قَرِّبْ ما هو أكبر من ذلك، فقال: وما أكبر من ذلك؟ قال أحد أولادك الذى نذرته، فاغتم غمّا شديداً، فجمع أولاده فأخبرهم، فاتفقوا على القرعة،

---

(١) الدر المنثور (٥/٢٨١)، تفسير القرطبى (١٥/١١٣)، الضعفاء للعقيلى (٣/٩٤)، كشف الخفا (١/ ٢٣٠)، الأحاديث الضعيفة للألبانى (٣٣١)، مستدرك الحاكم (٢/٥٥٩)، الشذرة (١٢)، وانظر: المواهب اللدنية (١/٥٦).

(٢) مستدرك الحاكم (٢/٥٥٩)، الشذرة (١٢) وعزاه للثعلبى وابن مردويه فى تفسيرهما، وابن جرير فى تاريخه، والخلعى فى فوائده.

فأقرع بينهم أيهم ينحر، فصارت القرعة على عبد الله، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، فقال: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع فصارت القرعة على الإبل، فنحرها، كذا ساقه الشهاب أحمد بن حجر فى «النعمة الكبرى».

وروى ابن اسحاق القصة مطولة وحاصلها: أن عبد المُطَّلب لما لقى من قريش عند حفر زمزم ما لقى نذر إن كمل له عشرة من الولد ثم بلغوا معه حتى يعينوه لينحرن أحدهم عند الكعبة غير مستور تقربًا إلى الله تعالى، فلما بلغوا ذلك ووافقوه على الوفاء بنذره وأقرع بينهم، فخرجت القرعة على عبد الله، وهو أصغرهم وأحبهم إليه، فبادر لذبحه، فمنعته قريش، ثم اتفقوا على تحكيم بعض الكهنة، فأشار أن يقرع بين عبد الله وعشرة من الإبل، فإن خرجت القرعة عليها نحرها وإلا فعشرة أخرى، وهكذا حتى تخرج على الإبل، ففعل حتى خرجت القرعة فى العاشرة على الإبل وقد كملت مائة، فكرر ذلك ثلاث مرات وهى تخرج على الإبل المائة، فذبحها وخلاً بينها وبين الناس.

تنبيه

يؤخذ مما ذكرناه وأمثاله أن عبد المُطَّلب كان مؤمنًا موحدًا معظمًا لحرم الله، وأنه اقتدى بإبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ فى الإقدام على ذبح ولده لله تعالى، وثباته على ذلك لأمره بذلك من الله تعالى كما تقدم حيث قيل له: أوف بنذرك، وفى وقوع الأمر بفداء ولده، وفى إجابة أولاده بنظير ما أجاب به إسماعيل أباه إبراهيم بقوله: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [1] حيث قالوا له: أوف بنذرك وافعل ما شئت، وفى انقياد عبد الله له فى ذلك حيث ذهب به وهو يقوده إلى المذبح فكان عبد الله الذبيح الثانى، وأنه أول من سَنَّ دية النفس مائة من الإبل، وأقر ذلك رسول الله ﷺ وصار شرعًا إلى يوم القيامة.

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

تنبيه آخر

حمزة أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة، فأولاد عبد المطلب جملتهم اثنا عشر كما قيل. وأما على أنهم لا يزيدون على عشرة فعدهم عشرة قبل وجود هذين لعله بحساب بعض أولاد أولاده معهم، وما قيل من أن عبد الله أصغر أولاد أبيه المراد أنه أصغرهم عند إرادة الذبح كما جزم به العلامة الشيخ أحمد بن حجر فى «النعمة الكبرى».

* * *

(ابن عبد المُطَّلب) قيل له عبد المُطَّلب لأن عمه المُطَّلب لما جاء به من المدينة إلى مكة صغيراً أردفه خلفه وهو بهيئة بذّة أى رثة؛ أى ثيابه خلقة، فكان يُسأل عنه فيقول: هو عبدى، حياء أن يقول ابن أخى، فلما أدخله مكة وأحسن من حاله أظهر أنه ابن أخيه، فلذلك قيل له: عبد المطلب، وبهذا القول جزم فى شرح البخارى.

وقيل: قيل له عبد المُطَّلب: لأن أباه هاشمًا قال لأخيه وهو بمكة حين أدركته الوفاة: أدرك عبدك بيثرب، فمن ثم تسمى عبد المُطَّلب، قاله فى «المواهب» وقدمه على ما تقدم.

ولا شك أن هذا القول غير القول بأنه مات بغزة فلا وجه فى إيراد من قال.

وفيه أنه حكى غير واحد أن هاشمًا خرج تاجراً إلى الشام فنزل على شخص من بنى النجار بالمدينة، وتزوّج بنته على شرط أن لا تلد ولداً إلا فى أهلها، ثم مضى لوجهه قبل أن يدخل بها، ثم انصرف راجعًا فبنى بها فى أهلها، ثم ارتحل بها إلى مكة، فلّما أثقلت بالحمل خرج بها فوضعها عند أهلها بالمدينة، ومضى إلى الشام، فمات بغزة، وولدت شيبة الحمد، فمكث بالمدينة سبع سنين، وقيل: ثمان، فمر رجلٌ على غلمان يلعبون بالسهام وإذا

غلامٌ فيهم إذا أصاب قال: أنا ابن سيد البطحاء. فقال له الرجل: ممن أنت يا غلام؟ فقال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف. فلما قدم الرجل مكة ووجد المُطَّلب جالسا فى الحِجْر قصّ عليه ما رأى، فذهب المُطَّلب إلى المدينة، فلما رآه عرف شبه أبيه، ففاضت عيناه، وضمه إليه ـ وفى لفظ: أنه عرفه بالشيبة ـ وقال لمن كان يلعب معه: أهذا ابن هاشم؟ قالوا: نعم، فعرَّفهم أنه عمه، فقالوا له: إن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم بك أمه فإنها إن علمت بك لم تدعك وحالت بينك وبينه، فدعاه المُطَّلب وقال: يا ابن أخى أنا عمك، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك، وأناخ راحلته فأجلسه على عجز الناقة، فانطلق به، ولم تعلم به أمه حتى كان الليل فقامت تدعوه، فأخبرت أن عمه قد ذهب به. وكساه حلة يمانية، ثم قدم به مكة فقالت قريش: هذا عبد المُطَّلب.

قال الحلبى[1] فى «إنسان العيون»: وهذا السياق يدل على أن عبد المُطَّلب إنما ولد بعد موت أبيه هاشم بغزة، وكون عمه المُطَّلب كساه حُلَّة لا ينافى ما سبق أنه دخل به مكة وثيابه رثة خلقة لأنه يجوز أن تكون ألبست له عند أخذه ثم نزعت عنه فى السفر.

وقيل: إنما أخذه بعلمها، فلعله استعجل لئلا تمنعه أمه بعد.

وقيل: سمى به على عادة العرب فى قولهم لليتيم المُربى فى حِجْر إنسان: عبده.

وهو أول من خضب بالسواد من العرب؛ وذلك لما ورد فى عظيم من حِمَير فقال: هل لك من تغيير هذا البياض فتعود شابًا؟ فقال: ذلك إليك، فأمره فخضّب لحيته بحناء، ثم علا بالوسمة[2]، ثم رجع إلى مكة فخرج عليهم

---

(١) هو إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسى، ثم الحلبى. حياته (٧٥٣ ـ ٨٤١ هـ) عالم بالحديث ورجاله، ولد وتوفى بحلب، من كتبه: «نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس» و «إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون» الشهير بالسيرة الحلبية. انظر: الأعلام (١/ ٦٥).

(٢) الوسمة: نبت من اليمن، يصبغ به الشعر.

بالغد كأن شعره حلك الغراب، فقالت له زوجته نُتيلة: لو دام لك هذا لكان حسنًا، فقال:

لو دام لى هـذا السـواد حمدْته وكان بديلاً من شباب قَدْ انصرمْ
تمتعـتُ منـه والحيـــاةُ قصيـرةٌ ولا بُدّ من موت نُتَيْلَة أو هَرَمْ
وماذا الذى يُجْدى عن المرء خَفْضه ونِعْمته يومًا إذا عَرْشُه انْهَدَمْ ؟!
فموت جهير عاجـلاً لا سوى له أحـب إلىّ مـن مقـالهم حكـمْ

فخضب أهل مكة بالسواد.

ونُتيلة بنت جَنَاب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر إحدى زوجاته؛ فإنه كان له خمس: صفية، ونُتيلة، وهالة، وآمنة بنت هاجر الخزاعى، وفاطمة بنت عمرو.

[وهو] أول من تحنَّثَ بحِراَء؛ كان إذا دخل شهر رمضان صعده؛ وأطعم المساكين؛ وكان يرفع مائدته للطير والوحوش فى رؤوس الجبال، فكان يقال له الفيَّاض لجوده، ومُطْعِم طير السماء.

وكان مجاب الدعوة قد حرَّم الخمر على نفسه.

(واسمه) الأصلى (شيبة الحمد) وقيل: عامر، والصحيح الأول، وهو مركب إضافى قال الشاعر:

على شيبة الحمد الذى كان وجهه يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وكنيته أبو الحارث، وقيل: أبو البطحاء.

وسبب تسميته بشيبة الحمد قيل: إنه ولد وفى رأسه شيبة، فى رواية: كانت ظاهرة فى ذوائبه، وأخرى: كان وسط رأسه أبيض. وقيل: إن أباه أوصى أمه بذلك، وجزم بالأول فى «إرشاد السارى» وسوّى بينهما الشامى[1].

ولعل وجه إضافته إلى الحمد رجاء أن يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له،

---

(١) هو الحافظ محمد بن يوسف الصالحى الشامى صاحب «سبل الهدى والرشاد» المعروفة بالسيرة الشامية فى اثنى عشر مجلدًا. توفى سنة (٩٤٢ هـ).

وقد حقق الله ذلك، فكثر حمدهم له، لأنه كان مفزع قريش فى النوائب، وملجأهم فى الأمور، وشريفهم وسيدهم كمالاً وفعالاً.

وكان يفوح منه رائحة المسك الإذفر، ونور رسول الله ﷺ يضيء فى غُرَّته، وكانت قريش إذا أصابها قحطٌ تأخذ بيده وتخرج إلى ثَبِير فيستسقون به، فَيُغيثهم الله ويسقيهم غيثًا عظيمًا ببركة نور محمد ﷺ، وفى ذلك قالت رقيقة:

بشيبة الحمـد أسقى الله بلدتنا　　　وقد فقدنا الحيا واستبطأ المطرُ

ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام، ووحد الله تعالى، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها، منها: الوفاء بالنذر ـ كما تقدم ـ، ومنع نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهى عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت وهو عُرْيان، كذا فى كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله.

ومن مآثره أيضًا قصته مع صاحب الفيل وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى.

وعاش مائة وأربعين سنة، وقيل: مائة وعشرين سنة.

* * *

(ابن هَاشِم) وإنما قيل له هاشمًا؛ لأنه كان يهشم الثريد، بمثلثة، ما اتخذ من لحم وخبز فى الجدب، قال الشاعر:

إذا ما الخبز تأدمه بلحمٍ　　　فذاك أمانة الله الثَّريد

والجَدْب: بجيم مفتوحة وذال مهملة ساكنة خلاف الخصب.

أو لأنه أول من هَشَم الثَّريد بمكة لأهل الموسم ولقومه أوّلاً فى سنة المجاعة، ففى «السبل»: لما أصاب أهل مكة جَهْد وشدة رحل إلى فلسطين، وقيل: بلغه ذلك وهو بغزة ـ من الشام ـ فاشترى منها دقيقًا كثيراً وكعكًا وقدم به مكة، فأمر به فخبز، ثم نحر جزوراً وجعلها ثريداً عمَّ به أهل مكة، ولا يزال يفعل ذلك حتى استقلوا.. انتهى.

وفى «المنتقى»: كان هاشم أفخر قومه وأعلاهم، وكانت مائدته لا ترفع لا فى السراء ولا فى الضراء، وكان يحمل ابن السبيل، ويؤدى الحقائق، وكان نور رسول الله ﷺ فى وجهه يتوقد شعاعه ويتلألأ ضياؤه، ولا يراه أحدٌ إلا قبَّل يده، ولا يَمر بشىء إلا سجد له، تغدو إليه قبائل العرب ووفود الأحبار يحملون بناتهم يعرضون عليه أن يتزوّج بها، حتى بعث إليه هرقل ملك الروم وقال: لى ابنة لم تلد النساء أجمل منها ولا أبهى وجها فأقدم إلىَّ حتى أزوجكها، فقد بلغنى جودك وكرمك؛ وإنما أراد بذلك نور المصطفى ﷺ الموصوف عندهم فى الإنجيل، فأبى هاشم. . انتهى.

(واسمه) كما قال الشافعى ومالك ـ رحمهما الله ـ: (عَمْرٌو) منقول من العَمْر بالفتح، الذى هو العُمر بالضم أو العمر الذى هو من عمور الأسنان، أو العمر الذى هو طرف الكم، يقال: سجد على عمريه أى كمَّيه، أو العمر الذى هو القِرْط كما قال:

وعمرو هند كأنَّ الله صوَّره عمرو بن هندٍ يسوم النَّاس تعنيتا

وزاد أبو حنيفة وجهًا خامسًا فقال: من العمر الذى هو اسم لمحل الشكر. ويقال فيه: عمر. . انتهى من «الروض».

وهو أول من مات من بنى عبد مناف. واختلف فى سنه فقيل: عشرون. وقيل: خمس وعشرون سنة.

وإخوته: عبد شمس، والمُطَّلب، ونوفل.

وكان يقال لهاشم وإخوتة: قداح النضار أى الذهب، ويقال لهم: المجيرون؛ لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب.

قال بعضهم: لا يعرف بنو أب تباينوا فى محال موتهم مثلهم؛ فإن هاشمًا مات بغزة ـ كما تقدم فى قول ـ وعبد شمس مات بمكة وقبره بأجياد، ونوفل مات بالعراق، والمُطَّلب مات برُعَاء أرض باليمن. . انتهى.

وروى عن بعض الصحابة قال: رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر ـ رضى الله

عنه ـ على باب بنى شيبة فمر رجلٌ وهو يقول:

يا أيها الرجل المحوّل رحله　　هـلاً نزلت بآلِ عبـد الدارِ
ثكلتك أمُّك لو نزلت برحْلِهِمْ　　منعوكَ من عَدَمٍ ومِنْ إقْتَارِ

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فقال: أهكذا قال الشاعر؟ قال: لا والذى بعثك بالحق لكنه قال:

يا أيها الرجـلُ المحوّل رَحْله　　هلاً نَزلت بآلِ عبـد منـافِ
ثكلتك أمّك لو نزلت برحْلِهِمْ　　منعوك من عَدَمٍ ومن إقْرافِ
الخالطيـن غنيَّهـم بفقيرهـم　　حتى يعود فقيرهم كالكافى

فتبسم ﷺ وقال: هكذا سمعت الرواة ينشدونها[1].

وكان هاشم بعد أبيه عبد مناف على السِّقاية: وهى حياض من أدَم، كانت توضع بفناء الكعبة وينقل إليها الماء العذب من الآبار على الإبل فى المزاود والقرب قبل حفر زمزم، وربما قُذِفَ فيها التمر والزبيب فى غالب الأحوال ليسقى الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا.

والرِّفادة: وهى إطعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا، فكان يعمل الطعام للحاج يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد.

وقد ذكر أنه إذا أهل هلال ذى الحجة قام صَبِيْحةً، وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب ويقول فى خطبته: «يا معشر قريش إنكم سادة العرب وأحسنها وجوهًا وأعظمها أحلامًا ـ أى عقولاً ـ و أوسط العرب ـ أى أشرفها ـ أنسابًا، وأقرب العرب بالعرب أرحامًا.. يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله أكرمكم الله بولايته، وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل، وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم، فأكرموا ضيفه وزواره؛ فإنهم يأتونه شُعثًا غُبرًا من كل بلد، ضوامر كالقداح فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فورب هذه البُنية لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه،

(١) إنسان العيون (١/٨).

وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله: ما لم يُقطع فيه رحم، ولم يُؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله ـ لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم ـ إلا طيبًا لم يؤخذ ظلمًا ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصبًا».

فكانوا يجتهدون فى ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه فى دار النَّدوة، وهى أول دار بنيت بمكة، وكانت قريش تجتمع للمشاورة فى أمورها فيها، ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين، وكانت الجارية إذا حاضت تدخلها وتحجب فيها، ولا ينكح رجل امرأة من قريش إلا فيها، هذه كانت سُنَّة قُصَىّ.

ولما مات قُصَىّ استمرت قريش على ما كان عليه فى حياته كالدين المتبع، فلا زالت تلك الدار إلى أن صارت إلى حكيم بن حزام فباعها فى الإسلام بمائة ألف درهم فلامه عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ وقال: أتبيع مكرمة آبائك وشرفهم؟! فقال حكيم ـ رضى الله عنه ـ: ذهبت المكارم إلا التقوى، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر، وقد بعتها بمائة ألف، وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله فأينا المغبون؟!.

وكانت جهة الحِجْر ـ عند المقام الحنفى الآن ـ وكان بها باب للمسجد.

وقيل لها دار النَّدوة لاجتماع النَّدوة وهى الجماعة فيها.

* * *

(ابن عبد مَنَاف) بميم مفتوحة ونون خفيفة بعدها ألف ثم فاء، من أناف يُنيف إنافة إذا ارتفَع، وقيل: الإنافة: الإشراف والزيادة؛ وإنما لقب بذلك: لأن أمه حُبَّى ـ بضم الحاء المهملة وموحدة مشددة ـ أخدمته صنمًا عظيمًا لهم يسمى مناة، وقيل: وهبته له لأنه أول ولد قُصَىّ، ثم نظر أبوه فرآه يوافق عبد مناة بن كِنَانَة فحوّله عبد مناف.

وما تقدم من ضبط حُبَّى هو الذى ضبطه الزرقانى وغيره، وكذلك هو فى «القاموس» غير أنه قال: اسم امرأة ولم يقل أم عبد مناف.

وهو الجد الثالث لرسول الله ﷺ والجد الرابع لعثمان ـ رضى الله عنه ـ والجد التاسع لإمامنا الشافعى رضى الله عنه.

(واسمه) كما قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه: **(المُغِيْرَةُ)** منقول من الوصف، والهاء للمبالغة، سمى به تفاؤلاً لأنه يغير على الأعداء. وساد فى حياة أبيه، وكان مطاعًا فى قريش، ويدعى القمر لجماله.

قال الواقدى: وكان فيه نور رسول الله ﷺ، وفى يده لواء نزار وقوس إسماعيل. وذكر ابن الزُّبير عن موسى بن عقبة: أنه وجد كتابًا فى حَجَر: «أنا المغيرة بن قُصَىّ آمر بتقوى الله وصلة الرحم». وإياه عنى القائل:

وكانت قُرَيشٌ بيضةً فتفلَّقتْ ... فالمُحُّ[1] خالِصُه لعبد منافِ

قال ابن هشام: ومات بغزة.

***

(ابن قُصَىّ) بضم القاف، تصغير قَصِىْ بفتح فكسر فياء ساكنة، من قصا يَقْصُو إذا بعد **(واسمه مُجَمِّعٌ)** بتشديد الميم، اسم فاعل من جمَّع مشددًا، إما لأنه جمع قومه وأدخلهم مكة بعد تفرقهم فى البلاد، وإليه يشير قول شاعرهم:

أبوكم قُصَىّ كان يُدْعى مُجَمِّعا ... به جمَعَ الله القبائلَ من فِهْر

أو لأنه كان يجمع قومه يوم العروبة فيذكرهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم أنه سَيُبْعَث فيه نبى. ولا مانع من تعدد السبب، ولا يخالف ما يأتى أن كعبًا كان يفعل ذلك ويخبرهم أنه سيبعث فيه نبى.

وقيل: اسمه زيد، حكاه أحمد بن حنبل عن إمامنا الشافعى ـ رضى الله عنهما ـ وبه جزم فى «السبل» و «التوشيح» و «العيون» و «العراقى»[2].

وقيل: يزيد بزيادة ياء أوله حكاه الحاكم عنه أيضًا لكنه لا يساوى ما حكاه

(١) المُح: هو الخالص من كل شىء، أصفر البيضة.

(٢) أى فى: «الدرة السنية فى نظم السيرة النبوية» للحافظ زين الدين عبد الرحيم بن حسين العراقى.

أحمد عنه؛ لأنه أجل تلامذته، ولذا اقتصر عليه فى «الفتح».

تنبيه

جزمهم بزيد واقتصار البعض عليه يفيد أنه الأصح، فإن قلت على هذا كان حق المؤلف أن يأتى به لأنه اسمه الأصلى وأنه الأصح فلأى شيء أتى بغيره وهو مُجَمِّع؟ قلت: إنما أتى به لما فيه من الإشارة إلى أوصافه الحميدة، وأفعاله المرضية كما مر من جمعه قريشًا بعد تفرقها، وتذكيره وأمره لهم بتعظيم الحرم، وإخباره بمبعث النبى ﷺ، كيف لا وقد سماه النبى ﷺ بذلك لذلك كما فى كلام بعضهم. والله أعلم.

وكان قُصَىّ أول بنى كعب أصاب ملكًا أطاع له به قومه، وكانت إليه الحجَابة، والسِّقاية، والرِّفادة، والنَّدوة، واللواء، والقيادة؛ أما السِّقاية والرِّفادة والنَّدوة فقد تقدم تفسيرها؛ وأما الحِجَابة: فهى فتح باب الكعبة، وأما اللواء: فهو اللواء الذى يُعقد للحرب، وأما القيادة: فهى قيادة القوم للحرب.

وحاز شرفاء مكة جميعًا، وكان رجلاً جلدًا جميلاً، وعالم قريش وأقومها بالحق.

قيل: وهو جماع قريش فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشى. ونُسِبَ هذا القول لبعض الرافضة، وهو قول باطل ظاهر الفساد لأنه يتوصل به إلى أن سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر - رضى الله عنهما - ليسا من قريش فلا حق لهما فى الإمامة العظمى التى هى الخلافة لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»[1]. ولقوله ﷺ: «أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه»[2] لأنهما لم يلتقيا مع النبى ﷺ إلا فيما بعد قُصَىّ؛ لأن أبا بكر يجتمع مع النبى ﷺ فى مُرة وبينهما خمسة آباء وبين عمر وبين كعب سبعة آباء كما

---

(١) مستدرك الحاكم (٤/٧٦)، مسند أحمد (٣/١٨٣)، البيهقى (٣/١٢١)، الطبرانى فى الكبير (١/٢٢٤)، فتح البارى (٧/٣٢)، مجمع الزوائد (٥/١٩٢) وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) فتح البارى (١٣/١١٦)، كنز العمال (٣٣٨٢٦)، مسند الشافعى (٢٧٨)، بدائع المنن للساعاتى (١٨٤٤).

سيأتى إن شاء الله تعالى.

(سُمِّى) أى لُقِّب (بقُصَىّ: لتقاصيه) أى تباعده عن عشيرته كما فى «المواهب» (فى بلاد قُضَاعَة) بضم القاف وضاد معجمة وعين مهملة، احتملته أمه فاطمة بنت سعد العذرى إليها كما قاله الزرقانى عن ابن إسحاق. قال الحلبى فى «إنسان العيون»: ولعلها جهة الشام فلا يخالف ما قيل.

قيل له قُصَىّ: لأنه بعد مع أمه إلى الشام؛ لأن أمه تزوّجت بعد موت أبيه ـ وهو فطيم ـ بشخص يقال له: ربيعة بن خزام العذرى، وقيل بالعكس، فرحل بها إلى الشام.

لكن يُعكِّر عليه ما فى «القاموس» أنها جهة اليمن. وقال الزرقانى فى «شرح المواهب»: شعب من معد أو من اليمن.. انتهى. (القَصِيَّة) بفتح القاف، أى البعيدة عن مكة (إلى أن أعاده) أرجعه (الله) سبحانه و (تعالى) وذلك أن قُصيًا كان لا يعرف له أبًا إلا زوج أمه، فلما كبر وقع بينه وبين زوج أمه شر، ونَاضَلَ[1] رجلاً منهم بنضلة وغلبه، فغضب ذلك الرجل وعيَّر قُصيًا بالغربة، وقال له: ألا تلحق بقومك وبلدك فإنك لست منا. فقال: ممن أنا؟ قيل له: سل أمك، فشكا إلى أمه فقالت: بلدك خير من بلادهم، وقومك خير من قومهم، أنت أكرم أبًا منهم، أنت ابن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤى بن غَالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضر بن كِنَانة القُرشى، وقومك بمكة عند البيت الحرام تغدو إليه العرب، وقد قالت لى كاهنة رأتك صغيراً أنك تلى أمرًا جليلاً.

فلما أراد الخروج إلى مكة صبَّرته أمه إلى أن خرج مع حُجَّاج قُضَاعَة (إلى) وطنه الأصلى ووطن أصوله من ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ فمن بعده (الحَرَمِ) أى حرم مكة وما حولها مما يحرم فيه الاصطياد وغيره.

قال بعضهم: وسمى حرمًا لتحريم الله تعالى فيه كثيراً مما ليس بمحرم فى

---

(١) نَاضَلَ: حامى ودافع.

غيره، ومسافته ستة عشر مثلاً فى مثلها.. انتهى.

قيل: وإنما صار الحرم حرمًا؛ لأن الله تعالى لما قال للسموات والارض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (1) كان المجيب له بذلك من الأرض موضع الكعبة ومن السماء ما قابله.. انتهى.

والأصل فى تحديد الحرم أن آدم - عليه السلام - خاف على نفسه من الشياطين فاستعاذ بالله تعالى، فأرسل الله تعالى ملائكة حفُّوا بمكة من كل جانب، فكان الحرم من حيث وقفت الملائكة.

ونقل العلامة المُناوى فى «شرح الجامع الصغير» عن أمالى ابن دُرَيْد عن الحبر: أن آدم أهبط ومعه الحَجَر الأسود فكان أشد بياضًا من الثلج، فوضعه على أبى قُبَيْس فكان يضىء بالليل كأنه القمر،فحيث بلغ ضوؤه كان من الحرم(2).. انتهى.

قال بعضهم: وعلامة الحرم أن سيل الحِل إذا أتى وقف دونه.

(المُحْتَرَمِ) بضم الميم وفتح الراء، أى المعظم بتعظيم الله تعالى (فَحَمَى حِمَاه) بفتح الحاء المهملة فى الأولى وكسرها فى الثانية، أى منع ممنوعاته أى حفظه مما يضره فالإضافة بيانية.

وعرفت قريش فضله وشرفه وأكرموه وقدموه عليهم فساد فيهم وهو الذى شرع لقريش السِّقاية والرِّفادة والحياض، وعمَّر دار النَّدوة. ودفن قُصَىّ بالحَجُون(3).

* * *

(ابن كِلاَبٍ) بكسر الكاف وفتح اللام مخففة، قال الحافظ لُقِّب به لمحبته كِلاب الصيد.

---

(1) سورة فصلت: ١١.

(2) إعلام الساجد للزركشى ص (٦٥).

(3) الحَجُون: بأعلى مكة، عندها مقبرة أهلها. (مراصد الاطلاع ١/ ٣٨٣).

وهو إما منقول من المصدر الذى فى معنى المكالبة نحو كَالَبْتُ العدوّ مُكَالبة وكِلابًا، وإما من كِلاب جمع كَلْب ـ الحيوان المعروف ـ كما هو عادة العرب فإنهم يسمون أبناءهم بشر الأسماء وعبيدهم بأحسنها، وسئل أعرابى عن ذلك فقال: إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا، يريد أن الأبناء عدة للأعداء وسهام فى نحورهم فاختاروا لهم هذه الأسماء نحو: كلب وكِلاب، وذئب وذئاب، بخلاف العبيد فإنهم لا يقصدون منهم قتالاً بل كان عاراً عندهم.

(واسمه) الأصلى **(حَكِيمٌ)** بفتح الحاء المهملة وكسر الكاف، ويقال: الحكيم بزيادة الألف واللام، وقيل: عُروة، وقيل: المهذَّب، وزعم من قال اسمه الحكيم، وهو غير صحيح بل الصحيح أنه اسمه حكيم كما صححه المحب ابن شهاب بن الهائم[1] وقدمه مُغْلَطاى[2] فى «الإشارة».

* * *

(ابن مُرَّةَ) بضم الميم وتشديد الراء، إما منقول من وصف الرجل بالمرارة والتاء للمبالغة أو من وصف الحنظلة والعلقمة والتاء للتأنيث، وبهذا جزم بعضهم تبعًا لما فى «السبل».

وله ثلاثة أولاد: كلاب، وتيم ـ ومن نسله الصديق وطلحة رضى الله عنهما ـ، ويقظَة وبه كنى.

وهو الجد السادس لأبى بكر رضى الله عنه، والإمام مالك يجتمع معه ﷺ فيه، كذا قاله الحلبى فى «إنسان العيون»[3] وفيه ما فيه.

* * *

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن عماد، أبو الفتح، محب الدين بن الهائم، فاضل، مصرى الأصل، مقدس الإقامة والوفاة، اشتغل بالفقه والحديث، وكان من آيات الله فى سرعة الحفظ، ومن مؤلفاته: «الغرر المضيَّة فى شرح نظم الدرر السنيَّة» وهو شرح لألفية العراقى فى السيرة النبوية، توفى سنة (٨١٥ هـ). انظر: الأعلام (٥/٣٢٩).

(٢) هو مُغْلَطاى بن قليج بن عبد الله البكجرى المصرى، أبو عبد الله، علاء الدين، مؤرخ من حفاظ الحديث، من مصنفاته: «الإشارة» فى السيرة النبوية الذى اختصر به «الزهر الباسم» و «الخصائص النبوية» وغيرها، توفى سنة (٧٦٢ هـ). انظر: الأعلام (٧/٢٧٥)، الدرر الكامنة (٤/٣٥٢)، شذرات الذهب (٦/١٩٧).

(٣) إنسان العيون (١/٢٥).

(ابن كَعْبٍ) بفتح الكاف وسكون العين المهملة، سمى بذلك لستره على قومه ولين جانبه لهم، منقول من كعب القدم أو القناة لارتفاعه وشرفه فيهم.

وكانوا يخضعون له، وهو أول من جمع الناس بمجرد الوعظ يوم العَرُوبة بفتح العين وضم الراء المهملتين وبالموحدة، وهو اسم يوم الجمعة فى الجاهلية اتفاقًا.

واختلف فى أول من سماه الجمعة، فقال المحقق ابن حجر تبعا لما جزم به الفرَّاء وثعلب وغيرهما: أول من سمى يوم العَرُوبة يوم الجمعة كعب، وهو أول من قال: أما بعد.

وقيل: أول من سماه به أهل المدينة، لصلاتهم الجمعة قبل قدومه ﷺ مع أسعد بن زُرَارة[1]، وقيل بعد الإسلام، وصححه ابن حزم. وقيل غير ذلك.

وكانت قريش تجتمع إليه فيه فيخطبهم، وكان فصيحًا خطيبًا، وكان يأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم أنه سيبعث فيه نبى، ويُعْلِمهم بأنه من ولده ـ وعلمه ذاك من الوصية المستمرة من آدم أن من كان فيه ذلك النور لا يضعه إلا فى المطهرات لأن ختام الأنبياء منه، وقد علمه ظاهراً فيه قائمًا به أو من الكتب القديمة أن من كان بصفة كذا كان محمد من ولده، ووجد تلك الصفة فيه، والأول أظهر ـ ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وأنشد فى ذلك أبياتًا منها:

على غفلةٍ يأتى النبى محمـد ... يخبرُ أخباراً صدوق خبيرها

ومنها قوله:

يا ليتنى شاهد فحـواء دعوته ... إذا قريش تبقى الحق خذلانا

ولله در القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ـ رحمه الله تعالى ـ حيث يشير إلى ذلك بقوله:

لقد قال كعبٌ فى النَّبى قصيدة ... وقلنا عسى فى مـدحـه نتشاركُ

(١) هو أسعد بن زرارة بن عدس البخارى، من الخزرج، أحد الشجعان الأشراف فى الجاهلية والإسلام، قدم مكة فى عصر النبوة فأسلم وعاد إلى المدينة، وهو أحد النقباء الاثنى عشر، كان نقيب بنى النجار، ومات قبل موقعة بدر، ودفن بالبقيع. انظر: الأعلام (١/ ٣٠٠)، الإصابة (١/ ٥٤).

فإن شملتنا بالجوائر رحمة كرحمةِ كعبٍ فهو كعبٌ مباركُ

وكان بين موته ومبعث النبى ﷺ خمسمائة وستون سنة، وهو الجد السابع لسيدنا أبى بكر، والجد الثامن لسيدنا عمر رضى الله عنهما.

* * *

(ابن لُؤَىّ) بضم اللام وفتح الهمزة ويسهل بإبدال همزته وواو، والهمزة أكثر من عدمها، تصغير اللأى: وهو الثور الوحشى، وقال الأصمعى: هو تصغير لواء الجيش زيدت فيه الهمزة.. انتهى. وقيل غير ذلك.

وكنيته أبو كعب، وكان له سبعة ذكور.

* * *

(ابن غَالِب) بغين معجمة وكسر اللام، اسم فاعل من الغَلَب بفتحات أو فتح فسكون، ولد تَيْمًا وبه يكنى وبلؤى.

* * *

(ابن فِهْر) بكسر الفاء وسكون الهاء آخره راء، منقول من الفِهْر: الحجر. وفى هل هو: الحجر الطويل، أو الطويل الأملس، أو ملأ الكف، أو الصغير أقوال.

(واسمه قُرَيْشٌ) نقل عن الزهرى أن أمه سمته به وسماه أبوه فِهرًا. وقيل: اسمه فِهْر ولقبه قريش، وهو المناسب لقولهم إنما سمى قريشًا لأنه كان يقرش أى يفتش عن خلة الناس وحاجاتهم فيسدّها بماله، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم فيسدّونها بمالهم فسموا بذلك قريشًا.

وهو إما منقول من التقريش وهو التفتيش كما مر، أو من القرش وهو دابة عظيمة من أقوى دواب البحر سميت به لقوّتها لأنها تأكُل ولا تُؤكَل، وتَعْلو ولا تُعْلا، وكذلك قريش، وإليه يشير الشرخ بن عمرو الحميرى بقوله:

وقريش هى التى تَسْكن البحر بها سُمِّيت قريش قُرَيْشَا

تأكل الغَثَّ والسَّمين ولا تَتْـ ـرك فيه لذى جناحين رِيشَا

هكذا فى البلاد حتى قريش   يأكلون البــلادَ أكلا كَميشَا

ولهم آخر الزمـــان نبيٌّ   يُكْثر القتــلَ فيهم والخمُوشَا

يملأ الأرض خيلُه ورجـاله   يَحْشرون المطيَّ حَشْرا كَشِيشا

وفى سبب تسمية قُريش قريشًا أقوال غير ذلك.

(وإليه) أى قريش **(تنسبُ البُطونُ)** جمع بطن بمعنى جماعة أى القبائل **(القُرَشيَّة)** أى المتولدة من قريش فيما قاله جماعة **(وما فوقه كنَانىٌّ)** نسبة إلى كنَانة بن مُدْرَكة **(كما جَنَحَ)** أى مال **(إليه الكثيرُ)** بل الأكثر من علماء النسب **(وارتضاه)** وصححه الدمياطى[1] والقرافى[2] وغيرهما، والحجة لهم حديث مسلم والترمذى مرفوعا: «إن الله اصطفى كِنَانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كِنَانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار»[3].

وذهب آخرون إلى أن أصل قريش النَّضْر.. وبه قال الشافعى، وعزاه القرافى للأكثرين فقال:

أمَّا قُريشٌ فالأصح فِهْر   جماعها والأكثرون النَّضْر

قال النووى: وهو الصحيح المشهور، وصححه الحافظ الصلاح العلائى وعزاه للمحققين، واحتجوا بحديث الأشعث بن قيس: «قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كِنْدة فقلت: ألستم منا يا رسول الله؟ قال: «لا نحن بنو النَّضْر ابن كِنَانة»[4] رواه ابن ماجه وابن عبد البر وأبو نعيم فى «الرياضة» وزاد: قال

---

(١) هو عبد المؤمن بن خلف، شرف الدين، حافظ للحديث، من أكابر الشافعية، ولد بدمياط، وتنقل فى البلاد، وتوفى بالقاهرة سنة (٧٠٥ هـ)، ومن مصنفاته: «المختصر فى سيرة سيد البشر». انظر: الأعلام (٤/١٦٩)، فوات الوفيات (٢/٤٠٩)، شذرات الذهبية (٦/١٢).

(٢) هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس شهاب الدين الصنهاجى العراقى، من علماء المالكية، توفى بمصر سنة (٦٨٤ هـ). انظر: الأعلام (١/٩٥)، الديباج المذهب (٦٢)، شجرة النور (١٨٨).

(٣) الترمذى (٣٦٠٧)، الشفا (١/٨٢)، مناهل الصفا (١٢٥).

(٤) ابن ماجه (٢٦١٢)، مسند أحمد (٥/٢١١)، الطبرانى فى الكبير (٢/٧٢١)، تاريخ بغداد (٧/١٢٨)، دلائل النبوة للبيهقى (١/١٧٣)، طبقات ابن سعد (١/١، ٣، ٤).

أشعث: والله لا أسمع أحداً نفى قريشًا من النَّضْر بن كِنَانة إلا جلدته.

قال الزرقانى فى «شرح المواهب»: والاحتجاج بهذا ظاهر لا خفاء فيه.

وأما احتجاج الأولين بحديث مسلم والترمذى المار: «إن الله اصطفى كِنَانة. . .» الحديث، فليس فيه دليل على أن فِهْراً هو القريش، فلعلهم كما قال المحقق ابن حجر اعتمدوا على تسميته فِهْراً وتلقيبه بقريش، ولا حجة لهم فى ذلك بل كثيراً ما يسمى الإنسان باسم أحد من آبائه، فعليه هو دليل الثانى.

قال الحافظ فى «سيرته»: وعندى أنه لا خلاف فى ذلك لأن فِهْرًا جماع قريش، ثم أن أباه مالكًا ما أعقب غيره، فقريش ينتهى نسبها كلها إلى مالك ابن النَّضْر، وكذلك النَّضْر ليس له عقب إلا من مالك، فاتفق القولان بحمد الله. ولا يخفى ما فى هذا الجمع من التكلف.

وقيل: إن قريشًا هو إلياس، وقيل: مُضَر، وحكى الماوردى وغيره أنه قُصَىّ، ونسب هذا القول لبعض الرافضة، وتقدم بما فيه، قبَّحهم الله وقبَّح اعتقادهم الخبيث.

* * *

(ابن مَالك) اسم فاعل ملك، قال الخميس: سمى مالك لأنه ملك العرب. ويَكَنى أبا الحارث.

* * *

(ابن النَّضْر) بفتح النون وإسكان الضاد المعجمة فراء، لقب به لنضارته وحسنه وجماله، منقول من النَّضْر اسم للذهب الأحمر، واسمه قيس، وهو جماع قريش عند الفقهاء فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشى فقد سئل ﷺ عن قريش فقال: «من ولد النَّضْر؛ أى وعلى أن جماع قريش: فِهْر، فمالكٌ وأولاده، والنَّضْر جده، وأولاده ليسوا من قريش، وتقدم احتجاج الفريقين وتوفيق الحافظ بينهما بما فيه.

وله من الذكور: مالك، والصَّلْت، ويَخْلُد؛ بفتح التحتية وسكون المعجمة وضم اللام فدال مهملة، وبه يكنى أبوه، ولم يعقب إلا من مالك كما تقدم.

تنبيه

وقع لبعضهم أن كِنَانة تزوّج زوجة أبيه برة بنت أدّ بن طابخة بعد موت أبيه خُزَيمة على ما كانت الجاهلية تفعله إذا مات الرجل خلف على زوجته أكبر أولاده من غيرها فولدت له النَّضْر، وتبعه السهيلى[1] وقال: ولذلك قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [2] أى من تحليل ذلك قبل الإسلام، قال: وفائدة الاستثناء هنا لئلا يُعاب نسب النبى ﷺ وليُعلم أنه لم يكن فى أجداده سفاح، ألا ترى أنه لم يقل فى شىء نهى عنه فى القرآن: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلا فى هذه الآية وفى الجمع بين الأختين وأن الجمع بينهما كان فى شرع من قبلنا، وقد جمع يعقوب بين أختين وهما راجيل ـ بجيم كما فى «السبل» أو حاء مهملة كما فى «القاموس» ـ وليّا، فقوله: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ التفات إلى هذا المعنى.

وتعقبه الحافظ القطب عبد الكريم الحلبى[3] ثم المصرى فى «شرح السيرة لعبد الغنى» بما حاصله أن هذا غلط نشأ من اشتباه، وذلك أن أبا عثمان الجاحظ قال: إن كِنَانة خلف على زوجة أبيه بعد وفاته وهى: برة بنت أدّ بن طابخة، فماتت ولم تلد لا ذكراً ولا أنثى فنكح بنت أخيها وهى: برة بنت مر ابن أدّ بن طابخة فولدت له النَّضْر. قال: وإنما غلط كثير لما سمعوا أن كِنَانة خلف على زوجة أبيه لاتفاق اسمهما. قال: وهذا الذى عليه مشايخنا من

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمى السهيلى، أبو القاسم، حافظ لغوى عالم بالتفسير، توفى بمراكش (٥٨١ هـ). لنظر: الأعلام ٣/٣١٣، وفيات الأعيان (١/ ٢٨٠)، شذرات الذهب (٤/ ٢٧١).

(٢) سورة النساء: ٢٢.

(٣) هو عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبى، ثم المصرى، الحنبلى، محدث، حافظ مؤرخ، حكيم، ولد بحلب سنة (٦٦٤ هـ)، وتوفى بمصر سنة (٧٣٥ هـ)، ومن مؤلفاته: «شرح السيرة النبوية لعبد الغنى المقدسى» والمسمى «المورد العذب الهنى فى الكلام على سيرة عبد الغنى». انظر: معجم المؤلفين (٥/ ٣١٨).

أهل العلم بالنسب، ومعاذ الله أن يكون أصاب نسبه ﷺ نكاح مقت، وقد قال: «ما زلت أخرج من نكاح الإسلام» ومن قال غير هذا فقد أخطأ وشك فى هذا الخبر، والحمد لله الذى طهره من كل وصم تطهيراً.

وتلقاه العلماء بالقبول، قال الزرقانى فى «شرح المواهب»: وكذا ما قيل إن هاشمًا خلف على واقدة زوجة أبيه، وبفرض صحته فليست جدة للنبى ﷺ؛ فإن أم عبد المُطَّلب أنصارية ولذا كان الأنصار أخوال المصطفى ﷺ.

(ابن كِنَانَةَ) بكسر الكاف ونونين مفتوحتين بينهما ألف ثم هاء، منقول من الكِنَانَة التى هى الجَعْبة بفتح الجيم وسكون العين المهملة؛ سمى بذلك تفاؤلاً بأنه يصير كالكِنَانَة الساترة للسهام، فكان ستراً على قومه. وقيل: إنما سمى كِنَانَة لأنه لم يزل فى كِن من قومه. قال فى «المختار»: الكِن السترة. والجمع أكْنَان، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ (1).

وكان شيخًا حسنًا عظيم القدر تحج إليه العرب لعلمه وفضله، وكان يقول: «قد آن خروج نبى من مكة يدعى أحمد، يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفًا وعزًا إلى عزكم، وما جاء به فهو الحق فلا تكذبوه».

قال ابن دِحيَة(2): كان كِنَانَة يأنف أن يأكل وحده فإذا لم يجد أحداً أكل لقمة ورمى لقمة إلى صخرة نصبها بين يديه أنفة من أن يأكل وحده.

* * *

(ابن خُزَيْمَةَ) بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة التحتية، منقول من مصغر خَزْمة - بمعجمتين مفتوحتين - وهى مرة واحدة من الخَزْم

---

(1) سورة النحل: 81.

(2) هو عمر بن الحسن بن على بن محمد، أبو الخطاب، ابن دحية الكلبى، أديب، مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل سبتة بالأندلس، ولد سنة (544 هـ) ورحل إلى مراكش والشام، والعراق، وخراسان، واستقر بمصر وتوفى بالقاهرة سنة (633 هـ)، ومن تصانيفه: «الآيات البينات» و«التنوير فى مولد السراج المنير». انظر: الأعلام (5/44)، سير أعلام النبلاء (22/389)، شذرات الذهب (5/160)، وفيات الأعيان (1/381).

وهو شد الشيء وإصلاحه أو من غير ذلك.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: مات خُزَيْمة على ملة إبراهيم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

* * *

(ابن مُدْرِكَةَ) بضم الميم وسكون الدال المهملة فراء مكسورة فكاف فهاء، مبالغة، منقول من اسم فاعل من الإدراك، لقب به لإدراكه كل عز وفخر كان فى آبائه، وكان فيه نور رسول الله ﷺ، ولعل المراد ظاهرٌ فيه بيّن.

واسمه عمرو عند الجمهور، وهو الصحيح. وقال ابن اسحاق: عامر، وضُعِّف.

* * *

(ابن إلياسِ) بهمزة قطع مكسورة، وقيل: مفتوحة، وقيل: وصل، ونسب للجمهور. منقول من مصدر يئس ضد الرجاء وقطع الأمل، وذلك أن أباه كبر ولم يولد له ولد فولد له هذا الولد على الكبر واليأس فسماه إلياس.

قال فى «المواهب»: واللام فيه للتعريف. وسكت عنه الشارح، وفيه نظر لأن تعريفه بالعلمية وما كان كذلك فاللام فيه زائدة.

وكنيته أبو عمر. وقيل: كان له أخ يقال له إلناس بنون، ذكره الجوهرى وغيره.

وعظم أمره عند العرب حتى كانت تدعوه بكبير قومه وسيد عشيرته، وكانت لا تقضى أمراً دونه، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة، وقد جاء فى الحديث: «لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا» وقيل: إنه جماع قريش كما مر.

(وهو) أى إلياس (أوَّلُ) أصله وول بالواوين أدغمت الأولى فى الثانية بعد سلب حركتها ثم زيدت الهمزة فى أوله لتعذر الابتداء بالساكن فصار أول، كذا قيل. والصحيح أن أصله أوأل بواو بين همزتين بدليل جمعه على أوائل

قلبت الهمزة الثانية واوا وأدغم. وقيل: أصله ووأل بهمزة بعد واوين قلبت الهمزة واوًا، والواو الأولى همزة، وكان حقه حينئذ أن يجمع على ووائل، لكنهم استثقلوا واوين أول الكلمة فقلبوا الواو الأولى همزة فقالوا أوائل، وله استعمالات؛ فتارة يرد اسمًا بمعنى مبدأ الشيء نحو: ماله أول ولا آخر، وتارة يرد بمعنى سابق نحو: لقيته عامًا أولاً بالتنوين لأنه قد يؤنث بالتاء، ووزن أفعل لا يمنع من الصرف إلا إذا لم يلحقه التاء.

وتارة بمعنى أسبق فتليه من، ويمنع من الصرف للوصفية ووزن الفعل لتجرده من التاء كهذا أول من هذين.

وتارة يرد ظرفا كرأيت الهلال أول الناس أى قبلهم، وهذا هو الذى يُبنى على الضم لقطعه عن الإضافة.

(مَنْ أَهْدَى) أى ساق (الْبُدْنَ) تقربا إلى الله تعالى - بضم الموحدة وسكون الدال المهملة - جمع بدنة وهى البعير ذكرا كان أو أنثى والهاء فيها للوحدة لا للتأنيث. قال القرطبى: اختلف العلماء فى البُدن هل تطلق على غير الإبل من البقر أو لا؟ فقال ابن مسعود، وعطاء، والشافعى: لا. وقال مالك، وأبو حنيفة: نعم. وفائدة الخلاف فيمن نذر بدنة فقرب بقرة فهل تجزئه أو لا؟ فعلى مذهب الشافعى وعطاء لا يجزئه، وعلى مذهب مالك وأبى حنيفة يجزئه، والصحيح ما ذهب إليه الشافعى وعطاء؛ لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح فى يوم الجمعة: «من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة»[1] الحديث، فتفريقه عليه الصلاة والسلام بين البدنة والبقرة يدل على أن البقرة لا يقال لها بدنة.. والله أعلم.

قال القرطبى: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾[2] فإن هذا الوصف خاص بالإبل، والبقر تضجع وتذبح كالغنم، ثم قال: ودليلنا أن

---

(١) أخرجه الترمذى (٤٩٩)، النسائى (٣/٩٩)، الشافعى فى مسنده (٦٢)، مالك (٢٢٧).

(٢) سورة الحج: ٣٦.

البدنة مأخوذ من البدانة وهى الضخامة، والضخامة توجد فيهما جميعًا، وأيضًا أن البقرة فى التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل حتى تجزىء البقرة فى الضحايا عن سبعة كالإبل، وهذا حجة لأبى حنيفة حيث وافقه الشافعى على ذلك، وليس ذلك فى مذهبنا.. انتهى ملخصًا.

أقول: ولا يلزم من مشاركة البقرة لها فى كونها مأخوذة من البدانة كما هو دليل مالك، وفى إجزائها عن سبعة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» كما هو دليل أبى حنيفة تناول اسم البدنة لها شرعا بل الحديثان يمنعان ذلك وبالله التوفيق.

(إلى الرِّحَابِ) بكسر الراء، جمع رحْبة بسكون الحاء المهملة، ويجمع مفتوحها على رَحَبَات مثل قصبة وقصبات وهى البقعة المتسعة بين أفنية القوم.

(الحَرَمِيَّة) أى المنسوبة إلى الحرم نسبة الجزء لكله (وسُمِعَ) بالبناء للمفعول (فى صُلبه) أى ظهره أى إلياس (النبى) نائب الفاعل، وقوله (صَلَّى الله عليه وسلم) جملة دعائية خبرية لفظًا إنشائية معنى (ذكر الله تعالى ولَبَّاه) بتشديد الباء الموحدة، روى أنه كان يسمع من ظهره أحيانًا دوى تلبيته ﷺ بالحج.

* * *

(ابن مُضَر) بضم الميم وفتح الضاد المعجمة غير مصروف للعلمية، والعدل سمى به لبياضه، قال ابن دِحيَة: سمى به لأنه مَضَرَ القلوب بحسنه وجماله، وقيل غير ذلك.

وفى «السبل»: اسمه عمرو وكنيته أبو إلياس.

وكانت له فراسة وقيافة وكلمات حكيمة منها: «من يزرع شرًا يحصد ندامة» و«خير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها [فيما يصلحها] واصرفوها عن هواها فيما يُفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فُواق» ـ بضم الفاء وقد تفتح ـ ما بين الحلبتين كما فى «القاموس».

وكان أحسن الناس صوتًا، وهو أول من سنَّ الحُدَاء ـ بضم الحاء وفتح

الدال المهملتين ممدوداً ـ الغناء للإبل؛ وذلك أنه لما سقط عن بعيره وهو شاب فانكسرت يده فقال: يا يداه يا يداه، فأتت إليه الإبل من المرعى، فلما صح وركب حَدَا.

وقيل: عبد له ضربه ضربًا وجيعًا، فصار يقول: يا يداه يا يداه، فجاءت إليه الإبل من مرعاها، فوضع الحُدَاء وزاد الناس فيه. وذلك لأن الحُدَاء مما ينشط الإبل لا سيما إن كان بصوت حسن فإنها عند سماعه تمد أعناقها وتصغى إلى الحادى، وتسرع فى سيرها، وتستخف الأحمال الثقيلة فربما قطعت المسافة البعيدة فى زمن قصير، فربما أخذت ثلاثة أيام فى يوم واحد.

ولأجل ما ذُكِرَ ذَكَرَ أئمتنا أنه مستحب وفيه أحاديث كثيرة ذكرها النووى ـ رحمه الله تعالى ـ فى «الأذكار».

وكان له أخ يسمى ربيعة، وفى الحديث: «لا تسبوا ربيعة ولا مُضَر فإنهما كانا مؤمنين»[1] وفى رواية: «لا تسبوا مُضَرَ فإنه كان على ملة إبراهيم» وفى رواية: «كان قد أسلم»[2].

قيل: هو جماع قريش. ففى جماع قريش خمسة أقوال: قيل: قُصَىّ، وقيل: فِهْر، وقيل: النَّضْر، وقيل: إلياس، وقيل: مُضَر، كما علم مما تقدم.

وقبره بالرَّوحاء يُزار، والرَّوحاء على ليلتين من المدينة قاله أبو عبيد البكرى[3].

وفيه تجتمع حليمة السعدية مع النبى ﷺ كما يأتى فى قول.

* * *

(ابن نِزَار) بكسر النون فزاى فألف فراء، مأخوذ من النَّزْر وهو القليل،

---

(1) مسند الفردوس للديلمى (٧٣٠٣).

(2) عزاه السيوطى فى جامع الأحاديث لابن سعد مرسلاً (٥٤/ ٢٥).

(3) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى، مؤرخ جغرافى، ثقة، علامة بالأدب، له كتب جليلة منها: «المسالك والممالك» و «معجم ما استعجم» و «أعلام النبوة». توفى فى قرطبة سنة (٤٨٧ هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٩٨).

سمى به لأنه كان فريد عصره، وقيل: لأن أباه لما وُلِدَ نظر إلى نور محمد ﷺ بين عينيه ـ وهو نور النبوة الذى كان ينتقل فى الأصلاب ـ ففرح فرحًا شديدًا، ونحر وأطعم، وقال: إن هذا كله نَزْرٌ ـ أى قليل ـ لحق هذا المولود.

وقيل: لقب به لنحافته. واسمه خلدان.

وكان أجمل أهل زمانه وأكثرهم عقلا، ولذا قيل كان نور النبى ﷺ بين عينيه، وهو أول من كتب الكتاب العربى على الصحيح، والإمام أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ يجتمع معه ﷺ فى هذا الجد الذى هو نِزَار. وكنيته أبو إياد، وقيل: أبو ربيعة.

وقبره بذات الجيش قرب المدينة؛ قاله فى «الوفا».

* * *

(ابن مَعَدّ) بفتح الميم والمهملة وتشديد الدال المهملة، مشتق من العدّ أو من مَعَدَ فى الأرض إذا أفسد.

وكان صاحب حروب وغارات على بنى إسرائيل، ولم يحارب أحدًا إلا رجع بالنصر والظفر. وكنيته أبو قضاعة، وقيل: أبو نِزَار.

وحكى أنه لما سلط الله بُخْتنصر على العرب أمر الله تعالى أرمياء ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ أن يحمل معه مَعدّ بن عدنان على البراق كى لا يصيبه النقمة، وقال: فإنى سأخرج من صلبه نبيًا أختم به الرسل، ففعل أرمياء ذلك، فاحتمله معه إلى أرض الشام، فنشأ مع بنى إسرائيل، ثم عاد بعد أن هدأت الفتنة بموت بُخْتنصر.

* * *

(ابن عَدْنَانَ) بزنة مروان من العَدن أى الإقامة، سمى به لأن أعين الجن والإنس كانت إليه ناظرة وأرادوا قتله، وقالوا: لئن تركنا هذا الغلام حتى يدرك مدرك الرجال ليخرجن من ظهره من يسود الناس، فوكل الله به من يحفظه.

وهو أول من وضع علامات الحرم، وأول من كسا الكعبة أو كسى فى زمنه، ففى أول من كساها خلاف ليس هذا موضع بسطه[1].

وقيل: كان فى زمن عيسى عليه السلام، وقيل: فى زمن موسى عليه السلام. قال الحافظ ابن حجر: وهو أولى. وضعف الأول بعضهم لما فى الطبرانى عن أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لما بلغ ولد مَعَدٍّ بن عدنان أربعين رجلا وقعوا فى عسكر موسى عليه السلام فانتهبوه، فدعا عليهم موسى عليه السلام، فأوحى الله إليه: «لا تدع عليهم فإن منهم النبى الأمى النذير البشير...» الحديث[2].

وهذه الأمور التى تقدمت والتى تأتى كلها تدلك على أن آباءه ﷺ كلهم كانوا على التوحيد ولم يصدر عن أحد منهم إشراك ولا شىء من أمور الجاهلية البتة، والحمد لله على ذلك، ولقد أحسن القائل فى مدحهم حيث يقول:

فأولئك الساداتُ لَمْ تَرَ مثلهم ... عينٌ على متتابعِ الأحقابِ
زهر الوجوه كريمة أحسابهم ... يُعطونَ سائلهمْ بغيرِ حسابِ
حلموا إلى أن لا تكاد تراهُمُ ... يومًا على ذى هَفْوةٍ بغضابِ
وتكرَّموا حتى أبوا أن يجعلوا ... بين العفاة وبابهم من بابِ
كانت تعيشُ الطيرُ فى أكْنَافهمْ ... والوحشُ حين يشح كل سحابِ
وكفاهـمُ أنَّ النَّبى مُحَمَّـدا ... منهم فمدحهم بكلِّ كتابِ

ومما يدلك على شرفهم وارتفاع شأنهم وفخامتهم وعلو مكانهم ما جاء عن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال: قيل: يا رسول الله: قُتِلَ فلان ـ لرجلٍ من ثقيف ـ فقال ﷺ: «أبعده الله، إنه كان يبغض قريشًا»[3].

---

(1) انظر: مثير الغرام ص (255)، أخبار مكة للأزرقى (1/249).
(2) الطبرانى فى الكبير (8/165)، الخصائص الكبرى (1/18).
(3) مصنف ابن أبى شيبة (12/171)، مسند أحمد (1/171)، البخارى فى التاريخ الكبير (8/376).

وفى «الجامع الصغير» للسيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ: «قريش صلاح الناس، ولا يصلح الناس إلا بهم كما أن الطعام لا يصلح إلا بالملح، قريش خالصة الله فمن نصب لها حربًا سلب، ومن أرادها بسوء خزى فى الدنيا والآخرة»[1].

وفيه عن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «من يُرِدْ هوانَ قريش أهانه الله»[2].. انتهى.

وعَدْنَان هذا هو النسب المجمع عليه فى نسبه ﷺ، ومن فوقه لا يصح فيه شىء، ولا يمكن حفظ النسب فيه منه إلى إسماعيل عليه السلام كما سيأتى.

ثم اعلم أن الترتيب فى ذكر الأنساب هو المألوف؛ وهو الابتداء بالأب ثم الجد ثم أب الجد وهكذا، وقد جاء فى القرآن على خلافه فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[3] قال بعضهم: والحكمة أنه لم يرد مجرد ذكر الآباء وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التى اتبعها، فبدأ بصاحب الملة ثم بمن أخذها عنه أولاً فأولاً على الترتيب.. انتهى.

وقد ذكر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ نسبه الشريف كذلك ثم أشار إلى صحته محتجًا بالأحاديث الصحيحة فقال:

(وهذا) أى النسب الشريف النبوى المحمدى الذى لا خلاف فيه بالإجماع، السابق سرد أسماء رجاله بهذا الترتيب **(سِلْكٌ)** بكسر السين المهملة وسكون اللام وآخره كاف، جمع سِلْكة بالكسر وجمع الجمع أسلاك وسُلوك كما فى «القاموس»، وهى الخيوط قبل النظم فيها، أما بعد النظم فيها فتسمى سُمُوطًا جمع سُمْط ـ بضم السين المهملة وسكون الميم آخره طاء مهملة ـ فعلى كل

(١) تاريخ ابن عساكر (٤/٤٥٩)، (٦/٢٣٥).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٩٠٥) وقال: حسن غريب. وروى نحوه أحمد فى مسنده (١/٤٦)، والحاكم (٤/١٧٤).

(٣) سورة يوسف: ٣٨.

من الحالتين لا تسمى الخيوط وحدها عقداً بل مع المنظوم فيها، فالعقد مجموع المنظوم والمنظوم فيه، إذا علمت ذلك علمت أن لفظ السلك مراد به هنا العقد من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الكلية والجزئية كما يعلم من قوله (نَظَّمَتْ) بفتح النون وتشديد الظاء المعجمة مبنيا للفاعل، من التنظيم وهو التأليف وضم الشيء إلى آخر، يقال: نظم اللؤلؤ جمعه فى السلك أى واحد فواحد، ففيه إشارة إلى ذلك الترتيب، ولا يقال كان على المؤلف أن يأتى بما يشار به إلى الجمع كأولئك لأنا نقول أن قوله: «وهذا» مشار به إلى المتقدم أو المذكور مثلا (فرائده) جمع فريدة وهى الجوهرة النفيسة الثمينة، وفى «المختار»: وقيل: فرائد الدر كبارها، والكل مناسب هنا لكن الثانى أنسب (بَنَانُ) أى أصابع (السُّنَّةِ) بضم السين وشد النون الطريقة والمراد بها هنا الأحاديث الصحيحة الدالة على صحة هذا النسب الشريف شبهها بإنسان فى الشرف والنفع على سبيل المكنية وأثبت لها البنان تخييلا (السَنِيَّةِ) بفتح السين المهملة وكسر النون أى النيرة المضيئة يعنى أن هذا النسب الشريف ورد سرده هكذا فى خبر مرفوع ودلت عليه أخبار صحيحة.

(ورَفَعُهُ) أى إيصاله (إلى الخليل إبراهيم) عليه الصلاة والسلام، فعيل بمعنى مفعول من الخَلَة بالفتح وهى الحاجة، وُصِفَ به لما قصر حاجته على ربه حين جاءه جبريل عليه السلام أو بالضم وهو تخلل مودة فى القلب لا تدع فيه خلاء إلا امتلأته، وهو أرقى من مقام المحبة إلا فى حق نبينا ﷺ كما سيأتى، وذلك لما كسر إبراهيم آلهتهم جاءوا به واختاروا له أهول المعاقبات وهى الإحراق بالنار.

والمشهور أن الذى أشار بإحراقه نَمروذ، وهو أول من تجبر وادَّعى الربوبية، وقيل: رجل اسمه حيدر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

قال الزمخشرى: قيل: رجل من أعراب العجم ـ يريد الأكراد ـ.

فهموا بإحراقه، وحبسوه، ثم بنوا له بنيانًا كالحظيرة بكَوْثَى وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [1] وجمعوا شهرًا أصناف الخشب الصلاب وتكلفوا فى تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهدًا فى ذلك حتى أن المرأة إذا مرضت كانت تقول: إن عافانى الله لأجمعن حطبًا لإبراهيم، ثم اشتعلوا نارًا عظيمة حتى كادت الطير تحترق فى الهواء من وهجها، فلما وضعوه بإشارة من إبليس لعنه الله حيث لم يتمكنوا من إلقائه فى النار لشدة حرها فى المنجنيق مقيدًا مغلولاً، قال: «لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك، اللهم أنت فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد» فصاحت السموات والأرض ومن فيهن إلا الثقلين صيحة واحدة: «يا ربنا ليس فى أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم، وإنه يحرق فى النار فأذن لنا فى نصرته» فقال سبحانه وتعالى: «إن استغاث بكم فأغيثوه، وإن لم يتمسك إلا بى فأنا وليه وكافيه» فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار فى الهواء. وجاء ملك البحار فقال: إن شئت سلطت البحار على هذه النار. وجاء ملك السحاب فقال: إن شئت مطرت على هذه النار بحيث لا أترك منها أثرًا. فقال عليه الصلاة والسلام: لا حاجة لى إليكم. ثم جاءه جبريل عليه السلام فقال له: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك. قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى. فلما رموه به فيها قال: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [2] فكانت. ويحكى أن ما أحرقت منه إلا وثاقه، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: «لو لم يقل ذلك ـ أى سلامًا ـ لأهلكته ببردها».

وأطلَّ عليه نمروذ من الصرح فإذا هو فى روضة ومعه جليس من الملائكة،

---

(١) سورة الصافات: ٩٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٩.

فقال: إنى مقرب إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة، وكفّ عن إبراهيم، وكان إبراهيم إذ ذاك ابن ست عشرة سنة.

وهو لفظ سريانى معناه بالعربية: أب رحيم.

قيل: وكان مولده ـ عليه السلام ـ بالسماسرة من أرض الأهْوَاز[1]، وقيل بكَوْثَى بالمثلثة كطوبى، قرية بالعراق، وهو الصحيح كما يأتى.

وقيل: كَسْكَرَ[2] بوزن جعفر كورة قصبتها واسط، وقيل: حَرَّان[3] بوزن شداد بلد بالشام، ولكن أبوه نقله إلى بابل أرض نمروذ بن كنعان.

وهو أفضل الأنبياء وأكرم الرسل بعد نبينا ﷺ.

(أَمْسَكَ) أى امتنع (عَنْهُ) أى الرفع (الشَّارِعُ) ﷺ (وَأَبَاه) أى امتنع منه بمعنى أنه لم يقله.

قال ابن دِحْيَة: أجمع العلماء ـ والإجماع حجة ـ على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عَدْنان ولم يجاوزه.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز مَعدّ بن عدنان ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون» مرتين أو ثلاثًا. رواه فى مسند الفردوس[4]، لكن قال السهيلى: الأصح فى هذا الحديث أنه من قول ابن مسعود.

وقال غيره: كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ﴾[5] قال: كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الأنساب ونفى الله علمها عن العباد[6].

---

(١) الأهواز: بلدة كبيرة كانت تقع بين البصرة وبلاد فارس، وكان اسمها أيام الفرس «خوزستان». (مراصد الاطلاع ١/ ١٣٥).

(٢) كَسْكر: مدينة كبيرة بين البصرة والكوفة. (مراصد الاطلاع ٣/ ١١٦٥).

(٣) حران: مدينة قديمة فى الشام (سوريا) وقيل إنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان. (مراصد الاطلاع ١/ ٣٨٩).

(٤) عزاه السيوطى ى الدر المنثور (٥/ ١٣١) للحاكم فى «الكنى»، وأخرجه ابن عساكر (مختصر تاريخ دمشق ٢/ ١٦).

(٥) سورة إبراهيم: ٩.

(٦) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ١٣٤) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم.

وروى عن ابن عمر أنه قال: إنما ينتسب إلى عَدْنان، وما فوق ذلك لا يدرى ما هو.

وعن ابن عباس أيضًا: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون[1]، وقيل: أربعون، وقيل: سبعة وثلاثون، وفيه أقوال غير ذلك.

وعنه أيضًا: مدة الدنيا أى من آدم عليه السلام سبعة آلاف سنة، وقد مضى منها قبل وجود النبى ﷺ خمسة آلاف سنة وسبعمائة وأربعون سنة، وفى رواية: وثمانمائة سنة.

وجاء: كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون، وقال الله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [2].

وعنه أيضا: لو شاء رسول الله ﷺ أن يعلمه لعلمه، أى لو أراد أن يعلم ذلك الناس لعلمهم، فرواياته كلها دالة على أنه ﷺ كره ذلك وأعرض عنه، فالذى ينبغى لنا الإعراض لإعراضه ﷺ ولما فيه من التخليط والتغيير للألفاظ وعواصة تلك الأسماء مع قلة الفائدة.

(**وعَدْنَانُ بلا رَيْب**) أى شك (**عِنْدَ ذَوِى**) جمع ذى بمعنى صاحب أى أصحاب (**العُلوم النَّسَبِيَّة**) بفتح النون والسين المهملة أى التى يبحث فيها عن تحقيق الأنساب (**إلى الذبيح**) فعيل بمعنى مفعول ـ أى المذبوح ـ أمرًا لا فعلاً (**إسماعيل**) نبى الله، على نبينا وعليه الصلاة والسلام (**نسبْتُه ومُنْتَمَاه**) هما بمعنى يقال: انتمى إلى فلان أى انتسب إليه يعنى أن عَدْنان ينتمى فى النسب إلى الذبيح إسماعيل باتفاق النسَّابين وإنما الخلاف فى عدد من بين عَدْنان وإسماعيل من الآباء ومنه إلى آدم عليهما السلام.

* * *

---

(1) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ١٣٥) لابن المنذر.

(2) سورة الفرقان: ٣٨. والأثر عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٣٠) لابن مردويه.

[الإشارة إلى قصة الذبيح] (1)

وما ذكره المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من أن الذبيح هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو أحد الأقوال فيه، وبه قال جماعة من الصحابة: كابن عباس، وعمر، ومعاوية، وأبى هريرة، وأبى الطفيل، وعامر بن واثلة، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والشعبى، ويوسف بن مهران، ومجاهد، والربيع ابن أنس، ومحمد بن كعب القرظى، والكلبى، وعلقمة، وغيرهم، وإليه ذهب الشافعى ومالك، ورجَّحه جماعة، وقال أبو حاتم: إنه الصحيح، و[قال] البيضاوى: إنه الأظهر، وانتصر له فى «المواهب».

وورد أن النبى ﷺ قال: «إن الذبيح إسماعيل» واحتجوا لهذا القول بأمور منها: أن سارة زوجة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت لا ولد لها وهاجر جاريته ولدت إسماعيل، فغارت منها وكرهت مقامها معها، فنقلها إلى مكة ومعها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وكان يؤنسها، فلما كبرت سارة وشاخ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشرتها الملائكة بإسحاق فقالت: ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ (2) الآية.

فلو كان الذبيح إسحاق نافى ذلك إخبار الله بأنه سيولد له يعقوب للإجماع على أنه فى صغره، ولقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ (3) الآية ذكرت مبشرة بإسحاق بعد قصة الذبح، وبهذا احتج مالك وغيره، وتقدم ما يؤيد ذلك فى حديث الحاكم، وفى تفسير الزهرى عن ابن عباس: تزعم اليهود أن إسحاق هو الذبيح وكذبوا.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل رجلاً أسلم من علماء اليهود: أى ابنى

---

(1) ينظر: «القول الفصيح فى تعيين الذبيح» للسيوطى ضمن «الحاوى للفتاوى»، وتفسير القرطبى (15/ 100).

(2) سورة هود: 72.

(3) سورة الصافات: 102.

إبراهيم أُمِرَ بذبحه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود ليعلمون أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أباكم للفضل الذى ذكر الله عنه، فهم لا يجحدون، ولكن زعموا أنه إسحاق لأنه أبوهم.

قال الأصمعى: سألت أبا عمرو عن الذبيح، فقال: أغرب عنك عقلك؟! ألم تر أن الموضع الذى أضجع فيه الذبيح بمكة وبمنى ومتى دخل إسحاق مكة؟

وقيل: إن الذبيح إسحاق واحتج بقوله ﷺ: «الذبيح إسحاق»[1] وبهذا القول قال جماعة من الصحابة كالعباس، وعلى بن أبى طالب، وأبى هريرة أيضًا، وجابر بن عبد الله، وعمر أيضًا، وابنه عبد الله، وعن ابن مسعود وابن عباس أيضًا أنه الصحيح. ومن التابعين جماعة، وذهب إليه مالك أيضًا، وعزاه ابن عطية، والمحب الطبرى، والقرطبى - فى تفسيره - للأكثرين، وقال القرطبى: وهذا القول أقوى فى النقل عن النبى ﷺ، وأجمع عليه أهل الكتابين اليهود والنصارى، واختاره ابن جرير، وجزم به عياض والسهيلى، ومال إليه السيوطى فى «علم التفسير».

لكن نقل بعضهم عن «القول الفصيح فى تعيين الذبيح» للجلال السيوطى أنه قال: وقد كنت ملت إليه فى التفسير وأنا الآن متوقف فى ذلك.

قلت: وقد نقل القرطبى عن الزجاج القول بالوقف وهو الأسلم فإن هذه المسألة ليست من العقائد التى كلفنا بمعرفتها فلا نُسأل عنها يوم القيامة، فهى مما ينفع علمه ولا يضر جهله، فتكون الأقوال ثلاثة.

وهناك قول رابع نقله مُغْلطاى وهو أنهما - أى الذبيحين - فى قوله ﷺ: «أنا ابن الذبيحين عبد الله وهابيل»، وهو مع غرابته بعيد ولا يصح إلا بجعل الأب عمًا؛ فإن المصطفى من ولد شيث.

---

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٢/ ١٩٢)، مسند الفردوس (٣١٧٣)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٥٩)، مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٢).

هذا والقول الأول هو الذى رجحه جماعة من محققى المتأخرين، وقال ابن الجوزى: هو الصواب[1]، والقول بأنه إسحاق باطل من عشرين وجهًا، وأطال فيه ابن القيم فى «الهدى».

وإذا تقرر ذلك فنقول: وقد بسط القصة المفسرون والإخباريون فقال بعضهم: روى كعب الأحبار عن رجال قالوا: لما رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المنام أنه يذبح ابنه وتحقق أنه أَمْر ربه، قال لابنه: يا بنى خذ الحبل والمُدية وانطلق بنا إلى هذا الشِّعْب لنحتطب لأهلنا، فأخذ المُدية والحبل وتبع والده. فقال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا إبراهيم لا أفتن أحدا منهم أبدًا. فتمثل الشيطان رجلاً فأتى أم الغلام فقال لها: أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ فقالت: ذهب به ليحتطب لنا من هذا الشِعْب، فقال: والله ما ذهب به إلا ليذبحه. قالت: كلا هو أشفق به وأشد حبًا له منى، فقال لها: إنه يزعم أنه أُمِرَ بذلك، قالت: إن كان الله أمره بذلك فليطع أمره. فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشى إثر أبيه، فقال له: يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشِعْب، فقال: والله ما يريد إلا ذبحك، فقال: لأى شىء؟ قال: يزعم أن الله أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره الله به، وسمعا وطاعة لأمر الله تعالى. فأقبل الشيطان إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال له الشيطان: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشِعْب لحاجة لى فيه، فقال: إنى أرى الشيطان خدعك بهذا المنام الذى تريده، إنك تريد أن تذبح ابنك وفلذة كبدك فتندم بعد ذلك حيث لا ينفعك الندم. فعرفه إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: إليك عنى يا ملعون فوالله لأمضين لأمر ربى. فنكص إبليس على عقبه ورجع بخزيه وغيظه، ولم ينل من إبراهيم وآله شيئا. فلما خلى إبراهيم فى الشعْب ويقال فى ثَبير، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي

(١) زاد المسير (٧/ ٧٣).

﴿إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

قال ـ يعنى كعب الأحبار ـ فحُدِّثت أن إسماعيل قال له عند ذلك: يا أبت إذا أردت ذبحى فاشدد وثاقى لئلا يصيبك من دمى فينقص من أجرى فإن الموت شديد، ولا آمن أن اضطرب عنده إذا وجدت مسّه، واشحذ شفرتك حتى تجهز علىّ فتذبحنى، فإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكبّنى على وجهى، ولا تضجعنى بشقى فإنى أخشى إن أنت نظرت إلى وجهى أن تدركك الرحمة فتحول بينك وبين أمر ربك فىّ، وإن تر أن ترد قميصى إلى أمى فإنه عسى أن يكون أسلى لها فافعل. فقال: نعم العون أنت يا بنى على أمر الله، ويقال: أنه ربطه كما أمر بالحبل، فأوثقه ثم شحذ شفرته، ثم تلّه للجبين، واتقى النظر إلى وجهه، ثم أدخل الشفرة حلقه فقلبها جبريل ـ عليه السلام ـ لقفائها فى يده، ثم اجتذبها إليه ونودى أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا فهذه ذبيحتك فداء لابنك، فاذبحها دونه، وأتاه بكبش من الجنة.

قال ابن إسحاق حدثنى: الحكم بن عتيبة، عن مجاهد، عن مقسم، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخرج الله الكبش من الجنة.

قيل: وهو الذى قرّبه هابيل، جاء به جبريل فذبحه السيد إبراهيم مُكَبِّرًا.

وقيل: إنه رعى قبل ذلك فى الجنة أربعين خريفًا.

وقيل: كان وَعْلاً أهدى إليه من ثَبِير، قاله البيضاوى، والوعل: التيس الجبلى.

قال الفاكهى: ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء أن الكبش الذى فُدى به إسماعيل عليه السلام كبشٌ أملحٌ أقرنٌ أعين، وقد بقى قرناه معلقين على الكعبة إلى أن احترق البيت فى زمن ابن الزُّبير.

قال الشعبى: رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة. وقال ابن عباس: والذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب

(1) سورة الصافات: ١٠٢.

الكعبة وقد يبس.. انتهى.

وقال الشيخ الجمل فى حواشيه على «الجلالين»: ومن المعلوم المقرر أن كل ما هو من الجنة لا تؤثر فيه النار، فلم يطبخ لحم الكبش بل أكلته السباع والطيور، تأمل.. انتهى.

وهو - أعنى إسماعيل - أول من سمى بهذا الاسم من بنى آدم، ومعناه بالعبرانية مطيع الله، أرسله الله تعالى إلى العماليق وإلى قبائل اليمن فى زمن أبيه إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - وكذا بعث أخاه إسحاق إلى أهل الشام، وبعث يعقوب إلى الكنعانيين فى حياة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وكان إسماعيل بكر أبيه، جاء له وقد بلغ من العمر سبعين سنة أو ستًا وثمانين سنة، وهو أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وقيل: بأربع عشرة سنة.

وأم إسحاق سارة حملت بإسحاق فى الليلة التى خسف الله بقوم لوط فيها، ولها من العمر تسعون سنة.

وكل الأنبياء من بعد إبراهيم من ولده إسحاق، وأما إسماعيل فلم يكن من نسله نبى إلا نبينا ﷺ.

قال محمد بن أبى بكر الرازى: ولعل الحكمة فى ذلك انفراده ﷺ بالفضيلة فهو ﷺ أفضل الجميع.

وعاش إسماعيل بعد أبيه ما عاش، وتوفى بمكة، ودفن داخل الحِجْر مما يلى باب الكعبة، وهنالك قبر أمه هاجر وكانت توفيت قبله.

ثم أخذ المصنف رحمه الله يمدح نسبه الشريف ﷺ فقال: **(فَأَعْظِمْ)** بقطع الهمزة وكسر الظاء المعجمة **(به)** أى بهذا السلك النَّسَبى النبوى المحمدى، وهذه إحدى صيغتى التعجب أى ما أعظمه، فهو وإن كان على صورة الأمر ماض وفاعله يلزم الباء الزائدة، فالباء فى به زائدة **(من عِقْد)** بكسر العين المهملة وسكون القاف، وهو القلادة من الجوهر **(تَأَلَّقَتْ)** بمثناة فوقية وهمزة

مفتوحة ولام مشددة فقاف مفتوحة تليها تاء تأنيث، بمعنى استنارت وأضاءت (كَوَاكِبُهُ) جمع كوكب وهو الجرم المضىء بنفسه أو بغيره، فشمل الشمس والقمر وغيرهما من سائر الكواكب (الدُّرِّيَّة) بتشديد الدال والراء والتحتية مع ضم أوله وكسر ثانيه، أى المنسوبة للدُّر الذى هو كبار اللؤلؤ، فالمراد بالكواكب اللآلىء لما بينها من التشابه فى البرق واللمعان.

(وكيف لا) يتعجب من عظمه أو لا يكون العقد متألق الكواكب (والسيِّدُ) الكامل فى السيادة على من سواه من خلق الله (الأكرمُ) ذاتًا وصفاتًا من غيره حتى عظماء الملائكة المكرمين وخواص رسله الأكرمين (ﷺ واسطته) أى الدُّرة العظيمة المتوسطة فيه (المُنْتَقَاة) بضم الميم وإسكان النون ومثناة فوقية، المصطفاة المختارة، والجملة حالية، وسيأتى دلائل اصطفائه ﷺ.

ثم أنشد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ لما هو بصدده من بيان عظم هذا النسب الشريف العالى المنيف بيتين من القصيدة الهمزية للإمام العارف الكامل، والهمام الواصل، إمام الشعراء، وأشعر العلماء، الشيخ شرف الدين البوصيرى[1] ـ رحمه الله تعالى ـ وهى قصيدة بليغة عزَّ أن يوجد لها نظير فى القصائد التى مُدح بها البشير النذير ﷺ، وشرَّف ومجَّد وكرَّم فقال:

[نَسَبٌ تَحْسَبُ الْعُلاَ بِحُلاَهُ ... قَلَّدَتْهَا نُجُومَهَا الْجَوْزَاءُ

حَبَّذَا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وَفَخَارٍ ... أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ][2]

(نَسَبٌ) أى هذا نسبٌ عظيمٌ كما دل عليه التنوين، بل لا أطهر ولا أجل منه فى الأنساب، وهو اسم لعمود القرابة التى يجمع متفرقها (تَحْسَبُ) بكسر السين وفتحها أى تظن أيها المخاطب (العُلاَ) بضم العين وفتح اللام مقصور جمع عليًا، تأنيث الأعلى من عَلا بالفتح يعلو عُلُوًا فى المكان، وعَلِى بفتح العين وكسر اللام يعلى، وعَلَى بالفتح يعلى علا فى الشرف (بِحُلاَهُ) بضم

(١) هو إمام المديح النبوى، الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيرى، توفى سنة (٦٩٦ هـ).
(٢) المجموعة النبهانية (١/٧٧).

أوله وكسره، وهو أفصح، جمع حِلية بكسر أوله، وهى ما يتزين به وتسمى حُليًا أيضًا، والباء سببية، والضمير للنسب (قَلَّدَتْهَا) أى العلا فى محل نصب مفعول تحسب الثانى والأول العلا (نُجُومَهَا) أى بنجومها فهو منصوب على نزع الخافض (الجَوْزَاءُ) اسم لبرج فى السماء كما فى «القاموس»، وعليه فنجومه هى الآتية. وتطلق عرفا على النجوم المجتمعة المعروفة، قيل: وهى تشبه المرأة فلذا نسب التقليد إليها، أى من كمال هذا النسب وشرفه أن من تأمل فيه حسب ـ بسبب ما تحلى به من الكمالات ـ أن معاليه قلدتها الجوزاء بنجومها، أى جعلت نجومها قلادة لها.

فعلم أن كلامه يفيد أن كل واحد من أولئك الآباء الكرام قد ارتفع فى زمانه حتى صار كأنه النجم فى الشرف وعلو المرتبة والإضاءة والاهتداء به فى ظلمات البر والبحر حتى يظن الظان أنه نجم من نجوم الجوزاء، وأن مجموع هذا النسب كالعقد الثمين جدًا الذى تقلده جيد تلك المراتب العلية قاله فى «المنح».

وفى قوله: «قلدتها. . . إلخ» ثلاث استعارات كلها تصريحية:

الأولى: فى النجوم: حيث شبه أفراد النسب من حيث ارتفاع كل واحد منها فى زمانه حتى صار كأنه النجم فى علو المرتبة والإضاءة والاهتداء به بنجوم الجوزاء، واستعار لفظ النجوم لتلك الأفراد.

الثانية: فى الجوزاء: حيث شبه مجموع تلك الأفراد المسمى بالنسب ـ فإن النسب كما مر اسم لمجموع أفراد الأصول ـ بالجوزاء من حيث التناسب بين أفراد كل والشهرة والإضاءة والاهتداء به إلى آخر ما تقدم، واستعار لفظ الجوزاء لهذا النسب.

الثالثة: فى قوله: «قلدتها» حيث شبه إعطاء النسب أفراده المراتب العلية لتتزين تلك المراتب بالإفراد على خلاف المتعارف بإلباس القلادة لمن يتزين بها، واستعار إلباس القلادة لإعطاء الأفراد واشتق منه قلَّدتها بمعنى أعطتها

فيكون استعارة تصريحية تبعية.

والمعنى: تحسب أيها المتأمل فيه بسبب الزينة القائمة به أن مراتبه العالية القائمة بأفراده قد تقلدت بتلك الأفراد لتتزين بها، على خلاف المعتاد من أن الشخص يتزين ويتقلد بالمراتب العالية، فيكون قد جعل هنا مراتب النسب هى التى تتزين وتتقلد بالأفراد، فأفراد النسب تكسب المراتب العالية الزينة والشرف، فكأنه قال: تحسب العلا تقلدت بأفراد النسب. لكن على هذا فى الكلام إظهار فى مقام الإضمار حيث قال: قلدتها نجومها الجوزاء فإن الجوزاء المراد بها ههنا النسب، وهو مذكور سابقًا، وارتكبه للتوصل إلى تشبيهه بالجوزاء وادعاء أنه هى.

ثم أخذ فى مدح هذا النسب فقال: **(حَبَّذَا)** هى كنعم عملاً ومعنى مع زيادتها عليها بإشعارها بأن الممدوح بها محبوب للقلب **(عِقْدُ)** بكسر أوّله وهو القلادة كما تقدم **(سُؤْدَدٍ)** أى سيادة **(وفَخَارٍ)** بفتح الفاء والخاء المعجمة كسلام على ما هو المسموع وإن كان القياس الكسر لقول ابن مالك:

لفاعـل الفعـال والمفاعـله وغير ما مر السماع عادله

وهو التمدح بالخصال الجليلة **(أنتَ فيه)** أى فى ذلك العقد **(اليتيمةُ)** أى الدُّرة التى لا شبيه لها فى حسنها **(العَصْمَاءُ)** من العصمة أى الحفظ أو المنع لأن من شأن هذه الدُّرة أن يبالغ فى حفظها أو منعها أن تصل إليها يد الأغيار، وجملة أنت وما بعده صفة لعقد أو حال منه لتخصيصه بالإضافة، وهذا فيه غاية المدح له ﷺ، ولنسبه أى حبذا نسبك الذى إذا ذكر وعُدَّت معك آباؤك كانوا قِلادة منتظمة من جواهر ثمينة لها السيادة بحيث تكون أنت واسطتها، العديمة النظير، والمخصوصة من الرعاية والحفظ والمنع بما لم يوجد لغيرها، لتميزها ببلوغها من صفات الجمال ونعوت الجلال ما يُبهر العقل ويفوق الوصف.

(وأكْرِمْ به) معطوف على قوله: **(أعْظِمْ به)** أى ما أكرمه وأشرفه، ويجرى

فيه ما مر فى قول المصنف فأعظم به (من نسبٍ) عظيمٍ شريف (طَهَّرَهُ الله) سبحانه وتعالى ونزَّهه (من سِفَاحٍ) بكسر السين وبالمهملة آخره: الزنا، والمراد به المرأة تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها أو ما لم يوافق شريعة. وأصل السفح صبّ الماء ونحوه كما قال ابن الأثير فى «النهاية» ومثله فى «المصباح». قال الزرقانى: والأولى كما قال شيخنا أن يراد به ما هو أعم من الزنا؛ فإن جملة الأحاديث دلت على نفى جميع نكاح الجاهلية عن نسبه من نكاح زوجة الأب لأكبر بنيه، والجمع بين الأختين، ومن نكاح البغايا، ومن نكاح الاستبضاع، ومن نكاح الجمع.. انتهى. وما قيل من أن كِنَانة تزوج بزوجة أبيه برة بنت أدّ ابن طابخة بعد موت أبيه فولدت له النَّضر، وكذا ما قيل فى هاشم فقد تقدم رده.

(الجاهلية) أى أهلها سمّوا بذلك لكثرة جهالاتهم. قال بعضهم: وكان النكاح فيما بينهم على أربعة أنواع لم يكن فيها نكاحٌ محمودٌ صحيحٌ غير واحد منها وهو الذى أقره الإسلام وشرعه النبى ﷺ بولى وصداق وشهود.

وقال الإمام السبكى ـ رحمه الله تعالى ـ: الأنكحة التى فى نسبه ﷺ كلها مستجمعة لشروط الصحة كأنكحة الإسلام الموجودة اليوم، قال: فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به ولا تزّل عنه فتخسر الدنيا والآخرة.. انتهى.

وهذا من أعظم العناية به ﷺ من آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن خرج من بين أبويه ﷺ على نمط واحد وفق شريعته ﷺ ولم يكن كما كان يقع فى الجاهلية إذا أراد الرجل أن يتزوج قال: خطب، ويقول أهل الزوجة: نكح، ويكون ذلك قائمًا مقام الإيجاب والقبول.

والمراد بنكاح الإسلام ما يفيد الحِل حتى يشمل التَّسرى بناء على أن أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ كانت مملوكة لإبراهيم حين حملت بإسماعيل ـ عليه السلام ـ ولم يعتقها ولم يعقد عليها. قاله بعض المحققين.

(أوردَ) أى ذكر فى هذا المعنى السابق الحافظ أبو الفضل (الزَّيْنُ) أى زين

الدين ابن عبد الرحمن بن الحسين بن أبى بكر بن إبراهيم الكردى الأصل ثم المصرى، ولد بمصر فى جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ونشأ بها، وحصَّل حظًا وافرًا من العلوم المتداولة، وعُنى بفن الحديث فبرع فيه وتقدم بحيث كان شيوخ عصره يبالغون فى الثناء عليه بالمعرفة: كالسبكى، وابن كثير، والعلائى، وغيرهم، ونَقَلَ عنه فى «المهمات» ووصفه بحافظ عصره، وله تصانيف كثيرة.

قال تلميذه الحافظ ابن حجر: وشرع فى إملاء الحديث من سنة ست وتسعين فأحيا الله به السنة بعد أن كانت دائرة وأملى أكثر من أربعمائة مجلس غالبها من حفظه، متقنة مهذبة محررة، كثيرة الفوائد الحديثية، وولى قضاء المدينة المنورة، ثم عاد إلى مصر وصدع بالحق إلى أن مات سنة ست وثمانمائة رحمه الله تعالى[1].

(العرَاقِىُّ) نسبة إلى عراق العرب **(وَارِدَهُ)** أى ما ورد من الأحاديث الصريحة فى ذلك **(فى مَوْرِده الهَنِىِّ)** أى كتابه المسمى بـ «المورد الهنى فى المولد السنى» **(ورواه)** أى حكاه فيه. ولم أقف على هذا التأليف المشار إليه، لكنى رأيت فى غيره كثيرًا من الأحاديث الواردة فى ذلك، فمنها: ما رواه الطبرانى فى معجمه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىءٌ، ما ولدنى إلا نكاحٌ [كنكاحِ] الإسلام»[2] ومنها: ما أخرجه الجلال السيوطى فى «الخصائص الكبرى» من تخريج ابن عساكر عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدتنى بَغِىٌّ قَط منذ خرجتُ من صلب آدم، ولم تزل تنازعنى الأمم كابرًا عن كابر حتى خرجت من أفضل حيَّين من العرب: هاشم

(١) انظر ترجمته فى: طبقات الحفاظ للسيوطى (ص ٥٣٨ برقم ١١٧٧)، أنباء الغمر (٢/ ٢٧٥)، حسن المحاضرة (٨/ ٣٦٠)، شذرات الذهب (٧/ ٥٥)، الضوء اللامع (٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن (٧/ ٩٠)، الطبرانى فى الكبير (١٠/ ٣٩٩)، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢١٤): لا أعرف المدينى ولا شيخه وبقية رجاله وثقوا.

وزُهْرة»[1] وما رواه أبو نعيم عن ابن عباس مرفوعًا: «لم يلتق أبواى قط على سفاح، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذبًا، ما تشعبت شعبتان إلا كنت فى خيرهما»[2].

وعنه فى قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [3] قال: «من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبيًّا» رواه البزار[4].

وعنه فى الآية قال: «ما زال النبى ﷺ يتقلب فى أصلاب الرجال حتى ولدته أمه» رواه أبو نعيم[5].

وعن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ [6] بفتح الفاء، قال: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية[7].

وعن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ بفتح الفاء. وقال: «أنا أنفسكم نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح» رواه ابن مردويه[8].

وفى «الدلائل» لأبى نعيم عن عائشة عنه ﷺ عن جبريل ـ عليه السلام ـ قال: «قلّبت مشارق الأرض ومغاربها قال فلم أجد رجلاً أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام، ولم أر بنى أب أفضل من بنى هاشم»[9]. قال الحافظ

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٧)، الدر المنثور (٣/ ٢٩٤)، (٥/ ٩٨)، الحاوى للفتاوى (٢/ ٣٦٨)، الخصائص الكبرى (١/ ٦٦).

(2) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٢٩)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٧٥)، ابن عساكر فى تاريخه (١/ ٣٤٩)، السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٢٩٤ و ٥/ ٩٨)، والخصائص الكبرى (١/ ٦٤)، وتهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٤٩).

(3) سورة الشعراء: ٢١٩.

(4) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٣٠)، مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٧)، البغوى فى التفسير (٣/ ٣٤٤)، البزار (٢٣٦٢) وقال فى مجمع الزوائد (٩/ ١٣٨): رجاله ثقات.

(5) مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٧).

(6) سورة التوبة: ١٢٨.

(7) مختصر تاريخ دمشق (١/ ٢٨).

(8) الخصائص الكبرى (١/ ٦٦).

(9) مناهل الصفا (٣١)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١٧٦)، ابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٦٣٢)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ٢٥٧)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٧٢). وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢١٧) للطبرانى فى الأوسط وقال فيه: موسى بن عبيدة الربذى ضعيف. وقال ابن حجر فى أماليه: صحيح.

ابن حجر: ولوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن.

وورد أيضًا أنه ﷺ قال: «لما خلق الله آدم أهبطنى فى صلبه إلى الأرض، وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة، وفى صلب إبراهيم حين قذف به فى النار، ولم يزل ينقلنى من الأصلاب إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من بين أبوىّ، ولم يلتقيا على سفاح قط» وإلى غير ذلك من الأحاديث المرضية الواردة فى هذا المعنى.

وفيه قال شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقى رحمه الله تعالى:

تنقَّل أحمدٌ نوراً مبينا تلألأ فى جباه الساجدينَا

تقلَّب فيهمُ قرنًا فقرنا إلى أن جاء خيرَ المرسلينَا

وقال أيضًا: **(حفظ الإله)** عز وجل أى منع وعصم **(كرامة)** أى من أجل إكرامه **(لمحمد)** ﷺ **(آباءه الأمجاد)** جمع ماجد أى شريف مأخوذ من المجد وهو الشرف الواسع، وقيل: هو الكريم الفعَال **(صونًا)** أى حفظًا **(لاسمه)** من أن تدنسه أرجاس الجاهلية التى من جملتها السفاح، فإن آباءه الكرام كانوا قد **(تركوا السفاح فلم يصبهم)** أى لم ينلهم بتوفيق الله تعالى **(عاره)** أى عيبه **(من)** الأب الأعلى **(آدمٌ)** بالتنوين لضرورة الوزن ومن الأم العلياء حواء عليهما السلام **(و)** هلم جرًا نازلاً منهما **(إلى أبيه)** الأقرب عبد الله **(وأمه)** القربى آمنة كما مر كل ذلك بدلائله.

ومن الدلائل أيضًا: ما رواه ابن سعد عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال: كتبتُ للنبى ﷺ مائة أمّ - وفى بعض النسخ خمسمائة أمّ - فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان فى أمر الجاهلية[1].

واستشكل هذا بأن أمهاته لا تبلغ هذا العدد نعم إن كان المراد بالأمهات الجدات وجدة الجدات من قبل أبيه وأمه كما قاله الزرقانى فلا إشكال حينئذ، فقد قال [الخفاجى] فى «نسيم الرياض» ما محصله: إذا تأملت قولهم لم تكن

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٣١ القسم الأول)، مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٧)، الخصائص الكبرى (١/ ٦٤).

قبيلة من العرب إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة عرفت المراد، فإنك إذا نظرت لقبيلة فجميع ذكورهم آباء له وجميع نسائهم جداته أو عماته فعدّ قرابتهم ولادة له.

(سَرَاةٌ) بفتح السين المهملة جمع سَرى بفتحها أيضًا على غير القياس، بمعنى الشريف، وقد تضم السين، والاسم منه السرو، ومنه الحديث: أنه ﷺ قال لأصحابه: «اليوم تَسْرَون» أي يقتل سريكم أي شريفكم، فقتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ. ويجمع السراة على سَرَوَات بمعنى الأشراف (سَرَى) أى جرى (نُورُ النُّبوةِ) المحمدية (فى أسَارِيرِ) جمع أسرار الجبهة وهى خطوطها التى تجتمع وتتكسر واحدها سر وسرر كعنب كما فى «النهاية» و «المختار» (غُرَرِهِمُ) بضم الغين المعجمة جمع غُرة أى جباههم (البَّهِيَّة) بالموحدة أى الجمالية، فكان النور النبوى ظاهراً بوجه آدم، ثم انتقل إلى ابنه شيث ـ عليهما السلام ـ ولما دنت وفاته وصى ابنه بوصية أبيه له أن لا يضع هذا النور إلا فى المطهرات من النساء، ولم تزل الوصية معمولاً بها محافظًا عليها فى جميع الآباء الأمجدين.

(وبَدَرَ) بموحدة فمهملة فراء أى ظهر ظهور البدر للأبصار، وفى بعض النسخ: (وبَدَا) أى ظهر والأول أبلغ (بدره) أى النور النبوى الشبيه بالقمر ليلة كماله وتمام نوره (فى جَبِينِ) أى جبهة (عبد المُطَّلب و) فى جبين (ابنه) أى ابن عبد المطلب (عَبْد الله) فقد حكى عن كعب الأحبار[1] أن نور النبى ﷺ لما صار إلى عبد المُطَّلب نام فى الحِجْر فانتبه مكحولا مدهونا قد كسى حلة البهاء والجمال متحيراً من فعل به ذلك، فذهب به أبوه ـ أى عمه ـ إلى كهنة قريش فقالوا: اعلم أن إله السموات قد أذن لهذا الغلام أن يتزوج ـ وسبق أنه كان نور رسول الله ﷺ يضىء فى غُرَّته ـ فزوَّجه قَيْلَة، فولدت له

(١) هو كعب بن مانع بن ذى هجن الحميرى، أبو إسحاق، تابعى، توفى فى حمص سنة (٣٢ هـ). انظر: الأعلام (٥/ ٢٢٨)، تذكرة الحفاظ (١/ ٥٢ رقم الترجمة ٣٣)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٩).

الحارث، ثم ماتت فزوَّجه بعدها هندا، وحملت منه بابنه عبد الله فانتقل نور نبينا ﷺ منه إليه.

وسبق أيضًا: أن عبد الله كان أنهد فتى فى قريش وأصبحهم خُلقًا وأحسنهم أخلاقًا وما ذاك إلا ببركة النور المحمدى والشرف الذى انتقل إليه.

تنبيه

قال العلامة المحقق الشيخ أحمد بن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ فى «المنح»: أن آباء النبى ﷺ ـ غير الأنبياء ـ وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر؛ لأن الكافر لا يقال أنه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس كما فى آية: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [1].

وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون، وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات، وأيضًا فهم إلى إسماعيل كانوا من أهل الفَتْرَة وهم فى حكم المسلمين بنص الآية الآتية، وكذا من بين كل رسولين، وأيضًا قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [2] على أحد التفاسير فيه أن المراد تنقل نوره من ساجد إلى ساجد، ولذا أجمع أهل الكتابين على أن آزر عم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ واسم أبيه تارح كآدم، أو تيرح أو غير ذلك كما سيأتى، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ [3] على المجاز، والعرب تسمى العم أبًا وقد جاء فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [4] مع أنه عم يعقوب، بل لو لم يجمعوا على ذلك وجب تأويله بهذا جمعًا بين الأحاديث. فمن أخذ بظاهر الآية كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح.

---

(١) سورة التوبة: ٢٨.

(٢) سورة الشعراء: ٢١٩.

(٣) سورة الأنعام: ٧٤.

(٤) سورة يوسف: ٦.

قال: وحينئذ فهذا صريح فى أن أبوى النبى ﷺ آمنة وعبد الله من أهل الجنة؛ لأنهما أقرب المختارين له ﷺ، وهذا هو الحق، بل فى حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه: أن الله تعالى أحياهما له فآمنا به خصوصية لهما وكرامة له ﷺ.

وقال خاتمة المحققين التقى الصالح الشيخ إبراهيم خليل اليمنى الزبيدى فى كتابه «المنهج الأعدل فى شرح مولد الأهدل»: أقول وقد نصر هذا القول وأيده غير واحد من الجهابذة النقاد كالتقى السبكى والجلال السيوطى وغيرهما فلا مرية فى حَقِّيَّته.. انتهى.

أقول: وممن نصر هذا القول الإمام المحقق والهمام المدقق مجدد المائة الحادى عشرة جدنا المرحوم السيد محمد البرزنجى وألف فيه رسالة سماها: «سداد الدِين وسداد الدَين فى إثبات النجاة والدرجات للوالدين» وهى تزيد على نحو خمس عشرة كراسة وأتى فيها بما يشفى قلب الحبيب، ويقصم ظهر المعاند الغضيب، قال: وقد قال بنجاتهما جمع كثير وجم غفير ممن جمع بين الحديث والفقه والأصول: كابن العربى، وابن شاهين، وابن المنير، وابن ناصر الدين الدمشقى، والإمام الفخر الرازى، والسبكى، والقرطبى، والآبى، والمحب الطبرى، وابن سيد الناس، والشرف المُناوى، ونقله [سبط] ابن الجوزى فى كتابه «مرآة الزمان» عن جماعة، والحافظ ابن حجر العسقلانى، والإمام حافظ الدين الحنفى صاحب «جامع السلوك» فى شرح مناقب الإمام أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: وممن استهتر بهذه المسألة: خاتمة الحفاظ الإمام المجتهد مجدد المائة التاسعة أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطى؛ فإنه ألف فى المسألة خمس تأليفات[1] وبسط القول فيها، والإمام العلامة المحقق الشهاب أحمد بن حجر الهيثمى المكى فإنه بسط القول فيها

---

(١) هى: «أحاديث فى نجاة أبوى النبى ﷺ»، «التعظيم والمنة فى أن أبوى النبى ﷺ فى الجنة»، «رسالة فى والدى الرسول ﷺ»، «سبل النجاة فى والدى النبى ﷺ»، «مسالك الحنفا فى والدى المصطفى».

بعض البسط فى «النعمة الكبرى»، وفى «الفتاوى» وفى «شرح الهمزية» وأتى فيها بالعجب العجاب، ووقفت لبعض متأخرى الحنفية من أهل الروم[1] على رسالة أحسن القول فيها وأتى بالتحقيق جزاهم الله خيراً. . انتهى.

وإذا تقرر ذلك فنقول: اعلم أنه لم يثبت لا من الكتاب ولا من السنة ولا من الإجماع ولا من القياس دليل على أن الأبوين الشريفين فى النار، ولم يذكر ذلك أحد من الأئمة المجتهدين المتبوعين من الأربعة ولا من غيرهم، وليس هذا من المسائل التى تتعلق بالاعتقاد الواجب فى الشرع، بل الذى يجب اعتماده واعتقاده ـ وهو الذى ثبتت به الأدلة وندين الله ونلقاه به ـ أن والدى النبى ﷺ من أهل التوحيد، وأنهما ناجيان غير معذبين، وأنهما من خيار أهل الجنة، وأما الأحاديث الدالة على كفرهما وأنهما فى النار كحديث: «ليت شعرى ما فعل أبواى، فنزلت ﴿وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾»[2] وحديث أنه استغفر لأمه فضرب جبريل فى صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا[3]. وحديث أنه نزل فى أمه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[4]. وحديث أنه قال لابنى مليكة: «أمكما فى النار» فشق عليهما فدعاهما فقال: «إن أمى مع أمكما» فقد أجاب الجلالى السيوطى بأن غالب ما يروى فى ذلك ضعيف ولم يصح فى أم النبى ﷺ سوى حديث: «أنه استأذن فى الاستغفار لها فلم يؤذن له» ولم يصح أيضًا فى أبيه إلا حديث مسلم خاصة، وسيأتى الجواب عنهما.

وأما الأحاديث التى ذكرت فحديث: «ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت الآية» لم يُخرج فى شىء من كتب الحديث المعتمدة وإنما ذكر فى بعض

(١) هو العارف بالله الشيخ عبد الله البسنوى الرومى، المتوفى سنة ١٠٥٤ هـ، وكتابه «مطالع النور السنى المنبئ عن طهارة النسب العربى» طبع ضمن «جواهر البحار» للنبهانى (٤/ ٢٧٣).

(٢) سورة البقرة: ١١٩.

(٣) مجمع الزوائد (١/ ١١٧).

(٤) سورة التوبة: ١١٣.

التفاسير بسند منقطع لا يحتج به ولا يعول عليه، ولو جئنا نحتج بالأحاديث الواهية لعارضناك بحديث رواه ابن الجوزى من حديث على مرفوعًا: «هبط جبريل عليَّ فقال: «إن الله يقرئك السلام ويقول إنى حرمت النار على صلب أنزلك وبطن حملك وحِجْر كفلك»[1] ويكون من باب معارضة الواهى بالواهى.

إلا أنا لا نرى ذلك ولا نحتج به، ثم إن هذا السبب مردود بوجوه أخر من جهة الأصل والبلاغة وأسرار البيان وذلك أن الآيات من قبل هذه الآية ومن بعدها كلها فى اليهود من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [2] إلى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [3] ولهذا اختتمت القصة بمثل ما صدرت به، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ﴾ الآيتين فتبين أن المراد بأصحاب الجحيم كفار أهل الكتاب، وقد ورد ذلك مصرحًا به فى الأثر.

والجواب عن حديث الاستئذان فى الاستغفار لأمه على التسليم بصحته على أنه ليس فيه إلا النهى عن الاستغفار فقط دون الكفر أو الكون فى النار، فمن أخذ بظاهره كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح.

أما أولاً: فلأنه لا يلزم من عدم الإذن فى الاستغفار كفرهما بدليل أنه كان فى صدر الإسلام ممنوعا من الصلاة على من عليه دين وهو مُسْلِم فلعله كانت عليها تبعات غير الكفر فمنع من الاستغفار لها بسببها. قاله السيوطى.

وأما ثانيًا: فلأنه قد عارضته أدلة أرجح منه فى عدم تعذيب أهل الفَتْرَة من الآيات والأحاديث واتفق عليها علماء الأصول والكلام فوجب إلغاء هذا أو تأويله وتقديم تلك الأدلة كما هو مقرر فى الأصول ولا يمكن إلغاء تلك الأدلة لقطعيتها.

(١) العلل المتناهية.

(٢) سورة البقرة: ٤٠.

(٣) سورة البقرة: ١٢٤.

وأما ثالثًا: فلأن الأحاديث الواردة فى الأبوين الشريفين منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [1] وأمثاله من الآيات كما أجابوا بذلك عن الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين أنهم فى النار مع كثرتها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [2].

ومن هنا علم الجواب عن حديث مسلم الوارد فى أبيه فتنبه.

ثم رأيت المحقق ابن حجر فى «النعمة الكبرى» قد جمع بين أحاديث الاستغفار والإحياء بأن الله تعالى منعه من ذلك حتى يعظم المنة عليه بإحيائهما وإيمانهما وتصديقهما، فتنقلا من حال أهل الفَتْرَة - الذى لا يخلو عن تفضيل - إلى حال الإيمان الذى هو أكمل الأحوال وأعلاها. وبكاؤه ﷺ يحتمل أنه لفوات هذه المرتبة فمنَّ الله عليه بتحصيلها لهما.

فإن قلت: قد ذكرت أنه لم يذكر ذلك - أى القول بكفرهما وأنهما فى النار - أحد من الأئمة الأربعة المجتهدين، فما جوابك عن قول الإمام أبى حنيفة فى «الفقه الأكبر» أنهما ماتا على الكفر وعمّه أبو طالب مات كافرًا.

قلت: هذا لا يغتر به، وإن اغتر به بعض الناس - مع أننا نعتقد جلالة قائله - فإن العصمة ليست إلا للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولقد قال الإمام مالك - رضى الله عنه - وغيره، ما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر - يعنى النبى ﷺ.

والجواب عنه أما أولاً: فلا نسلم أن أبا حنيفة قال ذلك؛ فقد قال العلامة ابن حجر فى «الفتاوى»: وما نقل عن أبى حنيفة أنه قال فى «الفقه الأكبر» أنهما ماتا على الكفر مردود بأن النسخ المعتمدة من «الفقه الأكبر» ليس فيها شىء من ذلك، وبأن الموجود فيها ذلك لأبى حنيفة محمد بن يوسف البخارى لا لأبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى.. انتهى. فيكون قد نشأ

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٤.

الاشتباه من اشتراك التأليفين فى الاسم واشتراك المؤلفين فى الكنية، ولم يظفروا إلا بنسخة واحدة فظنوا أنها هى التى للإمام، ولئن سلم فنقول: لعل أصل النسخة ما ماتا كما وقع فى نسخة بعض علماء عصرنا فلما رأى النساخ تكرار ما ظن أحدهما ـ قبل إمعان النظر ـ زائدا فتركه، وانتشر النسخ فحينئذ ذكره لتعظيم حضرة الرسول ﷺ.

وأما ثانيًا: فليس فى هذا القول صريح بذلك؛ لأن قوله ماتا على الكفر المراد بالكفر الفَتْرَة، فقد يطلق الكفر على الفَتْرَة مجازًا كما هو مقرر فى محله فهو على وزان قوله تعالى: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى ماتا فى الفَتْرَة، وهذا قول صحيح. ألا ترى كيف غير العبارة فى أبى طالب فقال فى حقه: مات كافرًا فأطلق عليه الكافر حيث أنه بلغته الدعوة فكان كفره حقيقيًا نظرًا لظاهر الشرع، ولم يطلق ذلك عليهما فلم يقل ماتا كافرين، فتنبه لذلك فإنه مهم.

وهذه التأويلات وإن كانت بعيدة فى بادىء النظر إلا أنها أهون بكثير من نسبة الكفر إلى والدى النبى ﷺ الذى خلق العالم وما فيه لأجله.

فإن قلت: فما جوابكم عن قول الإمام النووى حيث قال فى شرح حديث مسلم: «أن أبىَ وأباك فى النار»[1]؟ فيه: إن من مات كافرًا فى النار ولا ينفعه قرابة الأقربين، وفيه: إن من مات فى الفَتْرَة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فى النار وليس هذا من التعذيب قبل بلوغ الدعوة لأنهم بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الرسل.

وقول الإمام الرازى: من مات مشركًا فهو فى النار وإن مات قبل البعثة؛ لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه وليس معهم حجة من الله به.. انتهى.

قلت الجواب: قال المحقق ابن حجر فى «المنح»: إن قول النووى هذا بعيد جدا للاتفاق على أن إبراهيم ومن بعده لم يُرسلوا للعرب، ورسالة إسماعيل

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان رقم (٢٤٧)، أبو داود (٤٧١٨).

انتهت بموته إذ لم يعلم نبينا ﷺ بعموم بعثه بعد الموت. وقد يؤوّل كلامه بحمله على عباد الأوثان الذين ورد فيهم أنهم فى النار، وبهذا يرد كلام الفخر الرازى القريب من كلام النووى. قال: ثم رأيت الآبى[1] شارح مسلم بالغ فى الرد على النووى بأن كلامه مناف لحكمه بأنهم أهل فَتْرَة، وبأن الدعوة بلغتهم، ومن بلغتهم الدعوة ليسوا أهل فَتْرَة؛ لأنهم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ولا أدركوا الثانى.

قال ابن حجر: ثم قال: ولما دلت القواطع على أن لا تعذيب حتى تقوم الحجة علمنا أن أهل الفَتْرَة غير معذبين.. انتهى وهو موافق لما ذكرته.

قال جدنا: وما أشار إليه ابن حجر من أن رسالة من عدا نبينا ﷺ تنتهى بموته وإن لم أره فى كلام غيره مصرحًا به لكنه موجه بأمور:

أحدها: لو لم تنته لما احتاج بعد موته إلى نبى آخر يبعث بعين ذلك الشرع مع أن كتابه محفوظ وأحكامه معلومة لهم كأنبياء بنى إسرائيل؛ فإنهم كلهم قبل عيسى بعثوا بالتوراة.

ثانيها: إن إبراهيم لم يكن مبعوثًا إلى العرب فلولا انتهت نبوّته لما انتقلت ملته ببعثة إسماعيل عن قومه إلى العرب وذلك لأن إسماعيل بعث بشرع إبراهيم إلى العرب.

ثالثها: مقتضى تحقق عموم رسالة نبينا ﷺ وتفضيله على غيره أن يكون تعميم الأزمان من خصوصياته كما أن تعميم الأشخاص من خصوصياته فيكون رسالة غيره إلى قومه ومدة عمره ورسالته ﷺ إلى الناس كافة وإلى يوم القيامة.. انتهى وهو كما تراه فى غاية التدقيق.

---

(١) هو محمد بن خلفة بن عمر الأبى الوشتاتى المالكى، عالم بالحديث، توفى بتونس (٨٢٧ هـ). انظر: الأعلام (٦/ ١١٥)، شجرة النور (٢٤٤)، معجم المطبوعات (٣٦٣).

خاتمة

الحذر الحذر من ذكرهما بنقص لأن ذلك قد يؤذيه ﷺ لحديث الطبرانى: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات»[1] وقد منع من إطلاق الكفر عليهما أو كونهما فى كذا محققو العلماء فمنهم إمام الهدى خامس الخلفاء الراشدين عُمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ حين قال له كاتبه: أصلح الله الأمير ما على من كان أبوه كافراً كان أبو النبى ﷺ مشركًا. فقال عمر: آه، ثم سكت، ثم رفع رأسه، ثم قال: أقطع لسانه؟، أقطع يده ورجله؟، أضرب عنقه؟. ثم قال: لا تلى لى شيئا ما بقيت.

فهذا عُمر إمام هدى وقد توعد القائل بهذا الوعيد الشديد ثم عزله عن ولايته عزل الأبد، وبمثله يقتدى فى الدين.

وقال السيوطى: وجدت بخط الشيخ كمال الدين الشمنى[2] الحنفى ما نصه: سئل القاضى أبو بكر بن العربى[3] عن رجل قال: إن أبا النبى ﷺ فى النار، فأجاب بأنه ملعون لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[4] ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنه فى النار.

وقال السُهيلى فى «الروض الأنف» بعد إيراده حديث مسلم: وليس لنا أن نقول ذلك فى أبويه ﷺ لقوله ﷺ: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات»..

---

(١) أورده فى كنز العمال (٣٧٤١٧)، مجمع الزوائد (٨/ ٧٦)، وفى الترمذى بلفظ «لا تسبوا» برقم (١٩٨٢)، ومسند أحمد (٤/ ٢٥٢)، والكامل للضعفاء (٤/ ١٥٦٨).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى، أبو بكر بن العربى (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ)، من حفاظ الحديث، وله مصنفات فى الفقه، والحديث، والأصول، والتفسير، والأدب، والتاريخ، ولد بالأندلس، وتوفى بالمغرب. انظر: الأعلام (٦/ ٢٣٠).

(٣) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن على الدنوشرى، الشافعى، فقيه مصرى عالم باللغة والنحو، توفى بمصر سنة (١٠٢٥ هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٩٧).

(٤) سورة الأحزاب: ٥٧.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ﴾ الآية.

وقال الباجى: لا يجوز أن يؤذى النبى ﷺ بمباح ولا غيره.

وقال العلامة ابن حجر فى «النعمة الكبرى»: إحذر أن تروغ عن القول بنجاتهما؛ فإنه ﷺ حذرك من ذلك بقوله لما اشتكى إليه عكرمة ـ رضى الله عنه ـ أن الناس يسبون أبا جهل: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات» رواه الطبرانى فى الصغير، قال: فالخوض فى ذلك على خلاف ما قلناه ـ يعنى القول بالنجاة ـ ربما يؤذيه ﷺ وايذاؤه كفر يُراق به دم قائله، فعلى العاقل أن يصرف نفسه عن هذه الورطة الصعبة التى قد تفضى إلى الكفر والعياذ بالله.

وقال فى «الفتاوى»: وإياك أن يسبق لسانك إلى غير ما قلنا ـ يعنى من النجاة ـ فتكون ممن آذى رسول الله ﷺ فتستحق اللعنة بنص القرآن كما قدمناه عن ابن العربى.

وإذا كان رسول الله ﷺ قال لما اشتكى إليه عكرمة بن أبى جهل قول الناس هذا ابن أبى جهل: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات» هذا مع كونه أبا جهل فما ظنك بمن يتكلم فى آبائه ﷺ بما يحطهم عن غاية الشرف والرفعة، نعوذ بالله من ذلك ونسأله السلامة عن الخوض فى هذه المهالك.. انتهى.

فهذه تصريحاتهم بعدم جواز نسبتهما إلى الكفر والحكم عليهما بدخول النار، ولم يرد فى ضدّه عن أحد من الأئمة المجتهدين لا تصريح ولا إشارة، كيف وقد نص بعض العلماء بأن الطعن فى الأنساب من الكبائر؛ لأنه يؤدّى إلى هتك أعراض الناس، وهذا ذنب كبير، وفى الحديث: «عرض المؤمن كدمه»، فإذا كان الطعن فى أنساب الخلق كبيرة فما ظنك بمن يتفوّه بكلام يلتزم الطعن فى نسب سيدنا بل سيد جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأن يقول على رؤوس الأشهاد أن أبويه كافران، نعوذ بالله تعالى من هذا الكلام الذى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً.

هذا ولولا مخافة التطويل والخروج عن المرام لزدنا على ما ذكرناه من

الكلام، وفى هذا القدر كفاية لمن له أدنى دراية، وفى قلبه محبة سيد الأنام عليه من الله العظيم ألف صلاة وسلام ما تعاقبت الدوران وتلاحقت الأزمان، فلنرجع إلى ما نحن بصدده ونستمد العون من مدده ونقول: قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه)

* * *

[تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله امرأة من بنى زهرة وحمل آمنة برسول الله ﷺ]

ولما ذكر المؤلف رحمه الله نسبه الشريف المعظم، انتقل منه إلى ذكر بعض ما وقع عند حمله وقبله وبعده، وما بين ذلك من الغرائب والعجائب، فما بعد التعطيرة الآتية داخل فيه فقال: (ولَمَّا أرادَ الله) سبحانه و (تعالى إبرازِ) أى إظهار (حقيقته المُحَمَّديَّة) هى عبارة عند القوم عن التعيين الأول الذى يلى غيب اللاتعيين، ويسمى عندهم حقيقة الحقائق، وهو من مراتب الوجوب إجماعًا، فجعله من مراتب الإمكان غير مصوغ، وعبّروا عن الحقيقة المحمدية بحقيقة الحقائق؛ لأنها أصل كل حقيقة إلهية وكونية، وقد بسطنا الكلام فى توضيح ذلك فى رسالتنا «نجم الهداية» (و) أراد سبحانه وتعالى (إظهارهُ جِسْمًا) أى هيئة حال أو تمييز (و) قوله (رُوحًا) تابع له فى إعرابه، وهو ما به حياة الجسم، وقد يؤنث والخلاف فى تحقيقه طويل، ولفظه مشترك بين عدة معان، ومذهب أهل السنة من المتكلمين والمحدثين والفقهاء والصوفية أنها جسم لطيف مشتبك بالبدن كاشتباك الماء بالعود الأخضر، وبهذا جزم النووى، ومذهب جماعة من الصوفية والمعتزلة أنها ليست بجسم ولا عرض بل جوهر مجرد متعلق بالبدن للتدبير غير داخل فيه ولا خارج عنه، ووجد لأهل مذهب مالك أن الروح ذو جسم ويدين ورجلين وعينين ورأس تسل من الجسد سلاً.

والمختار عند جمهور المحققين عدم الخوض فى بيان حقيقتها؛ لأنه لم يرد دليل عن الشارع ببيانها، وكل ما هو كذلك فالأولى عدم الخوض فيه، وما وجد لأهل مذهب مالك من الخوض فى بيان حقيقتها فعلى غير المختار.

فإن قيل: كيف يخوضون مع أن قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ

الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [1] دالٌ على عدم الخوض فيها؟ أجيب بأنه إنما أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بترك الجواب تصديقًا لما فى كتب اليهود من أن الإمساك عن ذلك من علامات نبوته وأدلة رسالته.. انتهى. قال بعضهم: ويكفى النص فى الخوض ما تقدم عن أهل مذهب مالك، لكن إذا خضت فلا تخض بأكثر مما مر.

واختلفوا فى بيان مقرها من الجسد، فقيل: هى فى باطن الإنسان لا يعرف مقرها إلا من أطلعه الله على ذلك، وقيل: مقرها البطن، وقيل: القلب، وقيل: بقرب القلب. والصواب ما تقدم من أنها جسم لطيف مشتبك بالبدن كاشتباك الماء بالعود الأخضر، وبه جزم إمام الحرمين، وهذا فى حالة الحياة.

وأما بعد الموت فأرواح السعداء بأفنية القبور على الصحيح، وقيل: عند آدم ـ عليه السلام ـ فى سماء الدنيا، لكن لا دائمًا، فلا ينافى أنها تسرح حيث شاءت. وأما أرواح الكفار ففى سجين فى الأرض السابعة السفلى محبوسة، وقيل: أرواح السعداء فى الجابية بالشام، وقيل: ببئر زمزم، وأرواح الكفار ببئر برهوت فى حضرموت التى هى مدينة فى اليمن[2].

(بصورته) أى صورته التى صوَّره الله عليها، أو شكل بدنه، أو تناسب أعضائه ومقاديرها، ولون بشرته **(ومَعْنَاه)** أى أصله من غير تصوير أو حاله ﷺ وهو ما استمر عليه من الآداب الكريمة والأخلاق الشريفة التى لو أفنى غيره عمره الطويل فى تحصيل بعضها لم يحصل.

وقد حصلت له ﷺ كلها على الكمال كما ثبت بالأحاديث الصحيحة التى يفيد مجموعها تواتر القدر المشترك بينها، وهو ثبوت ذلك الخلق الكريم له ﷺ مع ما وصفه الله به فى كتابه حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [3] وهذا الثانى هو المتبادر.

---
(١) الإسراء: ٨٥.
(٢) انظر الروح لابن القيم ص (١٧٥).
(٣) سورة القلم: ٤.

واستغرب بعضهم الأول في كلا تفسيرى الصورة والمعنى وقال: والأقرب أن يكون المراد بصورته صورة النور التى صورً الله نوره عليها وبمعناه أصله من غير تصوير، واستدل على ذلك بقول الزرقانى: إن الله صورً نور نبينا بصورة روحانية مماثلة لصورته التى يصير عليها بعد.. انتهى. وقوله: «مماثلة لصورته» يفيد أن صورته ﷺ كانت موجودة فى علم الله قبل تصوير نوره عليها، بل قبل خلق نوره، وكان النور تابعًا لتلك الصورة كما كان تابعًا للمادة التى خلق ﷺ منها، وهو المناسب لقول المؤلف: نقله... إلخ فلا مانع من إرادة كل من المعنيين فى كل من الصورة والمعنى، ثم لم يزل نوره ﷺ تابعًا للمادة المنتقلة من صلب طيب إلى رحم طاهر إلى أن (نَقَلَهُ) الله تعالى بإرادته من ظهر عبد الله بن عبد المُطَّلب (إلى مَقَرِّه) أى موضع استقراره (من صَدَفَةٍ) أى بطن، عدل عنه إليها للإشارة إلى تشبيهه ﷺ باللؤلؤة الكامنة فى صدفتها على طريقة الاستعارة التصريحية (آمنةَ الزُّهْرِيَّة) أى المنسوبة إلى زُهْرة جد أبيها كما تقدم.

(و) قد (خَصَّها) من بين نساء عالمها الله الملك (القريبُ) من عباده قربًا معنويًا (المجيبُ) دعاء من دعاه منهم بأن ينيله مطلوبه ويوصله مرغوبه معجلاً أو مؤجلاً لوعده الصادق بذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (1) والإجابة لابد منها ولكن ليس بلازم أن تكون بعين المطلوب بل الأمر بالإجابة موكول لله عز وجل فيمكن أن يجيبه بما هو خير مما طلبه إلا أن يوافق الدعاء ساعة إجابة فلابد من الإجابة بعين المطلوب (بأنْ تكُونَ) أى آمنة والباء داخلة على المقصور (أُمّا لِمُصْطَفَاه) ﷺ أى مختاره بين سائر خلقه وأصله مصتفاة، قلبت تاء الافتعال طاء كما هو القاعدة إذا وقعت بعد حرف من حروف الإطباق قال ابن مالك:

* طا تا افتعال رد إثر مطبق *

---

(1) سورة البقرة: ١٨٦.

وكانت آمنة الزُّهْرية سيدة بنى زُهْرة، وكان زوجها عبد الله أجمل قريش لنور محمد ﷺ الذى فى وجهه، وكان قد شغف به كل نسوة قريش حتى لقى منهن ما لقى يوسف الصديق عليه السلام فى وقته من امرأة العزيز.

روى الحافظ العراقى من طريق ابن إسحاق بسنده قال: لما انصرف عبد المُطَّلب ـ يعنى من نحر الإبل ـ عن عبد الله أخذ بيد عبد الله فمر به ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بنى أسد، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قُصَىّ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبى. قالت: لك مثل الإبل التى نُحِرَتْ عنك وَقَعْ علىَّ الآن، قال: أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه[1].

وروى الخرائطى وأبو نُعيم وابن عساكر عن ابن عباس: أنه لما انطلق به أبوه ليزوجه مرَّ على فاطمة الخثعمية ـ كاهنة مشهورة قرأت الكتب، ولها جمال مفرط وعفة زائدة، وكان شباب قريش يتحدثون بها ـ فقالت له: يا فتى من أنت؟ فأخبرها، فقالت: هل لك أن تَقَعَ علىَّ الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فنظر إليها وقال:

أما الحرامُ فالمماتُ دونهْ ... والحِلُّ لا حِلَّ فأستَبِينَهْ

فكيف بالأمرِ الذى تَبْغِينهْ ... يحمى الكريم عِرْضه ودينهْ[2]

وكأنه أراد دفعها بالأهون، فلما ألحت عليه زجرها بالأبيات المذكورة.

وفى «غرائب» ابن قتيبة أن التى عرضت نفسها عليه هى ليلى المخزومية.

فخرج به عبد المُطَّلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زُهْرة بن كِلاب وهو يؤمئذ سيد بنى زُهْرة، فزوجه آمنة بنت وهب وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا، أى وذلك بعد أن تزوج عبد المُطَّلب هالة بنت أهيب أخى وَهْب وهى أم حمزة بن عبد المُطَّلب.

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (١/١٠٢)، والحافظ الشامى فى سيرته (١/١٩١) مطولاً، والسيرة الشامية (١/١٦٤).

(٢) الوفا ص (٨٣)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٨٢)، الخصائص الكبرى (١/٦٩).

فقالت قريش: غلب عبد الله أباه عبد المُطَّلب، فزعموا أن عبد الله دخل عليها حين أملكها، فكأنه وقع عليها فحملت برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت ـ أى ليستخرج ما عندها من العلم ـ فقال لها: مالك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضت بالأمس؟ فقالت له: فارقك النورُ الذى كان معك بالأمس، فليس لى بك اليوم حاجة.

وفى رواية قالت: كان ذلك مرة فاليوم لا فذهب مثلا.

وفى أخرى أنها قالت: والله إنى لست بصاحبة ريبة ولكن رأيت النور فى وجهك فأحببت أن تضعها عندى، وأبى الله أن يضعها إلا حيث يشاء.

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصر واتبع الكُتُب ـ أنه لكائن فى هذه الأمة نبىٌّ.

وفى أخرى عن ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار أنه حدث أن أبا النبى ﷺ عبد الله دخل على امرأة كانت له مع آمنة وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك الطين، فلما غسل الطين دعته امرأته إلى نفسها فلم يفعل، ثم خرج عامدًا إلى آمنة فدخل عليها فأصابها، فحملت بمحمد ﷺ، ثم مر بامرأته تلك فقال لها: هل لك؟ فقالت: لا، مررت بى وبين عينيك غرّة فدعوتك فأبيت، ودخلت على آمنة فذهبت بها.

قال ابن إسحاق: فزعموا أن امرأته كانت تقول إنه مرّ بها وبين عينيه مثل غرة الفرس، قالت: فدعوته رجاء أن تكون تلك الغرّة بى فأبى، ودخل على آمنة فأصابها، فحملت برسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ أوسط قومه نسبًا وأعظمهم شرفًا من قِبَل أبيه وأمه[1].

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٨١)، تاريخ الخميس (١/ ١٨٤)، مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٨)، الوفا لابن الجوزى ص٨٢ وما بعدها، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١٠٢)، السيرة الشامية (١/ ٣٩١)، وعلى الرغم من تناقل كتب السيرة لهذه الأخبار فإننا نجد أنهم ينقلونها على أساس التشكيك، وفيها اضطراب شديد، ويدل على ذلك قول ابن إسحاق فى سياقه للخبر: «فيما يزعمون».

قال الزبير بن بكَّار: إنه وقع عليها حين أملكها فحملت برسول الله ﷺ، وذكر أيضًا: أنها حملت به فى أوسط أيام التشريق من ذى الحجة وهى ثلاثة أيام، أو يومان بعد يوم النحر.

ويأتى قريبا عن سهل التسترى[1]: أن الحمل كان فى أول ليلة من رجب، وكانت ليلة جمعة فى شِعْب[2] أبى طالب عند الجمرة الوسطى، وكان عبد الله عمره إذ ذاك ثلاثون سنة كما رجَّحه ابن عبد البر، ورجح غيره أنه ثمانى عشرة سنة، وقيل: أقام عندها ثلاثا.

قال ابن منيع[3] وغيره: عن كعب الأحبار قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمدا ﷺ آمر جبريل [أن يأتيه] بالطينة التى هى قلب الأرض وبهاؤها ونورها؛ فهبط [جبريل] فى ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلى فقبض قبضة رسول الله ﷺ من [موضع] قبره الشريف وهى بيضاء نيِّرة، فعجنت بماء التَّسنيم، ثم غُمست فى أنهار الجنة حتى صارت كالدُّرة البيضاء لها شُعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسى فى السموات والأرض والجبال والبحار، فَعَرَفَتْ الملائكة وجميع الخلق محمداً ﷺ قبل أن تَعْرِفْ آدم، أى ثم عجنت تلك الطينة بنطفة أبويه رضى الله عنهما[4].

قال العلامة السيد حسن البرزنجى - والد المؤلف رحمهما الله تعالى - فى «النجم الثاقب»: قال البوسعيدى فى «وصلة الزلفى»: لا يعدل عبد الله بن عبد المُطَّلب إنسان فى عالم جنسه إذ هو آخر من حمل النور الزكى، وكان صلبه القرار والكرسى، ولم تجتمع جوهرته العظمى فى ظهره مع ذرة بشر

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التسترى، أبو محمد (٢٠٠ - ٢٨٣ هـ) صوفى عالم فى علوم الرياضيات والإخلاص وعيوب الأفعال، توفى بالبصرة. انظر: الأعلام (٣/١٤٣)، وفيات الأعيان (١/٢١٨)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠).

(٢) الشِّعْب: هو الطريق فى الجبل.

(٣) هو أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوى، أبو جعفر (١٦٠ - ٢٤٤ هـ)، حافظ ثقة، له مسند في الحديث، كان يعد من أقران أحمد بن حنبل فى العلم. انظر: الأعلام (١/ ٢٦٠)، سير أعلام النبلاء (١١/٤٨٣).

(٤) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (١/٨٩) لأبى سعد النيسابورى فى «شرف المصطفى». وذكره ابن الجوزى فى الوفا بأحوال المصطفى» ص (٢٧)، وانظر الزرقانى على المواهب (١/ ٤٢).

وكذلك رحم صاحبته آمنة أمنت بحمله من مس نوائب الضرر إليها انتهى، مرموز السر المكنون، وختم بها انتقال النور الموعود المخزون، وجعل بيت بدنها معدن الصدف المصون فأنى يعدلهما إنسان فهما هما فالله درّهما.. انتهى.

وروى محمد بن عمر الواقدى عن عبد الله بن وهب بن زمعة عن أبيه عن عمته قالت: كنا نسمع أن آمنة كانت تقول: ما شعرتُ أنى حملتُ به ولا وجدت له ثِقلاً كما تجد النساء، إلا أنى أنكرت رفع حَيْضَتى وربما كانت ترتفع وتعود[1].

وعن الزهرى قال: قالت آمنة: علقت به فما وجدت له مشقةً حتى وضعته.

وروى الحافظ العراقى بسنده المتصل إلى حليمة السعدية مرضعة النبى ﷺ أن آمنة بنت وهب قالت لها: إن لابنى هذا شأنا، إنى حملت به فلم أحمل حملا قط كان أخف علىَّ ولا أعظم بركة منه[2].

تنبيه

مقتضى هذا أنها حملت بغيره بل فى رواية ابن سعد التصريح بأنها حملت بأولاد قبله ﷺ لكن قال ابن الجوزى: أجمع علماء النقل أن آمنة لم تحمل بغيره ﷺ. وقد قال الإمام أبو الحسن الماوردى: إنه لم يشاركه فى نسبه أحد. وحمل غير ابن الجوزى رواية ابن سعد على أنها أسقطت من عبد الله.

قال والد المؤلف ـ رحمهما الله تعالى ـ أقول: قد يعكر عليه ما ورد: أن رجلا قال يا رسول الله ما حقيقة أمرك؟ قال: إنى دعوة أبى إبراهيم، وبشارة أخى عيسى، وإنى كنت بكر أمى، وأنها حملت بى كأثقل ما تحمل النساء،

(١) الوفا ص (٨٤)، الخصائص الكبرى (١/ ٧١).
(٢) الوفا ص (٨٥)، الخصائص الكبرى (١/ ٧٢).

وجعلت تشتكى إلى صواحبها ثقل ما تجد، ثم إن أمى رأت فى منامها الذى فى بطنها نوراً. . . الحديث[1]، فإن كونه بكراً مما ينافى أن يكون قبله سقط. والله أعلم.

قال: وفى هذا ـ أعنى وجدانها ـ الثقل مخالفة للأحاديث المارة أنها لم تجده، وجمع أبو نعيم الحافظ بأن الثقل كان فى ابتداء علوقها به والخفة عند استمراره، قال: فيكون فى الحالين خارقًا للعادة.

و (**نُودِىَ**) أى نادى مناد من قبل الله سبحانه وتعالى (**فى**) الملكوت الأعلى من (**السَّموات**) جمع سماء (**و**) فى العالم السفلى من (**الأرضِ**) أى الأرضين كما فى رواية وفى أخرى: فى السماء والأرض بالإفراد فيهما (**بِحمْلِهَا**) أى آمنة (**لأنواره**) ﷺ (**الذَّاتية**) التى هى عين ذاته السرية.

* * *

(1) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٢٧)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦٠)، البيهقى فى دلائل النبوة (١/٨٣)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٣).

[ما وقع فى حمله ﷺ من الآيات]

قال فى «المواهب»: ولما حملت آمنة برسول الله ﷺ ظهر لحمله عجائب ووجد لإيجاده غرائب، فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية ودُرَّته المحمدية فى صدفة آمنة القريشية نودى فى الملكوت ومعالم الجبروت أن عطّروا جوامع القدس الأسنى، وبخّروا جهات الشرف الأعلى، وافرشوا سجادات العبادات فى صفف الصفا لصوفية الملائكة المقربين أهل الصدق والوفا، فقد انتقل النور المكنون إلى آمنة ذات العقل الباهر والفخر المصون، قد خصها الله تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب لأنها أفضل قومها حسبا وأنجبهم وأزكاهم أصلا وفرعا وأطيب.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: لما أراد الله تعالى خلق محمد ﷺ فى بطن آمنة ليلة رجب ـ أى ليلة أوله ـ وكانت ليلة جمعة أمر الله تعالى فى تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس، ونادى مناد فى السماء ألا إن النور المخزون المكنون الذى يكون منه النبى الهادى فى هذه الليلة يستقر فى بطن آمنة الذى يتم فيه خلقه ويخرج إلى الناس بشيراً ونذيراً.

وفى رواية كعب الأحبار: أنه نودى تلك الليلة فى السماء وصفاحها، والأرض وبقاعها، أن النور المكنون الذى منه رسول الله ﷺ انتقل فى بطن آمنة فيا طوبى لها ثم يا طوبى.

وذكر الزبير بن بكّار أنها حملت به فى أوسط أيام التشريق.

وهذان الأثران ـ أعنى روايتى سهل والزبير ـ بينهما تناف ومقتضى الثانية أنه ﷺ مكث فى البطن أكثر من تسعة أشهر، والمنقول عن الجمهور خلافه، نعم قال الحافظ العراقى أن فى رواية الزبير بن بكّار: أنه ولد فى رمضان، وعلى هذا فيكون على قوله تسعة أشهر.. والله أعلم.

(وَصَبَا) أى مال فرحًا وسروراً (كُلُّ صَبٍّ) بفتح الصاد: العاشق (لِهُبُوبِ) من حيث الدراية يصح قراءة أوله بالضم والفتح فعلى الأول يكون مصدراً قياسيًا لِهَبَّ إذ هو لازم مضموم العين فى المضارع، قال فى «الخلاصة»:

وفعل اللازم مثل قعدا له فعول باطراد كغدا

وعلى الثانى من أبنية المبالغة المذكورة فى قوله:

فعال أو مفعال أو فعول فى كثرة عن فاعل بديل

فإضافته تكون على الأول حقيقية على معنى اللام، وعلى الثانى بيانية، وأما الرواية فغير معلومة (صَبَاه) بفتح المهملة وهى الريح الطيبة التى تهب من شرقى الأفق. وفى كلامه استعارة بالكناية وتخييل؛ حيث شبهه ﷺ بمطلع الشمس بجامع أن كلاً محل لظهور الأنوار، واستعار الصبًا لإمارة الحمل به وإشاعته تخييلاً ورشحها بالهبوب، والمعنى اشتاق كل محب شديد المحبة مستنشقًا شَذا عَرْفه المسْكىّ لظهور حمله ﷺ.

والضمير فى صَبَاه للنبى ﷺ، قال بعضهم: ولا يخفى ما فى تخصيص ريح الصبًا بالذكر من المناسبة الظاهرة من حيث أنها تصبو إلى تجاه الكعبة التى هى أعظم مكان فى مكة التى هى محل حمله وولادته ﷺ بل هى أعظم بقاع الدنيا بعد البقعة التى ضمت أعضاءه ﷺ، وفيه نظر لما سيأتى من أن مواضع أجساد الأنبياء أشرف منها.

فائدة

وهى أن الريح إذا هبت من تجاه الكعبة فالصبًا، وهى حرة يابسة تهب من المشرق، تنفع الأبدان، وتهيج الأشواق إلى الأحباب والأوطان، أو من ورائها فالدَّبور وهى باردة رطبة، أو من يمينها فالجنوب وهى حارة رطبة، أو من شمالها فالشَمال ـ بفتح الشين ـ وهى باردة يابسة، وهى ريح الجنة التى تهب عليهم، وقد نظم ذلك بعضهم فى قوله:

صبا ودبور والجنوب وشَمأل ... هى الأربع اللاتى تهب لكعبة

وكان الناس قبل حمله فى جَدْبٍ شديد، فعند حمله اخضرت الأرض، وأخصب العيش خصبًا عظيمًا بحيث سميت تلك السنة «سنة الفتح»، وأتاهم الوفد من كل مكان بذلك، وإلى هذا أشار المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله:

(وكُسِيَتِ الأرضُ) أى ألبست **(بَعْدَ طول جَدْبِهَا)** بجيم مفتوحة فمهملة ساكنة فموحدة أى قحطها الذى طال عليها سنين **(من)** أنواع **(النبات)** حال من الحُلل لأنه نعت نكرة تقدم عليها، ونعت النكرة إذا تقدم عليها أعرب حالاً كما هى القاعدة، وأما قول بعضهم أنه بيان للحلل فيلزم عليه تقديم البيان على المبين وفيه ما فيه.

(حُللاً) بضم الحاء المهملة جمع حُلَّة وهى ثوبان من جنس واحد **(سُنْدُسيَّةً)** بضم السين والدال المهملتين بينهما نون ساكنة أى منسوبة للسندس ضرب من رقيق الديباج ـ معرَّبٌ بلا خلاف ـ من نسبة المشبه للمشبه به بجامع الحسن والنضارة فى كل، والمراد: أن الأرض عمها النبات وسترها ببركته ﷺ.

(وأَيْنَعَت) بفتح الهمزة وسكون المثناة تحت وفتح النون والعين المهملة من الإيناع وهو الإدراك أى أدركت **(الثِّمَارُ)** جمع ثمرة **(وأَدْنَى)** أى قرَّب بتشديد الراء **(الشَّجَرُ)** الحامل للثمار وهو عرفًا يطلق على كل ذى ساق من النبات **(للجانى)** اسم فاعل جنى أى لمريد جنى ثمرته وقطعها من شجره **(جَنَاه)** بفتح النون والجيم اسم ما يجتنى من الثمر.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: من دلالة حمل آمنة برسول الله ﷺ أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة وقالت: حُملَ بمحمد ﷺ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم تبق كاهنة فى قريش والعرب إلا حجبت عن صاحبها وانتزع علم الكهانة منها، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا

أصبح منكوسا، وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك، ومرت وحوش المشارق إلى وحوش المغارب تبشر بالبشارات، وكذا بشر أهل البحار بعضهم بعضا[1]. وإلى ذلك أشار المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله:

(ونَطَقَتْ) أى تكلمت **(بحمله كلُّ دَابة)** من الدواب ذوات الأربع وغيرها وإن خصها العرف بذوات الأربع **(لقُريشٍ)** القبيلة المشهورة التى منها رسول الله ﷺ **(بفصَاحِ)** بكسر الفاء جمع فصيح **(الألسُنِ)** بضم السين جمع لسان أى بالألسن الفصاح من إضافة الصفة للموصوف **(العربية)** التى هى أفصح اللغات وأشرفها وأجلها وأبينها، كيف لا وقد نزل القرآن بها، وكم وردت فى فضلها وفضل أهلها آيات قرآنية وأحاديث نبوية **(وَخَرَّت)** بالخاء المعجمة والراء المشددة أى سقطت حين حمله ﷺ **(الأَسِرَّةُ)** بفتح الهمزة وكسر المهملة وشد الراء المفتوحة جمع سرير، ويجمع على سُرُر بضمتين ككثيب وكُتُب، والمراد هنا: أَسِرَّة الملوك كما مر آنفًا **(و)** خرَّت **(الأصنامُ)** أى الصور المعبودة للمشركين **(على الوجوه)** جمع وجه **(و)** على **(الأفواه)** جمع فُوْه بضم فسكون ويقال فيه فم بالميم عوضًا عن الواو.

والمراد أنه وقع منهم ذلك على هيئة يشبه هيئة الإنسان عند السجود.

قال فى «المنح»: وذكروا ـ يعنى علماء هذا الشأن ـ أنه لما استقرت نطفته الكريمة فيها ـ أى أمه ﷺ ـ أصبحت أصنام الدنيا منكوسة.

وقد وقع منهم ذلك أيضا عند ولادته ﷺ فعن عبد المُطَّلب قال: كنت فى الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرّت سجّدا، وسمعت صوتًا من جدار الكعبة يقول: ولد المصطفى المختار الذى تهلك بيده الكفار، ويطهر من عبادة الأصنام، ويأمر بعبادة الملك العلام.

وقال الجلال السيوطى فى «خصائصه الصغرى»: إن من خصائصه ﷺ

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٦٦)، وأورده السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١)، وقال: فيه نكارة شديدة. وقال القسطلانى فى المواهب (١/ ٦٣): شديد الضعف.

تنكس الأصنام لمولده ﷺ[1]. وينافيه ما جاء أن عيسى ـ عليه السلام ـ لما وضعته أمه خرَّ كل شيء يعبد من دون الله فى مشارق الأرض ومغاربها ساجدًا لوجهه.

نعم فى تنكس الأصنام عند حمله وتكرره عنده وعند الولادة ـ كما يعلم مما مر ومما يأتى ـ خصوصية لنبينا ﷺ وعليه فليحمل كلام السيوطى. تأمل.

(وتَبَاشَرَتْ) أى استبشرت وسرت فى أنفسها وبشر بعضها بعضا **(وحوشُ)** جمع وحش **(المَشَارِقِ)** جمع مشرِق بكسر الراء على غير القياس إذ قياسه فتحها مطلقا فى إرادة المصدر أو الزمان أو المكان ولا تكسر إلا إذا أريد غير المصدر من الزمان أو المكان وكان المضارع مكسور العين صحيح اللام، وهو مطلع الشمس لأن لها فى السنة ثلاثمائة وستين كوة، تطلع كل يوم فى واحدة منها لا تعود إليها إلا على دورها **(و)** وحوش **(المَغَارِبِ)** جمع مغرب وهو مغرِب الشمس، وَجُمِعَت لما ذكر فى مشارق، ويجرى فى مفرده ما يجرى فى مفرد مشارق، وقد يثنى فيقال مشرقين باعتبار مشرق الصيف والشتاء وبحسب ذلك يثنى المغرب وقد ورد ذكرهما بلفظ الجمع فى التنزيل كما فى قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [2] الآية وكذا بلفظ المثنى بالاعتبار المذكور فى قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [3] وكذا بلفظ المفرد باعتبار إرادة الجنس نحو قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [4] الآية، والظاهر أن المراد هنا جميع أقطار الأرض باعتبار جعلها كلها قسمين شرقيًا وغربيًا، وكذلك يقال فيما يأتى من دواب البحر، ولذا أعاد إليهما ضمير المفرد فقال: **(و)** تباشرت كذلك **(دوابُّها)** جمع دابة أى دواب جميع المشارق والمغارب بالاعتبار المذكور، فالمراد

---

(١) الخصائص الكبرى (١/ ٨٠).

(٢) سورة المعارج: ٤٠.

(٣) سورة الرحمن: ١٧.

(٤) سورة المزمل: ٩.

جميع أقطار الأرض (**البحْرِيَّة**) أى المنسوبة إلى البحر بسكون الحاء المهملة؛ سمى به لعمقه واتساعه، والجمع أبْحُر وبِحَار وبُحُور، وكل نهر عظيم بَحْر.

(**واحْتَسَت**) بهمزة وصل وسكون الحاء المهملة وفتح المثناة فوق والسين المهملة مخففة، أى شربت (**العوالمُ**) جمع عالَم بفتح اللام، وهو ما سوى الله تعالى من الجواهر والأعراض (**من**) شراب (**السُرورِ**) بمهملة مضمومة ورائين مهملتين بينهما واو، وهو لذة القلب عند حصول نفع أو توقعه (**كأسَ**) بهمزة ساكنة وقد تبدل للتخفيف ألفا كما فى فأس ورأس، وهو إناء الشرب (**حُمَيَّاه**) بضم الحاء المهملة على صيغة المصغر، وهو فى الأصل الخمر المتخذ من عصير العنب، وقد تطلق مجازا على المشروب ولو معنويا كما هنا، فيكون قد شبه السرور بالخمر بجامع حصول الطرب والانتعاش بكل. واستعار الحميا للسرور تخييلا ورشحها بالكأس والاحتساء، وضبط بعضهم الحِمْيا بكسر الحاء المهملة وسكون الميم وفسره بشدة السرور، ونقل عن «القاموس» أن الحميا من كل شيء شدته. قال: فشبه السرور بمرق فى النفع، ونَصَبَ الاحتساء قرينة عليه، ورشحه بالكأس، وتعقبه الشارح بأمور منها:

أن ما ذكره من الضبط لا يناسب ما نقله عن «القاموس» فإن ما نقله فى الحميا على صيغة المصغر كما هو الموجود فى صحاح نسخ «القاموس»، وأن ما ذكره من الضبط إنما هو فى مصدر حميت الشمس والنار فإنه حِمْى بكسر الحاء وسكون الميم كما ذكره صاحب «القاموس» قبل ذلك.

(**وبَشَّرَت**) بفتح الموحدة وتشديد الشين المعجمة فراء مهملة مفتوحة، أى أخبرت بما يَسر كل ذى لُبٍّ سليم (**الجنٌ**) سموا به لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، وهم أجساد هوائية أو نارية أى يغلب عليهم ذلك، فهم مركبون من العناصر الأربعة كالملائكة على قول، وقيل: أرواح مجردة، وقيل: نفوس بشرية مفارقة عن أبدانها. وعلى كل فلهم عقول وفهم ويقدرون على التشكل بأشكال مختلفة وعلى الأعمال الشاقة فى أسرع زمن، وصح خبر أنهم ثلاثة

أصناف: ذو أجنحة يطيرون بها، وحيات، وآخرون يحلون ويظعنون، ومع ذلك فقد تكفل الله لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع منهم ما يُؤدى إلى رفع الثقة ووقوع الريبة فى الدين بتشكّلهم بأحد، ومن زعم أنه رآهم رُدَّت شهادته وعُزِّر لمخالفته القرآن.

وقد ثبتت فى الأحاديث الكثيرة الصحيحة رؤيته ﷺ وقراءته عليهم وسؤالهم منه الزاد ولدوابهم على كيفيات مختلفة.

والجمهور على أن مؤمنيهم يثابون ويدخلون الجنة، وقول أبى حنيفة والليث: لا يدخلونها وثوابهم النجاة من النار بالغوا فى رده، على أنه نقل عن أبى حنيفة أنه أخذ دخولهم من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌ﴾ (1) انتهى ملخصًا من التحفة. وسيأتى عند قول المصنف: «وملكان على رأسه الشريف قد أظلاّ» جواز رؤيتهم كالملائكة لتصريح الحديث الصحيح بذلك، وحملوا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (2) على ما إذا كانوا على صورتهم الأصلية أو على الغالب.

(بإظْلال) بكسر الهمزة وسكون الظاء المشالة مصدر أظل، أى بقرب **(زمنه)** أى وقت بروزه ﷺ إلى هذا العالم، فمن تبشيرهم بذلك: ما أخبر به ورقة بن نوفل[3] فى قصة ذكرها ابن القطان[4]: أن ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نُفَيل[5] أتيا النجاشى... وساق القصة إلى أن قال: قال ورقة: كنت

---

(1) سورة الرحمن: ٥٤.

(2) سورة الأعراف: ٢٧.

(3) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، حكيم جاهلى، اعتزل عبادة الأوثان قبل الإسلام، وامتنع عن أكل ذبائحها، وتنصر، أدرك أوائل عصر النبوة، ولم يدرك الدعوة. سئل النبى ﷺ عنه فقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده». انظر: الأعلام (٨/ ١١٤).

(4) هو على بن محمد بن عبد الملك الكتامى الحميرى الفاسى أبو الحسن بن القطان (٥٦٢ ـ ٦٢٨ هـ) حافظ ناقد. انظر: الأعلام (٤/ ٣٣١)، شذرات الذهب (٥/ ١٢٨).

(5) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشى العدوى، نصير المرأة فى الجاهلية، وأحد الحكماء، كان يكره عبادة الأوثان، ولا يأكل مما ذبح عليها، ورحل إلى الشام باحثًا عن عبادات أهلها، فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية فعاد إلى مكة وتوفى بها قبل البعثة بخمس سنين. الأعلام (٣/ ٦٠).

ليلة قريبًا من وثن إذ سمعت من جوفه هاتفًا يقول:

وُلِدَ النَّبىُ وذلَّت الأمْلاكُ ونأى الضَّلالُ وأَدْبَرَ الإِشْرَاكُ

ومنها ما أخبر زيد بن عمرو بن نُفَيْل قال فى حديثه: خرجت من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبى قُبَيْس أريد الخلوة فيه، إذ رأيت رجلا من السماء وله جناحان قد وقف على أبى قُبَيْس مشرفًا على مكة، ونادى: ذلَّ الشيطان وبطلت الأوثان، ثم نشر ثوبًا معه فأهوى نحو المشرق والمغرب، فرأيته قد ظل بين السماء والأرض، وسطع نورٌ كاد يخطف بصرى، وهالنى ما رأيت، وخفق الهاتف بجناحه حتى سقط على الكعبة، فقال: ذلَّت الأصنام وأذن زيفها، وأومأ إلى الأصنام التى على الكعبة فسقطت كلها.

وفى القصة: فقال النجاشى: ويحكما! أخبركما بما أصابنى: إنى لنائم - فى تلك الليلة التى ذكرتماها - فى قبتى وقت خلوتى إذا بهاتف يقول: حلَّ الويل بأصحاب الفيل، ترميهم الطير الأبابيل بحجارة من سجيل، ولد النبى الأمى، من أجابه سعد، ومن أباه عند، فذهبت أصيح فلم أطق الكلام، ورمت القيام فلم أطق القيام، فقرعت القبة بيدى، فسمع ذلك أهلى فتبادروا، وأومأت إليهم أن أحجبوا عنى الناس فحجبوهم، حتى أطلق الله لسانى ويدى[1].

ومنها ما روى عن يحيى بن عروة عن أبيه كما عند ابن القطان: أن نفراً من قريش منهم وَرَقة بن نَوْفَل، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، كانوا عند صنم لهم قد اجتمعوا إليه يومًا، اتخذوا ذلك اليوم عيداً فى كل سنة يعظمونه وينحرون عنده الجزور، ويأكلون، ويشربون الخمر، ويعكفون عليه، فرأوه يوما مكبوبًا على وجهه فأنكروا ذلك، وأخذوه وردّوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلابًا عنيفًا، فأخذوه وردوه إلى حاله،

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى.

فانقلب الثالثة، فلما رأوه اغتمّوا، فقال عثمان بن الحويرث: ما له قد أكثر التنكيس؟! إن هذا لأمر حدث ـ وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ـ فجعل عثمان بن الحويرث يقول:

أيا صنَم العيدِ الذى صُفَّ حوله ... صناديد قومٍ من بعيدٍ ومن قُرْبِ
تَنكّسْتَ مقلوبًا فما ذاكَ قُلْ لنا ... بغاك سفيه أم تنكّست للعبِ
فإن كان عن ذنبٍ أتينا فإننا ... نبوءُ بإقرارٍ ونلوى عن الذنبِ
وإن كنتَ مغلوبًا تنكست صاغراً ... فما أنت فى الأوثان بالسيد الربِ

قال: فأخذوا الصنم فردّوه على حاله، فلما استوى هتف بهم بصوت جهير، وهو يقول:

تردّى لمولود أنارت بنوره ... جميعُ فجاجِ الأرضِ بالشّرقِ والغربِ
وخرَّت له الأوثانُ طُرّا فأرعدتْ ... قلوب مُلوكِ الأرضِ طُرّا من الرعبِ
ونار جميع الأرض باختْ وأظلمتْ ... وقد باتَ شاهُ الفرسِ فى أعظم الكربِ
وسارت عن الكهان بالغيب جنها ... فلا مُخْبِرٍ منهم بحقٍّ ولا كذبِ
فيا لقصى ارجعوا عن ضَلالكم ... وهبّوا إلى الإسلام والمنزل الرّحْبِ

فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيّا، فقال بعضهم لبعض: تصادفوا. . . إلى آخر ما ذكره ابن القطان فى هذا الخبر، وفى آخره: عن زيد بن عمرو بن نُفَيْل أنه خرج يطلب الدين حتى لقى بالحيرة[1] راهبًا فأخبره بالذى يطلب، فقال: إنك لتطلب دينا ما تجد ما يحملك عليه، ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلدك بدين الحنيفية. فلما قال له ذلك رجع يريد مكة، فعدت عليه لخم فقتلوه[2].

وهذا وبعض ما تقدم وإن لم يكن إخبارًا بالحمل النبوى لكنه ذُكِرَ معه استطرادًا لما بين ذلك كله من المناسبة إذ المقصود من الإخبار بظهوره ﷺ كما

(١) الحيرة: مدينة كانت تبعد ثلاثة أميال عن الكوفة على موضع يقال له: النجف. (معجم البلدان (٢/٣٢٨).
(٢) الخصائص الكبرى للسيوطى (١/٨٨). وابن عساكر وعزاه للخرائطى فى الهواتف.

لا يخفى، والبشارات به ﷺ على الأنواع المذكورة كثيرة لا يحتملها هذا المحل.

(وانْتُهِكَت) مبنيًا للفاعل أو للمفعول أى انتزعت **(الكَهَانَة)** بفتح الكاف وهى الإخبار بالأمور الخفية والبعيدة من أصحابها.

قال القاضى عياض[1]: كانت الكَهَانَة فى العرب ثلاثة أضرب:

أحدها: أن يكون للإنسان ولى من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، وهذا القسم بطل من حين بعث الله نبينا محمداً ﷺ.

الثانى: أن يخبره بما يطرأ أو يكون فى أقطار الأرض مما خفى عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده ولكنهم يصدقون ويكذبون، والنهى عن تصديقهم والسماع منهم عام.

الثالث: المنجمون، وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس صدقًا لكن الكذب فيه أغلب، ومن هذا الفن العرافة وصاحبها عرّاف، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفته بها، ويعتضد بعض أهل الفن ببعض فى ذلك بالزجر والطير والنجوم وأسباب معتادة.

وهذه الأضرب كلها تسمى كَهَانَة، وقد كذبهم كلهم الشارع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم.. انتهى.

ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين الضربين الأولين وأحالوهما، ولا إحالة ولا بعد فى وجودهما.

ومما ورد فى النهى عن إتيانهم وتصديقهم ما أخرجه الطبرانى عن معاوية ابن الحكم: «لا تأتوا الكهان»[2].

---

(1) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى، ولد فى سبتة بالمغرب سنة (٤٧٦ هـ) ونشأ بها، وهو عالم المغرب، وإمام أهل الحديث فى وقته، توفى بمراكش مسمومًا سنة (٥٤٤ هـ)، ومن مصنفاته: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى». انظر: الأعلام (٥/ ٩٩)، طبقات المفسرين (٢/ ٢١)، وفيات الأعيان (١/ ٣٩٢).

(2) أخرجه مسلم (٥٣٧)، والطبرانى فى الكبير (١٩/ ٣٩٦)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٤٤٧)، وعبد الرزاق فى مصنفه (١٩٥٠٠).

وما أخرجه الطبرانى أيضًا عن واثلة: «من أتى كَاهنة فسألها عن شىء حُجبت عنه التوبة أربعين ليلة، فإن صدَّقها بما قالت كفر»[1].

وما أخرجه أحمد والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه: «من أتى عرَّافًا أو كَاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»[2].

(ورَهِبَت) بفتح الراء المهملة وكسر الهاء مبنيّا للفاعل، أى خافت أو هو بضم الراء مبنيا للمفعول كما قبله أى خوفت وتركت (الرَهْبَانيَّة) بفتح الراء وسكون الهاء، عبادة النصارى منسوب إلى الرهبنة بزيادة الألف، والمراد أصحابها فيكون مجازًا بالحذف على حد قوله تعالى: ﴿وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾[3] أى أهل القرية، أو مجازًا مرسلاً من إطلاق الحال وإرادة المحل؛ وهم الرهبان جمع راهب، ويجمع على رهابين ورهابنة ورهبنة، سموا بذلك لأنهم كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها، وتعمد مشاقها حتى أن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب، فنفاها النبى ﷺ عن الإسلام بقوله: «لا رهبانية فى الإسلام».

قال بعضهم: وقد جاء النهى عنها فى القرآن، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾[4] الآية. فيه نظر إذ ليس فى الآية صيغة نهى إلا أن يكون مراده النهى معنى.

(ولَهِجَ) بكسر الهاء أى تحدّث (بخبره) ﷺ (كل) شخص (حَبْرٍ) بفتح الحاء المهملة وكسرها أى عالم والجمع أحبَار (خَبِيرٍ) بفتح الخاء المعجمة، أى عارف بأخبار ظهوره ﷺ من الكتب القديمة السماوية (وفى حُلاً) بكسر الحاء المهملة أفصح من ضمها كما مر، جمع حِلية بكسر أوله كلحية ولحى، وربما

---

(١) عزاه السيوطى فى جامع الأحاديث (٦٨ - ٢٠٠) للطبرانى فى معجمه الكبير.
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٢٩)، والحاكم فى مستدركه.
(٣) سورة يوسف: ٨٢.
(٤) سورة الحديد: ٢٧.

يفتح ولا يناسب هنا، وهى فى الأصل اسم لكل ما يُتزين به من مصاغ الذهب والفضة، وتطلق الحلية على الصفة أيضًا وهو المراد هنا (حُسْنه) بضم فسكون (تَاه) من التيه بمعنى التحير لعدم قدرته على الوقوف على حقيقتها.

عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: كان يهودى يسكن مكة فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ قال فى مجلس من مجالس قريش: هل ولد فيكم [الليلة] مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه. قال: احفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخير، على كتفه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، لا يرضع لليلتين[1].

ولعل سبب عدم رضاعه ﷺ كما قاله الحافظ ابن حجر وأقره: أن عفريتًا من الجن وضع يده فى فيه أو لتوعك أصابه قال فى «المنح»: أنه جاء أن راهبا كان بمر الظهران ـ وهو موضع على مرحلة من مكة يسمى الآن بوادى فاطمة ـ يقول: يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود اسمه محمد، تدين له العرب، ويملك العجم، هذا زمانه، وكان لا يولد بمكة مولود إلا سأل عنه، فجاء عبد المُطَّلب صبيحة ولادته ﷺ فلما رآه قال: كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه، فما سميته؟ قال: محمداً.

وذكر نحو هذا فى «النعمة الكبرى» وفى آخره: فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم الإثنين، طلع نجمه البارحة، وولد اليوم، واسمه محمد.

وفى رواية زيادة على ما مر بعد قوله: هذا زمانه فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته، فتالله ما تركت أرض الخمرِ والخميرِ والأمن، ولا حللتُ أرضَ البؤس والجوع والخوف إلا فى طلبه.

وفيها أيضًا بعد قوله: «ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم

(١) طبقات ابن سعد (١/١٠٦) (القسم الأول)، والوفا ص (٤٢)، والسيرة الشامية (١/٤٠٩) مطولاً. دلائل النبوة للبيهقى (١/١٠٨)، مستدرك الحاكم (٢/٦٠١)، الخصائص الكبرى مطولاً (١/٨٤).

الإثنين» زيادة: «ويموت يوم الإثنين، وآية ذلك: أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثًا ويعافى».

قال الحلبى: أقول: أى لا يرضع فى تلك الثلاث ليلتين، فلا يخالف ما سبق من قول الآخر لا يرضع لليلتين.. انتهى.

وأنه قال لعبد المُطَّلب: فاحفظ لسانك فإنه لم يُحسد حسده أحد، ولم يُبْغ على أحد كما يُبْغى عليه، قال: فما عمره؟ قال: إن طال عمره لم يبلغ السبعين، يموت فى وترٍ دونها فى الستين: فى إحدى وستين، أو ثلاث وستين، وذلك جلّ أعمار أمته[1].

والخَمر بفتح الخاء المعجمة ما أسكر به، والخَمير ما يوضع فى العجين حتى يعود كالخمير، والأمن ضد الخوف، والبؤس بالهمز الشدة، والمراد بالأرض المذكورة أرض الشام لكثرة أشجارها وعنبها الذى يعصر منه الخمر، وكنى بذكر الخمير عن الشبع بدليل مقابلته بالجوع، والمعنى: ما تركت بلاد التبسط وهى بلاد الشام وأتيت بلاد الشدة وهى الحجاز إلا فى طلبه، أى طلب ذلك المولود. وقوله: «أدرك حاجته» هى النجاة من العذاب.

وروى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: كانت يهود قُرَيْظَة والنَّضير وخَيْبَر يجدون صفة رسول الله ﷺ قبل أن يُبعث وأن دار هجرته المدينة، فلما وُلِدَ قالت أحبار يهود: وُلِدَ أحمد الليلة، هذا الكوكب قد طلع. فلما تنبأ قالوا: فقد تنبأ أحمد، كانوا يعرفون ذلك ويُقرون به ويصفونه، أخرجه ابن سعد وأبو نعيم[2].

وأخرج أبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت أبا مالك بن سنان يقول: جئت بنى عبد الأشهل يوما لأتحدث فيهم فسمعت يوشع اليهودى يقول: قد أظلَّ خروجُ نبى يقال له أحمد، يخرج من الحرم.

(١) سيرة ابن كثير (١/ ٢٢٢)، الخصائص الكبرى (١/ ٨٥)، والسيرة الشامية (١/ ٤٠٩)، وقال ابن كثير: وفيه غرابة.
(٢) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٢).

فقيل له: ما صفته؟ قال: ليس بالقصير ولا بالطويل، وفى عينيه حمرة، يلبس الشَّملة، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره. فرجعت إلى قومى بنى خدرة وأنا أتعجب مما قال، فأسمع رجلاً يقول: أو يوشع يقول هذا وحده؟! كل يهود يثرب تقول هذا، فخرجت حتى جئت بنى قُرَيْظَة فأجد جمعا فتذاكروا النبى ﷺ. قال الزبير بن برطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى وظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذه مهاجره[١]. . انتهى.

قال الجلال السيوطى بعد ذكره ما تقدم: وأخرج أبو نعيم عن سعد بن ثابت قال: كان أحبار بنى قُرَيْظَة والنَّضير يذكرون صفة النبى ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبى وأنه لا نبى بعده، اسمه أحمد، ومهاجره إلى يثرب، فلما قدم النبى ﷺ المدينة ونزلها أنكروا وحسدوا وبغوا[٢].

(وأُتِيَتْ) بالبناء للمفعول **(أمه)** ﷺ أى أتاها آت وهى بين النائمة واليقظانة كما فى رواية أنها قالت: أتانى آت وأنا بين النائمة واليقظانه، فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام؟ وفى نسخة: بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين، ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى، أتانى فقال: قولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً وهى **(فى المنام)** أى فى مباديه وهو مصدر ميمى بمعنى النوم؛ كما فى رواية: أنها كانت تقول: أتانى آت حين مرّ بى من حملى ستة أشهر فركضنى فى المنام برجله وقال: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين، وإذا ولدتيه فسميه محمداً، واكتمى شأنك.

وسبب تردد الآتى إليها، قيل: لما كان عندها من التردد فى وجود حمل بطنها إذ لم تجد ثقلاً ولا ألمًا، ولم يكن لها دليل سوى انقطاع حيضها فى غالب أدوارها فأورثها ذلك تردداً فى أمرها.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٢)، وابن الجوزى فى الوفا بأحوال المصطفى ص (٣٥)، والخصائص الكبرى (١/٤٦).

(٢) الخصائص الكبرى (١/٤٧).

(فقيل لها:) أى لأمه آمنة **(إنك)** قد **(حَمَلْتِ بسيِّدٍ)** أى أشرف وأكرم وأجل وأفخم جميع **(العالمين)** جمع عالَم وهو يطلق على كل نوع من أنواع المخلوقات، يقال: عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الملائكة، وعالم كذا وعالم كذا، فالعالمون جمع للعوالم الثلاث العقلاء: عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الملائكة، فحينئذ يكون الجمع أعم من مفرده كما هى طريقة الجموع، بخلاف ما إذا قيل العالم اسم لما سوى الله فإنه يكون حينئذ أخص من مفرده فيكون خارجًا عن طريقة الجموع.

وعبارة شيخنا: والتحقيق أنه جمع لعالم؛ لأنه كما يطلق على ما سوى الله يطلق على كل جنس وعلى نوع وصنف، فيقال: عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملك. وبهذا الإطلاق يصح جمعه على عالمين لكنه جمع لم يستوف الشروط؛ لأنه يشترط فى المفرد أن يكون علما أو صفة، وعالم ليس بعلم ولا صفة بل قيل إنه جمع استوفى الشروط؛ لأن العالم فى معنى الصفة لأنه علامة على وجود خالقه، وقد نص على ذلك جماعة منهم شيخ الإسلام فى «شرح الشافية».

وأصله من العلامة كما قال أبو عبيدة؛ لأنه ما من نوع من العالم إلا وفيه علامة على وجود خالقه، أو من العِلْم كما قاله غيره فيختص بذوى العلم وهم: الإنس، والجن، والملائكة، لاختصاص العِلْم بهم، والراجح أنه يشمل العاقل وغيره تغليبًا للعاقل على غيره أو تنزيلاً لغير العاقل منزلة العاقل.

وقيل: اسم جمع أى اسم دال على الجماعة كدلالة المركب على أجزائه كقوم ورهط، وأما الجمع: فهو ما دل على الآحاد المجتمعة كدلالة تكرار الواحد بحرف العطف كالزيدين فى قولك: جاء الزيدون؛ فإنه فى قوة جاء زيد وزيد وزيد.

* * *

[تسميته ﷺ محمداً]

(وخير) أى أفضل جميع (البرية) أى الخلق (فَسَمِّيهِ إذا وَضَعْتِيهِ) كذا بياء متولدة من إشباع كسر التاء، وهى فى لسان المصريين شائعة، قاله فى نظيرها فى «المصابيح» وفى البرماوى. كالكرمانى بغير ياء (مُحَمَّدًا) أى هذا الاسم الكريم الشريف بشرف مسماه.

ولم تزل أمه ﷺ ترى وهى حامل به ما يدل على عظم قدره مما تواترت الأخبار بنقله إلى أن مرت تلك الشهور، وبرز للوجود هذا النور الأعظم، فامتلأ به الكون ضياء ونوراً، وأشرقت شمس الهداية والرسالة، فأدحض الباطل وطهر الكون فيه تطهيراً. وقوله: وسميه إذا وضعتيه محمداً لا ينافى هذا أن المُسَمِّى له بذلك جده عبد المُطَّلب؛ لأنها حَدَّثت بما رأته جده عبد المُطَّلب فسمّاه محمدا.

وقد تقدم ما يتعلق بهذا الاسم الشريف من الخصائص وغيرها، وأن الله سبحانه وتعالى قد حمى هذا الاسم الكريم أن يسمى به أحد من العرب إلا حين شاع قبيل ولادته أن نبيّا يبعث اسمه محمد، فسمى قوم قليل أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو والله أعلم حيث يجعل رسالته.

أخرج أبو نعيم وغيره: أن محمد بن عدى بن ربيعة ـ الآتى ذكره ـ سُئِلَ: لم سماك أبوك محمداً فى الجاهلية؟ فقال: إنى سألت أبى عن ذلك، فقال: إنه خرج رابع أربعة فنزلوا عند دير بالشام، فسألهم صاحبها عن قبيلتهم، فأخبره أنهم من خندف، فأخبرهم أنه سيبعث فيهم قرشى اسمه محمد خاتم النبيين، فلما انصرفوا من عنده ولد لكل واحد منهم ولد سماه محمداً[1].

(١) أورده السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٤٠) وعزاه لأبى نعيم فى الدلائل والبيهقى فى الدلائل والخرائطى فى الهواتف.

وذكر القاضى عياض منهم ستة، وذكر منهم: محمد بن مَسْلَمة، وقال: لا سابع لهم. وقال: ومع ذلك فحمى الله كل من تسمّى به أن يدعى النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه بسبب يشك فى أمره.. انتهى.

وقد جمع السخاوى[1] من تسمى بذلك فى جزء مفرد فبلغوا نحو العشرين لكن مع تكرير فى بعضهم، ووهم فى بعضهم، فيتلخص منهم خمسة عشر، أربعة منهم صحابة على خلاف فيهم: وهم محمد بن عدِىّ بن ربيعة، ومحمد بن أُحَيْحة بن الجُلاَح الأوسى، ومحمد بن الحارث بن حُدَيْج ـ بحاء مهملة آخره جيم مصغراً ـ بن حُوَيْص، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصارى شهد بدراً ومات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. وتعقب السخاوى القاضى عياض فى ذكره له هنا بقوله: وليس ذكره بجيد فإنه ولد بعد النبى ﷺ بأزيد من عشرين سنة. لكن لا وجه له لما هو مصحح فى السيرة نقلاً عن الواقدى، والظاهر أن الخُلْفَ فى ولادته لا فى صحبته، وواحد منهم أدرك الإسلام وهو: محمد بن البراء البكرى، وأما الباقون فلم يدركوا الإسلام: وهم محمد بن أسامة بن مالك، ومحمد بن حِرْماز بن مالك اليعمرى، ومحمد بن حمران الجعفِىّ المعروف بالشُّوَيْعر، ومحمد بن خُزَاعِىّ بن علقمة بن حزاية ـ بالزاى المعجمة ـ السُّلَمى من بنى ذَكْوان، ومحمد بن خَوْلىّ النعيمى الهَمْدانى، ومحمد بن سُفيان بن مُجَاشع، ومحمد بن اليُحْمِد الأزْدى، ومحمد بن يزيد بن عمرو ابن ربيعة، ومحمد الأُسَيدىّ، ومحمد الفُقَيْمى.

وقول القاضى فيما تقدم: لا سابع لهم مع عده محمد بن مَسْلمة منهم ينافيه ما فى «الشفاء» من وجود سابع لهم وهو: محمد بن اليُحْمِد، لكن قال السخاوى بعد ما نقل ما مر عنه: لكنه ـ أى القاضى ـ ذكر تلو كلامه المتقدم: محمد بن اليُحْمِد، الماضى فصار من عنده ستة لا سابع لهم.. انتهى. أى وهذا يقتضى أنه لم يثبت عنده محمد بن مَسْلَمة، وأنه إنما ذكره استطراداً

(١) القول البديع للسخاوى ص (٧١).

للإشارة إلى أنه مختلف فيه، فيكون من عنده ـ بعد إخراج محمد بن مَسْلَمة ـ منهم ستة لا سابع لهم، وإلا فما معنى قوله لا سابع لهم، وقد علمت ما رد به السخاوى فالمنافاة فى قول القاضى باقية[1].

فائدة

ذكر القاضى عياض أن أول من تسمى قبله ﷺ بمحمد: محمد بن سفيان، واليمن تقول: بل محمد بن اليُحْمِد.

وذكر ابن الجوزى أن أول من سمى فى الإسلام بمحمد: محمد بن حاطب.

* * *

[أسمائه الشريفة][2]

(لطيفة):

قال السخاوى: ذكر الحسين بن محمد الدامغانى[3] فى كتابه «شوق العروس وأنس النفوس» نقلا عن كعب الأحبار أنه قال: اسم النبى ﷺ عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد الحميد، وعند سائر الملائكة عبد المجيد، وعند الأنبياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفى الجبال عبد الخالق، وفى البر عبد القادر، وفى البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار، وفى التوراة موذ موذ، وفى الإنجيل طاب طاب، وفى الصحف عاقب، وفى الزبور فاروق، وعند الله طه

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٥٠٣)، المحبر لابن حبيب ص (١٣٠)، إنسان العيون (١/ ١٢٨).

(٢) أفردها بالتأليف جماعة، منهم السيوطى: «الرياض الأنيقة»، «تذكرة المحبين فى أسماء سيد المرسلين».

(٣) هو محمد بن على بن محمد بن حسن بن عبد الله، أبو عبد الله الدامغانى (٣٩٨ ـ ٤٧٨ هـ) ولد بدامغان وتفقه بها، ثم رحل إلى بغداد، وولى القضاء بها، وله مصنفات منها: «الزوائد والنظائر فى غريب القرآن». انظر: الأعلام (٦/ ٢٧٦)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٨٥).

ويس، وعند المؤمنين محمد ﷺ[1].. انتهى.

وورد أن اسمه فى التوراة المنحمنة، وفى الإنجيل البارقليط، وفى الزبور حاط حاط، وفى صحف شيث أخوناخ، ومعناه صحيح الإسلام، وفيها أيضا: ركْن المتواضعين، وفى صحف إبراهيم موذ موذ، وقيل: طاب طاب، ولا مانع من وجود ذلك فيها وفى التوراة والإنجيل كما مر.

وعلل المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أمر القائل لآمنة سميه محمداً بما تضمنه قوله **(فإنه)** أى النبى محمد ﷺ بالفاء كما فى أكثر النسخ ويؤيده ما فى رواية إذا وضع فسميه محمداً؛ فإنه اسمه فى التوراة أحمد يحمده أهل السماء والأرض، واسمه فى الفرقان محمد وباللام كما فى نسخة **(سَتُحْمَدُ عُقْبَاه)** بضم العين المهملة أى عاقبته، أى ستشكر ويثنى عليها بخير بين جميع الخلق فما منهم أحد إلا يشهد له بوصف الكمالات المفاضة من ذى الإكرام والجلال على ذلك الجمال.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

(١) القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ص (٧٧).

[وفاة والده عبد الله بن عبد المطلب]

(ولما تَمَّ) أى كمل (من) أيام (حَمْله) أى حمل أمه به ﷺ (شَهْرَان على) صحيح و (مشهور الأقوال) المختلفة (المرويَّة) عن العلماء فى وفاة والده عبد الله، وقيل: قبل ولادته بشهرين، ومنهم من قال: توفى ورسول الله ﷺ فى المهد. قال السهيلى: وهو قول أكثر العلماء واحتج له بقول عبد المطلب: أوصيك يا عبد مناف بعدى بموتم بعد أبيه مرد فارقه وهو ضجيع المهد.

وعلى كونه توفى وهو ﷺ فى المهد اختلف كم كان عمره ﷺ؟ فقيل: ابن سبعة أشهر، وقيل: تسعة، قيل: وعليه الأكثرون، قال الحلبى: والحق قول كثير لا الأكثرين، وقيل: ابن ثمانية عشر، وقيل: ثمانية وعشرين شهراً.

ويخالف ما يأتى: أن المراضع أبته ليتمه لتمام زمن الرضاع، وكذا يخالف القول الذى قبله؛ لأنه لم يبق من زمن الرضاع إلا شهران، والراجح المشهور الذى رجحه ابن إسحاق وأورده ابن سعد، وجزم به الزبير بن بكَّار وغير واحد، قال ابن الجوزى: وعليه معظم أهل السير، وأطلق غيره عزوه للجمهور وهو الأول يعنى أنه (توفى) وهو ﷺ حمل،والحجة له ما فى المستدرك عن قيس بن مخرمة: «توفى أبو النبى ﷺ وأمه حبلى»[1] قال الحاكم: على شرط مسلم وأقره الذهبى (بالمدينة) المنورة على الصحيح (المُنَوَّرَة) قديما باشتمالها على طينته ﷺ التى خلق منها، ودحاها الماء يوم الطوفان من مكة إليها،وحديثًا بسكناه ﷺ نحو عشر سنين من أواخر عمره الشريف فيها، ثم بمدفنه فى الحجرة الشريفة التى كانت مساكنه إليها، والتى فاق ما ضم أعضاءه الكريمة منها؛ سائر الأماكن سوى عرش رب العزة ففيه خلاف، وقد مر الكلام على ذلك مبسوطًا فى التعطيرة الأولى فراجعه.

(١) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٨٢)، الوفا ص (٨٥)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٠٧).

[أسماء المدينة النبوية] [1]

وللمدينة المنوّرة أسماء كثيرة وهى:

أثْرِب بفتح الهمزة وسكون المثلثة وكسر الراء وباء موحدة لغة فى يثرب ـ الآتى ـ وأرض الله، وأرض الهجرة، وأكّالة البلدان لافتتاحها على يد أهلها فغنموها وأكلوها، وأكّالة القرى كذلك، والإيمان قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [2] الآية، والبارة، والبرّة، والبحرة، والبَحِيرَة بفتح أوّله على غير التصغير، والبلاط، والبلد، وبيت الرسول ﷺ، وتندد بالمثناة الفوقية والنون وإهمال الدالين، وتنذر كجعفر، والجابرة، وجبار كحذام، والجبارة، وجزيرة العرب، والجُنة الحصينة بضم الجيم، والحَرَم بالفتح، وحرم رسول الله، وحسنة، والخَيِّرة بتشديد المثناة التحتية كالنيرة، والخَيْرة كالذى قبله إلا أن الياء مخففة، والدار، ودار الأبرار، ودار الأخيار، ودار الإيمان، ودار السنة، ودار السلامة، ودار الفتح، ودار الهجرة، ودار الحجر، وذات الحرار، وذات النخل، والسلقة، والشافية، وطابة، وطَيْبة بسكون التحتية، وطَيِّبة بتشديدها، وطايب، وطيابا، والعاصمة، والعَذْرَاء بإهمال أوله وأعجام ثانيه مُسكّنًا، والعراً بإهمال أوله والراء المشدّدة بمعنى الذى قبله، والعَروض كصبور،والغرّاء تأنيث الأغر، وغَلَبَة محركة، والفاضحة بالفاء والضاد المعجمة والحاء المهملة، والقاسمة بالقاف والصاد المهملة، وقبة الإسلام، وقرية الأنصار، وقرية رسول الله، وقلب الإيمان، والمؤمنة، والمباركة، ومبوء الحلال والحرام، ومبين الحلال والحرام، والمجبورة بالجيم، والمُحبَّة بضم الميم

(١) انظر فى أسماء المدينة: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٤١٤)، وفاء الوفا (١/ ٨ ـ ٢٧)، والرحلة الحجازية للنابلسى ص (٣٣٦) وقد نظمها شعراً. ومثير الغرام الساكن ص (٤٥١)، وإعلام الساجد ص (٣٣٢)، وأخبار المدينة لابن النجار ص (١١).

(٢) سورة الحشر: ٩.

وبالحاء المهملة وتشديد الموحدة، والمُحَبَّبة بزيادة موحدة على ما قبله، والمَحبوبة، والمَحْبورة بالحاء المهملة من الحبر وهو السرور، والمُحَرَّمة، والمحفوفة، والمحفوظة، والمختارة، ومدخل صدق، ومدينة الرسول، والمرحومة، والمرزوقة، ومسجد الأقصى، والمسكينة، والمسلمة كالمؤمنة، ومضجع رسول الله ﷺ، والمُطَيبة بضم أوله وفتح ثانيه، والمُقدسة، والمقر بالقاف، والمَكَّتان بفتح الميم وكاف مشددة فمثناة فوقية، والمكنية، ومهاجر رسول الله ﷺ، والموفَّية بتشديد الفاء ويجوز تخفيفها، ونَبلا بفتح النون من النُبل بضمها وهو الفضل والنجابة، والنَّاجية بالجيم، والنَحْر بفتح النون وسكون الحاء المهملة، ويَثْرِب لغة فى أثرب، ويندد بالمثناة التحتية ودالين، ويندر بإبدال الدال الأخيرة من الاسم قبله راء.

قال الشريف السمهودى: ولم أر أكثر من أسماء هذه البلدة الشريفة.

وذكر ابن السدّى الاستشفاء من الحمى بكتابة أسمائها وتعليقها على المحموم فإنها تنفى الذنوب فتشفى من دائها.

(أبوه) أى أبو النبى ﷺ بلا واسطة **(عبد الله)** بن عبد المُطَّلب عن ثلاثين سنة قاله أبو أحمد الحاكم ورجحه ابن عبد البر فيما تقدم وقت تزوّجه بآمنة، أو عن ثمان وعشرين أو عن خمس وعشرين، قال الواقدى: وهو الأثبت. وقدّمه الزرقانى. وعن ثمان عشرة سنة وهو الذى صححه الحافظ العلائى والحافظ ابن حجر واختاره السيوطى.

وقيل: بالأَبْواء بفتح أوّله وسكون الموحدة والمد، قال فى «القاموس»: موضع. قال فى «المختار»: مكان. وقيل: جبل. وقيل: قرية جامعة بين مكة والمدينة قريبة من الجُحْفَة[1] مما يلى المدينة. وقال بعضهم: قرية من أعمال الفُرْع بضم الفاء وسكون الراء على ثلاثين ميلا من المدينة. وقال الزرقانى:

---

(١) كانت قرية كبيرة على طريق مكة، وهى ميقات أهل الشام ومصر إذا لم يمروا على المدينة، وبين الجحفة والبحر الاحمر حوالى ستة أميال، وبينها وبين غدير خم ميلان. (مراصد الاطلاع ١/ ٣١٥).

على ثلاث وعشرين ميلاً.

أقول: قد تنوسى هذا الموضع اليوم فلا يعرفه أحد على الحقيقة من أهل تلك الناحية، وعلى القول بأنها قرية فتكون قد خربت واندثرت بعد ذلك حتى صارت الآن نسيا منسيا.. والله أعلم.

لكن قال الحلبى: إن الذى بالأبواء قبر أمه على الأصح، فلعل قائل ذلك اشتبه عليه الأمر لأنه يجوز أن يكون سمعه ﷺ يقول وهو بالأبواء هذا قبر أحدى أبوى[1].. انتهى.

وقيل: قبر أمه بالحَجُون بفتح المهملة وضم الجيم، مقبرة أهل مكة، ودفن عبد الله فى دار التابعة بالتاء المثناة فوق والباء الموحدة والعين المهملة كما فى «الزهر الباسم»، وهو رجل من بنى عدى بن النجار.

قال بعضهم: وقد شاهدت مدفنه بها، ورأيت عليه صندوقا من خشب مصنوعًا عليه كسوة خضراء فاخرة، وهو تحت سقف هنالك، ولديه مكان آخر مسقف مفروش معد لارتفاع الثاوين به.

أقول: ويعرف ذلك المكان بزقاق الطوال بضم الطاء المهملة.. انتهى.

وتعقبه بعضهم بقوله: وقد اشتهر هذا القول عن رجل من المغاربة أومأ إلى هذا المكان المعروف، وقال: هنا قبر والد النبى ﷺ، فلا يعوَّل عليه، ولم نجده مُسَطَّرًا فى كتب، ولم يرد فيه نص ولا دليل ولا قول يعتمد عليه، والمشهور: أنه مات بالمدينة الشريفة ودفن بمكان يقال له: دار النَابِغَة بنون مفتوحة وباء مكسورة بعدها غين معجمة مفتوحة فهاء، ولم يعرف له قبرا.. انتهى.

وهو وجيه لكن ما ذكره من الضبط مخالف لما عليه الحلبى والزرقانى وغيرهما من أهل السير، ويدل لما ذكر من كون عبد الله توفى بالمدينة ودفن بدار التابعة ما جاء أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة ونظر إلى تلك الدار عرفها،

(١) إنسان العيون (١/ ١٧٢).

وقال: هنا نزلت بى أمى، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله، وأحسنت العوم فى بئر بنى عَدِىّ بن النجار[1].

ومن هذا ومما جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أنه ﷺ كان هو وأصحابه يسبحون فى غدير أبى جحفة فقال النبى ﷺ لأصحابه: «ليسبح كل أحد إلى صاحبه» فسبحَ كل رجل إلى صاحبه، وبقى النبى ﷺ وأبو بكر، فسبح النبى ﷺ إلى أبى بكر حتى اعتنقه وقال: «أنا وصاحبى.. أنا وصاحبى»[2] وفى رواية: «أنا إلى صاحبى» يُعْلم رد قول بعضهم وقد سُئل: هل عام ﷺ؟ الظاهر لا، لأنه لم يثبت أنه ﷺ عام فى بحر ولا بالحرمين بحر.. انتهى.

وقد جاء فى بعض الروايات ما يدل على أن موت والده من علامات نبوته فى الكتب القديمة، ويذكر عن ابن عباس أنه لما توفى عبد الله قالت الملائكة: صار نبيك بلا أب وبقى من غير حافظ ومرب، فقال الله تعالى: أنا وليه وحافظه وحاميه، وربه وعونه ورازقه وكافيه، فصلوا عليه وتبركوا باسمه[3].

وقيل لجعفر الصادق: لم يتِّم النبى ﷺ؟ قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. ولا يرد عليه بقاء أمه حتى بلغ ستة سنين أو أكثر؛ لأن تعلق الحقوق إنما هو بعد البلوغ[4].

لكن يرد عليه بما قاله الدنوشرى أنه ارتضع من حليمة وكان له الفضل عليها فى ذلك ولو عاش أبوه وأمه حتى كبرا لكان فضله عليهما.. انتهى.

وما أحسن قول بعضهم فى يتمه ﷺ:

أخذ الإله أبا النَّبى ولم يَزَلْ ... برسوله البر الرؤوف رَحيمَا

نفسى الفداء لمفردٍ فى يُتمه ... والدُّر أحسن ما يكون يَتيمَا

---

(١) طبقات ابن سعد (١/١١٦)، والسيرة الشامية (٩/٥٤١).

(٢) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (٩/٥٤١) إلى ابن شاهين فى السنة، وأبى قاسم البغوى، والطبرانى.

(٣) الخصائص الكبرى (١/٨١).

(٤) انظر النهر الماد (٣/١٢٧٨) فى تفسير قوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيمًا﴾ [الضحى:٦].

وقال ابن العماد[1] فى «كشف الأسرار»: إنما رباه يتيمًا لأن أساس كل صغير كبير، وعقبى كل حقير خطير، ولينظر النبى ﷺ إذا وصل إلى مدارج عزه إلى أوائل أمره، ليعلم أن العزيز من أعزه الله تعالى، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات، ولا من المال، بل قوته من الله تعالى، وأيضًا ليرحم الفقير والأيتام.. انتهى. وهذا أولى من قول بعضهم فى حكمة يتمه أن لا يجب عليه طاعة لغير الله تعالى، وأن لا يكون عليه ولاية لغير الله لما فيه أن الجد أب الأب كالأب تجب طاعته وله الولاية وقد جاء: «ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء فإنى كنت فى الصغر يتيمًا وفى الكبر غريبًا».

قيل: **(وكان)** عبد الله **(قد)** خرج من مكة إلى المدينة ليمتار تمرًا أو لزيارة أخواله بها، ولا مانع من قصد الأمرين معًا، وقيل وهو الأثبت: خرج إلى غزة فى عير من عيران قريش خرجوا للتجارة إليها ففرغوا من تجارتهم وانصرفوا راجعين إلى مكة فرجع معهم و **(اجْتَازَ)** أى مر بالمدينة الشريفة واتصل **(بأخواله بنى عَدِىٍّ)** أى أخواله بواسطة إذ هم فى الحقيقة أخوال أبيه عبد المُطَّلب؛ لأَن هاشمًا تزوج من بنى عدى فولدت له عبد المُطَّلب، وأما أخوال عبد الله فإنما هم من قريش من بنى مخزوم **(من الطائفة)** أى القبيلة **(النَّجَّارِيَّة)** المنسوبة الى تيم النجار، قيل له النَّجَّار: لأنه اختتن بقدوم أى آلة النجار، وقيل لأنه نجر وجه رجل بقدوم.

(ومكثَ) أى لبث وأقام **(فيهم)** أى بينهم **(شهرًا)** كاملاً، والشهر من الشهرة، يقال: شهره إذا أظهره، وسمى الشهر شهراً لظهور أمره؛ لأن حاجات الناس داعية إلى معرفته بسبب ديونهم وأداء نسكهم وصومهم، والشهرة ظهور الشىء، وسمى الهلال شهراً لشهرته وظهوره، وفى «القاموس»: والشهر الهلال والقمر، أو هو إذا ظهر وقارب الكمال والعدد

(١) هو عبد الحى بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلى، أبو الفلاح (١٠٣٢ ـ ١٠٨٩ هـ) مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب، ولد فى صالحية دمشق، وأقام بالقاهرة، ومات بمكة حاجًا. انظر: الأعلام (٣/ ٢٩٠).

المعروف من الأيام لأنه يشهر بالقمر، جمعه أَشْهُر وشُهُور.

(سقيمًا) أى مريضًا حال من فاعل مكث، وكانوا لشفقتهم عليه ومزيد إكرامهم له لما عليهم من حقوق الرحم (يُعانون) بالعين المهملة من المعاناة وهى المقاساة كما فى «المختار» أى يقاسون (سُقْمَهُ) بضم السين وسكون القاف أو بفتحها أى مرضه بالمعالجة (و) يعانون (شكواه) أى ما يشكوه عليهم من آلامه الناشئة عن شدة مرضه، فكانوا يسعون له بما ينفعه من كل وجه من دواء وغيره رجاء أن يتعافى من سُقْمه ويعود إلى وطنه وحرمه، والله غالب على أمره، فنقل روحه إليه فى هذه البلدة الطيبة الشريفة، فهنيئًا له حيث صارت عرصة مدفنه مجاورة لمدفن ابنه زين الوجود وأشرف كل موجود من خلق الكريم الودود.

فلما قدم أصحابه مكة سألهم أبوه عبد المُطَّلب عنه فقالوا: خلَّفناه عند أخواله بنى عدى بن النَّجَّار، وهو مريض، فبعث إليه أخاه الحارث ـ وهو أكبر أولاد عبد المطلب ـ فوجده قد توفى. وقيل: أرسل إليه شقيقه الزبير فشهد وفاته.

(ولما تَمَّ) أى كمل (من) أيام (حمله) أى حمل أمه به ﷺ (على) القول (الرَّاجِحِ) من الأقوال الخمسة المختلفة فى قدر مدة حمل أمه به ﷺ هل هى تسعة أشهر أو أقل أو أكثر كما حررها العلامة الشيخ إبراهيم الزبيدى فى «منية ذوى الهمم فى بيان تحرير الأقوال المختلفة فى أوقات مولد ومبعث وإسراء وهجرة ووفاة رسول الله ﷺ» وهى الأطوار الخمسة المحمدية التى أشار بعض المحققين إلى كونها جديرة بالاعتناء بها لكونها أجل وأعظم ما وقع له ﷺ من الأحوال العليَّة (تسعة) بالمثناة الفوقية (أشهر) كاملة فعن أبى زكريا بن عائذ: بقى ﷺ فى بطن أمه تسعة أشهر كَمَلا بفتحتين مخفف الميم أى كاملة، وبهذا القول صدر مُغْلَطاى قال فى «الغرر»: وهو الصحيح.

وهو لا يظهر إلا على القول بأنها حملت به ﷺ فى رجب وولدته فى ربيع

الأول أو الآخر من غير تعيين يوم الحمل والولادة؛ لأنه يمكن أن يقال حينئذ على الأول: إن الحمل به كان فى أول يوم من رجب والولادة كانت فى آخر يوم من ربيع الأول، ولعلها وافقت يوم الاثنين كما هو أحد الأقوال الآتية فى يوم الولادة أنها يوم الإثنين من ربيع الأول، هكذا من غير تعيين ما مضى منه. وأما على أنها فى ربيع الآخر فظاهر، وأما على القول بأنها حملت به فى رجب وولدته فى رمضان فلا يظهر إلا أن يقال حينئذ: أن الحكم عليها بأنها كاملة حكم على غالبها، وإلا فيلزم على القول الراجح بأن الولادة يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول أن يكون ابتداء الحمل فى جمادى الثانى مثلاً، ولم أقف على ذلك، ولذا عدل المصنف رحمه الله تعالى.

(قمرية) لعدم اقتضائه كون الأشهر كلها كاملة، والقمر هو اسم للهلال لكن بعد مضى ثلاثة أيام من أول الشهر، وهو فى غلاف من ماء، فكل ليلة يظهر منها شىء حتى يتكامل بدراً، ثم يعود قليلاً قليلاً حتى يعود كالعرجون القديم، فيقطع الفلك فى ثمانية وعشرين ليلة، ثم يختفى حتى يطلع هلالاً، وهو مخلوق من نور العرش، قاله القرطبى فى [تفسير] سورة «يس».

وفيه احتراز عن الأشهر الرومية والقبطية فإن لها حسابًا آخر مذكور فى محله من كتب الفن؛ إذ الأشهر القمرية هى أشهر السنة العربية.

(وآن) بالمد أى حان وقرب (للزَّمانِ) المعهود على الولادة النبوية وظهور الطلعة المحمَّدية (أن ينجلى) أى ينكشف ما كان يعلوه بسبب قبائح الجاهلية من شنيع الأفعال وفظيع الأعمال التى كانوا عليها من عبادة الأوثان والأصنام ونحو ذلك مما كانوا يعدونها أموراً حسنة دينية، إلا الذين هداهم الله وألهمهم لابتغاء مرضاته فتركوا ما كانوا عليه، ومالوا إلى الدين الحنيفى: كزيد بن عمرو بن نُفَيْل، وورقة بن نَوْفَل، وأضرابهما ممن كان يطلب مطلبهما، فكانوا لغيرهم من الجاهلية مخالفين كما يعلم ذلك الواقف على أَخبارهم وقصصهم فى كتب المؤرخين، حتى صار كالعطشان فى شدة الاشتياق إلى ظهور ذاته

المحمدية المصطفوية ليزول به ﷺ (عنه) أى الزمان (صَدَاه) أى عطشه الناشىء له بسبب ما مر، وفيه تشبيهه ﷺ بالبحر بجامع الحياة بكل.

و (حَضَرَ) بالتذكير فيه للفصل بينه وبين فاعله المؤنث الحقيقى وهو جواب لما.

(أمُّهُ) آمنة (ليلة مولده) ﷺ أى ليلة يوم ولادته إذ الصحيح أنه ولد نهاراً بُعَيْدَ طلوع فجر يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول كما يأتى.

(آسيَةُ) بالمد وكسر السين المهملة وتحتية مخففة مفتوحة من الأسى بمعنى الأسف أو الحزن، بنت مُزَاحِمْ. قيل: إسرائيلة وأنها عمة موسى، وقيل: إنها بنت عم فرعون وأنها من العمالقة، وهى امرأة فرعون ذات الفراسة الصادقة فى موسى حين قالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ﴾ [1] ومن فضائلها: أنها اختارت القتل على الملك، وعذاب الدنيا على النعيم الذى كانت فيه، وضرب الله بها المثل للمؤمنين: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [2] ومن عجيب أمرها: أنها لما تزوّجها فرعون كرهًا وهمَّ بها أخذه الله عنها فرضى بالنظر إليها فلم يصبها أبدًا.

(ومريمُ)، ﴿ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [3] الآية إلى غير ذلك من الآيات المنوهة بقدرها والمصرحة بعظيم فخرها، قيل: إنهما نبيتان، بل قال القرطبى: الصحيح أن مريم نبية. لكن قال القاضى عياض: الجمهور على خلافه، وبعضهم نقل الإجماع على عدم نبوّة النساء، وهو الصحيح، وجملة من اختلف فى نبوتهن ست: هاتان، وحواء، وسارة، وهاجر، وأم موسى واسمها يوحانذ.

وقيل: مريم من ذرية سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وبينها وبينه أربعة وعشرون أبًا.

(١) سورة القصص: ٩.
(٢) سورة التحريم: ١١.
(٣) سورة التحريم: ١٢.

والمشهور أنها لم تتزوّج أصلاً، وقيل: إنها تزوجت بابن عمها يوسف النجار ولم يقربها.

ولما رفع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان سنها ثلاثًا وخمسين سنة تعلقت به وبكت، فقال لها: إن القيامة تجمعنا. وبقيت بعد ذلك خمس سنين أو ست سنين.

(فى) أى مع **(نُسْوَة)** بكسر النون وضمها أى نساء من الحور العين أى نزلن **(من الحَظِيرة)** بفتح الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة المثالة بعدها مثناة تحتية **(القُدْسِيَّة)** أى المقدسة المطهرة عن جميع الأكدار الدنيوية، وحظيرة القدس من أسماء الجنة قال فى «النهاية» وفى الحديث: «لا يلج حظيرة القدس مدمن الخمر» أراد بحظيرة القدس الجنة، وهى فى الأصل الموضع الذى يُحاط عليه لتأوى إليه الإبل والغنم، يقيها البرد والريح[1]. . انتهى.

قال الزرقانى: ولعل حكمة شهودهم كثرة الحور له فى الجنة، كما أن مريم وآسية من نسائه فى الجنة كما فى الحديث[2]. . انتهى.

(وأخذها) أى آمنة **(المَخَاضُ)** قال البيضاوى بفتح الميم وكسرها مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج. وذكر أبو سعيد النيسابورى[3] فى «شرف المصطفى» ـ ورواه عنه الحفاظ وسكتوا عليه ـ عن كعب الأحبار، ورواه أبو نعيم عن ابن عباس: أن آمنة كانت تقول: «أتانى آت حين مرَّ بى من حملى ستة أشهر فركضنى برجله وقال: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين، فإذا ولدتيه فسميه محمداً واكتمى شأنك» فكانت تحدث عن نفسها وتقول: «أخذنى يوم الإثنين ما يأخذ النساء من الألم، ولم يعلم بى أحد من

---

(١) النهاية فى غريب الحديث (١/ ٤٠٤).

(٢) روى ذلك الطبرانى عن سعد بن جنادة (الدر المنثور ٦/ ٣٧٨).

(٣) هو عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابورى الخَرْكُوشِىُّ، أبو سعد المتوفى سنة (٤٠٧ هـ) واعظ، من فقهاء الشافعية بنيسابور، رحل إلى العراق والحجاز ومصر، وله تصانيف عديدة منها: «دلائل النبوة» و «شرف المصطفى». الأعلام (٤/ ١٦٣).

قرابتى، وإنى لوحيدة فى المنزل، وعبد المُطَّلب فى طوافه غائب عنى، فسمعت وجبة عظيمة وأمراً شديداً، فهالنى ذلك، فرأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادى فذهب عنى الرَّوْع من كل وجع كنت أجده، ثم التفت فإذا بشربة بيضاء فيها لبن، وكنت عطشانه، فتناولتها فشربتها، فأصابنى نور عال، ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً كأنهن بنات عبد مناف يحدقن بى، فبينما أنا أتعجب وأقول: يا غوثاه من أين علمن بى؟!».

وفى رواية: «فقلن: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وهؤلاء من الحور العين، فاشتد الأمر، وإنى أسمع الوجبة كل ساعة أعظم وأكبر وأهول مما تقدم، فبينما أنا كذلك إذا بديباج أبيض قد مُدّ بين السماء والأرض. وإذا قائل يقول: خذوه عن أعين الناس».

قالت: «ورأيت رجالاً قد وقفوا فى الهواء بأيديهم أباريق من فضة وإناء ترشح من عنبر، عَرْفه أطيب من ريح المسك الإذفر، وأنا أقول: ياليت عبد المُطَّلب دخل علىّ».

قالت: «ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتى، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصرى فأبصرت فى ساعتى تلك مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات: علمًا فى المشرق، وعلمًا فى المغرب، وعلما على ظهر الكعبة».

قالت: «فأخذنى المخاض واشتد بى الأمر جدّا، وكأنى مستندة إلى نساء، وكثرن علىّ حتى كأنهن معى فى البيت»[1].

(فولدته) أى آمنة أم النبى ﷺ حال كونه **(نوراً)** أى ضياء لامعا **(يتَلألأ)** أى يلمع **(سَنَاه)** أى ضوءه، وهو مقصور، قال الله عز وجل: ﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ بِالأَبْصَارِ**﴾[2]. والسناء من الحسب ممدود.

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٦٥)، وقال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١): فيه نكارة شديدة، وقال القسطلانى فى المواهب (١/ ٦٦): وهو مما تكلم فيه.

(٢) سورة النور: ٤٣.

قالت آمنة: «فلما خرج من بطنى نظرت إليه فإذا هو ساجدٌ قد رفع أصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى غشيته، فغيب عن وجهى برهة، فسمعت مناديًا ينادى، وقائلاً يقول: «طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها وأدخلوه إلى البحار كلها ليعرفه جميع من فيها باسمه ونعته وصفته وبركته، ويعلمون أنه سُمِّى فيها الماحى لا يبقى شىء من الشرك إلا محى فى زمنه»[1].

وقد مر عن كعب الأحبار: أن الملائكة طافت بطينته لما أراد الله تعالى خلقه ﷺ حول العرش والكرسى، وفى السموات والأرض والجبال والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق محمدا ﷺ.

ففى قول الزرقانى: خُصت الأرض بذلك دون السماء لأنها محل بعثته وظهور رسالته نظر.

وقالت: «ثم انجلت السحابة عنه فى أسرع من طرفة عين فإذا به مندرجٌ فى ثوب صوف أبيض، أشد بياضًا من اللبن، وتحته حريرة خضراء، وقد قَبَضَ على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الأبيض الرطب، وإذا بقائل يقول: «قبض محمد ﷺ على مفتاح النصر، وعلى مفتاح الذكر، وعلى مفتاح النبّوة»[2].. انتهى.

وهو مما تكلم فيه، وإنما ذكرناه لشهرته فى المواليد، ولأن أمره ﷺ وشأنه فوق هذا فلا بأس بذكره.

قال بعض الحفاظ: وأعجب منه ـ قال غيره: ولا عجب ـ ما ذكره الخطيب عنها أيضًا أنها قالت: «رأيت سحابة أعظم من الأولى ولها نور، وأسمع فيها صهيل الخيل، وخفقان الأجنحة، وكلام الرجال، حتى غشيته، وغُيِّب عنىّ أطول من المرة الأولى فسمعت مناديًا ينادى: طوفوا بمحمد جميع الأرضين، وعلى مواليد النبيين، واعرضوه على روحانى [من] الجن والإنس والملائكة

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٤٦٥)، وقال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١): فيه نكارة شديدة، وقال القسطلانى فى المواهب (١/ ٦٦): وهو مما تكلم فيه.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل ص (٤٦٧)، وقال السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٨١): فيه نكارة شديدة.

والطير والوحش، واعطوه خَلق آدم - بفتح الخاء - ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخُلَّة إبراهيم، ولسان إسماعيل، ورضاء إسحاق، وفصاحة صالح، وحلم لوط، وبشرى يعقوب، وجمال يوسف، وشدة موسى، وصبر أيوب، وطاعة يونس، وجهاد يوشع، وصوت داود، وحب دانيال، ووقار إلياس، وعصمة يحيى، وزهد عيسى، وأغمسوه فى أخلاق النبيين[1].

وكان ﷺ فى جميع ما ذكر بالمنزل الأعلى فكانت معرفته لا تستقصى، وشجاعته لا تحصر، وخُلَّته لا تساويه خُلَّة غير، وفصاحته لا يدانيه فصاحة أحد، أعلم الناس باللغة العربية، وأرضى الخلق بأمر ربه، وبَلَغَ من الحكمة والعلم ما لا مضارع له فيه، وكان بشرى يعقوب بسلامة ولده، وقد بشر ﷺ بأمور كثيرة، أشد الناس فى الدين والقوة. وأيضًا فأحواله فى الصبر لا يضبطها الحصر، وكان طاعة يونس لله من السبع، وطاعة المصطفى لربه قبل السبع من وقت الرضاع، وجهاد يوشع الجبابرة كان بعد موسى يوم الجمعة ووقفت له الشمس ساعة حتى فرغ من القتال، وجاهد نبينا ﷺ الجبابرة ببدر يوم الجمعة، ونصره الله ثم استمر مجاهداً حتى توفاه الله، واستمر الجهاد فى شرعه إلى يوم القيامة.

وفاق داود عليه السلام فى الصوت، ويوسف فى الحسن كما قال ﷺ: «لم يبعث الله نبيًا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وإن نبيكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا»[2].

ولله در العارف بالله الشيخ البوصيرى فى بُردة المديح حيث قال:

مُنَزَّهٌ عن شريكٍ فى مَحَاسنهِ ... فجوهرُ الحُسنِ فيه غَيْرَ مُنْقَسِمِ[3]

ولم يُفْتَتَن به كيوسف لغلبة جلاله على جماله فلم يستطع أحد أن يُمعن النظر فيه عليه الصلاة والسلام لقوة مهابته ومزيد وقاره، وقد عصمه الله من

(١) هو جزء من الحديث الذى مرَّ.
(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.
(٣) المجموعة النبهانية (٤/٥).

كل شىء من أول أمره إلى آخر عمره، وفاق كل زاهد كما سيأتى تحقيق أكثر ذلك فى أماكنه من شرحنا هذا.

قالت آمنة: «ثم انجلت عنى فى أسرع وقت وإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيًا شديدًا، ينبع من تلك الحريرة ماء معين، وإذا بقائل يقول: قبض محمد على الدنيا كلها لم يبق خلق من أهلها إلا دخل طائعا فى قبضته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم القادر على ما يريد». وفى رواية قالت: «ثم انجلت عنىّ فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيًا شديدًا، ينبع من تلك الحريرة ماء، وإذا بقائل يقول: بَخٍ بَخٍ قبض محمد على الدنيا كلها».

قالت: «ثم نظرت إليه وإذا به كالقمر وريحه يسطع كالمسك الإذفر»[1].

ولا ينافيه ما يأتى فى مبحث الشمائل عن أنس - رضى الله عنه - أن ظهور النفحات منه ظهر بعد الإسراء؛ لأن هذا طيب ذاتى، وذاك طيب مكتسب من العالم الأقدس، والكامل يقبل الكمال.

«وإذا بثلاثة نفر فى يد أحدهم إبريق من فضة، وفى يد الثانى طست من زمرد أخضر، وفى يد الثالث حريرة بيضاء، فنشرها فأخرج منها خاتمًا تحار أبصار الناظرين دونه، فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفه فرده إلىّ»[2].

وقد يقال: ما حكمة أصل غسله وقد ولد نظيفًا ما به قذر كما يأتى، وما حكمة كون الغسل سبعًا؟ وسيأتى فى مبحث شق صدره الشريف فى الرضاع وإخراج الأذى منه مرارًا أن الرواية ضعيفة، وعلى فرض صحتها فيحتمل أن يكون ذلك لمزيد الاعتناء بشأنه ﷺ والمبالغة فى تطهير جسده الشريف، كما أن إخراج ذلك الأذى منه كان استقصاء لتنظيف جوفه ومبالغة واعتناء بشأنه ﷺ.

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) جزء من الحديث السابق.

وروى الحافظ ابن عائد[1] فى كتابه «المولد» كما نقله عنه الشيخ بدر الدين الزركشى[2] فى «شرح بُردة المديح» عن ابن عباس: لما ولد النبى ﷺ قال فى أذنه رضوان خازن الجنان: أبشر يا محمد فما بقى لنبى علم إلا وقد أعطيته فأنت أكثرهم علما وأشجعهم قلبا[3].

فائدة

ذكر أن أم إمامنا الشافعى رأت وهى حامل به أن النجم المسمى بالْمُشْتَرَى خرج منها فوقع فى مصر، ثم وقع فى كل بلدة منه شظية، فتأول ذلك أصحاب الروايات بأنها تلد عالمًا يكون علمه بمصر أولاً ثم ينتشر إلى سائر البلدان.

ثم نقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ من القصيدة الهمزية البوصيرية ستة أبيات شهيرة لما تضمنته من الثناء الفخيم على المولد السنى والمولود العظيم، وفخار أمه به ﷺ على جميع نساء العالم، مع تقديم وتأخير فيها لنكتة قصدها فى البيت الأخير وهى ـ والله أعلم ـ القطع بثبوت الهنا لجميع الخلق.

[وَمُحَيًّا كَالشَّمْسِ مِنْكَ مُضِيء ... أَسْفَرَتْ عَنْهُ لَيْلَةٌ غَرَّاءُ
لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ الذَّى كَانَ لِلدِّ ... ينِ سُرُورٌ بِيَوْمِهِ وَازْدِهَاءُ
مَوْلِدٌ كَانَ مِنْهُ فِى طَالِعِ الْـ ... ـكُفْرِ وَبَالٌ عَلَيْهِم وَوبَاءُ
يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِهِ ابْنَتُ وَهْبٍ ... مِنْ فَخَارٍ مَا لَمْ تَنَلْهُ النِّسَاءُ
وَأَتَتْ قَوْمَهَا بِأَفْضَلَ مِمَّا ... حَمَلَتْ قَبْلُ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ
وَتَوَالَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ ... وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهَنَاءُ][4]

(١) هو يحيى بن مالك بن عائد، أبو زكريا الأندلسى، حافظ، مات بالأندلس سنة (٣٧٦ هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (٣/١٠٠٣ رقم الترجمة ٩٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٦/٤٢١).

(٢) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى (٧٤٥ ـ ٧٩٤ هـ) فقيه شافعى مات بمصر. انظر: الأعلام (٣/٣٩٧).

(٣) أورده القسطلانى فى المواهب اللدنية (١/٦٦)، والسيوطى فى الخصائص الكبرى (١/٨٤) وقال: قال ابن دِحْية فى «التنوير»: هذا حديث غريب.

(٤) المجموعة النبهانية (١/٧٨).

فقال: (ومُحيّا) بضم الميم وفتح الحاء المهملة فمثناة تحتية مشددة، مقصور مرفوع بالعطف على فاعل حبذا السابق فى البيت الذى قبله وهو عقد أى وحبذا وجه. (كالشمس) متعلق بمحذوف صفة أولى لمحيا وقوله (منك) حال منه وقوله (مضىء) صفة ثانية، هذا هو المتعين فى إعراب البيت، وأما تجويز بعضهم كون (مضىء) مبتدأ مؤخرا و (كالشمس) خبراً مقدمًا وجعل (منك) صفة لمحيا كما يؤخذ من قوله أوحال منه لتخصيصه بمنك إذ لا يتخصص به إلا إذا كان صفة ففيه مع التكلف الذى لا داعى إليه الفصل بين المبتدأ والخبر بأجنبى وهو منك الواقع صفة لمحيا لأنه ليس معمولاً للمبتدأ الذى هو مضىء ولا للخبر الذى هو (كالشمس) وشاهد هذا حديث البخارى عن الربيع بنت مُعَوِّذ[1]: «لو رأيته لقلت الشمس طالعة». وحديث أحمد والترمذى والبيهقى وابن حبَّان عن أبى هريرة رضى الله عنه: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه»[2].

وورد تشبيهه أيضًا بالقمر فى قول ابن أبى هالة: «يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»[3] ولكل من الشبيهين وجه يرجحه على الآخر.

فوجه ترجيح التشبيه بالقمر على التشبيه بالشمس أن القمر جسد يملأ نوره الأرض أحوج ما كانت إليه ويؤنس كل من شاهده، فهو مجمع النور من غير أذى، ويتمكن الناس من مشاهدته، بخلاف الشمس فإنها وإن يملأ نورها الأرض لكن تغشى البصر من تمكن الرؤية إليها.

وأما وجه ترجيح التشبيه بها على التشبيه بالقمر: أن صفة الشمس من الإشراق والإضاءة، وصفة القمر من الحسن والملاحة، ووجه الشبه مراع. وأيضًا فنور الشمس ذاتى كنوره ﷺ فإنه ذاتى أيضًا بخلاف نور القمر فإنه

---

(١) هى الربيع بنت معوذ بن عفراء النجارية، الأنصارية، صحابية من ذوات الشأن،بايعت النبى ﷺ بيعت الرضوان، وصحبته فى غزواته، توفيت نحو سنة (٤٥ هـ). انظر: الأعلام (٣/ ١٥).

(٢) الترمذى (٣٦٤٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه البيهقى فى الدلائل (١/ ٢٨٦) مطولاً.

عرضى مكتسبٌ من نور الشمس، وحينئذ فالتشبيه بها مع رعاية وجه التشبيه بها أبلغ منه بالقمر. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ [1] وشتان ما بينهما فعلم أن فى كل منهما أبلغية من جهته.

(أَسْفَرَتْ) صفة لمحيا أيضًا، أو حال منه على تقدير قد، والرابط بين الصفة والموصوف على الأول وبين الحال وصاحبها على الثانى الضمير المجرور بعن أى: انجرت وزالت وانقضت وانكشفت (عنه) أى عن ذلك المحيا، أو أضاءت متجاوزة عنه (ليلةٌ) عظيمة (غَرَّاءُ) أى بيضاء بظهور نوره فيها وفى عقبها، وهذا أولى من جعل كونها غراء من حيث ظهور القمر فيها بناء على أنها ليلة ثانى عشر، أو من حيث كونها من غرة الشهر أى أوله بناء على أنها الليلة الثانية من الشهر، وغرته ثلاث ليال؛ لأن كلاً من هذين لا مدح فيه له ﷺ بخلاف الأول من الغرة، وهى بياض فى وجه الفرس فوق الدرهم، فهى غرة. . ففيه إشارة إلى أن تلك الليلة استنارت بنوره فكانت غرة فى وجه الدهر، ثم أبدل منها قوله: (ليلة المولِد) على وزن مفعل بكسر العين لا غير مصدر ميمى بمعنى الولادة. قال أبو الفضل فى شرحه: المولد بالكسر زمن الولادة ومكانها. . انتهى. وكلاهما غير مقصود هنا بل المقصود الأول.

(الذى كان) أى دام واستمر على حد قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيمًا﴾ [2] وهى ناقصة (للدينِ) خبرها، وهو لغة الجزاء، واصطلاحًا الشرع المبعوث به ﷺ، وَحُدَّ أيضًا بأنه وضعٌ إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم فى معاشهم ومعادهم.

(سُرورٌ) اسمها أى فرح عظيم (بيومهِ) أى فى يومه أو كان السرور بنفس اليوم من حيث الولادة فيه، وأضاف ذلك ليوم المولد دون ذاته مبالغة فى زيادة عظمته؛ لأن ذلك إذا وقع لظرفه التابع له فكيف بذاته. واليوم هو من طلوع

---

(١) سورة يونس: ٥.

(٢) سورة النساء: ٩٦.

الشمس إلى غروبها كما عند الفلكيين ونحوهم، أو من طلوع الفجر كذلك كما عند الشرعيين، فالخلاف فى المبدأ.

(وازدهاءُ) وأصله ازتهاء من الزهو أعنى التكبر والفخر ووقعت تاء الافتعال ـ وهى من الحروف الرخوة ـ بعد زاى شديدة فتنافرتا فأبدلت دالاً، ثم أبقيت بلا إدغام ويجوز إدغامها بعد قلبها زايا والزاى دالاً فى الأخرى، وقد شبه الدين على طريق الاستعارة المكنية بمن يأتى له أن يسر ويفرح، وخيل له بالسرور لوروده به ﷺ موارد الإظهار على الدين كله وانتطاقه الشرف، وتوشحه وشاح الاستقامة إلى يوم القيامة بشهادة: «لا تزال طائفة من أمتى. . .» الحديث[1].

فالمعنى لما كانت هذه الليلة الغراء هى ليلة ولادتك وأنت أشرف مولود سُرَّ الدين وأهله باليوم الذى برزت فيه إلى هذا الوجود على الوجه الأكمل، وافتخر به على سائر الأديان والأيام، واستقام ذلك إلى يوم القيامة أى إلى قربه لِما قيل من أنه يُفقد الدين، ولا يوجد له أثر قبل النفخة الأولى بمائة وعشرين سنة.

(مولدٌ) عظيم بالجر بدل من المولد والرفع خبر مبتدأ محذوف **(كان)** أى صار على الدوام **(منه)** أى من أجله أو من لابتداء الغاية **(فى طَالِعِ)** أهل **(الكفرِ)** الذى يطلع به على ما يحل بهم من نجم أو رؤيا أو غيرها فهذا هو المراد بالطالع، وقيل المراد به غير ذلك **(وبالٌ)** أى هَمٌّ وغَمٌّ عظيمٌ **(عليهم)** أى على أهله الذين هم الفُرس بدليل السياق أو أعم بدليل الواقع **(ووباءُ)** يُقصر ويُمد لغة وإن كان المد متعينًا هنا للوزن، وهو المرض الشديد العام، ويقال: هو كثرة الموت بغير سبب بخلاف الطاعون فإنه الموت بسبب طعن الجن للإنس. وفى قوله: «وبال ووباء» الجناس اللاحق، وهما كنايتان عما اعترى لهم بوجوده من إشراف ملكهم على الزوال ومما حل بهم من البوار والوبال والهوان.

(١) أخرجه ابن ماجه (٦)، الترمذى (١٢٢٩)، أحمد فى مسنده (٤/ ٩٧)، البيهقى فى السنن (٩/ ١٨١).

(يومَ) قال فى «المنح»: بدل من مولد. ويرد عليه أنه أعرب مولد الثانى بدلاً من المولد الأول، أو خبراً مبتدؤه محذوف. فعلى الأول: يلزم عليه البدل من البدل وفيه ما فيه. فتتعين البدلية فى يوم على كون مولد الثانى خبر مبتدأ محذوف وهو اسم زمان.

(نَالت) أى أعطيت (بوضعه) أى بسببه آمنة (ابنتُ وَهْبِ) ابن عبد مناف المار (مِنْ) بيانية (فَخَار) على وزن سلام: التمدح بالخصال العلية والشيم المرضية (ما لم تنله النساءُ) حتى حواء، وهذا لا يقتضى أفضليتها على حواء إلا من حيث أنها ولدته بلا واسطة، وإلا فحواء أفضل منها للاختلاف فى إيمانها بل وفى نجاتها، وإن كان الصحيح بل الصواب بل الواجب القول بهما كما مر بخلاف حواء؛ لأن الإجماع قام على إيمانها الكامل بل قيل بنبوّتها.

(و) يوم (أتت) آمنة (قَوْمَهَا) اسم جمع للذكور كما فى «شرح الأشمونى على الخلاصة» آخر باب جمع التكسير، فما فى «المنح» من أنه اسم جنس غير مُسَلَّم، وتدخل فيه النساء تبعا كما هنا، وقيل إنه خاص بالذكور لظاهر قول الشاعر:

وما أدرى وسوفَ إخال أدرى ... أقومٌ آلُ حصنٍ أمْ نساءُ

(بأفضلَ) أى بمولود أفضل بالإجماع (مما) أوقع ما على ذات العالم وهو عيسى عليه السلام، وإن كانت فى الأصل موضوعة لغير العالم على قول بعض أئمة اللغة خلافًا للأكثرين فإنها عندهم موضوعة له ولغيره كما قال فى «التلويح» ملاحظة لصفة غير مفهومة من الصلة من كونه مولوداً أو نحوه على سبيل المجاز؛ لأنه لما كان الملحوظ فيه ذلك وهو من غير العالم كانت كأنها مستعملة فى غير العالم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية[1].

والمعنى انكحوا الموصوفة بأى صفة أردتم من البكر والثيب إلى غير ذلك

(١) سورة النساء: ٣.

من الأوصاف، وتقييد الصفة بغير المفهومة مما ذكر: لدفع ما يرد من أن كل موصول استعمل فى العالم نحو: جاءنى من قام، ملحوظ الصفة المفهومة من صلته لوجوب ملاحظة الصلة، فقول بعضهم بعد ذكر الآية: أى الطيب فيه نظر لما علمته. والتعبير بالعالم أولى من التعبير بالعاقل: لأنه لا يشمل البارىء تعالى مع ورود إطلاقها عليه تعالى كقول بعضهم: سبحان ما سخركن لنا.

(قد أتت) به وفى نسخة: حملت **(قبلُ)** أى قبل آمنة **(مريمُ)** ابنت عمران الصديقة بنص القرآن كما مر **(العَذْرَاءُ)** أى البكر لأنها لم تتزوّج على ما مر، والعُذرة بضم العين: البكارة، وتطلق أيضًا على معان منها: الناصية - وهى الخصلة من الشعر -، وقلفة الصبى، والشعر على كاهل الفرس.

(وتوالت) أى تتابعت **(بُشرى)** أى بشارة **(الهواتف)** للناس جمع هاتف، وهو ما يسمع هتفه أى صوته، وقيل: صوته الخفى ولا يُرى شخصه، والمراد هنا أعم من ذلك؛ لأن البشارة به ﷺ جاءت فى ألسنة الأحبار والكهان والجان كما استوعبه أهل السير وجمع أكثره ابن ظفر[1] فى كتابه «البُشر بخير البشر» وقد تقدم نزر يسير من ذلك، ومنها أيضًا: ما جاء أنه حين ولد ﷺ هتف هاتفٌ على الحَجُون بفتح الحاء جبل بأعلى مكة:

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت ... ولا ولدت أنثى من الناس واحده

كما ولدت زُهْرية ذات مفخر ... مجنبة لوم القبائل ماجده

وهتف آخر على أبى قُبَيْس بأربعة أبيات فيها معنى ذلك وزيادة[2].

ومنها: أن سواد بن قَارب الدَّوسى لما قدم على رسول الله ﷺ وحسن إسلامه أخبره أن رَئِيَّ أنشده أبياتًا ثلاث ليال متوالية، وذكرها للنبى ﷺ وفيها

---

(١) هو محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر، أبو عبد الله، الصَّقَلى المكى (٤٩٧ - ٥٦٥ هـ) أديب رحالة، مفسر، ولد فى صقلية، ونشأ بمكة، توفى بالشام، له تصانيف عديدة منها: «خير البِشر بخير البَشَر» و «أنباء نجباء الأبناء». الأعلام (٦/ ٢٣١)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٢٢).

(٢) ينظر الخبر والأبيات فى الوفا ص (٩٣).

حث «سواد بن قارب» على المجيء إلى رسول الله ﷺ والإيمان به وعظيم مدحه.

(أن) أى بأن متعلق ببشرى **(قد وُلِدَ المصطفى)** أى المختار على الخلق كلهم.

(وحَقّ) بفتح الحاء أى ثبت. قال الله تعالى: **﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** [1] أى ثبتت، أو بضمها وبها قرىء فى السبع، والحق من أسمائه تعالى بهذا المعنى؛ لأنه الثابت أزلاً وأبدًا لذاته، ويقال الحق لما يقابل الباطل؛ لأنه جدير بالثبوت كما أن الباطل جدير بالزهوق.. انتهى من شرح البيضاوى لابن السبكى. **(الهناءُ)** أى الفرح والسرور لكل الخلائق به. قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** [2] فقد علم من هذا والذى قبله وما سردناه من الروايات سابقًا فى شرحنا هذا أن البشارات به ﷺ كانت مستمرة من حين حمله بل قبله بل فى الكتب السماوية، حتى فى الجنة قبل خلق آدم عليه السلام.

فائدة

ذكر بعضهم أن الهتف وقع فى غير ما يتعلق بالمصطفى عليه الصلاة والسلام؛ فإنه سمع يوم موت إمام الحرمين[3] - رحمه الله - قائلاً من الجن يهتف بهذين البيتين وهما:

يا دهر بع رتب المعالى بعده ... بيع الكساد ربحت أم لم تربحِ
قَدِّم وأخِّر مَنْ تشاء من الورى ... مَاتَ الذى قَدْ كُنت منه تستحى

وقد خمسها ابن عطاء الله فقال:

فَتَكَ الزمانُ بنا وأظهر حده ... وغدا يحاربنا وينصر جُنْدهُ

(١) سورة الزمر: ٧١.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٣) هو إمام الحرمين، أبو المعالى الجُوينى، عبد الملك بن أبى محمد عبد الله بن يوسف، الفقيه، الشافعى، أحد الأئمة الأعلام، توفى سنة (٤٧٨ هـ). انظر: شذرات الذهب (٥/٣٣٨)، سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٨).

ورمى عزيزا كان يُنجز وَعـدَه يا دهُر بِعْ رُتَبَ المعالى بعدهُ
بيع الكساد ربحت أم لم تربح
دمعى على فقد الأحبةِ قد جرى يوم الفراق فـلا تَسَلْ عمًّا جرى
يا دهرُ قد حكمتْ فافعل ما ترى قدِّم وأخِّر من تشاء من الورى
مات الذى قد كنت منه تستحى

(هذا) معمول لفعل محذوف والتقدير: أعلم هذا ولا تفرط فى شىء منه. وقد يُؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر كما هنا **(و)** لا يخفى على الذائقين المستنشقين لعَرْف عطر عبير نَشْر ذكر أوصاف سيد المرسلين أن صفاته النبوية وأحواله الزكية يطرب عند سماعها كل محبّ صادق أديب أريب، فلذا ذكر غير واحد من العلماء أنه **(قد استحسن القيامَ)** أى عدّه حسنًا وحكم باستحبابه وندبه شرعًا **(عند)** أى لدى وصول القارىء للمولد إلى **(ذكر مولده)** أى ولادته ﷺ **(الشريف)** أى الذى له شرف ومزية على ولادة غيره ممن ولد من الأنبياء والمرسلين فضلا عن غيرهم من سائر الخلق أجمعين لما اشتمل عليه من الآيات العجيبة والخوارق الغريبة **(أئمة)** أى طائفة من العلماء العاملين المقتدى بهم وبأمثالهم فى الدين **(ذوو)** بواوين أى أصحاب **(رِواية)** بكسر الراء أى نقل عمن يقتدى به كالصحابة والتابعين والمجتهدين **(و)** ذوو **(رَوِيَّة)** بفتح الراء وكسر الواو وشد المثناة تحت، أى فكر وتدبر ونظر وتأمل ليأخذوها على الوجه الأتم.

وشاهد ما تقرر من استحسان جماعة من الأئمة الأعلام للقيام لشريف مولد سيد الأنام عليه من الله العظيم أفضل الصلاة والسلام ما ذكره بعض المحققين من أنه جرت العادة بأنه إذا ساق الوعاظ والمدّاح مولده ﷺ وذكروا وضع أمه له ﷺ قام أكثر الناس عند ذلك تعظيمًا له ﷺ.

وهذا القيام بدعة لا أصل لها لكنها بدعة حسنة لأجل التعظيم، ولذا قيل بندبها كما تقدّم إذ البدعة تنقسم إلى: واجبة، وإلى مستحسنة أى مندوبة،

وإلى غيرهما من بقية الأحكام الخمسة كما ذكره الأصوليون وغيرهم، وما أحسن قول الإمام البليغ حسَّان زمانه أبى زكريا يحيى الصَّرْصَرى [1] الحنبلى - رحمه الله تعالى - فى بعض قصائده النبوية:

قليلٌ لمدح المصطفى الخطُّ بالذهبْ   على فضة من خط أحسن من كَتَبْ
وأنْ ينهض الأشرافُ عند سماعه   قيامًا صفوفًا أو جثِيًا على الرُّكَبْ
أما اللهُ تعظيمًا له كَتَبَ اسمه   على عرشه يا رتبةً سَمَتْ الرُّتَبْ

وقد اتفق أن منشدًا أنشد هذه القصيدة فى ختم درس شيخ الإسلام بقية المجتهدين الأعلام تقى الدين السبكى - رحمه الله تعالى - وكان القضاة والأعيان مجتمعين عنده، فلما وصل المنشد إلى قوله: «وأن ينهض الأشراف عند سماعه...» إلى آخر البيت نهض الشيخ فى الحال قائما على قدميه امتثالا لما ذكره الصَّرْصَرىْ، وقام الناس كلهم، وحصلت ساعة تجل عظيمة، ذكر ذلك ولده التاج السبكى فى ترجمته من طبقاته [2].

قال بعضهم: ويكفى ذلك فى الاقتداء والعمل بعمله فإنه كان من كبار الأئمة وأساطين الأمة ففعل مثله حجة أىّ حجة يتضح بها للعامل الحجة.

(فطُوبى) هى اسم الجنة وقيل اسم شجرة فيها، وأصلها فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوًا لضم ما قبلها، قاله الفراء، وقال: وفيها لغتان: تقول العرب طوباك وطوبى لك.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [3] فروى عن ابن عباس أن معناه فرحٌ وقرّة عين.

وقال عكرمة: نِعْمَ ما لهم.

(١) هو الإمام يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصارى، أبو زكريا جمال الدين، شاعر ضرير من أهل بغداد، أكثر شعره فى مدح المصطفى ﷺ، قتله التتار ببغداد سنة (٦٣٦ هـ). انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢١١)، النجوم الزاهرة (٧/ ٦٦)، كشف الظنون (١٣٤٠).

(٢) قال الحافظ الشامى فى السيرة الشامية (١/ ٤١٥): وهذا القيام بدعة لا أصل لها.

(٣) سورة الرعد: ٢٩.

وقال الضحاك: غبطة لهم.

وقال قتادة: حُسنى لهم، وعن قتادة أيضًا: أصابوا خيرًا.

وقال إبراهيم: خيرٌ لهم وكرامة.

وقال عجلان: دوام الخير.

وقيل: الجنة، وقيل: شجرة فيها، وكل هذه الأقوال محتملة هنا أيضًا.

وقد جاء لفظ طوبى فى أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «طوبى لمن بات حاجًا وأصبح غازيًا: رجلٌ ذو عيال متعفف، قانعٌ باليسير من الدنيا، يدخل عليهم ضاحكًا ويخرج منهم ضاحكًا، فو الذى نفسى بيده إنهم هم الحاجُّون الغازُون فى سبيل الله عز وجل» أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة رضى الله عنه[1].

وأخرج أيضًا عن عبد الله بن حنطب : «طوبى لمن رزقه الله الكفاف ثم صبر عليه»[2].

ومنها: «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة، وذل بنفسه فى غير مسكنة، وأنفق من مال جمعه فى غير معصية، وخالط أهل العلم والحكمة، ورحم أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن ذل نفسه، وطاب كسبه، وحسنت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله» أخرجه البخارى فى تاريخه عن ركب المصرى[3].

ومنها: «طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» أخرجه ابن حبان فى صحيحه، وأحمد فى مسنده عن أبى سعيد[4].

---

(١) مسند الفردوس (٣٧٣٦) وفيه إسحاق بن إبراهيم الدبرى: حوله كلام.

(٢) مسند الفردوس (٣٧٣٧) وفيه أحمد بن محمد بن مسروق: منكر الحديث.

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن (٤/ ١٨٢)، الطبرانى فى معجمه الكبير (٤٧١٥)، البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٣)، الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٩)، السيوطى فى الجامع الكبير (٥٢٧١٤). والحديث ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٩)، والموضوعات لابن الجوزى (٣/ ١٧٨)، وفيض القدير (٤/ ٢٧٧).

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٧١)، موارد الظمآن (٢٣٠٢)، الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٦٧).

ومنها: «طوبى شجرة غرسها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، تنبت بالحُلى والحُلل، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة» أخرجه ابن جرير عن قرة بن إياس[1].

ومنها: «طوبى شجرةٌ فى الجنة لا يعلمُ طولها إلا الله، يسيرُ الراكبُ تحت غصن من أغصانها سبعين خريفًا، ورقها الحُلَلُ، يقع عليها الطير كأمثال البُخْت»[2].

ثم على أنها اسم الجنة أو شجرة فيها فهو مبتدأ خبره ما بعده. وأما على أنها من الطيب فهو بدل من اللفظ بفعله وهو طاب والأصل طاب من كان... إلخ. وعلى كل فيحتمل أنه إخبار، وأنه دعاء، ثم الأولى أن يكون الأوّل هو المقصود هنا؛ وعليه أى فالجنة حاصلة **(لمن)** أى لشخص **(كان تعظيمُهُ)** أى النبى ﷺ وشرف وكرم **(غايةَ)** أى بنهاية **(مَرَامِه)** بفتح الميم، اسم مفعول من رام بمعنى طلب أو مصدر ميمى بمعنى اسم مفعوله **(و)** غاية **(مَرْمَاه)**، بفتح الميم وسكون الراء، ما يقصد بالرمى فشبه تعظيمه ﷺ بالمرمى بجامع الاعتناء والقصد فى كل، فإن الرامى مثلاً يعتنى غاية الاعتناء بأن لا يخطىء سهمه فيصيب ما رامه، فيجب على كل مسلم مؤمن بالله ورسوله أن يجعل تعظيمه ﷺ نصب عينيه ويعتنى به غاية الاعتناء حتى تصل همته العلية المشبهة بسهم الرامى إلى ما هو قاصده، وهو تعظيمه ﷺ بحيث لا يكون فوقه شىء غير تعظيم الله تعالى، كيف لا وقد عظمه الله تعالى وشرفه وفضله على من سواه من جميع الخلق، وقربه لديه وحباه بكمال حبه، وأرسله رحمة للعالمين ﷺ مادامت السموات مع الأرضين.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه)

---

(1) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٥٢٨٩) لابن جرير.
(2) مسند الفردوس (٣٧٥٩)، مسند أحمد (٣/ ٧١).

[مولد النبي ﷺ عام الفيل]

ولما فرغ المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من ذكر حمله ﷺ وذكر بعض ما كان فيه وقبله وبعده شرع الآن يتكلم على أحوال ولادته ﷺ فما بعدها من نشأته ورضاعه وغيرهما مما ستسمعه إن شاء الله تعالى فيما يملى عليك من نحو بعثته وهجرته وصفته فقال: (وبَرَزَ ﷺ) أى ظهر فى هذا الوجود حال كونه (واضعًا) ومعتمدًا على (يديه) كلتيهما (على الأرض) وحال كونه (رافعًا رأسهُ) الشريف (إلى) جهة (السَّماء العَلِيَّة) ناظرًا إليها نظرًا حقيقيًا كما يعلم من حديث عطاء وابن عباس الآتى قريبًا وحال كونه (مُؤْميًا) بميم مضمومة وهمزة ساكنة وقد تبدل واوًا تخفيفًا فياء تحتية فى آخره مبدلة من همزة، اسم فاعل أومأ أى مشيرًا (بذلك الرَّفع إلى سُؤدده) أى سيادته (و) إلى (عُلاه) أى علو شانه (و) حال كونه (مشيرًا) أيضًا (إلى) إظهار (رِفْعَة) بكسر الراء، أى ارتفاع (قدره) العظيم بأنه يرتفع ويعلو فى الدنيا والآخرة (على) قدر (سائر) من السُؤْر بضم السين وإسكان الهمز هنا بمعنى باقى لا بمعنى جميع كما توهمه بعضهم وإلا لدخل نفسه حينئذ ولا يقال إنه ﷺ أرفع قدرًا على نفسه، وسيأتى كلامهم فى السائر فى مبحث الشمائل.

(البَرِيَّة) بتخفيف الراء المهملة وشدّ المثناة تحت، أى الخلق من إنس وجن ومَلَك، وأنه يصل إلى مراتب علية لا يصلها أحد حتى خواص الأنبياء والرسل.

(و) مشيرًا أيضًا إلى (أنه) ﷺ هو (الحبيب) لله سبحانه وتعالى على وجه لا يشاركه فيه أحد، والمحبة أصلها الميل إلى ما يوافق المحب، ولكن هو فى حق من يصح منه الميل والارتفاع بالرفق وهى درجة المخلوق، وأما الخالق تعالى فمنزه عن الأغراض فمحبته لعبده تمكنه من سعادته وعصمته وتوفيقه،

وتهيئة أسباب القرب إليه، وإضافة رحمته إليه، وقصواها كشف الحُجُب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته ولسانه الذى ينطق به، فهى أعم من الخُلة إذ الخُلة هى تخلل العبد فى الصفات الإلهية بحيث لا يشذ منها عنه، فالخُلة خاصة والمحبة عامة.

واختلفوا فى تفضيلها، فقال جماعة: إن المحبة أفضل، وقال جماعة: إن الخُلة أفضل، ويؤيد الأول حديث البيهقى فى «شعب الإيمان» عن أبى هريرة رضى الله عنه: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى نجيًا، واتخذنى حبيبًا، ثم قال: وعزتى وجلالى لأوثرن حبيبى على خليلى ونجيى»[1] أى وعلى غيرهما من الأنبياء والمرسلين.

وحديث سلمان عند ابن عساكر قال: هبط جبريل على النبى ﷺ فقال: «إن ربك يقول لك إن كنتُ اتخذت إبراهيم خليلاً فاعلم أنى قد إتخذتُك حبيبًا، وما خلقتُ خلقًا أكرم علىَّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأُعرّفهم كرامتك ومنزلتك عندى، ولولاك ما خلقتُ الدنيا»[2].

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا فائزين بمحبة الله تعالى إياهم إلا أنهم لم يصلوا درجة محبته إياه ﷺ؛ فكل ما لواحدٍ منهم من المزايا من جهة الله تعالى مجتمعٌ فيه ﷺ على الوجه الأكمل الأشمل، فقد اجتمع فيه من المزايا ما تفرق فى غيره، وإن كان التحقيق أن أفضليته ﷺ ليست لمزاياه التى اختص بها وإنما أفضليته بتفضيل من الله تعالى. وبما تقرر عُلم أن مقام المحبة فى حق نبينا ﷺ أرقى من مقام الخُلة فى حق غير نبينا.

وقول بعضهم: لا مانع من أن يوجد فى المفضول ما لا يوجد فى الفاضل يُرد بأنه قد صح فى حديث المعراج عن أبى يعلى أنه قال له ربه: «اتخذتك خليلاً وحبيبًا» فثبت أنه خليل كإبراهيم وزاد كونه حبيبًا.

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٣٣١) للحكيم الترمذى، والبيهقى فى الشعب وضعفه، والديلمى، وابن الجوزى فى الموضوعات.

(٢) قال الحافظ الشامى فى سيرته (١/ ٩٤): سنده واهٍ جدًا. وقال السيوطى فى اللآلئ (١/ ١٤١): موضوع.

وعلى تسليم بأن مقام الخُلَّة أرقى من مقام المحبة فنقول: إن محبة الله تعالى فى حقه بمقام الخُلَّة فى حق غيره. وقول ابن القيم - وهو ممن قال بأكملية الخُلَّة وجَهَّل من قال بخلافه - إن الخُلَّة هى نهاية المحبة دليل لما ذكرته لأنه ﷺ فى أعلى طبقات المحبة عند الله، فبهذا الإعتبار هى أعظم من الخُلَّة بدليل الإيثار المذكور فى الحديث السابق. وأما خُلَّة الله فى حقه ﷺ فلا يساويها لا خُلَّته ولا محبته فى حق غيره من الأنبياء وغيرهم.

وكيف لا وهو (**الذى حَسُنَتْ**) حسنًا كاملاً لم يشاركه فيه أحد (**طباعُهُ**) الكريمة (**وسجاياه**) الفخيمة جمع سجية بمعنى الطبيعة أيضًا فهو من عطف المرادف مراعاة للتسجيع، قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وشاهد ما ذكره المصنف - رحمه الله تعالى - ما رواه ابن سعد من حديث جماعة منهم عطاء وابن عباس أن آمنة قالت: «لما فصل منى - تعنى النبى ﷺ - خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع على الأرض معتمدًا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب».

قال فى «النعمة الكبرى»: إشارة إلى أنه يملك الأرض كلها، وأنه ينثر التراب يوم بدر وغيره على وجوه أعدائه فيكون سببًا لهزيمتهم وهلاكهم.. انتهى.

قالت: «فقبضها ورفع رأسه إلى السماء فبلغ ذلك رجلا من لهب فقال لصاحبه: انجه لئن صدق الفال ليغلبن هذا المولود أهل الأرض». وفى رواية عن ابن سعد مرسلة: «لما ولد ﷺ وقع على كفيه وركبتيه شاخصًا بصره إلى السماء».

ووقع فى أثناء حديث رواه ابن حبان فى صحيحه أن أمه آمنة قالت: «ثم وضعته فما وقع كما تقع الصبيان وقع واضعًا يديه بالأرض رافعًا رأسه إلى السماء»[2].

---

(١) البيهقى فى السنن (١٠/١٩٢)، الأحاديث الصحيحة (٤٥)، إتحاف السادة المتقين (٦/١٧١)، كنز العمال (٥٢١٧)، كشف الخفا (١/٢٤٤)، البداية والنهاية (٦/٤١).

(٢) صحيح ابن حبان.

وفى رفع بصره ﷺ إلى السماء فى تلك الحالة كما قاله العلامة الشمس الجوجرى[1] ـ رحمه الله تعالى ـ إشارة وإيماء إلى رفع شأنه وعلو قدره، وأنه يسود الخلق أجمعين.

وكان هذا أول فعل وجد منه ﷺ فى أول ولادته، وفيه إشارة وإيماء لمن تأمل أن جميع ما يقع له من حين يولد إلى حين يقبض ﷺ مما يدل عليه ذلك الفعل؛ فإنه ﷺ لا يزال متزايد الرفعة فى كل وقت وحين، عليٍّ الشأن على المخلوقات أجمعين فى الدنيا والآخرة. ولله در الإمام البوصيرى ـ رحمه الله ـ حيث أشار إلى ذلك فى قصيدته الهمزية المحمدية بقوله:

رَافِعًا رأسَـهُ وفى ذلكَ الرَّفْـ ـعُ إلى كُلِّ سُؤْدَدٍ إيمـاءُ[2]

رَامِقًا طَرْفَهُ السَّمَـاءَ وَمَرْمَى عينِ من شأنُهُ العُلُوُّ العَلاَءُ[3]

وفى رفع رأسه ﷺ إلى السماء إشارة وإيماء إلى كل سؤدد، وأنه لا يتوجه قصده إلا إلى جهة العلو دون غيرها مما لا يناسب قصده.

وروى الطبرانى أنه لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يده مشيراً بالسبابة كالمسبح بها. وسبقت رواية: أنها لما وضعته نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل.

قال بعض أهل الإشارات: لما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [4] فأخبر عن نفسه بالعبودية والرسالة، ونبينا محمد ﷺ وقع ساجداً وخرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، وقبض قبضة من تراب، ورفع رأسه إلى السماء، فكانت عبودية عيسى عليه الصلاة والسلام بالمقال، وعبودية محمد ﷺ بالفعال، ورسالة

---

(١) هو محمد بن عبد المنعم بن محمد الجوجرى (٨٢١ ـ ٨٨٩ هـ) من فقهاء الشافعية بمصر. له تصانيف منها: «شرح همزية البوصيرى» و «ترجمة الإمام الشافعى». الأعلام (٦/ ٢٥١).

(٢) إيماء: إشارة.

(٣) الرامق: الناظر. مرمى العين: نظرها. العلاء: الرفعة. والبيتين فى المجموعة النبهانية (١/ ٧٨).

(٤) سورة مريم: ٣٠.

عيسى عليه السلام بالإخبار، ورسالة محمد ﷺ بالأنوار.

وفى قوله: ورسالة عيسى بالإخبار... إلخ نظر؛ لأن الأنوار عبارة عن المعجزات التى هى سبب فى ثبوت الرسالة عند ادعائها ولابد منها لكل رسول - عيسى وغيره - فليست رسالة عيسى بالإخبار مجردًا عن الأنوار بل هو مصحوب بها كما قص علينا ذلك فى الكتاب العزيز حيث قال تعالى حكاية عنه: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية[1]، وأيضًا فتفريع الرسالة على الآية التى تكلم بها عند الولادة غير ظاهر إذ لم يصرح بها فى الآية، وأيضًا فرسالة نبينا ﷺ ليست بالأنوار وحدها بل بالأنوار والإخبار، فكل منهما رسالته بالأنوار والإخبار.

وفى سجوده ﷺ عند وضعه إشارة إلى أن مبدأ أمره على القُرْب، قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2] وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[3] فحال عيسى عليه الصلاة والسلام يشير إلى مقام العبودية، وحال محمد ﷺ يشير إلى مقام القرب من الحضرة الإلهية كما قيل فى هذا المعنى:

لك القُرْبُ مِنْ مَولاك يا أشرَف الورى ... وأنت لكلٍّ المرسلين خِتَامُ
وأنت لنا يومَ القيامةِ شافعٌ ... وأنت لكلِّ الأنبياءِ إمامُ
عليكَ من الله الكريم تحيةٌ ... مباركةٌ مقبولةٌ وسلامُ

وخرَّج أبو نُعَيم فى «الدلائل» من حديث عبد الرحمن بن عوف عن أمه الشَّفَّاء بنت عمرو بن عوف - قابلة آمنة - قالت: لما وَلَدَتْ آمنة بنت وهب محمدًا ﷺ وقع على يدى فاستهلَّ، فسمعت قائلا يقول: رحمك الله أو رحمك ربك[4].

---

(١) سورة آل عمران: ٤٩.

(٢) سورة العلق: ١٩.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر (٦/٦٢٧).

(٤) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٦)، الوفا ص (٩١).

وهذا لا ينافى ما تقدم عن آمنة أنها قالت: ولم يعلم بى أحد من قرابتى، وإنى لوحيدة فى المنزل لإمكان حضورها بعد ذلك. ولا ما تقدم آنفًا عن ابن سعد من حديث جماعة منهم: عطاء وابن عباس من أنه وقع على الأرض معتمدًا على يديه لإمكان حصول الأمرين على التعاقب.

قالت الشَّفَّاء: فأضاء لى ما بين المشرق حتى نظرت إلى بعض قصور الشام - وفى لفظ: قصور الروم - ثم ألبسته وأضجعتُه فلم أنشب أن غشيتنى ظُلمة وقشعريرة عن يمينى، فسمعت قائلاً يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المغرب، وأسفر ذلك عنى، ثم عاودنى الرعب والظلمة والقشعريرة عن يسارى، فسمعت قائلاً يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المشرق. قالت: فلم يزل الحديث منى على بال حتى أن بعثه الله يوم الإثنين، فكنت فى أول الناس إسلامًا[1].

وقولها: فاستهلَّ أى صاح، وعليه فقول القائل: رحمك الله ليس تشميتًا بل تعظيمًا لقدره، وحمله بعضهم على العطاس مع الاعتراف بأنه لم يكن فى شىء من الأحاديث تصريح بأنه ﷺ لما ولد عطس[2] بقرينة قول القائل - أى الملك -: رحمك الله، لما استقر من شرعه الشريف أنه لا يسن التشميت إلا لمن حمد الله، وقد جاء: «إن العاطس إذا حمد الله فشمتوه، وإن لم يحمد الله فلا تشمتوه»[3]، فلعله ﷺ حمد الله تعالى بعد عطاسه فشمَّته المَلَكْ.

ومن لطيف ما اتفق أن الخليفة المنصور وشى عنده فى بعض عماله، فلما حضر عنده عطس المنصور، فلم يُشَمِّته ذلك العامل، فقال له المنصور: ما منعك من التشميت؟ فقال: إنك لم تحمد الله. قال: حمدت الله فى نفسى، فقال: قد شمَّتك فى نفسى. فقال له: ارجع إلى عملك فإنك لم تحابنى فلا تحابى غيرى.

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٦)، الوفا ص (٩١).
(٢) السيرة الشامية (١/ ٤١٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٢).

ويدل لما مر ما روى أنه حين خروجه من بطن أمه قال: «الحمد لله كثيرًا» فحملهُ على العطاس هنا غريب كحمل القائل على المَلَكْ، وإلا فالاستهلالُ صياح المولود أوّل ما يولد، وقد أشار إلى التشميت صاحب الهمزية بقوله:

شَمَّتَتْهُ الأمْلاكُ إذْ وَضَعَتْهُ ... وَشَفَتْنَا بقولِها الشَّفَّاءُ[1]

* * *

[فى تكلمه ﷺ فى المهد]

وذكر ابن سبع فى «الخصائص» أن مَهْدَهَ ﷺ كان يتحرك بتحريك الملائكة، وأن أول كلام تكلم به أن قال: «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا»[2].

وروى الواقدى أنه قال حين ولادته: «جلالُ ربى الرفيع» ولا مانع من تكرار ذلك حين خروجه وحين وضعه فى المهد، وأنه زاد بعد قوله: «والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلاً» كما فى رواية، فحينئذ يكون تكلمه ﷺ حين خروجه من بطن أمه لم يشاركه فيه غيره من الأنبياء إلا الخليل وإلا نوحًا، بخلاف تكلمه فى المهد، على أنه يجوز أن يكون المراد بالتكلم فى المهد التكلم فى غير أوان الكلام، فهو ﷺ من جملة من تكلم فى المهد، وإن كان ﷺ عدَّهم ولم يذكر نفسه منهم، وقد أشار الجلال السيوطى - رحمه الله تعالى - إلى جملة من تكلم فى المهد[3] بقوله:

تَكَلَّمَ فى المهْدِ النَّبىُّ مُحَمَّدٌ ... وعيسى ويحيى والخليلُ ومريمُ

ومُبْرِى جُرَيْج ثم شاهدُ يوسف ... وطفلٌ لدى الأخدودِ يَرْويه مُسْلِمُ

وطفلٌ عليه مُرَّ بالأمةِ التى ... يُقالُ لها تَزْنِى ولا تَتَكَلَّمُ

وماشطةٌ فى عهد فِرْعَونَ طفلها ... وفى زمن الهادى المُبَارَكُ يُخْتَمُ

(١) المجموعة النبهانية (١/ ٧٨).

(٢) أخرجه البيهقى فى الدلائل (١/ ١٤٠)، وأورده السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٩١).

(٣) السيرة الشامية (١/ ٤٢٣).

وزاد بعضهم فقال:

وَزِدْ لهم نوحًا ويوسفَ بَعْدَهُ ومثلهما موسى الكليمُ المُعَظَّمُ

ووجد بهامش «سيرة الشامى»:

وبنت لمحيي الدين قدّس سِرَّه وأعنى به العربى فتلك تُتَمِّمُ

وزاد بعضهم: إدريس.

تنبيه

يُجمع بين الروايات السابقة بأن وقت ولادته ﷺ وقع منه جميع ما ذُكِرَ، فتارة قبض بيده التراب، وتارة وقع على كفيه وركبتيه شاخصًا بصره إلى السماء، وتارة وضع يديه رافعًا رأسه إلى السماء، وتارة قبض أصابع يده أو يديه مشيرًا بالسبابة أو بالسبابتين، وتارة رؤى ساجدًا، وتارة جاثيًا على ركبتيه كما فى رواية، وتارة قابضًا على حريرة بيضاء وقيل: خضراء.

* * *

[فى حزن إبليس لما ولد رسول الله ﷺ]

وفى تفسير ابن مخلد: أن إبليس لعنه الله رنَّ - أى صوَّت - بحزن -، وكان له أربع رنات: رنةٌ حين لُعِن، ورنةٌ حين أُهْبِط، ورنة حين وُلِد رسول الله ﷺ، ورنة حين أُنْزِلَتْ عليه ﷺ فاتحة الكتاب[1].

قال فى «إنسان العيون»: وقد أشار صاحب الأصل إلى الرنة التى كانت عند ولادته بقوله:

لمولده قَدْ رنَّ إبليسُ رَنَّةً فَسُحْقًا له ماذا يفيد رَنِينهْ[2]

وعن عطاء الخراسانى لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ

(1) الروض الأنف (1/ 105)، الاكتفا (1/ 167)، السيرة الشامية (1/ 424)، الخصائص الكبرى (1/ 183).
(2) إنسان العيون (1/ 110).

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [1] صرخ إبليس صرخة عظيمة اجتمع بها جنوده من أقطار الأرض قائلين: ما هذه الصرخة التى أفزعتنا؟ قال: أمرٌ نزل بى لم ينزل قط أعظم منه. قالوا: وما هو؟ فتلى عليهم الآية وقال لهم: فهل عندكم من حيلة؟ قالوا: ما عندنا من حيلة. فقال: اطلبوا فإنى سأطلب، قال: فلبثوا ما شاء الله، ثم صرخ فى أخرى فاجتمعوا إليه وقالوا: ما هذه الصرخة التى لم نسمع منك مثلها إلا التى قبلها؟ قال: هل وجدتم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: لكنى قد وجدت. قالوا: وما الذى وجدت؟ قال: أزين لهم البدع التى يتخذونها دينًا، ثم لا يستغفرون الله؛ أى لأن صاحب البدع يراها بجهله حقًا وصوابًا ولا يراها ذنبًا حتى يستغفر الله منها.

وعن الحسن قال: بلغنى أن إبليس قال: سوّلت لأمة محمد المعاصى فقطعوا ظهرى بالاستغفار، فسوّلت لهم ذنوبًا لا يستغفرون الله منها وهى الأهواء أى البدع.

وعن عكرمة: أن إبليس لما وُلد رسول الله ﷺ ورأى تساقط النجوم قال ـ أى لجنوده ـ: لقد ولد الليلة ولد يُفسد علينا أمرَنا، فقال له جنوده: لو ذهبت إليه فخَبَلْتَه. فلما دنا من رسول الله ﷺ بعث الله جبريل ـ عليه السلام ـ فركضه برجله رَكْضَة فوقع بعدن[2].

وقال النصير الطوسى[3] فى شرح «الإشارات» فى الحديث: «ما من مولود يولد من بنى آدم إلا ولد ومعه قرينه من الشيطان، فقيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كذلك إلا أن الله أعاننى عليه فأسلمَ»[4] بفتح الميم. وفى رواية

---

(١) سورة النساء: ١١٠ .

(٢) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/٨٦) لابن أبى حاتم فى تفسيره.

(٣) هو محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسى، كان عالمًا فى العلوم العقلية، والأرصاد والرياضيات، علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه، وله مؤلفات منها: شكل القطاع، وتربيع الدائرة، وحل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا. توفى سنة (٦٧٢ هـ). انظر: فوات الوفيات (٢/١٤٩)، الأعلام (٧/ ٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٤)، الترمذى (١١٧٢)، النسائى (٣٩٦٠).

صحيح البخارى: «فأسلم الشيطان». قال القاضى بعد قوله: «فأسلم»: يعنى القرين أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام فصار لا يأمر إلا بخير كالمَلَكْ، وهو ظاهر الحديث.

ويؤيده ما فى «الوفا» عن نافع عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه ﷺ قال: «فضلت على آدم بخَصْلتين: كان شيطانى كافرًا فأعاننى الله عليه حتى أسلم، وكان أزواجى عونًا لى. وكان شيطان آدم كافرًا وكانت زوجته عونًا على خطيئته»[1].

وقد أشار إلى ذلك الصَّرصرىّ ـ رحمه الله ـ بقوله:

فى خصلتين يفوق آدم فيهما ... وهما لأهلِ الحقِ واضحتانِ
شيطانُ آدَم كافرٌ يُغوى وَقَدْ ... وَصَلَتْ هدايتهُ إلى الشيطانِ
ولَزوجهِ عونٌ عليه وأنه ... بنسائه قَدْ كانَ خير مُعَانِ

ونقل الشيخ محمد الشامى فى «سيرته» عن المطالع: ما أسلم من الشياطين إلا شيطانان: شيطان نبينا محمد ﷺ، وشيطان نوح عليه السلام.

قال الشهاب الخفاجى: وقال بعضهم: بل سائر الأنبياء على هذا المنوال فتدبر.. انتهى. وفيه نظر لتصريحه فى الحديث السابق بكفر شيطان آدم، ومنهم من أنكر هذه الرواية وقال: الرواية الصحيحة: «فأسلمُ» ـ أى بهمزة وضم الميم ـ ومعناها: أن الله أعاننى عليه حتى أسلم من شره فإن الشيطان لا يُسْلِمْ قط.. انتهى.

قال القاضى عياض فى «الشفا»: وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها أى على الرواية الأولى.

ثم اعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبى ﷺ من الشيطان وعدم تسلطه عليه فى جسمه بأنواع الأذى، وفى خاطره بالوساوس؛ لأنه قد أخبر بسلامته

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٤٨٨)، الخطيب فى تاريخه (٣/٣٣١)، العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٢/٣٢)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٣٣٧)، العلل المتناهية (١/١٨١) وفيه: محمد بن الوليد بن أبان وهو فى عداد من يضع الحديث. وترجم له الذهبى فى الميزان (٤/٥٩).

من قرينه القريب منه الملازم، له فسلامته من البعيد عنه غير الملازم له من باب أولى، وقد جاءت الآثار بتصدى الشياطين له فى غير موطن رغبة فى إطفاء نوره وإدخال شغل عليه إذ يئسوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين خاسئين.

قال الحلبى: وهذا ـ أى عدم قربه من نبينا محمد ﷺ ـ يجوز أن يكون فى خصوص إبليس فلا ينافى ما تقدم عن الحافظ ابن حجر: أن عدم ارتضاعه ﷺ فى ليلتين بوضع عفريت من الجن يده فى فيه، على تسليم صحته.. انتهى.

وقد يقال: هذا ينافى ما تقدم من إجماع الأمة على عصمته من الشيطان وعدم تسلطه عليه فى جسمه وخاطره إلا أن يحمل كلامهم فى عدم القرب والتسلط إلى جسمه وخاطره على ما بعد النبّوة، وفى عدم القرب والتسلط إلى خاطره على ما قبل النبوة، وعلى كلا الحالين فهم قد يئسوا من إغوائه ﷺ ولم يكن لهم إلى ذلك سبيل.

* * *

[فرح جده عبد المطلب به ﷺ وتسميته له محمداً]

(ودعت) بتخفيف الدال المهملة أى أرسلت تدعو ليوافق رواية ابن إسحاق الآتية (أمه) ﷺ بعد ولادته جده (عبد المطلب) بن هاشم الجد الأول لرسول الله ﷺ (وهو يطوف بهاتيك) أتى بما يشار إليه للبعيد تنويهًا على بعدها وعلو شأنها فى الشرف والعظم على سائر الأماكن إذ ذاك، فقول بعضهم: نزّلها منزلة القريب لقربها من القلوب المؤمنة حتى كأنها فيها كامنة كغيرها من سائر المحبوبات من شعائر الله سبحانه، فيه نظر إذ لا يؤتى بالإشارة للقريب إلا بدون الكاف.

(البَنِيّة) بفتح الموحدة وكسر النون وتشديد التحتية؛ أى الكعبة المبنية بأمر الله تعالى للملائكة فمن بعدهم من عمّارها، وقد بنيت الكعبة مراراً عديدة يأتى بيانها إن شاء الله تعالى فى محله، ولها أسماء أخرى يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى.

(فأقبلَ) منها عليها حال كونه (مسرعًا ونظر إليه) أى إلى ابن ابنه محمد ﷺ نظر محبٍّ مشتاق إلى محبوبه الغائب (وبلغ من السرور) أى الفرح به ﷺ حالٌ مُقدم على صاحبها وهو (مُناه) بضم الميم وتخفيف النون، فقول بعضهم بيان له فيه ما تقدم من أن البيان لا يتقدم على مبينه. والمراد: ما كان يتمناه من إقرار عينه بولد لأحب أولاده إليه وأكرمهم عليه ابنه عبد الله سيما وقد كان مبشراً بعظمة هذا المولود الأعظم وجلالة قدره الأفخم ﷺ.

* * *

[انفلاق البرمة حين وضع ﷺ تحتها]

وروى أنه لما جاء البشير إلى جده عبد المُطَّلب بولادة آمنة له ﷺ سُرَّ بذلك سروراً عظيمًا، وقام مع من كان معه من أشراف قومه حتى دخل عليها وكانت وضعته تحت بُرْمَة كفأتها عليه، كما هو عادتهم فيمن ولد من قريش، وأرادت أن يكون جده أول من يراه، فوجدت البُرْمَة قد انفلقت عنه فلقتين، وإذا هو قد شق بصره ينظر إلى السماء، فأخبرت أمه جدَّه عبد المُطَّلب بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه، فقال: احفظيه فإنى أرجو أن يصيب خيراً[1]. وفى رواية: قالت أمه ﷺ: لما ولدته وضعت عليه جَفْنَة - بفتح الجيم - فانفلقت عنه فلقتين.

قال فى «إنسان العيون»: وهذا مما يؤيد أنه ﷺ ولد ليلاً، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كان فى عهد الجاهلية إذا ولد لهم مولود من تحت الليل وضعنه تحت الإناء لا ينظرون إليه حتى يصبحوا، فلما ولد ﷺ وضعته تحت بُرْمَة - وزاد فى لفظ: ضخمة[2]، والبُرْمَة: القِدْر، فلما أصبحوا أتوا البُرْمَة فإذا هى قد انفلقت اثنتين، وعيناه إلى السماء، فتعجبوا من ذلك.

وعن آمنة أنها قالت: فوضعت عليه الإناء فوجدته قد انفلق الإناء عنه وهو يمصّ إبهامه يَشْخَبُ - أى يَسيل - لبنا[3].

وفى رواية: أن عبد المُطَّلب هو الذى دفعه للنسوة ليضعنه تحت الإناء. ويؤيده رواية ابن إسحاق قال: إن أمه لما ولدته أرسلت إلى جده - وكان يطوف فى البيت تلك الليلة - أنه قال: ولد لك غلام. فجاء إليها، فقالت له: يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب، فتعجب عبد المطلب، فقال:

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٧)، الوفا ص (٩٢)، مناهل الصفا (٣٠).

(٢) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته لأبى نعيم (١/٤١٨) ولم ترد فيه هذه الرواية بنصها.

(٣) الوفا ص (٩٢)، دلائل النبوة للبيهقى (١/١١٣)، تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/٢٨٢)، البداية والنهاية (٢/٢٦٤)، الخصائص الكبرى (١/٨٥، ٨٦).

أليس بشراً سويّا؟! قالت: نعم، ولكن سقط ساجدًا ثم رفع رأسه وأصبعيه إلى السماء. فأخرجته له ونظر إليه فأخذه وأم به أشرف محل من بلده حتى وصل به إلى مسجد الحرام.

قال: **(وأدخله الكعبة)** المسماة بهذا الاسم المأخوذ من التكعيب بمعنى الارتفاع أو الارتباع لكونها مرتفعة أو مرتبعة، وهى أشرف من كل ما سواها من الأرض حتى المدينة المنورة ما عدا ما ضمّ الأعضاء الشريفة ومواضع أجساد الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

(الغَرّاء) بفتح الغين المعجمة وشد الراء المهملة أى النيرة الأرجاء.

قال: **(وقام)** أى عبد المطلب حينئذ منتصبًا على قدميه حال كونه **(يدعو)** الله تعالى **(بخلوص)** أى مع اخلاص **(النيَّة)** بتشديد التحتية، الخالصة من المحبطات راجيا من الله تعالى استجابته، وأهله يؤمنون **(ويشكر الله تعالى)** ويثنى عليه بأنواع الثناء **(على ما)** أى الجميل الذى **(مَنَّ)** بتشديد النون أى أنعم **(به عليه و)** يشكره أيضًا على ما **(أعطاه)** أى أنعم عليه من إيجاد هذا المولود السعيد الأكرم، فعطفه على ما قبله تفسير إذن لعطية هى المنة.

قال ابن إسحاق: ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها[1]. قال فى «إنسان العيون»: وبه يظهر التوقف فى قول ابن دُرَيْد: أكفأت عليه جَفْنَة لئلا يراه أحد قبل جده، فجاء جده والجَفْنَة قد انفلقت عنه، إلا أن يقال: يجوز أن يكون جده أخذه بعد انفلاق الجفنة ثم دخل به الكعبة، ثم بعد خروجه من الكعبة دفعه لها والنسوة ليضعنه تحت جَفْنَة أخرى إلى أن يصبح، فانفلقت تلك الجَفْنَة الأخرى، حتى لا ينافى ذلك ما تقدم عن أمه فوجدت الإناء قد انفلق وهو يمص إبهامه.

قال بعض أهل الإشارات: فى انفلاق البُرْمة عنه ﷺ إشارة إلى ظهور أمره وانتشاره وأنه يفلق ظلمة الجهل ويزيلها.

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١٠٣)، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٤)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١١١)، تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/ ٢٨٤).

[ولادته ﷺ مختونا مسرورًا]

(وولد) النبى ﷺ حال كونه **(نظيفًا)** أى ليس عليه من أقذار الولادة شىء كما ورد عن أمه أنها قالت: ولدته نظيفًا ما به قذر.

قال الحلبى: أقول لم يصاحبه قذر ولا بلل فلا ينافى جواز وجود البلل والقذر بعده أى فى زمن إمكان النفاس فلا يستدل بذلك على أن أمه ﷺ لم تر نفاسًا؛ فإن النفاس عندنا هو البلل الحاصل بعد الولادة فى زمن إمكانه لا الحاصل مع الولد.. انتهى ملخصًا.

وفيه نظر إذ اللائق بعظيم شأنه أنه لم يكن معه فى الرحم شىء من الأقذار حتى يَخْرُجَ بعده.

وحال كونه أيضًا **(مَخْتُونًا)** من الخَتْن بالمعجمة والفوقية الساكنة وهو قطع القُلْفَة ـ بضم القاف وسكون اللام ـ التى تغطى حشفة الذكر وبعض الجلدة التى فى أعلى فرج الأنثى. ويسمى ختان الرجل: إعذارًا بالعين المهملة والذال المعجمة، وختان المرأة: خِفَاضًا، بالخاء المعجمة المكسورة والفاء والضاد المعجمة.

قال النووى رحمه الله تعالى: الختان واجب عند الشافعى وكثير من العلماء، وسنة عند مالك وأكثر العلماء أى ومنهم: أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ وهو عند الشافعى واجب على النساء والرجال.. انتهى. وذهب بعض أصحابه إلى أنه واجب فى حق الرجال سنة فى حق النساء. والمعتمد ما ذهب إليه الشافعى.

ثم الصحيح من مذهبنا أن الختان جائز فى حال الصغر ليس بواجب، وعليه الجمهور.

ولنا وجه أنه يجب على الولى أن يختن الصغير قبل بلوغه، ووجه أنه

يحرم ختانه قبل عشر سنين، والصحيح أنه لا يجب الختان إلا بعد البلوغ.

والصحيح أنه يستحب أن يختن المولود فى اليوم السابع من ولادته.

وهل يحسب يوم الولادة من السبع أم يكون سبعة سواه؟ وجهان أظهرهما يحسب كما فى «الإعلام بشرح الإلمام»، وهو الذى صححه النووى فى «شرح مسلم» فى خصال الفطرة، وهو ظاهر قوله فى «المنهاج» حيث قال: ويندب تعجيله فى سابعه والراجح من الوجهين ندب وقوع الختان فى اليوم الثامن وهو الأصح فى «الزوائد» و «نكت التنبيه» قال بعضهم: إنه المعتمد، وجزم به اليمنى، وحكاه المستظهرى عن الأكثرين وأقروه. وفى «المهمات» أنه المنصوص المفتى به. ولا يبعد أن يقال: إن ولد المولود فى أوّل اليوم حسب أى يوم الولادة فيكون الختان فى السابع أو فى آخره أى آخر اليوم فلا، فيكون الختان فى الثامن.

وشاهد ما ذكره المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ ما رواه الطبرانى وغيره من طرق عن أنس: «من كرامتى على ربِّى أن ولدتُ مَخْتُونًا ولم يرَ أحد سَوأتى»[1] والمراد بقوله مختونًا: أى على صورة المختون إذ هو القطع ولا قطع هنا؛ لأن الله تعالى يوجد ذلك على تلك الهيئة من غير قطع، فيحمل الكلام على المجاز باعتبار أنه على صفة المقطوع لعلاقة المشابهة فى الصورة.

وحال كونه أيضًا (مقطوع السُّر) بضم السين ما تقطعه القابلة من سُرَّة الصبى. وقد جاء فى لغة سَرَر بفتح السين وكسرها مع تكرار الراء، ومنه قوله ﷺ: «النفساء يجرها ولدها بسررها إلى الجنة»[2] وجمعه أسرة كما فى «القاموس» وقد وقع فى نسخة: (مقطوع السُّرة) بزيادة تاء آخره كما فى

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٩٩)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ٢٦٥)، وابن الجوزى فى العلل ص (١٧١)، والوفا ص (٩٤)، الذهبى فى الميزان (٢/ ١٧٢)، الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢٤). وصححه الضياء المقدسى وابن مُغْلطاى. وجزم جماعة من العلماء بأنه ﷺ ولد مختونًا، منهم: ابن حبيب وابن الجوزى وابن دريد والحاكم، وخالفهم ابن القيم والذهبى.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٨٩)، الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٢٦٤)، والهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ٢٩٩).

«المواهب» وقال شارحه الزرقانى: الأولى حذف التاء إذ السُّر بالضم ما تقطعه القابلة من سُرة الصبى كما فى «النهاية» وغيرها إلا أن يكون سمى السُّر سُرَّة مجازًا لعلاقة المجاورة أو فيه حذف أى مقطوع منه ما يتصل بالسُّرة لأن السُّرة لا تقطع وإنما هى الموضع الذى قطع منه السُّر وذلك على الأصح.

(بيد القدرة) الباهرة **(الإلهية)** فقد ورد عن العباس رضى الله عنه: «ولد النبى ﷺ مختونا مسرورًا»[1] أى مقطوع السُّر، ففرح به جدّه وقال: إن لابنى هذا شأنًا.

وحال كونه أيضًا **(طيِّبًا)** بكسر المثناة التحتية مشدّدة؛ أى يسطع ريحه كالمسك الإذفر كما تقدم فى رواية.

وحال كونه أيضًا **(دهينًا)** أى مدهونًا؛ أى كأنه مدهون لرونق جسمه وليونته ونعومته.

وحال كونه أيضًا **(مكحولة بكُحْل)** بضم الكاف وسكون المهملة لا بفتحها **(العناية)** الربانية **(عيناه)** الكريمتان.

(وقيل): لم يولد مختونًا بل ختنه جبريل ـ عليه السلام ـ حين كان عند مرضعته حليمة السعدية، وشق صدره الشريف، وطهَّر قلبه، وختمه بخاتم النبّوة.

وقيل: بل **(ختنه)** إما بفعله أو بأمره بالموسى **(جدّه)** عبد المُطَّلب[2] **(بعد)** مضى **(سبع ليال سوية)** أى مستوية من كون كل ليلة منها كاملة من أوّلها إلى آخرها، وهذا صريح فى أن الختان كان فى اليوم الثامن.

ففى نظر بعضهم فى قوله: «بعد سبع ليال» نظر، وليس كقول غيره خَتَنَهُ فى سابع ولادته حتى يقتضى خلاف الراجح من وقوع الختان فى اليوم الثامن كما زعم بل طرفا كلامه ـ أعنى بعد وسوية ـ يبعدان ذلك كل البعد سواء قلنا

---

(١) قال الحافظ الشامى فى السيرة (١/ ٤٢٠): رواه الخطيب عن أبى بكرة موقوفًا، ولا يصح سنده. وقال الذهبى: خبر منكر.

(٢) قال الحافظ العراقى: سنده غير صحيح (السيرة الشامية ١/ ٤٢٠).

إن الولادة كانت ليلاً أم قلنا إنها كانت نهاراً، وأنها فى طلوع فجر يوم الإثنين كما هو الصحيح، وعليه جرى المصنف ـ رحمه الله ـ كما سيأتى؛ لأنه يكون حينئذ أوّل الليالى السبع التى كان الختان بعد مضيها يوم الثلاثاء وآخرها يوم الإثنين، فيكون الختان يومئذ فى ثامن يوم الولادة الذى يندب على الراجح المعتمد أن يكون الختان فيه كما مر بيان ذلك قريبًا؛ وذلك أن العرب كانوا يختتنون لأنه سنة توارثوها من إبراهيم وإسماعيل لا لمجاورة اليهود.

فقد حصل من الاختلاف فى ختانه ثلاثة أقوال أرجحها الأول، وبه جزم ابن الجوزى. وقال الخَيْضَرِىّ : هو الأرجح عندى، وأدلته مع ضعفها أمثل من أدلة غيره، ولأنه فى حقه ﷺ غاية الكمال لأن القلفة قد تمنع كمال النظافة والطهارة واللذة فأوجده ربه مكمَّلاً سالمًا من النقائص والمعائب، ولأن الختان من الأمور الظاهرة المحتاجة إلى فعل آدمى فخلق سليمًا منها؛ لئلا يكون لأحد عليه مِنَّة، وبهذا لا ترد العَلَقة التى أخرجت بعد شق صدره لأن محلها القلب، ولا اطلاع عليه للبشر، فأظهره الله على يد جبريل ـ عليه السلام ـ ليتحقق الناس كمال باطنه. . انتهى ملخصًا.

وفى قوله: قد تمنع كمال النظافة والطهارة، نظر؛ لأن فضلات الأنبياء طيبة طاهرة، بل قيل: إنه كان يشم من المحل الذى يقضى فيه حاجته رائحة كرائحة المسك وإن لم ير ما يخرج منه لما قيل من أن الأرض كانت تبتلعه، فكانت الرائحة من الأثر لا من العين.

وليس هذا من خصائصه ﷺ كما قال ابن القيم فإن كثيراً من الناس ولد مختونًا.

وقال الحافظ: إن العرب تزعم أن الغلام إذا ولد فى القمر فسخت قلفته فيصير كالمختون.

وفى «الوشاح» لابن دُرَيْد: قال ابن الكلبى: بلغنى أن آدم ولد مختونًا، واثنى عشر نبيًا من بعده خلقوا مختونين آخرهم محمد ﷺ، ثم عدَّهم وذكر

سامًا منهم، وزاد محمد بن حبيب[1] أربعة[2]، فجملتهم سبعة عشر نظمهم الحافظ السيوطى فى «قلائد الفوائد» فقال:

وسبعةٌ مع عَشْرٍ قد رووا خُلِقُوا وهم خِتَان فخُذْ لازلتَ مأنوسَا
محمد آدم ادريس شيث ونو ح سام هود شعيب يوسف موسى
لوط سليمان يحيى صالح زكر يا وحنظلة الرَّسِّىّ مع عيسى

وما ذكر فى سام على سبيل التغليب لأنه ليس بنبى على الصحيح، ولا حجة فى أثر الكلبى لأنه مقطوع مع أنه متروك متهم بالوضع.

وأما إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد اختتن كما فى الصحيحين بالقَدُوم بفتح القاف وتخفيف الدال عند أكثر رواه البخارى.

قال النووى: ولم يختلف فيه رواة مسلم. وقيل بتشديدها، وأنكره يعقوب ابن شيبة. وعلى الأول: فالمراد به الفأس كما فى رواية ابن عساكر والأصيلى، وعلى الثانى: المكان الذى وقع فيه الختان، وهو قرية بالشام. وأنكره النَّضْر ابن شميل. وقيل بالعكس. والذى فى «القاموس» جواز إطلاق الضبطين على كل منهما، والراجح أن المراد الآلة؛ لحديث أبى يعلى: «أُمِرَ إبراهيم بالختان فاختتن بقَدُوم فاشتدّ عليه الوجع فأوحى إليه: عجلت قبل أن نأمرك بآلته، قال: يا رب كرهت أن أؤخر أمرك»[3]. وقال الحافظ أبو نعيم: قد يتفق الأمران فيكون قد اختتن بتلك الآلة فى ذلك الموضع.

لطيفة

قال القطب الشيخ أحمد المتولى ـ رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته ـ أخبرتنى امرأة من الصالحات من أهل حارة غيط العدة بباب الخرق أنها ولدت أحد

---

(١) هو محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو، الهاشمى بالولاء، أبو جعفر البغدادى، عالم بالأنساب والأخبار واللغة والشعر. توفى بسامراء سنة (٢٤٥ هـ). الأعلام (٦/٧٨).

(٢) المحبر لابن حبيب ص (١٣١).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٦)، وأحمد فى مسنده (٣/٤١٥)، وعزاه الحافظ الشامى فى السيرة (١/٣٦٦) لأبى يعلى وأبى الشيخ فى العقيقة.

عشر ولدًا ذكرًا نزلوا من بطنها مختونين، وذلك ضحى يوم الثلاثاء ثالث عشرين رجب عام تسعمائة وسبعين وتسعة كذا وجدته بخطه بهامش كتاب.

فائدة

أوّل من اختتن من الرجال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما أن هاجر أوّل من اختتن من النساء كما فى «الفلك المشحون».

* * *

(وأولم) أى صنع حينئذ لمن حضره وليمة، وهى تقع على كل دعوة تتخذ لسرور حادث: كنكاح، وختان، وغيرهما، والأشهر استعمالها عند الإطلاق فى النكاح، وبتقيد فى غيره، فيقال: وليمة الختان وغيره. ويقال لطعام الختان: إعذار. فقول بعضهم والأنسب: وصنع مأدبة؛ لأن الوليمة ما يصنع للعرس والمأدبة ما يصنع للختان وهم؛ لأن المأدبة اسم لما صنع بلا سبب كما صرح به العلامة محمد بن شمس الدين الحجازى الأنصارى فى كتابه «مرشد السائل فى تصحيح المسائل» وغير واحد، قال فى «المصباح» أدب أدبًا من باب ضرب: صنع صنيعًا ودعا الناس إليه. قال: واسم الصنيع المأدُبة بضم الدال وفتحها. وقال فى الإعذار: الإعذار طعام يتخذ لسرور حادث، ويقال هو طعام الختان خاصة، وهو مصدر سمِّى به، يقال: أعذر إعذارًا إذا صنع ذلك الطعام، ومثله فى «القاموس» وغيره، فقول الزرقانى فى «شرح المواهب»: المأدبة اسم لطعام الختان كما أفاده «القاموس» و «المصباح» سهو منه.

فإن قلت: لو عبر المصنف وغيره بالإعذار لكان أولى وأنسب؛ لأن القصد إطعام الطعام لختانه كما يفيده ما رواه بعض الحفاظ بسنده إلى ابن عباس أن عبد المطلب ختنه يوم سابع ولادته وجعل له مأدبة وسماه محمدًا.

قلت: لا يفيد ذلك لأن الضمير فى له للنبى ﷺ أى للفرح بظهوره ﷺ، ويؤيده ما روى: أنه لما ولد ﷺ أمر عبد المطلب بجزور فنحرت، ودعا رجالاً

من قريش فحضروا وأطعموا. وفى بعض الكتب كان ذلك يوم سابعه، فلما فرغوا من الأكل قالوا: ما سميته؟ قال: سميته محمداً... الحديث. نعم قرينة سياق الأوّل ـ أعنى حديث ابن عباس ـ تفيد ذلك ويرد أنه لو كان لذلك لقال: وصنع إعذاراً، أو صنع مأدبة للختان مثلاً دفعًا للتردد فى هل هو لختانه، أو لظهور الفرح والسرور به ﷺ؟ ثم رأيت بعضهم قد جزم بما ذكرناه وقال: أى وأطعم القوم الذين حضروا ذلك الطعام الذى صنعه لهم قصداً لإظهار الفرح والسرور والبشرى بظهور سيد أهل الدنيا والأخرى ﷺ ما حدا حادى السرى.

وللوليمة أسباب ذكرها العلماء وبلغوها نحو عشرة، نظمها بعضهم فقال:

عَشْرٌ تحب من الولائمِ يا فتى ... مَنْ يُخْصِهَا قَدَ عَزَّ فى أقرانهْ

فالخرس إنْ نَفَسَتْ كذاك عقيقة ... للطفلِ والإعذارِ عند خِتَانهْ

ولحفظ قرآنٍ وآداب لقد ... قالوا الحذاق لحَذْقه وبيانهْ

ثُمَّ الملاك لعقدهِ ووليمة ... فى عُرْسِهِ فاحْرِصْ على إعلانهْ

وكَذَاكَ مأدبة بلا سببٍ يرى ... ووكيرة[1] لبنائه لمكانهْ

ونقيعة[2] لقدومهِ ووضيمة[3] ... مِنْ أقرباء الميت أو جيرانهْ

والولائم مستحبة وآكدها وليمة العرس، والإجابة فرض عين فى وليمة العرس وسُنَّة فى غيرها.

وقد نقل النووى وابن عبد البر الإجماع على وجوب الإجابة إلى وليمة العرس عند توفر الشروط التى بلغت نحو عشرين، منها: أن يَعُمَّ، وأن لا يَخُصَّ الأغنياء، وأن يعينه بالدعوة، وأن يكون الداعى حرّاً رشيداً مكلفًا مسلمًا ـ على الأصح ـ وأن يخص باليوم الأوّل على المشهور، وأن لا يُسْبَقَ

(١) الوكيرة: طعام يعمل عند الفراغ من البنيان.

(٢) النقيعة: ما يذبح للضيافة، والطعام يصنع للقادم من السفر، وطعام الرجل ليلة عرسه، وما نحر من النهب قبل القسم.

(٣) الوضيمة: طعام المأتم.

وإلا قُدِّمَ السابق، وأن لا يكون ثَمَّ من يتأذى بحضوره من منكر أو عدوّ أو غيرهما، وأن لا يكون له عذر... وغير ذلك من الشروط. وضبطها الماوردى بما يلاحظ فى ترك الجماعة.

وليس المراد بالتعميم أن يعم الناس جميعًا بالدعوة؛ لأن هذا غير ممكن، بل الشرط أن لا يَظْهَرَ منه قصد التخصيص، وأما عند عدم تمكنه فلا يضر التخصيص.

(وأَطْعَمَ وسَمَّاه مُحَمَّدًا) ﷺ إما لما رأته أمه ﷺ فى المنام حين قيل لها إذا وضعتيه فسميه محمدًا وحدثته به، أو لرؤيا رآها كأن سلسلة من فضة خرجت من ظَهْره لها طرف بالسماء وطرف بالأرض وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهلُ المشرق وأهل المغرب يتعلَّقون بها، فعبّرت له بمولود يكون من صُلْبه يتبعه أهلُ المشرق والمغرب، ويحمده أهلُ السماء والأرض[1]، أو بإلهام له من الله تعالى.

ولا مانع من وقوع التسمية منهما بذلك فيكون سمَّته أمه سرًا وجدّه جهرًا، كل ذلك ليطابق تسميته به قبل؛ فقد صح أن آدم رأى اسم محمد مكتوبًا على العرش، وأن الله تعالى قال لآدم: لولا محمد ما خلقتك كما تقدم.

وورد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: لما ولد ﷺ عَقَّ عنه عبد المُطَّلب بكبش وسماه محمدا. فقيل له: يا أبا الحارث! ما حَملك على أن تسميه محمدًا ولم تسمّه باسم آبائه؟ فقال: أردت أن يَحْمده الله فى السماء ويَحْمده الناس فى الأرض[2]. وقد حقق الله رجاءه كما سبق فى علمه سبحانه وتعالى، والحمد لله.

(وأَكْرَمَ مَثْواه) بفتح الميم وسكون المثلثة أى مقامه وهو كناية عن إكرامه ﷺ؛ فمن إكرامه إياه ما ذكره الجلال السيوطى فى «خصائصه الكبرى»: أنه

---

(١) الروض الأنف (١/ ١٠٥)، الاكتفا (١/ ١٦٨)، السيرة الشامية (٤٣٨).

(٢) السيرة الشامية (١/ ٣٤٧).

كان يوضع لعبد المُطَّلب فراش فى ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، وكان ﷺ يأتى حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه ـ أى إجلالاً لجدّه ـ، فيقول جدّه: دعوا ابنى يجلس، فيمسح ظهره ويقول: إن لابنى هذا لشأنًا»[1]. . انتهى.

وفى رواية: «إن لولدى هذا لشأنا عظيما».

وفى أخرى: «دعوا ابنى يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشىء وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده»[2].

وكان عبد المُطَّلب عند الجَدْب والقَحْط يستسقى به ﷺ فيسقون ببركته، وكان يبعثه فى مُهم حاجاته فلا يبعثه فى حاجة قط إلا أنجح فيها[3].

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بعَرْف شَذَىً منْ صَلاَةٍ وتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْه)

* * *

(1) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٢)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٠٦).

(2) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٢)، ابن الجوزى فى الوفا ص (١١٧).

(3) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٠)، وابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/ ١١)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٦٠٣).

[الخوارق التى ظهرت بمولده ﷺ]

ولما فرغ المصنف رحمه الله تعالى من ذكر المولد الشريف وتوابعه وبعض ما يتعلق به شرع يتكلم أيضا على بعض ما يتعلق به من الخوارق والغرائب التى وقعت تلك الليلة وذلك اليوم إذ هى أخص ما يتعلق بالمولد النبوى، وحيث كان الأمر كذلك لزم أن نذكر حقيقة الخارق وثبوته ثم أقسامه فنقول:

اعلم أن الخارق فعل من أفعال الله يفعله على خلاف عادته المستمرة فى خلقه. قال فى «المواقف»: فعل الله أو ما يقوم مقامه من التروك. قال: وقولنا: أو ما يقوم مقامه ليتناول التعريف ما إذا قال: أنا أضع يدى على رأسى وأنتم لا تقدرون عليه، ففعل، وعجزوا، فإنه لا فعل لله ثمة فإن عدم خلق القدرة فيهم على ذلك الوضع ليس فعلا صادراً عنه تعالى بل عدم صرف، ومن جعل التروك وجوديًا بناء على أنه الكف؛ حذفه لعدم الحاجة إليه قال شارحه الشريف الجرجانى: وفى كلام الآمدى أن الخارق إن كان الترك عدميًا ـ كما هو أصل شيخنا ـ فالخارق هنا هو عدم خلق القدرة ـ فلا يكون فعلاً، وإن كان وجوديًا ـ كما ذهب إليه بعض أصحابنا ـ فالخارق هنا هو خلق العجز فيهم، فيكون فعلاً، فلا حاجة إلى قولنا أو ما يقوم مقامه.. انتهى.

قال جدنا المحقق السيد محمد بن رسول البرزنجى فى شرح الخارق بعد سوقه ما ذكرناه: أقول ومن هنا عبر المحققون بقولهم: أمر بدل فعل. قال: وأنكر قوم جواز خرق العادة، وقالوا: إنه محال عقلا وإن تجويزه سفسطة، ولو جوزناه لجاز انقلاب الجبل ذهبًا، وماء البحر دمًا ودهنًا، وأوانى البيت رجالاً، ويولد هذا الشيخ من غير أب أو أم دفعة، وكون من أظهر المعجزة غير من ادّعى النبوة بأن ينعدم المدعى عقب دعواه ويوجد مثله فى آن إعدامه،

وأن يكون الشخص الذى يتقاضى الدين غير الذى عليه، ولا يخفى ما فيه من الخبط والإخلال بالقواعد المتعلقة بالنبوة وأحكام الشريعة، ويختل نظام المعاش والمعاد.

ثم قال بعد أن ذكر ما أجاب به عنهم أئمتنا فى كتب الكلام: وأقول من المعلوم المقرر أن الوقوع يستلزم الإمكان، فوقوع الخوارق فى كل عصر يبطل دعوى الاستحالة ويثبت الإمكان، فإن الوقوع وراء الإمكان، فبطل دعواهم الاستحالة. وإن الإمكان لا يستلزم الوقوع لعدم وقوع الممكنات بأسرها، فلا يلزم من إمكان الخارق ثبوت الاحتمالات التى أوردوها فى لزوم الإخلال بقواعد الشريعة؛ لأن الأصل بقاؤها على منوال العادة وعدم تغيرها استناداً إلى العادة المستمرة، فلا يترك ذلك الأصل بمجرد الاحتمال الناشىء عن القول بالإمكان، فتجويز الإخلال بمجرد الاحتمال سفسطة فى المقال، وبالله التوفيق الملك المتعال. . انتهى.

هذا وقد علمت حقيقة الخارق وثبوته وبطلان دعوى استحالته، وأن وقوعه ممكن فى كل وقت، وأما أقسامه فكثيرة تأتى على أنواع شتى، حصرها العلماء فى ستة أقسام.

أولها: الإرهاص: وهو ما وقع من الخوارق قبل زمان دعوى النبوة تأسيسًا لها، فما وقع لنبينا ﷺ من الخوارق قبل البعثة النبوية كشقّ صدره الشريف، وتسليم الحَجَر عليه، وميل فيئ[1] الشجر إليه ونحوها من هذا القسم.

ثانيها: المعجزة: وهو ما يظهر على يد مدّعى النبوة سواء كان بتحد أو دونه إذا كان موافقا لمراده، فما وقع منها له ﷺ بعد البعثة مع التحدى: كانشقاق القمر ونحوه، أو بدونه: كحنين الجذع، ونبع الماء، ونحوهما. معجزة؛ لأنه كان موافقًا لمراده وهو دعوى الرسالة.

وهذان القسمان قد فرغ منها لأنه لا نبى بعد نبينا ﷺ، ثبت ذلك بالكتاب

(١) الفيئ: الظِلُّ.

والسنة والإجماع القطعى الضرورى، فكل من ادّعى النبوة بعده ﷺ وجب قتله، ولا يتوقف فى شأنه، وكل ما وجد من خارق على يد مدّع للنبوة بعده ﷺ ـ بفرض وقوع ذلك منه ـ فاستدراج، إن كان على وفق مراده وإلا فإهانة.

ثالثها: الكرامة: وهو ما يظهر على يد مدّعى الولاية مع اتصافه بالاستقامة ومتابعة السنة متابعة كاملة حال دعوى الولاية؛ فإنه لا كرامة إلا مع كمال متابعة الشريعة، ومن هنا قالوا: إن كل كرامة لولى فهى معجزة لنبيه؛ لأنه إنما نالها ببركة اتباعه. ومن هنا كان الأصح أن كل ما جاز أن يكون معجزة للنبى جاز أن يكون كرامة للولى، وما يظهر على يده قبل دعوى الولاية فهو أيضًا كرامة منبهة لغيره.

وأما ما يظهر على يد مؤمن غير مدع للولاية فمع الاستقامة كرامة، وبدون الاستقامة إن عقبه الإنابة والاستقامة فمنبهة وإيقاظ له، وإن عقبه عدم الاستقامة، أو ظهر على يد مدّعى الولاية مع عدم متابعته السنة فمكرٌ واستدراجٌ وإملاء.

رابعها: الاستدراج: وهو ما يظهر على يد نحو الساحر من كل ذى زيغ مائل عن الدين فاجر، كطيرانه فى الهواء، وركوبه فرسًا على ظهر الماء ونحوهما.

خامسها: المعونة: بالمهملة والنون، وهو ما يظهر على يد مؤمن غير مستقيم ولا مدّع للولاية ولم يعقبه لا توبة واستقامة ولا عجب وغرور ورؤية نفس.

سادسها: الإهانة: وهو ما يظهر على يد مدّع للنبوة ولا يكون إلا مخالفًا لدعواه؛ لاستحالة تصديق الله تعالى، كذب الكاذب؛ لاحتمال صدقه بحسب الظاهر قبل ظهور الخارق، بخلاف المتأله لاستحالة صدقه، فلا يحتاج إلى تكذيبه بمخالفة الخارق لدعواه كما وقع لمسيلمة الكذّاب فى خوارقه المخالفة لدعواه، فإنه دعا لأعور بذهاب عوره وشفاء الصحيحة من عينيه فذهبت الأخرى وأنه تَفَلَ فى ماء بئر كثير عَذْب فقلّ وملح، زيادة فى خزيه وفضيحته

حيث أراد مضاهاة المصطفى ﷺ فيما جرى على يده من نحو هذه الخوارق.

ومنه: الفتنة والابتلاء وهو ما يظهره على يد مبطل متأله - أى مدع للألوهية - سواء وافق دعواه أم لا، فهو فتنة للكفار وابتلاء للمؤمنين، وقد يقال له الفتنة مطلقًا. قال تعالى حكاية عن رسوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ﴾ [1] وقال ﷺ: «من فتن الدجال كذا وكذا» فسماها فتنا مطلقا.

ولا يضر موافقة الخارق لدعواه لأن دلالة العقل القطعية قد عارضت خوارقه.

فهذه جملة ما ذكره العلماء من أقسام الخوارق فلنقدم الكلام على القسم الأول الواقع فى كلام المصنف - رحمه الله تعالى - ثم نردفه بذكر بعض القسم الثانى؛ فإن إخلاء هذا الكتاب منه غير لائق، فنقول: قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(و) اعلم أنه قد (ظَهَرَ) ووقع (عِنْدَ) لدى (وِلاَدَتِه) ﷺ (خَوَارِقُ) جمع خارق من خرق يخرق من باب ضرب. وهو لغة: مزّق الشىء وقطعه. وعرفًا: تبدّل حكم العادة بغيره من غير سبب ظاهر (وَغَرَائِبُ) رديف الخوارق (غَيْبِيَّة) أى منسوبة للغيب أى الغائب عنا. ولا يقال كان ينبغى للمنصف - رحمه الله تعالى - أن يقول آيات أو بينات أو برهان؛ لأن هذه هى الواردة فى القرآن والسنة دون لفظ الخارق والمعجزة ونحو ذلك لأنّا نقول هى وإن لم ترد لكن صارت فى اصطلاح المتأخرين أبين وأظهر فلذلك خُصَّت بالذكر.

وكان ظهور ذلك ووقوعه (إِرْهَاصًا) أى تأسيسًا (لنبوَّته) ﷺ (وإعلامًا) أى إخبارًا لما من شأنه أن يُعلم ويُخبر (بأنه) أى الذى ظهرت عند ولادته هذه الخوارق والغرائب التى لم يظهر نظيرها لولادة مخلوق من بنى آدم؛ الذين هم

(١) سورة الأعراف: ٧.

أفضل المخلوقات سوى الملائكة على تفصيل فى المسألة عند الأشاعرة والماتريدية (**مُخْتَارُ الله**) تعالى أى مستخلصه (**و**) بأنه (**مُجْتَبَاه**) عطف تفسير على سابقه إذ المُجتبى والمُختار بمعنى، وإنما أتى به لتتميم القافية المستلزمة فى التسجيع.

(**فـ**) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ ما رأته أمه ﷺ - فيما تقدم من الروايات - من حضور آسية ومريم وجمع من حور العين، وكأن ديباجًا أبيض قد مُدَّ بين السماء والأرض، وكأن قطعة طير قد أقبلت حتى غطَّت حجرتها، وأنها رأت ثلاثة أعلام: علمًا بالمشرق، وعلمًا بالمغرب، وعلمًا على ظهر الكعبة. وأنها رأت سحابة عظيمة قد أقبلت تنزل من السماء، وأنها سمعت مناديًا ينادى: طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها. وأنه ﷺ مندرج فى ثوب صوف أبيض وتحته حريرة خضراء، وأنها رأت ثلاثة نفر فى يد أحدهم إبريق من فضة، وفى يد الثانى طَسْت من زمرد، وفى يد الثالث حريرة بيضاء فنشرها فأخرج منها خاتمًا فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفَّه فردَّه إليها. . . إلى غير ذلك[1].

وأنه (**زيدت السماء حفظًا**) عبَّر بالزيادة للإشارة إلى أن السماء سبق لها حفظ قبل وجوده ﷺ فقد جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الشياطين كانوا لا يُحْجَبون عن السموات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها مما سيقع فى الأرض فيلقونها على الكهنة، فلما وُلِدَ عيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - حُجبوا عن ثلاث سموات - وعن وهب: عن أربع سموات - ولما ولد النبى ﷺ حُجبوا عن السموات كلها[2]، فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رُمى بشهاب - وهو الشعلة من النار - فلا تخطىء أبدًا، فمنهم من تقتله، ومنهم من تحرق وجهه، ومنهم من تَخْبله فيصير غولاً يضل الناس فى

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٦٥)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٤٦٦)، وقال السيوطى فى الخصائص: فيه نكارة شديدة (١/٨١).

(٢) عزاه الحافظ الشامى فى سيرته (١/٤٢٤) للزبير بن بكّار وابن عساكر.

البرارى. . . كذا قال بعضهم.

لكن مقتضى كلام البيضاوى[1] أنها تارة تصيب الصاعد، وتارة لا، ولذلك لا يرتدعون عنه رأسًا.

ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق بها؛ لأنه ليس من النار الصرف كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، وإنما نسب إليها خلقه فى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [2] كما يُنسب خلق الإنسان إلى التراب كما فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [3] لكون الجزء النارى فى نوع الجن أغلب، كما أن الجزء الترابى فى نوع الإنسان أغلب، وإلا فكل موجود مركب من العناصر الأربع التى هى النار والتراب والماء والهواء، مع أن النار القوية إذا استولت على النار الضعيفة أهلكتها.

وفى عبارة بعضهم: روى أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ثم تجاوز السماء الدنيا إلى غيرها، فلما ولد عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مُنِعوا من مجاوزة السماء الدنيا، وصاروا يسترقون السمع فى السماء الدنيا فى بعض الأحايين، وفى أكثر الأحايين يسترقون دونها، حتى بعث النبى ﷺ فمنعوا أصلاً فصاروا لا يسترقون السمع إلا دون السماء الدنيا.

وقوله: «مُنِعوا من مجاوزة السماء الدنيا» فيه نظر؛ لما مر عن ابن عباس ووهب من أن الحَجْبَ كان عن ثلاث سموات أو عن أربع.

واختلف متى كان هذا الرمى بالنجوم؛ فقيل: إنما حدث بعد مبعثه ﷺ؛ لئلا تلتبس الكهانة بالوحى؛ ولأن ذلك أظهر للحجة وأقطع للشبهة، واحتج من قال بهذا: بكون العرب قد استغربت ذلك حتى أفزعوا لذلك، وسار بعضهم إلى عمرو بن أمية الثقفى ـ وكان من دهاة العرب ـ فقالوا: يا عمرو،

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن على الشيرازى، أبو سعيد ناصر الدين البيضاوى، مفسر، قاض، توفى فى تبريز سنة (٦٨٥ هـ) وقيل: سنة (٦٩١ هـ). الأعلام (٤/ ١١٠).

(٢) سورة الرحمن: ١٥.

(٣) سورة غافر: ٦٧.

ألا ترى ما حدث من السماء من القذف بالنجوم؟ فقال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يُهتدى بها فى البر والبحر، ويُعرف الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس فى معايشهم هى التى يُرمى بها؛ فهى والله طىّ الدنيا وهلاك الخلق الذى فيها، وإن كانت نجومًا غيرها، وهى ثابتة على حالها: فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق.

فلو كانوا يعرفون هذا الرمى بالنجوم قبل ذلك ما أنكروه.

وأيضًا إنكار الجن مما يدل على حدوثها، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [1].

وقيل: بل كان قديمًا، ويدل عليه: حديث ابن عباس السابق ووهب. وقد ذكره قوم من قدماء الجاهلية فى أشعارهم: فوصفوا الرمى بالنجوم، ولكن الشياطين كانت تسترق السمع فى بعض الأحوال، فلما بُعث رسول الله ﷺ كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى تنبّه لها الإنس والجن، ومُنِعَ الاستراق أصلاً، فلم ينكروا إذن أصل الرجم بالشهب، وإنما أنكروا كثرة ذلك والتغليظ فيه والتشديد، ولم يكن كذلك قبل ذلك؛ ويدل أيضًا قوله تعالى: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [2] على أنه كان قبل ذلك شىء، لكنه كثر ذلك واشتد عند مبعثه؛ لتنقطع تخليطات الشياطين وتلبيساتهم بالكلية.

وجاء عن معمر أنه قال للزهرى: أكان يُرْمَى بالنجوم فى الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [3].

قال: غلظت وشُدِّد أمرها حين بعث ﷺ. وجرى على هذا ابن قتيبة.

وفى «المنح» ما يفيد أنه إنما وُجِدَ بعد وجود النبى ﷺ قرب مبعثه لكن لا بشدة، ثم وُجِدَ بشدة بعده؛ فكأنه لم يصح عنده حديث ابن عباس وغيره، وحمل قول معمر: «فى الجاهلية» على ما قبل مبعثه وبعد وجوده ﷺ؛ بدليل

(1) سورة الجن: ٩.

(2) سورة الجن: ٨.

(3) سورة الجن: ٩.

قوله: وشُدد أمرها. . . إلخ.

(ورِدَ) بالبناء للمفعول عطف على قوله زيدت أى طرد **(عنها)** أى السماء، أى عن الوصول واستراق السمع من مقاعدهم القريبة منها؛ فإنهم كانوا يقعدون فيها ليسمعوا شيئًا من الملائكة المتكلمين بما سيقع فى الأرض من الأقضية والمغيبات، إما لكون رئيسهم يلقيه عليهم ليكتبوه فيتلقونه منه، أو أن بعضهم ينسخه من كتب البعض الآخر زيادة فى الاعتناء والظهور للملائكة. وكانوا يأتون الكهان ويُلقون ما استلقوه منهم إليهم مع ما يضمونه إليه من الكذب.

(المَرَدَة) محركة جمع مارد وهو: المتمرد العاتى من الجن. وهم أجسام نارية تقدر على التشكل فى الصور المختلفة كما يأتى بيانه.

(وذوو) بواوين أى أصحاب **(النفوس الشيطانية)** أى المنسوبة للشيطان، فيقال: من شَطَنَ، يقال: شَطَنَ صاحبه: خالفه عن نيته ووجهه. وفى الأرض: دخل إما راسخًا وإما واغلاً. والشاطن: الخبيث، والشيطان: كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة. وشَطَنَ وتشطَّن: فعل فعله. كما فى «القاموس».

وقيل: من شَطَّ؛ إذا بعد لبعدهم عن رحمة الله تعالى. أو من شَاطَ بمعنى احترق. أو هلك لاحتراقه وهلاكه بالشهب. فنونه على الأول أصلية، وعلى الأخيرين زائدة.

قال الخفاجى: والشياطين: مردة الجن، وعليه فعطفه على المردة من عطف المرادف، ويصح أن يكون من عطف العام على الخاص ويؤيده قول «القاموس»، وقول العلامة محمد بن طيب المغربى الفاسى فى شرح «حزب النووى»: إن الشيطان يطلق على كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة.

(ورَجَمَت) بالبناء للفاعل أى أصابت: مجاز عن الرمى لعلاقة السببية، أو رمت: والإسناد مجاز عقلى، وإلا فالرامى فى الحقيقة هو الله.

(رُجُوم) بضم الراء والجيم فواو. جمع رَجْم بفتح أوّله وسكون ثانيه، وهو - أى الرجم - مصدر سمى به ما يُرْجم به. ويجوز أن يكون الرجوم فى حد ذاته مصدرًا لا جمعًا كما فى «النهاية» ويمتنع هنا لتأنيث الفعل إلا أن يقال: إنه قد يكتسب التأنيث من المضاف إليه، ومن ثم ذكر بعضهم أنه فى الأصل مصدر نُقل إلى ما يُرْجم به من الشهب، وفيه نظر؛ لأن رَجَمَ متعد كما هنا، وقياس مصدر المتعدى: فَعْل بفتح أوّله وسكون ثانيه كما قال فى «الخلاصة»:

فعل قياس مصدر المعدى من ذى ثلاثة كردّ ردّا

لا فعول: إذ هو مصدر الفعل اللازم مفتوح العين فى الماضى كما قال أيضًا:

وفعل اللازم مثل قعدا له فعول باطراد كغدا

إلا أن يقال إنه مصدر سماعى، فليراجع، وبينهما وبين الرجيم الآتى جناس الاشتقاق. والمراد بالرجوم: الشُّهُب جمع شِهَاب وهو: شعلة نار، أو ما ينفصل من نور الكواكب.

(النيِّرات) بفتح النون وكسر التحتية؛ أى المضيئات فالإضافة بيانية، فالمراد: أنهم يُرْجمون بنار الكواكب ونورها، لا أنهم يُرْجمون بالكواكب أنفسها؛ لأنها ثابتة لا تزول. وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة فى مكانها.

قال الحليمى[1] : ليس فى كتاب الله تعالى أن الشياطين ترمى بالكواكب أو بالنجوم.

ثم أطال فى تقرير أن الرمى إنما هو بالشُّهُب، وجعل المصابيح؛ أى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [2] كناية عن الشعل لا عن النجوم.

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخارى، الجرجانى، أبو عبد الله، فقيه شافعى، ولد سنة (٣٣٨ هـ) وتوفى فى بخارى سنة (٤٠٣ هـ) من أشهر كتبه: «شعب الإيمان» فى ثلاث مجلدات. تاريخ جرجان ص (١٩٨).

(٢) سورة الملك: ٥.

قال أبو شامة[1]: وما جاء فى الأحاديث وشعر العرب القديم من التصريح بالرمى بالنجوم يمكن تأويله: إما بأنه على تقدير مضاف واستعمل النجم فى الشهاب مجازًا. . انتهى.

أقول: وبهذا يؤول ما فى بعض النسخ «نجوم» بالنون، وقيل: تنقض ثم ترجع إلى مكانها. قال الزرقانى: وهذا لا ينافى ما سبق؛ لجواز أن صورة الشعلة النازلة رجعت إلى مكانها الذى جاءت منه وهو النجم. . انتهى. وتبعده المشاهدة.

(كل رجيم) أى مرجوم **(فى حال مَرْقاه)** بفتح الميم وسكون الراء المهملة؛ أى صعوده. قال بعضهم: لما رُجمت الشياطين ومُنعت من مقاعدها فى السماء لاستراق السمع شكوا ذلك لإبليس، فقال لهم: هذا أمرٌ حدث فى الأرض، وأمرهم أن يأتوا بتربة من كل أرض فصار يشمها إلى أن أُتِىَ بتربة أرض تِهَامة فلما شمّها قال: من ههنا الحدث.

(و) من العجائب التى وقعت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه **(تَدلَّت)** بتشديد اللام؛ أى قربت ودنت **(إليه)** ﷺ **(الأنجم)** : أى الكواكب **(الزُهرية)** بضم الزاى المعجمة؛ أى المنسوبة إلى الزهرة: بمعنى البياض النير ـ نسبة الموصوف إلى صفته ـ حتى يظن المشاهد لها سقوطها عليها.

روى البيهقى، والطبرانى، وابن عبد البر عن عثمان بن أبى العاص، عن أمه ـ أم عثمان الثقفية، واسمها فاطمة بنت عبد الله ـ أنها قالت: لما حضرت ولادة رسول الله ﷺ رأيت البيت حين وقع قد امتلأ نورًا، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علىَّ[2] **(واستنارت)** سبب **(بنورها)** أى الأنجم **(وِهَاد)** بكسر الواو؛ جمع وهدة وهو: ما انخفض من الأرض؛ أى

(1) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الدمشقى، أبو القاسم شهاب الدين أبو شامة، مؤرخ، محدث، باحث، ولد سنة (٥٩٩ هـ) وتوفى بدمشق سنة (٦٦٥ هـ). تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٦٠، رقم الترجمة ١١٥٧).

(2) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٨٥)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١١١)، الوفا ص (٩١)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠)، وعزاه للطبرانى، وقال: فيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

استضاءت بسبب تدلى تلك النجوم جميع ما انخفض من أرض (الحرم) المكى (و) كذا (رُبَاه) بضم الراء وتخفيف الموحدة؛ جمع رُبوة بضمها وفتحها، وحكى فى «المختار» كسرها أيضًا، وهو ما ارتفع من الأرض. فالمراد: جميع بقاع الحرم.

(و) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه حين وقع (خَرَجَ معه) ﷺ (نورٌ) عظيم (أضاءت له) أى لذلك النور (قُصُورُ) جمع قصر (الشام) الإقليم الكبير المشهور، بهمزة ساكنة ويجوز إبدالها ألفا (القَيْصَرِيَّة) أى المنسوبة إلى قيصر ملك الروم وهو ابن عيضور (فرآها) رؤية بصرية (مَنْ) أى الذى (بِطَاحُ مكَّةَ دَارُهُ) بكسر الموحدة جمع أبْطَح وبطحا؛ وهو فى الأصل: السبيل الواسع المشتمل على دقاق الحصى. والمراد: من كان داره داخل مكة؛ فإن قريشا كانوا فرقتين: بِطَاح، وظواهر. فالبِطَاح: من دخل مكة، والظواهر: من أقام بظاهر مكة ولم يدخل الأبْطَح (وَمَغْنَاه) بالغين المعجمة؛ أى منزله.

وشَاهِد ذلك: ما روى من جملة حديث صحّحه ابن حبان، والحاكم: أن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورا أضاء له قصور الشام[1].

وما روى عن ابن سعد: أن أم رسول الله ﷺ قالت لما ولدته: خرج من فرجى نور أضاء له قصور الشام، فولدته نظيفا ما به قذر.

وسبقت رواية ابن عباس: خرج منه نورٌ أضاء له ما بين المشرق والمغرب.

ورواية الشَّفَّاء: فأضاء لى ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الشام[2].

وفى رواية: أنها رأت حين حملت به أنه خرج من فرجها نور أضاء له قصور الشام، فولدته نظيفا ما به قذر.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٢٧)، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٦٠٠)، والبيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٨٠ و ٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٦٧).

وفى رواية فى غير هذا الحديث: أنها رأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصرى من أرض الشام[1].

ويمكن أن يجمع بين اختلاف الروايات فى خروج النور حين الحمل وحين الوضع: بأنه لا مانع من وقوعه فى الوقتين؛ زيادة فى البشارة بظهوره وظهور دينه ﷺ، وإن كانت الرواية لحين الوضع أولى لاتصالها وصحتها.

وقد جمع الحافظ الجلال السيوطى بين الروايتين بأن قولها: «حين الحمل» هى رؤيا نوم وقعت فى الحمل، وأما ليلة الولادة: فرأت ذلك رؤية عين[2].

وفى الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «إنى عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لَمُنجدلٌ فى طينته، وسأخبركم عن ذلك: إنى دعوة أبى إبراهيم، وبشارة أخى عيسى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات الأنبياء يَرَيْن»[3].

وروى ابن إسحاق: كانت آمنة تحدث أنها أُتيت حين حَمَلت، فقيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة؛ وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسمّيه محمدًا، فلما وضعته خرج معه ذلك النور الذى أضاء له ما ذكر.

واستدلال بعضهم من أنها رأت ذلك النور فى المنام حين الحمل بهذا الحديث فيه نظر.

وإلى هذا النور يشير عمه العباس ـ رضى الله عنه ـ فى قصيدته التى امتدح بها النبى عند رجوعه ﷺ من غزوة تبوك، وقد قال له فى مرجعه: يا رسول الله، أريد أن أمتدحك. فقال له ﷺ: «قل لا يفضض الله فاك» فقال قصيدة منها:

وأنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أشرقت الأر ضُ وضاءتْ بنورك الأُفقُ

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٦٣)، الوفا ص (٩١).

(٢) الخصائص الكبرى (١/٧٩).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٢٧، ١٢٨)، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٦٠٠)، والبيهقى فى الدلائل (٢/ ١٣٠)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/٢٢٣).

فنحنُ في ذاك الضِّياءِ وفي النُّو ر وسُبل الرَّشـادِ نَخْتَرِقُ

قال في «اللطائف»: وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذى اهتدى به أهل الارض وزالت به ظلمة الشرك كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ منَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِى به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

وخُصت الشام بالذكر فى أكثر الروايات لما اختصت به من سبق نور نبوّته إليها، ولأنها خيرة الله من أرضه كما فى حديث صحيح، فهى أفضل الأرض بعد الحرمين. قيل: ومصر، وأوّل أقليم ظهر فيه ملكه ﷺ، ومن ثم نقل كَعْب عن الكتب السالفة أنها دار ملكه أى باعتبار سبقه إليها قبل نظرائها، ولذا أسرى به ﷺ إلى البيت المقدس منها، كما هاجر إليها إبراهيم، ولوط، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وهى أرض المحشر والمنشر.

وفى تخصيص بُصْرى من أرض الشام كما فى بعض الروايات لطيفة وهى: أن النبى ﷺ وصل بنفسه الكريمة إلى أرض بُصْرى من أرض الشام مرتين ولم يتجاوز ذلك. فكان إشارة إلى ذلك. قاله ابن الجوزى[2].

وقال غيره فى تخصيصها: لأنها أول موضع من بلاد الشام دخلها ذلك النور المحمدى؛ ولذلك كانت أول ما افتُتح من بلاد الشام.

وأما ما ورد فى رواية ابن سعد عن ابن القبطية فى مولد النبى ﷺ قال: قالت أمه: «رأيت كأن شهابًا خرج منى أضاءت له الأرض»[3]. فالتعبير بالشهاب: إما أنه مراد به النور، أو للإشارة إلى أنه شهاب على أهل الكفر

---

(١) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى، أبو الفرج، علامة عصره فى التاريخ والحديث، ولد وتوفى ببغداد، ومن مصنفاته: «الوفا بأحوال المصطفى» مطبوع، توفى سنة (٥٩٧ هـ). الأعلام (٣/٣١٦)، ومقدمة مثير الغرام الساكن.

(٣) المواهب اللدنية (١/٦٧).

يحرقهم ويمحوهم، ولأجل أنه زادت بمولده حراسة السماء بالشهب، وقُطع رصد الشياطين ومَنْعهم من استراق السمع كما تقدم.

(و) من العجائب التى وقعت عند ولادته ﷺ: أنه تزلزلت الكعبة ولم تسكن ثلاثة أيام ولياليها، وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولده ﷺ.

(انْصَدَعَ) أى انشق شقًا آل به إلى خرابه، وسمع له صوت عظيم (الإيوانُ) بكسر الهمزة؛ الصفة العظيمة كالأزج قاله الجوهرى، يقال: بيت مؤزج: أى مبنى طولاً غير مسدود الوجه، أى فهو صفة طويلة واسعة بأولها عقد واسع بابه، وهو فارسى، وقيل: بيت الملك المُعد لجلوسه مع أرباب مملكته لتدبير ملكه، وقيل غير ذلك، وجمعه إيوانات وأواوين؛ لأن أصله إوّان بتشديد الواو فأبدلت من إحدى الواوين ياء لانكسار ما قبلها وقد تحذف الياء، ويقال: إوان كخِوان.

وكان ذلك الإيوان من أعاجيب الدنيا سعة وبناءً وإحكامًا.

(بالمدائنِ) بالهمز جمع مدينة؛ بمعنى المصر الجامع. والمراد به هنا: بلد بالعراق، والنسبة إليها مدائنى (الكَسْرَوِيَّة) أى المنسوبة إلى كَسرى بفتح الكاف وكسرها؛ لقب لكل من ملك الفرس كما يأتى فى مبحث الهجرة إلى النجاشى وهو معرب خسرو: أى واسع الملك، وهو اسم أعظم ملوك الفرس كما هو مشهور فى كتب التاريخ، ويجمع على أكاسرة على غير قياس، وقياسه: كسَرون كعيسَون وموسَون بفتح السين فيهما، والنسبة إليه كسرى وكسروى (الذى) أسسه سابور ذو الأكتاف و (رَفَعَ) ابن قباذ بن فيروز المسمى (أَنُوْ شَرَوَان) بفتح الهمزة وضم النون وسكون الواو وفتح الشين المعجمة كالراء والواو بعدها؛ ومعناه بالعربية: مجدد الملك الملقب بكِسرى، وهو غير كَسرى الذى كتب له رسول الله ﷺ فمزق كتابه.

ذكر الدميرى[1]: أن كَسرى هذا أول من اقتص من قاتله، وذلك أنه قال له

(١) هو محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميرى، أبو البقاء، كمال الدين، باحث، أديب، من فقهاء الشافعية =

منجموه: إنك تقتل. فقال: والله لأقتلن قاتلى، فعمد إلى سم ناقع ووضعه فى حق وكتب عليه: دواء الباه صحيحٌ مجرّبٌ إذا استعمل منه وزن كذا وكذا أنعظ، وَجَامَعَ كذا وكذا، فلما قتله ابنه قياد وفتح خزائنه فوجد ذلك الحق مختومًا فقرأ ما كتب عليه فقال: بهذا كان كِسرى يقوى على مجامعة النساء، ففتحه واستعمل منه ما ذكر فمات.

وكان لكسرى ثلاث آلاف امرأة.. انتهى. وكان كِسرى مجوسيًا.

(سَمْكَهُ) أى جعل سمكه أى طوله فى جهة العلو رفيعًا، وقيل: سقفه (وسوّاه) أتمه وأتقنه وأحكمه، وجعله سويًا لا اعوجاج فيه، حتى كان يظن أنه لا يهدمه إلا نفخة الصور، ومكث فى بنائه نيفًا وعشرين سنة. وقيل: أتمه أبرويز الملقب بكسرى أيضًا ابن هرمز بن أَنُوشَرَوَان، وهو الذى كتب له رسول الله ﷺ فمزق كتابه.

وكان سمكه مائة ذراع، وطوله كذلك، وعرضه خمسون ذراعًا، وبناؤه من الجص والآجر.

وفى حاشية الجمل على الهمزية: وقرر شيخنا العمادى أنه بلغه أن مسجد السلطان حسن بنى على شكل وقدر وصورة إيوان كسرى.. انتهى.

ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا سُتر هذا الإيوان، فأخرجوا منها ألف ألف دينار من الذهب.

قال ابن نباتة[1]: يروى أن الرشيد هارون أراد هدمه فاستشار يحيى بن خالد البرمكى فنهاه، وقال: فى بقائه معجزة باقية. فقال الرشيد: بل أبيتَ إلا تعصبًا لآبائك - يعنى الفرس - وأمر بهدمه، فصرف على هدم شُرافة منه مالاً

= فى مصر، ولد بالقاهرة، وله مؤلفات عديدة منها: «حياة الحيوان» و «الديباجة فى شرح كتاب ابن ماجه»، توفى سنة (٨٠٨ هـ). الأعلام (١١٨/٧).

(١) هو عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقى،أبو يحيى، صاحب الخطب المنبرية كان مقدمًا فى علوم الأدب، وأجمعوا على أن خطبه لم يعمل مثلها، ولد فى ميافارقين بديار بكر، وسكن حلب وتوفى بها سنة (٣٧٤ هـ). وفيات الأعيان (١/ ٢٨٣).

كثيرًا فكفّ عنه.

فقال له يحيى: أرى الآن أن تهدمه لئلا يُتحدّث عنك أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك. فتغافل عن قوله وتركه.. انتهى.

(و) بسبب انصداعه وتحرّكه (سَقَطَ) منه (أَرْبَعٌ وَعَشْرٌ) أى أربع عشرة، عدل عنه لثقل تركيبه (من شُرُفَاته) جمع شُرُفَة بضمتين كما فى «تثقيف اللسان»، ويجوز سكونها وفتحها كما قاله «البرهان»؛ وهو ما يبنى على أعلى الحائط منفصلاً بعضه من بعض على هيئة معروفة، وله شُرُفات كثيرة. قيل: اثنتان وعشرون، وطول كل شُرُفة: خمسة عشر ذراعًا (العُلْويَّة) أى المنسوبة للعلو ضد السفل، وهى صفة كاشفة؛ لأن الشُرُفات لا تكون إلا كذلك.

قال الشيخ ابن حجر فى «النعمة الكبرى»: قال ابن الجوزى: وهذا الشق باق إلى الآن، أخبرنا به جماعة ممن رآه بالمدائن، وأنه سقط من أعلى الإيوان أربع عشرة شرافة[1].

وقال فى «المنح»: عُلِمَ بالقطع البرهانى أن ذلك ليس إلا محض آية منه ﷺ للوجود على نبّوته، وأنه لا مُلك ولا عزّ لأحد مع مُلكه وعزّه، وسر تلك الأربع عشرة: الإشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ـ أى كما أشار إلى ذلك سطيح كما يأتى إن شاء الله تعالى قريبًا ـ فهلك عشرة فى أربع سنين، وأربعة إلى زمن عثمان ـ رضى الله عنه ـ وقد فُتح فى زمن عمر ـ رضى الله عنه ـ أكثر إقليم فارس، وكَسَرَ كِسرى وأهانه غاية الهوان، فتقهقر إلى أقصى مملكته، ثم قُتِلَ فى زمن عثمان ـ رضى الله عنه ـ أكثر إقليم فارس، وزال ملكه بالكلية.

وصح أنه ﷺ أخبر بأنه: «إذا هلك كِسرى فلا كِسرى بعده»[2]، «وأن

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٨)، أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٨٨).

(٢) أخرجه البخارى (٤/ ١٠٤)، مسلم (الفتن: ٧٧)، الترمذى (٢٢١٦)، أحمد (٢/ ٢٣٣)، البيهقى فى السنن (١/ ١٧٧)، الطبرانى فى الكبير (٢/ ٢٣٤)، شرح السنة للبغوى (١٣/ ٣٠٩)، بدائع المنن (٨/ ١٨)، البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ٣٩٣)، مشكل الآثار (١/ ٢١٣).

أمواله وكنوزه تنفق فى سبيل الله»، فانقطع ملكه، وزال من جميع الأرض، وتمزق ملكه كل ممزق؛ لأنه ﷺ دعا عليه بذلك لمَّا جاءه كتابه فمزقه.

وقد بشر ﷺ أمته فى حفر الخندق بملك بلاده وقال لسُرَاقة حين أراد الانصراف عن النبى ﷺ - كما سيأتى فى طريق الهجرة وكان من فقراء الصحابة -: «كيف بك إذا لبست سوارىّ كسرى»[1]. فلما جىء لعمر - رضى الله عنه - فى زمن خلافته بسوارىّ كسرى، وتاجه، ومِنْطَقته، وبساطه وكان ستين ذراعًا فى ستين ذراعًا منظومًا باللؤلؤ والجواهر الملوّنة على ألوان زهر الربيع، كان يُبسط له فى إيوانه، ويُشرب عليه إذا عدمت الزهور، وجىء له بمال كثير من مال كِسرى، وبنات كِسرى، وكن ثلاثا، وعليهن من الحُلى والحُلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه. وعند ذلك دعا - رضى الله عنه - سُرَاقة وقال: ارفع يدك، وألبسه السوارين. أى اظهاراً للمعجزة، وتحقيقًا لخبره ﷺ وقال: الحمد لله الذى سلبهما كِسرى وألبسهما سُرَاقة.

(وكُسِرَ) بالبناء للمفعول (ملك كِسرى) وهو كناية عن ما حل به وبأتباعه من الوبال والهوان والنكال (لهول ما) أى الذى (أصابه وعَرَاه) هما بمعنى يقال عرا يعرو: كعلا يعلو أى أصاب، والمعنى أن ملكه تفرّق وتشتّت لهول ما أصابه وأفزعه وأخافه من المصائب النازلة به، والكرب العظيم الذى وقع فيه.

ورأى فى تلك الليلة المُوبَذَان - أى القاضى الكبير، وفى كلام المحدّث: وهو خادم النار الكبير، ورئيس أحكامهم، وعنه يأخذون مسائل شرائعهم - فى نومه إبلاً صعابًا تقود خَيْلاً عِرَابًا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها.

ورأى كِسرى ما أهاله وأفزعه وهو ارتجاس الإيوان وسقوط شُرُفاته، فلما أصبح تصبَّرَ: أى لم يظهر الانزعاج لهذا الأمر الذى رآه، ثم رأى أن لا يدَّخر ذلك - أى هذا الأمر الذى هاله وأفزعه - عن مَرَازبته أى فرسانه وشجعانه،

(١) إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٨)، الشفا (١/ ٦٧٤).

فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره، ثم بعث إليهم، فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيما بعثتُ لكم؟ قالوا: لا. إلا أن يُخبرنا الملك. فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران، وكتاب من صاحب إيليا[1] أن بحيرة ساوه غاضت، وكتاب من صاحب الشام أن وادى سماوة انقطع، وكتاب من صاحب طبرية أن الماء لم يجر فى بحيرة طبرية. فازداد غمًا إلى غمه، فأخبرهم بما رأى وما هاله.

فقال الموْبَذَان: وأنا قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا، ثم قصها عليه. فقال: أى شىء هذا يا موبَذَان؟ قال: حدثٌ يكون فى ناحية العرب، فابعث إلى عاملك بالحيرة[2] يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان. فكتب كسرى إلى النعمان بن المنذر ملك العرب أن يرسل إليه أعلم من فى أرضه من العرب. فبعث إليه عبد المسيح بن عمر الغسَّانى ـ وهو معدود من المعمرين عاش مائة وخمسين سنة ـ فلما ورد عليه قال: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليسألنى الملك فإن كان عندى علم منه وإلا أخبرته من يَعْلَمه، فأخبره بالذى وجه إليه فيه. قال: عِلْمُ ذلك عند خالى سَطِيح، يسكن مشارف الشام ـ بالفاء ـ أى أعاليها، فأمره كِسرى بالذهاب إليه، فجاءه فوجده مشفيًا على الموت، وعمره إذ ذاك ثلثمائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة، فأخبره سَطِيح من غير أن يذكر له شيئًا بما من جملته: عبد المسيح على جمل مُشِيح[3] إلى سطيح، وقد وافى على الضريح، بعثه ملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبَذان، رأى إبلاً صِعَابًا تقود خيلاً عِرَابًا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها. يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة ـ أى تلاوة القرآن ـ وظهر صاحب الهِرَاوة، وفاض وادى سَمَاوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نيران فارس، فليست بابل للفرس مقامًا، ولا الشام لسَطِيح شامًا،

(١) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس؛ قيل: معناه بيت الله. (مراصد الاطلاع ١/١٣٨).
(٢) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له: النجف. (معجم البلدان ٢/٣٢٨).
(٣) مُشِيح: يقال ناقة مشحاة إذا كانت سريعة.

يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشُرُفات، وكل ما هو آت آتٍ، ثم قضى سَطِيح مكانه ـ أى مات من ساعته ـ وقيل: أدرك الإسلام فلم يسلم.

والهِرواة بكسر الهاء: العصا، وسمى النبى ﷺ صاحب الهِراوة؛ لأنه كان يمسك فى يده العصا كثيرًا عند مشيته، وكان يمشى بالعصا بين يديه، وتغرز له فيصلّى إليها ـ التى هى العنزة ـ وفى الحديث: «حمل العصا علامة المؤمن وسنة الأنبياء»[1].

قال فى «إنسان العيون»: وقد يقال مراد سَطِيح بالعصا: العنزة التى كانت تغرس له فيصلى إليها فى غير المسجد؛ لأنه لم يحفظ أن ذلك كان لمن قبله من الانبياء..

وسمى أيضًا: «صاحب القضيب»: أى السيف كما وقع مفسرًا فى الإنجيل؛ قال: معه قضيب من حديد يقاتل به وأمته كذلك. وقد يحمل على أنه القضيب المشوق الذى كان يمسكه ﷺ. والممشوق: الطويل الممدود الرقيق.

فإن كان المراد بالقضيب السيف، فهو كناية عن جهاده وكثرة غزوه وقتاله وفتوحاته وغنائمه. وإن كان المراد به العصا، فهو عبارة عن كونه من صميم العرب وخطبائهم.

فعلى الأوّل: فعيل بمعنى فاعل، وعلى الثانى: فعيل بمعنى مفعول.

فهو ﷺ صاحب العصا يرعى بها الأخيار، والقضيب يبيد به الأشرار.

وعند موت سَطِيح نهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول:

شمر فإنك ماضى العزم شمير ... ولا يغرنك تفريق وتغيير

إن يمس الملك بنى ساسان أفرطهم ... فإن ذا الدهر أطوار دهارير

فربما ربما أضحوا بمنزلة ... تخاف صولهم الأسد المهاصير

منه أخو الصرح بهرام وإخوته ... والهرمزان وشابور وسابور

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٣٤٥٠) للديلمى، وفيه يحيى بن هاشم الغسانى، كان يضع الحديث. وانظر الحاوى فى الفتاوى (٢/ ١٠٩)، كشف الخفا (١/ ٣٨٣).

والناس أولاد علات فمن علموا أن قد أقل فمحقور ومهجور
وهم بنو لام أما إن رأوا نشبا فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشر مقرونان فى قرن فالخير متبع والشر محذور

فلما قدم عبد المسيح على كِسرى وأخبره بما قال سطيح. فقال كِسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكًا كانت أمور وأمور.

فملك منهم عشرة فى أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ وقد ذكر أن آخر من هلك منهم كان فى أوّل خلافة عثمان رضى الله عنه.

(و) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه **(خَمَدَت)** بفتح الميم من باب قعد وكسرها من باب علم والأوّل أفصح وأشهر؛ أى سكنت بسكون لهبها من غير انطفاء جمرها، وإلا لقيل: همدت كما فى «المنح» **(النيرانُ)** جمع نار. وهى من ذوات الواو، وإنما جمعت على نيران لانكسار ما قبل الواو المستلزم لقلبها ياء **(المعبودة)** من دون الله تعالى **(بالممالكِ الفارسيَّة)** أى المنسوبة إلى فرس من الفَرَاسة بفتح الفاء بمعنى الشجاعة، وفارس إقليم معروف هو وأهله، وكان كِسرى من أجل ملوكهم، وكان لها ألف عام لم تخمد لشدّة اشتعالها، وكثرة إمدادها دائما، وكانوا يعبدونها كما قال ابن هانىء:

سجدتُ إلى النيرانِ أعصرها ومُذْ شَعَرَتْ به سَجَدَتَ لهُ نيرانُهَا

وقال آخر:

وذاكَ دليلٌ للنجاةِ من اللَّظى به لانطفاء النَّارِ من كلِّ مَوْقِدِ

وكان كِسرى وأتباعه يعبدونها ويرمون فيها المسك والعنبر ونحوهما، ولهم بها فتنة عظيمة إذ لم تزل تأجّج وإن لم تمدّ، وكان فى إقليم فارس من بيوت النار الموقدة المئين من السنين ما تحيل العادة انطفاءه، فلما انطفت تلك النيران كلها فى ساعة واحدة تلك الليلة أورثهم ذلك كربة وبلاء عظيمًا صبّه الله

عليهم صبًا بإزالة ما يعتقدونه إلههم ومتعبدهم؛ لأنهم مجوس، وعلموا أن ذلك لأمر عظيم حدث فى العالم يكون سببًا لإزالة ملكهم، وتمزيقهم كل ممزق.

وكان فى وقوع ذلك آية عظيمة على نبّوة النبى ﷺ وسر عظيم (لطُلُوع) أى ظهور (بَدْره) أى بدره هو؛ فالإضافة للبيان، ويرد عليه ما تقدم عن اللقانى من أن الإضافة البيانية لا تأتى فى الإضافة للضمير؛ فالمخلص من ذلك أن يكون الكلام على تقدير مضاف أى بدر وجوده، وحينئذ تكون الإضافة حقيقية.

(المُنير) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [1].

المنير الزائد النور، أو المظهر لغيره ما خفى عليه، اسم فاعل أنار: أى أضاء هو فى نفسه وأنار غيره أى أكسبه نورًا، وصيّره ذا نور يضىء به، فهو ﷺ منير فى نفسه، ومنير لغيره؛ لأنه المرشد الهادى للناس بما يفيض عليه من الأنوار القدسية، المبين ما يهتدون به ويتخلصون من ظلمات الجهل والضلال.

وللإمام الغزالى ـ رحمه الله تعالى ـ كلام لطيف فى النور نقله عنه الخفاجى فى شرح «الشفا» له مناسبة هنا فلنذكره بالاختصار: وهذا النور يشير إلى الظهور، وهو أمر إضافى. فقد يظهر الشىء لإنسان ويبطن عن غيره، وإضافة الظهور إلى الحواس الداركة أقوى، وأجلاها حاسة البصر، والأشياء بالنسبة إليها ثلاثة أقسام: منها ما لا يبصر بنفسه: كالأجسام المظلمة. ومنها ما يبصر ولا يبصر به غيره: كالشمس، والسراج. والنور اسم لهذا القسم الثالث: وهو عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر عنده غيره، وما يبصر عنه وغيره أحق وأولى باسم النور من الذى لا يؤثر فى غيره أصلا، ولما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك، كان الإدراك موقوفًا على وجود النور فهو الظاهر المظهر.

(١) سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

قال: وهذه الخاصة توجد فى الروح القدسى النبوى؛ إذ تفاض بواسطته أنوار المعارف على الخلائق، وبهذا أظهر معنى تسمية محمد ﷺ سراجًا منيرًا. . انتهى.

وفى كلام المصنف - رحمه الله تعالى - تشبيه بالبدر، ويرشحه قوله: (وإشراق) أى إضاءة (مُحَيَّاه) بضم الميم وفتح الحاء وشدّ المثناة تحت؛ أى وجه الشريف المشبّه بالشمس فى الإشراق والإضاءة، ولا يخفى ما فى كلامه من مزيد الحسن حيث جمع بين التشبيهين بهذين الكوكبين النَّيرين اللذين بهما قوام نفع العالم، وتقدّم شاهد تشبيه وجهه ﷺ بالشمس فى حديثى الربيع بنت معوذ، وأبى هريرة - رضى الله عنهما - وأن لكل من التشبيهين وجهًا يرجحه على الآخر.

(و) من العجائب التى وقعت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه (غَاضَتْ) بالغين والضاد المعجمتين؛ أى غارت وذهبت فى الأرض حتى لم يبق فيها قطرة ماء (بُحَيْرَة) بصيغة التصغير وهو تصغير تعظيم كما يعلم مما يأتى (سَاوهْ) وتسمى عين ساوه بسين مهملة وبعد الألف واو فهاء ساكنة؛ قرية من قرى بلاد فارس بينها وبين الرّى، من أشهر بلاد «خُرَاسان» كما فى «تاريخ ابن خِلّكَان» اثنان وعشرون فرسخًا، وأضيفت البحيرة إليها لبنائها مكانها، وهى المعروفة بالغيض.

وأما بحيرة طَبَرِيَّة التى بالشام يخرج منها نهر بينها وبين الصخرة ثمانية عشر ميلاً فباقية إلى يومنا هذا، ويكون ذهاب مائها عند خروج يأجوج ومأجوج كما ورد: «أنهم يمرون ببحيرة طَبَرِيَّة فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: كان بهذه مرة ماء»[1].

وهو الذى عليه المحققون: كالأزهرىّ، والبُرْهَان، والزرقانى، وغيرهم. وتعقب الخفاجى البُرْهَان فى «نسيم الرياض» وقال: والجواب الحق أن المراد

---

(1) جزء من حديث أخرجه أحمد فى مسنده.

بحيرة طبرية. وقد روى الحديث البيهقى، وابن ابى الدنيا، وابن السكن، فالمعترض لم يقف على هذه الرواية، ولعل ماءها نقص نقصًا لا ينقص مثله فى زمان طويل، أو غار ماؤها ثم عاد بعد ذلك لما فيها من العيون النابعة التى تمدها الأمطار. . انتهى. أى وهذا وجه إثبات أنه بحيرة طَبَرِيَّة.

وأجيب بأن غَيْضَ كليهما ثابتٌ فى الأحاديث التى نقلها السيوطى وغيره، غاية الأمر أن بحيرة سَاوَهْ نشف ماؤها بالكلية، وبحيرة طَبَرِيَّة نقص ماؤها فقط، وهو جمعٌ حسن.

ووقع للشيخ ابن حجر الهَيْتَمى فى «النعمة الكبرى»: وغاضت بحيرة سَاوَهْ وتسمى بحيرة طَبَرِيَّة. وكأن مراده: الجمع؛ أى تسمى فى بعض الأحاديث: بحيرة طَبَرِيَّة فهى واحدة فلا يعترض عليه بأن سَاوَهْ بفارس، وطَبَرِيَّة بالشام.

(وكانت) بحيرة سَاوَهْ بعراق العجم **(بين)** مدينتى **(هَمَذَان)** بفتح الهاء والميم والذال المعجمة؛ بلدة بخراسان من بلاد العجم بناها همذان بن الفلوج بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وهى المرادة هنا، ومن خاصيتها أن الإنسان لا يكون بها حزينًا ولو كان ذا مصائب. كذا فى «عجائب البلدان» للقزوينى. وأما الهَمْدان بفتح الهاء وسكون الميم ودال مهملة؛ فهى قبيلة باليمن.

(وقُمْ) بضم القاف وسكون الميم؛ مدينة ببلاد العجم بها آبار ليس فى الأرض مثلها عذوبة وبردًا، وأبنيتها بالآجر، وفيها سراديب فى نهاية الطيب، ومنها إلى الرّى مفازة سبخة، ومنه قول الشاعر:

أيها القاضى بِقُمْ   قَدْ عَزَلْنَاكَ فَقُمْ

(من) جملة **(البلاد العَجَمِيَّة)** وهو أقليم خراسان، كانت تلك البحيرة كما قال «الخميس»[1] أكثر من ستة فراسخ فى الطول والعرض، وكان يركب فيها السفن ويسافر إلى ما حولها من البلدان. . انتهى.

(١) هو حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بكرىّ، مؤرخ، ولى قضاء مكة وتوفى بها سنة (٩٦٦ هـ) له: «تاريخ الخميس» مطبوع. الأعلام (٢/٢٥٦).

وفى «المنح»: وكانت تحيل العادة أن يغيض ماؤها لكثرته (و) مع ذلك فقد (جَفَّتْ): أى تلك البحيرة ـ أو الينابيع على ما يأتى ـ ليلة ولادته ﷺ وأصبحت يابسة كأن لم يكن بها ماء؛ حتى أن لهب النار ينبع من قعرها، وأشار إلى ذلك فى «البردة»:

كأن بالنَّارِ ما بالماءِ من بللٍ　　حُزْنًا وبالماءِ ما بالنَّارِ من ضَرَمِ[1]

وكذا فى «الهمزية»:

وعيونٌ للفرسِ غَارَتْ فهل كا　　نَ لنيرانهمْ بها إطفاءُ[2]

وهذا توبيخ وتقريع لهم: أى هل تلك المياه التى غارت كانت بها إطفاء تلك النيران. ويقال فى جوابه: لا، بل إطفاؤها إنما هو لسر وجود هذا النبى المعظم، وظهوره المضمحل به كل لهو وباطل.

(إذ) تعليل لسبب الجفاف (كَفَّ) بفتح الكاف والفاء مشددة؛ أى منع يتعدى ويلزم (واكفُ) اسم فاعل وكَفَ يكف فهو واكفٌ أى شديد، مفعول لما قبله مضاف لقوله (مَوْجِهَا) من إضافة الصفة للموصوف، وهو مضاف للضمير العائد على بحيرة (الثَّجَّاج) بفتح المثلثة وجيمين بينهما ألف الأولى منهما مشددة؛ أى سيال صفة للموج (ينابيعُ) جمع ينبوع وهو عين الماء أو الماء نفسه إذ الينبوع جاء للمنبع وللنابع ففى «حاشية شيخ زاده»[3]: الينابيع جمع ينبوع وهو: إما الموضع الذى يجرى فيه الماء من خلال الأرض، أو نفس الماء الجارى. والمراد هنا: الأول. وهى فاعل قوله: «كَفَّ» هذا إن جعلناه متعديا. ولم يقل كَفَّتْ بالتأنيث للفصل بينه وبينها. والمعنى: جفت تلك البحيرة بسبب إنكفاف: أى امتناع ينابيع تلك المياه التى كان لها موج شديد بحيث تفتحت وبلعت ما فيها، أو فاعل قوله جَفَّتْ إن جعلناه لازما وجعلنا

(١) المجموعة النبهانية (٤/٧). والضرم: الالتهاب.

(٢) المجموعة النبهانية (١/٧٨).

(٣) هو محمد (محيى الدين) بن مصطفى (مصلح الدين) القوجرى، مفسر من فقهاء الحنفية، كان مدرسًا فى استانبول، له حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوى، توفى سنة (٩٥١ هـ). الأعلام (٧/٩٩).

واكف فاعله، وحينئذ فالمعنى: جفت ينابيع (هاتيكَ) وفى بعض النسخ تلك اسم إشارة لما بعده وهو (المياه) الكائنة ببحيرة سَاوَهْ؛ بسبب انكفاف موجها الشديد الذى كان استمداده منها.

والأقرب من ذلك كله والأوضح أن تكون إذ ظرفًا للماضى مجردة عن معنى التعليل. والمعنى: جفت البحيرة وقت كف الينابيع، واكف: الموج الكثير. هذا إذا كان فاعل جفَّت ضميراً راجعًا لبحيرة وجعلنا كَفَّ متعديًا. أما إن جعلنا كَفَّ لازمًا، وجعلنا الينابيع فاعل جفت، فيكون المعنى حينئذ: جفت الينابيع وقت انكفاف، واكف الموج الكثير.

(و) من الغرائب التى ظهرت عند ولادته ﷺ أيضًا: أنه (فَاضَ) الماء حتى كثر وسال، وفى كلام بعضهم: أن نهر الفرات الذى كان به قوامهم ضل الطريق ووقع فى (وادى سَمَاوهْ) أى واد يعرف بسَمَاوهْ بفتح السين المهملة فميم فألف فهاء ساكنة؛ فأصبح الفرات ساكنًا غير جارٍ إشارة إلى وقوف أمرهم وتعطّله (وهى) أى سَمَاوهْ: موضع بين الكوفة والشام، وليست من العواصم كما فى «القاموس» وغيره، وبهذا يُعلم ما فى «المنح»: أنها قرية بينهما، ويحتمل على بعد أن يقال: إنها بنيت بعد ذلك، أو كانت قرية ثم خربت واندثرت فيطلق عليه تارة موضع وتارة قرية. وفسَّرها المصنف بقوله: (مَفَازةٌ) وهى أرض متسعة مهلكة سميت بذلك تفاؤلا بالسلامة والفوز من الهلاك فيها. (فى فَلاَة) بفتح الفاء: مرادفة لمفازة أتى بها لزيادة الإيضاح، وكذا قوله: (وبَرِيَّة) بفتح الموحدة وشد الراء والمثناة التحتية رعاية للتسجيع، وعلم من ذلك أن سَمَاوهْ هذه غير سَمَاوهْ القرية المعروفة بين الكوفة والبصرة على نهر الدجلة إذ يبعده قوله: (لم يكن) يُوجد ويُعهد (بها) أى فيها (قَبْلُ) أى قبل ذلك (ماءٌ) بالتنوين؛ ثم رأيت فى «المراصد» ما يؤيد ما ذكرناه ونص عبارته: السَمَاوة بفتح أوله وبعد الألف واو: بادية بين الكوفة والشام، أرض مستوية لا حجر فيها، وماء بالبادية. وقيل: السماوة؛ ماء لكلب.

وفى «المجمل»: السماوة: ماء بالبادية.

قال النووى فى «التهذيب»: قال السمعانى فى «ترجمة المسىء المتنبى»: إنما قيل له ذلك؛ لأنه ادعى النبّوة فى بادية السماوة، وتبعه كثير من كِلْب وغيرهم، فخرج له لؤلؤ أمير حمص فأسره، ثم أشهد عليه أنه تاب وكذب نفسه فيما ادعاه وأطلقه.. انتهى.

وما تقدم من أنها ماء بالبادية يعكر عليه قوله: لم يكن... إلخ. إلا ان يقال: إن الماء بقى بعد ما فاض، فأطلق عليه اسم المحل. لكن قال فى «الوشاح»: قد تنوسى لفظ سَمَاوة اليوم ولم يُعرف إلا موضع بين الحِلَّة والبصرة ـ يريد بذلك ما قدمناه ولله الحمد ـ وفى قوله: «تنوسى لفظ سماوة» نظر فتأمل.

(ينَقَعُ) بفتح المثناة التحتية فنون فقاف مفتوحة فعين مهملة مضارع نَقَع بفتحتين؛ أى يبل **(للظمآن)** العطشان **(اللَّهاه)** بفتح اللام؛ اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم، والجمع لهوات ولهيات. والمراد: الفم جميعه؛ فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل، وعلم مما مر: أن الإضافة فى قوله وادى سَمَاوة بيانية؛ أى واد هو سَمَاوة، ويحتمل أن تكون حقيقية على معنى اللام: أى واد لسَمَاوة، وأعاد ضمير التانيث إليه وهو قوله: هى؛ إما باعتبار ما اكتسبه من المضاف إليه وهو سَمَاوة، أو باعتبار إرادة البقعة، أو راعى جانب الخبر وهو قوله: مفازة، فقوله: لم يكن بها... إلخ. يصح أن يكون نعتًا لمفازة، أو لسَمَاوة وللوادى بالاعتبار المذكور.. والله أعلم.

وللشقراطيسى[1] أبيات لها مناسبة بهذا المقام:

ضاءت لمولدِه الآفاقُ واتَّصلَتْ بُشْرى الهواتفِ فى الإشراقِ والطَّفَلِ[2]

(١) هو الإمام أبو محمد عبد الله بن يحيى بن على الشقراطيسى المغربى، فقيه مالكى، توفى سنة (٤٦٦ هـ). الأعلام (٤/ ١٤٤)، شجرة النور (١١٧).

(٢) الطفل: آخر النهار عند الغروب.

وصرحُ كسرى تداعى من قواعده | وانقضَّ مُنْكَسِرَ الأرجاءِ ذا مَيَلِ
ونارُ فارسَ لم تُوقَدْ وما خَمِدَتْ | من ألف عامٍ ونهرُ القومِ لم يَسِلِ
خرَّتْ لمبعثه الأوثانُ وانبعثتْ | ثواقبُ الشُّهْبِ ترمى الجِنَّ بالشُّعَلِ[1]

(و) هنا تم الكلام على القسم الأول الواقع فى كلام المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ وقد تبين بهذا انقسام الخوارق كلها باعتبار اختلاف أزمنتها إلى ثلاثة أقسام:

قسم منها وقع قبل البعثة النبوية: وهو شامل لما وقع قبل المولد النبوى وبعده وقد مر.

وقسم بين المبعث والوفاة النبويين.

وقسم وقع من وقت الوفاة النبوية إلى الآن لصالحى الأمة وهو غير محصور؛ إذ كل خارق وقع لخواص أمته ﷺ إنما هو فى الحقيقة له إذ هو السبب فيه.

وسبق أن الذى يسمى بمعجزة حقيقة هو ثانى الأقسام، وأفراده كثيرة جداً حتى قيل: إنه ظهر على يديه ﷺ من المعجزات ألف، بل قيل: ثلاثة آلاف؛ منها ـ وهو أعظمها وأشهرها وأعمها ـ: القرآن العظيم، وهو مُنْطَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها كما قال القاضى عياض من جهة ضبط أنواعها فى أربعة أوجه:

أحدها: حسن تأليفه، والتآم كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب؛ فإنهم مع فصاحتهم وبلاغتهم لم يقدروا على معارضته والإتيان بمثله كما جاء ذلك فى القرآن فى كثير من الآيات، ولم يَخْفَ على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم؛ ولهذا لما سمع الوليد من النبى ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾[2] الآية. قال:

---

(١) المجموعة النبهانية (٣/١٩٩).

(٢) سورة النحل: ٩٠.

والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر.

وذكر أبو عبيد: أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [1] فسجد وقال: سجدت لفصاحته.

وحُكى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يومًا نائما فى المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد بشهادة الحق، فاستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يُحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلا من أُسَارى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها، فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْه فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [2].

ثانيها: صورة نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظيرٌ له ولا استطاع أحد مماثلة شىء منه؛ بل حارت فيه عقولهم، وتدلهت به دونه أحلامهم.

ثالثها: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمنين﴾ [3].

وقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [4].

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾ [5].

وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى

(١) سورة الحجر: ٩٤.
(٢) سورة النساء: ٨٠.
(٣) سورة الفتح: ٢٧.
(٤) سورة الروم: ٢.
(٥) سورة الفتح: ٢٨.

الأَرْضِ﴾ الآية[1].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ [2] إلى آخرها.

فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارس فى بضع سنين، ودخل الناس فى الإسلام أفواجا.

رابعها: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، وقد كان كثيراً ما يسألونه ﷺ عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً: كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخَضْر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنباء والقصص، وبدء الخلق، وما فى التوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، مما صدَّقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر فيها.

وهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مرية.

ومن الوجوه البيِّنَة فى إعجازه: كونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [3].

وسائر معجزات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ انقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته؛ على ما كان عليه من أول نزوله إلى وقتنا هذا، حجة قاهرة.

ولإعجازه وجوه كثيرة ذكرها الأئمة الأعلام لا يسعها المقام. وحقيقة الإعجاز: الوجوه الأربعة التى ذكرناها فليعتمد عليها وبالله التوفيق.. انتهى.

ومنها: انشقاق القمر فلقتين ـ وفى رواية مرتين ـ لما طالبه كفار قريش آية على صدقه فى دعوى النبوة. ومنها: رد الشمس بعد غروبها وحبسها عن الغروب. ومنها: نبع الماء بين أصابعه مراراً متعددة. ومنها: تفجير الماء فى

---

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة النصر: ١.

(٣) سورة الحجر: ٩.

عين تبوك، وبئر الحديبية. ومنها: تكثير الطعام ببركته ودعائه. ومنها: تسليم الحَجَر والشجر عليه، وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها دعوته، ومثولها بين يديه، ثم رجوعها إلى منابتها بأمره غير مرة. وكذا سائر الجمادات: كحنين الجذع، وتسبيح الحصى والطعام فى كفه. والحيوانات: كسجود الجمل وشكواه إليه قلة العلف وكثرة العمل، وكلام الضب والذئب والظبى، وشهادة جميعها له بالرسالة.

ومن هذا الباب: تسخير الأسد لسفينة - مولى رسول الله ﷺ - لما وجهه إلى مُعاذ باليمن فلقى الأسد فعرَّفه أنه مولى رسول الله ﷺ، ومعه كتابه، فهمهم وتنحّى عن الطريق.

ودفعه لعُكَّاشة جذل[1] حطب وقال: «اضرب به» حين انكسر سيفه يوم بدر فعاد فى يده سيفًا صارمًا، طويل القامة، أبيض شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد فى قتال الرِّدة، وكان هذا السيف يقال له: العَوْن.

ودفعه لعبد الله بن جَحْش يوم أحد وقد ذهب سيفه عَسَيْبُ[2] نخل، فرجع فى يده سيفًا.

ذكر القاضى عياض هاتين المعجزتين فى فصل: «كراماته ﷺ» بناء على أن ما لم يقع مع التحدى كرامة. وتقدم أن المعجزة ما وقع بتحد أو بدونه إذا كان موافقًا لمراده.

ومنها: إحياء الموتى، وإبراء المرضى وذوى العاهات: كنطق الشاة التى أهدتها يهودية مَصْلِيَّة[3] مسمومة فأكل ﷺ منها ومن معه فقال: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتنى أنها مسمومة»، وقال لليهودية: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: إن كنت نبيًا لم يضرك ما صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت

(١) الجذل: أصل الشجرة.
(٢) عسيب نخل: جريد النخل.
(٣) مَصْلِيَّة: أى مشوية.

الناس منك[1].

وردَّ عين قَتَادة بن النعمان بعد سقوطها على خده فعادت أحسن عينيه وأحدّهما[2].

وَبصَقَ على أثر سهم فى وجه أبى قتادة بن النعمان بعد سقوطها على خده، فعادت فى يوم ذى قِرْدَةَ، قال: فما ضرب علىَّ ولاقاح.

وأتاه أعمى يسأله أن يدعو له أن يكشف الله عن بصره، فأمره أن يتوضأ ثم يتوسل إلى الله بنبيه ﷺ فى دعاء علمه إياه، ففعل، فرجع وقد كشف الله عن بصره.

وتَفَلَ فى عينى علىّ - رضى الله عنه - يوم خَيْبَر وهو رَمِدٌ فعوفى من ساعته ولم يرمد بعد ذلك[3].

ومسح على رِجْل عبد الله بن عَتِيْك بعد انكسارها فصحّت لحينها وعادت كأحسن ما كانت.

ووضع كفه على المريض فعقل من ساعته.

ومسح على رأس أقرع فنبت شعره واستوى فى وقته وذهب داؤه.

وأتته امرأة من خَثْعَم معها صبى به بلاء لا يتكلم، فأتى بماء فمضمض فاه، وغسل يديه، ثم أعطاها إياه وأمرها بسقيه ومسه به، فبرىء الغلام وعقل عقلا يفضل عقول الناس.

وجاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح صدره فَثَعَّ ثَعَّة، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى[4].

* * *

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٥٢)، إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٤٧)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٣٣٨).

(٣) أخرجه البخارى (٤٢١٠)، مسلم (كتاب الجهاد: ١٣٢)، أحمد (١/ ١٨٥)، البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ١٠٧)، البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ٢٠٥)، الطبرانى فى المعجم الكبير (٦/ ١٨٧)، كنز العمال (٣٠١١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٤)، الدارمى (المقدمة ٤)، البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ١٨٦).

[إجابة دعائه ﷺ]

وظهرت إجابة دعائه ﷺ فيمن دعا لهم وعليهم فى أمور لا تحصى، ومن ذلك:

[دعائه] لأنس بن مالك بطول العمر وكثرة ماله والولد، فعاش نحو المائة أو أكثر، ودفن مائة من ولده لصلبه، وكان كَرْمُه يحمل فى السنة مرتين[1].

و [دعا] لعبد الرحمن بن عوف بالبركة؛ فحفر الذهب فى تركته بالفوس حتى مجلت فيه الأيدى.

و [دعا] لابن عباس بالفقه فى الدين والحكمة والتأويل، فكانت بحراً لا يجارى، وسُمى حَبْر الأمة وترجمان القرآن.

و [دعا] لعلى - رضى الله عنه - أن يُكْفَى الحرَّ والقَرَّ، فكان يلبس فى الشتاء ثياب الصيف، وفى الصيف ثياب الشتاء ولا يصيبه حرٌ ولا برد[2].

و [دعا] لفاطمة - رضى الله عنها - أن لا يجيعها الله تعالى فما جاعت بعد.

ودعا على «مُضَر» فأقْحطوا حتى استعطفته قريش، فدعا لهم فسقوا.

و [دعا] على كِسْرى حين مزَّق كتابه أن يُمَزِّق الله ملكه، فلم يبق له باقية، ولا بقيت لفارس رياسة[3].

وقال لرجل يأكل بشماله: «كل بيمينك»، فقال: لا أستطيع. فقال: «لا

---

(١) صحيح البخارى (٨/٩١)، مسلم (٤٥٨، ١٩٢٨)، الترمذى (٣٨٢٩)، دلائل النبوة للبيهقى (٦/١٩٤)، الوفا ص (٣٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١٧)، أحمد فى مسنده (١/٩٩، ١٣٣)، فتح البارى (٧/٤٧٧)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٣٥٠).

(٣) أخرجه البخارى (٢٩٣٩)، البيهقى دلائل النبوة (٤/٣٨٨)، الزيلعى فى نصب الراية (٤/٤٢١)، مصنف ابن أبى شيبة (١٤/٣٣٨)، تاريخ بغداد (١/١٣٢)، تهذيب تاريخ دمشق (٧/٣٥٦).

استطعت»، فما رفعها إلى فيه بعد[1].

و [دعا] على عُتْبَة بن أبى لهب: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك»، فأكله الأسد[2].

و [دعا] على الحكم بن أبى العاص وكان يَخْتَلِجُ بوجهه ويَغْمِزُ عند النبى ﷺ فرآه ﷺ فقال: «كن كذلك»، فلم يزل يَخْتَلِج إلى أن مات.

و [دعا] على محلم بن جثامة فمات لسبع، فلفظته الأرض، ثم دفن فلفظته مرات، فألقوه بين صدين ورضخوا عليه الحجارة[3].

قال القاضى عياض: وهذا الباب أكثر من أن يحاط به. . انتهى.

قال فى «المنهج الأعدل» نقلا عن بعض العلماء: إن من أعظم معجزاته حاله ﷺ وهو ما استمر عليه من الآداب والأخلاق: كتأدبه بآداب القرآن، وعزائمه: كالحلم، والصبر، والعفو مع الاقتدار؛ وكتمام التواضع للضعفاء، والترفع على الأغنياء، ومقابلة السيئة بالحسنة؛ وكتمام الجود مع تمام الزهد فى الدنيا، وشدة الخوف من الله تعالى بحيث يظهر عليه أثره، ومع الفراغ من حظوظ النفس، وكالشجاعة إلى حد الغاية، والإصرار على الدعوة مع ما يرى فيها من المتاعب والمشاق.

ومنها: تكميله لغيره بحيث بلغ من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى مقام الولاية أكثر من عشرة آلاف، وظهر فى أمته من العلماء المجتهدين والعباد والزاهدين، والأولياء العارفين، ما لا يحصى ببركته ﷺ وتمهيده لهم من الدين والكمالات ما كان سببا لذلك. . انتهى ملخصًا.

* * *

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٦٢٣٥)، أبو نعيم فى معرفة الصحابة (١٢٠٦)، الدارمى (٢/٩٧)، البيهقى فى السنن (٧/٢٧٧)، البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٢٣٨).

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٩٦)، أبو نعيم دلائل النبوة ص (١٦٣)، الشفا (١/٦٣٢)، الوفا ص (٣٥٤).

(٣) الخصائص الكبرى (٢/ ١٣٠).

[محل مولده ﷺ]

(وَ) اختلف فى محل مولده ﷺ فقيل: كان بعُسْفَان؛ وهذا القول باطل. وقيل: بباب شبيكة ـ كجهينة ـ وادٍ قرب العَرْجَا، وموضع بين «مكة» و «الزاهر»، أو بئر هناك كما فى «القاموس».

وقيل: بردم بنى جمح.

وقيل: بشِعْب بنى هاشم وهو المشهور، بل حكى عليه الإجماع.

وعبارة الأزرقى[1] لا اختلاف فيه بين أهل مكة أنه (كَانَ مَوْلِدُهُ) أى ولادته (ﷺ بالموضع) المشهور بمكة (المَعْرُوفُ) فى سوق الليل آخر شِعْب بنى هاشم، قال فى «النعمة الكبرى»: كان داراً لأخى الحجاج بن يوسف الثقفى، وصلت إليه من ولد عقيل بن أبى طالب، وكان عقيل وضع يده عليها لما هاجر النبى ﷺ، ثم اشترتها الخيزران[2] أم هارون وبنتها مسجداً لله يُصلَّى فيه، ثم لازال الخلفاء والسلاطين يتعاهدونها بالبناء والتجديد إلى الآن، وقد كان وراءها بركتان عظيمتان يستقى منهما الحاج ثم خربتا ومحلهما ظاهر إلى الآن.

ومن الغريب جداً أن المولد بردم بنى جمح؛ سمى به لما ردم فيه من قتلاهم لما قاتلوا بنى محارب بن فِهْر. قيل: وليس هو الرَّدم المسمى بالمدعى الآن؛ لأن هذا إنما كان فى خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ.

وأغرب منه ما قيل أنه ولد بعُسْفَان، ولم يعول أئمتنا عليه بل قالوا: يجب الإيمان بأنه ولد بمكة، وهذا أول واجب للأولاد على أصولهم أنهم يُعلِّمونه

(١) هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن عقبة الأزرقى، أبو الوليد، مؤرخ يمانى الأصل، من أهل مكة، من مؤلفاته: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. توفى سنة (٢٥٠ هـ). الأعلام (٦/٢٢٢).

(٢) هى الخيزران، زوجة المهدى العباسى، وأم ابنيه الهادى وهارون الرشيد، ملكة حازمة متفقهة، يمانية الأصل، توفيت ببغداد. الأعلام (٢/٣٢٨).

لهم إذا بلغوا سبع سنين وميزوا، بل قضية كلام بعضهم أن إنكار ذلك كفرٌ كإنكار كونه قرشيًا.

(بالعِرَاصِ) بكسر العين المهملة فراء فصاد مهملتين بينهما ألف جمع عَرْصَة كضربة؛ وهى كل موضع واسع لابناء فيه، ويُجمع على عَرَصَات، سميت بذلك لأن الصبيان يتعرّصون فيها؛ أى يلعبون ويمرحون (المكيَّة) أى المنسوبة لمكة (والبلدِ) اسم من أسماء مكة قال تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [1].

(الَّذِى لاَ يُعْضَدُ) بضم أوله وسكون العين المهملة وفتح الضاد المعجمة بعدها دال مهملة مبنيًا للمفعول؛ أى لا يُقطع (شَجَرُهُ) وهو ما له ساق من النبات (ولا يُخْتَلَى) بضم المثناة تحت وسكون الخاء المعجمة وفتح المثناة فوق فلام؛ أى لا يُقطع، فهو من قبيل عطف الرديف (خَلاَهُ) بفتح الخاء المعجمة مقصور جمع خلاة؛ النبات الرقيق ما دام رطبًا، وإذا يبس فهو حشيش.

* * *

[تعظيم مكة وحرمها]

وأصل هذا ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرام، حرَّمه الله تعالى، لا يُعْضَد شوكه، ولا يُنفر صيده ولا تُلْتَقط لقْطته إلا من عرفها»[2].

وعن أبى شريح العدوى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لعمرو بن سعيد لما أراد بعث الناس إلى مكة لقتال ابن الزبير: ائذن لى أيها الأمير أُحدثك حديثًا سمعته أذناى ووعاه قلبى أنه ﷺ قال: «إن مكة حرَّمها الله تعالى ولم يحرِّمها

(١) سورة البلد: ٢.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٥)، ومسلم (١٣٥٥)، البيهقى فى السنن (٥/ ١٩٥)، البغوى فى شرح السنة (٧/ ٢٩٤)، النسائى (٨٧٤)، ابن ماجه (٣١٠٩).

الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يَعْضَد بها شجرًا، فإن أحدٌ ترخَّصَ بقتال رسول الله فيها فقولوا: إن الله عز وجل أذِن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذِن لى فيها ساعة من نهارٍ، ثم عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهد الغائب»[1].. انتهى.

قوله: «لا يُعْضَد شوكه» فيه دليل على تحريم نبات الحرم من الشجر والكلأ، سواء الشوك المؤذى وغيره. وهو الذى اختاره المتولى. وقال الزركشى: وهو الصحيح، وقال جمهور أصحابنا: لا يحرم الشوك وإن لم يكن نابتًا فى الطريق؛ لأنه مؤذى كصيد يصول، وانتصروا لمقابله بصحة النهى عن قطع شوكه بخصوصه، فلا يصح الجواب عنه بأنه مخصوص بالقياس على الفواسق الخمس، على أن الفرق أن لتلك نوع اختيار بخلاف الشوك.

وحاصل المذهب: أنه لا فرق فى التحريم، وإيجاب الضمان بين النابت بنفسه والمستنبت كالأشجار المثمرة، والقرع، والخلاف، والفرصاد لظاهر الخبر.

قال الماوردى: ومحل الخلاف فيما أنبت فى موات الحرم، فإن أنبت فى أملاكه لم يحرم بلا خلاف. هذا بالنسبة إلى الشجر، وقيده ابن الرفعة بالرطب، قال: أما إذا كان الشجر قد جفّ فَقَلَعَهُ فلا شىء عليه.

وجوز القاضى حسين القطع بالطاء لا باللام فلا يلزم من جواز القطع القلع؛ بدليل الحشيش اليابس فإنه يجوز قطعه، ولا يجوز قلعه.

لكن فرق الشهاب ابن حجر فى «التحفة»: بأن الحشيش ينبت إذا أصابه ماء. قال: ومن ثم لو علم فساد منبته من أصله جاز قلعة. قال: وكأنهم إنما لم يجروا هذا التفصيل فى الشجر لندرته فيه بفرض تصوره.. انتهى. فلا يقاس الشجر على الحشيش.

ولم يتكلم النووى فى «الروضة» و «شرح المهذب» على الشجر اليابس،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧)، أحمد فى مسنده (٤/ ٣١)، البيهقى فى السنن (٧/ ٦٠)، مشكاة المصابيح (٢٧٢٦).

وإنما تعرَّض للقطع فقط. قال الزركشى: قد يوهم تحريم القلع، والصواب الجواز كما سبق.. انتهى.

وأما المستنبت بالنسبة إلى غير الشجر؛ كالحنطة، والشعير، وسائر الخضروات، فيجوز قطعه وقلعه بلا خلاف لمالكه، ولو قطعه غيره فعليه قيمته له، ولا شىء عليه للمساكين. قاله الخفَّاف[1] فى كتاب «الخصال».

وقد استثنى أصحابنا من التحريم والتضمين فى النابت بنفسه مسائل:

أحدها: الإذخر لورود التصريح باستثنائه فى الصحيح.

الثانية: الشوك: كالعوسج وغيره لأذاه.

الثالثة: إذا احتيج لشىء من الكلأ لعلف البهائم جاز أخذه على الأصح؛ لأن المنع منه لأجلها، كما يجوز تسريحها فيه.

الرابعة: إذا احتيج إليه للدواء فالأصح لا يحرم قطعه؛ كالحاجة إلى الإذخر وقد استثناه الشرع.

الخامسة: إذا احتيج إليه للحاجة التى يقطع لها الإذخر: كتسقيف البيوت، ونحوه.

السادسة: ما يتغذى به؛ كالرجلة المسماة بالبقلة، ونحو ذلك؛ لأنه فى معنى الزرع، صرح باستثنائها المحب الطبرى[2] فى «شرح التنبيه».

* * *

(١) هو المبارك بن كامل بن محمد بن الحسين، البغدادى الظفرى، أبو بكر الخفاف، محدث، تتبع أخبار أهل العلم فى عصره، وجمع كتاب «سلوة الأحزان» فى نحو ٣٠٠ جزء، وخرج لنفسه معجمًا لشيوخه، ولد وتوفى ببغداد (٤٩٠ - ٥٤٣ هـ). الأعلام (٥/٢٧١).

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن محمد الطبرى المكى الشافعى، محب الدين أبو العباس، شيخ الحرم، ولد بمكة وتوفى بها، من تصانيفه: «الرياض النضرة فى فضائل العشرة» و «السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين». معجم المؤلفين (١/٢٩٨).

[أسماء مكة][1]

فائدة : لمكة أسماء كثيرة: بَكّة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والمأمون، وأم القرى، والنَّاسة بالنون فى أوله والسين المهملة فى آخره، والبَّاسَّة بالباء الموحدة، والنَّاسَّة بنون ثم سين مشددة، وصَلاَحِ بفتح الصاد وكسر الحاء المهملتين. قال فى «القاموس»: كقَطامِ وقد يصرف: مكة.. انتهى.

وأم رُحْم بضم الراء وتسكين الحاء المهملتين، وأم زَحم بالزاى المعجمة، وفى «القاموس» أم زُحْم بالضم: مكة.. انتهى.

وكُوثَى بضم الكاف وفتح الثاء المثلثة، والحاطمة، والعَرْش بفتح العين المهملة وإسكان الراء على وزن نذر ويصح ضم العين والراء والتصغير، والقادسة، والمقدسة، والبلد الأمين، والبلد، والبلدة، والقرية، والثَّنِيَّة، وطَيْبَة، والحرم، والمسجد الحرام، والعطشة، وبرَّة، والرَّتَاج، والكعبة، والرأس، ذكرها الزركشى فى «إعلام الساجد».

وقال الحافظ صدر الدين أبو على الحسن بن محمد البكرى فى «الأربعين البلدانية»: ويقال لها: قبلة أهل الإسلام، ومَعَاد، وصاحب المشاعر العظام، والزمزم، والمُقام، والمسجد الحرام، وهى مهبط الوحى، وملاذ الرسل، ومعاذ الصالحين من سائر الأمم.

وقال النووى: فى أسماء البلدان لا يعلم أبداً أكثر من أسماء مكة والمدينة ـ وتقدم ذكر أسمائها ـ لكونهما أفضل الأرض؛ وذلك لكثرة الصفات المقتضية للتسمية، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أى غالبا؛ ولهذا كثرت أسماء الله تعالى ورسوله ﷺ حتى قيل: إن لله تعالى ألف اسم، ولرسوله ﷺ كذلك.. انتهى.

---

(١) انظر: شفاء الغرام (٤/٤٧)، إعلام الساجد ص (٧٨)، سبل الهدى والرشاد (١/٢٢٥)، مثير الغرام الساكن ص (٢٤٣).

[تاريخ مولده ﷺ]

(وَ) اعلم أنه قد (اخْتُلِفَ) بالبناء للمفعول (فِيْ) تعيين (عَامِ) هو من أول المحرم إلى آخر ذى الحجة كما نقل عن ابن الخباز، بخلاف السنة فإنها من وقت فى دور إلى مثله من الدور الثانى، وقد فرّق بينهما الإمام السهيلى فى «الروض الأنف» لكن باعتبار أصل الوضع، فإن السنة من دور الشمس إلى عودها لمحلها؛ لأنها من سنى بمعنى دار، ومنه: السانية.

والعام ما اشتمل على الفصول الأربعة بتمامها. وهما هنا بمعنى ولادته ﷺ هل هو عام الفيل أو قبله أو بعده.

فقيل: عام الفيل. قال الحافظ ابن كثير: المشهور عند الجمهور، وعن إبراهيم بن المنذر شيخ البخارى، لا يشك فيه أحد من العلماء. ونقل غير واحد فيه الإجماع. وقال: كل قول يخالفه وهم، وسيأتى ما فيه.

واختلفوا فيما مضى منه. وقيل: يوم الفيل، وقيل: بعده بشهر، وقيل: بأربعين يومًا، وقيل: بخمسين يومًا وهو الراجح المشهور كما سيأتى، وقيل: بخمسة وخمسين يومًا، وقيل: بشهرين وستة أيام.

وقيل: قبل الفيل بخمس عشرة سنة. قال بعضهم: وهذا غريب منكر وضعيف أيضًا.

وقيل: بعد الفيل بسنتين، وقيل: بعشر سنين، وقيل: بخمس عشرة سنة، وقيل: بثلاثة وعشرين عامًا، وقيل: بثلاثين عامًا، وقيل: بأربعين، وقيل: بسبعين عامًا.

ويرد القول بأن الولادة كانت بعد الفيل بعشر سنين فما بعدها بأن قصة الفيل إنما كانت توطئة لنبوّته، ومقدّمة لظهوره وبعثه، وإلا فأصحاب الفيل كما قال ابن القيم كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيرًا من دين أهل

مكة إذ ذاك؛ لأنهم كانوا عباد أوثان؛ فنصرهم الله تعالى على أهل الكتاب نصرة لا صنع للبشر فيها إرهاصًا وتقدمة لخروج هذا النبى ﷺ الأعظم من هذه البنية التى قصدوا هدمها وتخريبها وإبادة أهلها، المندرج نور النبوة فى رئيسهم المقصود بالهلاك.

ووجه الرد كما فى «إنسان العيون»: أن الإرهاصات إنما تكون بعد وجوده وقبل مبعثه الذى هو دعواه الرسالة، لا قبل وجوده بالكلية الذى هو المراد بظهوره. وحيئنذ فقول القاضى البيضاوى ـ رحمه الله ـ أنها من الإرهاصات؛ إذ روى أنها وقعت فى السنة التى ولد فيها رسول الله ﷺ أى بعد وجوده. ومن ثم قال ابن القيم فى «الهدى»: إن مما جرت به عادة الله تعالى أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالموصلة لها، فمن ذلك قصة مبعثه ﷺ تقدمها قصة الفيل.. انتهى.

قلت: وذلك يضعف أيضًا الأقوال بأنها كانت بعد الفيل بشهر فأكثر، ويؤيد القول بأنها كانت قبل الفيل، كما أن ذلك القول بأن الولادة كانت قبل عام الفيل، أو فيه، أو بعده يقتضى تضعيف ما ذكره الحافظ أبو سعيد النيسابورى ـ رحمه الله تعالى ـ فى قصة طويلة ذكرها فى سبب إتيان أبرهة إلى هدم الكعبة، وما وقع بينه وبين عبد المُطَّلب من أن نور النبى ﷺ كان فى ظهر عبد المُطَّلب، وأنه استدار ذلك النور فى وجهه يومئذ، وأن الفيل لما نظر إلى وجهه برك كما يبرك البعير، وخرَّ ساجدًا، وأنطق الله الفيل وقال: السلام على النور الذى فى ظهرك يا عبدَ المُطَّلب، وأشباه ذلك مما ورد فى وجود النور فى عبد المُطَّلب إذ ذاك؛ مع أن الولادة فى ذلك الوقت يلزمها أن يكون النور انتقل من عبد المُطَّلب إلى عبد الله، ومنه إلى آمنة.

ثم رأيت العلامة ابن حجر حاول الجواب عن ذلك بأن النور وإن انتقل من عبد المُطَّلب لكن أكرمه الله بإحداث نور آخر أوجده فى صلبه، أو أثر ذلك النور كان باقيًا فى ظهره.. والله أعلم.

(وَ) كذا اختلف (فِي) تعيين (شَهْرِهَا) فقيل: فى ربيع الأول. وقيل: فى شهر غير معين. وقيل: فى صفر. وقيل: فى ربيع الآخر. وقيل: فى رمضان لثمان خلت منه، وصححه كثير من العلماء. وقيل: لاثنى عشرة ليلة خلت منه. وقيل: فى رمضان، كما مرَّ عن الزبير بن بكَّار، ونقله عن ابن عمر غير صحيح، وهو موافق لما هو مثله فى الشذوذ أن أمّه حملت به فى أيام التشريق. وقيل: فى محرم. وقيل: يوم عاشوراء من شهر المحرم حكاه ابن شاهين[1]. وقيل: لخمس بقين منه. قال بعضهم: وهذا القول غريب جدّاً.

(و) كذا اختلف (فى) تعيين ذات (يومها) وفى أى وقت منه، وفى أى يوم من شهرها. فقيل: يوم الإثنين. قال بعضهم: لا خلاف فيه والله. وقيل: يوم الجمعة، وهو قول ساقط مردود، بل قال بعضهم خطأ.

ومن ثم قال بعضهم: مقتضى قول المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ وفى يومها: أنه وقع خلاف فى ذات اليوم، فقيل: يوم الإثنين، وقيل: يوم الثلاثاء مثلاً، مع أن بعضهم حكى الإجماع على أنه يوم الإثنين.

ويجاب بأنه إنما ذكره إشارة لوقوع الاختلاف فى ذات اليوم، وقد وقع وإن كان مسقوطًا مردودًا كما علمت فلا يقدح ذلك فى حكاية الإجماع فلا يعترض عليه.

وقيل: يوم الإثنين من ربيع الأول من غير تعيين، والجمهور على أنه معين.

واختلفوا فى تعيينه فقيل: لاثنتى عشرة ليلة خلت منه وهو الراجح المشهور، وقيل: لليلتين خلتا منه، وقيل: لثمان خلت منه واختاره أكثر أهل الحديث وغيرهم، بل أجمع عليه أهل التاريخ بل نقل عن ابن دحية أنه قال: وهو الذى لا يصح غيره. وقيل: لعشرة منه، حكاه مُغْلَطاى والدمياطى

---

(١) هو عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين، أبو حفص، واعظ علامة، من أهل بغداد، كان من حفاظ الحديث، له نحو ٣٠٠ مصنف منها: كتاب «السنة» و «التفسير»، توفى سنة (٣٨٥ هـ). الأعلام (٥/ ٤٠).

وصحّحه. وروايته عن الباقرى لم تصح. وقيل: لست عشرة منه. وقيل: لثمان عشرة. وقيل: لسبع عشرة خلت منه. وقيل: لثمان بقين منه. وقيل: لاثنى عشر بقين منه.

وقيل: إن اليوم غير معين **(على أقوال)** مختلفة وقعت **(للعلماء)** أى علماء هذا الشأن يعنى التاريخ **(مرويَّة)** محكيةً عنهم، وقد حررنا بعضها كما رأيت **(و)** مع ذلك فـ **(الراجحُ)** من الأقوال فى تعيين كل من العام والشهر واليوم **(أنها)** أى الولادة الشريفة على طريق اللف والنشر المعكوس كانت **(بُعيد)** طلوع **(فجر يوم الإثنين)** قال بعضهم: وحكى عليه الإجماع، وعليه العمل الآن فى الأمصار خصوصًا أهل مكة فى زيارتهم موضع مولده الشريف ﷺ، وقيل: إنها كانت عند إبهار النهار؛ أى وسطه لثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول.

وعليهما فالولادة كانت نهاراً، والأحاديث الصحيحة دالة على ذلك: كحديث مسلم سئل ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال: «فيه ولدت، وفيه أنزل على»[1].

وأخرج أحمد عن ابن عباس: ولد ﷺ يوم الإثنين، ونبىء فيه، وخرج من مكة مهاجراً فيه، وقدم المدينة فيه، وَرَفَعَ الحَجَر الأسود فيه» وزيد: «أن نصرة بدر فيه»[2].

وردٌ بأن الأكثر على أنها يوم الجمعة سابع عشرين من رمضان، وأجيب بأنه الذى عند أهل التاريخ ومشاهير المحدثين ومن يعتمد على قوله من السلف الأول. وقال بعض متأخرى الحفاظ ومنهم البدر الزركشى: الصحيح أنه ولد بعد الفجر يوم الإثنين؛ أى لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة فيه، فلا يعارضه تدلى النجوم. قال ابن دحية: لأنها ضعيفة.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٩٧)، مسلم (الصيام: ١٩٧)، أبو داود (١/٢٤١)، أبو نعيم فى الحلية (٩/٥٢).
(٢) السيرة الشامية (١/٤٠١).

وقال البدر الزركشى: لأن الزمان زمان ظهور الخوارق، فلا مانع من تدلى النجوم نهاراً.

قال الزرقانى: قال النجم: وقد يقال أن الولادة عقب الفجر، وللنجوم حينئذ سلطان كما فى الليل، فلا ينافى سقوطها.. انتهى.

وقيل: كان مولده عند طلوع الغَفْر بفتح الغين المعجمة وسكون الفاء ثم راء مهملة؛ وهو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهو مولد النبيين أى وقت مولدهم.. انتهى.

وقال جماعة: ولد ليلاً واستدلوا بما رواه ابن السكن من حديث عثمان بن أبى العاص، عن أمه فاطمة بنت عبد الله الثقفية: أنها شهدت ولادة النبى ﷺ ليلا قالت: فما شىء أنظر اليه من البيت إلا نور، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى أنى لأقول يقعن علىَّ»[1].

وبتصريح عائشة رضى الله عنها بذلك، كما رواه الحاكم، وسبقت أخبار تدل له، ومن ثم قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: أكثر الأخبار تقتضى أنه ولد ليلاً؛ لكن الذى صح عند مسلم وغيره كما مر خلاف ما فيها؛ فالأصح أنه ولد نهارًا لكن بعد الفجر كما فى حديث وإن كان فيه ضعف؛ لأن الضعيف فى الفضائل والمناقب يعمل به اتفاقًا، وهو الذى رجحه المصنف ـ رحمه الله تعالى.

قال المحقق ابن حجر: فمن أطلق أنه ولد ليلاً أراد بالليل ما قبل طلوع الشمس، أو أراد مجاز المجاورة. وليس فى رواية: «أن النجوم تدلت عند ولادته» ما يدل على أن ذلك كان قبل الفجر لما مر عن الزركشى، وزيادة فى إكرامه ﷺ. وقد أشار صاحب الهمزية إلى التردد فى وقت الولادة بقوله:

ليلةُ المولدِ الذى كان للد ... ينِ سرورٌ بيومهِ وازدهاءُ[2]

(١) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١١١). وانظر: مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠).

(٢) المجموعة النبهانية (١/ ٧٨). والازدهاء: خفة الطرب.

وقد أضاف كلا من الليل واليوم للولادة مراعاة للخلاف فى ذلك.

هذا تحرير ما وقع من الخلاف فى يوم ولادته ﷺ.

وأما شهرها: فالراجح فى تعيينه كما قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أنه (ثَانِىْ عَشَرَ شَهْرَ رَبِيعٍ الأَوَّل) هو فى الأصل اسم لفصل معين من فصول السنة الأربعة، ثم جعل علمًا على كل من الشهرين المعروفين اللذين هما الثالث والرابع من شهور السنة العربية، فلذا التزم إضافة شهر إليه عند إرادة أحد الشهرين العربيين تمييزًا له عن فصل الربيع، ووجب تمييز كل من الشهرين بوصفه اللازم له من الأول والآخر؛ ليتميز أحدهما عن الآخر، كذا قال بعضهم. وقد ينازع فى لزوم الإضافة لأجل التمييز إذ هو يحصل بالوصف إلا أن يقال: لزوم الإضافة لحصول التمييز من أوّل الأمر قبل النطق بالوصف.

وكون الولادة فى شهر ربيع الأول هو الصحيح الذى عليه المعوّل، وهو الأشهر، بل الصواب، بل حكى ابن الجوزى الاتفاق عليه، لكن قال ابن حجر: مراده اتفاق الأكثر.

وأما موسم ذلك الوقت: فكان فى نَيْسَان كما أشار إلى ذلك فى «المواهب» و «شرحه» حيث قالا: ووافق ذلك من الشهور الشمسية نَيْسَان ـ بفتح النون ـ وهو سابع الأشهر الرومية كما فى «القاموس»، وهو برج الحمل. وفى «النور» عن الدمياطى: ولد فى برج الحمل، وهو يحتمل أن يكون فى نَيْسَان وأن يكون فى آذار.

لكن ما جزم به المصنف نقله فى «روضة الأحباب» عن أبى مشعر البلخى: وكان ذلك ـ أى مولده ـ لعشرين مضت منه من نَيْسَان، قاله الخوارزمى.. انتهى كلام «المواهب» و «شرحه».

قال الخفاجى فى «شرح الشفا»: وحملت به أمه آمنة نهارًا، وولد ليلاً فى شِعْب أبى طالب عند الجمرة الوسطى، ووافق مولده يوم عشرين من نَيْسَان

سنة اثنين وثمانين من التاريخ الإسكندرى.

وقيل: كان فى الساعة العاشرة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فكان كما قيل: ربيعٌ فى ربيعٍ فى ربيع.. انتهى.

وحكمة كونه ﷺ لم يولد فى ليلة الجمعة، ولا فى يومها، ولا فى رمضان، ولا فى بعض أشهر الحرم، مع أنها أفضل من غيرها؛ لئلا يتوهم أنه تَشَرَّف بالزمان، وليس الأمر كذلك؛ بل الزمان هو الذى يَتَشَرَّف برسول الله ﷺ، فخص بزمن غير شريف؛ ليحصل له الشرف به على التشريف، وهذا هو حكمة كونه دفن بالمدينة دون مكة.

وفى ولادته ﷺ فى فصل ربيع الذى هو أعدل الفصول وأحسنها رمزٌ إلى أن شريعته أعدل الشرائع وأحسنها، ولله در من قال:

يقولُ لنا لسانُ الحالِ عنه وقولُ الحقِ يَعْذُبُ للسَّميعِ
فوجهى والزمانُ وشهرُ وَضْعى ربيعٌ فى ربيعٍ فى ربيعِ

وقد اختص هذا الشهر بهذه المنقبة العظيمة التى فاق بها على سائر الشهور، وفاز بهذه الكرامة الكبرى التى صار بها مذكوراً على مر الدهور، ولقد أجاد من قال:

لهذا الشهر فى الإسلام فضلٌ ومنقبةٌ تفوقُ على الشهورِ
فمولودٌ به واسمٌ ومعنى وآياتٌ بَهَرْنَ لدى الظهورِ
ربيعٌ فى ربيعٍ فى ربيع ونورٌ فوق نورٍ فوق نورِ

والراجح أيضًا من الأقوال فى عام ولادته ﷺ ويومها: أنها بعد مضى خمسين يومًا على المشهور (من عام الفيل) أى من يومه كما فى «المنح» وغيره.

وفى «المواهب»: فالأكثرون على أنه ولد عام الفيل، وبه قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه وقال: كل قول يخالفه وهم. لكن قال مُغْلَطاى: فيه نظر. قال الزرقانى: يعنى لكثرة الخلاف.

وتقدم عن الحافظ ابن كثير فى سرد الأقوال المختلفة فى عام الولادة أنه المشهور عند الجمهور، قال: ووقع عند البيهقى والحاكم عن ابن عباس قال: «ولد ﷺ يوم الفيل»[1] لكن المراد مطلق الوقت لقول يحيى بن معين[2]: يعنى عام الفيل.. انتهى. كما يقال يوم الفتح، ويوم البدر. ويحتمل حقيقة اليوم فهو أخص من الأول وبه صرح ابن حبان فى «تاريخه» فقال: ولد عام الفيل فى اليوم الذى بعث فيه الطير الأبابيل على أصحاب الفيل، ذكره الحافظ فى «شرح الدرر»، وفى «النعمة الكبرى».

وكان مولده ﷺ عام الفيل كما رواه الترمذى وغيره، والحاكم وصححه، وهو المراد بيوم الفيل فى رواية؛ إذ اليوم يطلق ويراد به مطلق الوقت.

قال فى «المنهج الأعدل»: أقول: والذى تلخص من الأقوال المحكية فى عام الولادة الشريفة خمسة عشر قولاً منها قول واحد بأنها قبل الفيل، وباقيها متفقة كلها على أنها كانت بعده، وإنما الاختلاف بين قائلها فى قدر المدة الفاصلة بين وقت الفيل ووقت الولادة، وهل مقدرة بالأيام والأشهر، أو السنين، فتأمله والله أعلم.. وقد تقدم تحرير ذلك.

* * *

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ١٠٣)، أبو نعيم فى الدلائل ص (١٠١)، ابن هشام فى السيرة (١/ ١٥٩).

(٢) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد المرى، أبو زكريا، من أئمة الحديث، ومؤرخى رجاله، قال عنه الإمام أحمد ابن حنبل: أعلمنا بالرجال، عاش ببغداد، وتوفى بالمدينة سنة (٢٣٣ هـ) وله مؤلفات منها: التاريخ والعلل، والكنى والأسماء. وفيات الأعيان (٢/ ٢١٤).

[قصة إهلاك أصحاب الفيل]

ثم أشار المصنف إلى قصة الفيل بقوله: (الَّذى صَدَّهُ اللهُ) أى منعه (عَنِ) الوصول والبعث فى (الحَرَمِ) المحترم (وَحَمَاهُ) أى حفظه منه ومن أصحابه، كما قصّ الله سبحانه وتعالى علينا من خبرهم فى قوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [1].

وذلك أن أبرهة بن الصباح الأشْرَم ملك اليمن من قبل أصْحَمَة النجاشى - وكان نصرانيًا - رأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج، فقال: أين يذهبون؟ فقيل: يحجون بيت الله بمكة. قال: وما هو؟ قيل: من الحجارة. فقال: والمسيح، لأبنين لكم بيتًا خيراً منه، فبنى لهم كنيسة لم يُر مثلها فى زمانها، وجعل أرضها من الرخام الأسود، والأحمر، والأصفر، كان قد نقلها من قصر بلقيس، وركَّبَ فيها صلبانًا من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًا، واتساعها باهرًا، وحلاّها بالذهب والفضة وأنواع الجواهر، ثم كتب إلى النجاشى أنى قد بنيت لك كنيسة لم يُبْن مثلها لملك كان قبلك وأريد أن أصرف اليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشى غضب رجل من كِنَانة، فخرج حتى أتى الكنيسة فتغوط فيها ولطخ قبلتها بالعَذِرَة فلحق بأرضه، فأغضب ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وكتب إلى النجاشى يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه فيله، فلما قدم إليه الفيل بعث رجلاً كان عنده إلى بنى كِنَانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة، فقتلت بنو كِنَانة ذلك الرجل، فزاد أبرهة ذلك غضبًا، فأمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم خرج فى ستين ألفًا ومعه الفيل حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نُفَيْل بن حبيب

(١) سورة الفيل: ١.

الخَثْعَمى[1] فى قبيلتى «خَثْعَم» و «نَاهِش» ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزم نفيل وأصحابه، وأتى به أسيرًا إلى أبرهة، فلما همّ بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب، فخلّى سبيله وخرج معه يدله حتى أتى «المُغَمَّس» بضم الميم الأولى وفتح الغين المعجمة وتشديد الميم الثانية مفتوحة أو مكسورة.

فلما نزل به بعث رجلاً من الحبشة على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تِهَامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المُطَّلب بن هاشم، فهموا بقتاله ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوه، وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قل: إن الملك يقول: إنى لم آت لحربكم؛ إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لحرب؛ فلا حاجة لى بدمائكم، فإن لم يرد حربى فأتنى به.

فلما دخل مكة وسأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المُطَّلب بن هاشم، فجاءه وأخبره بما أمره به أبرهة، فقال له عبد المُطَّلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم - عليه السلام - فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، ثم قام وانطلق معه إلى أبرهة، فلما وصل إلى قريب من أبرهة أمر بإدخاله على الفيل أوّلا؛ إرهابًا له، فأدخلوه عليه.

وكان الفيل المذكور لا يسجد لأحد إلا للنجاشى، فحين رأى عبد المُطَّلب سجد له. وذكر بعضهم: أن نور النبى ﷺ كان فى ظهر عبد المُطَّلب وأنه استدار ذلك النور فى وجهه يومئذ، وأن الفيل لما نظر إلى وجه عبد المُطَّلب برك كما يبرك البعير، وخرّ ساجدًا، وأنطق الله الفيل وقال: السلام على النور الذى فى وجهك. وفى لفظ: فى ظهرك. فأخبروا أبرهة بذلك فوقع فى نفسه

---

(1) هو نفيل بن حبيب الخثعمى، شاعر جاهلى، يلقب بذى اليدين، كان من أدلة أبرهة الحبشى فى زحفه على مكة. الأعلام (٨/ ٤٥).

شيء منه.

وكان عبد المُطَّلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما دخل على أبرهة ألقيت له الهيبة فى قلبه فأجلَّه وأعظمه عن أن يجلسه تحته، فنزل عن سريره وأجلسه بجنبه على بساطه ثم قال لترجمانه: سله عن حاجته. فقال: حاجتى أن يرد إلىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى. فلما قال ذلك قال له أبرهة: قل له: لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى؛ أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آباك قد جئت لهدمه ولا تكلمنى فيه. قال: إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربًا سيمنعه. قال: ما كان ليُمنَع منى. قال: أنت وذاك. فردَّ عليه إبله، وانصرف عبد المُطَّلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شِعْب الجبال، ثم قام عبد المُطَّلب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنوده، وأخذ عبد المُطَّلب بحلقة باب الكعبة وهو يقول:

يا ربِّ لا أرجو لهم سِوَاكَ ... يا ربِّ فامنع منهمُ حمَاكَا

إنَّ عدوَّ البيت من عَادَاكَا ... إنهم لن يقهروا قُوَاكَا

ثم أرسل عبد المُطَّلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش حتى طلع جبل «ثَبِير»، فاستدار دائرة غرة رسول الله ﷺ فى جبهته كالهلال، واشتد شعاعها على البيت الحرام كالسراج، فلما نظر عبد المُطَّلب ذلك قال: يا معشر قريش، ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر فوالله ما استدار هذا النور منى إلا أن يكون الظفر لنا، فرجعوا متفرقين.

والظاهر كما تقدم عن ابن حجر: أن الله أكرم عبد المُطَّلب فاحدث فيه ثانيًا نوراً آخر أوجده فى صلبه، وأطلع الفيل وغيره عليه أو أثره لما تقدم من أنه انتقل إلى عبد الله، ومنه إلى آمنة؛ لأنه ﷺ ولد عام الفيل كما تقدم.

ثم إن أبرهة أرسل رجلا يتعرف حال القوم، فلما نظر وجه عبد المُطَّلب خضع وخرَّ مغشيًا عليه، فلما أفاق سجد لعبد المُطَّلب وقال: أشهد أنك سيد

قريش. فقال عبد المُطَّلب: يا معشر قريش، لا يصل إلى هدم هذا البيت؛ لأن له ربا يحميه.

ثم لما تهيأ أبرهة لدخول مكة وهيأ فيله ـ وكان اسمه محمودًا، وكنيته أبو العباس وقيل: أبو الحجاج ـ قام نُفَيْل بن حبيب[1] إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمودًا أو ارجع راشدًا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه، فبرك. فضربوه فى رأسه بالطَّبَرْزين[2] ليقوم فأبى، فأدخلوا مَحَاجن[3] لهم فى مراقِّه[4] فبزَّغوه[5] بها ليقوم فأبى، فوجَّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يُهَرْوِل[6]، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك.

وأورد عليه: بأن الفيل ليس له مفصل فى ركبتيه حتى يكون منه ذلك.

قال السهيلى: يحتمل أن يكون بروكه سقوطه إلى الأرض لما جاءه من أمر الله، ويحتمل أنه فعل فعل البارك: وهو الذى يلزم موضعه ولا يبرح، فعبر بالبروك عن ذلك.

وقال فى «إنسان العيون»: وقد سمعت من يقول أن الفيلة صنفان، صنف منها يبرك كما يبرك الجمل، قال ابن الصلت:

إن آيات ربنا بينات ... ما يمارى بهن إلا كفور

جلس الفيل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور

ثم أرسل الله عليهم الطيور الأبابيل؛ أى الجماعات المتفرقات أمام كل جماعة طائر أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق، من جهة البحر، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجر فى منقاره، والآخران فى رجليه، وكانت أمثال العدس. وقيل: كانت أكبر من العدس ودون الحمصة، وكان الحجر يصيب

(١) وقيل هو: نفيل بن عبد الله بن جزء بن عامر (الروض الأنف ١/ ٤٥).

(٢) الطَّبَرْزين: آلة مُعَقَّفَة من حديد.

(٣) المحاجن: جمع محجن وهى عصًا معوجة وقد يجعل فى طرفها حديد.

(٤) مَرَاقُّه: أسفل بطنه.

(٥) بزَّغوه: أى شرطوه بالحديد الذى فى تلك المحاجن.

(٦) يُهَرْوِلُ: يسرع.

رأس الرجل فيخرج من دُبُره أو من أسفل مركوبه إن كان راكبا، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه المقتول به، وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا ومن عصاه غوى.

وجلس عبد المُطَّلب فى مكان عال ينظر ما يصنع أبرهة، فمرت عليه تلك الطير فقيل ما هى بنجدية ولا يمانية، بل هى طير غير مؤنسة، بيضاء قدر اليعاسيب، جمع يعسوب وهى أم النحل.

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها مثلها.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها طير بين السماء والأرض تعشش وتفرخ».

وعن ابن عباس: كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكُفّ كأكُفّ الكلاب.

وقال عكرمة: كانت طيراً خضراء خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، ولم تر قبل ذلك ولا بعده.

وقالت عائشة: هى أشبه شىء بالخطاطيف.

وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط: حمراء وسوداء. وقيل: غير ذلك. ولعلها كانت أنواعًا.

وكان عدد الطيور عشرين ألفًا، فكان كل طائر يقتل ثلاثة، فلم يرجع منهم أحد إلا وزير أبرهة أبو يكْسُوم ومعه طائر يطير فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة، فلما أتمها وقع عليه الحجر فخرّ ميتًا بين يديه.

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جاءوا ويسألون عن نُفَيْل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نُفَيْل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أين المَفَرُّ والإلهُ الطالِبُ والأشْرَمُ المغلوب ليس الغالبُ

وقال أيضا:

حمدتُ الله إذ أبصرت طيرًا وخفت حجـارةً تُلقى علَيْنَا
فكلّ القوم يسألُ عن نُفَيْلٍ كأنَّ عليه للحبشانِ دَيْنَا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل سهل، وأصيب أبرهة فى جسده بالجذام، وخرجوا به معهم، فتساقطت أعضاؤه وأنامله أنملة أنملة، وسال منه القيح والصديد والدم، وما مات حتى انشقّ قلبه، وكان كلما دخل أرضًا وقع منه عضو، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ليس عليه غير رأسه، فمات بها.

قال ابن إسحاق: لما رد الله الحبشة من مكة عظمت العرب قريشًا وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم، وكانت هذه القصة إرهاصًا لنبّوته عليه الصلاة والسلام.

ولما هلك أبرهة وتمزقت الحبشة بقيت تلك الكنيسة خربة، وسكنها الجن، فكان كل من تعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجن بسوء؛ لأنه كان بناها على اسم صنمين، واستمرت هكذا إلى زمن السفاح أول خلفاء بنى العباس، فبعث إليها جماعة من أهل الحزم والعزم والعلم فنقضوها حجرًا حجرًا، واندرست، فلله الحمد والمنة.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

[رضاعه ﷺ]

ولما فرغ المصنف رحمه الله تعالى من الكلام على ولادته ﷺ وما يتعلق بها من العجائب والغرائب، شرع يتكلم فى الرضاع وما يتعلق به من ذلك فقال:

(وَأَرْضَعَتْهُ) من الرضاع وهو امتصاص اللبن من الثدى (أُمُّهُ) نسبًا: آمنة بنت وهب (أَيَّامًا) قيل: ثلاثة. وقيل: سبعة. وقيل: تسعة. ووقع لبعضهم سبعة أشهر وهو وهم؛ كأنه اشتبه عليه سبعة أيام بأشهر، أو أنه تحريف من الناقل (ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ) أيامًا قلائل قبل قدوم حليمة (ثُوَيْبَةُ) مصغر ثوب مع زيادة تاء التأنيث فى آخره (الأَسْلَمِيَّةُ) أى المنسوبة إلى أَسْلم؛ بطن من أزد، وهى جرثومة من جراثيم قحطان، وقد صح أن النبى ﷺ قال: «أسلم سالمها الله»[1].

وثُوَيْبَةُ هذه هى (الَّتِى أَعْتَقَهَا) أى أخرجها عن الرق إلى الحرية (أَبُو لَهَبٍ) واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، كنى بذلك لتوقد لونه من الحسن، وهو أخو عبد الله والد النبى ﷺ، وكان كافرًا عاتيا شديد الأذى لرسول الله ﷺ حتى مات والعياذ بالله على ذلك، وكان موته بعد غزوة بدر الكبرى بليال رماه الله بالعدسة: وهى بثرة تخرج بالبدن تتشاءم بها العرب وأنها تعدى أشد العدوى، فلما رمى أبو لهب بها وأصابته فى رجله تباعد عنه بنوه، فبقى ثلاثة أيام ميتًا لا يقرب جنازته أحد، فلما خافوا السُّبَّةَ: أى العار، دفعوه بعود فى حفرته، ثم قذفوه بالحجارة، ودفن بأعلى مكة. وذكر ابن إسحاق: أنهم لم يحفروا له ولكن أسندوه إلى حائط، وقُذفت عليه الحجارة من خلف الحائط حتى وورى. وذكر أن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ

(1) أخرجه البخارى (٢/ ٣٣)، مسلم (فضائل الصحابة: ١٣٢)، أحمد فى مسنده (٢/ ٢٠)، البيهقى فى السنن (٢/ ٢٠٨)، الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٤٠)، الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٢٤١).

كانت إذا مرت بموضعه ذلك غطت وجهها. . انتهى.

(حِيْنَ وَافَتْهُ) أى جاءت سيدها أبا لهب (عِنْدَ مِيْلاَدِه) وقت ولادته (عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِبُشْرَاهُ) أى بالبشارة به ﷺ حيث أخبرته قبل غيرها بما يسره وهو حصول ولد لأخيه عبد الله؛ وذلك أنها قالت: أشعرت أن آمنة قد ولدت غلامًا لأخيك عبد الله. فقال لها: اذهبى فأنت حرة، كما فى «الروض»، هذا هو الصحيح.

وقيل: إنما أعتقها بعد الهجرة. قال الشامى: وهو ضعيف.

والجمع بأنه أعتقها حينئذ ولم يظهره إلا بعد الهجرة مما لا ينبغى؛ فإنه لما هاجر كان عدوه فلا يتأتى منه إظهار أنه كان فرح بولادته، وأيضًا فالقائل بالثانى لا يقول أنه أعتقها للبشارة بالولادة. وقد روى أنه أعتقها قبل ولادته بدهر طويل.

تنبيه

ما مر قريبًا من أنه كان كافراً عاتيًا شديد الأذى لرسول الله ﷺ حتى مات، وما قد نزل فى حقه من القرآن بذمه الذى لا ذم فوقه، لا يبعد ما تقدم فى مقدمة الكتاب من تخفيف العذاب عنه كل ليلة إثنين، وأنه يمص الماء من بين أصابعه بإعتاقه لثُوَيْبَة حين بشرته بولادة النبى ﷺ، وبإرضاعها له أى بأمره فلا يرد أنه ليس فعله حتى يجازى عليه، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [1] لأنه لم يُنَجِّهِم من النار، ولم يُدخلهم الجنة؛ كأنه لم يفدهم أصلا، أو لأنه هباء بعد الحشر وهذا قبله.

وقال السهيلى: هذا النفع إنما هو نقصان من العذاب وإلا فعل الكافر محبط بلا خلاف أى لا يجده فى ميزانه ولا يدخله الجنة. . انتهى.

وجوّز الحافظ تخفيف عذاب غير الكفر بما عملوه من الخير بناء على أنهم مخاطبون بالفروع.

---

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

وفى «التوشيح»[1] قيل: هذا خاص به إكرامًا للنبى ﷺ كما خفف عن أبى طالب بسببه (فَأَرْضَعَتْهُ مَعَ ابْنِهَا مَسْرُوحٌ) بفتح الميم وسكون السين المهملة فراء مضمومة فحاء مهملتين بينهما واو، قال البرهان: لا أعلم أحدا ذكره بإسلام. وقال الجلال السيوطى فى خصائصه الصغرى إنه لم يقف على إسلامه.

(وَأَبِى سَلَمَةَ) عبد الله بن عبد الأسد المخزومى كنى بابن له من أم سلمة التى صارت بعده من أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهن ـ.

وكان إرضاع ثُوَيْبَة لأبى سلمة بعد النبى ﷺ كما رواه ابن سعد، كذا فى كلام بعضهم. وقال غيره: والذى فى «المواهب» أنها أرضعته أيضًا معه ﷺ بلبن ابنها مَسْرُوح، وهو ظاهر عبارة المصنف ـ رحمه الله ـ.

وكان أبو سلمة هذا من أجلاء الصحابة، وأمه برة بنت عبد المُطَّلب عمة رسول الله ﷺ، مات فى حياة النبى ﷺ. وذكر بعضهم: أن أبا سلمة ـ رضى الله عنه ـ أول من يدعى إلى الحساب اليسير.

(وَهِى) أى ثُوَيْبَة (به) ﷺ (حَفِيَّةٌ) بفتح الحاء المهملة وكسر الفاء، مبالغة فى الإكرام والبر والإلطاف (وَأَرْضَعَتْ) ثُوَيْبَةَ (قَبْلَهُ) ﷺ عمه، أخا أبيه من أبيه (حَمْزَةَ) ابن عبد المطلب بن هاشم، أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء، كان ـ رضى الله عنه ـ شديداً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره، ولا يطمع طامع عند المخاشنة بكسره، أسلم فى السنة الثانية من البعثة كما جزم به فى «أسد الغابة» و«الإصابة» وقيل: فى السادسة، وفيه نظر. وكان ابتداء إسلامه حمية أفضت به إلى السعادة الأبدية، ضرب يوم إسلامه رأس أبى جهل بقوس كانت فى يده فشجّه شجّة منكرة، ثم قال له: أتسب محمداً وأنا على دينه؟! وذلك أن أبا جهل نال من النبى ﷺ وسبه وأذله كل ذلك لا يجيبه ﷺ، فغضب حمزة لما أُخْبِرَ بذلك ففعل بأبى جهل ما فعل، وأصلحت

(١) لعله يقصد «التوشيح على الجامع الصحيح» للسيوطى (مخطوط).

قريش بينهما مخافة الشر، فاستوثقت بإسلامه ـ رضى الله عنه ـ عُرى الدين، وذل لوطئته عتاة المشركين، والنبى ﷺ إذ ذاك مختف بدار الأرقم، فانطلق إلى النبى ﷺ وأسلم، وقال للنبى ﷺ: يا ابن أخى أَظْهِرْ دينك، والله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنا على دينى الأول. وعزّ رسول الله ﷺ بإسلامه، وكفّ المشركون عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وأول لواء عقده النبى ﷺ كان له حين بعثه إلى سيف البحر من أرض جُهَينة، وكان ـ رضى الله عنه ـ أسنَّ من النبى ﷺ بسنتين على الصحيح.

وفى قوله رحمه الله: **(الَّذِى حُمِدَ)** بالبناء للمفعول **(فِى نُصْرَةِ الدِّيْنِ)** الحنيفى المحمدى **(سراه)** نائب الفاعل، قال بعضهم: ويجوز أن يكون الجار والمجرور نائب الفاعل إشارة إلى ما ورد أنه شهد بدراً مع النبى ﷺ، وقاتل قتالاً شديداً وهو معلم بريشة نعامة، وأبلى فيها بلاءً عظيمًا، وقاتل بسيفين بين يدى رسول الله ﷺ، وبدّد صناديد الكفر، وفعل بأهل الشرك الأفاعيل، وخرج يوم أحد مع النبى ﷺ فكان يهد الأبطال من المشركين هدّاً مثل الجمل الأورق والأسد الضارى، ما يقوم له شىء، كيف وقد قال ﷺ: «والذى نفسى بيده إنه لمكتوب عند الله عز وجل فى السماء السابعة حمزة أسد الله وأسد رسوله».

وقتل واحداً وثلاثين رجلاً؛ كذا قاله الإمام النووى ـ رحمه الله تعالى ـ ولم أقف على مستنده فى ذلك، والذى رأيته فى كتب السير أن قتلى كفار قريش يوم أحد ثلاثة وعشرون. وقيل: اثنان وعشرون، فليحرر. وقد يقال لا منافاة لاحتمال ما فى السير على عدد من وجد منهم مقتولاً يومئذ غير الذين لم يعلم بقتلهم بأن حملهم المشركون معهم ودفنوهم فى أماكن لم يطلع عليهم المسلمون، أو أن المراد: أن جميع من قتله حمزة فى حروبه من المشركين. والله أعلم.

ثم عثر عثرة وقع منها على ظهره ببطن الوادى عند جبل الرماة، فانكشف

الدرع عن بطنه، فزرقه وحشى بن حرب[1] مولى جبير بن مطعم بحربة فأكرمه الله بحربة الشهادة على يده فى يوم السبت منتصف شوال سنة ثلاث أو أربع من الهجرة عن سبع وخمسين سنة، وقيل: تسع وخمسين، وقيل: أربع وخمسين سنة. ومثَّل به المشركون، وبقروا بطنه. ولما وقف ﷺ ورأى ما به من التمثيل نظر إلى شىء لم ينظر إلى شىء كان أوجع لقلبه منه، وغاظه ذلك وقال: «لن أصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا» وبكى ﷺ وشهق حتى كاد يبلغ الغشى، وقال ﷺ: «لئن أظفرنى الله بقريش لأمثلن بسبعين منهم»، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [2] الآيات إلى آخر السورة. فقال ﷺ «بل نصبر» وكفَّر عن يمينه [3].

وعن سعيد بن المسيب كان يقول: كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو حتى أنه مات غريقا فى الخمر. رواه الدارقطنى على شرط الشيخين. وهذا ينافى الحكم بعدالته الواجب له كباقى الصحابة، هكذا قاله الحفنى.

قال فى «إنسان العيون»، وفى «الخصائص الصغرى» نقلاً عن «شرح جمع الجوامع»: أن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كلهم لا يفسقون بارتكاب ما يفسق به غيرهم.. انتهى.

(وَكَانَ ﷺ يَبْعَثُ) أى يرسل **(إِلَيْهَا)** إلى ثُوَيْبَة على ما عُرِف من مكارم أخلاقه ﷺ ووفائه بأداء الحقوق **(من المدينة)** الشريفة بعد هجرته إليها **(بِصِلَة)** بكسر المهملة أى عطية **(وَكُسْوَة)** بضم الكاف وكسرها أى ثياب، وهى وإن كانت داخلة فى عموم الصلة لكن نص عليها لبيان أن الكسوة كانت ترسل إليها ثيابًا لا قيمتها؛ حتى لا تحتاج إلى معاناة اشترائها مبالغة منه ﷺ فى

---

(١) هو وحشى بن حرب الحبشى، أبو دسمة مولى «بنى نوفل»، صحابى، من سودان مكة، كان من أبطال الموالى فى الجاهلية، وهو قاتل حمزة عم النبى ﷺ يوم أحد، ثم وفد على النبى ﷺ مع وفد أهل الطائف بعد أخذها، وأسلم، وشهد اليرموك وشارك فى قتل مسيلمة الكذاب، وسكن حمص ومات بها فى خلافة عثمان بن عفان، وذلك سنة (٤٥ هـ). الأعلام (٨/ ١١١).

(٢) سورة النحل: ١٢٦.

(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٨٨).

إكرامها ومجازاتها (هِيَ بِهَا) أى بتلك الصلة (حَرِيَّةٌ) جديرة وحقيقة؛ بسبب رضاعها وتربيتها له، ولم يزل ﷺ محافظًا على إيصال ذلك إليها (إِلَى أَنْ أَوْرَدَ هَيْكَلَهَا) جثتها مفعول أول لأورد وقوله: (رَائِدُ الْمَنُونِ) فاعله والمعنى: إلى أن أورد الموت جثتها (الضَّرِيحَ) القبر مفعول ثان لأورد وقوله: (وَوَارَاهُ) غطّاه وستره، وكان موتها سنة سبع عقب خيبر.

وقد اختلف العلماء فى إسلامها فـ (قيل:) إنها ماتت (عَلَى دِينِ قَوْمِهَا الفِئَةُ) الفرقة (الجَاهِلِيَّة، وَقِيلَ:) قد (أَسْلَمَتْ) قال أبو نعيم: لا أعلم أحدا ذكره إلا ابن منده[1]. وقال ابن الجوزى: لا نعلم أنها أسلمت[2]. والبرهان فى «النور» لم يذكرها أبو عمر فى الصحابة. وقال الذهبى: يقال أنها أسلمت، وهذا يقتضى أن الراجح عنده أنها لم تسلم. قال النور الحلبى: قال الحافظ ابن حجر: وفى «طبقات ابن سعد» ما يدل على أنها لم تسلم لكن قد (أَثْبَتَ الخِلاَفُ) فى إسلامها وعدمه الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى (ابْنُ مَنْدَه) بفتح الميم وسكون النون وفتح الدال المهملة آخرها هاء ساكنة، الأصبهانى الحافظ الجوّال ختام الراحلين وفرد المكثرين مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف، سمع ألفا وسبعمائة، وعاد من رحلته وكتبه أربعون حملا. قال المستغفرى: ما رأيت أحفظ منه، مات سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

(وَحَكَاهُ) فيه إشارة إلى رد من أنكر إسلامها: كالدمياطى، وابن حبان النحوى؛ فقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربى فى «سراج المريدين»: أنه لم ترضعه مرضعة إلا وأسلمت، ونقله الجلال السيوطى عن بعضهم.

(ثُمَّ) بعد إرضاع ثُوَيْبَة (أَرْضَعَتْهُ) ﷺ (الفَتَاةُ) الشابة (حَلِيْمَةُ) بنت أبى ذُؤَيْب ـ بمعجمة وموحدة ـ مصغر ذئب واسمه عبد الله بن الحارث وهو عبد

(١) هو محمد بن إسحاق بن محمد الأصفهانى، أبو عبد الله، محدث حافظ مؤرخ، كانت وفاته فى أصبهان سنة (٣٩٥ هـ). معجم المؤلفين (٩/ ٤٢).

(٢) الوفا ص (١٠٤).

العزَّى بن شِجْنَة ـ بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون ـ بن جابر بن رِزَام ـ بكسر المهملة ثم المنقوطة ـ بن ناصرة بن فُصَيَّة[1] بن سعد بن بكر بن هوازن. هكذا فى «الاستيعاب». وقيل فى نسبها غير ذلك: ابن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر أحد أجداد النبى ﷺ، وتكنى حليمة بأم كبشة اسم بنت لها من الحارث بن عبد العزَّى كما فى «فتح البارى».

لطيفة

ذكروا أنه لما ولد ﷺ قيل: من يكفل هذه الدرة اليتيمة التى لا يوجد لمثلها قيمة؟ قالت الطيور: نحن نكفله ونغتنم خدمته العظيمة، وقالت الوحوش: نحن أولى بذلك ننال شرفه وتعظيمه، فنادى لسان القدرة: أن يا جميع المخلوقات إن الله قد كتب فى سابق حكمته القديمة أن نبيه الكريم يكون رضيعًا لحليمة الحليمة.

(السعدية) نسبة لجدها السابع سعد بن بكر؛ لأنه أشهر آبائها وبه عُرفت القبيلة بأسرها، وبنو سعد من أكرم العرب وأفصحهم، وحليمة من أوسطهم ولذا اختارها الله تعالى لرضاعه ﷺ؛ لأن الرضاع يؤثر فى الطباع، وكان من عادة نساء قريش دفع أولادهن إلى المراضع من غير قبيلتهم؛ لينشأ الولد عربيا فيكون أنجب ولسانه أفصح كما فى الحديث: «أنا أعربكم؛ أنا من قريش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر»[2].

وقيل : ليتفرغ النساء للأزواج. وقيل : لأنهم كانوا يستوخمون مكة على الأطفال. وقيل: لأنهم كانوا يرون عارًا على المرأة أن ترضع ولدها.

(وَكَانَ قَدْ رَدَّ كُلٌّ مِنَ الْقَوْمِ) الذين يريدون اتخاذ المراضع لأولادهم ـ وهم

(١) تصغير فصاه وهى: النواة من التمر.

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١/ ٧١)، وله عدة روايات أوردها العجلونى فى كشف الخفا (١/ ٢٣٢)، والحديث حول تصحيحه كلام. انظر: الأسرار المرفوعة ص (١١٦)، المغنى عن حمل الأسفار (٢/ ٣٦٤)، مناهل الصفا ص (١٢).

أهل مكة (ثَدْيَهَا لِفَقْرِهَا، وَأَبَاهُ) إذ الفقر يستلزم قلة الأكل المستلزم عادة لقلة اللبن المضرة بالرضيع غالبًا، وما تُعْطَاه من الجعل ربما تصرفه فى حوائجها الخارجة فلا يفيدها فى دفع الجوع الذى هو المحذور.

قال فى «إنسان العيون»: أقول: لم أقف على رواية فيها أن حليمة أبتها الرضعاء لفقرها، وكأن بعضهم أخذ ذلك من قولها: «فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره»(1) ولا دلالة فى غيره.. انتهى.

(فَأَخْصَبَ عَيْشُهَا) من الخِصْب بكسر أوله وهو ضد الجَدْب؛ أى اتسع قوتها وقوت دوابها بسبب إرضاعها له ﷺ، وحصلت البركة والنماء فى رحابها ببركة حلوله ﷺ فى رحلها وديار قومها (بَعْدَ) أن كانت الأرض قَفْرَة، والأشجار يابسة من شدة (المَحْلِ) بفتح الميم وسكون الحاء المهملة مصدر مَحَلَ من باب قطع ضد الخِصْب؛ أى الضيق والقحط وعدم البركة، فى نفس نهار أخذته قبل دخول ليلة اليوم الثانى كما يفيده قول المصنف: (قَبْلَ الْعَشِيَّةِ) أى عشية ذلك اليوم، والعشية: أول الليل كذا فى كلام بعضهم، والذى فى «القاموس»: والعشى والعشية آخر النهار، وعلى كل فالمراد: أنه حصل لها ذلك قبل دخول ليلة اليوم الثانى إذ لا مانع من مبادرة ذلك لها لأجله ﷺ، ويؤيد هذا المقصود ما سيأتى عن حليمة (وَدَرَّ) بفتح المهملة؛ أى امتلأ وسال، يقال: درَّ الضرع باللبن يُدر بالضم درورا، وأدرَّت الناقة بلبنها فهى مُدر (ثَدْيَاهَا) تثنية الثدى وهو خاص بالأنثى، وقيل: عام (بِدُرٍّ) بضم الدال وشد الراء جمع دُرة وهى اللؤلؤة الثمينة (دَرٍّ) بفتح الدال وشد الراء؛ أى بلبن كالدر فى صفاء البياض، فالإضافة من إضافة المشبه به للمشبه كما فى لجين الماء (لَبَنَهُ) بفتحات، وبابه ضرب كما فى «المختار» (الْيَمِيْنَ) أى سقاه اللبن الثدى اليمين، وما وقع فى بعض النسخ أَلْبنه بزيادة

(1) أخرجه أبو يعلى (2/ 332)، الطبرانى فى الكبير (24/ 545)، البيهقى فى دلائل النبوة (1328).

همزة فى أوله وسكون اللام فتحريف إذ لا يتأتى مزيده هنا (**منهما**) أى من ثديى حليمة (**وَلَبَنُ الآخَرُ**) أى الأيسر (**أَخَاهُ**) عبد الله بن الحارث السعدى.

وفى كلام المصنف إشارة إلى قول حليمة ـ رضى الله عنها ـ: وأعطيته ثديى الأيمن، فأقبل الثدى بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى. وكانت تلك حالته بعد.

قال فى «المواهب» و «شرحه» للعلامة الزرقانى: قال أهل العلم فى حكمة امتناعه ﷺ من الثدى الأيسر: ألهمه الله تعالى أن له شريكًا، فألهمه العدل، فلذا امتنع وأخذ الأيمن؛ لأنه كان يحب التيامن فى أموره كلها. قال بعضهم: وفاعل قوله لبنه ضمير مستتر عائد إلى الله تعالى، ومفعوله البارز يعود إلى النبى ﷺ، وكذا فاعل قوله ولبن الآخر: أى سقى الله النبى ﷺ لبن الثدى الأيمن منهما، وأعطى لبن الثدى الآخر وهو الأيسر أخاه، أو فاعله اليمين أى سقى الثدى اليمين اللبن للنبى ﷺ.. انتهى.

(**وأَصْبَحَتْ**) صارت (**بَعْدَ الهُزَالِ**) بضم الهاء؛ الضعف الحاصل لها من الفاقة والجوع قوية. قال فى «القاموس»: الهُزال بالضم: نقيض السمن، هزل كعنى هزالاً، وهزل كنصر هزلاً ويضم.. انتهى.

وأما نقيض الجد: فبابه ضرب وفرح كما فيه أيضًا، وليس مرادًا هنا كما هو معلوم، وباب الأول أيضًا ضرب كما فى «المختار» وغيره (**وَ**) بعد (**الفقْرِ [والهُوَالِ]**) قلة ذات اليد (**غَنِيَّه**) ذات غنى (**وَسَمِنَتْ الشَّارِفُ**) بشين معجمة فألف فراء مكسورة ففاء؛ الناقة المسنة الهرمة. وعن الأصمعى: يقال للذكر والأنثى شارف، والمراد هنا: الأنثى لا غير، والجمع الشُرُف بضم الراء وتسكن (**لَدَيْهَا**) عندها (**وَالشِّيَاهُ**) جمع شاة، وهى تطلق على كلا نوعى الغنم من الضأن والمعز ذكوراً وإناثًا.

وروى أن حليمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: ثم قدمنا أرض بنى سعد، ولا أعلم أرضا أجدب منها، وكانت غنمى تروح شباعًا لبنا فنحلب ونشرب وما

يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن ولم يجدها فى ضرع حتى يؤمر الرعيان أن تسرح غنمها حيث تسرح غنمى، فتروح أغنامهم جياعًا ما تَبِضُّ بقطرة لبن، وتروح أغنامى شِبَاعًا لُبَّنًا[1]، فلم نزل نتعرف من بركته الزيادة والخير حتى مضت سنتاه.

(وَانْجَابَ) بالنون والجيم؛ أى زال وانقطع، وفى بعض النسخ: التَمَّ بفتح التاء المثناة فوق والميم المشددة والمعنى واحد (عَنْ جَانِبِهَا) أى عنها وعن جهتها (كُلُّ مُلِمَّةٍ) بضم الميم الأولى وفتح الثانية مشددة بينها لام مكسورة اسم فاعل ألمَّ بشدَ الَميم؛ أى نازلة من نوازل الدنيا (وَ) كل (رزيَّه) بمعناها (وَطَرَّزَ) بفتح الطاء المهملة والراء المشددة وتخفف قال فى «القاموس»: الطِراز بالكسر: علم الثوب، وطرزه تطريزًا: علمه فتطرز، والمراد: حسن وزين (السَّعْدُ) الخير وحسن الحال والبركة.

(بُرْدَ) بضم الموحدة وسكون الراء نوع من الأكسية ملفق من شقتين، وإضافته إلى (عَيْشِهَا) من إضافة المشبه به للمشبه، والعيش ما يكون به الحياة أو نفس الحياة والظاهر أن المراد الأول (الهَنِىِّ) بفتح الهاء وكسر النون وشد الياء؛ أى اللذيذ سليم العاقبة ومحمودها (وَوَشَّاهُ) بالواو والشين المعجمة من الوشى؛ وهو نقش الثوب وتحسينه فالمراد من طرز ووشى شىء واحد وهو التحسين والتزيين، والمراد من ذلك: أن الله تعالى أزال عنها المَحْل والجَدْب وأبدلها منهما الخِصْب والخير الكثير؛ وذلك لأن الجزاء من جنس العمل.

وأصل ذلك ما رواه ابن إسحاق وغيره عن حليمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ كما قدمنا عنها البعض قريبا ـ قالت: قدمت مكة فى نسوة من قومى فى سنة شَهْبَاء[2]، على أتان[3] لى، ومعى صبى، وشارف لنا ما تَبِضُّ[4] بقطرة لبن،

---

(١) لُبَّنًا: أى كثير اللبن.

(٢) تعنى سنة القحط والجَدْب؛ لأن الأرض تكون فيها بيضاء.

(٣) الأتان: الأنثى من الحُمُر.

(٤) ما تَبِضُّ: ما تنشغُ ولا ترشحُ، ومن رواه ما تبصُّ فمعناه: لا يبرقُ عليها أثر لبن، من البصيص وهو البريق واللمعان.

ولا لبن بثديي فلا ينام صبيي من الجوع؛ لأنه لا يجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه. قالت: وما عَلِمْتُ امرأة منا إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل يتيم، فوالله ما بقي من صَواحبي امرأة إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صَوَاحبي وليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه. فذهبتُ فإذا به مدرج في ثوب صوف، أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحته حريرة خضراء، راقد على قفاه يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويدًا فوضعت يدي على صدره ﷺ فتبسم ضاحكًا وفتح عينيه ونظر إليَّ، فخرج من عينيه نورٌ حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر؛ فقبلته بين عينيه وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل الثدي عليه بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى ـ وكانت تلك حالته بعد ـ قالت: ثم أخذته بما هو إلى أن جئت به رحلي، فقام صاحبي ـ يعني زوجها ـ إلى شارفنا تلك فإذا بها حَافل[1]، فحلَب فشرب وشربتُ حتى روينا، وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا :يا حليمة، والله إني لأراك أخذت نسمةً مباركة، ألم ترى إلى ما بِتنا به الليلة من البركة والخير حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيرا. قالت: فودعت النساء بعضهن بعضًا، وودعت أنا أم النبي ﷺ ثم ركبت إتاني وأخذت محمدًا ﷺ بين يديَّ. قالت: فنظرت إلى الأتان وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجدات ورفعت رأسها إلى السماء، ثم مشت حتى سبقت دواب الناس الذين كانوا معي، وصار الناس يتعجبون مني ويقلن النساء لي وهن ورائي: يا بنت أبي ذؤيب أهذه إتانك التي كنت عليها وأنت جائية معنا ترفعك طورًا وتخفضك أخرى؟! فأقول: تالله إنها هي، فيتعجبن منها ويقلن: إن لها شأنًا عظيمًا. قالت: فكنت أسمع أتاني تنطق وتقول: والله إن لي شأنًا ثم شأنًا، بعثني الله بعد موتي، ورد لي سمني بعد هزالي، ويحكن

(١) الحافل: الممتلئة الضّرع من اللبن.

يا نساء بنى سعد إنكن لفى غفلة، وهل تدرين من على ظهرى، خيار النبيين وسيد المرسلين، وخير الأوّلين، وحبيب رب العالمين.

قالت: ثم قدمنا منازل بنى سعد، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدبَ منها، فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به ﷺ شبَاعًا لُبَّنا، فنحلب ونشرب وما يَحْلب إنسانٌ قطرةَ لبن ولا يجدها فى ضَرْع، حتى كانت الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم: اسرحوا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تَبِضُّ بقطرة لبن، وتروح أغنامى شِبَاعًا لبنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته.

فلله درها من بركة كثرت بها مواشى حليمة ونمت، وارتفع قدرها به وسمت، فلم تزل حليمة تتعرف الخير والزيادة، وتفوز منه بالحسنى وزيادة، وما أحسن ما قال:

لقد بلغت بالهاشمى حليمة مقامًا علا فى ذروة العزِ والمجدِ
وزادت مواشيها وأخصب ريعها وقد عمَّ هذا السعدُ كل بنى سعدِ

وذلك أن حليمة قالت: لما دخلتُ منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممْنا منه ريح المسك، وأُلقيت محبتُه فى قلوب الناس حتى إن أحدهم كان إذ نَزَلَ به أذى فى جسده أخذ كفَّه ﷺ فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعًا، وكذا إذا اعتلَّ لهم بعيرًا أو شاة فعلوا ذلك.

قالت حليمة: وكان ينزل عليه ﷺ كل يوم نورٌ كنور الشمس ثم ينجلى عنه.

وجملة مرضعاته ﷺ عشرة نظمها بعضهم فى قوله:

إن رمت تحفظ مرضعات المصطفى خذهن بالترتيب فى التبيانِ
أمٌّ له وكذا ثُوَيْبَة يا فتى وحليمةٌ نالت رضى الرحمنِ
وكذلك امرأةٌ لحمزة أرضعتْ وثلاث أبكارٍ روى فى الشانِ
مع أم فَرْوة وأم أيمن بعدها مع خَوْلة شَرُفْنَ بالعدنانِ

تنبيه

اقتصر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من المرضعات على أمه وثُوَيْبَة وحليمة للنزاع فى غيرهن، ولم يستقل بإرضاعه غير ثُوَيْبَة وحليمة، ولم يتصف منهن بالاستقلال سواهما، وثُوَيْبَة وإن قلت أيام رضاعها مستقلة به فيها، فأما أمه وإن أرضعته تلك المدة فهى فى معرض دفعه لمرضعته فلم تستقل به.

والذى ذكر أم أيمن من المرضعات: القرطبى، والمشهور أنها من الحَواضِن كالشيماء بنت حليمة.

والذى ذكر أن خَوْلَة من المرضعات : ابن الأمين[1]، وتبعه بعضهم ولعله اليعمرى[2]. قال الشامى: وهو وهم؛ لأنها إنما أرضعت ولده إبراهيم، ذكره ابن سعد، وابن عبد البر، وغيرهما، وهو الذى فى «الإصابة» بخطه.. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

---

(١) هو إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم، أبو إسحاق بن الأمين، مؤرخ أندلسى، من أهل قرطبة، ولد ومات بالأندلس (٤٨٩ ـ ٥٤٤ هـ) وله مؤلفات منها: «الإعلام من الخيرة الأعلام من أصحاب النبى عليه السلام». الأعلام (٧٩/١١).

(٢) هو: محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمرى، أبو الفتح، فتح الدين، مؤرخ، عالم بالأدب، من حفاظ الحديث، ولد بالقاهرة وتوفى بها (٦٧١ هـ) وله تصانيف عديدة منها: «عيون الأثر فى فنون المغازى والسير». فوات الوفيات (١٦٩/٢)، الأعلام (٣٤/٧).

(وكَانَ) ﷺ (يَشِبُّ) بكسر الشين المعجمة من باب ضرب (فِى اليَوْمِ) الواحد شبابًا يشبه فى نمو جسمه الشريف شباب (الصَّبِىِّ فِى الشَّهْرِ) الواحد، وذلك إنما هو (بِعِنَايَةٍ) أى إعانة (رَبَّانِيَّةٍ) بفتح الراء وشد الموحدة وكسر النون نسبة للرب تبارك وتعالى بزيادة الألف والنون على غير القياس، والمتبادر من كلام المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان يمشى ويتكلم فى اثنى عشر يومًا تقريبًا؛ لأنها بمنزلة السنة لغيره، وأنه كان يُفْصَل من الرضاع فى أربعة وعشرين يومًا؛ لأنها بمنزلة حولين لغيره، وأنه كان يقارب الحلم فى أربعة أشهر تقريبًا؛ لأنها بمنزلة العشر سنين لغيره، ولم أر ما يعضده، فلعل المراد من ذلك: أنه كان ﷺ يَشِبُّ شبابًا لا يَشِبُّه الغلمان كما يؤخذ من كلامه الآتى قريبًا، وقد وقع فى رواية ابن إسحاق كما فى «المواهب» و «شرحه» للزرقانى أنه كان ﷺ يَشِبُّ شبابًا لا يَشِبُّه الغلمان. هكذا مجملاً من غير تعيين.

(فَقَامَ) ﷺ (عَلَى قَدَمَيْه فِى ثَلَاثٍ) أى ثلاثة أشهر ـ كما فى الرواية ـ ولم يقل ثلاثة: لأن المعدود إذا حذف يجوز تذكيره مع المذكر، وتأنيثه مع المؤنث كما قالوه فى قوله ﷺ: «وأتبعه ستًا من شوّال» وإنما تلزم قاعدة العدد إذا ذكر المعدود (وَمَشَى فِى خَمْسٍ) أى خمسة (وَقَوِيتْ فِى تِسْعٍ) أى تسعة (مِنَ الشُّهُورِ) جمع شهر كما مر (بِفَصِيحِ النُّطْقِ قُوَاهُ) بضم القاف جمع قوة، وأصل ذلك ما روى كما فى «شواهد النبوة»: ولما صار ابن شهرين كان يتزحلف مع الصبيان إلى كل جانب، وفى ثلاثة أشهر كان يقوم على قدميه، وفى أربعة كان يمسك الجدار ويمشى، وفى خمسة حصلت له القدرة على المشى، ولما تم له ستة أشهر كان يسرع فى المشى، وفى سبعة أشهر كان يسعى ويعدو إلى كل جانب، ولما مضى عليه ثمانية أشهر شرع يتكلم بكلام فصيح، وفى عشرة أشهر كان يرمى بالسهام مع الصبيان[1].

(١) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(وَ) لما بلغ من العمر سنتين فصلته حليمة وقدمت به على أمه بمكة على عادة المراضع فى إتيانهن بالأولاد إلى أمهاتهم بعد تمام الرضاع، فأتت به موافقة لهن مع أنها كانت أحرص شىء على مكثه فيهم، فحاولت الرجوع به لتصل إلى مقصودها لما رأت من بركته ﷺ وقالت لأمه: لو تركته عندنا حتى يغلظ فإنا نخشى عليه وباء مكة. ولم تزل تتلطف بها وتناشدها حتى ردَّته معها، فرجعت.

* * *

[شق صدر النبى ﷺ مرة ثانية]

فبعد قدومها (شَقَّ) بآلة كما قال به جماعة منهم: المنذرى، والنووى، والسيوطى ـ رحمهم الله تعالى ـ وظاهر الروايات، ولا مانع منه. وقيل: بغير آلة. ولم يثبت أنه كان بسكين بيضاء مجلية (المَلَكَانِ) هما: جبريل، وميكائيل (صَدْرَهُ الشَّرِيفَ لَدَيْهَا) من ثُغْرَة نحره ـ بضم المثلثة وسكون الغين المعجمة ـ وهو الموضع المنخفض بين الترقوتين إلى نحو عانته كما فى البخارى، أو من عند المَفْرِق كمسجد وهو الموضع الذى يفترق فيه عظم الصدر وهو رأس المعدة إلى منتهى العانة كما فى رواية. وفى بعض الروايات الاقتصار على الصدر، ويجمع بأن المراد بالبطن الصدر. ولم يجد له ألمًا أصلاً كما قال ﷺ: «لم أجد له مسًّا»، ولا ينافيه وجدانه منتقعًا كما فى رواية: «فأقبل وهو مُنْتَقَعُ [1] اللون» لجواز أنه من الفزع الحاصل من مجرد رؤية الملك وشقّ الصدر، ولعل هذا هو المراد بقوله فى «المنح»: ووقع له ﷺ من ذلك الشق نوع مشقة، وتقدم فى قول ختانه هنا على يد جبريل (وَأَخْرَجَا مِنْهُ) أى من صدره والمراد به القلب، فسماه باسم ما هو فيه من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه (عَلَقَةً) وهى قطعة دم جامدة سميت بذلك لأنها تعلق بما

(١) منتقع اللون: أى متغير.

تصيبه (دَمَوِيَّةً) وفى رواية: «مضغة سوداء» فقد تكون العلقة لكبرها تشبه المضغة. قال فى «المنح» وفى رواية صحيحة: «أنه أخرج منه عَلَقَتَان سوداوان» ولا ينافى ما ذكر أنه واحدة؛ لأن المراد بها الجنس على أن الشق تكرر كما يأتى، فلا بدع أنه ﷺ أخرج واحدة ثم ثنتان؛ لأن المراد المبالغة فى تطهيره وتكريمه وذلك يستدعى استقصاء تنظيف جوفه.. انتهى.

قال بعضهم: وهو كما تراه نصٌّ فى تكرار إخراج العَلَقَة. ويؤيده ما ذكره الحافظ الغيطى فى «قصته» من تأويل الأذى الذى أخرج من صدره الشريف ليلة الإسراء بها - أعنى العَلَقَة - لورود ما يشهد له فى بعض الروايات، وتعقبه بعضهم بقوله: وفيه أن إخراج العلقة مرتين فأكثر قد يتوقف فيه سيما مع قول الملك: هذا حظُّ الشيطان منك. والذى ينبغى أن يكون نزع تلك العَلَقَة إنما هو فى المرة الأولى التى كانت وهو صغير السن فى بنى سعد، والواقع فى غيرها إنما هو إخراج ذلك الأذى، وأنه غير تلك العَلَقَة، وأن المراد به ما يكون فى الجبلات البشرية، وتكرار إخراج ذلك الأذى استقصاء له ومبالغة، وذكر العلقة فى غير المرة الأولى وقول الملك: «هذا حظُّ الشيطان منك» وهم من بعض الرواة.. انتهى. وهو وجيه وإن قال بعضهم: غير صاف عن الإشكال، فتأمل.

وقد وقع له ﷺ هذا الشق مراراً: مرة فى حال صباه وهو عند حليمة، ومرة وهو ابن عشر أو نحوها، ومرة وهو فى غار حراء عند مجىء جبريل له بالوحى، ومرة عند الإسراء. وروى شقّ صدره خامسة وهو ابن عشرين ولم يثبت.

والحكمة فى شقٍّ صدره الشريف فى حال صباه واستخراج العَلَقَة منه - كما قال الحافظ -: تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف فى سن الصبا بأوصاف الرجولية؛ ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان وغيره. وفى بلوغه عشر سنين - كما قال الشامى - إن العشر قريب من سن التكليف

فشقّ قلبه وقدّس حتى لا يلتبس بشىء مما يُعاب على الرجال. قال: لكن هل كان فى هذه المرة يختم؟ لم أقف عليه فى شىء من الأحاديث. وأما الثلاث مرات ففى كل مرة منها يختم كما هو مقتضى الأحاديث.. انتهى.

وعند مجىء جبريل له بالوحى فى غار حراء زيادة [فى] الكرامة؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوى فى أكمل الأحوال من التطهير. وعند الإسراء به؛ ليتأهب للخطاب والمناجاة. وفى بلوغه عشرين سنة؛ لكمال الرجولية لكنها لم تثبت كما تقدم.

وخُلقت هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخُلقت تكملة للخلق الإنسانى ولابد منه، ونزعها كرامة ربانية طرأت بعده، فإخراجها بعد خلقها أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية من خلقه بدونها: قاله العلامة السبكى، ولا يرد على ذلك ولادته ﷺ من غير قلفة على أحد القولين كما تقدم؛ لأن القلفة لما كانت تزال ولابد من كل أحد مع ما يلزم على إزالتها من كشف العورة؛ كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال، وقد تقدم البحث فى ذلك عند قول المصنف وولد ﷺ مختونًا فراجعه.

وقال غير السبكى: لو خلق سليمًا منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مُكَمَّل الظاهر.

وأما قول الرازى: وقوعه فى حال الطفولية مشكل؛ لأنه معجزة لا يجوز تقدمها على النبوة؛ لأن الذى عليه أكثر أهل الأصول اشتراط اقتران المعجزة بالتحدى، فمردود بأن هذا من باب الإرهاص لا المعجزة، ونظائر ذلك كثيرة.

وقيل: وهذا الشق هو المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١).

ونقل الخطيب فى «إقناعه» عن بعض أكابر القوم فى تأويل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ﴾ (٢) أن أصل هذه التوبة أخذ العلقة من صدره

(١) سورة الانشراح: ١.

(٢) سورة التوبة: ١١٧.

الكريم، وقيل: هذا حظ الشيطان منك.. انتهى.

(وَأَزَالاَ) أى أبعدا **(منْهُ)** أى من صدره **(حَظَّ)** بالظاء المشالة أى نصيب **(الشَّيْطَانِ)** وهى العَلَقَة المذكورة التى خلقها الله فى قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه فلم يبق فيه مكان يلقى الشيطان فيه شيئًا، وهذا لا يقتضى أن يكون قبل ذلك للشيطان فيه حظ؛ لأنه كما قال الإمام السبكى: لا يلزم من وجود المحل القابل لما يلقيه حصول الإلقاء أى بالفعل.

(وَبِالثَّلجِ غَسَلاَهُ) قال بعضهم: وقع الغسل فى هذه المرة بالثلج، وفى ليلة الإسراء بماء زمزم. قال فى «المنح»: أى لأنه يقوى القلب ويسكن الروع، وأخذ البلقينى من إيثار الملك له على ماء الكوثر أنه أفضل منه، وهو ظاهر خلافا لمن نازعه فيه بما لا يجدى كما بينته فى «شرح العباب».. انتهى.

تنبيه

قال النجم الغيطى: اختلف هل كان شق الصدر وغسله مخصوصًا به أو وقع لغيره من الأنبياء. قال الحافظ ابن حجر: قد وقع عند الطبرانى فى قصة تابوت بنى إسرائيل أنه كان فيه الطَسْت الذى تغسل فيه قلوب الأنبياء، وهذا مشعر بالمشاركة.. انتهى.

وصحح الحافظ الجلال السيوطى فى «خصائصه الصغرى»: عدم المشاركة، وأنه من خصائصه ﷺ، وخالفه تلميذه الشامى فقال: الراجح المشاركة، وما صححه الشيخ ـ يعنى السيوطى ـ فى «خصائصه الصغرى» من عدم المشاركة لم أر ما يعضده بعد التفحص الشديد.

قال: قلت: يمكن أن يقال وقوع شق الصدر له مع تكرره ثلاث مرات أو أربعًا لم يشاركه أحد من الأنبياء فيه، وعليه يحمل كلام السيوطى، وأما مطلق شق الصدر فوقعت فيه المشاركة لغيره من الأنبياء وعليه يحمل كلام غيره، قال: ومستند ما قلته أن تكرر شق الصدر له ﷺ ثبت فى الأحاديث التى بعضها فى الصحيحين، ووقوع شق الصدر لغيره إنما أخذ من القصة

المذكورة، وليس فيها تعرض للتكرر هذا ما ظهر. . والله أعلم.

ويحتمل أن يراد بما فى القصة من غسل قلوب الأنبياء: ظاهر قلوبهم؛ لأن القلب من جملة الأحشاء التى غسلت بغسل الصدر والبطن. على أن ابن دحية أبطله.

وأيضًا فقد يطلق الصدر على القلب من باب تسمية الحال باسم محله، ومنه ما وقع فى قصة المعراج: «ثم أتى بطَسْتٍ ممتلىء حكمة وإيمانًا فأفرغ فى صدره». وعليه فلنحمل ما صححه الجلال وأن شق الصدر غير شق القلب، فتأمل ذلك تأملاً حميدًا، ولا تكن ممن لا يفهم إلا تقليدًا.

والحكمة فى غسله بالثلج ـ كما قال السهيلى ـ: لما يشعر به من ثلج اليقين وبرده على الفؤاد، ولذا حصل له اليقين بالأمر الذى يراد به بوحدانية ربه. . انتهى.

ويستأنس لهذا بقوله ﷺ: «ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرًا». وفى رواية: «فأنا الساعة أجد برده فى عروقى ومفاصلى».

ويشهد له قوله: (وَمَلآهُ) عقب غسله وإخراج ما فيه من العلقة والأذى (حِكْمَةً) بكسر الحاء المهملة وسكون الكاف؛ تطلق على العلم، والمعرفة، والنبوّة.

قال النووى ـ رحمه الله ـ: فيها أقوال كثيرة مضطربة صفا لنا منها: أنها العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نقاء البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك كله. . انتهى ملخصًا.

قال الحافظ: أصح ما قيل فيها: إنها وضع الشىء فى محله، أو الفهم فى كتاب الله تعالى. . انتهى.

(وَمَعَانٍ إِيمَانِيَّةً) أى حلمًا، وعلمًا، ويقينًا، وإسلامًا كما ورد فى حديث ليلة الإسراء، فلذا كان ﷺ أحلم الناس وأعلمهم؛ فهو أثبتهم فى كل أموره،

وأشدهم انقيادًا لأوامر ربه وأقضيته. ونسبة المعانى للإيمان من نسبة المَتعَلق للمُتَعَلِق، وتجسيم الحكمة والمعانى جائز كما جاء أن سورة البقرة تجىء يوم القيامة كأنها الظلة، والموت فى صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال، ويحتمل أن المراد: أنهما ملآه سرًا من أسرار الله تعالى يحصل به زيادة فى كمال الإيمان وكمال الحكمة.

والمقصود بهذا التأويل: الجواب عما قيل إنهما من الأعراض، وهى لا تقوم بنفسها ولا تقبل الانتقال؛ لأنه من صفات الأجسام.

قال العلامة ابن حجر فى «المنح»: وفى وضع الإيمان والحكمة بالقلب دليل - كما عليه أكثر أهل السنة والجماعة - أن العقل فى القلب، دلت عليه الآيات، لا فى الدماغ.. انتهى.

(ثُمَّ خَاطَاهُ) أى الملكان صدره الشريف خياطة معنوية كما فى بعض الروايات، وفى الرواية الآتية: «أنه كان يرى أثر المخيط فى صدره» فمقتضى ذلك أنها كانت حسيَّة، ويدل له: قول الملك فى حديث أبى ذر الآتى: «خطه، فخاطه» وإن كان يبحث فى وجه الاستدلال منه أن المراد: خطه خياطة معنوية، فالمعول عليه فى كون الخياطة حسيَّة رؤية أنس أثر المخيط فى صدره الشريف، ولا ينافى منطوق الأحاديث الآتية قريبًا أن الخائط أحدهما، لأنا نقول إنما نسب المصنف الخياطة إلى مجموعها، وإن كانت فى الحقيقة من واحد، على سبيل المجاز أو على سبيل تنزيل فعل المشارك له فى الغسل منزلة المشارك فى نفس الخياطة، فأطلق عليه اسمه، ومثل هذا يقال فى نظيره من كل ما ظاهره التنافى، وعليه فالواحد هو جبريل - عليه السلام - كما صرح به غير واحد.

(وَبِخَاتَمِ) بفتح التاء هنا فقط، ويقال له: خِتْم وخَاتَام (النُّبُوةِ) قال القرطبى: سمى بذلك لأنه أحد العلامات التى يعرفه بها أهل الكتب السابقة، ولذا لما حصل عند سَلْمَان من علامات صدقه ما حصل - كموضع مبعثه،

ومهاجره ـ جدّ فى طلبه، فجعل يتأمل ظهره، فعلم ﷺ أنه يريد الوقوف على خاتم النبوة، فأزال الرداء عنه، فلما رأى سَلْمَان الخاتم أكبّ عليه فقبله، وقال: أشهد أنك رسول الله.

وفى قصة بَحِيْرَا الراهب: وإنى أعرفه بخاتم النبوة، وقال غيره: إضافته للنبوة لكونه من آياتها، أو لكونه ختمًا عليها لحفظها، أو ختمًا عليها لإتمامها كما تكمل الأشياء ثم يختم عليها، أو لأنه من نبوته كخاتم فضة.

قال السهيلى: وحكمة وضعه: أنه لما شق صدره وأزيل منه مغمز الشيطان ملأ قلبه حكمةً وإيمانًا، فختم عليه كما يختم على الإناء المملوء مسكًا.. انتهى. فجمع الله أجزاء النبوة لسيدنا محمد ﷺ وتممها وختم عليها بختمه، فلم يجد عدوّه سبيلاً إليه.

(خَتَمَاهُ) وأصل ذلك: ما رواه البزار وغيره عن أبى ذر: يا رسول الله متى علمت أنك نبى، وبم علمت حتى استيقنت؟ قال: «أتانى اثنان ـ وفى رواية: ملكان ـ وأنا ببطحاء مكة ـ أى بنواحيها؛ لأنه كان فى بنى سعد ـ قال أحدهما لصاحبه: شقَّ بطنه، فشقَّ بطنى فأخرج قلبى، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطرحهما، فقال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الملاء ـ أى الثوب الذى يتغطى به ـ ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه، فخاط بطنى، وجعل الخاتم بين كتفى كما هو الآن، ووليا عنى، فكأنى أرى الأمر معاينة»[1].

وعند الإمام أحمد وصححه الحاكم: «ثم استخرجا قلبى، فشقّاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتنى بماء وثلج، فغسلا به جوفى، ثم قال: ائتنى بالسكينة فذرأها فى قلبى، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه فخاطه، وختم عليه بخاتم النبوة»[2].

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ص (١٥١).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٨٤)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١٦، ٦١٧).

فإن قيل: كيف جعله ﷺ علامة على النبوة، وإنما كانت بعد الأربعين؟ أجيب بجواز أنه ﷺ لما رأى تلك الحالة العجيبة فى صغره علم أنه يكون له شأن وصار مطمئنًا لما يرد عليه، فلما جاءه الوحى علم بالمقدمات المستقرة أن هذا أمر من الله ليس للشيطان فيه سبيل. . انتهى.

ولا ينافيه ما فى حديث عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ من أنه رجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده إلى أن قال: «خشيت على نفسى»، فقد وُجِّهَتْ الخشية على أحسن الأقوال وأصوبها بأنها من الموت، أو من المرض، أو من عدم القوة على تلقى الوحى وإطاقته، وليس المراد أنه خشى أن يكون ما أتاه ليس من عند الله كما سيأتى؛ لأنه متحقق أنه من عند الله، فقول خديجة: «كلا والله ما يخزيك الله. . .» إلى آخر ما فى الحديث، لعلها لم تفهم ما سبب الخوف، ولذا انطلقت به إلى ورقة.

قال القاضى عياض: وهذا الخاتم هو أثر شق الملكين بين كتفيه. وأبطله الإمام النووى بأن شقهما كان فى بطنه وصدره كما فى الروايات، ومن ثم صح عن أنس رضى الله عنه: «كنت أرى أثر المخيط فى صدره ﷺ»[1].

وقد ثبت أن خاتم النبوة كان بين كتفيه ﷺ، وورد التصريح فى بعض الروايات بالختم على قلبه ﷺ، ففى رواية أبى نعيم كما فى «المنح» عن حليمة عنه ﷺ: «ثم قال ـ أى أشار ـ الملك بيده يمنة ويسرة، كأنه تناول شيئًا، فإذا خاتم من نور يحار الناظر دونه، فختم به على قلبى فامتلأ نورًا، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرًا. . .»[2] الحديث.

ويؤيد هذا ما مر فى رواية الإمام أحمد: «وختم عليه بخاتم النبوة»، إذ ظاهره أن الختم على القلب، وإعادة الضمير هنا للنبى ﷺ بعيد، وينافى هذا

(1) أخرجه مسلم (كتاب الإيمان: ٢٦١)، أحمد فى مسنده (٣/ ١٢١).

(2) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٨٤)، وابن عساكر (١/ ٣٨، ٣٧٢).

رواية أبى ذر المتقدمة، وفى رواية ابن عائذ أنه بين ثدييه: أى على صدره.

قال الحلبى فى «إنسان العيون»: وقد يقال فى الجمع: لا مانع من تعدد الختم فى المحال المذكورة ـ أى فى قلبه وصدره وبين كتفيه ـ فختم القلب لحفظ ما فيه، وختم الصدر وبين كتفيه مبالغة فى حفظ ذلك؛ لأن الصدر وعاؤه القريب، وجسده وعاؤه البعيد، وخص بين الكتفين؛ لأنه أقرب إلى القلب من بقية الجسد، ولعله أولى من جواب القاضى عياض بأن الذى بين كتفيه أثر ذلك الشق الذى كان فى صدره، إذ هو خلاف الظاهر من قوله: «وجعل الخاتم بين كتفى». وأولى من جواب الحافظ ابن حجر أيضًا بأنه يجوز أن يكون الختم لقلبه ظهر من وراء ظهره عند كتفه الأيسر؛ لأن القلب فى ذلك الجانب؛ لما علمت.. انتهى.

ثم على كون خاتم النبوة بين كتفيه، فالصحيح كما قال السهيلى: أنه كان عند نُغْض كتفه الأيسر ـ وهو بنون مضمومة وقد تفتح وغين وضاد معجمتين ـ أعلى الكتف، ورواية الأيمن ضعيفة، والسر فى وضعه على جهة كتفه الأيسر أن القلب فى تلك الجهة، وبه جزم الجلال فقال: وجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره.

روى ابن عبد البر بسند قوى عن عمر بن عبد العزيز: أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم، فأُرى جسد ممهى، يرى داخله من خارجه، وأُرى الشيطان فى صورة ضفدع، عند كتفه حذاء، قلبه له خرطوم كخرطوم البعوضة، وقد أدخله فى منكبه الأيسر إلى قلبه؛ يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى العبد خنس.

ومُمْهَى ـ بضم الميم الأولى وسكون الثانية وتخفيف الهاء ـ اسم مفعول من أمهاه أى مصفى، وفى «النهاية»: أنه رأى ذلك منامًا، والمها: البلور، وكل شىء صفى فهو مُمهى تشبيهًا به.

وفيما تقدم عن الحلبى أشعار بأن الخاتم قد وقع على القلب أيضًا، ولا

ينافيه صريح قول المصنف: «وبخاتم النبوة ختماه» أن الختم على الصدر؛ لأن المراد بالصدر: القلب مجازًا كما مر، على أنه لا يحسن أن يراد بالصدر القلب؛ لأنه يصير ساكتًا عن ختم الصدر، وما صححه السهيلى وجزم به الجلال هو الصحيح الصواب.

وقد اختلفت الآثار فى تشبيه ذلك الختم اختلافًا كثيرًا، وكلٌ شبَّه بما سنح له، وكلها ألفاظ متقاربة، المراد منها واحد، وهو قطعة لحم بارزة عليها شعرات، إذا قلل قيل كبيضة الحمام، وإذا كثر قيل كمجمع الكف ـ أى على هيئته ـ وهو ما يجتمع عند قبض اليد، لكنه أصغر منه.

واختلف هل وُلد وهو به، أو وضع بعد الولادة؟ وعلى الثانى؛ فهل حين وُلد، أو عند شق صدره ـ وهو فى بنى سعد ـ؟ به قطع القاضى عياض، وقال الحافظ: وهو الأثبت.

وفى حديث عائشة: أنه عند المبعث، وعند أبى يعلى وغيره فى حديث المعراج، من حديث أبى هريرة: «ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة»[1]. وطريق الجمع: أن الختم تكرر ثلاث مرات: فى بنى سعد، ثم عند المبعث، ثم ليلة الإسراء؛ كما دلت الأحاديث، ولا بأس بهذا الجمع، فإن فيه إعمال الأحاديث كلها؛ إذ لا داعى لرد بعضها وإعمال بعضها لصحة كل منها.

وأما رواية بعد الولادة ـ وتقدم ذكرها ثَمَّ ـ فضعيفة، وأما أنه وُلِدَ به فضعيف أيضًا. قال الزرقانى: ويطالب زاعمه بدليله.. انتهى.

ونقل الحلبى فى «إنسان العيون» عن الحافظ ابن حجر ما يوافقه، حيث قال: ومقتضى الأحاديث التى فيها شق الصدر ووضع الخاتم أنه لم يكن موجودًا حين ولادته، وإنما كان أول وضعه لما شق صدره عند حليمة، خلافًا لمن قال ولد به، أو حين وضع، قال: هذا كلامه.

---

(١) أخرجه البخارى (٣٥٤١، ٥٦٧٠)، مسلم (الفضائل:١١١)، الترمذى (٤٦٤٣)، أحمد (٦/ ١١٢)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥).

ولا يخفى أن ما قلناه من أن هذا الخاتم غير خاتم النبوّة أولى؛ لأن به يجتمع القولان، وتندفع المخالفة، والجمع أولى من التضعيف؛ لما صحح من أنه وُلِدَ به، وعلى أنه هو يلزم أن يكون خاتم النبوة تعدّد محلّه، فوجد بين كتفيه، وفى صدره، وفى قلبه.

ولا يقال: قد أشير إلى الجواب عن ذلك بأن الموجود بين كتفيه هو أثر ما فى صدره وقلبه، لأنا نقول: يبطله ما تقدم عن «الدلائل» لأبى نعيم، وما تقدم عن بعض الروايات: «فأقبل الملك وبيده خاتم، فوضعه بين كتفيه وثدييه»، وأيضًا يلزم عليه أن يكون خاتم النبوّة تكرر الإتيان به ثانيًا فى قصة المبعث، وثالثًا فى قصة الإسراء، ففى قصة المبعث: «فأكفأنى كما يكفأ الإناء، ثم ختم فى ظهرى». وفى قصة الإسراء: «ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة». وكل منهما يُبطل كون ما فى ظهره أو بين كتفيه أثر لذلك الختم الذى وجد فى صدره أو قلبه، إلا أن يقال ما فى قصة المبعث وقصة المعراج غير خاتم النبوة، وأن خاتم النبوة أنما هو الأثر الحاصل من ختم صدره وقلبه فى قصة الرضاع، وأنه يلزم تكرر الختم على ذلك الأثر فى المبعث وفى قصة الإسراء، وفيه أنه لا معنى لتكرير الختم على ذلك الأثر فى محل واحد، ولا يقال الغرض منه المبالغة فى الحفظ؛ لأن ذلك إنما يكون عند تعدد محل الختم لا عند إعادته ثانيًا وثالثًا فى محل واحد، وأيضًا هو خلاف ظاهر كلامهم فى أنه فى المحال الثلاثة خاتم النبوّة. . انتهى.

والحاصل أن جملة الأختام الحاصلة من مقتضى الروايات سبعة:

أحدها: ولد به.

وثانيها: بعد الولادة.

وثالثها: عند حليمة على قلبه. وعلى صدره، وعلى كتفه، فهذه خمسة.

وسادسها: فى غار حراء.

وسابعها: عند الإسراء.

وعلى تقدير صحة الروايات كلها والجمع بينها بأن الختم تعدد، فليس منها خاتم النبوّة إلا الذى كان على كتفه الشريف عند حليمة، لما علمت، ولما مر عن السهيلى، ويحمل باقيها على ما مر عن الحلبى فى «إنسان العيون» من أن المراد من تعدد الختم فى المحال المذكورة: المبالغة فى حفظ ما فى قلبه من نور النبوة والحكمة والإيمان، وخصّ بين الكتفين؛ لأنه أقرب إلى القلب من بقية الجسد. فإبعاد القليوبى لتعدد محله مع الإمكان غير مستقيم.

والصحيح أن خاتم النبوة لم يرفع عند موته ﷺ، وما روى عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أنها قالت: «التمست الخاتم حين توفى رسول الله ﷺ فوجدته قد رفع». مؤوّل بأن المراد قد رفع ظهوره، فلا ينافى أنه اختفى وتقلص كما يتقلص الإنسان بعد الوفاة. على أن العلاَّمة الشامى توقف فى صحة ذلك الحديث، فقال: لا أظنه صحيحًا، فلينظر سنده.

ووضع الخاتم بين كتفيه ﷺ بإزاء قلبه ـ كما مر ـ مما اختص به على سائر الأنبياء، فقد روى الحاكم فى «المستدرك» عن وهب بن منبه قال: لم يبعث الله نبيًا إلا وقد كانت عليه شامة النبوة فى يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه[1]. وبه جزم الجلال ـ كما تقدم ـ. قال الحلبى: لم أقف على بيان تلك الشامات التى كانت للأنبياء غير نبينا ما هى؟.

وفى «النعمة الكبرى»: أنها كانت شامات سوداء.

تنبيه

ما مر عن الجلال فى قوله: «وجعل خاتم النبوة على ظهره... إلخ»، مشكل؛ إذ مفهومه أن للشيطان موضع الدخول لقلوب الأنبياء غير نبينا ﷺ وعليهم لم يختم، ولا يخفى ما فيه من الخطورة، ما أشنعها من عبارة وأخطأها من إشارة؛ كذا قال القسطلانى فيما كتبه على هامش «الخصائص».

(١) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

ويجاب بأن المراد بغيره فى قوله: «حيث يدخل الشيطان لغيره»: سوى الأنبياء، لما عُلم وتقرر فى النفوس من عصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الشيطان، واختص نبينا من سائر الأنبياء بالختم فى المحل المذكور مبالغة فى حفظه من الشيطان وقطعًا لأطماعه. فليتأمل.

وجميع ما ورد من الشق وإخراج القلب وغيرهما يجب الإيمان به، وإن كان خارقًا للعادة، ولا يجوز تأويله لصلاحية القدرة له.

(وَوَزَنَاهُ) أى الملكان، النبى ﷺ وزنًا اعتباريًا ـ أى اعتبرا فضله وشرفه ـ وقاساه بغيره، ووقع فى حديث ساقه الشامى، ثم قال: «زنه بألف. فوزنونى فرجحتهم، فجعلت أنظر إلى الألف فوقى أشفق أن يخر علىَّ بعضهم»[1].

وهذا كالصريح فى أنه حصى اللهم إلا أن يقال فيه تجوّز، والمراد: رأيت زيادة رجحان فى الاعتبار على الألف حتى صارت فى الاعتبار لو كانت محسوسة لكادت أن يسقط علىَّ بعضها.

(فَرَجَحَ) أى زاد ﷺ (بِألْف منْ أُمَّته) ويبدل منه (أُمَّةَ الخَيْرِيَّة) أى المنسوبة إلى الخير والفضل. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2].

وأصل ذلك ما ذكره السيوطى فى «الخصائص»، ولفظه: أخرج البيهقى وابن عساكر من طريق محمد بن زكريا الغلابى، عن يعقوب بن جعفر بن سليمان، عن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه عن جده، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: كانت حليمة تحدث أنها لما فطمت رسول الله ﷺ تكلم فقال: «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً». فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيتجنبهم، فقال لى يومًا: «يا أُماه! ما لى لا أرى إخوتى بالنهار؟». فقلت: فدتك نفسى، يرعون غنمًا لنا فيروحون من ليل إلى ليل. قال: «ابعثينى معهم». فكان يخرج مسرورًا،

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥)، وأحمد فى مسنده (١٧١٩٦)، والدارمى (١٣).
(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

ويرجع مسروراً، فلما كان يوم من ذلك خرجوا، فلما انتصف النهار إذا بابنى ضمرة يعدو فزعًا وجبينه يرشح باكيًا ينادى: يا أبةِ، يا أُمَّة الحقا أخى محمداً فما تلحقانه إلا ميتًا. قلنا: وما قصته؟ قال: بينا نحن قيام إذ أتى رجل فاختطفه من أوساطنا وعلا به ذروة الجبل، ونحن ننظر إليه، ثم شق صدره إلى عانته ولا أدرى ما فعل به.

فأقبلت أنا وأبوه نسعى، فإذا نحن به قاعداً على ذِرْوة الجبل شاخصًا ببصره إلى السماء يتبسم ويضحك، فأكببتُ عليه وقبَّلت بين عينيه وقلت: فدَتك نفسى، ما الذى دهاك[1]؟ قال: «خيراً يا أماه. بينا أنا الساعة قائم إذ أتانى رهطٌ ثلاث بيد أحدهم إبريق فضة، وفى يد الثانى طَسْت من زمرّدة خضراء ملىء ثلجًا، فأخذونى فانطلقوا بى إلى ذِرْوة الجبل، فأضجعونى على الجبل إضجاعًا لطيفًا، ثم شقَّ أحدهم من صدرى إلى عانتى وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك مسّا ولا ألمًا، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج أحشاء بطنى فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها.

وقام الثانى فقال للأول: تنح فقد أنجزت ما أمرك الله به، فدنا منى فأدخل يده فى جوفى فانتزع قلبى فشقه وأخرج منه نكتة سوداء مملوءة بالدم فرمى بها، فقال: هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله ثم حشاه بشىء كان معه وردَّه مكانه، ثم ختمه بخاتم من نور، فأنا الساعة أجد بَرْد الخاتم فى عروقى ومفاصلى.

وقام الثالث وقال: تنحيا فقد أنجزتما ما أمركما الله به فيه، ودنا منى، فأمرَّ يده فى مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وقال: زنوه من أمته بعشرة، فوزنونى بهم فرجحتهم. ثم قال: زنوه بمائة من أمته، فوزنونى فرجحتهم. ثم قال: زنوه بألف من أمته، فوزنونى بهم فرجحتهم. ثم قال: دعوه فلو وزنتموه بأمته كلها لرجح بهم، ثم أخذ بيدى فأنهضنى إنهاضًا لطيفًا، فأكبوا علىَّ

(١) دهاك: أى أصابك.

وقبلوا رأسى وما بين عينىّ وقالوا: يا حبيب الله، لن تراع، ولو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك، وتركونى قاعدًا فى مكانى هذا. . . الحديث»[1].

وفى حديث شداد بن أوس عند أبى يعلى، وأبى نعيم، وابن عساكر: نحوه، غير أنه فيه: «أن الطَسْت من ذهب»[2]. فلعله كان مرصّعًا بالزمرد، وقوله ﷺ: «أتانى رهط ثلاثة» موافق لما فى حديث شداد، ومخالف لقول ضمرة: «رجل أو رجلان» فلعله لم ير سوى اثنين، وأما المصطفى ﷺ فرأى الثلاثة.

والحكمة فى اختصاص الإتيان بطَسْتٍ من ذهب: أن الطَسْت أشهر آلات الغسل، وأما كونه من ذهب فلأنه أغلا الأوانى وأصفاها ولأن فيه خواص ليست فى غيره، منها: أنه من أوانى الجنة، وأنه لا تأكله النار ولا التراب ولا يصدأ، وأنه أثقل الجواهر فناسب ثقل الوحى.

قال بعضهم: وإن نُظِرَ إلى لفظه؛ ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه، وإن نُظِرَ إلى معناه؛ فلوضاءته ونقائه وثقله، والوحى ثقيل.

قال النجم الغيطى: وأما تحريم استعماله فهو مخصوص بأحوال الدنيا وذلك كان من أحوال الغيب، فيلحق بأمور الآخرة.

قال النووى رحمه الله: ليس فى هذا الخبر ما يوهم جواز استعمال إناء الذهب والفضة؛ لأن هذا فعل الملائكة واستعمالهم وليس بلازم أن يكون حكمهم حكمنا؛ أو لأنه كان قبل تحريم النبى ﷺ استعمال أوانى الذهب والفضة. . انتهى.

وهذا أحسن من جوابه الأوّل؛ لأنه تعقب بأنه لا يكفى أن يقال أن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة؛ لأنه لو كان قد حرم عليه استعماله لتنزه أن يستعمله غيره فى أمر يتعلق ببدنه المكرم.

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٤٠)، وابن حجر فى المطالب العالية (٤٢٥٤)، وفى سنده عمرو بن صبح: وضّاع مشهور، لكن للحديث شواهد.

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٥٠)، الخصائص الكبرى (١/ ٩٦)، السيرة الشامية (١/ ٤٧٠).

(وَنَشأً) بفتح النون والشين المعجمة والهمزة من باب نفع؛ أى تجدد وحدث وكبر (ﷺ عَلَى أَكْمَلِ الأَوْصَافِ) وأجملها (مِنْ حَالِ صِبَاهُ) من حال نشأته، وهذا بيان لحكمة شق صدره الشريف فى حال صباه واستخراج ما مر منه، وهو تطهيره عن نقائص الصبا ليكون على أكمل الصفات من حين نشأته؛ ولذلك تعدد شق صدره ليكون لكل طور من أطوار طفوليته، ثم بلوغه، ثم بعثته، ثم الإسراء به كمال يخصه ويليق به.

والتحقيق أنه ﷺ لم يزل يترقى فى مراتب الكمال كما أخذه بعضهم من قوله تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ [١].

(ثُمَّ) بعد ما حصل له من الشق المذكور (رَدَّتْهُ) حليمة (إِلَى أُمِّهِ) وهو ابن أربع سنين على الراجح كما يأتى (وَهِيَ بِهِ) أى بالرد إلى أمه (غَيْرُ سَخِيَّةٍ) بفتح السين المهملة وكسر الخاء المعجمة؛ راضية أى لم تكد تسمح نفسها بمفارقته لما عاينته فى إقامته عندها من الخيرات الكثيرة عليها وعلى زوجها وبنيها وسائر متعلقاتها من بركاته ﷺ، بل كانت كارهة لذلك، وإنما ردته مع بخلها برده (حَذَرًا) بفتح الحاء المهملة والذال المعجمة؛ أى خوفًا عليه (مِنْ أَنْ يُصَابَ بِمُصَابٍ) بميم مضمومة؛ أى إصابة أمر (حَادِثٍ) وفى بعض النسخ بصاب بغير ميم، والصاب بتخفيف الباء: عصارة شجر مر، أى بمرارة حادث كريه يشبه عصارة ذلك الشجر المرّ (تَخْشَاهُ) أى تخاف وقوعه به وهو تعرض الجن له، وقد عصمه الله من ذلك.

وأصل ذلك ـ بعد ما قدمناه كما فى السير ـ قول حليمة: فوالله إنه لبعد مقدمنا أى من مكة بعد رده عندما فصلته ـ كما مر ـ بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة لفى بَهْمٍ[٢] لنا خلف بيوتنا، جاء أخوه يشتد فقال: ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه.

---

(١) سورة الضحى: ٤.

(٢) البَهْمُ: الصغار من الغنم، واحدتها بَهْمَة.

فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائمًا منتقعًا لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أى بنى، ما شأنك؟ فقال: «جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعانى وشقّا بطنى ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه، ثم رداه كما كان». فرجعنا به معنا. فقال أبوه: يا حليمة، إنى خشيت أن يكون ابنى قد أصيب، فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوفه. فاحتملناه حتى قدمنا به مكة على أمه. قالت: ما ردكما به فقد كنتما حريصين عليه؟ قلنا: نخشى الإتلاف والإحداث. فقالت: ما ذاك بكما! فأصدقانى ما شأنكما؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ لا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنى هذا شأن فدعاه عنكما[1].

وذكر السيوطى فى «الخصائص الكبرى» حديثا أخرجه أبو نعيم من طريق الواحدى قال فى آخره: فرجعت به معها[2].

وظاهر هذا السياق بل صريحه: أن شق الصدر ورجوعه إلى أمه كان فى السنة الثالثة؛ لقوله فيه: «بشهرين أو ثلاثة».

وقد قال ابن عباس: رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين ويومين. وقال الأموى: وهو ابن ست سنين، والراجح أنه ﷺ رجع إلى أمه وهو ابن أربع سنين، وأن شق الصدر إنما كان فى الرابعة كما جزم به الحافظ العراقى فى «نظم السيرة»، وتلميذه الحافظ ابن حجر فى «سيرته».

(ووفِدَت) بكسر الفاء من باب تعب؛ أى قدمت **(عليه)** السيدة **(حليمة)** السعدية ـ تقدّم ذكر نسبها ونسبتها ـ تشكو إليه السنة وذلك **(فى أيام)** أم المؤمنين **(خديجة)** بنت خويلد القرشية الآتى بيان حالها وخصالها الزكية **(السيدة)** الشريفة فى قومها **(الرَّضِيَّة)** بالراء المهملة فعيلة بمعنى مفعولة؛ أى المرضية، وفى بعض النسخ: «الوضية» بالواو من الوضاءة وهو الحسن

(1) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (1/133)، وابن هشام فى السيرة النبوية (1/173)، وابن كثير فى البداية والنهاية (2/273)، وابن الجوزى فى الوفا ص (105).

(2) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (149).

(فَحبَاهَا) بموحدة؛ أعطاها بلا جزاء ولا مَنّ (منْ حبَائه) بكسر الحاء المهملة فموحدة وبعد الألف همزة ممدود؛ أى عطائه (الْوَافِرِ) التام الكثير (بِحَياهْ) بفتح الحاء مقصور المطر؛ أى بما تحيى به الأرض، شبه عطاءه بالمطر إذا نزل على الأرض المجدبة فإنه يحصل لها به غاية الحياة، وفى بعض النسخ: «بمحياه» والمحيا محل الحيا أى المحل المعد للإعطاء، والمعنى: أعطاها من إعطائه الكثير فى المحل الذى أعده للإعطاء.

قال فى «النعمة الكبرى»: ويروى أنها قدمت على رسول الله ﷺ وهو متزوّج خديجة ـ رضى الله عنها ـ فشكت إليه جدب البلاد، فكلم خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيرا[1].

وفى بعض الروايات: عشرين من الغنم وبكَرَات[2].

(وقَدمتْ) أى وفدت أيضًا (علَيْه) ﷺ مرة ثانية وهو بالجِعْرَانة بعد وقعة هَوَازِن (يَوْمَ حُنَيْنِ) سنة ثمان بعد فتح مكة، وكان المسلمون فيها اثنى عشر ألفًا، والكفار أربعة آلاف. و «حُنَيْن» واد بين مكة والطائف (فقَامَ) ﷺ (إلَيْهَا) إكرامًا لها واعترافًا بحقها، وفيه دليل على جواز القيام تعظيمًا لمن يستحقه.

واعلم أنه قد اختلف العلماء فى القيام للتعظيم المعتاد هل هو مكروه أم لا؟ فقيل: مكروه استدلالاً بحديث: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا»[3].

وحديث: «من أحبُ أن يتمثل له الناس قيامًا وجبت له النار»[4]. ونحوه،

---

(١) الوفا ص (١١١).

(٢) البكْرُ: الفتىُّ من الإبل.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، أحمد فى مسنده (٥/٢٥٣)، ابن أبى شيبة فى مصنفه (٨/٣٩٨)، مشكاة المصابيح (٤٧٠٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، بإسناد صحيح، وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٤٠) للطبرانى فى الكبير والأوسط، وقال: فيه رجال لم أعرفهم. وعزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٢٠٠٨٨) لابن جرير. وانظر: مجمع البحرين (٣٠٤٤).

حتى ذهب بعضهم إلى حرمته، والأحسن ما قاله القاضى زكريا فى «شرح الروض»: أنه مستحب لأهل العلم والصلاح، وللحكام العدول، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرراً: كجبابرة الملوك. ويستحب لمن قدم من سفره، ولذوى الأرحام تكريمًا وبرًا لهم، ويدل على ذلك قوله ﷺ للأنصار لما قدم عليهم سعد رضى الله عنه: «قوموا لسيدكم»[1].

والمنهى عنه إنما هو الذى يكون على سبيل الرياء والتكبر، وَحَمْلُ حديث سعد على أنه كان مريضًا وَقَدِمَ راكبًا، فأمرهم رسول الله ﷺ بالقيام ليعينوه فى النزول عن دابته خلاف الظاهر، وقد فعله ﷺ فكان يقوم لفاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ، وإنما نهاهم لئلا يظنوه سنة ـ أى لكل أحد ـ ويتخذوه عادة، وسيأتى مزيد لذلك فى الكلام على تواضعه فى ذكر شمائله ﷺ.

(وَأَخَذَتْهُ الأَرْيَحِيَّةُ) والأريحى الواسع الخلق المرتاح للندا: أى العطا، فالمراد ارتاح لفعل المعروف معها (وَبَسَطَ) نشر (لَهَا مِنَ رِدَائِه الشَّرِيف) لتجلس عليه، أو وسع عليها فى العطاء كما يدل عليه قوله (بِسَاطَ بِرِّه وَنَدَاهُ) ولا مانع من وقوع الحالين كما ذكره ابن حجر فى «النعمة الكبرى»: أنه صح عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ـ رضى الله عنه ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ يقسم بالجِعْرَانة لحمًا ـ وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجَزُور ـ إذ أقبلت امرأة حتى دنت من النبى ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه. فقلت: من هذه؟ قالوا: هذه أمه التى أرضعته[2].

قال ابن حجر: له شواهد. قال الشهاب الخفاجى: وهذا الحديث رواه أبو داود فى سننه بسند حسن، قال: وقالوا: وهذه المرأة هى حليمة أمه ﷺ من الرضاع. ونقل الحلبى فى «إنسان العيون» عن الحافظ ابن حجر أنه قال بعد أن أورد عدة آثار فى مجىء أمه ﷺ من الرضاعة إليه فى حُنَيْن: وفى تعدد

---

(١) أخرجه البخارى (٨/ ٧٢)، ومسلم (٣/ ١٣٨٨)، وأبو داود (٥٢١٥)، ومسند الطيالسى (٩/ ١٣٨٨)، والطبرانى فى معجمه الكبير (٥٣٢٣).

(٢) الوفا ص (١١١).

الطرق ما يقتضى أنه له أصلاً أصيلاً. قال: وفى اتفاق الطرق على أنها أمُّه ردٌّ على من زعم أن التى قدمت عليه أخته.

والقائل[1] بأن القادم يوم حُنَيْن ثُوَيْبَة مردود بأن ثُوَيْبَة توفيت سنة سبع، وحنين كانت سنة ثمان بعد فتح مكة كما تقدم.

* * *

[إسلام السيدة حليمة وزوجها رضى الله تعالى عنهما][2]

(وَ) قد اختلف العلماء فى إسلامها وعدمه فممن أنكره: الحافظ الدمياطى، وأبو حيان النحوى. و (الصَّحِيحُ) من القولين (أَنَّهَا أَسْلَمَتْ) كما قاله غير واحد (مَعَ زَوْجِهَا) الحارث بن عبد العُزَّى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن سعد بن بكر، فحليمة تلتقى نسبًا مع زوجها الحارث فى ناصرة فهو الجد الخامس لحليمة. قدم على رسول الله ﷺ حين أنزل عليه القرآن فقالت له قريش: ألا تسمع يا حارث ما يقول ابنك؟ قال: وما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث من فى القبور، وأن لله دارين يعذب فى أحدهما من عصاه، ويكرم فى الأخرى من أطاعه، فقد شتَّت أمرنا، وفرَّق جماعتنا. فأتاه فقال: أى بُنَىّ، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول إن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار؟!. فقال ﷺ: «نعم. ولو قد كان ذلك اليوم لقد أخذتُ بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم». فأسلم وَحَسُن إسلامه، وكان يقول: لو أخذ ابنى بيدى فعرَّفنى ما قاله لم يرسلنى إن شاء الله تعالى حتى يُدخلنى الجنة[3].

(وَ) كذا الصحيح من القولين أيضًا إسلام (الْبَنِينَ و) عطف (الذُّرِّيَّة) على

(١) ينسب هذا القول للحافظ الذهبى (السيرة الشامية ١/ ٤٦٦).

(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٦٥).

(٣) انظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٦٨).

البنين من عطف العام على الخاص لشمولها الإناث، وهم: عبد الله الذى أرضعت حليمة رسول الله ﷺ بلبانه، وأنيسة، وجذامة ـ وهى الشيماء ـ أولاد الحارث بن عبد العزى، كما أشار إليه الحافظ مُغْلَطاى فى «سيرته» **(وَقَدْ عَدَّهُمَا)** أى حليمة وزوجها الحارث **(فِى الصَّحَابَةِ جَمْعٌ مِنْ ثِقَاةِ)** بكسر المثلثة جمع ثقة بمعنى موثوق به لعدالته وضبطه **(الرُّوَاةِ)** بضم الراء جمع راو منهم: الحافظ ابن حجر فى «الفتح». وقال فى «الاستيعاب»: روى زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: جاءت حليمة بنت عبد الله أم النبى ﷺ من الرضاعة يوم حنين فقام إليها وبسط لها رداءه، فجلست عليه[1].

وروت عن النبى ﷺ، وروى عنها عبد الله بن جعفر، وقال الحافظ مُغْلَطاى فى «سيرته» ما نصه: وصحح ابن حبان وغيره حديثًا دل على إسلامها ـ رضى الله عنها.

وقال الحافظ أبو الفرج بن الجوزى بعد كلام له: ثم قدمت ـ أى حليمة ـ عليه ﷺ فأسلمت وبايعت.

ونصر هذا القول: الشهاب الخفاجى فى «نسيم الرياض» قال: وصنف الحافظ مُغْلَطاى جزءًا فى إسلامها سماه «النعمة الجسيمة فى إسلام حليمة» وارتضاه علماء عصره.. انتهى.

وقد ذكرها فى الصحابة ابن أبى خيثمة، وابن عبد البر، وابن الجوزى، والمنذرى، وابن حجر، وغيرهم، وكفى بهم حجة.

ونقل الجلال السيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ فى «مسالك الحنفاء» عن بعض العلماء بعد إيراد خبر إرضاع حليمة ـ رضى الله عنها ـ لرسول الله ﷺ، وما نالها من معروفه وإحسانه الذى أسداه إليها حين قدومها عليه أبياتًا حسنة وهى هذه:

هذا جزاء الأم عن إرضاعه ... لكن جزاء الله عنه عظيم

(١) طبقات ابن سعد (١/١/٧١).

وكذاك أرجو أن يكون لأمه عن ذاك آمنـة يد ونعيم

ويكون أحياهـا الإله وآمنت بمحمـد فحـديثها معلوم

فلربما سعـدت به أيضًا كمـا سعدت به بعد الشقاء حليم

وفى قوله: «سعدت به بعد الشقاء حليم» أى حليمة إشارة إلى ما سبق من ترجيح القول بإسلامها؛ إذ ليست السعادة بعد الشقاء إلا الإسلام بعد الكفر كما هو واضح، والله تعالى أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

[وفاة أمه آمنة بنت وهب]

(وَلَمَا بَلَغَ ﷺ) من العمر (أَرْبَعَ سِنِيْنَ) فيما حكاه العراقى، وصدر به مُغْلَطاى، والقسطلانى فى «المواهب» وتبعه المصنف، وهو لا يظهر إلا على القول بأن رجوع حليمة به ﷺ بعد شق صدره الشريف كان فى السنة الثالثة، ومع ذلك فهو يردّ القول بأن حليمة لما ردته إلى أمه كان عمره خمس أو ست سنين، وقيل: خمسًا، وقيل: ستًا، وقيل: سبعًا، وقيل: تسعًا، وقيل: عشرًا، وقيل: اثنتى عشرة سنة وشهرٍ وعشرة أيام، وقيل: غير ذلك. والقول بالست هو الذى قطع به ابن إسحاق.

(خَرَجَتْ به أُمُّهُ) آمنة بنت وهب ومعها حاضنته أم أيمن الحبشية (إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةَ) لزيارة قبر والده وأخوال جده عبد المُطَّلب؛ لأن أمه سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداس بن عامر بن عدى بن النجار النجَّارية؛ فهم أخوال النبى ﷺ مجازًا كما تقدم، وقصدت بزيارتها نقل المصطفى إليهم وإراءه لهم، فنزلت به دار التابعة ـ رجل من بنى عدى بن النجار ـ وأقامت به عندهم شهراً.

قال ﷺ: «وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إلىَّ» قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبىّ هذه الأمة، وهذه ـ أى المدينة ـ دار هجرته، فوعيتُ ذلك كله من كلامهم.

(ثُمَّ عَادَتْ) أى رجعت هى ومعها النبى ﷺ وأم أيمن قاصدة مكة المشرفة خوفًا عليه من اليهود.

ففى رواية أبى نعيم قال ﷺ: «فنظر إلىَّ رجل من اليهود يختلف ينظر إلىّ فقال: يا غلام، ما اسمك؟ قلت: أحمد، ونظر إلى ظهرى فأسمعه يقول: هذا نبىُّ هذه الأمة، ثم راح إلى أخوالى فأخبرهم فأخبروا أمى، فخافت علىَّ

فخرجنا من المدينة»[1].

(فَوَافَتْهَا) أتتها وهى (بِالأَبْوَاء) بفتح الهمزة وسكون الموحدة ممدود؛ موضع بين مكة والمدينة قريب من الجُحْفَة[2]، وقال بعضهم: قرية من أعمال الفَرْع على ثلاثين ميلاً من المدينة كما تقدّم، سميت بذلك: لتبوَّء السيول بها (أَوْ) بعد أن وصلت مكة وافتها كما قيل (بِشِعْبِ) بكسر المعجمة؛ ما انفرج بين جبلين، أو الطريق فى الجبل (الحَجُون) بفتح المهملة وضم الجيم، قال المجد: جبل بمعلاة مكة (الوفَاه) الموت عن عشرين سنة من العمر تقريبًا كما صححه الحافظ العلائى.

أخرج أبو نعيم فى «دلائل النبوة» من طريق الزهرى، عن أم سماعة بنت أبى رُهْم، عن أمها، قالت: شَهِدتُ آمنة فى عِلَّتها التى ماتت فيها ومحمد ﷺ غلام يَفع له خمس سنين عند رأسها، فنظرت إلى وجهه ثم قالت:

بارَكَ فيكَ اللهُ من غُلامِ ... يا ابن الذى من حَوْمة الحِمَامِ
نَجَا بعون الملكِ المِنْعامِ ... فودِى غَداة الضَّرْب بالسِّهامِ
بمائةٍ من إبلٍ سَوامِ ... إنْ صحَّ ما أبصرتُ فى المنامِ
فأنتَ مبعوثٌ إلى الأنامِ ... من عند ذى الجلالِ والإكرامِ
تُبْعثُ فى الحلالِ والحرامِ ... تُبْعثُ بالتحقيقِ والإسلامِ
دين أبيك البَرِّ إبراهامِ ... فالله أنهاك عن الأصنامِ
أن لا تواليها مع الأقوامِ

ثم قالت: كلُّ حيٍّ ميت، وكلُّ جديد بالٍ، وكلُّ كثير يفنى، وأنا ميتة وذِكْرى باق، وقد تركتُ خيراً، وولدت طُهراً. ثم ماتت، فكنا نسمع نوح الجن عليها، فحفظنا من ذلك:

نبكى الفتاة البَرَّة الأمينهْ ... ذات الجمال العَفَّة الرزينهْ

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٩)، وطبقات ابن سعد (١/١١٦).
(٢) الجحفة: موضع بين مكة والمدينة، وهى ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرو بالمدينة. (مراصد الاطلاع ١/٣١٥).

زوجة عبـد الله والقرينهْ أُم نبىِّ الله ذى السَّكينهْ
وصاحب المِنْبر بالمدينـهْ صارت لدى حُفْرتها رهينهْ[1]

والقول بوفاة أمه بالأبواء ودفنها بها هو الصحيح المشهور، وهو قول ابن إسحاق، وجزم به العراقى وتلميذه الحافظ، بل قال الحلبى: هو الأصح كما تقدّم. وفى «الوفا» عن ابن سعد: أن كون قبرها بمكة غلط، وإنما قبرها بالأبواء.

وقد جاء: أنه ﷺ لما مر بالأبواء فى غزوة الحُديبية قال: «إن الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه»، فأتاه وأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه. وقيل له فى ذلك: قال: «أدركتنى رحمتها فبكيت»[2].

ويعارضه ما ورد من الأحاديث من أنها [دفنت] بالحَجُون[3]، وجمع بعضهم ـ كما فى «الخميس» ـ بأنها دفنت أوّلا بالأبواء، ثم نقلت إلى مكة ودفنت بالحَجُون.

وفى «القاموس» فى فصل الراء من باب العين المهملتين: «دارُ رابغة» براء بعد الألف، بمكة فيه مدفن آمنة أم النبى ﷺ، وظاهره أنها مدفونة داخل مكة. وقال الحلبى: لم أقف على محل تلك الدار[4].

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (١٢٠)، وشرح المواهب (١/١٦٤)، والسيرة الشامية (٢/١٦٤)، والخصائص الكبرى (١/١٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (كتاب الجنائز: ١٠٨)، والبيهقى فى السنن (٤/٧٦)، والطبرانى فى الكبير (٥/٨٢)، وابن الجوزى فى الوفا ص (١١٤)، وابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/١/٧٣)، وابن كثير فى البداية والنهاية (٤/١٥٩).

(٣) الحديث ضعفه جماعة منهم: الحافظ الجوزقانى، وابن الجوزى، والذهبى.

(٤) إنسان العيون (١/١٧٢).

[حضانة أم أيمن له]

(وَ) لما ماتت أمه ﷺ فى رجوعها إلى مكة (حَمَلَتْهُ) أى استقلت بخدمته (حَاضِنَتُهُ) مربيته وحافظته (أُمُّ) أسامة بن زيد وأم (أَيْمَنَ) ابن عبيد الخزرجى المستشهد يوم حُنَيْن؛ واسمها: بَرَكَة بنت ثعلبة بن حصن، واشتهرت بكنيتها بابنها هذا، أسلمت قديمًا هى وابنها أيمن، وهاجرت الهجرتين إلى أرض الحبشة وإلى أرض المدينة، وَرِثَها النبى ﷺ من أبيه عبد الله أو من أمه، وأعتقها بعد النبوة وزوّجها مولاه حارثة فأولدها أسامة الذى قال النبى ﷺ فيه: «أسامة أحب الناس إلىَّ، وهو الحِب ابن الحِب»[1] بكسر الحاء أى الحبيب ابن الحبيب؛ لأن أباه كان حبيبًا له ﷺ أيضًا.

وقيل: إن الذى أعتقها أبو المصطفى.

ولها مناقب جلية منها:

أنها حضنت المصطفى ﷺ فنشأ فى حِجْرها، وكان يقول لها: «أنت أمى بعد أمى»[2] أى كأمى فى رعايتك لى وتعظيمى والشفقة علىّ، أو فى رعايتى لك واحترامك، وقد كانت تدل عليه ﷺ، وكان يزورها فى بيتها، وكان العُمَرَان يزورانها بعده، وكانت تبكى وتقول: أنا أبكى لخبر السماء كيف انقطع عنا.

ومن مناقبها الشريفة: ما رواه ابن سعد لما هاجرت إلى المدينة أمست بالمنصرف دون الروحاء[3]، وكانت منفردة فى حر شديد فعطشت، فسمعت خفيقا فوق رأسها، فالتفتت فإذا دلو قد أدليت إليها من السماء، فشربت منها

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٩٦)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٩٦)، والطبرانى فى الكبير (١/ ١٢٢).

(٢) الوفا ص (١١١).

(٣) الروحاء: بلدة على نحو أربعين ميلاً من المدينة، وهو الموضع الذى نزل به «تُبّع» حين رجع من قتال أهل يثرب يريد مكة، فأقام بها وأراح فسماها الروحاء. (مراصد الاطلاع ٢/ ٦٣٧).

حتى رويت، وكانت تقول: ما أصابنى بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للصوم فى الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة[1].

وكانت أول أهله لحوقًا به بعد السيدة فاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ ففى صحيح مسلم: أنها ماتت بعده ﷺ بخمسة أشهر. وقيل: بستة. قال «البرهان»: وبه يُرد قول الواقدى: أنها ماتت فى خلافة عثمان، لكن أيده فى «الإصابة» بما رواه ابن سعد بسند صحيح عن طارق بن شهاب: لما قُتِل عمر بكت أم أيمن، فقيل لها، فقالت: اليوم وهن الإسلام.

واعتمد ابن منده وغيره قول الواقدى، وجمع ابن السكن بين القولين بأن الأولى هى مولاة النبى ﷺ، وأن الثانية هى مولاة أم حبيبة، واسم كل منهما بَرَكَة، وتكنى أم أيمن، وهو محتمل على بعد.

(الحَبَشِيَّه) نسبة إلى الحبشة وهم أُمَّةٌ عظيمة مشهورة، مسكنهم بالجانب الغربى من بلاد اليمن،يقال أنهم من ولد حبش بن كوش بن حام (الَّتِى) أعتقها و(زَوَّجَهَا عَلَيْه السَّلَامُ بَعْدُ) بالضم لقطعها عن الإضافة، ونية معنى المضاف إليه أى بعد النبوة (مِنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَاهُ) أى عتيقه فهو صفة ثانية لزيد وهو أولى مما قيل أنه بدل منه؛ لما فى بدل المشتق من الخلاف، واسم حارثة: شراحيل. وقيل: شرحبيل، كذا وقع فى عبارة بعضهم وهو غلط، والصواب أن شراحيل اسم جده؛ ففى «أسد الغابة» و «الإصابة» فى ترجمته: زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبى، وأمه سُعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر من بنى معن من طيّء.

سُبى فى الجاهلية وذلك أن أمه سُعدى خرجت به تزور قومها بنى معن فأغارت عليهم خيل بنى القين ابن جسر فأخذوا زيدًا، فقدموا به سوق عكاظ بمكة، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوّجها رسول الله ﷺ وهبته له، وستأتى قصة إتيان أبيه حارثة وعمه

(١) المطالب العالية (٤١٦١) والحديث مرسل.

كعب بن شراحيل إلى رسول الله ﷺ فى طلب فدائه، فخيره النبى ﷺ بين أن يقيم عنده أو يذهب معهما، فقال: ما أنا بالذى اختار عليك أحدًا. فأعتقه النبى ﷺ وتبناه.

قال ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ (1).

قال فى «أسد الغابة»: ويكنى أبا أسامة. وهو مولى رسول الله ﷺ وأشهر مواليه، وهو حِب رسول الله ﷺ، وستأتى ترجمته مستوفاة عند قول المصنف: «وأول من آمن به من الموالى زيد بن حارثة».

وفى كلام بعضهم: وبقى النبى ﷺ بعد موت أمه بالأبواء حتى انتهى الخبر إلى مكة، وجاءت أم أيمن مولاة أبيه عبد الله لخامسة من موت أمه بالأبواء، وهو خلاف ما عليه الأكثر من أن أم أيمن كانت مصاحبة لأمه فى سفرها ذهابًا وإيابًا، وكون موت أمه فى حياة عبد المُطَّلب هو المشهور الذى لا يكاد يُعرف غيره.

* * *

(1) سورة الأحزاب: ٥.

[كفالة عبد المطلب رسول الله ﷺ ومعرفته بشأنه]

وقول المصنف رحمه الله (وَأَدْخَلَتْهُ) أى بعد خمسة أيام من موت أمه (عَلَى) جده (عَبْدِ الْمُطَّلب) يرد ما قيل: «مات عبد المُطَّلب قبل موت أمه بسنتين» (فَـ) لما أدخلته عليه (ضَمَّهُ إِلَيْهِ) حبًا وتوددًا (وَرَقَّ لَهُ) من الرقَّة بالكسر؛ التحنن والعطف أى حن عليه وتعطف به (وَأَعْلَى رُقِيَّهُ) بضم الراء وكسر القاف وشد المثناة تحت مصدر رقى أى علوّه؛ أى زاد فى رفعة منزلته ومكانته وقدره الفخيم وشأنه العظيم (وَقَالَ:) مبينًا لتخصيصه بذلك من بين أولاده وغيرهم: (إِنَّ لابْنَى) سماه ابنًا كما سماه النبى ﷺ أبًا فى قوله:

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المُطَّلب »[1]

لأن ابن الابن ابن.

(هَذَا لَشَأْنًا) أى حالاً فخيمًا جليلاً (عَظِيمًا) وفى الإتيان بالمؤكدات زيادة معرفة عبد المُطَّلب بشأنه ﷺ، ويدل على ذلك ما فى «الخصائص الكبرى» كما قدمناه أنه كان يوضع لعبد المُطَّلب فراشٌ فى ظل الكعبة وكان لا يُجلِس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، وكان ﷺ يأتى حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه فيقول جدّه: دَعُوا ابنى، فيمسح على ظهره ويقول: إن لابنى هذا لشأنا[2] (فـ) ناسب حينئذ أن يقال: (بَخٍ بَخْ) الأول ينون والثانى يسكن وبتسكينهما وبتنوينهما وبتشديدهما، وتفرد ساكنة ومكسورة ومنونة مضمومة؛ كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء، أو الفخر أو المدح كما فى «القاموس» وتكرر للتأكيد أى عظم الأمر وفخم (لِمَنْ وَقَّرَهُ) بفتح الواو

(١) أخرجه البخارى (٤/ ٣٧)، ومسلم (الجهاد: ٧٨)، وأبو داود (٤٨٧)، والترمذى (١٦٨٨)، وأحمد (١/ ٢٦٤)، والدارمى (١/ ١٦٦)، والبيهقى فى السنن (٩/ ١٥٥)، وحلية الأولياء (٧/ ١٣٢)، وكنز العمال (٣٠٢٠٦)، وشرح السنة (١٢/ ٣٧٢)، والبيهقى فى الدلائل (١/ ١٣ و ٥/ ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٦٨)، والوفا ص (١١٧).

والقاف مشددة؛ أى عظَّمه (وَوَالاَهُ) الموالاة ضد المعاداة؛ أى اتخذه وليًا وآمن به ونصره.

وعن أم أيمن: كنتُ أحضن النبى ﷺ فغفلت عنه يومًا فلم أدر إلا بعبد المُطَّلب قائمًا على رأسى يقول: يا بركة، قلت: لبيك. قال: أتدرين أين ابنى؟ قلت: لا أدرى. قال: وجدته مع غلمان قريبًا من السِّدْرة، لا تغفلى عن ابنى، فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبىٌّ هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم»[1].

وكان لا يأكل طعامًا إلا يقول: علىَّ بابنى ـ أى أحضروه ـ. قالت: وكان عبد المُطَّلب إذا أُتى بطعام أجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه، وربما أقعده على فخذه، فيؤثره بأطيب طعامه، وكان يقول: وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لا يبلغه عربى قبله ولا بعده، وأنه تحدثه نفسه بملك عظيم وسيكون له شأن[2].

(وَلَمْ تَشْكُ) بسكون الشين المعجمة من الشكاية؛ أى لم تذكر لأحد من المخلوقين (فِى) حال (صِبَاهُ) صغر سنه الذى هو مظنة عدم احتمال المشاق فنفيه فى حال كبره أولى (جُوْعًا وَلاَ عَطَشًا قَطُّ) لكمال مشاهدته لجلال ربه تعالى؛ إذ هو ﷺ أولى الخلق بالتنزيه عما فيه أدنى قبح وذم فكيف لا ينزه عما فيه غايتهما. وقوله: «لم تشك إلى آخره» لا يقتضى أنه كان لا يجوع؛ لأن المنفى إنما هو الشكوى منه لا هو، وقد ورد ما يدل على أنه كان يجوع كما فى رواية الترمذى أنه ﷺ قال: «عرض علىَّ ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[3]. . انتهى.

ولفظ قَطُّ بفتح القاف وضم الطاء المشددة وهذا أشهر لغاته، وقد تخفف

(١) الوفا ص (١٧١).

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٢١)، والوفا ص (١١٧).

(٣) أخرجه الترمذى (٢٣٤٧)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٥٤)، والطبرانى فى الكبير (٨/ ٢٤٥)، ومشكاة المصابيح (٥١٩٠)، وحلية الأولياء (٨/ ١٣٣)، وطبقات ابن سعد (١/ ٢)، وأمالى الشجرى (٢/ ٢٠٨).

الطاء المضمومة، وقد تضم القاف اتباعًا لضمة الطاء المشددة أو المخففة، وجاء قطْ ساكنة الطاء مثل قط الذى هو اسم فعل، فهذه خمس لغات، وهى من الظروف المبنية المستغرقة لتأكيد نفى الماضى لا تفارق الظرفية أصلاً. تقول: ما فعلته قط. وعلة بنائها: تضمنها معنى ابتداء الغاية وانتهائها، وهى مشتقة من قططت الشىء إذا قطعته. فمعنى ما فعلته قط: ما فعلته فيما انقطع عن عمرى؛ لأن الماضى ينقطع عن الحال والاستقبال.

(**نَفْسهُ**) فاعل تشك (**الأَبِيَّهْ**) بفتح الهمزة وكسر الموحدة وشد التحتية أى المنسوبة للإباء وهو الامتناع مما يستحيا منه؛ أى الممتنعة من كل ما يشين؛ لأنه ﷺ كان على أكمل الأوصاف (**وَكَثِيراً مَا غَدَا**) بالدال: توجه وذهب أول النهار أى إتيانًا كثيراً وقع منه ﷺ، وما مزيدة مبالغة للتكثير (**فَاغْتَذَى**) بالذال المعجمة بالشرب من (**مَاءَ**) بئر (**زَمْزَمَ**) بنية الشبع والاستغناء به عن أكل الطعام؛ لأنه لما شُرِبَ له كما ورد فى الحديث[1] (**فَكَفَاهُ**) أغناه عن الطعام والشراب. ووقع فى بعض النسخ: «فأشبعه وأرواه» بدل قوله: «فكفاه» وهو بمعناه.

وماء زمزم أفضل مياه الدنيا الموجودة كما أن الكوثر أفضل مياه الآخرة، بل أفضل من ماء الكوثر كما قال به البلقينى أخذًا من إيثار المَلَك له على ماء الكوثر ليلة الإسراء عند غسل قلبه الشريف، صرح به العلامة ابن حجر فى «المنح» كما تقدم. وأفضل منهما الماء النابع من بين أصابعه الشريفة.

وقد صح عنه ﷺ فى ماء زمزم: أنه يروى الظمآن، ويشبع الجيعان، وتقدم أنه يقوى القلب ويسكن الروع. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طُعْم،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢)، والطبرانى فى الأوسط (٨٥٣)، وأحمد فى مسنده (٣/ ٢٠٢، ٢٢١)، والحاكم فى المستدرك (١٧٣٩)، والديلمى فى الفردوس (٣١٧١)، والأزرقى (٢/ ٥٢)، والبيهقى فى الشعب (٤١٢٧). انظر الكلام عليه فى: المقاصد الحسنة (٣٥٧)، كشف الخفاء (٢/ ٢٢٩)، التمييز (١١٥٢)، الغماز (٢٣٠)، الشذرة (٧٩٦). وأفرده الحافظ ابن حجر بالتأليف فى جزء لطيف، وهو مطبوع.

وشفاء سُقْم»[1].

وفى الحديث: «اشربوا من شراب الأبرار»[2] يعنى زمزم.

ولذلك استحب التضلع منها، وأن يذكر عند شربه ما يحب بأن يقول: اللهم إنه بلغنى أن رسولك ﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له»، اللهم وإنى أشربه لتغفر لى، ولتفعل بى كذا وكذا، أو: اللهم إنى أشربه مستشفيًا به فاشفنى. ونحو هذا.

قال فى «الأذكار»: وهذا مما عمل به العلماء والأخيار، فشربوه لمطالب لهم جليلة فنالوها. . انتهى.

وقد اقتصر أبو ذر الغفارى - رضى الله عنه - على الشرب منه نحو أربعين يومًا حتى سمن وطاب وانتعش جسمه وظهرت عكن بطنه[3].

وأصل ما ذكره المصنف - رحمه الله تعالى - ما روى عن أم أيمن قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ شكا جوعًا قط ولا عطشًا، وكان يغدو - أى يذهب - إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضنا عليه الغداء فيقول: «أنا شبعان»[4].

وزَمْزَم هى البئر المعروفة بمكة بفتح أوله وإسكان ثانيه وفتح الزاى الثانية، وبضم أوله وفتح ثانيه بلا تشديد وكسر الزاى الثانية. قيل: سميت بذلك لكثرة مائها، يقال: ماء زمازم وزمزم أى كثير، وقيل: هو اسم علم لها، وقيل: لتزمزم الماء فيها؛ أى حركته. والزمزمة: صوت بعيد يسمع له دوى. وقيل: صوت خفى، ومنه حديث عمر كتب إلى عماله فى أمر المجوسى ونهاهم عن الزمزمة، هى كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفى من غير استعمال لسان

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/٩٨)، ومجمع الزوائد (٣/٢٨٦)، والدر المنثور (٧/٢٢١)، والترغيب والترهيب (٢/٢٠٩)، وكنز العمال (٣٤٧٧٩).

(٢) أخرجه الفاكهى موقوفًا على كعب (١٠٨٦)، والأزرقى (٢/٥٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٤٧٣)، والدلائل لأبى نعيم (١٩٧)، وصحيح ابن حبان (٧١٣٣)، ومسند أحمد (٥/١٧٤)، وطبقات ابن سعد (٤/٢١٩).

(٤) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٢٤)، الاكتفا (١/ ١٩٠)، السيرة الشامية (٢/ ١٨٤).

ولا شفة، بل صوت يديرونه فى خياشيمهم وحلوقهم يشبه تراطن العلوج على أكلهم، وهم سموط، فيفهم بعضهم عن بعض. وقيل: لاجتماعها، وقيل: لاشتقاقها، وقيل: لأنها زمّت بالتراب لئلا تأخذ يمينًا وشمالاً.

وفى الحديث: إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما احتمل إسماعيل وأمه هاجر فأنزلهما بالحِجْر، ووضع عندهما سقاء فيه ماء، وجرابًا فيه تمر، فجعلت أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد عطشت فانقطع لبنها، وعطش إسماعيل ـ عليه السلام ـ وجعلت تنظر إليه يتلوى، وجعل يضرب بعقبه كأنه يَنْشَغ للموت ـ بفتح الياء المثناة تحت والنون الساكنة والشين المعجمة المفتوحة والغين المعجمة ـ أى ينازع، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه، وقالت: يموت وأنا غائبة عنه أهون على، وعسى الله أن يجعل فى ممشاى خيراً، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض إليها، فقامت عليها والوادى يومئذ عميق، وجعلت تستغيث ربها وتدعوه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً، فهبطت من الصفا حتى جاوزت الوادى إلى المروة، فقامت عليها فنظرت فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات وهى فى كل مرة تتفقد إسماعيل وتنظر ما حدث له بعدها، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَهْ [1] تريد نفسها، ثم تسمَّعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غَوَاث ـ بفتح الغين المعجمة والواو المخففة آخره ثاء مثلثة ـ أى مغيث، فإذا هى بجبريل ـ عليه السلام ـ فناداها: من أنت؟ قالت: هاجر أم ولد إبراهيم. قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله تعالى. قال: وكلكما إلى كافٍ، فخرج الصوت بين يديها وهى تؤمه حتى انتهى بها عند رأس إسماعيل، ثم تبدّى لها جبريل فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم، فبحث بعَقِبه ـ أو قال: بجناحه، وفى لفظ: وغمز بعَقِبه ـ فى الأرض فنبعت زمزم حتى ظهر الماء فوق الأرض، فذهبت أم إسماعيل فجعلت تحظر الماء

(١) صه: كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكنى.

بالتراب ـ وفى رواية: تحوِّضه بالضاد المعجمة وتشديد الواو أى تجعله كالحوض ـ خشية أن يفوتها قبل أن تأتى بِشَنِّها، وجعلت تغرف الماء فى سقائها وهى تفور بعدما تغرف. وقال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ كانت زمزم عينا مَعينا» بفتح الميم؛ أى ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض. فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَكْ: لا تخافى الضيعة ـ أى الهلاك ـ فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه[1]. الحديث.

قال ابن الجوزى ـ رحمه الله تعالى ـ: كان ظهور زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل، فلما خالطها تحويض هاجر: داخلها كسبُ البشر فقصرت على ذلك.. والله أعلم.

فائدة

ذكر بعضهم لزمزم جملة أسماء[2] منها: البركة، والنافعة، والميمونة، والكافية، والعافية، والشبَّاعة، والمغذية، والمروّية، والمعونة، وشراب الأبرار، والبشرى، والصافية، وهمزة جبريل، وسقيا إسماعيل، والسيدة، وغير ذلك.

وقد اتفقت الأئمة الأربعة على جواز نقله، بل استحبه الشافعى ومالك ـ رضى الله عنهما.

وفضيلته باقية فيه، وما يقال من أن فضيلته ما دام بمحله فإذا نقل تغير لا أصل له؛ فقد حمله رسول الله ﷺ والحسن والحسين، وكتب النبى ﷺ إلى سهيل بن عمرو: «إن جاءك كتابى ليلاً فلا تصبحن أو نهاراً فلا تمسين حتى تبعث إلىَّ بماء زمزم»[3]. وفيه: أنه بعث له بمُزَادتين وكان حينئذ بالمدينة قبل أن تفتح مكة.

---

(١) صحيح البخارى (٣/ ١٤٧)، سنن البيهقى (٥/ ٩٩)، مصنف عبد الرزاق (٩١٠٧)، الدر المنثور (١/ ١٢٥)، تفسير القرطبى (٦/ ٣٦٩)، طبقات ابن سعد (١/ ٨٣)، سيرة ابن هشام (١/ ١٤٥)، دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٩٣)، مثير الغرام الساكن ص (٣٢٠).

(٢) انظر فى أسماء زمزم: سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٤١)، الروض الأنف (١/ ٧٩).

(٣) سبل الهدى والرشاد (١/ ٢١٢).

[وفاة جده عبد المطلب وحضانة عمه أبو طالب]

(وَلَمَّا أُنيخَتْ) بالبناء للمجهول؛ أى بركت (بفِنَاء) بكسر الفاء؛ رحبة الدار (جَدِّهِ عَبْدُ المُطَّلِب مَطَايَا) جمع مطية؛ وهى الدابة تمط أى تجدّ فى سيرها (المَنِيَّة) بفتح الميم وشد التحتية؛ الموت: شبه المنية بجهة يحتاج فى التوجه إليها إلى المطايا فهى تخييل، وأنيخت ترشيح، كَنى بذلك عن حضور أجله بظهور علامات الموت (كَفَلَهُ) بفتحات مخففًا؛ أى حضنه (عَمُّهُ أَبُو طَالِب) واسمه عبد مناف عند الجميع، وشذ من قال عمران، بل هو قول باطل نقله ابن تيمية فى كتاب «الرد على الروافض» فقال: زعم الروافض فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ [1] أن آل عمران هم آل عبد المُطَّلب وأن اسمه عمران.

واشتهر بكنيته بأكبر أولاده الأربعة الذين بين كل واحد منهم وأخيه الذى يليه فى الولادة عشر سنين، والثلاثة الباقون: عقيل، فجعفر، فعلى ـ رضى الله عنهم ـ وأما طالب ففقد ببدر، قيل: اختطفته الجن فذهب ولم يعلم إسلامه.

وفى «المواهب»: وكان عبد المُطَّلب أوصاه بذلك أى بكفالته، فعلى هذا يجوز أن يضبط قول المصنف كَفَّله بتشديد الفاء مضعفًا من كفل اللازم، كما ضبطه بعضهم، وعليه فيقرأ ما بعده بالنصب أى جعل أبا طالب كفيلاً عليه ﷺ ووصَّاه بذلك لصغر سنه واحتياجه إلى من يقوم بتربيته والاعتناء بشأنه.

وإنما خَصَّ عبد المُطَّلب أبا طالب من بين سائر أعمامه ﷺ؛ لأنه (شَقِيقُ أَبِيْهِ عَبْدِ الله) أى أخوه من أبيه وأمه، والقصر إضافى فلا يرد أن الزبير شقيقه أيضًا، وقيل: وشاركه فى كفالته. وخَصَّ أبو طالب بالذكر لامتداد حياته،

(1) سورة آل عمران: ٣٣.

فإن الزبير لم يدرك الإسلام، وقيل: أقرع عبد المُطَّلب بينهما فخرجت القرعة لأبى طالب.

ومات عبد المُطَّلب ودفن بالحَجُون عند جده قُصَىّ عن مائة سنة وعشر أو وعشرين؛ لكن قال الواقدى: لم يثبت ذلك القول. أفاده فى «شرح المواهب»، أو وأربعين، أو وأربع وأربعين سنة، أو عن اثنين وثمانين سنة، أو عن خمس وتسعين سنة. أقوال فى ذلك.

وكان عمره ﷺ إذ ذاك سبع سنين وطعن فى الثامنة، وقيل: ثمان وشهر وعشرة أيام، وقيل: تسع، وقيل: عشر، وقيل: ست، وقيل: ثلاث وفيه نظر؛ لأن أقل ما قيل أنه كان فى موت أمه ابن أربع سنين، واتفقوا على أن جده كفله بعدها فكيف يتأتى أن يكون ابن ثلاث.

* * *

[ما ظهر من الآيات وهو فى كفالة عمه أبى طالب]

(فَقَامَ) أبو طالب (بِكَفَالَتِه) ﷺ (بِعَزْمٍ قَوِىٍّ) والعزم التصميم على فعل الشىء (وَهِمَّةٍ) وهى بكسر الهاء؛ حالة للنفس تبعث على إمضاء الشىء وإنفاذه، ومنه المُهِم بضم الميم؛ وهو الذى يحرك الهمة، والهُمَام هو الذى إذا هم بشىء أمضاه.

و (حَمِيَّةٍ) بفتح الحاء المهملة وكسر الميم؛ أى حماية بالغة عظيمة (وَقَدَّمَهُ) آثره (عَلَى النَّفْسِ) أى على نفسه (وَ) على (البَنِينَ) المنسوبين إليه (وَرَبَّاهُ) تربية بالغة، ودافع عنه، وكان يحبه حبًا شديدًا، ويوده ودًا أكيدًا، ويعظم شأنه وقدره، ويعده ذخره وفخره، ويستدفع به بلياته وأذياته، ويتوسل به فى قضاء مهمات حاجاته ويؤثره على أولاده.

ذكر الواقدى: أن عيال أبى طالب كانوا إذا أكلوا جميعًا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل المصطفى معهم شبعوا؛ فكان أبو طالب إذا أراد أن يغدِّيهم أو يُعشِّيهم يقول: كما أنتم حتى يأتى ابنى، فيأتى فيأكل معهم فيفضل من طعامهم، وإن كان لبنًا شرب أولهم ثم يشربون فيروون كلهم من قَعْب[1] واحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبًا وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك[2].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: كان بنو أبى طالب يصبحون عمشًا رُمْصًا[3]، ويصبح محمد ﷺ صقيلاً دَهِينًا كحيلاً، وكان أبو طالب يحبه حبًا شديدًا لا يحب أولاده كذلك، ولا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج به متى خرج.

---

(١) القعب: قدح من خشب.

(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٢٣)، الوفا ص (١٢٧)، الاكتفا (١/ ١٩٠)، السيرة الشامية (٢/ ١٨٣).

(٣) الرَّمَص: وسخ يجتمع فى الموق، فإن سال فهو غَمَص، وإن جمد فهو رَمَص.

وذكر ابن قتيبة فى «غريب الحديث»: أنه كان يوضع له الطعام ولصبية أبى طالب، فيتطاولون إليه ويتقاصر هو، وتمتد أيديهم وتنقبض يده تكرمًا منه واستحياء، ونزاهة نفس وقناعة قلب، ويصبحون عمشًا رُمْصًا مصفرة ألوانهم، ويصبح هو ﷺ صقيلاً دهينًا؛ لأنه فى أنعم عيش وأعز كفالة، لطفًا من الله به.

* * *

[استسقاء أبى طالب برسول الله ﷺ]

وأخرج ابن عساكر عن جُلْهمة بن عُرْفُطَة، قال: قدمتُ مكة وقريش فى قحط، فقائل منهم يقول: اعمدوا للات والعُزَّى، وقائل منهم: اعمدوا مَنَاة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأى: أنى تؤفكون وفيكم بقية إبراهيم، وسُلالة إسماعيل. قالوا: كأنك عنيتَ أبا طالب؟ قال: إيهًا. فقاموا بأجمعهم. وقمت فدققنا عليه الباب فخرج إلينا. فقالوا: يا أبا طالب! أقْحط الوادى وأجْدَب العيال، فهلم فاستَسْقِ لنا، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى تجلَّت عنه سحابةٌ قَتْماء - أى مغبرة - وحوله أُغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأضبعه[1] وما فى السماء قَزَعَة[2]، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدودق[3]، وانفجر له الوادى وأخصب النادى والبادى. وفى هذا يقول أبو طالب:

وأبيضُ يُسْتسقى الغمامُ بوجهه ... ثِمَالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ[4]

والثِمَال بكسر المثلثة وتخفيف الميم؛ الملجأ والغياث، وقيل: المطعم فى

(١) الضبع: العضد كلها أو وسطها، أو الإبط، أو ما بين الإبط إلى نصف العضد.

(٢) القزعة: السحابة.

(٣) أغدق واغدودق: أى كثر.

(٤) الخصائص الكبرى (١/ ١٤٦)، والسيرة الشامية (٢/ ١٨٥) عن ابن عساكر.

الشدة، ويصح إرادتهما معًا هنا، وقوله: «عصمة للأرامل» يمنعهم من الضياع والحاجة، والأرامل: المساكين من رجال أو نساء، وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالاً، والواحد أرمل، والواحدة أرملة، وهذا البيت من أبيات فى قصيدة لأبى طالب أكثر من ثمانين بيتًا، استوفاها ابن إسحاق، لكنه ذكر أن إنشاءه لها كان بعد المبعث. وقد يجمع بأنه ذكر هذا البيت إثر هذه الواقعة، ثم كمَّلها بعد المبعث.

ونسبته لجده عبد المُطَّلب غَلَطٌ؛ فقد أخرج البيهقى، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الجدب، فقام ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر، فرفع يديه إلى السماء ودعا، فما رد يديه حتى التفت السماء بأبراقها، وجاءوا يضجون الغرق، فضحك ﷺ حى بدت نواجذه، ثم قال: «لله دَرُّ أبى طالب، لو كان حيًا لقَرَّت عيناه، من ينشدنا قوله؟». فقال علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ يا رسول الله كأنك تريد قوله: وأبيض يستسقى. . وذكر أبياتًا. فقال ﷺ: «أجل»[1].

فهذا نص صريح من الصادق بأن منشئ البيت أبو طالب، نبه عليه [ابن حجر] فى «شرح الهمزية»، فنسبته لعبد المُطَّلب غلط صريح.

تنبيه

جميع ما ذكر فى أبى طالب من أنه يحب النبى ﷺ، ويمدحه، وأنه ربَّاه صغيرًا، وآواه كبيرًا، وأنه كان يحوطه وينصره، ويعزره ويوقره، ويعينه على تبليغ دينه، ويصدقه فيما يقول، ويذب عنه، ويأمر أولاده: كجعفر، وعلىّ باتباعه ونصره، وينطق بحقية دينه ـ كما تواترت به الأخبار ـ دليل على أنه كان يعرف بنبوة النبى ﷺ.

وقد دلت أحاديث شفاعته ﷺ على أنه يشفع فيمن فى قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، وأن الشفاعة لا تنال مشركًا، وقد نالت أبا طالب

(١) البداية والنهاية (٦/ ١٠٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ١٥)، طبقات ابن سعد (١/ ٩٠).

بنص الحديث الصحيح.

ونعلم قطعًا أنه كان يُصَدِّق بنبوّة النبى وصدقه وحَقية دينه، وكفى بالظاهر دليلاً؛ فلا بد من القول بنجاته، وهو الظن بسعة رحمة الله وكرمه، وإن كان مجرد المعرفة بالنبوّة لا يستلزم الإسلام.. وبالله التوفيق.

* * *

[سفر النبى ﷺ مع عمه أبى طالب إلى الشام وما ظهر فيه من الآيات]

(وَلَمَّا بَلَغَ) رسول الله ﷺ (اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً) قاله الأكثر. وقيل: تسع سنين، قاله الطبرى وغيره، ورجحه* الشهاب فى «النسيم». وقيل: إحدى عشرة سنة. وقيل: ثلاث عشرة سنة، حكاه أبو عمر. قال ابن الجوزى: قال أهل السير والتواريخ: لما أتت عليه ﷺ اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام. وفى سيرة مُغْلَطاى: وشهر. ويمكن حمل القول الأول عليه بأن المراد: ما قاربها (رَحَلَ بِهِ) أى بالنبى ﷺ عمه أبو طالب؛ وسبب ذلك: أن أبا طالب لما تهيأ للرحيل إلى الشام أمسك [النبى ﷺ] بزمام ناقته وقال: «يا عم إلى من تكلنى ولا أب لى ولا أم» فرَقَّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدًا، فخرج به معه ولم يزل سائرًا مع أبى طالب (إِلَى البِلاَدِ الشَّامِيَّةِ) حتى بلغ بُصْرى (وَعَرَفَهُ الرَّاهِبُ) أى الزاهد فى المأكل والمشرب لشدة رهبته أى خوفه (بَحيْرَا) بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة مقصورا، وقيل: ممدودًا، وقيل: بضم الباء وفتح الحاء، وكان إليه انتهى علم النصرانية واسمه: جرجيس، وفى بعض النسخ: سرجس، وفى بعضها: جرجس، حين رآه (بِمَا حَازَهُ) جمعه (مِنْ وَصْفِ النُّبُوَّةِ) التى فى الكتب المنزلة على أنبيائهم (وَحَوَاهُ) بمعنى حازه، فعطفه على ما قبله عطف تفسير،

وكانت قريش - كما في رواية ابن إسحاق - كثيراً ما يمرون على بَحِيْرَا فلا يكلمهم ولا يلتفت إلى أحد منهم حتى إذا كان ذلك العام قال: يا معشر قريش إنى صنعت لكم طعامًا فاحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وحركم وعبدكم. فقال رجل منهم: والله يا بَحِيْرَا إن لك اليوم لشأنا، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بَحِيْرَا: صدقت. ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم. فذهبوا واجتمعوا إليه وتركوه ﷺ عند رحالهم لحداثة سنه، فلما نظر بَحِيْرَا فى القوم لم يره ﷺ فقال لهم: هل بقى أحد؟! قالوا: لا، إلا ولد صغير. قال: لا تفعلوا، ادعوه، فليحضر هذا الغلام معكم، فقام الحارث بن عبد المُطَّلب فأتى به.

وفى رواية: فسألوه عن سبب ذلك فقال: إنى رأيت غمامة تظله، ولما نزل تحت الشجرة مالت لجانبه، فإن مثله لا يكون إلا لنبى، وإنا نجد نعته فى كتابنا.

فلما رآه بَحِيْرَا جعل يلحظه لحظًا شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم قام إليه بَحِيْرَا فقال: أسألك باللات والعُزَّى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه -.

قال فى «إنسان العيون»: وإنما قال له بَحِيْرَا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما وليس بشىء بل لأنه كان منعوتًا عندهم بأنه لا يحلف بهما، ويؤيده ما يأتى من قول اليهودى لمَيْسَرة فى سوق بُصْرى: والذى نفسى بيده إنه هو الذى تجده أحبارنا منعوتًا - أى بهذه الصفة - فى كتبهم.

وفى «الشفاء» - فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسألنى باللات والعُزَّى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما» فقال بَحِيْرَا: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه. فقال رسول الله ﷺ: «سلنى عما بدا لك». فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره، ويخبره رسول الله ﷺ، فوافق ذلك

ما عند بَحِيراَ من صفته ـ أى صفة النبى المبعوث آخر الزمان ـ التى عنده، ثم كشف عن ظهره فرأى خَاتَم النبوة على الصفة التى عنده، فقبَّل موضع الخَاتَم. فقالت قريش: إن لمحمد عند الراهب لقدراً. فلما فرغ أخذ بيده ﷺ (وقال) مخاطبًا أبا طالب ومن معه: (إِنِّى أَرَاهُ) أتيقنه (سَيِّدَ العَالَمِينَ) أى أشرف المخلوقين، تقدم الكلام عليه عند قوله: إنك حملت بسيد العالمين فراجعه إن شئت.

* * *

[معنى النبى والرسول والنبوة والرسالة]

(وَرَسُولُ اللهِ وَنَبِيُّهُ) والرسول من البشر ذَكَرٌ حُرٌّ، أكمل معاصريه ـ غير الأنبياء ـ عقلا وفطنة وقوة رأى وخَلْقًا بالفتح، وعقدة موسى أزيلت بدعوته عند الإرسال ـ كما فى الآية ـ معصوم ولو من صغيرة سهواً ولو قبل النبوة ـ على الأصح ـ، سليم من دناءة أب وخنا أم وإن عليا، ومن منفر: كعمى، وبرص، وجذام، ولا يرد بلاء أيوب، وعمى يعقوب بناء على أنه حقيقى لطروئه بعد الأنباء، والكلام فيما قارنه، والفرق أن هذا منفر بخلافه فيمن استقرت نبوته، ومن قلة مروءة: كأكل بطريق، ومن دناءة صنعة: كحجَامة، أُوحى إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

وإن لم يكن له كتاب ولا نسخ كيوشع فإنه بعث مؤكداً لشريعة موسى ـ عليه السلام ـ فإن لم يؤمر فنبى، فهو أخص من مطلق النبى لزيادته عليه بالأمر بالتبليغ.

قال فى «التحفة»: وهو أفضل من النبى إجماعًا لتميزه بالرسالة التى هى ـ على الأصح خلافًا لابن عبد السلام ـ أفضل من النبوة فيه، وزعم تعلقها بالحق يرده أن الرسالة فيها ذلك مع التعلق بالخلق فهو زيادة كمال فيها.

وبين النبوة والرسالة من النسب العموم والخصوص الوجهى يجتمعان فيمن كان رسولاً نبيًا، وتنفرد النبوة فيمن كان نبيًا فقط كالخضر ـ على أحد الأقوال فيه ـ وتنفرد الرسالة فيمن كان رسولاً لا نبيًا كجبريل، وهذا إن لم ينظر إلى النبوة والرسالة المتعلقتين بالآدميين وإلا فبينهما من النسب عموم وخصوص مطلق، إذ كل رسول نبى ولا عكس.

وما ذكرناه فى تعريف الرسول يجرى أيضًا فى تعريف النبى غير أنه لم يؤمر بالتبليغ، فيخرج بالبشر: بقية الحيوانات. وكفر من قال: فى كل أمة نذير بمعنى: أنه فى كل جماعة من الحيوانات رسول، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [1] فهو فى أمم البشر الماضية.

ويخرج بالذكر: الأنثى، والقول بنبّوة مريم، وآسية، وحواء، وأم موسى، وهاجر، وسارة؛ مرجوح، وتقدم أن بعضهم نقل الإجماع على عدم نبوة النساء وأنه الصحيح.

ويخرج بالحر: الرقيق، ولا يرد لقمان؛ لأنه لم يكن نبيًا بل كان تلميذ الأنبياء.

ثم النبى والرسول إذا أطلقا فى القرآن والسنة فإنما المراد بهما نبينا محمد ﷺ، وهو الرسول المطلق لكافة الخلق من الأوّلين والآخرين؛ فرسالته عامة، ودعوته تامة، ورحمته شاملة، وإمداداته فى الخلق عاملة، وكل من تقدم من الأنبياء والرسل قبله فعلى حسب النيابة عنه؛ فهو الرسول على الإطلاق، وهو المخبر فى الخلق، فاتجه وجه اختصاصه ﷺ بهما.

هذا ولم يقع فى كلام بَحِيْرا التصريح بلفظ النبى، وإنما الذى وقع فى كلامه كما فى رواية: هذا سيد العالمين، ورسول الله إلى الناس أجمعين.

وفى رواية الترمذى: هذا سيد المرسلين، هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله

(١) سورة فاطر: ٢٤.

رحمة للعالمين[1].

وإنما تضمنه لفظ الرسول؛ لأن الرسالة المتعلقة بالآدميين تستلزم النبوة، فحكى المؤلف عنه ما تضمنه كلامه رعاية للسجع.

ثم إنهم سألوه عن سبب ذلك فقال: (قَدْ) رأيت حين أشرفتم على العقبة (سَجَدَ لَهُ الشَّجَرُ والحَجَرُ) ولما نزل تحت الشجرة مال إليه فيؤها. ولفظ رواية الترمذى الآتية: لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجدًا. وفى رواية: لم يبق شجرة ولا حجر. وعلى كل فالرواية بالمعنى جائزة.

(وَلاَ يَسْجُدَانِ) إذا مر بهما، أو نزل عندهما (إِلاَّ لِنَبِيٍّ) من الأنبياء تعظيمًا له.

(أَوَّاهُ) بفتح الهمزة فواو مشددة فألف بعدها هاء؛ كثير التأوّه أى التوبة والاستغفار، كذا فى كلام بعضهم، وفى كلام غيره: التوجع والتأسف من الذنوب على الناس. وفى «القاموس»: الأوّاه: الموقن والرحيم الرقيق، أو المؤمن. وقيل: هو الكثير البكاء. وقيل: الكثير الدعاء، والكل لائق بمقامه ﷺ.

وبالجملة فقد كان ﷺ أشد الناس خشية وخوفًا من الله، ومن ثم كان ﷺ يقول: «أنا أتقاكم لله وأخوفكم منه»[2]. وكان ﷺ يقول: «أوّاه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أوّاه»[3].

وعن أبى موسى الاشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: «أول من صنعت له النورة ودخل الحمام: سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام

(١) أخرجه الترمذى (٣٦٢٠) وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٤) وقال: إن القصة مشهورة عند أهل المغازى. والحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبى: أظنه موضوعًا، وبعضه باطل. والخبر أورده أبو نعيم فى الدلائل ص (١٢٥)، وابن هشام فى السيرة (١/ ٢٠٣)، وابن الجوزى فى الوفا ص (١٢٨).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٣٤).

(٣) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

ـ فلما دخله وجد حرَّه وغَمَّه قال: أوّاه من عذاب الله أوَّاه أوَّاه قبل أن لا يكون أوَّاه»[1].

فائدة

لم يثبت أنه ﷺ دخل الحمام، بل ولا رآه كما قاله ابن القيم، قال: وما وقع لبعضهم مما يوهم خلاف ذلك وَهْمٌ. . انتهى.

وأما الحمام الموجود الآن بمكة المشرفة المشهور بحمام النبى ﷺ فقد قال فى «سفر السعادة»: لعله بنى فى موضع اغتسل فيه ﷺ مرة. قلت: والحمام المذكور بيدنا الآن لكونه موقوفًا على والد المؤلف وذريته رحمهما الله تعالى.

قال المُناوى فى «الشرح الكبير على الجامع الصغير» ما حاصله: وقد اختلف السلف والخلف فى حكم دخول الحمام على أقوال كثيرة، والأصح: أنه مباح للرجال بشرط الستر والغض عمن يحرم نظره إليه وجوبًا، وعن غيره ندبًا، مكروه فى حق النساء إلا لحاجة، وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه. . انتهى.

فدخوله مع الستر جائز، لكن الأولى تركه إلا لعذر؛ للحديث الصحيح: «اتقوا بيتا يقال له الحمام فمن دخله فليستتر»[2].

هذا وكان بَحِيْرَا قد عرف ذلك من الأحجار والأشجار بالتجربة مع علمه ذلك من الكتب كما قال: (وإِنَّا نَجِدُ نَعْتَهُ) وصفه بما ذكر من سجود الأشجار والأحجار، وأنهما لا يسجدان لغير نبى من المخلوقات مبينًا (فِى الكُتُبِ القَدِيمَةِ السَّمَاوِيَّهْ) وفى رواية: وإنا لنجده فى كتابنا، بالإفراد، والنسبة إليهم مع زيادة لام التأكيد فى خبر إن (و) نجد فيها من صفته أيضًا: أنه يكون (بَيْنَ

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٨٨١٣) لابن أبى شيبة وابن السُّنى فى عمل اليوم والليلة وابن عدى فى الكامل وابن عساكر فى تاريخه. وضعفه فى الجامع الصغير (٢٨٣٩) وكذلك المناوى. وانظر: كشف الخفا (١/ ٣١٣)، ومجمع الزوائد (٨/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٨٨) وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبى. والطبرانى فى الكبير (١١/ ٢٧)، وعزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٤٥٤) للبيهقى فى الشعب والحكيم الترمذى.

كَتفَيْه خَاتَمُ النُّبوة) مر تفسيره (قَدْ عَمَّهُ النُّورُ وَعَلاَهُ) البهاء (وَأَمَرَ) بَحيرًا الرَاهب (عَمَّهُ) أبا طالب (بِرَدِّه) ﷺ (إِلَى مَكَةَ) بعد أن قال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابنى. قال: ما هو ابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا. قال: فإنه ابن أخى. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به. قال: قد صدقت، ثم قال: ما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبًا. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلاده.

وإنما أمره بذلك (تَخَوُّفًا) أى لأجل الخوف (عَلَيْه منْ) أعدائه (أَهْلِ دِينِ) الملة (اليَهُوديَّه) ففى الرواية: واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه عرفوا منه ما عرفت لتبغينه شرًا؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده فى كتبنا، ورويناه عن آبائنا، واعلم أنى قد أديت لك النصيحة. فأسرع به إلى بلاده.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر، عن أبى مجلز: أن أبا طالب سافر إلى الشام فأخذ معه النبى ﷺ فنزل منزلاً، فأتاه فيه راهب فقال: إن فيكم رجلاً صالحًا، وقال: أين ولىّ هذا الغلام؟ قال أبو طالب: ها أنا ذا. قال: احتفظ بهذا الغلام، ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حُسُدٌ، وإنى أخشاهم عليه.

ولفظ رواية الترمذى والبيهقى فى «الدلائل» والخرائطى وابن أبى شيبة، عن أبى موسى [الأشعرى]، قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى ﷺ فى أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب ـ يعنى بَحِيرًا ـ هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم وكان قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت إليهم، فجعل وهم يحلون رحالهم يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى ﷺ ثم قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال الأشياخ من قريش: ما أعلمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم على العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خَرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبى، وإنى لأعرفه بخاتم النّبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع وصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به كان النبى ﷺ فى رعية الإبل ـ وتقدم فى

رواية ابن إسحاق: أنه أحضرهم للطعام وأن المصطفى تخلف لحداثته ـ ويُجْمَع على بُعْدٍ أنه صنع لهم الطعام مرتين ـ فقال: أرسلوا إليه، فأقبل ﷺ وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوا إلى فيئ الشجرة، فلما جلس مال فيئ الشجرة عليه، فقال الراهب: انظروا إلى فيئ الشجرة مال، فبينما هو قائم عليهم وهو يعاهدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ـ أى داخل الشام ـ فإنهم إن عرفوه قتلوه، فالتفت فإذا سبعة من الروم قد أقبلوا، فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا إلى هذا النبى الذى هو خارج فى هذا الشهر ـ أى مسافر فيه ـ فلم يبق طريق إلا وبعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. فبايعوه ـ أى بايعوا بَحِيْرَا ـ على مسالمة النبى ﷺ وعدم أخذه. وقال بَحِيْرَا لقريش: أيكم وليّه؟ قالوا: أبو طالب (فَـ) لم يزل يناشده حتى (رَجَعَ) أبو طالب (بِهِ) ﷺ سريعًا وأقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

ولفظ رواية الحديث بعد قوله: فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت

وضعف الحافظ الذهبى الحديث؛ لقوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً؛ فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً، ولا اشترى بلالا. قال ابن سيد الناس: لأنه حينئذ لم يبلغ عشر سنين فإن المصطفى أزيد منه بعامين وكان له يومئذ تسعة أعوام على ما قاله الطبرى وغيره، واثنا عشر عامًا على ما قاله آخرون، ولا اشترى بلالا. قال اليعمرى: لأنه لم ينتقل لأبى بكر إلا بعد ذلك بأزيد من ثلاثين عامًا؛ فإنه كان لبنى خلف الجُمَحيين، وعندما عذب فى الله اشتراه أبو بكر رحمة له واستنقاذًا له من أيديهم. وخبره بذلك مشهور.. انتهى. وسيأتى فى كلام المصنف.

قال الحافظ ابن حجر فى «الإصابة»: الحديث رجاله ثقاة من رواة

الصحيح، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة، فتحصل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهمًا من أحد رواته. . انتهى.

وما روى: أن النبى ﷺ سأل أبا بكر، فقال له: «من الأكبر منا أنا أو أنت؟» فقال له أبو بكر: أنت أكبر وأكرم وأنا أسن. قيل فيه: أنه وهم، وأن ذلك إنما يعرف لعمه العباس. وكون بلال أصغر من أبى بكر ينازعه قول أبى حيان - رحمه الله تعالى - بلال كان تِرْبًا لأبى بكر؛ أى قرينه فى السن، ويه يرد قول الذهبى بلال لم يكن خلق.

(ولَمْ يُجَاوِزْ مِنَ) أرض (الشَّامِ المَقْدِسَ) المطهر لأنه قرار الأنبياء، ومسكن المؤمنين، وما من نبى إلا وهو فيه أو هاجر إليه أو هو منه. وأول من هاجر إليه من الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - وبه ينزل عيسى - عليه السلام - وستأتى قصة نزوله، وهو أرض المحشر والمنشر. وقال ﷺ: «عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبى إليها خيرته من عباده»[1].

وجاء: «طوبى للشام؛ لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»[2] أخرجه الترمذى بإسناد صحيح.

وجاء: «طوبى للشام إن الرحمن لباسط رحمته عليه»[3] أخرجه الطبرانى.

وفى آخر الزمان يستقر العلم والأمان بالشام.

وفى «الدر المنظم فى تاريخ الأمم»: قال كعب الأحبار: وجد فى كتاب الله تعالى - يعنى التوراة - أن الأرض على صفة النسر، فالرأس الشام، والجناحان المشرق والمغرب، والذنب اليمن، ولا تزال الناس بخير ما لم يقرع الرأس، فإذا قرع الرأس هلك الناس كلهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (الجهاد: باب ٣)، وأحمد فى مسنده (٨/٢)، والطبرانى فى الكبير (٦٩/ ٤٢٠)، والترمذى (٢٢١٧)، وابن عساكر (١/ ٣٠).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٩٥٤)، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٨٤)، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٦٠)، والترغيب والترهيب (٦٣/٤).

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٥/ ١٧٦)، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٨٥).

وسمى شامًا باسم شام بن نوح ـ بالشين ـ أو لأنه من المشامة: القيلة، أو لأن أرضه شامات بيض وحمر وسود، وقد لا يهمز.

(بُصْرَاه) بضم الموحدة وسكون الصاد المهملة فألف مقصور، مدينة بالشام تسمى حَوْرَان بفتح الحاء والراء المهملتين بينهما واو ساكنة، فتحت صلحًا لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة فى خلافة أبى بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ وبها مبرك الناقة التى يقال أن ناقته ﷺ بركت فيه فأثر ذلك فيه، وبها قبر سعد بن عبادة ـ رضى الله عنه ـ، وهى أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبّوة ـ.

وعلى أنه كان ذلك مرتين كما فى «إنسان العيون»، ناسب قدومه ﷺ إليها مرتين: مرة مع عمه أبى طالب ـ كما هنا ـ ومرة مع مَيْسَرة غلام خديجة ـ رضى الله عنها ـ كما يأتى، وسبق فى الكلام على قول المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام... إلخ. فى حكمة تخصيصها من أرض الشام بما ذكر لذلك، أو لأنها أول مدينة فتحت من أرض الشام فى الإسلام.

وقيل: إنها مدينة أخرى بين المدينة ودمشق.

وجاء فى بعض الروايات بسند ضعيف: أنه لما بلغ عشرين سنة عاد إلى الشام فى تجارة ومعه أبو بكر، فسأل بَحِيْرَا عنه، فأقسم أنه نبى آخر الزمان، وكان ذلك سبب إيمان أبى بكر لما بُعث[1]. قال بعضهم: وعلى هذا فيكون قد سافر إلى الشام ثلاث مرات.

لكن قال فى «إنسان العيون»: لم يثبت أنه ﷺ سافر إلى الشام أكثر من مرتين. ويؤيده ما تقدم من قول الراوى: عاد إلى الشام فى تجارة؛ لأن النبى ﷺ لم يخرج تاجرًا إلى الشام إلا فى تلك السفرة، وسيأتى أن هذا القول

(١) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/٤٥)، والشامى فى سيرته (٢/١٩٣) لابن منده (١/١٤٥) وقالا: إسناده ضعيف.

قاله الراهب نَسْطُورا لا بَحِيْرَا، قاله لمَيْسَرة لا لأبى بكر.

تنبيه

قال فى «نسيم الرياض»: بَحِيْرَا أول من آمن به ﷺ، وعُدَّ من الصحابة إن قلنا أن من اجتمع به ﷺ مؤمنًا مطلقًا يعد من الصحابة. قال الذهبى: رأى - يعنى بَحِيْرَا - رسول الله ﷺ وآمن به. وذكره ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة. وقال ابن حجر - رحمه الله تعالى - فى «المنح»: ذكره جمع فى الصحابة بناء على أن الشرط رؤيته ﷺ والإيمان به ولو قبل المبعث.. انتهى.

قلت: فعلى هذا ليس هذا بَحِيْرَا الراهب الصحابى الذى هو أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب، فعنه - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا شرب الرجل كأسًا من خمر...»[1] الحديث.

ومن قال أن هذا الحديث منكر ظنَّ أنَّ بَحِيْرَا هذا هو المذكور هنا الذى لقى النبى ﷺ قبل البعثة.. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

(١) انظر: ميزان الاعتدال (٣٢٤٣)، لسان الميزان (٣/ ١٤٢)، الكامل فى الضعفاء (٣/ ١٣٤٨). والحديث منكر.

[سفره ﷺ مرة ثانية إلى الشام][1]

(وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً) على الراجح من أقوال ستة وعليه جمهور العلماء وتلك أقوال ضعيفة لم تقم لها حجة على ساق (سَافَرَ) مرة ثانية لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة(إِلَى بُصْرَى) المتقدم ذكرها (فِي) شأن (تِجَارَةِ لِخَدِيجَةَ) بنت خويلد بن أسد (الفَتِيَّةِ) الشابة الكريمة. قال الواقدى وغيره: وكانت خديجة تاجرة ذات شرف ومال كثير، وتجارة تبعث بها إلى الشام، فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربةً، وكانت قريش قومًا تجارًا، ومن لم يكن عندهم تاجرًا فليس عندهم بشيء (وَمَعَهُ) ﷺ (غُلَامُهَا) مملوكها (مَيْسَرَةَ) بفتح الميم وسكون المثناة التحتية وفتح السين المهملة وضمها وبعد رائه هاء التأنيث اللفظى، لم تعلم له صحبة كما فى «النور». قال: والظاهر أنه مات قبل البعثة، ولو أدركها لأسلم. وفى «الإصابة» ما نصه: لم أقف على رواية صحيحة صريحة فى أنه بقى بعد البعثة (يَخْدُمُه) ﷺ بضم الدال المهملة وكسرها (وَيَقُومُ بِمَا عَنَاهُ) بفتح العين المهملة؛ أى قصده، وأراد مباشرته والاشتغال به مما فيه تعبه إراحة له ﷺ حسبما أمرته به خديجة ـ رضى الله عنها ـ «لا تَعْصِ له أمرًا، ولا تخالف له رأيًا». وقد ألقى الله محبة رسول الله ﷺ فى قلب مَيْسَرة فكان كأنه عبده.

وسبب ذلك أن عمه أبا طالب قال له: يا ابن أخى، أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وألَحَّتْ بنا سنون الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك فى عيرها يتَّجرون لها فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضَّلتك

---

(١) السيرة الشامية (٢/ ٢١٤)، طبقات ابن سعد (١/ ١/ ٨٣)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١١٣)، الوفا ص (١٤٠)، تاريخ ابن عساكر (١/ ٢٧٤).

على غيرك، لما يبلغها من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتى الشام، وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بُدًا، فقال ﷺ: «لعلها ترسل إلىَّ فى ذلك». فقال أبو طالب: إنى أخاف أن تولِّى غيرك فتطلب أمرًا مُدْبرًا.

فلما بلغها ذلك قالت: ما علمت أنه يريد هذا، وأرسلت إليه وقالت: إنى دعانى إلى البعث إليك ما بلغنى من صِدْق حديثك، وعِظَم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضِعْف ما أعطى رجلاً من قومك. ففعل ﷺ، ولقى عمه فذكر له ذلك، فقال: إن هذا لرزقٌ ساقه الله إليك.

(وَ) لما قدم ﷺ إلى أرض بُصْرَى (نَزَلَ تَحْتَ) أغصان (شَجَرَة) عظيمة يابسة نخر عودها لكن إلى غير جهة الظل لما يأتى (لَدَى صَوْمَعَةٍ) ما يتعبد فيها الرهبان من الأماكن المرتفعة (نَسْطُورَ) بفتح النون وسكون السين المهملة بعدها طاء مهملة وواو ساكنة آخره راء، كذا فى سيرة مُغْلَطاى، وقال فى «النور»: وألف مقصورة كذا نحفظه، ولم أر أحدًا تعرض لعده فى الصحابة، وينبغى أن يكون الكلام فيه كالكلام فى بَحِيرًا.

قال فى«إنسان العيون»: ولعل نَسْطور هذا هو الذى نسب إليه النَّسْطُورية من النصارى؛ فإن النصارى افترقت ثلاث فرق: نَسْطُورية قالوا: عيسى ابن الله، ويعقوبية قالوا: عيسى هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وملكانية قالوا: عيسى عبد الله ونبيه، زاد بعضهم فرقة رابعة وهم إسرائيلية قالوا: هو إله وأمه إله والله إله.

هذا وفى «القاموس» النُّسطورية ـ بالضم وتفتح ـ أمَّة من النصارى تخالف بقيتهم، وأصحاب نُسطور الحكيم الذى ظهر فى أيام المأمون، وتصرف فى الإنجيل برأيه وقال: إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة. وهو بالرومية نسطورس.. انتهى.

كما افترقت اليهود ثلاث فرق؛ فإنها افترقت إلى قرابية، وربانية، وسامرة.

(رَاهِبُ) الملة (النَّصْرَانِيَّه) ففى بعض الروايات: ونزل رسول الله ﷺ تحت

شجرة يابسة نخر عودها، فلما اطمأن تحتها، اخضرت ونورت، واعشوشب ما حولها، وأينع ثمرها، وتدلت أغصانها ترفرف عليه، وتحول الظل إلى جهته ﷺ **(فَعَرَفَهُ)** بذلك حتى وصفه بالنبوة قبل ظهورها وانجلاء كمال نورها **(إذ)** حين اخضرت ونورت واعشوشب ما حولها و **(مَالَ)** تحوّل **(إلَيْه)** خصوصية له ﷺ **(ظِلُّهَا الوَارِفُ)** بكسر الراء المهملة بعدها فاء؛ الواسع الممتد الطويل، وفى بعض النسخ: الوارق بالقاف اسم فاعل ورق يرق، قال فى «القاموس»: وشجرة كثيرة الورق، والوارقة: الخضراء الورق الحسنة. وعليه فالشجرة كانت خضراء، ولا منافاة لأنها كانت يابسة فاخضرت وأورقت بنزوله ﷺ تحتها كما علمت مما مر. ولعل المصنف استعمله لعلاقة اللزوم.

(وآوَاهُ) أى ستره من حر الشمس فصار مأوى ومنزلاً له ﷺ **(وقَالَ)** نَسْطور لَمِيْسَرة ـ وكان يعرفه ـ: من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال مَيْسَرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له ولغيره مبينًا لهم: **(مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذه الشَّجَرَة قَطُّ)** منذ خلقت وإلى ذلك الآن أحد **(إلاَّ)** من هو **(نَبِيٌّ)** مر تفسيره كالرسول، أى صانها الله تعالى عن أن ينزل تحتها غير نبى ـ كما قاله فى «إنسان العيون» ـ متصف بالنبوة. ولا يخفى أن ميلان تلك الشجرة وبقاءها زمنًا طويلاً قبل عيسى وبعده إلى زمن نبينا على خلاف العادة، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحتها، وكذا صرف الأنبياء الذين وُجدوا بعد عيسى والذى دلت عليه هذه الرواية والرواية الآتية ممكن خصوصية له ﷺ، وإن كانت الشجرة لا تبقى فى العادة هذا الزمن الطويل، وإن كان يبعد فى العادة ـ أيضًا ـ أن تكون شجرة تخلو عن أن ينزل تحتها أحد غير الأنبياء؛ لأن هذا الأمر ممكن خرقًا للعادة، والأنبياء لهم خرق العوائد سيّما نبينا ﷺ.

وبهذا يردّ قول السهيلى: يريد ما نزل تحتها ـ أى هذه الساعة ـ إلا نبى، ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبى لبعد العهد بالأنبياء، قيل ذلك، وإن كان فى لفظه قط فقد تكلم بها على جهة التوكيد للنفى، والشجرة لا تعمر فى العادة

هذا العمر الطويل حتى يدرى أنه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء، ويبعد فى العادة ـ أيضًا ـ أن تخلو شجرة من نزول أحد تحتها حتى يجىء نبى إلا أن تصح الرواية عمن قال فى هذا الحديث: لم ينزل تحتها أحد بعد عيسى ـ عليه السلام ـ فتكون تلك الشجرة على هذا مخصوصة بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

وقد تعقبه العز بن جَماعة بأنه مجرد استبعاد لا دلالة فيه على امتناع ولا استحالة، وبأنه استبعاد يعارضة ظاهر الخبر، وكون متعلقات الأنبياء مظنة خَرْق العادة، فلا يكون ذلك حينئذ من طول البقاء، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحتها بعيدًا، وذلك واضح. . انتهى. ويؤيده ما يأتى ذكره قريبًا عن أبى سعيد فى «الشَّرف».

وقد يقال: يجوز أن تكون تلك الشجرة كانت شجرة زيتون؛ فقد ذكر أن شجرة الزيتون تُعَمَّر ثلاثة آلاف سنة. على أن فى بعض الروايات: أن الشجرة كانت يابسة، كما تقدم، وقولنا: خصوصية، أو خرقًا للعادة يبعد ما قيل.

وقوله: ما نزل تحت هذه الشجرة. . . إلخ، يفيد أن كل من نزل تحتها فهو نبى مع أن النبوة لا تتوقف على ذلك، فكأنه فهم أن النزول سبب للنبوة وهذا لا يتوهمه عاقل.

(ذُو) صاحب **(صِفَاتٍ نَقِيَّه)** منتقاة **(وَرَسُولٌ قَدْ خَصَّهُ اللهُ)** دون غيره من سائر المخلوقين **(بِالفَضَائِلِ)** المراد بها هنا: الكمالات الشاملة للمزايا القاصرة والمتعدية وإن كانت عرفًا إنما يقال للمزايا القاصرة، والفرق بين القاصرة والمتعدية مما لا يخفى عليك **(وَحَبَاهُ)** بها أعطاها إياه تفضلاً منه تعالى **(ثُمَّ قَالَ لِمَيْسَرَةَ)** سائلاً له عن علامة ذاتية فيه ﷺ: **(أَفِي عَيْنَيْه)** بالتثنية، وفى رواية بالإفراد على إرادة الجنس **(حُمْرَةٌ)** وإنما سأله عن ذلك **(اسْتِظْهَارًا لِلْعَلاَمَةِ الخَفِيَّةِ)** طلبًا لإظهار هذه العلامة الخفية؛ إذ هى أظهر من الأولى فى الاستدلال بها على نبوته ﷺ؛ إذ هى ذاتية وتلك عرضية، وفى بعض النسخ

«الحَقيَّة» نسبة للحق ضد الباطل وهو أظهر من الأوّل وأليق بالمقام.

(فَأَجَابَهُ بِـ) قوله: (نَعَمْ) لا تفارقه أى لا تنفك عنهما. فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، وياليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج ـ أى يبعث ـ فوعى ذلك مَيْسَرة.

والحُمرة كانت فى بياض عينيه، وهى الشَّكل، ومن ثم قيل فى صفته ﷺ: أشْكَل العينين. فهذه الشَّكلة من علامات نبوته فى الكتب القديمة (فحَقَّ) بفتح الحاء المهملة أى ثبت وتحقق (لَدَيْهِ) عنده (مَا ظَنَّهُ فِيْهِ) ﷺ (وتَوَخَّاهُ) تحراه وقصد إظهاره.

وفى «الشَّرف» لأبى سعيد النيسابورى: فلما رأى الراهب الغمامة تظله فَزِعِ وقال: ما أنتم عليه؟ ـ أى: أى شىء أنتم عليه ـ قال مَيْسَرة غلام خديجة: فَدَنَا إلى النبى ﷺ سراً من مَيْسرة وقبَّل رأسه وقَدَمه وقال: آمنت بك، وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله تعالى فى التوراة، ثم قال: يا محمد، قد عرفت فيك العلامات كلها ـ أى العلامات الدالة على نبّوتك المذكورة فى الكتب القديمة ـ خلا خصلة واحدة، فأوضح لى عن كتفك، فأوضح له، فإذا هو بخاتم النبّوة يتلألأُ، فأقبل عليه يقبله ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك ر سول الله النبى الأمى الذى بشَّر بك عيسى بن مريم فإنه قال: لا ينزل بعدى تحت هذه الشجرة إلا النبى الأمى الهاشمى العربى، صاحب الحوض المورود، والشفاعة العظمى، وصاحب لواء الحمد.. انتهى.

وبهذا يُرَدّ على من توقف فى صحبته بناء على ما نقل عن ابن حجر فيما تقدم من عدم اشتراط الرؤية بعد البعثة.

(ثُمَّ قَالَ لِمَيْسَرَةَ لاَ تُفَارِقْهُ وَ) المعنى (كُنْ مَعَهُ) أى الزم صحبته (بِصِدْقٍ وَعَزْمٍ) منك، والعزم التصميم، وإضافة الصدق إليه من إضافة الصفة للموصوف، وكذا قوله (وَحُسْنَ طَوِيَّةٍ) بفتح الطاء المهملة وكسر الواو وشد المثناة تحت فعيلة بمعنى مفعولة؛ أى مطوية. والمراد: ما انطوى عليه الإنسان

فى باطنه من حسن النية (فَإِنَّهُ مِمَّنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ وَاجْتَبَاهُ) واختاره واصطفاه، وكان مَيْسَرة يرى إذا اشتد الحر ملكين يظلان عليه ﷺ.

(ثُمَّ) بعد ما تقدم وبعد أن حضر سوق بُصْرى وباع سلعته واشترى، وقال له خصمه: احلف باللات والعزَّى، فقال: «لم أحلف بهما قط» فقال الرجل: القولُ قولك، ثم قال لَمَيْسَرة وقد خلا به: هذا نبيٌّ [هذه الأمة]، والذى نفسى بيده لهو الذى تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم.

(عاد) ﷺ هو ومَيْسَرة فى أهل العير من بُصْرى (إِلَى مَكَّةَ فَـ) لما دنوا منها (رَأَتْهُ) ﷺ (خَدِيجَةَ) بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ حال كونه (مُقْبِلاً) بضم الميم وسكون القاف وكسر الموحدة؛ أى قادمًا وآتيًا راكبًا على بعير فى ساعة الظهيرة (وهى) مُشرفة (بَيْنَ) جماعة (نِسْوَةٍ) كائنات معها (فِىْ عُلِّيَّة) بضم العين وكسرها مع تشديد اللام المكسورة، أو بضم العين وفتح اللام مع شد التحتية، ويأتى بكسر العين وسكون اللام لغة؛ أى غرفة، والجمع العلالى بالتشديد والتخفيف.

(وَمَلَكَانِ) تثنية ملك من الألوكة بمعنى الرسالة، وهم عند جمهور المتكلمين أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، وعند الحكماء جواهر مجردة علوية مخالفة للنفوس الإنسانية بالذات، ورؤية المصطفى ﷺ تدل للأول (عَلَى رَأْسِهِ الشَّرِيفِ مِنْ ضِحٍّ) بكسر الضاد المعجمة وتشديد الحاء المهملة؛ الشمس وضوئها، فإضافته إلى (الشَّمْسِ) للبيان والمراد (قَدْ أَظَلاَّهُ) من ضوء الشمس وحرها، وفيه جواز رؤية الملائكة، وبه وبرؤية الجن صرح فى هذا الحديث الصحيح، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (١) فمحمول على ما إذا كانوا على صورتهم الأصلية، أما إذا خرجوا عنها بالتمثل فى أى صورة فلا مانع من رؤيتهم حينئذ، كما يؤخذ ذلك من البيضاوى وحواشيه لزاده فى سورة الأعراف.

(١) سورة الأعراف: ٢٧.

وقال بعضهم: نفى الرؤية فى الآية محمول على الغالب، ولو كانت رؤيتهم محالة ـ أى على صورتهم الأصلية ـ لما قال ﷺ فى الشيطان: «لقد هممت أن أربطه حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم»[1].

ولما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لابن مسعود: «هؤلاء جن نصيبين» حين قال له: رأيت رجالا كذا وكذا[2].

وقال القاضى عياض: قيل رؤية الجن على صورتهم الأصلية ممتنعة إلا للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن خرقت له العادة، وإنما يراهم بنو آدم على غير صورتهم الأصلية. ورده النووى بأنه دعوى مجردة لا مستند لها.

ومر غير مرة أن الجن أجسام نارية تقدر على التشكل فى الصور المختلفة؛ أى بأن يعلمهم الله تعالى قولاً أو فعلاً إذا أتى به نقله من صورة إلى أخرى؛ لأن تصويره لنفسه محال، وكذا يقال فى الملائكة.

قال العلامة ابن حجر فى «شرح المنهاج»: ونوزع فى قدرتهم على التشكل باستلزام دفع الثقه بشىء، فإن من رأى ولو ولده يحتمل أنه جنى تشكل به. ويُرَدُّ بأن الله تعالى تكفل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يؤدى لمثل ذلك المرتب عليه الريبة فى الدين، ورفع الثقة بعالم وغيره، فاستحال شرعًا الاستلزام المذكور. . انتهى.

فأرته النساء اللاتى كن معها فى الغرفة فعجبن من ذلك كما ورد، وتقدم أن مَيْسَرة رأى ذلك أيضًا، وروى: أن خديجة رأت تظليل الملائكة، ومَيْسَرة رأى تظليل الغمام.

وقد روى: أنه من حين سيره من مكة صارت الغمامة تظله؛ فإن كانت الغمامة غير المَلَكين فالغمامة كانت تظله فى الذهاب والمَلَكان يظلانه فى

---

(1) أخرجه البخارى (١/ ١٢٤، ٦/ ١٥٦)، البغوى فى شرح السنة (٣/ ٢٦٩)، أحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٨)، مسلم فى صحيحه (المساجد: ٣٩).

(2) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٥٨)، الطبرانى فى الكبير (١٠/ ١٨)، أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٢٩١)، ابن الجوزى فى الوفا ص (١٨٥)، ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/ ١/ ١٢٨).

العود، ويحتمل أن الغمامة كانت تسوقها الملائكة فجعلت مظلة كحامل الظلة يسمى مظللا. قال فى «إنسان العيون»: وفى كلام صاحب الهمزية ما يدل على أن المراد بالملكين الغمامة مجاز.. انتهى.

قال بعض المحققين: قلت فيه نظر لا يخفى؛ إذ كون الغمامة تظله فى الذهاب والملكان فى العود تخصيص بلا مخصص، وإرادة الغمامة بالمَلَكين عدول عن الحقيقة بلا احتياج إليه؛ إذ لا مانع من تظليلهما معًا له ﷺ ليحصل بمجموع ذلك شدة الحفظ من حر الشمس؛ إذ الغمامة لبعدها عن الأرض لا تمنع إلا سلطنة الشمس، ولا تدفع الحر من أصله كما هو واضح فى بعض أزمنة الصيف عند عدم ظهور الشمس لوجود غمام ونحوه، فتأمل. وحينئذ فيكون مرأى مَيْسَرة ومرأى خديجة واحدًا وهو تظليل الملائكة على ما تقدم.

(وَأَخْبَرَهَا مَيْسَرَةُ بِأَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ) وهو تظليل الملائكة له ﷺ (فِيْ) هذا (السَّفَرِ كُلِّه) ذهابًا وإيابًا، وإلى ذلك أشار الإمام السبكى ـ رحمه الله تعالى ـ فى «تائيته» بقوله:

ومَيْسَرة قد عاينَ الملكانِ إذ أظلاّك لما سرتْ ثانى سفرةِ

وهذا هو المعنى بقول «الخصائص الصغرى» :وخص بإظلال الملائكة له فى سفره. ويحتمل أن المراد فى كل سفر سافره، لكن قال فى «إنسان العيون»: لم أقف على تظليل الملائكة له فى غير هذه السفرة.

وأما تظليل الغمامة له ﷺ فقد وقع مرارًا متعددة منها: فى السفرة الأولى مع عمه أبى طالب، وقبل ذلك لما كان ﷺ عند السيدة حليمة.

وقد أشار غير واحد ـ كما قال ابن حجر رحمه الله تعالى ـ: أنه إنما كان قبل النبوة إرهاصًا وتأسيسًا لنبوته، وإعلامًا له ﷺ بما سيؤول إليه أمره، وأن أمته أكثر الأمم وأنهم قرون متفاوتون، وأن كل قرن مستمد من القرن الذى قبله، وأن الكل مستمدون من ظله ﷺ.. انتهى.

قال فى «شرح المواهب»: قال ابن جماعة: من ذهب إلى أن حديث إظلال الغمامة لم يصح، باطل، بل لم يكن كما قال السخاوى دائمًا.. انتهى.

فمما يدل على انقطاع ذلك ما فى حديث الهجرة: أن الشمس أصابته ﷺ حين قدم المدينة، فظله أبو بكر بردائه، وكذلك ظلّل عليه وهو يرمى الجمرة، ومرة أخرى بالجِعْرَانة، ومعه ثوب قد أظل عليه، وأنهم كانوا فى أسفارهم إذا نزلوا على شجرة ظليلة تركوها له ﷺ وغير ذلك.

قال فى «النعمة الكبرى»: وفائدة تظليل الغمامة ـ بتقدير صحة ما قيل أنه ﷺ لا يحس بالحر والبرد ـ إظهار عظيم قدره وتمييزه بباهر حفظ الله له وعنايته به.

(وَ) أخبرها مَيْسَرة بما وقع للذى تنازع مع النبى ﷺ فى البيع، وأخبرها **(بِمَا قَالَهُ الرَّاهِبُ)** نَسْطُور مما تقدّم بسطه (وَ) أخبرها بما **(أَوْدَعَهُ لَدَيْه)** عنده **(مِن الوَصِيَّةْ)** به ﷺ فى قوله: لا تفارقه هو نبى، وهو آخر الأنبياء **(وَضَاعَفَ اللهُ فِيْ تِلْكَ التِّجَارَةِ رِبْحُهَا ونَمَّاه)** بتشديد الميم، ببركته ﷺ، فروى أنهم استفادوا أضعاف ما كانوا يربحون، ولما ضوعف الربح أضعفت خديجة ما سَمَّت له ﷺ، وما سمته له ضِعْف ما كانت تعطيه لرجل من قومه كما تقدم.

وفى بعض الروايات: فلما كانوا بمرِّ الظهران ـ وهو واد بين مكة والمدينة المعروف الآن بوادى فاطمة ـ قال مَيْسَرة للنبى ﷺ: هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بالذى جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك، وتخبرها بما صنع الله تعالى لها على وجهك؟.

فركب النبى ﷺ وتقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وخديجة فى عُلِّية مع نساء، فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره ومَلَكَان يظلاّن عليه، فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبرها بما ربحوا ـ وهو ضعف ما كانت تربح ـ فسرَّت بذلك وقالت: أين مَيْسَرة؟

قال: خلَّفته في البادية. قالت: عجِّل إليه ليعجل إليَّ الإقبال.

قال في «إنسان العيون»: وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره؟.

فركب ﷺ وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه هو، فلما دخل عليها مَيْسَرَة أخبرته بما رأت. فقال لها مَيْسَرَة: قد رأيتُ هذا مذ خرجنا من الشام.. انتهى.

وقول مَيْسَرَة له ﷺ: لعلها تزيدك بكرة إلى بكَرَتيك. يدل على أنها سمَّت له بكَرَتين، وكانت تسمى لغيره بكرة. وفي كلام بعضهم وفي «الروض الباسم»: استأجرته ﷺ على أربع بكَرَات.

وقد جاء في بعض الروايات: أن أبا طالب جاء لخديجة وقال لها: هل لك أن تستأجري محمداً فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرتين وليس نرضى لمحمد دون أربع بكرات، فقالت خديجة: لو سألت لبعيد بغيض! فكيف وقد سألت لحبيب قريب؟.

* * *

[زواجه ﷺ من السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها][1]

(فَبَانَ) وضح وظهر (لِخَدِيجَةَ بِمَا) أى بسبب ما (رَأَتْ) أى شاهدت من تظليل الملائكة (وَ) بما (سَمِعَتْ) من أخبار مَيْسَرة خادمها لها بما سبق، والعائد محذوف منه ومما قبله، وهذا من الكثير كما قاله فى «الخلاصة»:

والحذف عندهم كثير منجلى　　فى عائد متصل إن انتصب
بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

(أَنَّهُ) ﷺ (رَسُولُ اللهِ إِلَى) كافة (البَرِيَّهْ) الخلق (وَخَطَبَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا) أى عرضت نفسها عليه بأن طلبت منه أن يتزوّجها تشرفًا به، ورغبة صادقة فى الاتصاف بمزيد حبه وكمال قربه، بلا واسطة؛ فعند ابن إسحاق: فعرضت نفسها عليه، فقالت: يا ابن عم، إنى قد رغبت فيك لقرابتك، وسلطتك فى قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك. أو بواسطة؛ كما رواه ابن سعد من طريق الواقدى، عن نفيسة بنت مُنْيَة، قالت: كانت خديجة امرأة حازمة جَلْدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهى يومئذ أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتنى دَسِيسًا إلى محمد ﷺ بعد أن رجع فى عيرها من الشام. فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدى ما أتزوج به». قلت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: «فمن هى؟» قلت: خديجة. قال: «وكيف لى بذلك؟» فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت لى ساعة كذا.

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٦٨)، السيرة الشامية (٢/٢٢٢)، الوفا ص (١٤٢)، الطبقات الكبرى (١/١/٨٤).

والجمع ممكن بأنها بعثت نفيسة أوّلا لتعلم هل يرضى، فلما علمت ذلك كلمته بنفسها.

قال الشامى: وسبب عرضها: ما حدّثها به غلامها مَيْسَرة مع ما رأته من الآيات.

وما ذكره ابن إسحاق فى «المبتدأ» قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يومًا فيه فجاءهن يهودىّ فقال: يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبىّ فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل، فحصّبنه وقبّحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تَعْرِض فيما عرض فيه النساء، ووقر فى نفسها عليه لتفوز بالسبق إليه دون سائر نساء قومها.

و (لتشُمَّ) بفتح الشين المعجمة أو بضمها من باب ردّ أى تستروح (مِنَ الإِيْمَانِ بِه) ﷺ (طِيبَ ريَّاهُ) بفتح الراء وتشديد المثناة التحتية؛ الرائحة الذكية الطيبة، وفى كلامه تشبيه الإيمان بمسك ونحوه على سبيل المكنية، والريَّا تخييل، والشم ترشيح، وخديجة ـ رضى الله تعالى عنها ـ من أكمل العقلاء، وأعقل الكملاء، فلذا تفرست فيه ﷺ ما لم يهتد إليه غيرها من نساء قومها، وخصته بشديد محبتها وأكيد مودتها.

وقد نقل بعضهم عن بعض العارفين أن الإنسان لا يمتزج بشىء كامتزاجه بزوجته، وأن المرأة أقرب شىء إلى الرجل من حيث أنها خلقت منه فهى جزؤه؛ فإذا شم رائحتها إنما شم نفسه، وهذا غاية القرب.

قال مُغْلَطاى: وكانت أولاً تحت عتيق بن عائذ المخزومى فولدت له عبد الله ـ وقيل: عبد مناف ـ وهندًا؛ ثم خلف عليها أبا هالة النباش بن زرارة، فولدت له هندًا، والحارث، وزينب، فكانت تكنى أم هند، وتدعى: الطاهرة.

وقال غيره: إن عتيقًا تزوجها بعد أبى هالة. ونسبه ابن عبد البر للأكثر وصححه، وبه جزم فى «المواهب». وعلى الأول اقتصر فى «العيون» و«الفتح»

وحكاهما فى «الإصابة».

(فَأَخْبَرَ) النبى ﷺ (أَعْمَامَهُ بِمَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ هَذِهِ البَرَّةُ) بفتح الموحدة وشد الراء؛ الجامعة لصفات الكمال من البر وهو اسم جامع لأنواع الخير (التَّقِيَّةُ) بالمثناة الفوقية من التقوى وهى البراءة من كل شىء سوى الله تعالى، وهذا غايتها ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها اتقاء المحارم، وضبطها بعضهم بالنون: أى التاركة للمنهيات، والفاعلة للمأمورات (فَرَغِبُوا فِيهَا) والرغبة فى الشىء: حبه والميل إليه (لِفَضْلٍ) زيادة فضائل وفواضل، والفضل لغة: الزيادة، وعرفًا: الاتصاف بالفضائل والفواضل.

وقد روى البزار والطبرانى من حديث عمار بن ياسر - رضى الله عنه - رفعه: «لقد فُضِّلت خديجة على نساء أمتى ما عدا فاطمة - رضى الله عنها - كما فضلت مريم على نساء العالمين»[1]. قال فى «الفتح»: وهو حسن الإسناد.

وذكر فى «الفتح»: أنه ﷺ كان يصف خديجة لعائشة - رضى الله عنهما - فيقول: «كانت وكانت» - أى كانت فاضلة وكانت عاقلة - ونحو ذلك. وظهر أن وصف خديجة - رضى الله تعالى عنها - بالفضل وما يليه من الصفات الحميدة الآتى ذكرها بعد وصفها آنفًا بالكمال الشامل لجميع ما يأتى من جميل الخصال من باب الإطناب والتفكه بتكرار أوصاف الممدوح مع دخولها جميعها فى وصف سابق يعمها.

(وَ) محافظة على (دِينٍ) إذ هو أكبر الخصال المرغبة فى تزويج المرأة لقوله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2] يعنى إن لم تفعل.

---

(١) مجمع الزوائد (٣/٢٣٣)، كنز العمال (٣٤٣٤٧)، فتح البارى (٧/١٣٥).

(٢) أخرجه البخارى (٥٠٩٠)، مسلم (الرضاع: ٥٣)، أحمد فى مسنده (٢/٤٢٨)، أبو داود (٢٠٤٧)، النسائى (النكاح: باب ١٣)، البيهقى فى السنن (٧/٧٩)، الدارقطنى فى السنن (٣/٣٠٣).

والمعنى: أن المرغب فى نكاح المرأة إحدى هذه الخصال الأربع، لكن اللائق بذوى المروءات وأرباب الديانات أن يكون الدين هو مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون، سيما فيما يدوم أمره ويعظم خطره، الذى يراد منه دوام الألفة بين المتناكحين.

(وَ) مزيد (جَمَالٍ) وهو الحسن الكثير، وهو يقع على الصور والمعانى (وَ) كثرة (مَالٍ) أى كثرة ما تملكه من نقد أو عرض، وهو عند العرب يختص بالإبل، وفى العرف العام بالنقدين، وقال بعضهم: هو ما تحويه اليد من نقد وغيره، مأخوذ من الميل لميل النفوس إليه.

(وَ) ظهور (حَسَبٍ) بفتح المهملتين آخره موحدة؛ أى شرف ثابت فى الآباء، مأخوذ من الحساب؛ لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقب ومآثر آبائهم وحسبوها. قال بعضهم: يمكن أن يراد هنا فعالها الحسنة الجميلة، ولقد كانت - رضى الله عنها - فى المعنيين بالمحل الأرفع.

(كُلٌّ مِنَ الْقَوْمِ) أى كل أحد من رجال قومها وعشيرتها (يَهْوَاهُ) أى يهوى ذلك المذكور ويحبه ويميل إليه بالطبع. وخرج معه منهم: حمزة - رضى الله عنه - حتى دخل على أبيها خويلد فخطبها إليه فأجاب، كذا عند ابن إسحاق.

وعند المبرد: أن أبا طالب هو الذى نهض معه وهو الذى خطب خطبة النكاح.

قال فى «النور»: ولعلهما خرجا معه جميعًا. (وَ) الذى (خَطَبَ) منهم عمه ﷺ (أَبُو طَالِب) لأنه كان أسن من حمزة فلا منافاة، قال بعضهم: وحضر أبو بكر، وذكره فى «المنح» وقال الزرقانى فى «شرح المواهب»: وفى نسخ: أبو بكر لا أصل له.. انتهى. والحافظ حجة على من لم يحفظ.

وزاد ابن إسحاق من طريق آخر: وحضر أبو طالب ورؤساء مُضَر، فخطب أبو طالب (وَأَثْنَى عَلَيْهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ) تعالى (بِمَحَامِدَ سَنِيَّهْ) النيرة المضيئة، والمراد: الشريفة الجليلة، فقال أبو طالب فى خطبته - كما فى

«المنح» ـ: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ ـ أى أصل ـ مَعدّ، وعنصر مُضَر، وجعلنا حَضنة بيته ـ أى الكافلين له ـ، وسُوَّاس حَرَمه ـ أى المتولين لأمره ـ، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن برجل إلا رجح به، وإن كان فى المال [قلاّ] فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا. . . إشارة إلى ما يأتى[1].

(وَقَالَ) أبو طالب فى أثناء هذه الخطبة: (وَهُوَ) أى محمد بن أخى أقسم (وَالله بَعْدُ) بالضم لما مر؛ أى بعد هذا سيكون (لَهُ نَبَأٌ) خبر (عَظِيمٌ) وخطر جليل ـ فيه إشارة إلى ما شاهده من بركته عليه فى أكله مع عياله وما أخبر به بَحِيرَا ـ وغير ذلك مما سبق (يُحَمَدُ) بالبناء للمفعول (فِيْه) ذلك النبأ وهو النبوة والدعوة إلى الله (سُرَاهُ) بضم السين؛ أى سيره، والمراد: سعيه فى ذلك النبأ الذى هو النبوة والدعوة إلى الله. وفى بعض النسخ: «مَسْرَاه» بفتح الميم وهو بمعناه، يقال: سرى يسرى، وأسرى يسرى إسراء لغتان، ومنه الحديث: «يا جابر ما السرى؟ السرى السير بالليل»[2]. وإطلاقه هنا على السير المطلق من باب المجاز المرسل، أو فى كلامه استعارة تصريحية أصلية.

(فَزَوَّجَهَا مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم) أى تولى عقد نكاحها به ﷺ (أَبُوهَا) خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصَىّ،فهى من أقرب نسائه ﷺ إليه فى النسب، ولم يتزوج من ذرية قُصَىّ غيرها إلا أم حبيبة. كذا قاله الحافظ ابن حجر.

وفى «سيرة الزهرى» ـ وهى أول سيرة ألفت فى الإسلام ـ: أنه ﷺ قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة: «هلم فلنتحدث عند خديجة ـ

(١) الوفا ص (١٤٢).
(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

وكانت تكرمهما وتتحفهما ـ فلما قاما من عندها جاءت امرأة فقالت له: جئت خاطبًا يا محمد؟ فقال: «كلا»، فقالت: ولم؟! فوالله ما فى قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤا لها. فرجع ﷺ خاطبًا لخديجة مستحييًا منها، وكان أبوها خُوَيْلد سكرانًا من الخمر، فلما كُلم فى ذلك أنكحها، فألقت عليه خديجة حُلَّة وضمَّخته بخَلُوق، فلما صحا من سُكره قال: ما هذه الحُلةَّ والطيب؟ فقيل له: لأنك أنكحت محمداً خديجة، وقد ابتنى بها، فأنكر ذلك ثم رضى وأمضاه. فقالت له خديجة: ألا تستحى؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش وتخبرهم أنك كنت سكرانًا؟ فلم تزل به حتى رضى[1]. لأن شرب الخمر كان عندهم مما يتنزه عنه، ويدل له أن جماعة حرموها على أنفسهم[2] فى الجاهلية منهم من تقدم ذكره.

وكان ذلك بعد قدومه ﷺ من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يومًا عقب سفره، وعمره يومئذ خمس وعشرون سنة على ما هو الصحيح الذى عليه الجمهور، وقيل: ست وعشرون سنة، وقيل: إحدى وعشرون، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبع وثلاثون، وقيل: تسع وعشرون وقد راهق الثلاثين، وقيل: غير ذلك.

وأما عمرها فكان أربعين سنة وهو الصحيح كما فى «الغرر»، وقيل: خمسا وأربعين، وقيل: ثلاثين، وقيل: ثمانية وعشرين.

والقول بأنها زوّجها أبوها هو الذى جزم به ابن إسحاق، وفى «الفتح»: زوّجه إياها أبوها خويلد ذكره البيهقى من حديث الزهرى بإسناده عن عمار ابن ياسر.

(وَقِيلَ): تولاه **(عَمُّهَا)** عمرو بن أسد، ذكره الكلبى والشامى، ونسبه لأكثر علماء السير. قال السهيلى: وهو الصحيح لما روى الطبرانى: أن عمراً

---

(١) سيرة ابن كثير (١/٢٦٦، ٢٦٧)، السيرة الشامية (٢/٢٢٥)، مسند أحمد (١/٣١٢) بإسناد ضعيف، وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٠).

(٢) انظر أسماءهم فى «المحبر» لابن حبيب ص (٢٣٧).

ابن أسد هو الذى أنكح خديجة رسول الله ﷺ، وأن خُوَيْلدًا كان قد مات قبل حرب الفِجَار[1]، ورجحه الواقدى وغَلَّط من قال بخلافه، وحكى عليه المؤمِّلىّ الاتفاق.

(وَقِيلَ:) تولاه (أَخُوهَا) عمرو بن خويلد؛ ذكره ابن إسحاق. قال فى «النور»: ولعل الثلاثة أى أباها وأخاها وعمها حضروا ذلك فنسب ذلك إلى كل واحد منهم.

وفى «المنتقى»: فلما أتم أبو طالب الخطبة، تكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىَّ يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.. انتهى.

(لِسَابِقِ سَعَادَتِهَا) أى لسعادتها السابقة فهى من إضافة الصفة للموصوف (الأَزَلِيَّهْ) أى المنسوبة للأزل؛ لتقدير الله لها فيه.

وأصدقها ﷺ اثنتى عشرة أوقية ذهبًا ونَشًا ـ بفتح النون والشين المعجمة نصف أوقية ـ من مال أبى طالب ـ على ما مر ـ فنسب إليه لوقوع النكاح له. قالوا: وكل أوقية أربعون درهمًا أى دينارًا؛ فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعى.

قال المحب الطبرى فى «السمط السمين فى أزواج الأمين»: أصدقها المصطفى عشرين بَكْرة. ولا تضادّ بين هذا، وبين ما يقال [أن] أبا طالب أصدقها؛ لجواز أنه ﷺ زاد فى صداقها فكان الكل صداقًا.. انتهى. ولما مر قريبًا.

ولا منافاة أيضًا بين قوله: اثنتى عشرة أوقية، وبين قوله: عشرين بَكْرة؛

---

(١) الوفا ص (١٤٢).

لجواز أن تكون البكرات عوضًا عن الصداق المذكور، أشار إليه فى «إنسان العيون».

وفى بعض السير: أنه ﷺ لما تزوجها ذهب ليخرج، فقالت له: إلى أين يا محمد؟ اذهب وانحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس. ففعل وهو أوّل وليمة أولمها رسول الله ﷺ.

وفى «المنتقى»: فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكْرة من بكْراتك وأطعم الناس، وهلمَ فَقِلْ مع أهلك. فأطْعَمَ الناس ودخل ﷺ فَقَالَ معها، فقرَّ الله عينه، وأقامت معه ﷺ خمسًا وعشرين سنة، أو أربعًا وعشرين سنة تقريبا.

* * *

[أولاده ﷺ]

(وَأَوْلَدَهَا كُلَّ أَوْلاَدِه) جمع ولد يشمل الذكر والأنثى، واختلف فى عدهم، والأصح ما قاله أكثر أهل النسب من أنهم كانوا سبعة، فلنذكرهم على ترتيبهم فى الولادة: فأولهم قاسم، فزينب، فرقية، ففاطمة، فأم كلثوم، فعبد الله الملقب بالطيب والمطيب والطاهر والمطهر، فإبراهيم ـ رضى الله عنهم ـ والذكور منهم ماتوا صغاراً.

ثم استثنى المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من جملة أولاده ﷺ إبراهيم فقال: (إِلاَّ) ولده (الَّذِى بِاسْمِ) أبيه (الخَلِيلِ) إبراهيم قد (سَمَّاهُ) فإن أمه السيدة مارية القبطية التى أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية ـ كما يأتى ـ وكانت ولادته فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة بالمدينة، قيل: ولد بالعالية.. انتهى. وتوفى وله سبعة عشر شهراً على الراجح من الأقوال التسعة المحكية فيه، وحمل على سرير ودفن بالبقيع. قاله المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ فى «فيض الواهب اللطيف».

* * *

[أزواج رسول الله ﷺ]

وأما أزواجه ﷺ فقد اختلف في عدتهن وترتيب تزوّجه ﷺ بهن، وعدة من مات منهن قبله، ومن مات ﷺ عنهن، ومن دخل بها، ومن لم يدخل بها، ومن خطبها ولم ينكحها، ومن عرضت نفسها عليه، وأوصلهن بعضهم إلى ثلاثين.

والمتفق عليه أن المدخول بهن إحدى عشرة امرأة:

فستة من قريش: خديجة بنت خويلد. وسودة بنت زمعة زوّجها سنة عشر من النبوة، وقيل: سنة ثمان. وعائشة بنت أبي بكر الصديق، ولم يتزوج بكراً غيرها. وحفصة بنت عمر بن الخطاب. وأم سلمة، واسمها هند، وقيل: رملة بنت أبي أمية واسمه حذيفة أو زهير أو سهل بن المغيرة. وأم حبيبة واسمها رَمْلَة بفتح الراء ـ وقيل: هند ـ بنت أبي سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وزينب بنت جحش ـ بعد زيد مولاه ـ زوجه الله بها فدخل عليها بغير عقد كما دلت عليه الآية، وكانت تفتخر بذلك على أمهات المؤمنين، وهي أول من مات منهن بعده. وزينب أم المساكين بنت خُزيمة الهلالية. وميمونة بنت الحارث الهلالية. وجويرية بنت الحارث الخُزَاعية.

وواحدة من بني اسرائيل: صفية بنت حُيَيّ ـ بضم الحاء المهملة وتكسر وتحتيتين الأولى مخففة والثانية مشددة ـ ابن أَخْطَب بفتح الهمزة وسكون المعجمة وفتح المهملة وموحدة، من نسل هارون بن عمران أخا موسى، وهي من سبي خَيْبَر أعتقها ﷺ وتزوج بها.

ومات عنده ﷺ اثنتان: خديجة بنت خويلد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح لعشر خلون من شهر رمضان، وقيل: بأربع، وقيل: بخمس،

وقيل: بست سنين. ودفنت بالحَجُون وهى ابنة خمس وستين سنة، أو أربع وستين وستة أشهر. وزينب بنت خُزَيمة بالمدينة سنة أربع ولها نحو ثلاثين سنة، ودفنت بالبقيع.

ومات ﷺ عن تسع، نظم أسماءهن الحافظ المقدسى المالكى ـ رحمه الله تعالى ـ فقال:

توفى رسول الله عن تسعِ نسوة إليهن تُعزى المكرماتُ وتُنْسَبُ

فعائشةٌ ميمونةٌ وصفيةٌ وحفصةُ تتلوهنّ هندٌ وزينبُ

جويريةٌ مع رَمْلةٌ ثم سودةٌ ثلاثٌ وستٌ ذكرهن مهذبُ

وأراد بهند: أم سلمة، وبرملة: أم حبيبة على الأصح.

ولا خلاف فى أن أول امرأة تزوج بها خديجة، وأنه ﷺ لم يتزوج عليها حتى ماتت.

* * *

[سراريه ﷺ]

وأما سراريه ﷺ، فأربع على ما جزم به أبو عبيدة: مارية بنت شَمْعون ـ بفتح الشين المعجمة وسكون الميم وبالعين المهملة ـ القبطية الصعيدية من حَفْن[1] بفتح المهملة وسكون الفاء ونون من أعمال أَنْصِنا[2] بفتح فسكون فصاد مهملة مكسورة فنون مقصوراً؛ مدينة أزلية بصعيد مصر، أهداها له المُقَوْقِس كما تقدّم بضم الميم وفتح القاف وسكون الواو وكسر القاف الثانية آخره مهملة؛ لقب معناه المطوّل البناء، واسمه جُريج ـ بضم الجيم الأولى ـ بن مينا ابن قرقوب القبطى النصرانى صاحب مصر والإسكندرية بكسر الهمزة وتفتح، مات على نصرانيته، وغلط من ذكره من الصحابة.

وكان أهداها فى سنة سبع من الهجرة وأهدى معها أختها سِيْرِين بكسر السين المهملة وسكون المثناة التحتية وكسر الراء وبالنون آخرها، وخَصِيًّا يقال له: مأبور، وألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا لينًا من قباطى مصر، وبغلة شهباء وهى دُلْدُل، وحماراً أشهب وهو عفير، وقيل: يَعْفُور، وعسلاً من عسل بِنْهَا، فأعجب النبى ﷺ ودعا فى عسل بِنْهَا بالبركة.

قال ابن الأثير: وبِنْها بكسر الباء وسكون النون: قرية من قرى مصر بارك النبى ﷺ فى عسلها، والناس اليوم يفتحون الباء.

ووهب ﷺ سيرين لحسان بن ثابت، وهى أم عبد الرحمن بن حسان.

وريحانة بنت شمعون ـ بمعجمتين ـ بن زيد بن عمرو من بنى قريظة، أو من بنى النَّضير، وتزوّجت رجلاً من قُرَيظة وسبيت إذ سبوا، وقيل: اسمها ربيحة بالتصغير، واصطفاها ﷺ لنفسه، وكان يطؤها بملك اليمين، وقيل: أعتقها وتزوجها وضرب عليها الحجاب.

---

(١) حفن: قرية من قرى صعيد مصر. (مراصد الاطلاع ١/ ٤١٣).

(٢) أنصِنا: مدينة بصعيد مصر بها برابى وآبار كثيرة. (مراصد الاطلاع ١/ ١٢٤).

فائدة: أمواله ﷺ كانت من ثلاثة أوجه: من الصفى: كولى وهو ما يصطفيه ﷺ من الغنيمة لنفسه. ومن الهدية تهدى إليه وهو فى بيته لا فى الغزو من بلاد الحرب. ومن خمس الخمس.. انتهى.

ونفيسة جارية أم المؤمنين زينب بنت جحش وهبتها له ﷺ لما رضى عليها بعد أن هجرها مدة. قال فى «الإصابة»: شهراً، وفى «شرح المواهب»: بعد أن هجرها ذا الحجة، والمحرم، وصفر، ودخل عليها فى شهر ربيع الأول الذى قبض فيه.. انتهى. وسبب هجره ﷺ [أنه] كان فى سفر فاعتلّ بعير صفية، وفى إبل زينب بنت جحش فضل، فقال لها: «إن بعير صفية اعتلَّ فلو أعطيتها بعيراً» فقالت: أنا أُعْطِى تلك اليهودية؟ فتركها ﷺ[1] المدّة المذكورة.

واما الرابعة: فقال البرهان فى «النور»: لا أعرف اسمها، أصابها فى بعض السبى. وسماها الحلبى فى «سيرته»: رُبَيْحة القرظية.

قال الحافظ فى الإصابة: رُبَيْحة بالتصغير والمهملة مولاة رسول الله ﷺ ذكرها ابن سعد.. انتهى.

وأخرج ابن أبى خيثمة من طريق سعيد عن قتادة قال فى ذكر سرارى رسول الله ﷺ: وكانت رُبَيْحة القرظية تكون فى نخل العالية، وكان النبى ﷺ يقيل عندها أحيانًا، وزعم بعضهم أن وجعه ﷺ الذى مات فيه ابتدأه عندها. وقال قتادة: وبعضهم يقول: ريحانة. وذكر أبو عبيدة نحوه، والحاصل أنهم اختلفوا فى اسم ريحانة بنت شمعون؛ فمنهم من يقول اسمها ريحانة، ومنهم من يقول: رُبَيْحة. ومقتضى كلام الحلبى فى «إنسان العيون» أن رُبَيْحة غير ريحانة وأنها هى الرابعة.. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفِ شَذِيٍّ مِنْ صَلَاةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه)

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٢)، أحمد فى مسنده (٢٥٧١٨).

[قصة بناء الكعبة][1]

(وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ) من عمره الشريف **(خَمْسًا وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً)** فيما جزم به ابن إسحاق وغير واحد من العلماء، وقيل: خمسًا وعشرين سنة، وبه جزم موسى بن عقبة ويعقوب بن سفيان. قال الحافظ: والأول أشهر. وقال الحلبى: هو الصحيح. بل قال غيره: هو الأصح. وغلَّط الشامى القائل بالثانى، ورده الزرقانى فى «شرح المواهب»، وقال: إنه قوى. وقيل: خمس عشرة سنة. قال الزرقانى: ولعله غلط قائله.

وأما القول بأنه كان شابًا فقد قال الزرقانى: إنه يأتى على جميع الأقوال، وهو لا يظهر إلا على القول بأن زمن الكهولية ما بعد الأربعين كما نقله الفاسى فى «مطالع المسرات». وأما على ما صرح به صاحب «القاموس» وغيره: أن زمن الكهولية بعد الثلاثين، أو بعد الأربعة والثلاثين فلا يظهر على القول بأن عمره ﷺ خمس وثلاثون؛ لأنه حينئذ يكون كهلاً لا شابًا.

(بَنَتْ قُرَيْشٌ الكَعْبَةَ لانْصِدَاعِهَا) أى تشقق جدرانها بعد توهينها **(بِـ)** سبب ما دخلها من **(السُّيُولِ)** جمع سَيل **(الأَبْطُحِيَّهْ)** المنسوبة إلى أبطح، داخل مكة وهو فى الأصل المسيل الواسع المشتمل على دقاق الحصا كما تقدّم، ففى «العيون»، و «الفتح» عن موسى بن عقبة قال: إن ما حمل قريشًا على بنائها: أن السيل أتى من فوق الردم الذى صنعوه بأعلى مكة لمنع السيل فأخربه، فخافوا أن يدخلها الماء.

وقيل: سبب بنائها أن امرأة أجمرت[2] الكعبة، فطارت شرَارة[3] فى ثيابها

---

(١) انظر: السيرة الشامية (١/ ١٧٠، ٢/ ٢٢٨)، مثير الغرام الساكن ص (٢٤٧)، السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٧٦)، شفاء الغرام (١/ ١٤٧)، أخبار مكة للأزرقى (١/ ٣٥)، الروض الأنف (١/ ٢٢١).

(٢) جمّرت: بخّرت.

(٣) شرَارة: واحدة الشَّرار وهو ما يتطاير من النار.

فأحرقتها.

وقيل: أن نفراً سرقوا حلى الكعبة وغزالين من ذهب. وقيل: غزالاً واحداً مرصّعًا بدرّ وجوهر كان فى بئر فى جوف الكعبة عند بابها على يمين الداخل أعدت للحلى والمتاع والطيب؛ أعدها إبراهيم ـ عليه السلام ـ لذلك ـ كما يأتى ـ وكان يقال لها: خزانة، فأرادوا أن يشيدوا بنيانها ويرفعوه حتى لا يدخلها إلا من شاءوا.

ولا مانع أن يكون السبب هو الثلاث، فالحريق أوهاها، ثم انصدعت بالسيول وخيف انهدامها، ثم سُرِقَ ما ذكر بعد ذلك.

وقيل: تبخير المرأة لها كان فى زمن عبد الله بن الزبير، ولا مانع من التعدد. كما قد قيل بجواز تكرار السرقة فى أيام جُرْهم، وفى زمن قريش؛ فقد نقل فى «إنسان العيون»: أن شخصًا فى أيام جُرْهم أراد أن يسرق من ذلك الحلى شيئًا، فوقع على رأسه وانهار البئر عليه فهلك، وفى كلام بعضهم: فسقط عليه حجر فحبسه حتى أخرج منها. قال: وقد يقال ـ على بعد ـ: جاز أن يكون هذا الرجل تكرر منه السرقة، وكان هلاكه فى المرة الثانية. فعند ذلك بعث الله حية بيضاء، سوداء الرأس والذنب، رأسها كرأس الجَدْى، فأسكنها تلك البئر لحفظ تلك الأمتعة، وكانت تخرج منها إلى ظاهر البيت فتشرَّقُ ـ بالقاف أى تبرز ـ للشمس على جدار الكعبة، فيبرق لونها، وربما التفت عليها فتصير رأسها عند ذنبها فلا يدنو منها أحد إلا كشت ـ أى صوتت ـ وفتحت فاها، فحرست بئرها وخزانتها خمسمائة عام لا يقربها أحد ـ أى لا يقرب بئرها وخزانتها ـ إلا أهلكته.

ولعل المراد: لو قرب منها أحد أهلكته؛ إذ لو أهلكت أحدا قَرُبَ من تلك البئر لنقل.

فلم تزل كذلك حتى كان زمن قريش، ووجد هذا السيل والحريق والسرقة، فأرادوا هدمها وإعادة بنائها، وأن يشيدوا بنيانها ـ أى يرفعوه ـ ويرفعوا بابها

حتى لا يدخلها إلا من شاءوا. واجتمعت القبائل من قريش تجمع الحجارة، كل قبيلة تجمع على حدة، وأعدوا لذلك نفقة طيبة ليس فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

وفى رواية أخرى غير ذلك ـ وستأتى قريبًا ـ: فأمرت قريش باقوم ـ وقيل: باقول باللام ـ الصحابى كما فى «الإصابة» ـ وكان روميًا، وكان فى سفينة ألقاها الريح بجدة، وكان قبل ذلك يقال له ـ أى لجدة ـ: الشُعَيْبة بضم الشين المعجمة، ساحل مكة ـ فلا يخالف قول غير واحد: «فلما كانت السفينة بالشُعَيْبة ساحل مكة». وقيل: كانت السفينة لباقوم. وقيل: لقيصر ملك الروم يُحمل له فيها الرخام والخشب والحديد سرحها مع باقوم إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس بالحبشة، فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله ريحًا فحطمها ـ أى كسرها ـ فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى السفينة فابتاعوا خشبها، وكلموا باقوم ـ المذكور ـ فى بنائها، وكان نجاراً بناءً، فقدم معهم فأعدوا الخشب لسقفها. وقيل: كان قبطيًا من نصارى مصر، وهو مولى سعيد بن العاص بن أمية، فيحتمل أنهما اشتركا جميعًا فى بنائها أو أحدهما بنى والآخر سقف، أو أنهما واحد وهو رومى فى الأصل، ونسب إلى القبط خلفًا، وهو الذى صنع المنبر المدنى النبوى.

وفى «الشامى»: أن الناس هابوا هدمها فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم به، فأخذ المعْول وقام عليها وهو يقول: اللهم لم تُرَعْ ـ بمثناة فوقية مضمومة فراء مفتوحة، أى لم تفزع الكعبة، فأضمرها لتقدم ذكرها، وفى رواية: لم نَزِغْ ـ بفتح النون وكسر الزاى وغين معجمة ـ أى لم نمل عن دينك، ولا خرجنا عنه ـ يقال: زاغ عن كذا خرج عنه ـ اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين الأسود واليمانى، وتربَّص الناسُ تلك الليلة، وقالوا: ننتظر فإن أصيب لم نهدم شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شىء هدمنا فقد رضى الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته عائداً إلى عمله، فهدم وهدم

الناسُ معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - فأفْضَوا إلى حجارة خُضْر كالأسنمة - جمع سنام وهو أعلى الظهر للبعير - آخذ بعضها ببعض، فأدخل رجل ممن كان يهدم عَتَلته بين حَجرين منها ليقلع بها بعضها، فلما تحرك الحَجَرُ تنقَّضت - أى تحركت - مكة بأسرها، وأبصر القوم بَرْقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر القوم، فانتهوا عن ذلك الأساس وبنوا عليه.

وهذا هو البناء الثامن لها، ولم يبنوها على قواعد إبراهيم - أى أساسه - بل نقصوا من طولها وعرضها أذرعًا ستة أو سبعة أدخلوها فى الحِجْر لضيق النفقة - أى الحلال - لما تقدم.

وفى لفظ: أخرجوا من عرضها أذرعا من الحِجْر وبنوا عليه جدارا قصيراً؛ علامة على أنه كان من الكعبة.

ووجدت قريش فى الركن كتابًا بالسريانية فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود فإذا هو: أنا الله ذو بكَّة، خلقتها يوم خلقتُ السموات والأرض وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حُنفاء، لا يزول أخشباها - أى جبلاها وهما أبو قُبَيْس وقُعَيْقَعان - يبارك لأهلها فى الماء واللبن.

ووجدوا فى المقام - أى فى محله - كتابًا آخر مكتوب فيه: بكَّة بلد الله الحرام يأتيها رزقها من ثلاث سبل.

ووجدوا كتابًا آخر مكتوب فيه: من يزرع خيراً يحصد غِبْطة(1)، ومن يزرع شراً يحصد ندامة، تعملون السيئات وتخسرون الحسنات أجل كما يجىء من الشوك العنب. أى الثمر.

وفى «الإصابة» عن الأسود بن عبد يغوث، عن أبيه: أنهم وجدوا كتابًا أسفل المقام، فدعت قريش رجلاً من حِمْيَر فقال: إن فيه لحرفًا لو أحدثكموه

(1) الغبطة: تمنى حصول مثل الخير الذى عند غيرك.

لقتلتمونى. قال: وظننا أن فيه ذكر محمد ﷺ فكتمناه[1].

وفى رواية: لما شرعوا فى نقض البناء، خرجت عليهم الحية التى كانت فى بطنها، سوداء البطن، فمنعتهم من ذلك، فاعتزلوا عند مقام إبراهيم، فتشاوروا فقال لهم الوليد أو أبو وهب عمرو بن عائذ بن عمران المخزومى خال عبد الله والد النبى ﷺ: ألستم تريدون بها الإصلاح؟ قالوا: بلى. قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، ولكن لا تُدْخِلُوا فى بيت ربكم إلا طَيِّبَ أموالكم، وتجنبوا الخبيث؛ فإن الله طيب لا يقبل إلا طَيِّبًا، ولا تجعلوا فيها مالاً أُخذ غصبًا، ولا قطعت فيه رحم، ولا انتهكت فيه حرمة. ففعلوا ودعوا وقالوا: اللهم إن كان لك فى هدمها رضًا فأتمه واشغل عنا هذا الثعبان، فأقبل طائر من جوّ السماء كهيئة العُقَاب ظهره أسود وبطنه أبيض ورجلاه صفراوان، والحية على جدار البيت، فأخذها ثم طار بها[2].

وفى بعض الروايات: فبعث الله طيرًا أعظم من النسر، فغرس مخالبه فيها فألقاها نحو أجياد ـ أى فى الحَجُون ـ فابتلعتها الأرض. فقالت قريش: إنا لنرجو أن الله قبل عملكم ونفقتكم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أنها الدابة التى تخرج آخر الزمان تكلم الناس. وقد جاء أن الدابة تخرج من شِعْب أجياد، وقيل: الخارجة فصيل ناقة صالح وهما غريبان.

وقد حضر ﷺ هذا البناء مع قريش، وكان ينقل معهم الحجارة من الوادى. روى الشيخان عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: لما بنت قريش الكعبة ذهب رسول الله ﷺ والعباس ـ رضى الله عنه ـ ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبى ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك تقيك الحجارة ـ أى كبقية القوم فإنهم كانوا يضعون أُزُرَهُم على عواتقهم، ويحملون الحجارة ـ

(١) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٤٤٥)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٦١).

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٩).

ففعل ﷺ، فخرَّ إلى الإرض، فطمحت عيناه إلى السماء، ونودى: عورتك، وكان ذلك أوّل ما نودى فشدَّ عليه[1].

وفى رواية: سقط فغشى عليه، فضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه، فأخبره: «أنه نودى من السماء أن شدّ عليك إزارك».

قال فى «إنسان العيون»: لا يقال كما تقدم: «من كرامتى على ربى أن أحداً لم ير عورتى» وتقدم أن ذلك من خصائصه ﷺ إذ لو رآها أحد طمست عيناه كما قال ﷺ؛ لأنه لا يلزم من كشف عورته رؤيتها، كما لا يلزم من حضانته ﷺ وتربيته ومجامعته مع زوجاته ذلك.

فعن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: «ما رأيت ذاك من رسول الله ﷺ» فحصنته ﷺ، والظاهر أن بقية زوجاته كذلك. قال الزرقانى: ذلك برق السراج ابن الملقن فى شرح البخارى: لعل جزعه لانكشاف جسده.

وفى الحديث ـ يعنى حديث جابر ـ: أنه انكشف شىء من عورته تقصير؛ لأنه وإن لم يكن فيه فقد ورد فى غيره، وخير ما فسرته بالوارد وليس المراد العورة المغلظة.

وكانوا قد اقتسموا جوانب البيت وذلك بعد أن أشار إليهم بذلك ـ كما فى «إنسان العيون» ـ أبو وهب عمرو بن فائد، فكان شِقّ الباب لبنى زُهْرة وبنى عبد مناف، وما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن انضم إليهم من قريش، وكان ظَهْر الكعبة لبنى جُمَح وبنى سَهْم، وكان شِقّ الحجر لبنى عبد الدار وبنى أسد بن عبد الُعزَّى وبنى عدى بن كعب.

والذى فى كلام المقريزى: كان لبنى عبد مناف ما بين الحَجَر الأسود إلى ركن الحِجْر؛ أى وهو شِقّ الباب، وصار لبنى أسد وعبد الدار وزُهْرة الحِجر كله؛ أى الجانب الذى فيه الحِجْر، وصار للمخزوم دُبر البيت، وصار لسائر

(١) فتح البارى (٣/٤٣٩)، صحيح مسلم (كتاب الحيض ح ٧٦)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣١)، السيرة الشامية (٢/ ٢٣٠)، سيرة ابن هشام (١/١٩٧).

قريش ما بين الركن اليمانى إلى الركن الأسود. هذا كلامه فتأمل. وفى كلام بعضهم: وسمى الركن اليمانى باليمان: لأن رجلاً من اليمن بناه. اهـ.

(وَ) لما بلغ البناء موضع الحَجَر من الركن (تَنَازَعُوا) أى اختصموا أولئك القبائل واختلفوا اختلافًا شديدًا وتنافسوا، وقالت كل قبيلة: نحن أحق برفعه إلى محله (فِي) رفع ووضع (الحَجَرَ) الشريف المُنزل من الجنة مع آدم ـ عليه السلام ـ ونزل معه أيضًا عصا موسى وهى من آس الجنة، وبخور العود، وورق التين، وخاتم سليمان. وقد نظم الخمسة بعضهم فى قوله:

وآدم معه أنزل العود والعصا ... لموسى من الآس النبات المُكَرَّمِ
وأوراقُ تينٍ واليمين بمكة ... وختم سليمان النَّبى المُعَظَّمِ

وزاد بعضهم: الحَجَر الذى كان يربطه نبينا ﷺ على بطنه، ومقام إبراهيم: وهو الحَجَر الذى كان يقف عليه عند بناء البيت فيرتفع به حتى يضع الحَجَر والطين ويهبط به حتى يتناول ذلك من إسماعيل.

قال الشرقاوى: وفيه أثر قدميه.

وقد نظمتهما ملحقًا لهما بالبيتين الأوّلين فقلت:

مقامُ خليل الله والحَجَر الذى ... على بطنِه شدَّ النبى به اختِمِ

وسيأتى عن «العينى» أن الذى كان يربطه على بطنه قطعة من الحَجَر الأسود.

ويسمى باليمين، ويوصف ظاهرًا باعتبار ما طرأ عليه من السواد بظاهره مع البياض حين أنزل من الجنة؛ إذ هو ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، وإنما سودته خطايا المشركين كما ورد فى حديث أخرجه ابن خزيمة وغيره، ففى «الجامع الصغير» عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: «الحَجَر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة وإنما سودته خطايا المشركين، يُبعث يوم القيامة مثل جبل أحد، يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا»[1].

(١) مسند أحمد (١/ ٣٠٧، ٣٢٩، ٣٧٣)، سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٠٤).

وفيه أيضًا: «الحَجَر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده»[1] - أى هو بمنزلة يمينه ومصافحته - فمن قبّله وصافحه فكأنما صافح الله وقبّل يمينه.

وفيه أيضًا: «الحَجَر الأسود من حجارة الجنة، وما فى الأرض من الجنة غيره - أى من الحجر لما مر - وكان أبيض كالماء، ولولا ما مسّه من رجس الجاهلية ما مسّه ذو عاهة إلا برىء»[2].

وفيه أيضًا: «الحَجَر الأسود من الجنة، وكان أشد بياضًا من الثلج حتى سوّدته خطايا المشركين أهل الشرك»[3].

ويعلم منه أن الخطايا تؤثر فى الجماد، ففى القلب من باب أولى فلتُجتنب مخافة أن تسود القلب.

وفى «الكشاف»: أنه أسود لما مسه الحيض فى الجاهلية.

وفى رواية عن وهب بن منبه - رضى الله عنه - أن آدم لما أمره الله تعالى بالخروج من الجنة أخذ جوهرة من الجنة - أى التى هى الحَجَر الأسود - مسح بها دموعه، فلما نزل إلى الأرض لم يزل يبكى ويستغفر الله ويمسح دموعه بتلك الجوهرة حتى اسودت من دموعه، ثم لما بنى البيت أمره جبريل أن يجعل تلك الجوهرة فى الركن ففعل.

وجاء: أن خطايا بنى آدم سوَّدته.

وأما شدّة سواده فبسبب إصابة الحريق له أولاً فى زمن قريش، وثانيًا: فى زمن عبد الله بن الزبير كما يأتى، ولا مانع من أن يكون السبب فى سواده ذلك كله.

ويروى: أنه احتوى على الرق الذى كُتب فيه الميثاق الذى أخذه الله على

(١) تاريخ بغداد (٦/٣٢٨)، مصنف عبد الرزاق (٨٩١٩)، تاريخ مكة للفاكهى (٢٠، ٢١)، تاريخ مكة للأزرقى (١/٣٢٤)، وانظر كشف الخفاء (١/٤١٧).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/١٤٦)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/٢٤٢).

(٣) أخرجه النسائى (٥/٢٢٦)، أحمد فى مسنده (١/٣٠٧)، ابن الجوزى فى مثير الغرام الساكن ص (٢٦٠)، البيهقى فى الشعب (٤٠٣٤).

بنى آدم حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم؛ فقد روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ لما دخل المطاف قام عند الحَجَر وقال: والله إنى لأعلم أنك حَجَرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك. فقال له على ـ رضى الله عنه ـ: بلى يا أمير المؤمنين هو يضر وينفع قال: ولم قلت ذلك؟ قال: بكتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية[1]، وكتب ذلك فى رق، وكان هذا الحَجَر له عينان ولسان، فقال له: افتح فاك، فألقمه ذلك الرق وجعله فى هذا الموضع، فقال: تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة. فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن[2].

والحامل لهم على هذا التنازع والاختلاف: نخوة الجاهلية، والحرص على ما به لهم الفخر التام إلى قرب يوم القيامة (فَكُلٌّ) منهم (أَرَادَ رَفْعَهُ) ليحوز شرفه لنفسه، ويتميز بهذه المنقبة العظيمة على غيره (وَرَجَاهُ) تمنى حصول ذلك له دون غيره من سائر القبائل (وَعَظُمَ) بسبب ذلك (القِيلُ وَالقَالُ) كل منهما مصدر لقال، يقال: قال قولاً وقالاً وقيلاً، المراد: كثر الكلام فى ذلك، ومكث النزاع بينهم أربع أو خمس ليال (حَتَّى) أدى إلى أنهم (تَحَالَفُوا) أى تقاسموا (عَلَى القِتَالِ) على أن من غلب منهم أخذه ورفعه، فقربت بنو عبد الدار جَفْنة مملوءة دمًا وأدخلوا فى ذلك أيديهم وتحالفوا على الموت، وكان فى الجاهلية إذا حالف الرجل الرجل يقول: دمى دمك، وهدمى هدمك، وثأرى ثأرك، وتطلب بى وأطلب بك، وتعقل عنى وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف ـ أى من محالفه ـ فنسخ ذلك (وَقَوِيَتْ) لذلك (العُصْبِيَّه) بضم العين وسكون الصاد المهملتين أصله العُصْبة وهى الجماعة

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (١٦٨٢)، البيهقى فى الشعب (٤٠٤٠)، الأزرقى (١/ ٣٢٤) وفيه أبو هارون: ساقط، والحديث ضعفه السيوطى فى الجامع الكبير (٥٤).

أدخلت عليه ياء النسبة والتاء فأفاداه المصدرية فصار بمعنى التعصب كما يقال فى أعجبنى أن هذا أزيد: أعجبنى زيدية هذا كما نص عليه فى «فن النحو» - أى اشتد الغضب والشر بينهم حرصًا منهم على ما مر.

(ثُمَّ) إنهم بعد شدة تنازعهم كما مر اجتمعوا فى المسجد الحرام (وَتَدَاعَوْا) أى دعا بعضهم بعضا (إِلَى الإِنْصَافِ) أى العدل والرجوع إلى الحق عند ظهوره وترك ما هموا به (وَفَوَّضُوا الأَمْرَ) المتنازع فيه (إِلَى) حكم (ذِى) صاحب (رَأْيٍ) تفكر ونظر فى الأمور (صَائِبٍ) مصيب فى رأيه (وَأَنَاةٍ) بوزن حصاة: أى حلم وتؤدة، يجتمع به شتاتهم، ويضمحل به تباينهم، وتلتئم به كلمتهم، ويزول به الحقد فيما بينهم؛ فحكموا أبا أمية بن المغيرة والد أم سلمة أم المؤمنين، واسمه حذيفة، وأبا حذيفة بن المغيرة كما قاله ابن الأثير وغيره، وصريح هذا أن المحكم اثنان.

وفى كلام الحلبى ما يفيد أن المحكم واحد حيث قال فى «سيرته»: وفى كلام البلاذرى أن الذى أشار إلى قريش بأن يضع الركن أول من يدخل من باب بنى شيبة مهشم بن المغيرة ويكنى أبا حذيفة، وقد يقال: لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون اسمه حذيفة ويكنى أبا حذيفة كما يكنى بأبى أمية ومهشم لقبه.. انتهى.

وعلى الأول فقول المصنف - رحمه الله تعالى -: (فَحَكَمَ) أى اتفق كلا الرجلين، وإنما لم يأت بضمير التثنية لأنه لما اتفق رأيهما فى ذلك نسب إلى واحد منهما فلذا أتى بالفعل مجردًا عنه، وأما على الثانى فظاهر (بِتَحْكِيمِ أَوَّلِ) شخص (دَاخِلٍ) أى قال: يلى فصل هذا التنازع والاختلاف أول من يدخل (مِنْ بَابِ) المسجد الحرام المعروف الآن بباب السلام كما ذكره غير واحد، وكان قبل ذلك فى الجاهلية يسمى بباب بنى عبد شمس، ثم بباب بنى شيبة، ثم بباب (السَّدَنَةِ) بتشديد السين المهملة جمع سادن؛ أى خَدَمَةُ الكعبة وحجبتها، وفيه: أنه كان إذ ذاك حول الكعبة بيوت من جهاتها الأربع ولم

يكن حولها جدار حتى يكون فيه باب وإنما كانوا قد تركوا لها قدر المطاف.

واستمر الأمر على ذلك إلى زمنه ﷺ وزمن أبى بكر - رضى الله عنه - فلما ولى عمر - رضى الله عنه - رأى أن يوسع حول الكعبة، فاشترى دوراً وهدمها ووسع حول الكعبة، فبنى المسجد المحيط بها، وبنى حولها جداراً قصيراً وجعل فيه أبواب.

كذا وقرره فى «إنسان العيون».

والذى قرره العلامة الشرقاوى فى «حاشيته على التحرير» نقلاً عن الرملى: أن النبى ﷺ هو أوّل من وسَّع المسجد، واتخذ له جداراً دون القامة، ثم عمر - رضى الله عنه - بدور اشتراها وزادها فيه، واتخذ له جداراً دون القامة، ثم وسعه عثمان واتخذ له الأروقة، ثم عبد الله بن الزبير، ثم إن عبد الملك بن مروان رفع الجدار وسقَّفَه بالسَّاج، ثم إن الوليد بن عبد الملك نقض ذلك ونقل إليه الأساطين والرخام، وسقفه بالسَّاج المزخرف، وأزر المسجد بالرخام، ثم زاد فيه المنصور ورَخَّم الحِجْر، ثم زاد فيه المهدى - أى أولاً وثانيًا - حتى صارت الكعبة فى وسط المسجد، وفى أيام المعتضد أدخلت دار النَّدوة فى المسجد.

لكن نقل فى «إنسان العيون»: أن قُصَيًا أمر قريشًا أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم حول الكعبة، وقال لهم: إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم، فبنوا حولها من جهاتها الأربع بيوتًا وجعلوا أبوابها جهة الكعبة، لكل بطن منهم باب ينسب إليه: كباب بنى شيبة، وباب بنى سهم، وباب بنى مخزوم، وباب بنى جُمح، إلا أن يقال أن المراد بذلك أبواب بيوتهم، وليس مراداً لأنه يقتضى أنهم حكموا بتحكيم أول داخل من باب بيت بنى شيبة، وسياق الكلام يبعده، تأمل فلعل المراد بالباب كوّة الطريق من جهة بيوتهم كما يؤخذ من مفاد قول «القاموس» وباب حفر كوّة.

(الشَّيْبِيَّه) المنسوبين إلى شيبة علم منقول من الشيب المعروف؛ وهو شيبة بن

عثمان بن أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قُصَىّ الحَجَبىّ ـ بفتح الحاء المهملة والجيم وموحدة وياء ـ نسبة لحَجَبَة جمع حاجب ككتبة جمع كاتب، وفى النسبة إلى الجمع يرد إلى مفرده، والقياس: حاجبى، لكنه لما غلب على حَجَبة الكعبة جاز النسبة إليه كأنصارى، أو لأنه على زنة المفرد ومثله ينسب إليه على قول. والحاجب: من يتولى الحِجَابة، وهو البواب ومن بيده المفتاح من الحَجْب وهو المنع، وما فى بعض نسخ «الشفا» الجمحى بميم غلط من الناسخ.

وشيبة هذا هو الذى جعل النبى ﷺ يوم الفتح حجابة الكعبة له ولولد عمه عثمان، وقيل: إنه ﷺ إنما دفعه لعثمان بن طلحة وبقى معه إلى أن حضرته الوفاة، فدفعه لابن عمه شيبة لكونه لم يعقب. فما فى «حاشية شيخ زاده» من أنه دفعه لأخيه شيبة لعل المراد بالأخ ابن العم، فكما يسمى العم أبًا يسمى ابنه أخًا، وقيل: نزلت هذه الآية **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾** [1] فى شأن عثمان بن طلحة ـ رضى الله عنه ـ ودفع المفتاح له أى لما أخذه علىّ ـ كرم الله وجهه ـ يوم الفتح، وقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية. فقال ﷺ لعلى: «كرهت وآذيت» وأمره ﷺ أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه، فقد أنزل الله فى شأنك، وقرأ الآية، ففعل على ـ كرم الله وجهه ـ ذلك[2].

وهذا يدل على أن عليًا أخذ المفتاح على أن لا يرده لعثمان، فلما نزلت الآية أمره ﷺ برده له.

وفى رواية: أنه ﷺ دفعه لعثمان ولشيبة ابن عمه، وقال: «خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»[3].

---

(١) سورة النساء: ٥٨.

(٢) تفسير البغوى (١/ ٣٥٣)، تفسير ابن كثير (١/ ٥١٥)، أسباب النزول لأبى الحسن النيسابورى ص (٩٠).

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/ ١٢٠)، ابن سعد فى الطبقات (٢/ ١)، ابن الجوزى فى مثير الغرام الساكن ص (٢٥٨).

وفى لفظ: «إن الله رضى لكم بها فى الجاهلية والإسلام» أى لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم لا ينزعها منكم إلا ظالم.

ولا مانع أن يكون ذلك بعد أن أمر عليًا ليدفعه له وقال ﷺ: «يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف».

وعثمان هذا ـ كما فى كلام ابن الجوزى ـ كان قد هاجر إلى المدينة، وأسلم سنة ثمان، ولم يزل مقيمًا بالمدينة حتى خرج مع النبى ﷺ فى فتح مكة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يزل مقيمًا بها حتى توفى رسول الله ﷺ فرجع إلى مكة، ولم يزل مقيمًا بها حتى مات فى خلافة معاوية، فلم يزل يلى فتح البيت إلى أن أشرف على الموت فدفع المفتاح إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو ابن عمه، فبقيت الحجابة فى ولد شيبة.

وبهذا يردّ ما قيل من أن النبى ﷺ بعث عليًا يوم الفتح إلى عثمان بن طلحة لأخذ المفتاح، فأبى أن يدفعه له وقال: لو علمت أنه لرسول الله لم أمنعه، ولوى علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ يده وأخذ المفتاح منه قهرًا، وفتح الباب. وأنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ [1] أمره ﷺ أن يدفع له المفتاح متلطفًا به، فجاءه علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ بالمفتاح متلطفًا به فقال: له أَكْرَهتَ وآذَيْتَ، ثم جئت ترفق؟ فقال علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ: لأن الله أمرنا برده عليك، فأسلم لما تقدم من أنه أسلم قبل يوم الفتح.

وبه صرح فى «إنسان العيون» حيث قال: ولما فرغ ﷺ من طوافه ـ أى يوم الفتح ـ دعا عثمان بن طلحة؛ فإنه كان قدم على رسول الله ﷺ المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل الفتح وأسلموا، واستمر فى المدينة إلى أن جاء معه ﷺ إلى فتح مكة.. انتهى.

وكون شيبة ابن عم عثمان هو الموافق لقول الحافظ ابن حجر: الشيبيون

(١) سورة النساء: ٥٨.

نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو ابن عم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، فأبو طلحة له ولدان: عثمان، وطلحة، أتى عثمان بشيبة، وأتى طلحة بعثمان. ويوافقه ما تقدم عن ابن الجوزى.

وعثمان وطلحة ابنا أبى طلحة قتلا كافرين يوم أحد، قتل علىٌّ طلحة، وقتل حمزة عثمان.

وكان قبل قريش يلى سدنة الكعبة رجل يكنى أبا غُبْشَان ـ بضم الغين المعجمة ـ الخزاعى، فاجتمع مع قُصَىّ فى شرب بالطائف فأسكره قُصَىّ، ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر وأشهد عليه ودفعها لابنه عبد الدار وطير به إلى مكة، فأفاق أبو غُبْشَان أندم من الكعى فضربت به الأمثال فى الحمق والندم وخسارة الصفقة.

(**فَكَانَ النَّبِىُّ ﷺ أَوَّلَ**) إنسان (**داخل**) من ذلك الباب (**فَقَالُوا**) بأجمعهم: (**هَذَا الأَمِينُ**) اسم من أسمائه ﷺ وكان ﷺ يسمى قبل النبوة بذلك لما اشتهر من أمانته، ولما غلب من وصفه على الألسنة ليكون حجة عليهم بعد نبوته وفى الحديث: «إنى لأمين فى الأرض وأمين فى السماء»[1].

قال فى «مطالع المسرات»: وقد سماه الله تعالى أمينا فقال: ﴿**مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [2] إذا قلنا أن المراد به محمد ﷺ لا جبريل.. انتهى.

قيل: والأمين من يُلْقَى إليه بمقاليد المعانى ثقة بقيامه عليها وحفظها، وقيل: معناه الأمين فى نفسه من عقاب ربه إشارة إلى ما بشرّه به ربه عز وجل فى سورة الفتح حيث قال: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ الآية[3].

فسمى بما يناسب قدره فهو ﷺ أمين فى السماء، وأمين فى الأرض، وأمين فى نفسه، وأمين لما أوحى إليه وما كلف علمه وتبليغه، وفيما جاء به

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٠٧)، الكافى الشافى فى تخريج أحاديث الكشاف ص (١٠٩)، الوفا ص (١٤٤).
(٢) سورة التكوير: ٢١.
(٣) سورة الفتح: ٢.

عن ربه عز وجل من أمره ونهيه ووعده ووعيده.

(وَكُلُّنَا يَقْبَلُهُ وَيَرْضَاهُ) حكمًا فى هذه القضية، وفى «الشفا»: وكان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ فى الجاهلية قبل الإسلام: أى وتحاكمهم إليه ﷺ حينئذ دليل على كمال عدله وإنصافه (وَ) لما انتهى إليهم (أَخْبَروهُ) بقصتهم وأعلموه (بِأَنَّهُمْ رَضُوهُ) من غير تخلف أحد منهم (أَنْ يَكُونَ) أوّل داخل من الباب المذكور (صَاحِبُ الحُكْمِ فِيْ) دفع (هذا الْمُلِم) بضم الميم الأولى وكسر اللام اسم فاعل ألم من اللمة بكسر اللام: ما يخاف من فزع وشدة أى النازل الشديد العظيم، وفى بعض النسخ: «المُهِم» بالهاء بوزنه اسم فاعل أهم أى الحامل لأصحاب الهمم على صرفها فيه لعظمته حتى كادوا بسببه يقتتلون (و) أن يكون (وليه) هو الذى يتولى فصل القضاء فيه برأيه السديد.

(فـ) حكم بأن (وَضَعَ) ﷺ (الحَجَرَ) الأسود بيده الشريفة (فى ثَوْب) واسع كبردة؛ وتنكيره يوافق ما فى «المنح» من أنه ﷺ أمر بوضعه فى ثوب.

لكن ورد فى رواية: فوضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه على الأرض. ومشى على ذلك الأهدل ـ رحمه الله ـ فى «مولده» حيث قال: فبسط ﷺ رداءه الشريف فوضعه فيه ـ أى فى وسطه ـ لأجل أن يحيطوا به ويرفع كل رجل من الحاشية التى قبله فيصيروا كلهم رافعين له ويجبر خاطر الجميع، ويزول ما كان بينهم، فلله دره من حكم عدل ﷺ.

(ثم أمر) ﷺ (أن ترفعه القبائل) أى رؤساؤهم، وكانوا قد ردوا أمرهم فى ذلك إلى أربع قبائل منهم كما يرشد إليه ما فى «بهجة المحافل» وفى «أعلام النهر» أنه ﷺ قال: «ليأخذ كل كبير قبيلة بطرف الثوب». وفى لفظ آخر: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه».

وفى «إنسان العيون»: فكان فى الربع الأول عتبة بن ربيعة، وفى الربع الثانى زمعة، وفى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وفى الربع الرابع قيس ابن عدى.

(جميعًا إلى مُرْتَقَاه) بضم الميم أى محل رَقْيه (فـ) فعلوا ما أمر ﷺ و **(رفعوه إلى مقره)** محل استقراره وهو المحل الذى كان فيه من وقت إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ **(من)** للبيان **(ركن هاتيك البَنِيَّه)** بفتح الباء الموحدة وكسر النون وشد المثناة التحتية: الكعبة كما تقدم، ثم لما انتهى رفعهم إلى المحل المراد أخذه **(ووضعه ﷺ بيده الشريفة)** الطاهرة الزكية: أى اليمين كما هو اللائق بجنابه ﷺ، أو بيديه معًا ويكون ذكر اليد بلفظ الإفراد لإرادة الجنس **(فى موضعه)** حيث هو **(الآن وبناه)** عَمَّرَه ﷺ، وهذا من تمام عقله ﷺ حسمًا لباب الفتنة.

قال السهيلى: ذُكِرَ أن إبليس كان حاضراً معهم فى صورة شيخ نجدى، فلما أخذ النبى ﷺ الحَجَر من الثوب ووضعه فى محله صاح بأعلى صوته: يا معشر قريش، أقد رضيتم أن يضع هذا الركن وهو شرفكم غلام يتيم دون ذوى أنسابكم[1] ـ يريد بذلك إثارة شرّ بينهم فلم يحصل.

فلما تم بناء الكعبة أعادوا الصُّور التى كانت فى حيطانها؛ لأنه كان فى حيطانها كما فى «إنسان العيون» فى فتح مكة صور الأنبياء بأنواع الأصباغ، ومن جملتهم صورة إبراهيم وفى يده الأزلام، وإسماعيل وفى يده الأزلام، وصورة الملائكة، وصورة مريم. وكساها زعماؤهم أرديتهم وكانت من الوصائل ـ وهى بُرودٌ حمر فيها خطوط خضر تعمل باليمن ـ ولم يكسها أحد بعد ذلك حتى كساها رسول الله ﷺ الحِبْرَات[2] فى حجة الوداع، ثم كساها ابن الزبير الديباج، وقد كساها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم، واستمر ذلك إلى الآن.

وقال الحلبى أول من كساها على الإطلاق: تُبَّع الحِميَرِىّ[3] كما تقدم على الراجح وذلك قبل الإسلام بتسعمائة سنة.. انتهى.

(١) طبقات ابن سعد (١/١٤٦)، السيرة الشامية (٢/٢٣٢).
(٢) الحِبَرات: جمع حبرة وهى بُرودٌ من بُرود اليمن.
(٣) الفاكهى (٨٠٠٢)، أبو هلال العسكرى (٤٣)، مثير الغرام ص (٢٥٥).

خاتمة: نسأل الله حسنها

أول من بنى الكعبة الملائكة بنوها من ياقوتة حمراء، ثم بناها بعدهم آدم، ثم شيث ولده لصلبه، ثم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث ابن عمر: أن البيت رفع فى الطوفان فكان الأنبياء بعد ذلك يحجون ولا يعلمون مكانه حتى بوأه الله لإبراهيم فبناه على أساس آدم، وجعل طوله فى السماء سبعة أذرع بذراعهم، وذرعه فى الأرض ثلاثين ذراعًا بذراعهم، وأدخل الحِجْر فى البيت، ولم يجعل له سقفا، وجعل له بابًا، وحفر بئرًا عند بابه يلقى فيه ما يُهدى للبيت[1].

وعن ابن عباس وابن جبير: أنه لما فرغ من بناء البيت وقيل له: أذن فى الناس بالحج. قال: يا رب! وما يبلغ صوتى؟ قال: أذن وعلىَّ الإبلاغ. فصعد إبراهيم جبل أبى قُبَيْس ـ وهو أول جبل وضع على الأرض كما فى «إنسان العيون» ـ وصاح: يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار، فحجوا، فأجاب من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء[2].

وفى رواية عن أبى الطفيل عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: فأجابه كل شىء: لبيك اللهم لبيك، فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة، إن أجاب مرة فمرة، وإن أجاب مرتين فمرتين[3]. وجرت التلبية على ذلك؛ أى وكان ذلك أصل التلبية كما فى رواية أبى الطفيل.

ثم العمالقة ثم، جرهم، ثم قُصَىًّ بن كِلاب، ثم قريش، وجعلوا ارتفاعها ثمانية عشر ذراعًا وفى رواية عشرين ـ ولعل راويها جبر الكسر، ففى

---

(١) سبل الهدى والرشاد (١/ ١٨٠).

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٤)، سبل الهدى والرشاد (١/ ١٨٥).

(٣) سبل الهدى والرشاد (١/ ١٨٤).

«الروض»: أنها كانت تسعة أذرع من عهد إسماعيل ـ يعنى طولاً ـ ولم يكن لها سقف، فلما بنتها قريش زادوا فيها تسعة أذرع، أى فصارت ثمانية عشر ذراعًا، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا فى درج أو سلم.

وقال الأزرقى: كان طولها سبعة وعشرين ذراعًا، فاقتصرت قريش منها على ثمانية عشر، ونقصوا من عرضها أذرعًا أى ستة أو سبعة ـ كما مر ـ أدخلوها فى الحِجْر لضيق النفقة.

ثم عبد الله بن الزبير، وذلك لما حوصر من جهة يزيد تضعضعت من الرمى بالمنجنيق فهدمها فى خلافته، وبناها على قواعد إبراهيم، وأعادوا طولها على ما هو عليه الآن، وأدخل من الحِجْر الأذرع المذكورة، وجعل لها بابًا آخر.

ثم الحجاج؛ وذلك لما قتل ابن الزبير شاور الحجاج عبدالملك فى نقض ما فعله ابن الزبير، فكتب إليه: أما ما زاد فى طولها فأقره، وأما ما زاد فى الحِجْر فرده إلى بنائه، وسد بابه الذى فتحه. ففعل الحجاج ذلك. كما فى مسلم عن عطاء.

وذكر الفاكهى: أن عبد الملك ندم على إذنه للحجاج فى هدمها ولعن الحجاج. وفى مسلم نحوه من وجه آخر.

وكان بناء الحجاج لها فى السنة التى قُتل فيها ابن الزبير، وهى سنة ثلاث وسبعين. قال الزرقانى: واستمر بناء الحجاج إلى الآن.

وقد أراد الرشيد أو أبوه أو جده أن يعيده على ما فعله ابن الزبير فناشده مالك وقال: أخشى أن تصير ملعبة للملوك، فتركه.

ولم يتفق لأحد من الخلفاء ولا غيرهم تغيير شىء مما صنعه الحجاج إلى الآن إلا فى الميزاب والباب وعتبته، وكذا وقع الترميم فى الجدار، والسقف، وسلم السطح غير مرة، وجدد فيها الرخام.

قال ابن جريج: أول من شرَّفها بالرخام: الوليد بن عبد الملك.

فالمتحصل من الآثار كما أفاده «الفتح» و «الإرشاد» و «السبل» و «شفاء

الغرام»: أنها بنيت عشر مرات، وقد نظم بعضهم ذلك فقال:

بنى بيتَ ربِّ العرشِ عشرٌ فخذهمُ ... ملائكـةُ الله الكرام فآدمُ
فشيثٌ فإبراهيمُ ثم عمالق ... قُصَىٌّ قريشٌ قبل هذين جُرْهَمُ
وعبدُ الإله بن الزُّبير بنى كذا ... بناءٌ لحجَّاجٍ وهـذا مُتَمِّمُ

وقول الناظم: عشر... إلخ: أى من المخلوقين، فلا ينافى ما ورد فى بعض الروايات: أن الله وضعه أولاً من غير بناء أحد؛ فلعل المراد بأولية البناء للملائكة تجديدًا لا إحداثًا. وذيل بعضهم لهم الحادى عشر فى نظم له فقال:

بنى الكعبةَ الغرَّاء عشرٌ ذكرتهم ... ورتَّبتهم حَسْبَ الذى أخبر الثقهْ
مـلائكةُ الرحمنِ آدمُ وابنه ... كذاك خليلُ اللهِ ثم العمالقهْ
وجُرْهُم يتلـوه قُصَىٌّ قريشهم ... كذا ابن الزبير ثم حجَّاجٌ لاحقهْ
وخاتمهم من آل عثمان بدرهم ... مراد المعالى أسعد الله شارقهْ

وذكره ابن علاَّن فى رسالة له؛ لكن يرده ما تقدم عن الزرقانى. وعلى ثبوت البناء له فليحمل على ما تقدم من الترميم ونحوه، وبه يشعر قول الناظم حيث قال: عشر، ولم يقل أحد عشر؛ لأنه لم يصح عنده ذلك، فيكون ذكره له إما إشارة إلى وقوعه فى كلام البعض، أو استطرادًا لوقوع بعض البناء له فيها.

ثم رأيت فى «إنسان العيون» ما حاصله: أن البناء وقع فى زمنه على يد عامله بمصر الوزير محمد باشا سنة تسع وثلاثين وألف بسبب سيل عظيم دخلها يوم الخميس بعد صلاة العصر وهدم معظم الكعبة، وسقط به الجدار الشامى بوجهيه، وانحدر معه فى الجدار الشرقى إلى حد الباب، ومن الجدار الغربى من الوجهين نحو السدس، وعند مجىء الخبر إلى الوزير المذكور، جمع جمعًا من العلماء كنت من جملتهم للمشاورة فوقعت، الإشارة بالمبادرة للعمارة.. انتهى.

فلعلهم عَمَّرَوا ما انهدم منه فيكون ترميمًا فلا يخالف ما قاله العلماء من أن

هذا البناء لا يُغير.

وذكر بعضهم: أن عبد المُطَّلب بناها بعد قُصَىّ وقبل بناء قريش. قال الفاسى: ولم أر ذلك لغيره، وأخشى أن يكون وهمًا.

قال: واستقر بناء الحجاج إلى يومنا هذا وسيبقى إلى أن تخربها الحبشة، وتقلعها حجراً حجراً كما فى الحديث[1].. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٩)، الحاكم فى مستدركه (٤/٤٥٣) بنحوه.

[البعثة]

وهنا تم الكلام على الولادة الشريفة وبعض ما يتعلق بها من نحو حمله، ورضاعه، ونشأته، وبعض ما اتفق له فى صغره وكبره قبل مبعثه ﷺ، وشرع يتكلم على البعثة وبعض ما وقع له بعدها من نحو: الإسراء، والهجرة، وبعض ما اشتمل عليه من سيرته الزكية، وشمائله الشريفة، وأخلاقه المنيفة، وغير ذلك فقال:

[سن رسول الله ﷺ حين بعث نبيًا]

(وَلَمَّا كَمُلَ) مثلث الميم والفتح أفصح فالضم بمعنى تم؛ أى لما تم **(لَهُ ﷺ أَرْبَعُونَ سَنَةً)** كما فى الصحيحين عن ابن عباس وأنس رضى الله عنهم. قال ابن إسحاق: وهذا هو المشهور بين الجمهور من أهل السير والعلم بالأثر. قال السهيلى: هو الصحيح عندهم. لكن قال شيخنا فى حواشيه على «جوهرة التوحيد»: وهذا لا يتم إلا إذا كانت البعثة فى شهر الولادة، مع أن المشهور أنه ولد فى ربيع الأول وبعث فى رمضان، فله حين البعث أربعون سنة ونصف إن كان البعث فى رمضان الواقع بعد السنة المتممة للأربعين، أو تسعة وثلاثون ونصف إن كان البعث فى رمضان الواقع فى أثناء السنة المتممة للأربعين، فمن قال أربعون سنة ألغى الكسر على الأول وجبره على الثانى. . انتهى.

وقيل: أربعون سنة ويوم، وقيل: وعشرة أيام، وقيل: وعشرون، وقيل: وأربعون، وقيل: وشهران، وقيل: وسنتان وهو شاذ، وأكثر منه شذوذًا ما قيل: وثلاث سنين، وما قيل: وخمس سنين. وحيث كانت الأقوال المذكورة أرجحها ما صدّر به المؤلف أشار إلى ذلك بقوله: **(عَلَى أَوْفَقِ الأَقْوَال)** بل وأصحها المروية **(لِذَوِى العَالِمِيَّه)** بكسر اللام: أى أصحاب العلم فيه ما تقدم

من الكلام على قول المصنف وقويت العصبية (بَعَثَهُ) أرسله (اللهُ) تعالى: أى أوحى إليه فنزل ذلك منزلة الإرسال فعبر عنه بالبعث مجازاً وإلا فحقيقته إرسال شخص من مكان لآخر يتعدى إليه الفعل بنفسه إن وصل بنفسه كما هنا وإلا فبالباء؛ كبعثت بالكتاب عند أكثر اللغويين وبه قطع فى «المصباح»، وإنما أرسله فيها لأنها سن الكمال ونهاية بعث الرسل.

قال الحلبى: أى لا يرسلون دونها. ومن ثم قال فى «الكشاف»: ويروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس أربعين سنة.

وقال شيخنا: وإنما كان الإرسال على رأس الأربعين؛ لأنه العادة المستمرة فى معظم الأنبياء أو جميعهم كما جزم به ـ أى بالثانى ـ كثيرون منهم: شيخ الإسلام فى «حواشى البيضاوى»، وإنما استدلوا بالعادة المستمرة ولم يستدلوا بحديث: «ما نبىء نبى إلا على رأس الأربعين سنة»[1]: لعدّ ابن الجوزى له فى الموضوعات.

وقال بعضهم: إن بلوغ الأربعين ليس شرطًا للنبوّة؛ فإن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان نبيّا، ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ـ أى فنبىء وهو ابن ثلاثين سنة، بل قيل: وهو طفل، ونبىء يحيى صبيّا، بناء على أن الحكم الذى أوتيه صبيّا: النبوّة.

لكن ذكروا فى «حواشى التفسير» نقلا عن «المواهب»: أن هذا خلاف التحقيق، وقالوا: الصحيح أن عيسى ما رُفع إلا بعد مضى ثمانين سنة من النبوّة، وبعد نزوله من السماء يعيش أربعين سنة.

قال شيخنا: ولا يرد قوله تعالى فى حق يحيى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[2] لأن المراد بالحكم: العلم والمعرفة لا النبوّة، ولا يرد أيضًا قوله تعالى حكاية عن عيسى: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[3]؛ لأنه من التعبير بالماضى عن

---

(١) أورده ابن الجوزى فى الموضوعات.

(٢) سورة مريم: ١٢.

(٣) سورة مريم: ٣٠.

المستقبل على حد قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾[1] أو المعنى: وجعلنى نبيًا فى علمه هذا.

ووقع فى كلام سيدى على الخوّاص: أن النبى نبىء من صغره. ولعله أراد الكمال والتهيؤ كما ذكره العلامة الأمير . . انتهى.

وتقدم ما يؤيد كلام الخوّاص فى الكلام على خبر: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد» وأنه ليس المراد بذلك التقدير فى علم الله؛ لأن الله تعالى عالم بنبوّة غيره من الأنبياء، ووصف النبى بذلك فى ذلك الوقت يفهم منه أمر ثابت له خاص به، ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير فى المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبى وآدم بين الروح والجسد، فلابد من خصوصية للنبى ﷺ، ولأجلها أخبر بهذا الخبر ليعرفوا قدره عند الله، كما مر تحقيق ذلك مبسوطًا.

وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبى بعثه قبله بالإيمان والتصديق له، والنصر على من خالفه، وأن يؤدّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم، أى فهم وأممهم من جملة أمته ﷺ ـ كما سيأتى عن السبكى ـ وذلك يوم الإثنين، كما سيأتى قريبا.

(للعالَمين) جمع لعالَم بفتح اللام فيهما، وقيل: اسم جمع له، والتحقيق الأوّل كما تقدم، قال البيضاوى: وهو اسم وضع لذوى العلم من الملائكة والثقلين، وتناوله لغيرهم على سبيل الاتساع. فالمراد ما سوى الله تعالى وصفاته من الموجودات.

أما إرساله إلى الثقلين فبالإجماع، وكذا إلى الملائكة كما رجحه جمع محققون ـ كما تقدم ـ مستدلين بعموم قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[2] أو بحديث مسلم المتقدّم: «أرسلت إلى الخلق كافة»[3].

---

(١) سورة النحل: ١.

(٢) سورة الفرقان: ١.

(٣) مسند أحمد (٢/ ٤١٢)، السنن الكبرى للبيهقى (٢/ ٤٣٣)، دلائل النبوة لأبى نعيم (١/ ١٤).

ولذا ذهب بعض المتأخرين إلى إرساله ﷺ إلى سائر الجمادات، لكن لم يكن إرساله إلى الملائكة إلا ليلة الإسراء كما ذكره السيوطى فى كتابه «تزيين الأرائك فى إرسال النبى ﷺ إلى الملائك».

وتقدم أن إرساله إلى الثقلين إرسال تكليف، ولغيرهم ـ كالمعصوم وغير المكلف ـ إرسال إذعان؛ لشرفه ودخوله تحت دعوته: أى فَهُم وإن لم يكلفوا بشريعته مكلفون بتعظيمه والإيمان به والإشارة بذكره.

وأما إرساله إلى الجمادات فإرسال تأمين لها من الخسف بها ونحوه، بل ولا مانع من أن يُرَكِّبَ الله فيها إدراكات ونطقًا لتؤمن به وتخضع له بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [1] أى حقيقةً لا بلسان الحال فقط خلافًا لمن زعمه.

قال الجلال السيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذا القول ـ أى إرساله للملائكة ـ رجحته فى كتابى «الخصائص»، ورجحه قبل الشيخ تقى السبكى، وزاد أنه مرسل لجميع الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ والأمم السابقة من لدن آدم إلى قيام الساعة. ورجحه أيضًا البارزى، وزاد: أنه مرسل إلى جميع الحيوانات والجمادات. وأزيد على ذلك أنه مرسل إلى نفسه، فعلم أنه ﷺ مرسل لجميع الأنبياء وأممهم على تقدير وجوده فى زمنهم؛ لأن الله أخذ عليهم الميثاق على الإيمان به ونصرته ـ كما تقدم ـ مع بقاء نبّوتهم ورسالتهم إلى أممهم. وأما غيره من الأنبياء فإنما كان يبعث إلى قومه فقط، وإن كانت رسالة بعضهم عامة فى الصورة لعدم وجود غيره، ولو اتفق وجود غيره لم يكن مبعوثًا إليه. فنبوته ورسالته ﷺ أعم وأشمل.

وفى «إنسان العيون»: وكون جميع الأنبياء وأممهم من أمته ﷺ المراد: أمة الدعوة لا أمة الإجابة؛ لأنها مخصوصة بمن آمن به ﷺ بعد البعثة.. انتهى.

وبعثته ﷺ رحمة على الكفار بتأخير العذاب، ولم يُعَاجَلوا بالعقوبة كسائر

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

الأمم المعذبة، وحتى للملائكة؛ فهو أفضل من سائر المرسلين وجميع الملائكة المقربين.

قال فى «إنسان العيون»: سألت عما حكاه الجلال السيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه ورد إلى مصر نصرانى من الفرنج وقال: لى شبهة إن أزلتموها أسلمت. فعقد له مجلس بدار الحديث بالكاملية، ورأس العلماء إذ ذاك الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقال النصرانى والناس يسمعون: أى شىء أفضل عندكم المتفق عليه أو المختلف فيه؟ فقال الشيخ عز الدين: المتفق عليه. فقال له النصرانى قد اتفقنا نحن وأنتم على نبوة عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ واختلفنا فى نبوّة محمد ﷺ فيلزم أن يكون عيسى أفضل من محمد عليهما الصلاة والسلام؟. فأطرق الشيخ عز الدين ساكتًا من أوّل النهار إلى الظهر حتى ارتجّ المجلس واضطرب أهله، ثم رفع الشيخ عز الدين رأسه وقال: عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لبنى إسرائيل: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [1] فيلزمك أن تتبعه فيما قال وتؤمن بأحمد الّذى بشر به، فأقام الحجة على النصرانى وأسلم. بأنه كيف؟ أقام الحجة على كون محمد أفضل من عيسى إذ غاية ما ذَكَر: أن محمدًا رسول الله، فأجبت بأنه حيث ثبت أن محمدًا رسول الله وجب الإيمان به وبما جاء ومما جاء به أنه أفضل من جميع الأنبياء انتهى حال كونه.

(بشيرًا) فعيل بمعنى فاعل: أى مبشرًا لمن أطاعه بالثواب، وقيل: بالمغفرة، وقيل: بالجنة، وقيل: بالشفاعة، وقيل: إنه شفيع للمتقين برضا رب العالمين، والخائفين بالأمن يوم الدين، وللمشتاقين بالنظر إلى وجه الملك الحق المبين.

والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون للشر إذا كانت مقيدة به فهى لمطلق الإخبار، فمعنى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [2]: أخبرهم.

---

(١) سورة الصف: ٦.

(٢) سورة آل عمران: ٢١.

والبشارة المطلقة: هى الإخبار بما يسر؛ سميت بذلك لتأثر البشرة ـ وهى ظاهر الجلد ـ عند الإخبار بالأمر السار.

(وَنَذِيراً) أى منذراً مخوفًا لأهل المعصية بالنار أو بالعذاب، وقيل: محذراً من الضلالات. والإنذار: الإخبار عما يُخاف؛ ليُحذر ويُكف عما يُوصل إليه، ويُعمل بما يحجز عنه (فَعَمَّهُمْ) سبحانه وتعالى (بِرُحْمَاهُ) بضم الراء اسم مصدر رحم بمعنى الرحمة: أى شمل العالمين برحمته، أو عمَّ النبى ﷺ العالمين برحمته، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [1]. وقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [2].

وقال ﷺ: «أنا رحمة مهداة»[3]. وقال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابًا»[4].

فهو ﷺ عين الرحمة فإن كل خير ونور وبركة شاعت وظهرت فى الوجود، أو تظهر من أول الإيجاد إلى آخره إنما ذلك بسببه ﷺ، وكونه رحمة للعالمين لأن ما بعث به سبب لإسعادهم، وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم، وظاهره شمول ذلك للمنافقين بل للكفار، وهو كذلك كما تقدم.

ففى «الكشاف»: أن ما أتى به لإسعاد الفريقين الكفار والمؤمنين، فمن خالف فعذابه من نفسه؛ كعين انفجرت فانتفع قوم وكسل قوم فهى رحمة لهما.

واستشكل ذلك بأنه كما قصد ببعثته ﷺ أن يؤمن قوم فيثابوا، كذلك قصد ببعثته أن لا يؤمن قوم فيعذبوا، فلم خص الرحمة ونفى الغضب؟

وأجيب: بأن المقصود بالذات الرحمة، والغضب بالتبعية، بل فى حكم

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة التوبة: ١٢٨.

(٣) كنز العمال (٣١٩٩٥)، تفسير القرطبى (٤/٦٣).

(٤) دلائل النبوة لأبى نعيم (١/١٥)، المغنى عن حمل الأسفار (٣٦١١٢)، كنز العمال (٣١٩٩٧)، إتحاف السادة المتقين (٧/١٠٧).

العدم فانحصر فيها مبالغة. وعبارة الفخر الرازى: إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [1] مع أن النبى ﷺ لم يكن رحمة للكافرين الذين ماتوا على كفرهم بل نقمة، إذ لولا إرساله إليهم لما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [2] قلنا: كان رحمة للكافرين أيضًا من حيث إن عذاب الاستئصال أُخرً عنهم بسببه، أو كان رحمة عامة من حيث إنه جاء بما ينقذهم من العذاب إن اتبعوه، ومن لم يتبعه فهو الذى قصر فى حق نفسه من الرحمة، ومثله عليه الصلاة والسلام كمثل عين عذبة فجّرها الله تعالى فسقى ناس زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا، وأفرط ناس فى السقى منها فلم يفلحوا، فالعين فى نفسها نعمة من الله للفريقين ورحمة وإن قَصَّر البعض.

أو أن المراد بالرحمة: الرحيم، وهو ﷺ كان رحمة للفريقين بمعنى رحيمًا عليهم؛ ألا ترى أنهم لما شجّوه يوم أحد وكسروا رَبَاعِيَتَه خَرّ مغشيًا عليه، فلما أفاق قال: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون»[3].

ولما خرج إلى الطائف حين ناله من قريش ما ناله، ودعا أهلها فأغروا به سفهاءهم، ولقى منهم أشد مما لقيه يوم أحد، ومع ذلك فلما جاءه جبريل ومعه ملك الجبال ليأمره فى قومه بما شاء، فقال ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئا» وعند ذلك قال له الملك: «أنت كما سمَّاك ربك رؤوف رحيم».

وسيأتى الكلام فى ذلك إن شاء الله تعالى فى محله.

* * *

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة الإسراء: ١٥.

(٣) الدر المنثور (٢/٢٩٨)، إتحاف السادة المتقين (٨/٢٥٨)، مناهل الصفا (١٦٥٥).

[فى ابتدائه ﷺ بالرؤيا الصادقة]

(وبُدِئَ) بضم الباء الموحدة وكسر المهملة فهمزة، لما أراد الله تعالى إرساله بأوائل خصال النبوّة، وتباشير الكرامة قبل مجىء الملك (إِلَى تَمَامِ سِتَةِ أَشْهُرٍ) كما حكاه البيهقى والغاية داخله أوّلها فى سابع عشر ربيع الأول، أو سبع وعشرين، أو أربع وعشرين منه ليوافق ما يأتى من الأقوال فى بدء الوحى يقظة فى رمضان، وقول بعضهم: أولها ربيع وآخرها شعبان، فيه نظر لعدم موافقته للأقوال الآتية كلها من كونه فى رمضان، أو فى سابع ربيع الأول، أو سابع وعشرين من رجب، وعبارة بعضهم: ابتداؤها فى ربيع وآخرها فى رمضان، وهو واضح.

(بِالرُّؤْيَا) مصدر كالرجعى، وتختص بالنوم كاختصاص الرؤية بالعين، وقيل: إنها تطلق على الرؤية بالبصر أيضًا، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [1] وهى رؤية بصر، والمقصود هنا الأول، وقد يراد بالرؤية: العلم والتذكير كما فى سورة الفيل فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [2]. فافتتحها بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أنها قبل مبعثه ﷺ بل قبل ولادته إشارة إلى أن المراد من الرؤية: العلم والتذكير، وأن الخبر بذلك متواتر؛ فكان العلم بذلك ضروريًا مساويًا للعلم الحاصل بالرؤية البصرية، أفاده فى «المنح».

(الصَّادِقَة) وفى مسلم: «الصالحة». قال صاحب «المواهب»: وهما بمعنى بالنسبة إلى الآخرة فى حق الأنبياء، وأما بالنسبة إلى أمور الدنيا فالصالحة فى الأصل أخصّ، فرؤيا الأنبياء كلهم صادقة، وقد تكون صالحة ـ وهى الأكثر ـ

(١) سورة الإسراء: ٦٠.

(٢) سورة الفيل: ١.

وغير صالحة بالنسبة للدنيا كرؤيا يوم أحد.

والمراد بالصادقة: التى لا كذب فيها إذ لم يكن ضغثًا ولا من تلبيس شيطان.

(الجَلِيَّة) الظاهرة بحيث لم تكن تحتاج إلى تعبير وتأويل، وهى من أقسام الوحى فَيُطْلِعُ الله النائم على ما جهله من معرفة الله سبحانه وتعالى، والكائن فى يقظته، ولذا كان ﷺ إذا أصبح سأل أصحابه: «هل رأى أحد منكم رؤيا هذه الليلة؟»[1]. وذلك لأنها آثار نبوّته فى الجملة كما ورد فكان ﷺ يحب أن يشهدها فى أمته، وهى باقية لأمته ﷺ. قال ﷺ: «الرؤيا الصادقة - وفى البخارى: «الحسنة» أى الصادقة - من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»[2].

قال بعضهم: لأن النبوة بالوحى والرؤيا ثلاث وعشرون سنة، والرؤيا منها: نصف سنة. وما ذكر من السنين لو قُسِم أنصافًا لكان ستة وأربعين نصفًا، ونسبة الرؤيا لذلك جزءًا من ستة وأربعين جزءًا، وحينئذ يكون المعنى: ورؤيتى جزء من ستة وأربعين جزءًا من نبوتى.

ولا يخفى أن هذا لا يناسب الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح؛ إذ هو يقتضى أن مطلق الرؤيا الصالحة جزء من مطلق النبوة الشامل لنبوته ونبوة غيره. فتأمل.

قال الحلبى فى «إنسان العيون»: ولم أقف فى كلام أحد على مشاركة أحد من الأنبياء له ﷺ فى هاتين المدتين.. أى مدتى الوحى والرؤيا.

وعليه تحمل الخصوصية التى ادعاها بعضهم وإلا فقد جاء: «أوّل ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحى»[3] أى فى اليقظة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (الرؤيا: ٦)، أحمد فى مسنده (٤/ ١٠)، البيهقى فى السنن (٤١/ ٣٩)، الطبرانى فى الكبير (١٩/ ٢٠٥).

(٣) سيرة ابن كثير (١/ ٣٨٨)، السيرة الشامية (٢/ ٣٠٦).

ومما يدل على أن المراد مطلق الرؤيا ومطلق النبوة لا خصوص رؤياه ونبوته ﷺ: ما جاء في ذلك من الألفاظ التي بلغت خمسة عشر لفظًا، ففي رواية: «أنها جزء من سبعين جزءًا»، وفي رواية: «من أربعة وأربعين»، وفي رواية: «من خمسين»، وفي رواية: «من تسعة وأربعين»، وفي أخرى: «من أربعة وعشرين». فإن ذلك باعتبار الأشخاص لتفاوت مراتبهم في الرؤيا.

وذكر الحافظ ابن حجر: أن أصح الروايات مطلقًا رواية: «ستة وأربعين»، ويليها رواية: «جزء من سبعين»، فعلم أن الرؤيا المذكورة جزء من مطلق النبوة، أي كجزء منها من جهة الاطلاع على بعض الغيب فلا ينافي انقطاع النبوة بموته ﷺ، ومن ثم جاء: «ذهبت النبوة ـ أي لا توجد بعدي ـ وبقيت المبشرات»[1] أي المرائي.

وفي لفظ: «لم يبق إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»[2]. لا يقال: الرؤيا الصادقة تكون من الكافر أو له وهو خارج بالرجل الصالح وبالمسلم لأنّا نقول: لو فرض وقوع ذلك كان استدراجًا. وفيه أنها واقعة، وظاهر سياق الحديث الحصر.

وكما تكون الرؤيا مبشرة بخير عاجل أو آجل تكون منذرة بشر كذلك.

وقال سعيد بن جبير: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله؛ أي فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى أي يعيدها.

قال علي كرم الله وجهه: فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها فهي الرؤيا الكاذبة؛ لأنها من إلقاء الشيطان. والمشهور عدم تعدد الروح في كل جسد.

وصرح العز بن عبد السلام بأن في كل جسد روحين: أحدهما روح اليقظة

(١) سنن ابن ماجه (٣٩٨٦)، مسند أحمد (٦/ ٣٨١)، الدارمي (٢/ ١٢٣)، التمهيد لابن عبد البر (٥/ ٥٧).

(٢) عزاه السيوطي في الجامع الكبير (١٧٤٥٠) للبيهقي في شعب الإيمان. وله شواهد.

التى أجرى الله العادة بأنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان مستيقظا، فإذا خرجت منه نام ورأت تلك الروح المنامات. والأخرى روح الحياة التى أجرى الله العادة بأنها إذا كانت فى الجسد كان حيّا، فإذا فارقته مات. وهاتان الروحان فى باطن الإنسان لا يعرف مقرهما إلا من أطلعه الله تعالى على ذلك.

وجاء: «الرؤيا الحسنة من الله، والسيئة من الشيطان»[1] أى بالنسبة إلينا فلا ينافى ما وقع له ﷺ عند خروجه لغزوة أحد، إذ ليس للشيطان عليه سبيل، وإنما لم يعدل عنه وإن وافقه على العدول أكابر المهاجرين والأنصار؛ لأنه مأمور بالجهاد خصوصًا وقد فجأهم العدو، ورأى تصميم بعض الأصحاب على الخروج، ووافقهم على ذلك بعض الأكابر من المهاجرين: كحمزة، والأنصار: كابن عباد، فترجح عنده رأيهم وإن كرهه ابتداء ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

وتقدم عن صاحب «المواهب»: أن رؤيا الأنبياء قد تكون غير صالحة بالنسبة للدنيا كهذه، قال ﷺ: «فإذا رأيت الرؤيا تكرهها فاستعذ بالله من الشيطان واتفل عن يسارك ثلاث مرات فإنها لا تضرك»[2].

وفى رواية: «إذا رأى أحدكم ما يكره فليعذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان ـ كأن يقول: أعوذ بالله من شر ما رأيت، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثًا، ولا يحدث بها أحدًا فإنها لا تضره»[3].

وحكمة التفل: احتقار الشيطان واستقذاره.

وزاد فى رواية: «وأن يتحول عن جنبه الذى كان عليه»[4]. زاد فى أخرى:

(١) مجمع الزوائد (٧/ ١٧٥)، الكامل فى الضعفاء (٦/ ٢٠٨٤)، الضعفاء للعقيلى (٤/ ٤٣٣).
(٢) عمل اليوم والليلة ص (٧٦٥)، وعزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٨٣٣) للديلمى.
(٣) أخرجه مسلم (الرؤيا: ٦)، أبو داود (٣٩١٩).
(٤) أخرجه البخارى (٧٠١٧)، مسلم (٢٢٦٣)، الترمذى (٢٢٨٠)، أحمد فى مسنده (٣/ ٣٦٩)، ٣٨٠)، النسائى (٣/ ١٠٣)، الحميدى (١٢٢٣)، عبد بن حميد (١٠٤٧).

«وليقم فليصل». أى فيكون فعل ذلك سببًا للسلامة من المكروه الذى رآه.

(فَكَانَ) ﷺ (لاَ يَرَى) فى المنام (رُؤْيَا) قال العلقمى: كثر كلام الناس فى حقيقة الرؤيا، والصحيح قول أهل السنة: أن الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان، وفسرها بعضهم بأمثلة يدركها الرائى بجزء من القلب لم تستول عليه آفة النوم، وإذا ذهب النوم عن أكثر القلب كانت الرؤيا أصفى، وهذا فى غير الأنبياء، أو هو بالنظر إلى مطلق قلب بقطع النظر عن كونه قلب نبى.

أما الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فالنوم لا يستولى على قلوبهم، ولا على جزء منها، ومن ثم جاء فى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»[1].

فلذا كان ﷺ لا يرى شيئًا فى المنام (إِلاَّ جَاءَتْ) مجيئًا أو حال كونها فى اليقظة واضحة (مِثْلَ) بالنصب على الحال من فاعل، جاءت أى شبه (فَلَقِ) بفتح أوله فقاف آخره، أى ضوء كما فى «شرح البخارى» للبرماوى (صُبْحٍ) وهو المنتشر فى الأفق معترضًا أوّل النهار (ضَاءَ) وأضاء بمعنى: نور؛ أى كضيائه وإنارته، فكما لا يشك فى ضياء الصبح ونوره، لا يشك فى صدق رؤيا النبى ﷺ ووضوحها.

قال البيضاوى: شبَّه ما جاءه فى اليقظة ووجده فى الخارج طبقًا لما رآه فى المنام بالصُّبح فى إنارته ووضوحه، والفَلَق: الصبح، لكنه لما استعمل فى هذا المعنى وغيره أضيف إليه للتخصيص والبيان إضافة العام للخاص.

ولا يخفى ما فى التشبيه من المناسبة الظاهرة من حيث أن شمس النبوّة قد كانت فى مبادئ أنوارها الرؤيا إلى أن ظهرت أشعتها وتم نورها. وإلى تلك المناسبة أشار المصنف رحمه الله بقوله (سَنَاه) مقصوراً أى نوره؛ لأن رؤياه ﷺ وحى وصدق وحق لا أضغاث أحلام، ولا تخييل من الشيطان؛ إذ لا

(١) أخرجه الدارمى (١٤٩٥)، وله شاهد عند البخارى (٦/ ٥٧٩).

سبيل له عليه لأن قلبه نورانى، فما يراه فى المنام له حكم اليقظة، فجميع ما ينطبع فى عالم مثاله لا يكون إلا حقًا، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم استشعر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ هنا سؤالاً وهو: فإن قيل لِمَ لَمْ يكن مجىء الملك ابتداء؟ فقال: (وَإِنَّمَا ابتُدِئَ) ﷺ بضم المثناة وكسر المهملة (بِالرُّؤْيَا) المنامية (تَمْرِينًا) تعويداً (لِلْقُوة البَشَرِيَّة) وتوطئة وتمهيداً لمقابلة الملك ومواجهته فى اليقظة، فإن رؤيته لا يطيقها إلا الأقوياء من البشر كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لكمال قواهم الظاهرة والباطنة، ولذا ابتدئ أيضًا فى اليقظة برؤية الضوء، وسماع الصوت، وسلام الحجر (لِئَلاَ يَفْجَأَهُ) يأتيه بغتة بسرعة (المَلَكُ) بفتح اللام، جبريل اتفاقًا. قال الزرقانى: واللام لتعريف الماهية لا للعهد إذ ليس المراد ما عهده عليه الصلاة والسلام لما كلمه فى صباه، أو اللفظ لعائشة وقصدت ما يعهده من تخاطبه به إذ لم يتقدم له معرفة به؛ ولأن عائشة حكت ما سمعته من رسول الله ﷺ. انتهى مع بعض تصرف.

(بِصَرِيحِ النُّبُوَّة) خالصها (فَـ) إنه لو أتاه بها ابتداء بصريحها ربما (لاَ تَقْوَاهُ) تطيقه (قُواه) بضم القاف وكسرها جمع قوة ضد الضعف.

(وَحُبِّبَ) عبر بالمبنى لما لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك، وإن كان كلٌّ من عند الله، أو تنبيهًا على أنه لم يكن من باعث البشر (إِلَيْه) ﷺ (الخَلاَءُ) ممدوداً، الخلوة: هو المكان الذى ليس به أحد لما يحصل فيها من فراغ القلب لما يتوجه له. قال بعضهم: وهذا هو أصل الخلوة الواقعة من أهل السلوك، ومن ثم قيل: الخلوة صفوة الصفوة.

* * *

[ذكر ما كان يتعبد به النبى ﷺ قبل النبوة]

(فَكَانَ) ﷺ (يَتَعَبَّدُ) يكثر العبادة لربه بشريعته، أو شريعة إبراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو نوح، أو آدم، أو من قبله دون تعيين، أو بجميع الشرائع ـ ونُسِبَ للمالكية ـ، أو الوقف. أقوال.

وقال فى «الفتح»: ولم يأت التصريح بصفة تعبده، لكن فى رواية عُبَيْد بن عُمَيْر بن إسحاق: فَيُطْعم من يرد عليه من المساكين. وجاء عن بعض المشايخ: أنه كان يتعبد بالتفكر. ويحتمل إطلاق التعبد على الخلوة؛ فإن العزلة عن الناس عبادة خصوصًا عن الكفار.

قال العلامة ابن حجر فى «أشرف الوسائل»: واعلم أنه قد اختلفوا هل كان ﷺ قبل النبوة متعبداً بشرع من قبله. قال الجمهور: لا، وإلا لنقل ولما أمكن كتمه عادة؛ ولأنه يبعد أن يكون متبوعًا من عرف تابعًا. وقال إمام الحرمين: بالوقف.

والقول بأنه كان فى شريعة إبراهيم وليس له شرع ينفرد به بل القصد من بعثه: إحياء شرع إبراهيم لقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [1] حماقة وجهالة إذ المراد به الاتباع فى أصل التوحيد، كما فى قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [2] إذ شرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها، ولم يبق إلا ما أجمعوا عليه من التوحيد، ومعنى متابعتهم فى التوحيد: المتابعة فى كيفية الدعوى إليه بطريق الرفق وإيراد الأدلة مرة بعد أخرى على ما هو المألوف والمعروف فى القرآن، والمبالغة فى التوكل والإخلاص، ونفى السمعة والرياء، والالتجاء إلى السوء.

---

(١) سورة النحل: ١٢٣.

(٢) سورة الأنعام: ٩٠.

قال بعضهم: والظاهر أنه ﷺ كان متعبدًا بالعبادات الباطنة من الأذكار القلبية، والأفكار فى الصفات الإلهية، والأخلاق السنية، والشمائل البهية من الرحمة على الضعفاء، والشفقة على الفقراء، والتحمل من الأعداء، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والرضا بالقضاء، والتسليم والتفويض، والتوكل على رب الأرض والسماء، والتحقق بحال الفناء ومقام البقاء، على ما يكون منتهى حال كُمل الأولياء والأصفياء. ولذا قيل: بداية الأنبياء نهاية الأولياء.

وأما ما قاله بعضهم من أن بداية الولى نهاية النبى فإنما هو باعتبار التكاليف الشرعية من الأوامر الفرضية والزواجر المنهية، فما لم يتصف السالك بما انتهى إليه أمر دينه ﷺ لم يدخل فى باب الولاية ولا يكون له حظ من حسن الرعاية وحفظ الحماية.. انتهى.

وجاء عن عمر بن شرحبيل: أن رسول الله ﷺ قال لخديجة - رضى الله عنها -: «إذا خلوت سمعت نداء يا محمد يا محمد»[1] وفى رواية: «أرى نورًا - أى يقظة - لا منامًا، وأسمع صوتًا، ولقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر».

وفى رواية: «والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئًا قط، ولا الكهان، وإنى لأخشى أن أكون كاهنا»[2]؛ أى فيكون الذى ينادينى تابعًا من الجن؛ لأن الأصنام كانت الجن تدخلها وتخاطب سدنتها، والكاهن يأتيه الجن بخبر السماء.

وفى رواية: وأخشى أن يكون بى جنون - أى لمة من الجن - فقالت خديجة: كلا يا ابن عمّ! ما كان الله يفعل ذلك بك؛ إنك لتؤدّى الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث[3].

(١) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٥٨)، الدر المنثور (١/٣).
(٢) طبقات ابن سعد (١/١٩٥) بنحوه، السيرة الشامية (٢/٣٠٧).
(٣) مرّ سابقًا.

وفى رواية: «إن خلقك كريم فلا يكون للشيطان عليك سبيل».

فاستدلت رضى الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على أنه لا يُفعل به إلا خيراً؛ لأن من كان كذلك لايجزى إلا خيراً.

وسياق هذا أن ذلك كان قبل مجىء جبريل له بالنبوة وإلا لما كان يقول لخديجة ما تقدم، وعلى هذا فهل كان هذا الصوت صوت جبريل أو إسرافيل؟ كل محتمل.

وعلى تعيين أحدهما يحتاج للدليل ولم أره، ويدل لما تقدم ما قيل: أنه ﷺ مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانًا ولا يرى شخصًا، وسبع سنين يرى نوراً ولا يرى شيئًا. وغير ذلك. وسيأتى عن الشَّعْبى ـ رحمه الله تعالى ـ أن إسرافيل اقترن بنبوته ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشىء... الحديث[1].

وكان تعبده ﷺ (بِـ) غار أى نَقْب جبل (حِرَاءَ) بكسر الحاء المهملة وتخفيف الراء وبالمد، وحكى الأصيلى فتحها والقصر، وعزاها فى «القاموس» للقاضى عياض. وهو مصروف إن أريد المكان، وممنوع إن أريد البقعة، فهى أربعة: التذكير، والتأنيث، والمد، والقصر؛ جبل بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى منى، وهو الجبل الذى نادى رسول الله ﷺ بقوله: إلىَّ يا رسول الله. لما قال له ثَبِير وهو على ظهره: اهبط عنّى يا رسول الله فإنى أخاف أن تُقْتَل على ظهرى فأعذب.

وزعم الخطابى خطأ المحدثين فى قصره وفتح حائه. والأربعة فى قباء، وجمعها بعضهم فى قوله:

حِرَاً وقِبَا ذكِّر وأنِّثهما معا ومُدَّ واقْصِر واصْرِفَنْ وامْنَعِ الصَّرْفَا

(اللَّيَالِى) منصوب على الظرفية متعلق بقوله يتعبد، وهى جمع ليل على

---

(١) طبقات ابن سعد (١/١٩١)، الوفا ص (١٦٩)، السيرة الشامية (٢/٣٠٩) وعزاه للإمام أحمد فى تاريخه، وأنكره الواقدى.

غير قياس، والليل واحد بمعنى جمع واحدته ليلة كتمر وتمرة، وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقيل: إلى طلوع الشمس (العَدَدِيَّهْ) المعدودة مع أيامها، وإنما غلَّب الليالى لأنها أنسب، وإبهام العدد لاختلافه بالنسبة إلى المدد، فتارة كان ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة شهر رمضان.

وفى كلام بعضهم ما قد يدل على أنه لم يختل أقل من الشهر، وحينئذ يكون قوله: الليالى العددية: أى ذوات العدد محمولاً على القدر الذى كان ﷺ يتزود له، فإذا فرغ زاده رجع إلى مكة وتزود إلى غيرها إلى أن يتم الشهر.

قال غيره: ولم يصح أنه ﷺ اختلى أكثر من شهر.

وكان تزوده ﷺ من الكعك والزيت، وفيه: أن الزيت والكعك يبقى المدة الطويلة فيمكث جميع الشهر الذى يختلى فيه، فلعله كان يفرغ قبل فراغ المدة بإطعامه المساكين الواردين عليه، وإنما اختار ﷺ الزيت للأدم لأن دسومته لا ينفر منها الطبع، ومن ثم جاء: «ائتدموا بالزيت وادَّهنوا به؛ فإنه يخرج من شجرة مباركة»[1].

وعن عُبيْد بن عُميْر ـ رضى الله عنه ـ: كان ﷺ يجاور فى حِرَاء كل سنة شهراً، وكان ذلك مما يتحنَّث فيه قريش فى الجاهلية ـ أى المتألهون منهم ـ وكان أول من تحنَّث فيه من قريش: جده عبد المُطَّلب. كما تقدم، فقد قال ابن الأثير: أول من تحنَّث بِحِرَاء: عبد المُطَّلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حِرَاء، وأطعم المساكين. ثم تبعه على ذلك من كان يتأله ـ أى يتعبد ـ كورقة بن نوفل، وأبى أمية بن المغيرة.

وقد أشار إلى تعبده ﷺ صاحب الهمزية بقوله:

أَلِفَ النُّسكَ والعبادةَ والخـ ـلوة طفلاً وهكذا النجباءُ

(١) أخرجه الترمذى (١٨٥١)، ابن ماجه (٣٣١٩)، الحاكم فى المستدك (١٢٢/٤)، وعبد الرزاق فى المصنف (١٩٥٦٨)، وعبد بن حميد (١٣).

وإذا حَلَّتِ الهـدايةُ قلبًا نشطت فى العبادةِ الأعضاءُ[1]

أى ألف العبادة والخلوة فى حال كونه طفلاً، ومثل هذا الشأن العلى شأن الكرام، وإنما كان هذا شأن الكرام؛ لأنه إذا حلت الهداية قلبًا نشطت الأعضاء فى العبادة؛ لأن القلب رئيس البدن المعوّل عليه فى صلاحه وفساده.

ولعل الخلوة فى كلام الناظم المراد بها: مطلق اعتزاله عن الناس، وأراد بقوله: «طفلاً» من رضاعه ﷺ عند حليمة، فقد تقدّم عنها ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: لما ترعرع رسولُ الله ﷺ كان يخرج إلى الصبيان وهم يلعبون فيتجنبهم، لا خصوص اعتزاله الناس فى غار حِرَاء، فلا ينافى قوله: «طفلاً» ظاهر ما تقدم من أن خلوته ﷺ بغار حِرَاء كانت فى زمن تزوجه بخديجة ـ رضى الله عنها ـ.

ولم يكن جواره بحِرَاء لطلب النبوة لأنها أجل من أن تنال بالطلب والاكتساب، وإنما هى موهبة من الله، وخصوصية يخص بها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته. قال البوصيرى:

تبارك الله ما وحىٌ بمكتسبٍ ولا نبىٌّ على غيبٍ بمتَّهَمِ[2]

وقال اللقانى:

ولم تَكُنْ نبوّة مكتسبهْ ولو رَقَى فى الخَيْرِ أَعْلَى عقبهْ

وقد علمت مما تقدم أنه كان يتعبد بحراء فى شهر رمضان؛ كما رواه ابن إسحاق فلم يزل ﷺ مستمرًا على ذلك (إِلَى أَنْ أَتَاهُ) يقظة (فِيْهِ) أى الغار المذكور؛ غاية لقوله يتعبد (صَرِيْحُ الحَقِّ) أى الحق الصريح الواضح البين الخالص وهو الوحى بواسطة جبريل (وَوَافَاهُ) أى أتاه بالقرآن العظيم عيانًا (وَذَلِكَ) أى إتيان الحق (فِىْ يَومِ الإِثْنَيْنِ) ويشهد له: ما رواه مسلم عن أبى قتادة: أنه ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: «فيه وُلدت، وفيه أُنزل

(١) المجموعة النبهانية (١/ ٨٠).
(٢) المجموعة النبهانية (٤/ ٩).

عليَّ القرآن»[1].

أو في ليلة ذلك اليوم لكن وقت السحر كما في بعض الروايات. وقد جاء: أن رسول الله ﷺ قال لبلال: «لا يفوتك صوم يوم الاثنين؛ لأني ولدت فيه».

فلا مخالفة بين كونه في اليوم؛ لأن وقت السحر قد يلحق بالليل، وفي كلام بعضهم: أتاه جبريل ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين **(لسَبْعِ عَشْرَةَ)** ليلة **(خَلَتْ)** أي مضت **(مِنْ شَهْرِ)** رمضان، شهر **(اللَّيْلَةِ القَدْرِيَّةِ)** المنسوبة للقدر لوقوعه في ذلك الشهر غالبًا كما رواه ابن سعد، واقتصر عليه القسطلاني في «إرشاده» القَدْرية بسكون الدال نسبة للقدر الذي هو مصدر قدر يقدر، وأما القَدَر بفتحها فهو اسم مصدر. قال الواحدي: القَدَر في اللغة بمعنى التقدير: وهو جعل الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان. والمراد به: ما يمضيه الله من الأمور؛ لأن هذه الليلة تقدر فيها الأمور: أي يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من مطر، ورزق، وإحياء، وإماتة، وغير ذلك إلى مثلها من السنة الآتية، وهي التي يفرق فيها كل أمر حكيم على الصحيح لا ليلة النصف من شعبان.

(وثَمَّ) بفتح الثاء المثلثة؛ أي هناك **(أقوال)** غير ذلك فقيل: أنه وافاه جبريل **(لِسَبْعٍ)** وعشرين من رمضان. وقيل: بل **(لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مِنْهُ)** أي من رمضان، واستدل القائل بهذا بما رواه أحمد، وابن جبير، والطبراني، والبيهقي، عن واثلة مرفوعا: «أُنْزِلَت صُحُفُ إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/٨١٩)، أحمد في مسنده (٥/٢٩٧ و ٢٩٩)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/٢٩٣)، مشكاة المصابيح (٢٠٤٥)، البيهقي في الدلائل (٢/١٣٣).

(٢) مسند أحمد (٤/١٠٧)، السيرة الشامية (٢/ ٣٤٠)، سيرة ابن كثير (١/ ٣٩٣).

ثم القول بأن البعث فى رمضان هو قول الأكثر والمشهور عند الجمهور، قاله الحافظان ابن كثير، وابن حجر، وصححه الحافظ العلائى، وممن قال به: الإمام الصَّرْصَرِىّ ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال:

وأتتْ عليه أربعون فأشرقتْ   شمسُ النبوّة منه فى رمضانِ

واحتجوا بأن أول ما أكرمه الله بنبوّته أنزل عليه القرآن، وأجيب بأن المراد بنزول القرآن فى رمضان: نزوله جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة فى سماء الدنيا، ثم أنزل فى صبيحة يومها إلى الأرض أول اقرأ باسم ربك (أَوْ) كما قيل: (لِثَمَانٍ) خلت (مِنْ) شهر ربيع الأول. عزى هذا القول فى «المواهب» لابن عبد البر، والمسعودى قال: يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. زاد الشارح: وبه صَدَّر ابن القيم وعزاه للأكثرين، ثم حكى أنه فى رمضان عكس النقل الأول، وإطلاق المؤلف للشهر يحتمله على بعد كما سيأتى.

وقال بعضهم: القول بأنه فى ربيع الأول يوافق القول بأنه بعث على رأس الأربعين؛ لأن مولده ﷺ كان فى ربيع الأول على الصحيح.. انتهى.

وعليه فالقول بأنه فى رمضان يوافق القول بأنه أنزل عليه الوحى وهو ابن أربعين ونصفًا أو إلا نصف.

وكلام الكلبى يؤذن بأنه ولد فى رمضان، وبه جزم الزبير بن بكَّار[1]، وهو شاذ كما تقدم. ونَقْلُه عن ابن عمر غير صحيح، وجُمع بين النقلين بما فى حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «أول ما بدىء به من الوحى الرؤيا الصالحة»[2].

وحكى البيهقى أن مدتها ستة أشهر فيكون الرؤيا فى ربيع الأول، ثم أتاه

---

(1) هو الزبير بن بكار بن عبد الله القرشى من أحفاد الزبير بن العوام، عالم بالأنساب وأخبار العرب، وله تصانيف كثيرة منها: جمهرة أنساب قريش، ونسب قريش وغيرها، توفى عام (٢٥٦ هـ). الأعلام (٣/ ٤٠)، وفيات الأعيان (٣/ ٨٩).

(2) أخرجه البخارى (٦٩٨٢، ٤٩٥٦).

جبريل فى رمضان، وحمل عليه بعضهم: «الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً»[1] كما تقدم بما فيه.

وقولنا: مدة الوحى ثلاث وعشرون سنة لا ينافيه أن الفترة التى لم ينزل فيها قرآن بعد نزول اقرأ ثلاث سنين؛ لأنه نزل قبلها أول اقرأ، فصدق أنه نزل فى ثلاث وعشرين سنة؛ لأنه لم يقل: كان ينزل عليه كل يوم، ولا كل شهر. وقيل: نزل فى عشرين بناء على أنه عاش ستين سنة، أو على إلغاء الفترة. وقيل: لثلاث ربيع الأول **(شَهْرُ مَوْلده)** ﷺ **(الذى)** ولد فيه **(وبَدَا)** ظهر **(فِيْهِ بَدْرُ مُحَيَّاهُ)** نور وجهه الشريف المشبه بالقمر ليلة البدر.

أبهم المصنف ـ رحمه الله ـ شهر المولد، وسياق كلامه: أن المراد ربيع الأول، وهو الظاهر لما مر عن «المواهب»، ويمكن على بعد حمله على رمضان لما تقدم فى قول من قال: أنه ولد لثمان خلت من شهر رمضان.

وقيل: كان ذلك ليلة أو يوم السابع والعشرين من رجب؛ فقد أورد الحافظ الدمياطى فى «سيرته» عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً»[2].

وهو اليوم الذى نزل فيه جبريل على النبى ﷺ بالرسالة، وأول يوم هبط فيه جبريل. قال فى «إنسان العيون»: أى أول يوم هبط فيه جبريل على النبى ﷺ ولم يهبط عليه قبل ذلك.. انتهى.

وهذا إن أراد الأولية المطلقة فظاهر لكن يحتاج إلى توقيف، وإن أراد هبوطه عليه بعد الأربعين كما هو المتبادر من موضوع الكلام ففيه نظر.

(فَقَالَ لَهُ: اقْرَأ) يحتمل أن يكون هذا الأمر لمجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقى إليه؛ أى تهيأ للقراءة، وتفرغ لها، وأن يكون على بابه من الطلب فيستدل به على تكليف ما لا يطاق له حال وإن قدر عليه بعد ذلك، كقول المعلم لمن

(١) صحيح مسلم (الرؤيا: ٦)، سنن البيهقى (٤/٣٩)،ابن ماجه (٣٩١٤)، مسند أحمد (٤/ ١٠)، معجم الطبرانى الكبير (١٩/ ٢٠٥)، شرح السنة للبغوى (١٢/ ٢١٣).

(٢) إتحاف السادة المتقين (٥/ ٢٠٧)، المغنى عن حمل الأسفار (١/ ٣٦٧).

يعلمه: «تربع واقرأ». ويحتمل أن تكون صيغة الأمر محذوفة، أى قل: «اقرأ» والسر فى حذفها لئلا يتوهم أن لفظ «قل» من القرآن.

قال الحافظ: وهل سَلَّمَ قبل قوله اقرأ أم لا؟ وهو الظاهر لأن المقصود حينئذ تفخيم الأمر وتهويله.

وطلب الابتداء بالسلام متعلق بالبشر لا بالملائكة، وتسليمهم على إبراهيم لأنهم كانوا فى صورة البشر فلا يَرِدْ هنا، ولا سلامهم على أهل الجنة؛ لأن أمور الآخرة مغايرة لأمور الدنيا غالبًا، نعم فى رواية الطيالسى: أن جبريل سلَّم أوّلاً، وهذا هو اللائق بالمقام تلطفًا به ﷺ لا تهويلاً وتخويفًا؛ إذ التهويل والتخويف إنما ينشأ منه التنفير عن الأمر المطلوب له، والرفق واللطف داعٍ للإقبال على ما هو مطلوب منه.

(فَقَالَ) كذا فى رواية أبى ذر فى البخارى، وفى بدء الوحى بدون فاء: **(ما أنا بقارىء)** كذا فى البخارى، وعند غيره: «ما أحسن أن أقرأ»، وفى رواية: «كيف أقرأ؟!» وفى أخرى: «ماذا أقرأ؟» فما استفهامية، وضعف كونها للاستفهام بدخول الباء الزائدة فى خبرها إذ ما قبلها مثبت، ولا تزاد الباء إلا فى النفى، وأجيب بأن الأخفش جوّز زيادتها فى الخبر المثبت، وجزم به ابن مالك فى: «بحسبك زيد» فجعل الخبر حسبك والباء زائدة، أو أن اثباتها فيه لمشاكلة ما قبلها بناء على أنه قال: «ما أنا بقارىء» ثلاث مرات على أنها فى الأولى: للنفى المشوب بالامتناع، فكأنه قال: القراءة منفية عنى، وأنا ممتنع منها أيضًا، وفى الثانية: للنفى المحض، وفى الثالثة للاستفهام.

قال فى «المواهب»: فإن قلت لم كرر قوله ما أنا بقارىء ثلاثًا؟ أجاب أبو شامة كما فى «فتح البارى» بأنه يحمل قوله: أوّلاً على الامتناع، وثانيًا على الإخبار بالنفى المحْض، وثالثًا على الاستفهام. . انتهى.

وقد أشار بعضهم لذلك بقوله

وقول طه ما أنا بقارى ثلاثة صلَّى عليه البارى

للمنع فى الأولى ونفى ثانيه وما للاستفهام ذين تاليه

وقيل: إنها للنفى فى الجميع.

فأخذه (فَغَطَّه) ضَمَّه وعصره، وسيأتى عن الحافظ ابن حجر أن هذا من خصائصه ﷺ، وفى رواية: «فغته» بمثناة فوقية، وفى رواية: «أخذ بحلقى» (غَطَّةً قَوِيَّةً) أى شديدة؛ أى حتى بلغ منه الجهد لثبوته فى رواية بدء الوحى (ثُمَّ) أرسله و (قَالَ لَهُ: اقْرَأ) أى مرة ثانية (فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَغَطَّاه) مرة (ثَانِيَةً حَتى بَلَغَ) وصل الملك، أو الغَطُّ (مِنْهُ) ﷺ (الجَهْدَ) أى القوة. قال الحافظ: روى بالفتح والنصب: أى بلغ الغط منه غاية الوسع، وروى بالضم والرفع: أى بلغ منه الجهد مبلغه. وما أشار إليه الحافظ من كون الفاعل ضميراً عائداً على الغط على رواية نصب الجهد أحد احتمالين ثانيهما أن الفاعل ضمير عائد على الملك كما علمت، وبه صرح الشنوانى فى «حواشيه على المختصر»، والاحتمال الثانى أولى لما يلزم على الاحتمال الأول من تشتيت الضمائر.

(ثُمَّ قَالَ لَهُ) مرة ثالثة (اقْرَأ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ) أى حكمى كسائر الناس من أن حصول القراءة إنما هو بالتعلم وعدمه بعد مد؛ فلذا كرر غطَّه ليخرجه عن حكم سائر الناس، ويستفرغ منه البشرية، ويفرغ فيه من صفات الملائكة. قال الطيبى: قال الحافظ: لعل الحكمة فى تكرير «اقرأ»: الإشارة إلى انحصار الإيمان الذى ينشأ عن الوحى فى [ثلاث]: القول والعمل والنية، وأن الوحى يشتمل على [ثلاث]: التوحيد والأحكام والقصص.

(فَغَطَّهُ) مرة (ثَالِثَةً) والحكمة فى الغط ثلاثًا شغله عن الالتفات لشىء آخر، أو لإظهار الشدة والجِدّ فى الأمر. قال السهيلى: إن فى ذلك الغط ثلاثًا إشارة إلى أنه ﷺ يحصل له شدائد ثلاثة، ثم يحصل له الفرج بعد ذلك؛ فكانت الأولى: إدخال قريش له الشِّعْب والتضييق عليه، والثانية: اتفاقهم على الاجتماع على قتله، والثالثة: خروجه ﷺ من أحب البلاد إليه (لِيَتَوَجَّهَ)

النبى ﷺ ويقبل (إِلَى مَا سَيُلْقَى إِلَيْه) من ثقل الوحى الذى فيه التكاليف الثقيلة على المكلفين (بِجَمْعِيَه) بإحضار القلب وسائر الحواس الظاهرية والباطنية (وَيُقَابِلُهُ) أى يواجهه (بِجد واجْتِهَاد، وَيَتَلَقَّاهُ) كما قال تعالى للسيد يحيى صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾[1].

ثم أرسله الملك فى المرة الثالثة فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾[2] حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3] فرجع بها ترجف بوادره ـ وهى اللحمة بين العنق والمنكبين ـ وفى رواية: «فؤاده» أى قلبه أو باطنه أو غشاؤه. ولا مانع من اجتماع الأمرين؛ لأن تحريك البادرة ينشأ من فزع القلب ـ حتى دخل على خديجة فقال: «زَمِّلونى، زَمِّلونى» ـ أى غطونى بالثياب ـ فزملّوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، ثم أخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيتُ على نفسى»، وفى رواية: «على عقلى». قالت له خديجة: «كلاً أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتَحمل الكَلَّ، وتكْسِبُ المعدوم، وتَقْرِى الضيف، وتعين على نوائب الحق»[4].

وقد اختلفوا فى معنى قوله ﷺ: «لقد خشيت على نفسى» على اثنى عشر قولاً:

منها: أنه ليس المراد بالخشية الشك فيما أتاه الله من النبوّة: بل المراد ـ والله أعلم ـ أن قوته لا تقاوم ولا تحتمل أعباء الوحى بناء على أنه قال ذلك بعد لقاء الملك وإرساله إليه بالنبوّة؛ فإن للنبوّة أثقالاً لا يستطيع حملها إلا أولو العزم من الرسل، وإليه ذهب القاضى عياض.

ومنها: ـ وإليه ذهب الحافظ ابن حجر ـ: أن المراد بالخشية، الموت، أو

---

(١) سورة مريم: ١٢.

(٢) سورة العلق: ١.

(٣) سورة العلق: ٥.

(٤) أخرجه البخارى (٦٩٨٢)، مسلم (الإيمان: ٧٣)، أحمد فى مسنده (٦/ ٢٣٢)، ابن حبان (١/ ١١٥)، البيهقى فى السنن (٧/ ٥١، ٩/ ٦)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ١٣٥)، ابن الجوزى فى الوفا ص (١٥٧).

المرض، أو دوام المرض. قال: وهذا أولى الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب. قال فى «إنسان العيون»: هذا كلامه ـ أى الحافظ ـ فليتأمل مع رواية: «خشيت على عقلى».. انتهى.

ثم فى بعض الروايات: أنها انطلقت به إلى وَرَقَة بن نوفل، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، وهو ممن تنصر وعرف الإنجيل كما فى «المنح». وفى بعضها: انطلقت به إلى عدَّاس، وكان راهبًا شيخًا كبيرًا وقع حاجباه على عينيه من الكبر، لا العداس الذى كان غلامًا لعتبة بن ربيعة. ووقوع ذلك فى كلام بعضهم إنما حصل من اشتراكهما فى الاسم والبلد والدين؛ فإنهما كانا نصرانيين من نِينَوَى[1]، ونقل فى «إنسان العيون» عن أبى دحية ما يقتضى أنهما كانا غلامين لعتبة المذكور، وتعقبه بقوله: ولا يخفى أن هذا اشتباه وقع من بعض الرواة بلا شك.. انتهى.

ويجمع بأنها ذهبت به أولاً إلى عدَّاس، ثم انطلقت به إلى وَرَقَة بن نوفل، فقالت له: اسمع من ابن أخيك. فأخبره ﷺ ما رأى، فقال: هذا الناموس[2] الذى أنزل الله على موسى يا ليتنى فيها ـ أى ملتك ـ جَذَعًا ـ أى شابًا ـ لأبالغ فى نصرك إذ يخرجك قومك. قال: «أَوَ مُخْرِجِى هم». قال: نعم لم يأت رجلٌ قط بما جئت به إلا عودى... الحديث[3].

وعدّ الحافظ ابن حجر هذا الغطُّ من خصائصه ﷺ؛ إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء أنه جرى له عند ابتداء الوحى مثله.

وقد روى: أن جبريل ـ عليه السلام ـ بدا له فى أحسن صورة وأطيب رائحة، فقال: يا محمد، إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أنت رسول الله إلى الجن والإنس.

---

(١) نينوى: بلد قديم كان مقابل مدينة الموصل خَرِب وقد بقى من آثاره شيء وبه كان قوم يونس عليه السلام.

(٢) الناموس: صاحب سر الخبر، والمراد به هنا جبريل عليه السلام.

(٣) أخرجه البخارى (بدء الوحى: ٣)، مسلم (الإيمان: ١٦٠)، البيهقى فى الدلائل (٢/١٣٧)، أحمد فى مسنده (٦/٢٣٢).

وسياق ما تقدم أنه جاء فى اليقظة عيانًا، وقيل: وهو نائم، وسيأتى الجمع بينهما فقد روى أنه ﷺ قال: «فجاءنى وأنا نائم بنَمط - وهو ضربٌ من البسط - وفى رواية: «بنَمط من ديباج فيه كتاب» أى كتابة - فقال: اقرأ. فقلت: «ما أنا بقارئ» أى أنا أمى لا أحسن القراءة «فغطَّنى به» أى غمَّنى بذلك النَّمط بأن جعله على فمه وأنفه قال: «حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى» فقال: اقرأ من غير هذا المكتوب، فقلت: «ماذا أقرأ؟، ما أقول ذلك إلا افتداء منه - أى تخلصًا منه - أن يعود إلىَّ بمثل ما صنع»[1] - أى إنما استفهمت عما أقرأه ولم آنف خوفًا أن يعود لى بمثل ما صنع عند النفى.

وفى رواية: فقلت: «والله ما قرأت شيئًا قط، وما أدرى شيئًا أقرأه» - أى لأنى ما قرأت شيئًا فهو من عطف السبب على المسبب - قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [2]، فقرأتها، فانصرف عنى، وهببت - أى استيقظت - من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابًا - أى استقر ذلك فى قلبى - وحفظته».

ولا يخفى أن ما تقدم عن بعضهم وهو أنه جاء ليلة السبت وليلة الأحد ثم ظهر له يوم الإثنين محتمل؛ لأن يكون أتاه بذلك النمط ليلة السبت وليلة الأحد، وسحر يوم الإثنين وهو نائم لا يقظة؛ لقوله: «ثم هببت من نومى»، ولا ينافى ذلك قوله: «ثم ظهر له بالرسالة» أى أعلن له بما يكون سببًا للرسالة الذى هو اقرأ الحاصل فى اليقظة، وحينئذ يكون تكرار مجيئه هو السبب فى استقرار ذلك فى قلبه ﷺ.

وفى «سيرة الشامى» ما يقتضى أن مجىء جبريل له بالنمط كان قبل دخوله حراء.

وفى «سفر السعادة» ما يقتضى أنه جاءه بالنمط يقظة فى حِراء، ونصه:

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٤٧).
(٢) سورة العلق: ١ - ٥.

فبينا هو فى بعض الأيام قائم على جبل حِراء إذ ظهر له شخص، وقال: ابشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة، ثم أخرج له قطعة نَمط من حرير مرصَّعة بالجواهر ووضعها فى يده وقال: اقرأ. قال: «والله ما أنا بقارىء ولا أرى فى هذه الرسالة كتابة» أى لا أعلم ولا أعرف المكتوب فيها قال: «فضمَّنى إليه، وغطَّنى حتى بلغ مِنى الجهد، فعل بى ذلك ثلاثًا وهو يأمرنى بالقراءة، ثم قال: اقرأ بأسم ربك». هذا كلامه فليتأمل.

وفى رواية: قال ﷺ: «خرجت ـ أى من الغار؛ لأن ذلك قبل مجىء جبريل ـ عليه السلام ـ إليه ﷺ باقرأ، خلافًا لما يقتضيه السياق ـ حتى إذا كنت فى شطر من الجبل ـ أى فى جانب منه ـ سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. فوقفت أنظر إليه، فإذا جبريل على صورة رجل صافٍّ قدميه ـ وفى رواية: واضع إحدى رجليه على الأخرى فى أفق السماء ـ أى نواحيها ـ يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى أفق السماء فلا أنظر فى ناحية فيها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامى ولا أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلَها فى طلبى، فبلغوا مكةَ ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك، ثم انصرف عنّى، وانصرفت راجعًا إلى أهلى، حتى أتيت خديجة ـ أى فى الغار ـ فجلست إلى فخذها مضيفًا إليها ـ أى مستندًا إليها ـ فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله بعثت رسلى فى طلبك فبلغوا مكة ورجعوا[1].

وهذا يدل على أن خديجة ـ رضى الله عنها ـ كانت معه ﷺ بغار حِراَء، وقد يخالف ذلك ما تقدم وما روى أن خديجة صنعت طعامًا ثم أرسلته إلى رسول الله ﷺ فلم تجده بحِراَء، فأرسلت فى طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله

(١) أخرجه الترمذى (٥/٥٩٣)، الدارمى (المقدمة)، أحمد (٥/٨٩)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٤٧)، ابن سعد فى الطبقات (١/١٥٧).

فلم تجده، فشقّ ذلك عليها، فبينا هى كذلك إذ أتاها فحدثها بما رأى وسمع.

ويجمع بأنها كانت تذهب إليه ﷺ أحيانًا، وأحيانًا يأتيها رسول الله ﷺ، وأحيانًا كانت تبعث إليه بالطعام، وأحيانًا كان ﷺ يأتى إليها فيتزوّد من عندها.

قال ﷺ: «ثم حدثتها بالذى رأيت - أى من سماع الصوت ورؤية جبريل وقوله له: يا محمد أنت رسول الله - فقالت: أبشر يا ابن عم وأثبت، فوالذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكون نبىّ هذه الأمة ثم قامت فجمعت عليها ثيابها - أى التى تتجمل بها عند الخروج - ثم انطلقت إلى ورَقَة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ فقال ورَقَة: «قُدُّوسٌ قُدُّوس - بالضم والفتح - والذى نفسى بيده لئن كنت صدقت يا خديجة لقد جاءه الناموسُ الأكبر الذى يأتى موسى - الذى هو جبريل - وإنه لنبىٌّ هذه الأمة، فقولى له يثبت» فرجعت وأخبرته بقول ورَقه[1].

وتقدم أنها انطلقت برسول الله ﷺ إليه وأخبره الخبر وقال له ما تقدم.

ويجمع بأن هذا كان قبل مجىء جبريل له بالوحى كما تقدم، وأن ذاك عند مجيئه بالوحى. ثم إذا قلنا بأن مجىء جبريل له بالنَّمط كان قبل مجيئه له بالوحى، وتقدم أنه قال ﷺ: «فقرأتها فكأنما كتب فى قلبى كتابًا» فهو مناف لقوله: «ما أنا بقارىء»؛ لما جاء يقظة بالوحى وما بالعهد من قدم إلا أن يقال: يجوز أن يكون جبريل يريد منه قراءة غير الذى قرأه وكتبه فى قلبه، ولا ينافى ذلك قول الحافظ ابن حجر أن القصة لم تعدد ومخرجها متحد؛ لأن مراده قصة مجىء جبريل يقظة باقرأ باسم ربك، ولا مانع من أن يأتيه أولاً فى المنام ثم فى اليقظة؛ لأن المقام مقام التمرين كما تقدم، ويكون ذلك من جملة مرائيه الصادقة التى كانت تأتى واضحة جلية.

---

(١) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٤٨)، سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٤، ٢٥٧)، تاريخ الإسلام للذهبى (٣/ ٧١ - ٧٢).
وقُدُّس: الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص. والظاهر أن معناه التعجب.

تنبيه

علم مما مر أن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ نزلت بغير بسملة، وقد صرح بذلك الإمام البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ وما ورد عن ابن عباس: أن أوّل ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قل: اقرأ باسم ربك.

قال الحافظ ابن كثير: هذا الأثر غريب، فى إسناده ضعف وانقطاع.. انتهى. فلا يستدل به على ذلك. حكاه ابن النقيب فى مقدمة تفسيره وبه يرد على الجلال السيوطى ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: وعندى أن هذا لا يعد قولاً برأسه؛ فإن من ضرورة نزول السورة ـ أى سورة اقرأ ـ نزول البسملة معها؛ فهى أوّل آية نزلت على الإطلاق. هذا كلامه والله أعلم.

* * *

[فترة الوحى وذكر الخلاف فيمن قرن برسول الله ﷺ من الملائكة فى نبوته]

(ثم فَتَرَ الوحى) أى احتبس جبريل عنه بعد أن بلَّغه النبوّة (ثلاث سنين) فيما جزم به ابن إسحاق كما فى «فتح البارى» (أو ثلاثين شهراً) ذكره بالمعنى، وإلا فرواية السهيلى سنتين ونصف، وقيل: سنتين، وقيل: أربعين يومًا، وقيل: خمسة عشر يومًا، وقيل: ثلاثة أيام.

ودليل الأوّل ما قد صح عن الشَّعْبى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: أنزلت عليه ﷺ النبوّة وهو ابن أربعين سنة، فقُرن بنبوّته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلِّمه الكلمة والشىء، ولم ينزّل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاثُ سنين قُرن بنبوّته جبريلُ فنزل عليه القرآن على لسانه[1]؛ أى فكان إسرافيل فى هذه المدة سفيراً بين الله وبينه ﷺ.

وبه اعترض على الجلال السيوطى فى قوله: وكون جبريل هو السفير بين الله تعالى وبين أنبيائه هو الذى يُقطع به ولا يتردد فيه؛ لأن ذلك وظيفته، وزاد: ولا يعرف ذلك لغير جبريل من الملائكة. وأجاب الجلال عن ذلك بأن السفير هو المرصد لذلك وذلك لا يعرف لغير جبريل ولا ينافى ذلك مجىء غيره من الملائكة إلى النبى ﷺ فى بعض الأحيان.

ولك أن تقول كما فى «إنسان العيون»: إن كان المراد المجىء إليه بوحى من الله كما هو المتبادر فليس فى رواية الشَّعْبى ـ رحمه الله ـ أن إسرافيل كان يأتيه بوحى فى هذه المدة. وجواب الحافظ يقتضى أن إسرافيل وغيره من الملائكة كان يأتيه بوحى من الله قبل مجىء جبريل له بوحى غير النبوّة، ولا يخرجه ذلك عن الاختصاص باسم السفير.

---

(١) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ١٣٢)، طبقات ابن سعد (١/ ١٩١)، الخصائص الكبرى (١/ ٢٢١)، البداية والنهاية (٣/ ٤)، السيرة الشامية (٢/ ٣٦٤)، الوفا ص (١٦٩).

على أن بعضهم نقل عن الشَّعْبى: أن رسول الله ﷺ وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحى، ولم ينزل القرآن ـ أى شىء منه ـ على لسانه، ثم وكل به جبريل فجاءه بالوحى والقرآن.

ورواية الشَّعْبى موافقة لما فى سيرة الحافظ الدمياطى حيث قال: وقال بعض العلماء: وقُرن به إسرافيل، ثم قُرن به جبريل عليهما السلام. وهو ظاهر فى أن اقتران إسرافيل به ﷺ كان بعد النبوّة، وبه صرح بعض الحفاظ حيث قال: والظاهر والله أعلم أنها ـ أى مدّة الفَتْرة ـ كانت بين «اقرأ» و «يا أيها المدثر»، وهى المدة التى اقترن معه إسرافيل كما قال الشَّعْبى.

وأثر الشَّعْبى ـ وإن كان مرسلاً مُعْضِلاً ـ قد صح إسناده إليه، وهو الموافق لما هو المشهور المحفوظ الثابت فى الأحاديث الصحيحة، وإنكار الواقدى له قد نظر فيه الحافظ ابن حجر بأن المثبت مقدم على النافى إلا إن صحب النافى دليل نفيه فيقدم، ولا يصح استدلالهم لما يوهى حديث الشَّعْبى بما أخرجه مسلم عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده جبريل إذ سمع نغيضًا ـ أى هدة ـ من السماء، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: «يا محمد، هذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل إلى الأرض قط»؛ إذ ليس فيه التصريح بأن الملك كان إسرافيل، ومن قال به فمجرد دعوى لا دليل عليها، ولا يحسن أن يكون مستندهم فى ذلك رواية الطبرانى: «لقد هبط علىَّ ملك من السماء لم يهبط على نبى قبلى ولا يهبط على أحد بعدى وهو إسرافيل، فقال: أنا رسول ربك»[1]. الحديث.

إذ ليس فيها دليل على أنه لم يكن نزل قبل ذلك، والعجب من الزرقانى فى «شرح المواهب» حيث لم يتنبه لذلك وجرى على إنكارهم رواية الشَّعْبى واستدلالهم بروايتى مسلم والطبرانى مع أن فيهما ما علمت.

وقد عدّ الجلال السيوطى من خصائصه ﷺ هبوط إسرافيل عليه ﷺ، وفى

(١) الطبرانى فى الكبير (١٢/٣٤٨)، حلية الأولياء (٣/٢٥٦)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/١٩).

كلامه أن مجيء إسرافيل كان بعد ابتداء الوحى بسنتين، قال: كما يعرف ذلك من سائر طرق الأحاديث.

ثم رأيت فى «فتح البارى» ما يجمع به بين الروايات ونصه: وليس المراد بفَتْرة الوحى المقدَّرة بثلاث سنين ما بين نزول «اقرأ» و «يا أيها المدثر» عدم مجيء جبريل إليه ﷺ، بل تأخر نزول القرآن عليه فقط، ثم فى تلك المدة مكث أيامًا ولا يأتيه أصلاً، ثم جاء بيا أيها المدثر، فكان فى تلك الأيام يختلف إليه هو أو إسرافيل - عليهما السلام -.

وهذا كما لا يخفى يؤخذ منه عدم المنافاة بين كون مدة فَتْرة الوحى ثلاث سنين كما يقول به ابن إسحاق، أو سنتين ونصف كما يقول به السهيلى، أو سنتين كما يقول به السيوطى. وبين كونها أيامًا أقلها ثلاثة، وأكثرها أربعون كما تقدم؛ لأن تلك الأيام هى التى كانت لا يرى فيها جبريل أصلاً على ما تقدم، بل ولا يرى فيها إسرافيل أيضًا، وفى غير تلك الأيام كان يأتيه بغير القرآن.

وحكمة فَتْرة الوحى عنه ﷺ؛ ليذهب عنه ما كان يجده من الرُّوْع و **(لِيَشْتَاقَ إِلَى)** العوْد و **(انْتِشَاقِ)** شم **(هَاتِيكَ النَّفَحَاتِ)** الروايح **(الشَّذِيَّة)** نسبة إلى الشذا؛ وهو حدة ذكاء الرائحة الواصلة بسبب جبريل من الحضرة القدسية - وتقدم أنه كان يبدو له فى أحسن صورة وأطيب رائحة - ومن ثم حزن لذلك حزنًا شديدًا حتى غدا منه مرارًا كى يتردَّى من رؤوس شَواهق الجبال، فكلما وافى بِذَرْوَةِ يريد أن يلقى نفسه منها تبدَّى له جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقًا فيسكن لذلك جأشه - أى اضطراب قلبه - وتقر عينه، ويرجع. فإذا طالت عليه فَتْرة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا وافى ذروة الجبل تبدَّى له مثل ذلك[1].

(١) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٨)، ابن حبان (١/١١٧)، السيرة الشامية (٢/٣٦٨)، طبقات ابن سعد (١/١٩٦)، صحيح مسلم (كتاب الإيمان ٢٥٦)، الوفا ص (١٥٩).

(ثم) بعد نزول اقرأ ومُضِيِّ فَتْرة الوحى كما فى حديث عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أول ما نزل اقرأ، وكما صرح به فى بعض الروايات من حديث جابر الآتى (أُنْزِلَتْ عَلَيْه) ﷺ إيناسًا له، وإعلامًا بعظيم قدره، وتلطفًا ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ﴾ أى المتدثر؛ وهو لابس الدثار.

ومن عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التى هو عليها؛ كأنه يقول: إنا أرسلناك نذيرًا، والنذير يكون عريانًا لا متدثرًا بثيابه، فبذلك علم رضاه الذى هو غاية مطلوبه، وبه كان يهون عليه تحمل الشدائد. أشار إليه السهيلى، وعليه الجمهور.

وعن عكرمة: أى المتدثر بالنبوّة وأعبائها.

ومن هذه الملاطفة: قوله عليه الصلاة والسلام لعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وقد نام وترب جنبه: «قم يا أبا تراب»[1].

وقوله ﷺ لحذيفة فى غزوة أحد وقد نام: «قم يا نومان»[2].

واختلفوا فى معنى الإنزال، فقيل: إظهار القراءة، وقيل: ألهم الله تعالى كلامه جبريل وهو فى السماء وهو عال من المكان، وعلَّمه قراءته، ثم جبريل أدّاه فى الأرض.

وقال القطب الرازى: المراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفًا روحانيًا، أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم.

وقال غيره: فى المنزل على النبى ﷺ ثلاثة أقوال، أحدها: اللفظ والمعنى، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ كل حرف منها بقدر جبل قاف، وتحت كل حرف منها معان لا يحيط بها إلا الله. ويؤيده ما رواه الطبرانى، عن النواس بن سمعان مرفوعا: «إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة

---

(١) أخرجه البخارى (٤٣٠، ٣٥٠٠، ٥٨٥١، ٢٩٢٤)، مسلم (فضائل الصحابة: ٩-٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (الجهاد ب ٣٦: ٩٩). البيهقى فى السنن (٩/١١٩)، البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٥٠)، تهذيب ابن عساكر (٤/ ١١٠).

شديدة من خوف الله؛ فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجدًا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فينتهى به على الملائكة كلما مرَّ سماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهى به حيث أمر»[1]. وقد قيل غير ذلك.

(وَجَاءَهُ جِبْرِيلُ) عليه السلام وهو أفضل الملائكة، ثم إسرافيل - وقيل: عكسه - ثم ميكائيل، ثم ملك الموت.

وقال الفخر الرازى: أفضل الملائكة مطلقًا حملة العرش والحافون به، ثم جبريل، ثم إسرافيل، ثم ميكائيل، ثم ملك الموت، ثم ملائكة الجنة والنار، ثم الموكلون بأولاد آدم، ثم الموكلوّن بأطراف العالم.

وقال الغزالى: أقرب العباد إلى الله تعالى وأعلاهم درجة: إسرافيل، ثم بقية الملائكة، ثم الأنبياء، ثم العلماء العاملون، ثم السلاطين العادلون، ثم الصالحون. وأنت خبير بأنه لا يلزم من القرب التفضيل فالوجه تقديم جبريل على إسرافيل.

قال الجلال السيوطى: وهو - أى جبريل - يحضر موت من يموت على وضوء، وما اشتهر من أنه لا ينزل الأرض بعد موت النبى ﷺ لا أصل له إلا أن يقال لا ينزل بوحى.

(بِهَا وَنَادَاهُ) فعن يحيى بن بكير قال: سألت جابر بن عبد الله - يعنى عن ابتداء الوحى: أى بالرسالة - فقال: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال: «جاورت بِحِرَاء، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت من خلفى فلم أر شيئا، فرفعت رأسى فرأيت شيئًا بين السماء والأرض»[2].

وفى رواية: «فإذا الملك الذى جاءنى بِحِرَاء جالس على كرسى - زاد فى

---

(١) أبو داود (٤٧٣٨)، كنز العمال (٣٢١٥٢)، الدر المنثور (٥/ ٢٣٦)، فتح البارى (٨/ ٥٣٨)، الشريعة للآجرى ص (٢٩٤).

(٢) أخرجه البخارى (٤٩٢٢)، مسلم (الإيمان: ٢٥٧)، أحمد (٣/ ٣٠٦).

رواية: «متربعًا عليه»، وفى لفظ: «على عرش» بين السماء والأرض، ففزعت منه فأتيت خديجة، فقلت: دثرونى ـ وفى رواية: «زمِّلونى زمِّلونى» ـ وصبّوا علىَّ ماءً باردًا[1] فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [2] ولم يقل بعد فأنذر وبشر مع أنه كما بعث بالنذارة بعث بالبشارة؛ لأن البشارة إنما تكون لمن آمن ولم يكن أحد آمن من قبل.

وهذا يدل على أن هذه الآية أول ما نزل أى قبل «اقرأ»، وأن النبوّة والرسالة مقترنان، قال الإمام النووى ـ رحمه الله تعالى ـ: والقول بأن أول ما نزل «يا أيها المدثر» ضعيف باطل، وإنما نزلت بعد فَتْرة الوحى؛ ومما يدل على ذلك قوله: «فإذا الملك الذى جاءنى بحراء»، ومما يدل على ذلك أيضًا ما فى البخارى أن فى رواية جابر ـ رضى الله عنه ـ: أن النبى ﷺ حدّث عن فَتْرة الوحى لا عن ابتداء الوحى؛ فيكون ذلك خلطًا من بعض الرواة، وأيضًا فصدر الرواية يدل على أن ذلك كان فى فَتْرة الوحى. وعلى ثبوت الأوّلية فى حديث جابر فيحمل على أوّلية مخصوصة بما بعد فَتْرة الوحى، أو بالأمر بالإنذار، أو بقيد السبب وهو ما وقع من التشديد، وأما «اقرأ» فنزلت ابتداء بغير سبب.

هذا ويجوز أن يكون ﷺ كان جاور بحِرَاء فى مدة فَتْرة الوحى ويؤيد ذلك ما فى البيهقى عن مرسل عُبَيْد بن عُمَيْر ـ كما تقدم ـ: أنه ﷺ كان يجاور فى حِرَاء كل سنة شهرًا وهو رمضان[3]. وكان ذلك فى مدة فَتْرة الوحى.

ثم يجمع بين الروايات فى أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قال الإمام النووى ـ رحمه الله تعالى ـ وهو الصواب الذى عليه جمهور

---

(١) أخرجه البخارى (التفسير: باب وثيابك فطهر)، مسلم (بدء الوحى: ٢٥٥)، الترمذى: (تفسير سورة المدثر)، أحمد فى مسنده (٣/٣٢٥)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٨).

(٢) سورة المدثر: ١ ـ ٣.

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٥٥).

الجماهير من السلف والخلف.. انتهى.

وأول ما نزل بعد فترة الوحى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿فَاهْجُرْ﴾ فليس القول بأن أول ما نزل «اقرأ»، والقول بأن أول ما نزل المدثر مختلفين. وأما القول بأن أول ما نزل الفاتحة على تقدير صحته فهو محمول على أول ما نزل من السور التامة، وما تقدم فى أول ما أنزل من الآيات فقد قال الإمام النووى: القول بأن فاتحة الكتاب أول ما نزل بطلانه أظهر من أن يذكر.. انتهى.

وقد علمت أن نبوّته ﷺ كانت متقدمة على رسالته، وعليه يحمل قول صاحب «جامع الأصول»: الصحيح عند أهل العلم بالأثر أنه بعث على رأس ثلاث وأربعين سنة.

وقال المحقق ابن حجر: فكان فى «اقرأ» نبوّته، وفى «المدثر» إرساله بالنذارة والبشارة والتشريع؛ لأن هذا قطعًا متأخر عن الأول، وقد أشار إلى ذلك المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (فَكَانَ) ناقصة (لِنُبُوَّته) ﷺ خبرها مقدم (فى تَقَدُّمِ) نزول صدر سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) الذى خلق إلى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (شَاهِدٌ) اسمها مؤخر، وقوله فى تقدم اقرأ... إلخ؛ علة لقوله شاهد.

(عَلَى أَنْ لَهَا السَّابِقِيَّةُ) كما علم من الأحاديث الصحيحة على غيرها من القرآن مطلقًا، وما روى عن جابر: أوّل ما نزل ـ أى مطلقا ـ المدثر فقد علمت بطلانه، وما ورد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أول ما نزل عليه جبريل قال: يا محمد، استعذ بالله السميع العليم ثم قل: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قل: اقرأ باسم ربك. فقد تقدم بما فيه.

(وَ) على أن لها (التَّقَدُّمَ) بالرفع معطوف على قوله: السابقية (عَلَى رِسَالَته) أى إرساله ﷺ مطلقًا (بِالنِّذَارَةَ) أى الإنذار (وَ) بـ (الْبِشَارَةَ) أى التبشير، وقد مر تفسيرهما (لِمَنْ دَعَاهُ) النبى ﷺ وأجاب، ولا يرد على

المصنف ـ رحمه الله ـ أن فى سورة المدثر الإنذار فقط دون التبشير؛ لأنه لاحظ ما آل إليه الأمر ببشارة من أطاع فكان ﷺ بشيراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [1] كذا قال بعضهم. ومقتضاه أن السورة ليست مشتملة على البشارة أصلاً، وفيه نظر لأن البشارة هى الخبر السار وقد وجد فيها كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [2] وهو صريح ما مر عن ابن حجر من أن السورة مشتملة على الإنذار، والبشارة، والتشريع.

* * *

(١) سورة الفتح: ٨.

(٢) سورة المدثر: ٣٩ ـ ٤١.

خاتمة

فى أحوال إتيان جبريل - عليه السلام - إلى رسول الله ﷺ وكيفية رؤية النبى ﷺ [له]

فكان ﷺ يراه أحيانًا على صورة الآدمى، فكان يراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال[1].

وأحيانا على صورة دِحْية الكلبى - وكان أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة؛ فكان الغرض من ذلك إعلامًا من الله تعالى أنه ما بينى وبينك إلا صورة الحسن والجمال وهى التى لك عندى فيكون ذلك بشرى له ﷺ. كذا قاله الشيخ الأكبر.

أو على صورة غيره. ومنه وما وقع فى حديث عمر: «إِذْ طَلَعَ علينا رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر» الحديث.

وأحيانًا يأتيه فى مثل صَلْصَلَة الجَرس[2]، وهى أشد الأحوال عليه ﷺ لما قيل إنه كان يأتيه فى هذه الحالة بالوعيد والنذارة. وأحيانًا يتمثل فى صورة فتى.

وربما يأتيه الوحى على صورته التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح. وجاء فى الحديث: عن عائشة رضى الله عنها: أنه لم يره على صورته التى خلقه الله عليها إلا مرتين -: الأولى حين سأله أن يريه نفسه على صورته الأصلية - وذلك بحراء قبل البعثة بعد فَتْرة الوحى - وهذه المرة هى المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [3] وبقوله: ﴿فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ [4] -

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٥٢).

(٢) أخرجه البخارى (٣٢١٥)، مسلم (٢٣٢٣)، ابن الجوزى فى الوفا ص (١٦٥)، مالك فى الموطأ (٢/٢٠٢)، البيهقى فى الدلائل (٢/٥٢)، النسائى (٩٣٤).

(٣) سورة التكوير: ٢٣.

(٤) سورة النجم: ٦، ٧.

طلع جبريل من المشرق فسد الأفق إلى المغرب، فخرَّ النبى ﷺ مغشيًا عليه، فنزل إليه فى صورة الآدميين وضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار من وجهه»[1] الحديث.

والأخرى ليلة الإسراء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾[2].

وفى «الخصائص» الصغرى: أن هذا من خصوصيته ﷺ؛ إذ لم يره أحد من الأنبياء على صورته التى خلق عليها.

وكان يجد ثقلاً عند نزول الوحى ويتحدَّر جبينه عرقًا فى البرد كأنه الجمان، وربما غطَّ غطيط البكر محمرة عيناه.

وعن زيد بن ثابت: كان إذا نزل الوحى على رسول الله ﷺ ثقل لذلك، ومرة وقع فخذه على فخذى، فوالله ما رأيت أثقل من فخذ رسول الله ﷺ[3].

وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى نظن أن ذراعها ينفصم، وربما بركت. وجاء: أنه ﷺ لما نزلت سورة المائدة عليه كان على ناقته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها. وفى رواية: فاندقّ كتف راحلته العضباء من ثقل السورة[4].

وجاء: «ما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تقبض منه»[5].

وعن أسماء بنت عميس رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يُغْشَى عليه[6]. أى كأنه يؤخذ عن الدنيا كما فى بعض الروايات مع بقاء عقله وتمييزه على خلاف العادة، بل وربما صدع رأسه فيغلفه بالحناء[7].

---

(١) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى لأحمد وابن أبى حاتم وأبى الشيخ (١/ ٢٠٠).

(٢) سورة النجم: ١٣، ١٤.

(٣) أخرجه البخارى (الصلاة: باب ١٢)، أبو داود (٢٥٠٧)، أحمد فى مسنده (٥/١٩١)، النسائى (الجهاد: ٤)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٥٤).

(٤) مسند أحمد (٦/٤٥٥)، الوفا ص (١٦٨).

(٥) الخصائص الكبرى (١/ ٢٠٠).

(٦) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٢٠٠) للطبرانى.

(٧) الوفا ص (١٦٩)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ٢٢)، وقال: ضعيف جدًا جدًا.

وعن زيد بن ثابت: كان [رسول الله ﷺ] إذا نزل عليه السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: [كان رسول الله ﷺ] إذا نزل عليه الوحى يُسْمع عند وجهه كدوىٍّ النحل[1].

وقد أوحى الله إليه بلا واسطة مَلَك منامًا كما فى حديث معاذ: «أتانى ربى - وفى لفظ: رأيت ربى فى أحسن صورة - أى خلقة - فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم - أى رب - فوضع كفّه بين كتفى، فوجدت بردها بين ثدىّ، فعلمت ما فى السماء والأرض»[2].

وزاد بعضهم: مرتبة تكليم الله كفَاحًا بغير حجَاب، وقد جاء فى القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾[3] وحملَ ما تقدم بعضهم على ليلة المعراج فقد أوحى إليه بلا واسطة مَلَك؛ فيحتمل أن يكون بغير حجاب.

وقد قال بعضهم: ومن حالات الوحى: كلام الله منه إليه بلا واسطة مَلَك كما كلَّم الله موسى - أى من وراء حجَاب - وحينئذ يكون كلَّمه ﷺ فى ليلة المعراج بواسطة الملك، وكلَّمه بغير واسطة الملك من وراء حِجَاب، ومشافهة من غير حِجَاب، وربما ألقاه الملك فى روعه من غير أن يراه كما قال ﷺ: «إن روح القدس نَفَثَ فى روعى»[4].

زاد بعضهم مرتبة أخرى وهى: العلم الذى يلقيه الله فى قلبه وعلى لسانه عند الاجتهاد فى الأحكام، وهو يفارق النَّفْثُ فى الرُّوع من حيث حصوله

(١) مسند أحمد (١/ ٣٤)، سنن الدارمى (المقدمة:باب ٢)، مستدرك الحاكم، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (١٥٣)، الوفا ص (١٦٦)، البيهقى فى الدلائل (٧/ ٥٥)، الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٥).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٢٣٤)، الطبرانى فى الكبير (٨/ ٣٤٩)، أحمد فى مسنده (١/ ٣٦٨)، ابن كثير (٤/ ٥١٦)، وأفرده بالتأليف ابن رجب الحنبلى فى جزء لطيف (مطبوع).

(٣) سورة الشورى: ٥١.

(٤) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ص (١٩٨).

بالاجتهاد والنَّفْثُ بدونه.

وكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وهذا عام بما قبل النبوة وما بعدها، والمختص بما بعد النبوة إنما هو الوحى المتعلق بالأحكام التى يعمل بها.

وجبريل ـ عليه السلام ـ ملك عظيم ورسول كريم، مقرب عند الله، أمين على وحيه، وهو سفيره إلى أنبيائه كلهم، وسمَّاه: روح القدس، والروح الأمين، واختصه بوحيه من بين الملائكة.

قال بعضهم: ورأيت فى بعض التواريخ: أن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل على النبى ﷺ ستًا وعشرين ألف مرة ولم يبلغ أحد من الأنبياء هذا العدد.. انتهى.

وفى تفسير ابن عادل: أربعًا وعشرين ألف مرة، وعلى آدم: اثنتى عشرة مرة، وعلى إدريس أربعًا، وعلى نوح خمسين، وعلى إبراهيم اثنتين وأربعين مرة، وعلى موسى أربعمائة، وعلى عيسى عشرًا. كذا قاله والعهدة عليه.

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أنه ﷺ كان له عدو من شياطين الجن يقال له الأبيض كان يأتيه فى صورة جبريل، واعترض بأنه يلزم عليه عدم الوثوق بالوحى، وأجيب عنه: بأن الله تعالى خلق فيه علمًا ضروريًا ـ بعد قصة وَرَقَة ابن نوفل السابقة ـ يعلم به أن الموحى إليه هو الله تعالى، ويميز به أيضًا بين جبريل ـ عليه السلام ـ وبين هذا الشيطان، ولعل هذا الشيطان غير قرينه الذى أسلم. وفى كلام ابن العماد: إن شيطان الأبيض يسمى الأبيض، والأنبياء معصومون منه. والله أعلم بالصواب.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلَاةَ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

[أول من أسلم من الرجال]

ولما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [1] بادر رسول الله ﷺ إلى امتثال أمر ربه عز وجل له بذلك، فجدَّ واجتهد فى الدعاء سرّاً إلى عبادة الله تعالى والإيمان به وبرسوله، وترك ما عليه الجاهلية من عبادة الأوثان والأصنام ثلاث سنين حتى دخل رجال ونساء فى دين الإسلام إلى أن كمل دخول السابقين الأولين رضى الله عنهم أجمعين.

وقد اختلفوا فى أول سابق إلى متابعته ﷺ والدخول معه فى دين الإسلام فقيل: أبو بكر - رضى الله عنه، وقيل: على بن أبى طالب، وقيل: زيد بن حارثة، وقيل: أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها -.

وفيه: أن بناته ﷺ الأربعة كن موجودات عند البعثة، ويبعد تأخير إيمانهن إلا أن يقال: خديجة تقدم لها إشراك بخلافهن، ومن ثم قال بعضهم فيما سيأتى فى إسلام على - رضى الله عنه: والصواب الإضراب عن توقيت إسلامه؛ فإنه لم يكن مشركًا فيستأنف الإسلام.

(وَ) الأورع كما قال ابن الصلاح، وتبعه الإمام النووى، وهو مما تجتمع به جل الأقوال المختلفة فى أوّل من أسلم أن يقال: (أَوَّلُ مَنْ آمَنَ) أصله أأمن على وزن أفعل لا فاعل وإلا لجاء مصدره فعالاً وهمزته للتعدية؛ أى صَدَّق (بِهِ) أى بالنبى ﷺ وبما جاء به من عند ربه عز وجل بعد البعثة (مِنَ الرِّجَالِ) أى الذكور البالغين الأحرار (أَبُو بَكْرٍ) رضى الله عنه. قال الزمخشرى: كنى بذلك لابتكاره الخصال الحميدة، واسمه عبد الله سمَّاه به النبى ﷺ، وقيل: سمَّاه به أهله وبه اشتهر فى الإسلام، وكان اسمه قبل ذلك: عبد الكعبة، ولقبه عتيق، وبه اشتهر فى الجاهلية. ولقبه به النبى ﷺ لما نظر إليه

(1) سورة المدثر: ١، ٢.

فقال: «هذا عتيق من النار»[1]، وقال ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبى بكر»[2].

ولقبته بذلك خديجة قبل النبوة، وقيل إنه اسم سمَّته به أمه؛ لأنه كان لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به الكعبة ثم قالت: اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لى، فعاش.

وأمه سلمى وتكنى أم الخير بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد، وهى بنت عم أبيه. وأبوه أبو قُحَافة، واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن سعد بن تيم بن مرة، وفيه يجتمع مع النبى ﷺ.

(صَاحِبُ) رسول الله ﷺ فى **(الغَار)** أى النَّقب الذى فى جبل ثور عند هجرته إلى المدينة كما سيأتى فى المصنف وال فيه للعهد، وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿**إِذْ هُمَا فِى الغَارِ**﴾[3].

(وَ) صاحب **(الصدِّيقيَّةُ)** أى التصديق؛ أى الملقب بالصديق ـ كما يأتى ـ لتصديقه النبى ﷺ. وقيل: لأن الله صدقه.

روى الطبرانى برجال ثقات: أن عليًا ـ رضى الله تعالى عنه ـ كان يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء: الصديق[4]. وحكمه الرفع إذ لا مدخل فيه للرأى.

وسبب إسلامه: أنه كان صَديقًا لرسول الله ﷺ يكثر غشيانه فى منزله ومحادثته، وكان سمع قول ورَقَة له لما ذهب معه إليه وكان متوقعًا لذلك، فبينا هو مع حكيم بن حزام فى بعض الأيام إذ جاءت مولاة لحكيم وقالت له: إن عمتك خديجة تزعم فى هذا اليوم أن زوجها نبىٌّ مرسل مثل موسى، فانسلَّ أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حتى أتى رسول الله ﷺ فسأله عن خبره،

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤١٥)، المطالب العالية (٣٨٩٥).

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٦٢)، المطالب العالية (٣٨٩٦)، ورواه الترمذى مختصراً.

(٣) سورة التوبة: ٤٠.

(٤) كنز العمال (٣٥٦٣٣) وعزاه لأبى نعيم فى المعرفة والطبرانى فى الكبير.

فقص عليه قصته المتضمنة لمجيء جبريل له بالرسالة فقال: صدقت بأبى أنت وأمى، وأهل الصدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله» فيقال: سماه يومئذ الصديق.

ولا ينافى تسميته له بذلك صبيحة الإسراء لما صدقه وقد كذبته قريش لجواز أنه لم يشتهر بذلك حينئذ.

وقد جاء فى تفسيره قوله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [1] أن الذى جاء بالصـدق رسول الله ﷺ، والذى صـدَّق به أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ.

قال: ولما سمعت خديجة ـ رضى الله عنها ـ مقالة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ خرجت وعليها خمار أحمر فقالت: الحمد لله الذى هداك يا ابن أبى قُحَافة.

وسبب مبادرته إلى التصديق: ما علمه رضى الله عنه من دلائل نبوته ﷺ، وبراهين صدق دعوته، ولرؤيا رآها قبل ذلك وهو تاجر بالشام أن القمر نزل إلى مكة فدخل فى كل بيت منه شُعْبَة، ثم كان جميعه فى حجرته، فقصَّها على بعض أهل الكتاب ـ ولعله بحيرا الراهب ـ فعبَّرها له بأنه يتبع النبى المنتظر الذى قد أظلَّ زمانه، وأنه يكون أسعد الناس به، فأسرَّها أبو بكر حتى بُعث النبى ﷺ فقال: يا محمد، ما الدليل على ما تدعى؟ قال: الرؤيا التى رأيت بالشام. فعانقه وقبَّل ما بين عينيه وقال: أشهد أنك رسول الله.

قال ابن إسحاق: وبلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبْوة[2] وتردّد ونظر إلا أبا بكر ما عكَمَ [3] عنه حين ذكرتُه ولا تردّد»[4].

---

(١) سورة الزمر: ٣٣.

(٢) الكَبْوة: يعنى تأخر أو قلة إجابة.

(٣) وما عكَم: أى ما تلبث وأجاب بسرعة.

(٤) البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ١٦٤)، البداية والنهاية (١/ ١٠٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٠).

ولا ينافى ما تقدم من طلبه الدليل لإمكان أن يقال: أنه صدقه بمجرد الإخبار، وطلب الدليل إنما هو لتقوية ما عنده.

قال السهيلى: وكان من أسباب ذلك: توفيق الله إياه فيما ذكر، وأنه رأى رؤيا قبل. . . وساق ما ذكرناه.

وكان صدراً معظمًا فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق، من رؤساء قريش، ومحط مشورتهم، من أعف الناس، رئيسًا، مُكَرَّمًا، سخيًا يبذل المال، محببًا فى قومه، حسن المجالسة، وكان أعلم الناس بتعبير الرؤيا، ومن ثم قال ابن سيرين: أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبى ﷺ.

وكان بمنزلة الوزير من رسول الله ﷺ، وكان يشاوره فى أموره كلها، لم يفارقه حضراً ولا سفرًا، وقد أجمع أهل السير أنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى مشهد من المشاهد، وأجمعوا أيضًا على أنه أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، وكان ﷺ يُكرمه ويُبجله ويعرف الأصحاب مكانه ويثنى عليه فى وجهه، وكان أشد الصحابة رأيًا، وأكملهم عقلاً، وكان طويلاً نحيفًا أبيض وقيل: آدم، خفيف العارضين، يخضب بالحناء والكتم، غائر العينين، ناتىء الجبهة، عارى الأشاجع ـ بالشين المعجمة والجيم ـ أى قليل لحم مفاصل الأصابع، على بطنه شامة، وعلى فخذه الأيسر علامة، يسترخى إزاره عن حقويه[1] أحيانًا.

ولد ـ رضى الله عنه ـ بعد الفيل بسنتين وثلاثة أشهر كما فى «الإصابة».

وهو أول من سمى الخليفة فى الإسلام: تولى الخلافة فى يوم الإثنين الذى توفى فيه رسول الله ﷺ، وبقى فيها سنتين وثلاثة أشهر وأيامًا إلى أن مات ـ عند الأكثر ـ عشى يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة عن ثلاث وستين سنة، قيل: مات بمرض السل، وقيل: لأنه اغتسل فى يوم بارد فحمَّ خمس عشرة يوم، وفى رواية: فاعتلَّ علَّة

(١) حَقْوَيْه: مثنى حقو وهو الخصر.

اتصلت بها وفاته، وقيل: بل سمَّته يهودية في خزيرة، أو غيرها.

والمشهور أنه مات بلسعة الحية في الغار؛ فإنه كان يعاوده كل سنة حتى مات به. وغسلته زوجته أسماء بنت عميس، وصلَّى عليه عمر بن الخطاب على سرير رسول الله ﷺ - وهو سرير عائشة وكان من الساج منسوجًا بالليف، وبيع في ميراث عائشة بأربعة آلاف درهم فأشتراه مولى لمعاوية وجعله للمسلمين - ودُفِنَ في حُجْرَةَ عائشة - رضي الله عنها - ورأسه عند كتفي رسول الله ﷺ.

وروى له عن النبي ﷺ مائة حديث واثنان وأربعون حديثًا. رضي الله عنه.

* * *

[أول من أسلم من الفتيان]

(وَ) أول من آمن به ﷺ (مِنَ الصِبْيَان) إجماعًا جمع صبى: وهو من لم يحلم ولم يستكمل خمس عشرة سنة (عَلِيٌّ) ابن أبى طالب؛ إذ هو حين أسلم ابن عشر سنين على الصحيح، وقيل: ثمان سنين. قال فى «إنسان العيون»: وبه يردّ القول بأن عمره كان إذ ذاك عشر سنين؛ أى والقول باثنتى عشرة سنة، أو ثلاث عشرة سنة، أو أربع عشرة سنة بناء على أن سن إمكان الاحتلام تسع سنين كما يقول به أئمتنا، وفيه نظر لما مر أن المراد بالصبى من لم يحتلم ولم يكمل خمس عشرة سنة على المرجح من مذهبنا ومن وافقنا؛ ولأن معنى قولهم: يدخل وقت الاحتلام بتسع سنين أنه إذا رأى الماء الدافق بعدها حكم بتكليفه، وليس بلازم أن يراه بعدها حالاً لإمكان تأخر ذلك، فإذا بَلَغَ الخمس عشرة سنة ولم ير الماء الدافق صار مكلفًا بالبلوغ بالسن لا بالاحتلام، وبهذا يعلم ما فى قول بعضهم أن عمره كان إذ ذاك خمس عشرة سنة إن لم يكن مراده تقريبًا أو ست عشرة سنة.

وسبب إسلامه - رضى الله عنه - كما فى «السيرة الشامية»: أنه دخل على النبى ﷺ ومعه خديجة - رضى الله عنها - وهما يصليان سرّاً فقال: ما هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسول الله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعُزَّى». فقال علىٌّ: هذا أمرٌ لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أُحدِّث أبا طالب. وكره رسول الله ﷺ أن يُفشى سرّه عليه قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا على، إذا لم تُسْلِمْ فاكتم هذا». فمكث ليلته، ثم إن الله تبارك وتعالى هداه للإسلام فأصبح غاديًا إلى رسول الله ﷺ فأسلم[1].

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ١٦١).

وكان ذلك فى يوم الثلاثاء كما فى سيرة مُغْلَطَاىْ؛ لأن صلاته مع خديجة كانت آخر يوم الإثنين كما فى «إنسان العيون» وهذا إنما يأتى على القول بأن النبوّة والرسالة متقارنان.

قال بعضهم: والصواب الإضراب عن توقيت إسلامه؛ فإنه لم يكن مشركًا فيستأنف الإسلام. ويجاب بأن الصبيان كانوا إذ ذاك مكلفين؛ لأن القلم إنما رفع عن الصبى عام خيبر. كذا قال فى «إنسان العيون».

وقال بعضهم: وإنما اعتد بإسلامه لأن الأحكام إذ ذاك كانت منوطة بالتمييز. قال: ولم يعبد وثنًا ولذا خص بكرَّم الله وجهه.

هذا وقد ذكر شيخنا البيجورى فى حواشيه على «جوهرة التوحيد» عند قول الناظم فكل من كلف شرعًا. . . إلخ: أن التكليف بالإيمان منوطٌ بالعقل فقط عند الحنفية لا به مع البلوغ، فإن اعتقد الإيمان أو الكفر فأمره ظاهر، وإن لم يعتقد واحدًا منهما كان من أهل النار؛ لوجوب الإيمان عليه بمجرد العقل. . انتهى.

وكان كثير الملازمة لرسول الله ﷺ قبل النبوة؛ وذلك أن قريشًا أصابهم قحطٌ شديد، وكان أبو طالب كثير العيال، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس رضى الله عنه: «فلنخفِّف عنه من عياله حتى يكشف الله عن الناس ما هم فيه» قال: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عُقَيْلاً ـ وقيل: وطالبًا ـ فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليًا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفر فضمه إليه، وتركا عُقَيْلاً وطالبًا[1].

وفى «خصائص العشرة» للزمخشرى: أن النبى ﷺ تولى تسميته بعلى ونقد فى فيه أيامًا من ريقه المبارك بمص لسانه. . انتهى.

ولم يزل مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا وحتى زوَّجه ابنته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ولما هاجر رسول الله ﷺ أمره بالتخلف فى مكة ليؤدى عنه

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ١٦٢).

الأمانات، ثم لحق به وكنّاه أبا تراب وهى أحب الكنى إليه.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم[1] جد النبى ﷺ فهى بنت عم أبيه، وهى أول هاشمية ولدت هاشميًا، أسلمت، وصحبت، وماتت فى زمن النبى ﷺ.

قال المصنف فى «بر العاجل»: وكان آدم شديد الأدمة، ربعة إلى القصر، أدْعَجَ العينين، حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر، ضخم البطن، عريض المنكبين، شثن الكفين ـ بالمعجمة والمثلثة ـ أى غليظهما، أغيد بالمعجمة والمثناة تحت فدال مهملة؛ أى ناعمًا كأن عنقه أبرِيق فضة، أصلع ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه، كَثُّ اللحية عظيمها، حدّاً قد ملأت ما بين منكبيه، بيضاء كأنها قطن وربما صفرها مع رأسه، شديد الساعد، لمنكبه مُشَاشْ[2] كمشاش السبع الضارى، لا يبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجًا؛ أى دخل ساعده فى عضده واجتمعا، إذا مشى تكفأ، وإن أمسك بذراع رجل لا يستطيع أن يتنفس، ضحوك السن.. انتهى.

ولد قبل البعثة بعشر سنين ـ على الصحيح ـ كما تقدم، بويع له بالخلافة يوم قتل عثمان سنة خمس وثلاثين، باتفاق المهاجرين والأنصار وكل من حضر، وكتب ببيعته إلى الآفاق فأذعنوا كلهم إلا معاوية فكان بينهم ما كان.

قال غير واحد من أئمة الحديث: لم يرد فى حق أحد بالأحاديث الجياد أكثر مما جاء فى حق علىٍّ ـ رضى الله عنه ـ ومن أراد التضلع من ذلك فعليه بكتاب «الصواعق» للعلامة ابن حجر فإن فيه ما ينشرح له الصدر وتقر به العين.

استشهد فى ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان وهو خارج لصلاة الصبح؛

---

(١) هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، الهاشمية، أم على بن أبى طالب وإخوته، أسلمت بعد وفاة أبى طالب، وهاجرت مع أبنائها وماتت بالمدينة وكفنها النبى ﷺ بقميصه، واضطجع فى قبرها فى البقيع وقال: «لم يكن أحد بعد أبى طالب أبر بى منها».

(٢) المُشاش: عظام رؤوس المفاصل.

ضربه أشقى الناس ـ بشهادة الصادق المصدوق ـ اللعين: عبد الرحمن بن ملجم، وتوفى ليلة الأحد التاسع عشر منه سنة أربعين من الهجرة عن ثلاث وستين سنة على الأصح، ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف شهر، ودفن بالكوفة سحراً، وقيل فى ليلة وفاته، ومدفنه غير ذلك. قال المصنف: روى له عن النبى ﷺ خمسمائة وستة وثمانون حديثًا. رضى الله عنه.

* * *

[أول من أسلم من النساء]

(وَ) أول من آمن به ﷺ (مِنَ النِّسَاء) اسم جنس ليس له واحد من لفظه بل واحده امرأة؛ زوجته الصديقة الكبرى السعيدة فى الدنيا والأخرى (خَدِيجَةُ) ـ رضى الله عنها ـ بنت خويلد، وتقدم الكلام على نسبها ونسبتها وأنها أقرب نسائه ﷺ فى النسب عند الكتابة على تزوّجه بها ﷺ (الَّتِى ثَبَّتَ) بفتح المثلثة والموحدة مشددة؛ أى قوّى وأيد (الله) تعالى (بِهَا قَلْبَهُ وَوَقَاهُ) بالتخفيف؛ أى صانه وحفظه، وذلك لما قال لها ﷺ كما تقدم: «لقد خشيتُ على نفسى». فقالت: كلا. أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل. . .» الحديث.

وقد عُدَّ سبقها إلى الإسلام على نساء عالمها من خصائصها العظيمة ومناقبها الفخيمة فلذا قال فى «فتح البارى»: ومما اختصت به: سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان فسنت ذلك لكل من آمن بعدها، فيكون لها مثل أجرهن لما ثبت: «أن من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها. . .» الحديث.

قال: وقد شاركها فى ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة إلى الرجال، ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله عز وجل. . انتهى.

ولم يكن على وجه الأرض بيت إسلام إلا بيتها. قال فى «الفتح»: وهى فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها؛ فإنها أول من أجاب إلى الإسلام ودعا إلى الله وأعان على نبوته بالنفس والمال والتوجه التام.

قال فى «إنسان العيون»: وأول من أسلم من النساء بعد خديجة ـ رضى الله عنها ـ: أم الفضل زوج العباس ـ رضى الله عنها ـ وأسماء بنت أبى بكر، وأم

جميلة فاطمة[1] بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما. قال: وينبغى أن تكون أم أيمن سابقة فى الإسلام على أم الفضل.. انتهى.

* * *

(١) هى : فاطمة بنت الخطاب بن عمرو بن نفيل بن عمرو بن نفيل، صحابية من السابقين فى الإسلام أسلمت هى وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ولها أحاديث عن النبى ﷺ وكانت هى وزوجها من أسباب إسلام عمر ابن الخطاب. الأعلام (٥/ ٣١)، الإصابة (٨/ ٦٢).

[أول من أسلم من الموالى]

(وَ) أول من آمن به ﷺ (مِنَ المَوَالِىْ) أى العتقاء من الرق بعد اتصافهم به فهم الذين عليهم الولاء لساداتهم ثم عصباتهم (زَيْدُ بْنِ حَارِثَةَ) بن شراحيل، وقيل: شرحبيل وهو قول ابن إسحاق، قال ابن الأثير: ولم يتابع عليه، وإنما هو: شراحيل بن كعب بن عبد العُزَّى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان ابن عامر بن عبد ود. قيل: وعمره ثمان سنين. أُسر فى الجاهلية ـ وقد تقدم سبب ذلك ـ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم، فاستوهبه النبى ﷺ منها فوهبته له، وجاء أبوه وعمه كعب وأخوه جَبَلة ـ بفتح الجيم والموحدة ـ إلى مكة وطلبا أن يفدياه، فخيَّره عليه الصلاة والسلام بعد أن أعتقه بين أن يدفعه إليهما أو يثبت عنده، فاختار أن يبقى عنده، فلاماه، فما رجع وقال: لا أختار عليه أحداً، فقام ﷺ إلى الحجر الذى هو محل جلوس قريش وقال: «اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه» فطابت نفسهما وانصرفا، فَدُعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام فصدقه وأسلم.

وفى «الإصابة» عن الزهرى: لا أعلم أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة، ونقل نحوه عن الواقدى.

وقد خصه الله تعالى من بين سائر الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ بذكر اسمه فى القرآن العظيم. قال ابن الجوزى: إلا ما يروى فى بعض التفاسير أن السِّجل الذى فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [1] اسم رجل كان يكتب للنبى ﷺ. انتهى.

وشهد بدراً وقَتَلَ بها حَنْظَلَة بن أبى سفيان، وأُحُدًا، والخندق، وخيبر. واستخلفه النبى ﷺ على المدينة حين خرج إلى المُرَيْسِيع. وخرج أميراً على

(١) سورة الأنبياء: ١٠٤.

سبع سرايا، وآخا رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب.

استشهد ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة مؤتة حين أمَّره النبى ﷺ على جيش تلك الغزوة فى جمادى الأولى سنة ثمان عن خمس وخمسين سنة. رضى الله عنه.

* * *

[أول من أسلم من العبيد]

(وَ) أول من آمن به ﷺ (مِنَ الأرقَّاء) أى المماليك (بلاَلُ) بكسر الموحدة ابن رباح الحبشى مؤذن رسول الله ﷺ. كان ـ رضى الله عنه ـ من السابقين الأربعة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، واسم أمه حمامة كانت مولاة لبعض بنى جُمح، ثم اشتراها الصديق رضى الله عنه.

(الَّذِى عَذَّبَهُ فِى الله) أى بسبب إيمانه بالله وثباته عليه عدو الله (أُمَيَّة) بضم الهمزة وفتح الميم وشد المثناة تحت؛ العاتى الشديد المقتول كافرًا يوم بدر لمَّا رآه بلال فصاح بأعلى صوته: يا أنصار الله رأس الكفر أُمية بن خلف لا نجوت إن نجا، فنهشوه بأسيافهم حتى قتلوه.

وذلك أن المشركين عَدَوا على من تبع رسول الله ﷺ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع، وكان بلال مولى لأُمية بن خلف الجُمَحى، وكان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعُزَّى، فيقول فى ذلك البلاء: أَحَدٌ أَحَد.

وعن مجاهد فى قصة بلال: وجعلوا فى عنقه حبلاً، ودفعوه إلى الصبيان يلعبون به حتى أثَّر الحبل فى عنقه.

(وَأَوْلاَهُ) أنعم عليه كغيره من العبيد (مَوْلاَهُ أَبُو بَكْرٍ) الصديق رضى الله عنه (مِنَ) فك رقبته من ربقة الرق والتعذيب بسبب (العتْقِ مَا أَوْلاَهُ) أى إنعامًا عظيمًا وإسداءً فخيمًا؛ فإن الصديق ـ رضى الله عنه ـ كان إذا مر بأحد من العبيد يُعذب فى الله اشتراه منهم وأعتقه، والمراد بالعبيد. ما يشمل الإناث لكونهن فيهم، وقد بلغت عدتهم تسعة. فمر ذات يوم وهم يصنعون به ذلك

فقال لأُمية: إلا تتقى الله فى هذا المسكين؟ حتى متى تعذبه؟! قال أُمية: أنت أفسدته فأنقذه. فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: أفعلُ، عندى غلام أسود أجْلَد منه وأقوى على دينك أعطيكه به، قال: قد قبلت. قال: هو لك. فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك.

وقيل: اشتراه بتسع ـ وقيل: بخمس ـ أواق ذهبًا، وقيل: ببردة وعشرة أواق فضة، وفى رواية: برطل من ذهب.

وأخذ بلالاً فأعتقه فخدم رسول الله ﷺ ولازمه سفراً وحضراً.

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ: أبو بكر سيدنا أعتق سيدنا[1].

شهد بدراً والمشاهد كلها. وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة حيث قال: «يا بلال سمعت دق نعليك فى الجنة»[2] وأخبر ﷺ أنه يُحشر على ناقة من نوق الجنة، وأنه يؤذن فى موقف القيامة[3].

وسمع ـ رضى الله عنه ـ امرأته فى مرض موته تقول واحزناه، فقال: بل واطرباه، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

توفى رضى الله عنه بدمشق، ودفن بباب الصغير سنة عشرين، وقيل: سنة سبع عشرة، وقد زرته هناك نفعنا الله ببركاته.

وقيل: مات بحلب عن بضع وستين سنة.

وبهذا الذى ذكره المصنف تجتمع الأقوال المتباينة فى أوّل من أسلم ولله الحمد، وسبق ابن الصلاح لهذا الجمع ـ يعنى إلى قوله: ومن النساء خديجة ـ: الحبر ابن عباس، وتبعه العسكرى، وابن الصلاح، وزاد: العبيد والموالى. كذا فى «شرح المواهب» للزرقانى، وتبعه المصنف رحمه الله.

---

(١) كنز العمال (٣٥٦٢٠) وعزاه للخرائطى فى مكارم الأخلاق.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٤)، ابن عساكر (٥/ ٢٥٩)، غريب الحديث للخطابى (١/ ٥٨٢).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٢٦٠)، وميزان الاعتدال (٢/ ٦٤٥).

تنبيه

قيل : أوّل من أسلم ورَقة بن نوفل ومنعه بعضهم قائلاً: إنه إنما أدرك نبوّته عليه الصلاة والسلام لا رسالته. لكن جاء فى السير كما رواه أبو نعيم أنه قال [لرسول الله ﷺ]: أبشر فأنا أشهد أنك الذى بشَّر به ابنُ مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبىّ مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد، وإن أُدْرِك ذلك لأجاهدن معك.

فهذا صريح منه بتصديقه برسالة محمد ﷺ. قال البُلْقينى: بل يكون بذلك أوّل من أسلم من الرجال، وبه قال العراقى فى «نكته» على ابن الصلاح، وذكره ابن منده فى الصحابة. والله أعلم.

* * *

[إسلام عثمان بن عفان]

(ثُمَّ) لما أسلم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ جعل يدعو الناس إلى الإسلام، وكان رجلاً مألوفًا لخلقه ومعروفه، فمن قبل منه جاء به إلى النبى ﷺ فأسلم، وممن (أَسْلَمَ) بدعائه: أمير المؤمنين ذو النورين ثالث الخلفاء الراشدين، أحد الستة أصحاب الشورى، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأقربهم بعد علىّ نسبًا إلى رسول الله ﷺ، وأحد السابقين إلى الإسلام بل قيل: وهو رابع أربعة فى الإسلام؛ أبو عمرو (عُثْمَانُ) بن عَفَّان بن أبى العاص بن أُمية بن عبد شمس ابن عبد مناف القرشى الأموى ـ رضى الله عنه ـ.

وسبب مبادرته إلى الإسلام قال: كنت بفناء الكعبة فأخبرت بأن محمداً زَوَّج ابنته رقية ـ وكانت ذات جمال بارع ـ من عُتْبَة بن أبى لهب، فدخلتنى الغيرة والحسرة لِمَ لَمْ أكن سبقت إلى ذلك، قال: فانصرفت إلى منزلى فوجدت خالتى سعدى بنت كريز الصحابية[1]، وكانت قد تكهنت، فأخبرتها، فأخبرتنى أن الله أرسل محمداً ـ وذكر حثها له على اتباعه مطوّلاً قال ـ: وكان لى مجلس عند الصديق فأتيته. فسألنى عن تفكرى، فأخبرته بما سمعت من خالتى، فقال لى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: ويحك يا عثمان، إنك رجل حازم وما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التى يعبدها قومنا؟! أليست من حجارة صمّ لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؟ والله لقد صَدَقَتْكَ خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه فتسمع ما يقول؟ قلت: بلى، فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «يا عثمان أجب الله إلى جنته؛ فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه» فما

(١) هى سعدى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس، إحدى كاهنات الجاهلية، وقد أدركت الإسلام وأسلمت، وهى خالة عثمان بن عفان. الإصابة (٧/ ٦٩٧).

تمالكت حتى أسلمت.

ثم زَوَّجه رسول الله ﷺ ابنته رقية بعد أن مات عُتْبَة، وهاجر بها إلى الحبشة؛ وهو أول من هاجر إليها، ثم هاجر الثانية إلى المدينة.

وورد أنه حمل في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرسًا، وصح أنه جاء بألف دينار فوضعها في حجر النبي ﷺ فجعل يقلبها ويقول: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»[1].

وصحَّ أنه اشترى الجنة مرتين: مرة حين اشترى بئر رومة[2]، ومرة حين جهز جيش العُسْرَة.

وصحَّ أنه أشد هذه الأمة حياء، وأنه يشبه إبراهيم الخليل.

وصحَّ أنه ﷺ قال: «لو كان لي أربعون بنتًا زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا تبقى منهن واحدة، وما زوجتك إلا بالوحي»[3].

وزوَّجه رسول الله ﷺ بعد أن توفيت عنه رقية، ابنته أم كلثوم رضي الله عنها. قال بعضهم: ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، ولهذا سمي: ذا النورين، وقيل: لأنه كان يختم القرآن في الوتر؛ فالقرآن نور، وقيام الليل نور، أو لأنه إذا دخل الجنة برقت له برقتين، أو لأنه كان ذا جمال بارع كما كانت زوجته رقية ـ رضي الله عنها ـ كذلك، ومن ثم كانت النساء يقلن:

أحسن شيءٍ يَرَاه إنسان   رقية وبَعْلها عُثْمَانُ

وقد قال ﷺ: «قال لي جبريل: إن أردت أن تنظر من أهل الأرض شبيهًا بيوسف الصديق فانظر إلى عثمان بن عفان».

قال المصنف في «بر العاجل»: وكان ـ رضي الله عنه ـ أبيض مشربًا بصفرة، وقال النووي: أسمر.. انتهى. بوجهه نكتات جدري، حسن الوجه

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، الحاكم في المستدرك (٣/ ١٠٢)، مشكاة المصابيح (٦٠٦٤).
(٢) بئر رومة: في عقيق المدينة، اشتراها عثمان رضي الله عنه وسبَّلها. (مراصد الاطلاع ١/ ١٤١).
(٣) كنز العمال (٣٦٢٤٨).

والثغر جَدًا، رِبْعَةً[1]، رقيق البشرة، أصلع، كَثّ اللحية طويلها، ضخم الكراديس أى رؤوس العظام، بعيد ما بين المنكبين، طويل الذراعين، أشعرهما، ينشر أسنانه بالذهب.. انتهى. وما مرت جمعة إلا أعتق فيها. قالوا: فجملة ما أعتق ألفان وأربعمائة رقبة. ولد رضى الله عنه بعد الفيل بست سنين على الصحيح. ومدة خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنان وعشرون يومًا.

قال فى «المنح»: واجتمع على قتله ـ أو باشر ـ أربعة آلاف مجتمعون من مصر وغيرها، فحاصروه إلى أن قتلوه فى أوسط أيام التشريق والمصحف بين يديه سنة خمس وثلاثين، وانفتح بقتله باب الفتنة بين المسلمين فلم يغلق إلى يوم القيامة.

قال علماء الإسلام: أهل المعاذير عن الصحابة ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ: لا يصح أن يقال إن أجلاء الصحابة كعلى ـ كرم الله وجهه ـ رضوا بقتل عثمان وداهنوا فيه وخذلوه، بل تَجَمَّع جموع من قبائل شتى وبلدان شاسعة حتى كان لهم عدد، وعجز الآخرون عن دفعهم. ويدل لذلك ما فى «الإشاعة» لجدنا: فجاءت الأنصار إلى الباب وهو محصور وقالوا: يا أمير المؤمنين، إن شئت كنا أنصار الله مرتين، فقال: لا حاجة لى فى ذلك، كفوا فإن رسول الله ﷺ عهد إلىَّ عهدًا وأنا صابرٌ عليه.

وجاء علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ فى جماعة من بنى هاشم يريد نصره، فقال: كل من لى عهد فى ذمته يكف عن القتال، فأخذ على عمامته ورمى بها فى صحن داره وقال: ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين، ثم أرسل علىٌّ الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر فى فتية من بنى هاشم بثلاث قرب من الماء فحالوا دونهم، فحملوا عليهم حتى جُرح الحسن أو الحسين بن على، وسال الدم على وجهه، وأوصلوه الماء، فلما رأوا ذلك

(١) رِبْعَة: ما بين الطويل والقصير.

خافوا بنى هاشم وتركوا الباب ونقبوا البيت من ظهره. وكان عنده عبيده الكثيرون فأرادوا أن يمنعوا عنه فقال: من أغمد سيفه فهو حر، ومنعهم من ذلك، فدخل عليه جماعة فقتلوه عن ثمانين سنة، وقيل: أكثر، وقيل: أقل.. انتهى ببعض اختصار.

وقد كان استوهب أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ موضع قبر لِيُدْفَنَ فيه، فوهبته له، فَمُنِعَ من الدفن فيه، ثم أرادوا دفنه فى البقيع أيضًا فَمُنِعَ منه، فانطلقوا به إلى شرقى البقيع فدفنوه بمحل كان الناس يتوقون أن يدفنوا فيه موتاهم، وكان ـ رضى الله عنه ـ فى حياته يمر به ويقول: سيدفن هنا رجلٌ صالح فيتأسى به الناس فى دفن موتاهم به. وكان ذلك المحل بستانًا فاشتراه وزاده فى البقيع، فكان أول من دفن به، وعليه اليوم قبة عظيمة يُزَارُ فيها ـ رضى الله عنه ـ.

وفى «الإشاعة» عن عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت صوتًا يوم قُتِلَ عثمان: أبشر يابن عفان بروحٍ وَرَيْحَان، أبشر يا ابن عفان بربٍ غير غضبان، أبشر يا ابن عفان برضوانٍ وغفران. فالتفت فلم أر أحدا. رواه أبو نعيم.

وروى الطبرانى وأبو نعيم عن سهل بن حبيش قال: دفنا عثمان ليلاً، فغشينا سواد من خلفنا فهبناهم حتى كدنا أن نتفرق، فنادى مناد لا روع عليكم اثبتوا فإنا جئنا لنشهده معكم. فكان يقول: هم والله الملائكة.

وقد ورد فى الحديث ـ كما فى «المنح» ـ: «أنه يوم يموت تُصلى عليه ملائكة السماء». وأن ذلك له خاصة.

وروى أبو نعيم عن عروة قال: مكث عثمان فى حش كوكب ثلاثًا لا يدفنونه حتى هتف هاتف ادفنوه ولا تصلوا عليه فإن الله قد صلَّى عليه. رضى الله عنه.

* * *

[إسلام سعد بن أبي وقاص]

(و) ممن أسلم بدعاء الصديق - رضى الله عنه - أبو إسحاق (سَعْدُ) بن أبى وقاص، مالك بن أُهَيْب بن عبد مناف القرشى الزهرى، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام بل ثالث الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ورمى يوم أحد ألف سهم، وأحد حراس النبى ﷺ، ولاَّه عمر - رضى الله عنه - العراق ففتح مدائن كسرى وغيرها.

حكى أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما دعا سعداً إلى الإسلام لم يبعد، وأتى النبى ﷺ فسأله عن أمره فأخبره، فأسلم وعمره حينئذ تسع عشرة سنة.

ومما حكى فى صلابته فى دين الإسلام بعد أن دخل فيه وتلبَّس به: أن أمه كرهت إسلامه وكان باراً بها فقالت: ألست تزعم أن الله أمرك بصلة الرحم وبر الوالدين؟ قال: فقلت: نعم. فقالت: والله لا أكلت طعامًا، ولا شربت ماءً حتى تكفر بمحمد، وتمس إسافًا ونائلة، فمكثت يومًا وليلة لا تأكل ولا تشرب، فكانوا يَفتحون فاها ويُلقون فيه الطعام والشراب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ الآية[1]. قال سعد: فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسًا نفسًا ما تركت دين هذا النبى، فكلى إن شئت أو لا تأكلى.

وأخباره فى الشجاعة والشدة فى الدين، واتباع السنة، والزهد، والورع، وإجابة الدعوة، والتواضع، والصدق، والصدقة كثيرة واسعة.

توفى - رضى الله عنه - بقصره بالعقيق على نحو عشرة أميال من المدينة،

(١) سورة العنكبوت: ٨١.

فَحُمِلَ إليها على أعناق الرجال، وأُدخل المسجد وصلّى عليه مروان وأمهاتُ المؤمنين فى حجرهن، ودفن بالبقيع سنة خمس وخمسين أو أقل أو أكثر بقليل عن بضع وستين، أو وسبعين، أو وثمانين، أو وتسعين سنة، وهو آخر المهاجرين موتًا، وكُفِّن فى جبَّة صوف لقى المشركين فيها يوم بدر بوصية منه، قال: وإنما كنت أخبؤها لذلك[1]. رضى الله عنه.

* * *

(١) المنتظم (٥/ ٢٨٢).

[إسلام سعيد بن زيد]

(وَ) ممن أسلم: أبو الأعور، وقيل: أبو ثور (سَعِيدُ) بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل بن عبد العزى بن عبد الله بن رياح بن قُرْط بن رَزَاح بن عدىّ بن كعب القرشى العدوى، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد السابقين إلى الإسلام والهجرة، شهد المشاهد كلها إلا بدرًا، وعدَّه البخارى ممن شهد بدرًا. ويجمع بأنه لم يشهدها حسًا وشهدها حُكْمًا؛ أجرًا وسهمًا. وبهذا يُجمع ما يأتى فى ترجمة طلحة.

وهو ابن عم عمر بن الخطاب وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت أخته عاتكة بنت زيد[1] تحت عمر بن الخطاب تزوجها بعد أن قُتِلَ عنها عبد الله بن أبى بكر الصديق.

أسلم قديمًا ورسول الله ﷺ بدار الأرقم، وفى «أسد الغابة» و «الإصابة»: أنه أسلم قبل عمر. وقال فى «الإصابة»: وكان إسلام عمر عنده فى بيته، وقال فى «أسد الغابة»: أسلم قبل عمر هو وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وهى كانت سبب إسلام عمر على ما نذكره فى ترجمته.. انتهى.

وكان رضى الله عنه مُجاب الدعوة، موصوفًا بالزهد. توفى - رضى الله عنه - بالعقيق فى أرضه، وحمل على أعناق الرجال إلى المدينة، ودفن بالبقيع سنة خمسين أو إحدى وخمسين عن بضع وسبعين سنة، وغسله وصلى عليه ابن عمر، ونزل فى قبره هو وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم أجمعين.

* * *

---

(١) هى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، القرشية، إحدى الصحابيات المهاجرات تزوجت أبا بكر، ثم عمر، ثم الزبير بن العوام، وأراد على بن أبى طالب أن يخطبها بعد الزبير، فأرسلت إليه من يقول له: إنى لأضن بك عن القتل، وظلت دون زواج حتى توفيت سنة (٤٠ هـ)، وهى شاعرة مجيدة. الإصابة (٧/ ١١).

[إسلام طلحة بن عبيد الله]

(وَ) ممن أسلم بدعاء الصديق ـ رضى الله عنه ـ: أبو محمد (طَلْحَةُ) بن عبيد الله ـ مصغراً ـ بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة القرشى، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الرفقاء النجباء.

وقد شاركه رجل آخر فى اسمه واسم أبيه ونسبته وهو: طلحة بن عبيد الله التيمى وهو الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ [1] الآية؛ لأنه قال لئن مات محمد لأتزوجن عائشة من بعده فنزلت الآية.

قال الحافظ السيوطى: لقد كنت فى وقفة شديدة من صحة هذا الخبر لأن طلحة أحد العشرة أَجَلُّ من أن يصدر منه ذلك حتى رأيت أنه رجل آخر شاركه فى اسمه واسم أبيه ونسبته.. انتهى.

وسمَّاه النبى ﷺ: الفصيح النصيح، وطلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الجود؛ فكان غاية فيه بحيث باع أرضًا بسبعمائة ألف دينار فباتت عنده ولم ينم مخافة من حسابها فأصبح ففرقها. وفى رواية: ففرقها فى ليلته.

وجاءه رحم له يسأله، فأعطاه ثلاثمائة ألف. وكان له بالعراق كل يوم أربعمائة ألف، وكان يكفى ضعفاء قومه وقوم أبى بكر من تيم ويقضى ديونهم، ويرسل إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى كل سنة عشرة آلاف درهم، وتصدق فى يوم بمائة ألف ثم لم يجد ثوبًا يذهب فيه إلى المسجد يصلى فيه.

وهو وإن لم يشهد بدراً ـ كما عليه الأكثرون ـ فقد جعله ﷺ كمن شهدها أجراً وسهمًا، فشهوده لها حكمًا لا حسًا ـ كما مر فى ترجمة سعيد ـ.

(١) سورة الأحزاب: ٥٣.

ومثلهما عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فإنه بدرىّ أجراً لا حضوراً كما صرح به شيخنا.

وكانت لطلحة ـ رضى الله عنه ـ اليد البيضاء يوم أحد؛ وقى النبى ﷺ يومئذ لما ضُرِبَ بالسيف فشجَّ وجهه ويده فَشُلَّتْ واستمرت مثلا، وأراد ﷺ أن يصعد على صخرة فى يوم أحد فما استطاع؛ لأنه كان قد ظاهر بين درعين، فبرك له طلحة فصعد على ظهره واستوى عليها، فقال ﷺ: «أوجب طلحة»[1] أى وجبت له الجنة، وثبت مع النبى ﷺ وبايعه على الموت ووقاه بنفسه، وَعُدَّ ما فيه من الجراح يوم أحد فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة وضربة ورمية، وانقطعت أصبعه يومئذ.

وجاءه يوم الجمل سهمٌ فى ركبته فمات به فى جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين عن أربع وستين سنة على الأشهر، ودفن بالبصرة. رضى الله عنه.

* * *

(١) أخرجه الترمذى (٢/ ٣٠٢).

[إسلام عبد الرحمن بن عوف]

(وَ) ممن أسلم بدعاء الصديق ـ رضى الله عنه ـ: أبو محمد عبد الرحمن (ابن عَوْفٍ) بن عبد الحارث بن زُهْرة بن كِلاب القرشى الزهرى، أمين هذه الأمة.

وكان اسمه فى الجاهلية: عبد عمرو، وقيل: عبد الكعبة، وقيل: عبد الحارث، فسمَّاه النبى ﷺ: عبد الرحمن. أحد العشرة الكرام البررة المبايعين تحت الشجرة ممن هاجر الهجرتين، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، والستة أصحاب الشورى، وأحد المفتيين فى عهد النبوّة.

شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان ممن ثبت يوم أحد فأصابته عشرون جراحة فهتم وعرج.

وصح أن النبى ﷺ صلى خلفه ركعة من صلاة الصبح فى غزوة تبوك وهذه منقبة لم توجد لصحابى غيره، كذا قال فى «المنح»، وأجاب عن اقتدائه ﷺ بأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بأنه أخرج نفسه عن الإمامة بتأخره، وأنه قال لما قال له النبى ﷺ: «ما منعك أن تثبت وقد أشرت إليك» [قال:] ما كان ينبغى لابن أبى قُحَافة أن يتقدم بين يدى رسول الله ﷺ[1]. وأن تثبت عبد الرحمن فى تلك الصلاة لعدم علمه باقتدائه ﷺ به، ويؤيده ما فى رواية الشيخين: كان أبو بكر يصلى قائمًا ورسول الله ﷺ يصلى قاعدًا يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله، والناس يقتدون بصلاة أبى بكر[2].

أى فكان أبو بكر رابطة مُبلغًا عنه ﷺ؛ فبعد أن أخرج نفسه من الإمامة صار مأمومًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٢١)، البخارى (٦٨٤)، النسائى (٥٤١٣)، أحمد فى مسنده (٣٣١١٥)، البيهقى فى السنن (١١٣/٣)، مالك فى الموطأ (٣٩٢)، أبو داود (٩٤٠).

(٢) أخرجه النسائى (٨٣٣)، أحمد فى مسنده (٢٥٣٤٨).

وهذا يدل لمذهب الشافعي من جواز إخراج الإمام نفسه من الإمامة واقتدائه بغيره فيصير مأمومًا بعد أن كان إمامًا. لكن جاء في بعض الروايات كما في «الشمائل» للترمذي: فلما رآه أبو بكر ذهب لينكص، أومأ إليه أن يثبت مكانه حتى قضى أبو بكر صلاته. وفي بعض الروايات التصريح بأنه ﷺ دفع في ظهر أبي بكر وقال: «صل بالناس» أي ومنعه من التأخر، وعليهما فلا يفرع التفريع المذكور في رواية الشيخين.

ويمكن الجمع بين الروايات كما قال شيخنا في حواشيه على «الشمائل» بتعدد الواقعة ففي مرة منعه ﷺ من التأخر واقتدى به، وفي أخرى تأخر أبو بكر واقتدى بالنبي ﷺ واقتدى الناس بالنبي بعد اقتدائهم بأبي بكر، وصار أبو بكر مبلغًا يُسْمِعُ الناس التكبير. وقد صرح الترمذي بتعدد صلاته ﷺ خلف أبي بكر حيث قال: ثبت أنه ﷺ صلى خلف أبي بكر مقتديًا به في مرض موته ثلاث مرات، قال: ولا ينكر هذا إلا جاهل لا علم له بالرواية.

وصرح في «إنسان العيون» بأنه ﷺ صلى مؤتمًا بأبي بكر ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم قضى الركعة الثانية. قال: أي أتى بها منفردًا، وأنه قال ﷺ: «لم يُقْبَضْ نبيٌّ حتى يؤمه رجلٌ صالحٌ من قومه»[1].

قال: أي وقد قال ذلك: لما صلى خلف عبد الرحمن بن عوف.. انتهى.

وإذا تقرر ذلك فلا يتم ما ادَّعاه العلامة ابن حجر في «منحه» من خصوصية ذلك لعبد الرحمن، وحينئذ فَيُحْمَل ما في «الخصائص الصغرى» فيما حكاه عن القاضي عياض من أنه لا يجوز لأحد أن يؤمه ﷺ؛ لأنه لا يصح التقدم بين يديه في الصلاة ولا في غيرها لا لعذر ولا لغيره. وقد نهى الله المؤمنين عن ذلك، ولا يكون أحد شافعًا له وقال: «أئمتكم شفعاؤكم»؛ ولذلك قال أبو بكر: ما كان لابن أبي قُحَافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ على ما إذا

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٢٤٤)، وصححه، ووافقه الذهبي. وأعله المناوي بفليح بن سليمان، وأورده ابن حجر في المطالب العالية (٤٠١٠). وقال البوصيري: فيه راوٍ لم يسم.

لم يأمر به النبى ﷺ، فإذا أَمَرَ وَجَبَ اتباع أمره، وأمره لا يخلو عن حكمة هو أعلم بها، ومن ثم استقر أبو بكر فى المرة الثانية حيث كان بالأمر الصريح منه ـ كما فى بعض الروايات ـ حيث قال له: «صل بالناس»، وفى الأولى كان بالإشارة؛ ومع ذلك فقد عاتبه ﷺ وقال له: «ما يمنعك إذ أومأت إليك أن تثبت»، وقد أشار إلى حكمة ذلك بقوله: «لم يقبض نبىٌّ...» إلى آخر ما تقدم. وأما ثبات عبد الرحمن فى صلاته تلك فقد مر الجواب عنه.

وأعتق ـ رضى الله عنه ـ فى يوم واحد [و] احداً وثلاثين عبداً؛ حتى جاء أن جملة ما أعتق ثلاثون ألفًا.

وكان ـ رضى الله عنه ـ كثير المال محظوظًا فى التجارة، قال الزهرى: تصدق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله: أربعة آلاف دينار، ثم أربعين ألف دينار، ثم بمثلها، ثم خمسمائة فرس، ثم خمسمائة راحلة. وفى رواية: ألف وخمسمائة راحلة، وأوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله، ولكل واحد ممن شهد بدراً بأربعمائة دينار وكانوا مائة من جملتهم عثمان فأخذ مائة وهو أمير المؤمنين، وبألف فرس فى سبيل الله.

وكان أهل المدينة عيالاً عليه: ثلث يقرضهم، وثلث يقضى ديونهم، وثلث يصلهم.

وقدمت له عيرٌ من الشام سبعمائة راحلة فسمعت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أصواتًا فروت حديث: «يدخل ابن عوف الجنة حبواً». فبلغه فأتاها فحدثته، فقال: أشهدك أنها بأحمالها، وأقتابها، وأحلاسها فى سبيل الله عز وجل.

وأخباره فى الجود، والسخاء، وسعة الصدر، والبر والصلة، والتواضع، والخوف لله تعالى، والأمانة، والتعفف كثيرة مشهورة.

توفى ـ رضى الله عنه ـ سنة اثنين وثلاثين فى خلافة عثمان عن اثنين أو خمس وسبعين سنة، وصلى عليه عثمان بوصية منه.

وروى أن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أرسلت إليه فى مرضه أن يدفن مع النبى ﷺ وصاحبيه ـ رضى الله عنهما ـ فقال: لست بمضيق عليك بيتك، إنى كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات أوّلاً دُفِنَ الآخر إلى جنبه ـ رضى الله عنهم أجمعين.

* * *

[إسلام الزبير بن العوام]

(وَ) ممن أسلم بدعاء الصديق رضى الله عنه: أبو عبد الله الزبيرُ (ابن العَمَّة) الهاشمية القرشية عمة النبى ﷺ السيدة (صَفِيَّةَ) بنت عبد المطلب، وابنِ العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ القرشى الأسدى. قيل: وعمره ثمان سنين. أحد الثمانية السابقين، والستة أصحاب الشورى، والعشرة المبشرين بالجنة. أول من سَلَّ سيفًا فى سبيل الله، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفتح اليرموك وكانت له فيه اليد البيضاء والهمة العلياء اخترق صفوف الروم مرتين من أولهم إلى آخرهم، وفتح مصر مع عمرو بن العاص، ولما اشتد الخوف يوم الأحزاب ندب ﷺ من يأتيه بخبر عصيان بنى قريظة ثلاثًا كل مرة يقول: أنا، فقال ﷺ: «إن لكل نبى حواريًا، وحواريّ الزبير»[1].

وكان له ـ رضى الله عنه ـ ألف عبد يؤدّون إليه الخراج كل يوم فيتصدق به فى مجلسه ولا يقوم بدرهم.

والصحيح أن الذى تَرَكَه من المال بعد وفاء الدين والوصية وَوُرِثَ عنه: تسعة وخمسون ألف ألف وثمانمائة ألف، وكان له صدقات كثيرة ومكارم جليلة، وأوصى إليه تسعون من الصحابة بأولادهم وأموالهم فحفظها، وكان ينفق على أولادهم من ماله.

وأخبار شجاعته وكرمه وسماحته وصدقته وصلته وعدالته وأمانته كثيرة منتشرة، توفى شهيدًا قتيلاً نائمًا بوادى السباع فى جمادى الأولى سنة ست وثلاثين يوم الجمل، وعمره سبع وستون سنة على الأشهر، قتله عمرو بن

---

(١) أخرجه البخارى (٢٨٤٦)، ومسلم (١٨٧٩)، والحاكم فى مستدركه (٣/ ٣٦٧)، والترمذى (٣٧٤٤) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٢٢).

جرموز التميمى، وقال له على ـ رضى الله عنه ـ: بشر قاتل ابن صفية بالنار.

والحاصل أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ أسلم على يديه هؤلاء المتقدم ذكرهم: عثمان، ومن بعده سوى سعيد بن زيد فإنه لم يتعرض له فى «إنسان العيون»، ولا فى «المواهب»: كالحافظ مُغْلَطَاى، بل ولا تعرضوا لإسلامه حينئذ.

(وَ) قد أسلم (غَيْرُهُمْ) أى غير هؤلاء المذكورين، قال الحافظ مُغْلَطَاى بعد ذكره من تقدم: ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، والأرْقَم بن أبى الأرْقَم المخزومى، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وخَبَّاب بن الأرت، وعُمَيْر بن أبى وقاص، وعبد الله بن مسعود، وسَلِيط بن عمرو، وعَيَّاش بن أبى ربيعة وامرأته، وخُنَيْس بن حُذَافة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد، وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء، وغيرهم.

ولعل غالبهم (مِمَنْ) أى من جملة من (أَنْهَلَهُ) معناه فى الأصل: سقاه أولاً، والمراد هنا: الترغيب والتحسين؛ أى رغبه وحسن له ففيه استعارة تصريحية تبعية؛ حيث شبه الترغيب فى الدين بالسقى المعبر عنه بالإنهال، واستعار الإنهال للترغيب، واشتق منه أنهل بمعنى رغب.

(الصِّدِيقُ) أبو بكر ـ رضى الله عنه (رَحِيقَ) أى خالص الشراب، أو أطيبه، أو صافيه. فإضافته إلى (التَّصْدِيقِ) من إضافة المشبه به للمشبه (وَسَقَاهُ) فبادر بالدخول فى الدين الحنيفى المحمدى، والانتظام فى المسلك المتين الأحمدى. وفى كلامه استعارة بالكناية حيث شبه التصديق بشراب خالص، فيه غاية اللذة والطرب، بجامع حصول الانتعاش والطرب بكل، ورمز له بشىء من لوازمه وهو الشرب، وخيل له بالرحيق، ورشحه بالإنهال.

(وَمَا زَالَتْ عِبَادَتُهُ ﷺ وَ) عبادة (أَصْحَابِهِ) رضى الله عنهم (مَخْفِيَّةً) عن

كفار قريش بعد الإنذار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [1] (حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْه) ﷺ قوله جل ذكره: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [2] أى اجهر؛ من صدع بالحجة إذا تكلم جهاراً أو فرق بين الحق والباطل، وأصله الإبانة والتمييز، وما مصدرية أى: بأمرنا لك، أو موصولة والعائد محذوف؛ أى ما تؤمر به من الشرائع، ولا يرد أن شرط حذف العائد المجرور أن يجر بمثل ما جر الموصول لفظًا ومعنى، وأن يتحد متعلق الحرفين لفظًا ومعنى أيضًا؛ لأنا نقول: أن الذى جر العائد حذف أولاً فاتصل العائد بالعامل وصار منصوبًا لا مجروراً، ثم حذف بعد ذلك فلم يحذف إلا وهو منصوب فيكون من قبيل قوله فى الخلاصة:

والحذف عندهم كثير منجلى ... فى عـائد متصل إن انتصب

بفعل أو وصف... إلخ؛ لأنه لما أُمِرَ ﷺ بالإنذار إنما أظهره لمن ظن منه الإجابة، ولم يبالغ فى الإظهار والتعميم، فآمن به من تقدم ذكرهم وتبعهم كثير من الناس، ثم أُمِرَ بالمبالغة فى إظهار الدعوة والإنذار بهذه الآية بعد النبوة بثلاث سنين أى فى سنة أربع، واستمر على ذلك عشر سنين كما سيأتى.

(فَجَهَرَ) أعلن (بدُعَاء الخَلْق إلَى) عبادة (الله) وحده، والإيمان به وبرسوله، وترك ما هم عليه (وَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ) ولا ردوا عليه (حَتَّى عَابَ آلِهَتَهُمْ) أى رماها بالعيب سنة أربع (وَأَمَرَ) هُمْ (بِرفْضِ) أى بترك (ما سِوَى الوَحْدَانِيَّة) بأن يقروا بأن الله واحد فى ذاته: فلا تعدد له بوجه، وصفاته: فلا نظير له بوجه، وأفعاله: فلا معين له ولا شريك له بوجه. وذلك لما دخل المسجد فوجدهم يسجدون للأصنام فنهاهم فقال: «أبطلتم دين أبيكم إبراهيم؟» فقالوا: إنا نسجد لها لتقربنا إلى الله. فلم يرض بذلك منهم وعاب صنعهم.

---

(1) سورة المدثر: ١، ٢.

(2) سورة الحجر: ٩٤.

(فَتَجَرَّأوا) أى أقدموا من غير مبالاة (عَلَى مُبَارَزَتِه) وأجمعوا (بالعَدَاوَة) عليه (و) بالغوا فى (أذاه) إلا من عصمه الله تعالى بالإسلام أو صدق المحبة؛ كأبى طالب. ومع ذلك فهو مديمٌ للدعاء، متحمل لمشاقهم وقبيح كفرهم وازدرائهم له ولما جاء به. فكان ﷺ يطوف على الناس فى منازلهم يقول: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا» ويدعوهم إلى سبيل ربه مرة بالترغيب، ومرة بالترهيب، ومرة بالقول اللين، وأخرى بالتبكيت، وأخرى بالقول الخشن. وينادى عليهم فى أنديتهم بتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم ورميها بكل عيب وسوء. فيبالغون فى أذيته والتجرؤ عليه؛ حتى أن أبا لهب كان يحذر الناس يقول: يا أيها الناس، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم. فكان بعضهم يحثى عليه التراب، ويجعل الدم على بابه، ورموه بالسحر والشعر والكهانة.

واجتمع رؤساء قريش مرة فى الحجر فذكروا ما فعل بهم من سبهم وسب آلهتهم، فطلع عليهم ﷺ فاستلم الركن وطاف، ولما مر بهم انتقصوه فساءه ذلك، ثم مر بهم فأساؤه، ثم مر بهم فأساؤه، فوقف ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش، والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذبح» فأخذتهم كلمته، وارتعدت منها فرائصهم، فألانوا له القول وقالوا: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.

فاجتمعوا له من الغد فى الحِجْر وفعلوا مثل ما ذكر،ثم وثبوا إليه وثبة رجل واحد يؤنبونه - أى يوبخونه - بسب آلهتهم، فأخذ بعضهم بِمَجْمَعِ ردائه فقام إليه أبو بكر - رضى الله عنه - وحال بينهم وبينه، ووطىء عُقْبَة بن أبى مُعَيط على عنقه الكريم وهو ﷺ ساجد عند باب الكعبة حتى كادت عيناه الكريمتان تبرزان، وخنقوه خنقًا شديداً، وجذبوا برأسه الشريف ولحيته حتى سقط أكثر شعره، فقام أبو بكر ومنعه منهم قائلاً: أتقتلون رجلاً أن يقول ربِّى الله[1]؟!

(١) أخرجه البخارى (٣٦٧٨، ٤٨١٥)، الوفا ص (١٨٨)، البيهقى فى الدلائل (٢/ ٢٧٥)، سيرة ابن إسحاق (١/ ٣١١).

وفى «العيون»: قال الجمهور: وكان خمسةٌ من أشراف قريش يبالغون فى إيذاء النبى ﷺ وهم: الوليد بن المغيرة المخزومىّ وكان رأسهم، والعاصى بن وائل السهمىّ، والحارث بن قيس السهمىّ ابن عم العاصى، والأسود بن عبد يغوث الزهرى ابن خاله ﷺ، والأسود بن المطلب بن أسد. فقال جبريل لرسول الله ﷺ: أُمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمر بِنَبَّالٍ يريش النَّبال ويُصلحها فتعلق ثوبه بسهم، فلم ينعطف تعظيمًا لأخذه، فأصاب عرقًا فى ساقه فقطعه، فمرض فمات كافراً.

وأومأ إلى إخمص العاصى فدخلت فيه شوكة من رطب الضريع فانتفخت رجله حتى صارت كالرّحى فمات مقامه.

وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحًا فمات.

وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات.

وإلى الأسود بن المُطَّلب فعمى بصره ووجفت عينه فضرب برأسه الجدار حتى هلك وهو يقول: قتلنى رب محمد[1].

وإلى هذا أشار الإمام السبكى بقوله:

وجبريلُ لما استهزأتْ فرقةُ الرَّدا أشارَ إلى كلٍّ بأقبحِ ميتةِ

وقال ابن عباس: كانوا ثمانية. وجزم به ابن عبد البر، والعراقى فزاد:

وإلى أبى لهب فهلك بالعَدَسَة - وهى ميتة شنيعة كما مرَّ بيانه - بعد أيام، وعُقْبَة بن أبى مُعَيط قتل صبراً بعد انصرافه ﷺ من بدر، والحكم بن أبى العاصى بن أمية أسلم يوم الفتح وتوفى آخر خلافة عثمان.

وفى رواية البخارى: كان عليه السلام يصلى عند الكعبة وجمعٌ من قريش فى مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظروا إلى هذا المُرائى؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسَلاَها فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا

(١) الوفا ص (٣٣٥) بنحوه.

سجد وضعه بين كتفيه. فانبعث أشقى القوم عُقبة بن أبى معيط ـ كما فى الصحيحين، وحكى ابن التين عن الداودى: أنه أبو جهل؛ فإن صح يحتمل أن أحدهما جاء به والآخر وضعه ـ فلما سجد ﷺ وضعه بين كتفيه. وثَبَتَ النبىُّ ﷺ ساجدًا، وضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلقٌ إلى فاطمة ـ وهى جويرية ـ فأقبلت تسعى، وثبت النبى ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه[1].

واستمراره ﷺ عند فقهائنا لعدم علمه ﷺ بنجاسة ما أُلقى عليه. وقال الخطابى: لم يكن إذ ذاك حُكم بنجاسة ما ألقى عليه كالخمر. ورده ابن بطَّال بأنه لا شك أنها كانت بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ؛ لأنها أول ما نزل قبل كل صلاة، اللهم إلا أن يقال: المراد بها طهارة القلب ونزاهة النفس عن الدنايا والآثام. كذا قال بعضهم فليتأمل.

وفى «المواهب» و «شرحه»: وأجاب النووى قائلاً: إنه الجواب المرضى بأنه عليه السلام لم يعلم ما وضع على ظهره فاستمر فى سجوده استصحابًا لأصل الطهارة، وتعقب بأنه مشكل على قولنا بوجوب الإعادة فى مثل هذه الصورة على الصحيح، وأجيب عنه بأن الإعادة إنما تجب فى الفريضة فلعل صلاته كانت نافلة فإن ثبت أنها فريضة فالوقت متسع؛ فلعله أعاد صلاته، وتعقب بأنه لو أعاد لنقل ولم ينقل، وبأن الله لا يقره على صلاة فاسدة، ويمكن الانفصال عنه هنا بأنه أقره لمصلحة إغاظة الكفار بإظهار ثباته وعدم التفاته إلى فعلهم كما أقر عليه السلام من ركعتين لتشريع عدم بطلانها بالسلام سهوا. . انتهى.

ولما ألقته أقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «اللهم عليك بقريش. . .» ثلاثًا، ثم قال: «اللهم عليك بعمرو بن هشام، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط، وعمارة بن الوليد».

---
(١) أخرجه البخارى (٥٢٠).

قال عبد الله بن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر[1].

واعترض بأن عمارة بن الوليد مات بالحبشة كافرًا، وبأن عقبة بن أبى معيط لم يقتل ببدر وإنما أُخذ أسيراً منها، وقتل بعرق الظبية، وبأن أمية بن خلف لم يطرح بالقليب.

وأجيب: أن معنى قول ابن مسعود: رأيتهم؛ أى رأيت أكثرهم.

قال فى «المنح»: روى الإمام أحمد فى مسنده: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضى الله عنه، وعمار بن ياسر، وأمه سُمية، وصُهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله - أى عن القتل - بعمه أبى طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس، وإن بلالاً هانت عليه نفسه فى الله عز وجل وهان على قومه فأخذوه وأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به فى شِعَاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحد أى ليمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان. ومرَّ اللعين أبو جهل بسُمَيَّة - بضم السين - سابع سبعة فى الإسلام أم عمار بن ياسر وهى تُعذب فى الله فطعنها بحربة فى فرجها فقتلها[2].

* * *

---

(1) أخرجه البخارى (٢٩٣٤)، مسلم (الجهاد والسير: ١٠٩)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢٧٩)، ابن الجوزى فى الوفا ص (١٩١)، أحمد فى مسنده (١/٤١٧)

(2) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٣٢)، الاستيعاب (٤/ ٣٣٠)، ، الإصابة (٤/٣٣٥).

[الهجرة الأولى إلى الحبشة]

(وَ) لما (اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْبَلَاءُ) بما لقوا من المشركين، ورأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء مع ما هو فيه من العافية بمكانة، من الله عز وجل ومن عمه أبى طالب، قال لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه».

(فَهَاجَرُوا) أى فخرج عند ذلك المسلمون، وفارقوا أوطانهم فارين بدينهم مخافة الفتنة، فمنهم من هاجر بنفسه، ومنهم من هاجر بأهله.

وكانوا أحد عشر رجلاً، وقيل: اثنا عشر رجلاً وأربعة نسوة، وقيل: وخمسًا وقيل: وامرأتين. منهم وهو أولهم بل أفضلهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو حذيفة بن عتبة، ومُصعب [بن عُمير]، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان ابن مَظْعون، وعامر بن ربيعة، وسهيل بن بَيْضاء، وأبو سَبْرة بن أبى رُهْم، أخو أبى سلمة لأمه: أمهما برة بنت عبد المُطَّلب عمة رسول الله ﷺ، وزوجته أم كلثوم، وحاطب بن عمرو العامريان، وابن مسعود، وغيرهم.

وقيل: إنما كان عبد الله بن مسعود فى الهجرة الثانية، وبه جزم ابن إسحاق وسيأتى خلافه.

أقول: والذى فى «الإصابة» أن أبا سَبْرة بن أبى رُهْم هاجر إلى الحبشة فى الثانية ومعه أم كلثوم وأقره.

ومن النساء من تقدم: وسهلة بنت سُهَيل[1]، وأم سلمة، وليلى العدوية[2]،

---

(1) هى سهلة بنت سهيل بن عمرو، القرشية، العامرية، أسلمت قديمًا وهاجرت مع زوجها أبى حذيفة بن عتبة إلى الحبشة، وقد تزوجت بعد وفاة زوجها عبد الرحمن بن عوف، ولها ذكر فى أحاديث النبى ﷺ. الإصابة (٧/٧١٦).

(2) هى ليلى بنت عبد الله العدوية. الإصابة (٨/١٠٥).

وأم أيمن الحبشية[1].

وخرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار، فكانت هذه أول هجرة فى الإسلام.

وذلك (فى) رجب. (سَنَةَ خَمْسٍ) من النبوة متوجهين (إِلَى النَّاحِيَةِ) أى الجهة (النَّجَاشِيَّةِ) نسبة إلى النجاشى ملك الحبشة، والمراد به هنا: الرجل الصالح أصحمة الملقب بالنجاشى: أسلم فى زمن النبى ﷺ ولم يجتمع به، فهو معدود من التابعين - رضى الله عنهم، أسلم على يده: عمرو بن العاص الصحابى الآتى ذكره قريبًا. قال الزرقانى: وهى لطيفة صحابى أسلم على يد تابعى ولا يعلم مثله.. انتهى.

والنجاشى لقب لكل من ملك الحبشة، كما أن كل من ملك الروم يسمى قيصراً، ومن ملك الفرس يسمى كسرى، ومن ملك اليمن يسمى تُبَّعًا، ومن ملك الترك خاقان، ومن ملك القبط فرعون، ومن ملك مصر عزيز، وتُبَّع الحميرى لحمير، ودهمى ونغفور لملك الهند، وغانة للزنج، وبطليموس لليونان، وفِطْيون - بكسر الفاء وسكون الطاء المهملة فمثناة تحتية مضمومة فواو فنون - ومالخ أو شالخ لليهود، وللصابئة نمروذ، وجالوت من ملك البربر، وإخشيد من ملك الفرغانة، ونعمان من ملك العرب من قِبَل العجم. كذا فى «المقتفى»، وفى سيرة مُغْلَطاى: وفرعون من ملك مصر والشام، وإذا أضيف إليها الإسكندرية فهو: العزيز أو المقوقس.

فلما علمت قريش باستقرار المهاجرين فى الحبشة وأمنهم أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشى ليرد المهاجرين إلى قومهم، فأبى ذلك وردهما خائبين ولم يقبل هديتهما، فأقام المسلمون بها شعبان ورمضان، وفيه كانت قصة الغرانيق لما سجد رسول الله ﷺ وسجد المشركون، وفشا أمر تلك السجدة فى الناس حتى بلغ أرض

---

(1) هى بركة الحبشية أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، أسلمت قديمًا. (تجريد أسماء الصحابة 1/ 41).

الحبشة أن أهل مكة - أى عظماؤهم - قد سجدوا وأسلموا حتى الوليد بن المغيرة، وسعيد بن العاص، فظنوا صحة ذلك، فخرجوا؛ أى خرج جماعة منهم، منهم: عثمان بن مظعون، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وذلك فى شوال من تلك السنة، حتى إذا كانوا دون مكة. . . إلى آخر ما يأتى قريبًا إن شاء الله تعالى.

وأما رسول الله ﷺ فإن عمه أبا طالب قام دونه وذبَّ عنه بلسانه ويده كما قال رحمه الله تعالى: (وحَدِبَ) بمهملتين وموحدة كضحك؛ أى عطف (عَلَيْهِ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ) ومنعه - وأصل الحَدَب إنحناء الظهر ثم استعير هنا فيمن عطف على غيره - ورق له وقام دونه.

(فَهَابَهُ كُلٌّ مِنَ القَوْمِ) أى قريش (وَتَحَامَاهُ) احتمى من التعرض للنبى ﷺ بأذى؛ أشار بذلك؛ أى أنه لما اجتمعت قريش على قتله ﷺ وبلغ ذلك أبا طالب فجمع بنى هاشم والمُطَّلب فأدخلوه ﷺ شِعبَهم[1] ومنعوه، ولم يزل أبو طالب يذبّ عن النبى ﷺ ويردّ عنه كل من يؤذيه وكان يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

والنبى ﷺ متماد على ما هو فيه غير ملتفت لأذاهم بل صابر الصبر الجميل، وأمره لا يزداد إلا ظهوراً وعلوّا، فأسلم حمزة رضى الله عنه - سنة ست من النبوّة - وفيه نظر لما مر فى ترجمة حمزة أنه أسلم فى السنة الثانية من البعثة. وقد يقال: لا منافاة، على القول بالفرق بين البعثة والنبوّة، وعليه فيكون إسلامه فى السادسة من النبوّة تقريبًا - فعزَّ به، فكفَّت عنه قريش قليلاً، وسألوه أن يملكوه عليهم ويعزلوا له من الأموال ما شاء ويترك ما هو فيه، فأبى وقال: أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

وأسلم عُمر بعد حمزة - رضى الله عنهما - بثلاثة أيام فعز ﷺ كثيرًا، فكفَّت عنه قريش.

(١) الشِّعْب: الطريق فى الجبل ومَسِيل الماء فى بطن أرض، والمراد هنا: شِعْب بنى هاشم بن عبد مناف.

[أمر الصحيفة]

ثم اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المُطَّلب أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يَقبلوا منهم صلحًا أبدًا حتى يُسْلموا لهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا ذلك فى صحيفة... إلى آخر القصة فى شأن هذه الصحيفة، وما وقع من إعدام الأرضة إياها بعد أن علّقوها فى جوف الكعبة، وَشُلَّت يد كاتبها.

وكانت كتابة الصحيفة وتعليقها فى سنة سبع أو ثمان، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا، وكان لا يصل إليهم شىء إلا سراً.

* * *

[رجوع القادمين من الحبشة والهجرة الثانية]

وقدم نفرٌ من مهاجرة الحبشة لما بلغهم أن أهل مكة قد أسلموا وصلُّوا مع رسول الله ﷺ كما مر حتى إذا كانوا قريبًا من مكة سألوا عن قريش فقالوا: ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ، ثم عاد لشتم آلهتهم فعادوا له بالشر، فائتمروا بالرجوع إلى الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا مكة فندخل فننظر ما فيه قريش، ونحدث عهدًا بأهلنا، ثم نرجع. فدخلوها بجوارٍ إلا ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فإنه مكث يسيراً ثم رجع إلى الحبشة. وهذا صريحٌ فى أن ابن مسعود كان فى الهجرة الأولى وبه جزم الحافظ الدمياطى.

ولقى مهاجرة الحبشة من المشركين الأذى الشديد.

ثم هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة المرة الثانية وعدتهم ثلاثة وثمانون رجلاً، وثمان عشرة امرأة، وكان من الرجال: جعفر بن أبى طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود ـ على ما تقدّم عن ابن إسحاق، ولعله هاجر إلى الحبشة مرتين فلا ينافيه ما مر آنفًا عن الحافظ الدمياطى ـ وعبيد الله ـ بالتصغير ـ ابن جحش، وامرأته أم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ فتنصرً هناك ومات على النصرانية، وبقيت أم حبيبة على إسلامها، وتزوجها رسول الله ﷺ.

وهاجر أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ لما سمع بمخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو باليمن فخرج ومعه خمسون رجلاً فى سفينةٍ مهاجرين إليه ﷺ، فألقتهم السفينة إلى النجاشى بالحبشة، فوجدوا جعفر وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ فأمرهم جعفر بالإقامة، واستمروا كذلك حتى قدموا عليه ﷺ هم وجعفر عند فتح خيبر.

(وفُرِضَ عَلَيْهِ) ﷺ وعلى أمته (قِيَامُ بَعْضٍ مِنْ السَّاعَاتِ اللَّيْلِيَّةِ) بقوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١).

وكانوا مخيرين فى النصف وما فوقه وما دونه، وكان ﷺ يشق عليه مراعاة هذه المقادير، فقام سنة ـ فى رواية ـ لم ينم فى شىء منها ليلاً، وفى رواية: سنتين حتى تورمت قدماه، فأنزل الله التخفيف له وللمؤمنين فى آخر السورة، وقد أشار إلى ذلك المصنف بقوله (ثُمَّ نُسِخَ) أى الوجوب فى حق الأمة فقط لما سيأتى (بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾(٢)) إذ المراد صلوا ما تيسر؛ فعبر عن الصلاة بالقراءة مجازًا؛ لأن القراءة من أركانها، فهو من باب التعبير بالجزء عن الكل. ووجه النسخ: أنه قال: ما تيسر منه؛ أى من القراءة ولم يقيده بزمن فيصدق بما يطلق عليه اسم القيام.

(وَفُرِضَ عَلَيْهِ) ﷺ وعلى أمته (رَكْعَتَانِ بِالْغَدَاةِ) أول النهار قبل طلوع الشمس (وَرَكْعَتَانِ بِالْعَشِيَّةِ) آخر النهار قبل غروب الشمس.

قال فى «الفتح»: كان ﷺ قبل الإسراء يصلى قطعًا وكذلك أصحابه، ولكن اختلف: هل افترض قبل الخمس شىء من الصلوات أم لا؟ فقيل: إن الفرض كان صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ـ أى على ما سبق من المتن ـ قال: والحجة فيه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (٣).

ولعله كان يقرأ فيهما سورة اقرأ بناء على أن سورة الفاتحة ليست أوّل ما نزل.

(ثُمَّ نُسِخَ) وجوب ما ذكر من الوقتين فى حق أمته وبقى الندب (بِإِيجَابِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ فِى لَيْلَةِ مَسْرَاهُ) قال الحافظ ابن حجر: ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربى إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة

---

(١) سورة المزمل: ١، ٢.

(٢) سورة المزمل: ٢٠.

(٣) سورة طه: ١٣٠.

وركعتين بالعشى، وذكر الشافعى ـ رضى الله عنه ـ عن بعض أهل العلم: أن صلاة الليل كانت مفروضة ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[1] فصار الفرض قيام بعض الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس.. انتهى.

ثم رأيت الإمام الزرقانى فى «شرح المواهب» قال بعد قول المتن: ثم فرض الله من قيام الليل ما ذكره فى أوّل سورة المزمل، ثم نسخه بما فى آخرها، ثم نسخه بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة. فقد حكى الشيخ أبو حامد عن الشافعى: أن قيام الليل كان واجبًا أوّل الإسلام عليه وعلى أمته، ثم نسخ عنه بما فى آخر سورة المزمل وعن أمته بالصلوات الخمس. قال النووى: وهو الأصح أو الصحيح، وفى مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما يدل عليه.

قال: لكن الذى عليه الجمهور وأكثر أصحاب الشافعى: أنه لم ينسخ ـ أى فى حقه ـ لقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [2] أى عبادة زائدة فى فرائضك، ثم نسخ الوجوب فى حق الأمة وبقى الندب لأحاديث كثيرة.. انتهى.

* * *

---

(١) سورة المزمل: ٢٠.

(٢) سورة الإسراء: ٧٩.

[ما جرى لرسول الله ﷺ مع أبى طالب عند موته]

(وَ) لم يزل رسول الله ﷺ يقاسى من أذى قريش نحو ما مر مدة تسع سنين إلى أن (مَاتَ) عمه الحادب عليه والذابّ عنه بقوله وفعله تحببًا إليه (أَبُو طَالِب فِي) شهر رمضان أو فى (نِصْفِ) شهر (شَوَّال) أو فى أوّل ذى القعدة كما فى كلام بعضهم، وقيل: فى رجب (مِنَ) السنة (الْعَاشِرَةِ) من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنين وعمره بضع وثمانون سنة. وقيل: تسعون.

قال الجمال: الأشهر كما نقله عنه فى «المنهج الأعدل»: ولا خلاف بين العلماء فى أن أبا طالب مات على الكفر(1)، ولم يأت فى رواية يعتمد عليها ما أتى فى أبوى النبى ﷺ أن الله أحياهما له فآمنا به. نعم ذكر القرطبى بلفظ: وقد سمعت أن الله أحيا أبا طالب وآمن به.

وروى أن النبى ﷺ كان يقول له: «يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة استحلُّ لك بها الشفاعة يوم القيامة» فلما رأى أبو طالب حرص النبى ﷺ قال: يا ابن أخى لولا مخافة السُّبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تقول قريشٌ أنى إنما قلتها جزعًا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرَّك بها، فلما تقرب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه أذنه فقال: يا ابن أخى لقد قال أخى الكلمة التى أمرته بها، فقال ﷺ: «لم أسمع».

ففى هذه الرواية ما يدل على أنه قد أسر كلمة الشهادة إلى أخيه العباس وأسلم عند الموت.

وأيضًا فما فى صحيح البخارى من أن آخر ما كلمهم به أن قال: «على ملة عبد المُطَّلب» يؤيد ذلك؛ لأن عبد المُطَّلب وأباه لم يكونا مشركين، وتقدم ما

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٥٦)، طبقات ابن سعد (١/ ١/ ٧٧)، تفسير القرطبى (٨/ ٢٧٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٤٢)، الوفا ص (٢٠٨). وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر فى الإصابة فى رد الأخبار الواهية الواردة فى إسلام أبى طالب.

له تعلق بهذا.

وحكى أنه لما حضرته الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم بالنبى ﷺ خيراً، وحثهم على متابعته والإعراض عن مخالفته فيما أتى به، وأن يكونوا له ولاة ولحزبه حماة، وأنه لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد.

* * *

[وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها]

(وَعَظُمَتْ بِـ) سبب (مَوْتِه الرَّزِيَّة) براء وزاى؛ المصيبة؛ فإن قريشًا نالت منه ﷺ ما لم تكن تناله فى حياة أبى طالب (وتَلَتْهُ) تبعته ولحقته (خَدِيجَةُ) أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ فماتت على كلا القولين؛ أعنى القول بوفاتها فى رمضان أو فى شوال (بَعْدَ ثَلاَث) أى ثلاثة من الأيام فقط (وَ) قيل: خمسة، وقيل: شهر وخمسة أيام، وقيل: خمسين يومًا، وقيل: ماتت قبله عن خمس وستين سنة، ودفنت بالحَجُون[1] وذلك بعد خروج بنى هاشم والمطلب من الشِّعْب.

وكان النبى ﷺ يسمى ذلك العام عام الحزن، وقالت له خولة بنت حكيم: يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة. قال: «أجل، كانت أم العيال وربة البيت». وقد كان لا يسمع ﷺ شيئًا يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به.

وفى تلك السنة التى هى العاشرة من البعثة بعد وفاتها الواقع فى رمضان كما جزم به فى «إنسان العيون» وعليه اقتصر المصنف فى «فيض المواهب» وهو قول الأكثرين، أو فى شوال كما اقتضاه كلامه هنا وبه قال بعضهم بأيام، تزوّج سَوْدة بنت زمعة ـ رضى الله عنها ـ وكانت قبله عند سكران ابن عمها وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها، فلما انقضت عدتها تزوجها ﷺ وأصدقها أربعمائة درهم، ودخل عليها بمكة، وعقد عقده على عائشة ودخل بها فى المدينة. وفى «سيرة الدمياطى»: ماتت خديجة فى رمضان، وعقد على سَوْدة فى شوال. وبهذا وبما تقدم يردّ قول ابن إسحاق ومن تبعه أن خديجة ماتت بعد الإسراء. وكانت مدة إقامتها معه ﷺ خمسًا وعشرين سنة على ما تقدم على الصحيح.

---

(١) الحجون: موضع بأعلا مكة.

[بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من قريش بعد موت أبى طالب]

(وَ) حينئذ (شَدَّ البَلاَءُ) أى الامتحان (عَلَى المُسْلمينَ، وَثِيقَ عُرَاهُ) أى عراه الوثيقة فهو من إضافة الصفة للموصوف. والعُرى بضم العين وبالراء المهملتين جمع عُروة: وهى ما يوضع فيها الأزرار، فشبه البلاء بإنسان ذى ثوب له عُرى وقد شدت عليه، والعُرَى تخييل والشد ترشيح. أشار بذلك إلى ما رواه ابن إسحاق: أنه لما مات أبو طالب نالت قريشٌ من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به فى حياته حتى اعترض سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه الكريم ترابًا، ودخل على إحدى بناته فجعلت تغسله وتبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك».

ويقول بين ذلك: «ما نالت قريشٌ ما نالت حتى مات أبو طالب»[1].

وفى «إنسان العيون»: ولما رأى رسول الله ﷺ قريشًا تَجَهَّموا قال: «يا عمّ ما أسرع ما وجدتُ بعدك»[2].

ولما بلغ أبا لهب قام بنصرته أيامًا وقال له: يا محمد، امض لما أردت وما كنت صانعًا إذا كان أبو طالب حيًا فاصنعه، واللات والعُزَّى لا يوصل إليك حتى أموت.

واتفق أن ابن العيطلة ـ وهو أحد المستهزئين ـ سبَّ النبى ﷺ، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولَّى وهو يصيح: يا معشر قريش، صبأ أبو عتبة ـ يعنى أبا لهب ـ فأقبلت قريشٌ على أبى لهب وقالوا: فارقت دين عبد المُطَّلب؟! فقال: ما فارقت، ولكن أمنع ابن أخى أن يُضام حتى يمضى لما يريد. قالوا:

---

(١) فتح البارى (٧/ ١٩٤)، تاريخ الطبرى (٢/ ٣٤٤)، البداية والنهاية (٣/ ١٣٤)، السيرة الشامية (٢/ ٤٣٥).

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم (٨/ ٣٠٨).

أحسنت وأجملت ووصلت الرحم. فمكث ﷺ على ذلك أيامًا لا يتعرض له أحد من قريش وهابوا أبا لهب إلى أن جاء إليه أبو جهل، وعقبة بن أبى مُعَيْط فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ـ أى المحل الذى يكون فيه ـ يزعم أنه فى النار. فقال أبو لهب: يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار؟ فاشتد عليه هو وسائر قريش[1].. انتهى.

وكان أحدهم يطرح عليه رَحِمَ الشاة وهو يُصلِّى، ويطرحها فى بُرْمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا يستتر به منهم إذا صلى.

وكان إذا طرحوا عليه ذلك يخرج به على عود ويقول: «يا بنى عبد مناف أىّ جوار هذا» ثم يلقيه.

وإلى ذلك يشير المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: (وَأَوْقَعَتْ قُرَيْشٌ بِهِ ﷺ) وبالمسلمين (كُلَّ أَذِيَّة) حتى إلى الفتك به واستئصاله والفراغ منه لو يقدرون على ذلك. من ذَلِكَ: ما وقع لأبى جهل لما أخذ حجرًا وهم أن يلقيه على رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجع منهزمًا منتقعًا لونه ـ أى متغيرًا ـ كلون الأموات وقد يبست يداه على حَجَره حتى قذفه من يده بعد أن عالجوا فكَّه من يده. وقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض فحلٌ من الإبل ما رأيت مثله قط همَّ أن يأكلنى. فلما ذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ قال: «ذاك جبريل، لو دنا لأخذه»[2].

قال بعضهم: وفيه نزل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾[3] إلى آخر السورة.. انتهى. فسبحان من كفاه وآواه، ووقاه وأظهر دينه على الأديان كلها وأسماه.

* * *

(١) الوفا ص (٢١٢)، الطبقات الكبرى (١/١/٤١).

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة.

(٣) سورة العلق: ٩، ١٠.

[سفره ﷺ إلى الطائف]

(وَ) لما تزايد البلاء وتفاقم الأمر (أَمَّ) أى قصد ﷺ ماشيًا (الطَّائِفَ) أى أهله ـ سمى بذلك لأن رجلاً من حضرموت[1] نزله فقال: ألا أبنى لكم حائطًا يحيط ببلدكم، فبناه، فسمى الطائف، أو لأن الطائف المذكور فى قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾ [2] هو جبريل ـ عليه السلام ـ على قول. اقتلع الجنة التى كانت بضروان على فراسخ أو فرسخين من صنعاء وكانت لرجل صالح، وكان ينادى الفقراء وقت الصرام ويترك ما أخطأه المنجل أو ألقته الريح، أو بعد من البساط الذى يبسط تحت النخلة، فيجتمع لهم شىء كثير، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما يفعل أبونا ضاق علينا، فحلفوا لَيَصْرِمُنَّها وقت الصباح خفية عن المساكين كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾ [3] أى لا يقولون إن شاء الله، أو لا يستثنون حصة المساكين ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [4] وهو الليل المظلم على قول، وأتى بها إلى مكة فطاف بها، ثم وضعها حيث مدينة الطائف، أو لغير ذلك أقوال.

وهو ﷺ مكروب متشوش الخاطر مما لقى من قريش من قرابته وعشيرته خصوصًا من أبى لهب وزوجته أم جميل حمَّالة الحطب من الهجو والسب والتكذيب.

وخروجه إلى الطائف كان فى شوال سنة عشر من النبوة، وحده، وقيل: ومعه مولاه زيد بن حارثة (يَدْعُو) ويطلب (ثَقِيفًا) القبيلة المشهورة، ويلتمس

(١) حضرموت: بلاد واسعة شرقى عدن قريبة من البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. (معجم البلدان ٢/ ٢٧٠).

(٢) سورة القلم: ١٩.

(٣) سورة القلم: ١٧، ١٨.

(٤) سورة القلم: ١٩، ٢٠.

منهم الإسلام رجاء أن يسلموا، أو يناصروه على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

قال فى الإقناع: لأنهم كانوا أخواله.

وقال فى «إنسان العيون»: قال بعضهم: ومن ثم - أى من أجل أنه ﷺ - خرج إلى الطائف عند ضيق صدره وتعب خاطره، وجعل الله الطائف مستأنسًا لكل من ضاق صدره من أهل مكة؛ كذا قال، وفى كلام غيره: ولا جرم أن جعل الله الطائف مستأنسًا لأهل الإسلام ممن بمكة إلى يوم القيام، فهى راحة الأمة، ومتنفس كل ذى ضيق وغمة ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (١) فليتأمل.. انتهى.

ولما انتهى ﷺ إلى الطائف عمد إلى سادات ثَقِيف وأشرافهم، وكانوا ثلاثة: أحدهم عبد ياليل(٢) واسمه كِنَانة، وأخوه مسعود وهو عبد كُلاَل بضم الكاف وتخفيف اللام، وحبيب(٣)، أولاد عمرو بن عُمَيْر الثقفى، فلما كلمهم فيما جاء به قال أحدهم: هو يَمْرط ثياب الكعبة - أى يسرقها - إن كان الله أرسلك!

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يُرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أُكلمك أبدًا؛ لئن كنت رسولاً كما تقول لأنت أعظم خطرًا، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك.

فقام من عندهم وقد أيس من خير ثَقِيف.

وهو معنى قول المصنف رحمه الله تعالى: (فَلَمْ يُحْسِنُوا بِالإِجَابَةِ قِرَاهُ) بكسر القاف؛ أى إكرامه، وقال لهم: «اكتموا علىَّ» وكره أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه، وقالوا له: اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض.

---

(١) سورة الفتح: ٢٣.

(٢) هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير، من سادة ثقيف وأشرافهم فى الجاهلية. الإصابة (٤/ ٣٨٤).

(٣) هو حبيب بن عمرو بن عمير، من سادة ثقيف. الإصابة (٢/ ٢١).

(فأَغْرَوا) بفتح الهمزة؛ أى سلطوا (به) أى عليه (السُّفَهَاءَ) منهم (وَالعَبِيدَ، فَسَبُّوهُ) شتموه (بِأَلْسِنَةٍ بَذِيَّةٍ) بكسر الذال المعجمة؛ فاحشة قبيحة، وصاحوا به حتى اجتمع عليه النَّاس (وَ) قعدوا له صفين على طريقه فلما مر (رَمَوْهُ بِالحِجَارَةِ) حتى جعل لا يرفع رجليه ولا يضعها إلا رضخوهما بالحجارة (حَتَّى) أى إلى أن (خُضِّبَتْ) بالبناء للمجهول مشدداً الضاد المكسورة؛ أى لونت (بِالدِّمَاءِ نَعْلاهُ) والمراد: أنهم أدموا ساقيه الكريمتين، فسال الدم على نعليه، وكان كلما أذْلَقَته[1] الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه، وهم يضحكون كل ذلك، وزيد بن حارثة رضى الله عنه ـ أى بناء على أنه كان معه ـ يقيه بنفسه حتى لقد شُجَّ شجَاجًا.

فلما خَلُصَ منهم ورجلاه تسيلان دمًا عمد إلى حائط من حوائطهم ـ أى بستان من بساتينهم ـ يستظل بكَرْمة وهو مكروب مُوجَع، وروى أنه ﷺ دعا بدعاء منه:

«اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوَّتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلهى إلى من تكِلنى، إن لم يكن بك غضبٌ علىَّ فلا أُبالى»[2].

ولما استقر ﷺ تحت ظل الكرم إذا فى الحائط[3] عتبة وشيبة ابنا ربيعة وقد رأيا ما لقى من سفهاء الطائف، فلما رآهما كره ذلك لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله، فتحركت له رحمهما فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عدَّاس معدود من الصحابة، مات قبل الخروج إلى بدر ـ وهو غير العَدَّاس الذى ذهبت به ﷺ خديجة إليه حين نزل عليه الوحى خلافًا لمن اشتبه عليه كما تقدم ـ فقالا: خذ قِطْفًا من هذا العنب ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، ففعل

(١) أذلقته: أى وجد الما ومسَّها.

(٢) أخرجه ابن كثير (١٦٣/٤)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٢١٥)، وعزاه الشامى للطبرانى وقال: رجاله ثقات (٤٣٩/٢).

(٣) الحائط: هو البستان إذا كان عليه حائط، وهو الجدار.

عَدَّاس، فلما وضعه بين يديه قال ﷺ: «بسم الله». ثم أكل، فقال الغلام: إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد. فقال له ﷺ: «من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟». قال: نصرانىٌ من أهل نِينَوى. فقال: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال: وما يدريك ما يونس؟ قال: «ذاك أخى من أنبياء الله تعالى». فأقبلَ يُقَبِّلُ رأسه ورجليه. فقال أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عَدَّاس قال له أحدهما: ويلك مالك تُقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ فقال: يا سيدى ما فى الأرض خيرٌ من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبىّ. قال: ويحك يا عَدَّاس لا يَصْرفنك عن دينك[1].

قال الخفاجى: وقد قال ﷺ: إن هذا أشد ما لقيه، والقصة مفصلة فى السير. قال ابن حجر: وفى الصحيحين أنه لقى منهم أشد مما لقيه يوم أحد.

(ثُمَّ) بعد أن قام بالطائف عشرين يومًا وقيل: شهراً لا يدع أحدًا من أشرافهم زيادة على عبد ياليل وأخويه إلا جاء إليه وكلّمه ولم يُجبه أحد (عَادَ) رجع إلى (إِلَى مَكَّةَ) حال كونه (حَزِينًا) على ما فاته من عدم إسلامهم وموافقتهم على نصرته.

(فَـ) بينما هو ﷺ فى أثناء الطريق (سَأَلَهُ مَلَكُ الجِبَالِ فِى) أن يأذن له بإطباق الأخشبين: وهما أبو قُبَيْس، وقُيْقعان و (إِهْلاَكِ أَهْلِهَا ذَوِى) أصحاب (العَصَبِيَّةِ) التعصب والجاهلية (فَقَالَ) ﷺ: لا أشاء ذلك، بل وأصبر على أذاهم فَـ (إِنِّى أَرْجُو أَنْ) يؤول الحال بهم إلى الخير والإسلام أو (يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ) جمع صلب وهى عظام الظهر؛ أى ظهورهم (مَنْ) يعبد الله وحده و (يَتَوَلاَّهُ) الله يكون وليّا وناصراً له.

وأصل ذلك ما أخرجه البخارى، ومسلم من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدَّ عليك من يوم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٥)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤١٤)، البداية والنهاية (٣/ ١٣٦)، سيرة ابن هشام (٢/ ٢٨)، السيرة الشامية (٢/ ٤٣٨)، الوفا ص (٢١٥).

أحد؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومُ العقبة، إذ عَرَضْتُ نفسى على عبد ياليل بن عبد كُلاَل فلم يُجبنى إلى ما أردت، فانطلقتُ على وجهى وأنا مهمومٌ فلم استفِقْ إلا وأنا بقَرْن الثعالب[1]، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتنى، فنظرت فإذا فيها جبريلُ، فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فنادانى مَلَك الجبال فسلَّم علىَّ فقال: يا محمد، ذلك لك فما شئت، إن شئت أن أُطْبق عليهم الأخشبين فعلت ـ وهما جبلان يضافان تارة إلى مكة، وتارة إلى منى، فمن الأولى القول بأنهما أبو قُبَيْس وقيقعان، وقيل: الجبل الذى يقابل أبا قُبَيْس المشرف على قيقعان، ومن الثانية: القول بأنهما الجبلان اللذان تحت العقبة بمنى فوق المسجد، وفيه: أن ثَقيفًا ليسوا بينهما بل الجبلان خارجان عنهم فكيف يطبقهما عليهم، ويجاب: أن المراد إطباقهما عليهم بعد نقلهما من محلهما إلى محل ثَقِيف الذى هو الطائف؛ لأن القدرة صالحة، وفى لفظ: إن شئت خسفت بهم الأرض، أو دمدمت عليهم الجبال ـ فقال ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يُشرك به شيئًا»[2]. . انتهى.

قال فى «إنسان العيون» وعند ذلك قال له ملك الجبال: أنت كما سمَّاك ربك رؤوف رحيم[3]. . انتهى.

وإلى حلمه وإغضائه ﷺ أشار صاحب الهُمَزِية بقوله:

جَهِلَتْ قومهُ عليه فأَغْضَى ... وأخوُ الحلْمِ دأبهُ الإغضاءُ

وَسِعَ العالمينَ عِلْمًا وحِلْمًا ... فهو بَحْرٌ لم تُعْيِهِ الأعبَاءُ[4]

---

(١) قَرْن الثعالب: هو قرن المنازل، ميقات نجد تلقاء مكة على يوم وليلة منها وأصله الجبل الصغير المستطيل المنقطع عن الجبل الكبير.

(٢) أخرجه البخارى (٣٢٣١)، مسلم (بدئ الخلق ١٧٩٥).

(٣) عزاه الشامى فى سيرته لابن أبى حاتم مرسلاً (٢/ ٤٤٠).

(٤) المجموعة النبهانية (١/ ٨٦).

وعدل ﷺ إلى حِراء، وخشى أن يدخل مكة إلا فى جوار، فبعث إلى الأخنس بن شَرِيق ليجيره، فقال: أنا حليفٌ والحليف لا يُجير. فبعث إلى سُهَيْل بن عمرو فقال: إن بنى عدىّ لا تُجير على بنى كعب، فبعث إلى المطْعِم بن عدىّ فأجابه إلى ذلك، وتسلح هو وأهل بيته، وقعد فى المسجد، وبعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل وعد إلى بلدك، فدخل مكة فى جوار المطْعِم بن عدىّ، ولا بدع فى دخوله ﷺ فى أمان كافر؛ لأن حكمة الحكيم القادر قد تخفى.

ثم لم يزل أصحابه ﷺ وأعوانه يكثرون ويتقوون على أعدائهم شيئًا فشيئًا إلى أن أمكنه الله من نواصى أعدائه فأذاق من بقى منهم على كفره الهوان، وأدخل من خضع منهم لعزته مأمن البقاء والأمان.

وقد أشار صاحب الهُمَزِية ـ رحمه الله ـ إلى أن هذه الأذيَّات لا يظن ظانٌّ أنها منقصة له ﷺ بل هى رفعة ومكانة عند ربه؛ لكثرة صبره ﷺ، وحلمه، واحتماله، مع علمه ﷺ باستجابة دعائه، ونفوذ كلمته عند الله تعالى. وقد قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام»[1]. وذلك سنة من سنن النبيين السابقين عليهم الصلاة والسلام بقوله:

لا تَخَلْ جَانِبَ النَّبِىِّ مُضَامًا ... حينَ مَسَّتْهُ منهمُ الأسْوَاءُ[2]

كُلُّ أمرٍ نابَ النَّبيينَ فالشِّـ ... ـدَّةُ فيـه محمودةٌ والرَّخـاءُ

لو يَمَسُّ النُّضَارَ هونٌ من النَّا ... رِ لَمَـا اختيرَ للنُّضَارِ الصِّلاَءُ[3]

أى لا تظن أن النبى ﷺ حصل له الضَّيم وقت مسّه الأذيَّات حالة كونها صادرة منهم؛ لأن كل ما يُلاقيه الأنبياء من مقاساة الأهوال والشدائد زيادة فى

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/٣٤٣). وانظر: كنز العمال (٦٧٨٠، ٦٧٨١)، المغنى عن حمل الأسفار للعراقى (٤/٢٨)، إتحاف السادة المتقين (٨/١٢١).

(٢) ضامه: أى ظلم. والأسواء: الإساآت.

(٣) النضار: الذهب. والهون: الإهانة. والصلاء: العرض على النار.
والأبيات فى المجموعة النبهانية (١/ ٨٤).

عظم شأنهم، وعلو قدرهم، وجميل صبرهم، وكمال فضلهم؛ لأنه لو كان يمس الذهب هوانٌ من إدخاله النار لما اختير له العرض على النار، فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كالذهب، والشدائد التى تصيبهم كالنار التى يعرض عليها الذهب، فإن ذلك لا يزيد الذهب إلا حسنًا، فكذلك الشدائد لا تزيد الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إلا رفعة. والله أعلم.

وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى:

وإذا أرادَ الله نَشْرَ فضيلة طويتْ ... أتاحَ لها لسان حسودْ

لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعْرَف طيب عَرْف العودْ

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْه)

* * *

[الإسراء والمعراج]

(ثُمَّ) بعد أن بعثه الله رحمة للعالمين ـ اتفاقًا ـ خصه بما لم يقع لغيره من الخلق أجمعين و (أُسْرِىَ) بالبناء للمفعول للعلم بالفاعل وأنه الله تعالى ـ ليلا؛ لأن الإسراء هو سير الليل. وإذا أطلق فهم أنه واقع ليلاً، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [1] أن الأمر وإن كان كذلك إلا أن العرب تفعل مثل ذلك فى بعض الأوقات إذا أرادت تأكيد الأمر، والتوكيد نوع من أنواع كلامهم وأسلوب منه، كقولهم: أخذ بيده، وقال بلسانه. قال بعضهم: وفائدة التأكيد رفع توهم المجاز؛ لأنه يطلق على النهار أيضًا، وقيل: غير ذلك.

وقد علمت أن الإسراء وقع بعد البعثة بالاتفاق، واختلفوا فى عامه وشهره وليلته واليوم الذى يسفر عن ليلته.

أما عَامَه: فعلى قول الزهرى ومن وافقه: بعد المبعث بعام ونصف، وقيل: قبل الهجرة بسنة وهو الأصح وبه جزم ابن حزم وبالغ وادّعى فيه الإجماع. وقيل: بسنتين، وقيل: بثلاث سنين. قال القاضى فى «الشفا»: وقد قيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجرة، وهو الأشبه. . انتهى. وقيل غير ذلك.

وأما شهره وليلته: فقيل: ليلة سبع وعشرين من رجب وهو الراجح واختاره الحافظ عبد الغنى المقدسى، واعتمده جمع من العلماء، وعليه عمل الناس، وقيل: ليلة سبع عشرة، وقيل: سبع وعشرين خلت من ربيع الأوّل، وقيل: ليلة سبع عشرة خلت من رمضان، وقيل: سبع وعشرين من ربيع الآخر، وقيل: فى شوّال، وقيل: فى ذى القعدة.

وأما اليوم الذى يسفر عن ليلته: فقيل: الجمعة، وقيل: السبت، وقال ابن

---
(1) سورة الإسراء: ١.

دحية: يكون الإثنين إن شاء الله تعالى ليوافق المولد، والبعثة، والهجرة، والوفاة.

وتقدم الكلام فى أفضلية تلك الليلة بالنسبة له ﷺ على ليلة القدر بل وعلى ليلة مولده ﷺ فى مقدمة الكتاب.

وحكمة الإسراء به ليلا: لأنه وقت الخلوة، والاختصاص وقت الاجتهاد للعبادة عرفًا؛ لأنه وقت الصلاة التى كانت مفروضة عليه فى قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ وليكون أبلغ للمؤمن فى الإيمان بالغيب، وفتنة للكافر. وقال بعض أهل الإشارات: لما محا الله آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر الليل، فجبر بأن أُسرى فيه بمحمد ﷺ.

وقدم الحق تبارك وتعالى الليل على النهار فى غير ما آية قرآنية. وقد اختلف فى التفضيل بين الليل والنهار وصنف فيه بعضهم كتابًا فرجَّح الليل بوجوه كثيرة منها ما تقدم، ومنها غير ذلك؛ وأعظمها وقوع رؤية الله تعالى فيه للنبى ﷺ، ونزول القرآن فيه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [1].

ومن ألطف ما قيل فى حكمة ذلك: أنه البدر الذى يُهتدى به، وأنشد فى هذا المعنى:

قيل لى سيدى فكم تؤثر الليل ... على بهجة النهار المنير
قلت لا أستطيع تغيير رسمى ... هكذا الشان فى طلوع البدور
إنما سرت فى الظلام لكيما ... يشرق البدر من أشعة نور

(برُوحه) الروح هو ما به حياة الجسم، ويؤنث. وتقدم الكلام عليه (وَجَسَده) ﷺ. (يَقَظَةً) بفتح القاف وسكونها؛ وهم لا منامًا، مرة واحدة فى ليلة واحدة عند جمهور المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغى العدول عنه. وقيل: وقع ذلك مرة

(١) سورة القدر: ١.

منامًا، ومرة يقظة، فلا ينافى حديث البخارى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن الاسراء كان قبل أن يوحى إليه؛ لأن ذلك كان فى نومه بروحه الشريف فكان توطئة له وتيسيرًا عليه كما كان بدء نبوته ﷺ الرؤيا الصادقة.

وقيل: الإسراء فى ليلة، والمعراج فى ليلة. وقيل: الإسراء يقظة، والمعراج منامًا. وقيل: الخلاف فى أنه يقظة أو منامًا خاص بالمعراج. وقيل: أسرى به مرتين يقظة: الأولى بلا معراج، والثانية به. وفى كلام الشيخ عبد الرحمن الشعرانى ـ رحمه الله ـ أن الإسراء به ﷺ كانت أربعًا وثلاثين؛ واحد منها بجسمه أى وروحه الشريف ﷺ.

وقد صرح القرآن العظيم بأن الإسراء كان (مِنَ الْمَسْجِدِ) كمفعل بالكسر؛ اسم لمكان السجود على غير قياس إذ قياسه بالفتح للزمان والمكان والحدث؛ لأن مضارعه مضموم العين. وأما شرعًا فكل موضع من الأرض موقوف للصلوات الخمس فيه، فخرج المصلَّى المجتمع فيه للأعياد وغيرها فلا يُعطى حكمه، وكذا الرّبط والمدارس فإنها هيئت لغير ذلك. ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه، فقيل: مسجد، ولم يقولوا: مركع.

(الْحَرَامِ) تقدم سبب تسميته بذلك (إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) أفعل من قصى، والقاصى: هو البعيد، وسمى بالأقصى: لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام فبينهما مسافة ثلاثين يومًا عادة، أو لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد فثبت له هذا النعت، وإن كان قد حدث وراءه بعد مساجد هى أقصى منه؛ لأن العلمية إذا ثبتت لسبب لا يضر زوال السبب؛ فكان أقصى أى أبعد مسجد من أهل مكة، أو من العرب، أو من الكعبة، أو من النبى ﷺ. ويحتمل أن يراد بالأقصى: البعيد دون مفاضلة؛ فأفعل التفضيل ليس على بابه.

وأوّل مسجد وضع على الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وتقدم أن أوّل من بنى المسجد الحرام الملائكة، وأما المسجد الأقصى فأوّل من أسسه

يعقوب بن إسحاق بعد بناء إبراهيم الكعبة بأربعين عامًا، ومازال مُكرَّمًا مُحترمًا. وهو أحد المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال شرعًا إلا إليها، وقد عمَّره نبى الله سليمان ﷺ بأمر الله عز وجل وهو معدن الأنبياء من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولذا اجتمعوا له هناك كلهم، وأمَّهم فى محلتهم ودارهم، ليدل ذلك على أنه الرئيس المقدم والإمام الأعظم ﷺ.

وكلمة: ﴿إِلَى﴾ فى قوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ لانتهاء الغاية. ومدلولها هنا: أنه وصل إلى حد ذلك المسجد، ولا دلالة فى اللفظ على أنه دخله لكن القرينة تدل على دخوله وهى العلم بأنه إنما يُسرى به إلى بيت المقدس ليدخله، ويبعد أن يُسرى به إلى بيت المقدس ولا يدخله. وقد صرحت السنة الصحيحة بأنه ﷺ دخله.

والحكمة فى الإسراء به إلى بيت المقدس ثم منه عرج به إلى السموات ما ذكره الحافظ فى «فتح البارى»، والنجم الغيطى فى «الابتهاج» عن العارف ابن أبى جَمْرَة: أن الحكمة فيه إظهار الحق على من عانده؛ لأنه لو عُرِجَ به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، فلما ذكر أنه أُسرى به إلى بيت المقدس سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بما حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس فى ليلة، وإذا صح خبره فى ذلك لزم تصديقه فى بقية ما ذكر.. انتهى. فكان ذلك زيادة فى إيمان المؤمن، وزيادة فى شقاء الجاحد المعاند، وهو قابل للبحث.

وقيل: الحكمة فيه: الإشارة إلى استقامة أحواله ﷺ؛ لأن بيت المقدس محاذ لباب سماء الدنيا الذى دخلها منه فيكون الصعود منه مستقيمًا، وأحواله ﷺ كلها مستقيمة. وقيل: الحكمة فيه غير ذلك.

(ورِحَابِه) جمع رحبة هى فناء الدار، والمراد: ما حوله **(القُدُسِيَّة)** المنسوبة للقدس بسكون الدال وضمها، ويقال: القدوس وهو الطهارة أى المطَهرة؛ لأن

الله طهره وما حوله بإخلائهما عن الأصنام، وجعله مقر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومتعبدهم، ومهبط الوحى والملائكة.

تنبيه

قال شيخنا: والإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، فمن أنكره كفر، والمعراج من المسجد الأقصى إلى السموات السبع ثابت بالأحاديث المشهورة ومنها إلى الجنة، ثم إلى المستوى أو العرش أو طرف العالم من فوق العرش - على الخلاف فى ذلك - ثابتٌ بخبر الواحد، فمن أنكره لا يكفر لكن يفسق.

والتحقيق: أنه لم يصل إلى العرش كما نصوا عليه فى موارد القصة، وسيأتى فى أواخر المبحث عن الشيخ القزوينى وغيره إبطال قول من قال بوصوله إلى العرش ووطئه له بنعله وأن ذلك لم يثبت فى خبر صحيح، ولا حسن، ولا ثابت أصلاً.

وقد جاءت بتفصيل الإسراء والمعراج وشرح عجائبهما أحاديث كثيرة[1] عن جماعة من الصحابة من الرجال والنساء نحو ثلاثين وحاصلهما:

أن رسول الله ﷺ جاءه جبريل - وفى أخرى وميكائيل؛ وفى أخرى ذكر ثالث - وهو فى بيت أم هانىء بعد أن انفرج سقف بيته، فأخرجه المَلَك منه إلى المسجد، فاضطجع لأثر نعاس كان به، ثم تولاه منهم جبريل فشقَّ من ثُغْرَةِ نَحْره إلى أسفل بطنه - وفى رواية إلى شعرته - ولم يسل منه دم، ولم يجد له ألمًا - كما تقدم التصريح به فى بعض الروايات لأنه من خرق العادات وظهور المعجزات - ثم قال جبريل لميكائيل: ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أُطَهِّرَ قلبه وأشرح صدره، فأستخرج قلبه، فَغَسَله ثلاث مرات، ونزع ما فيه من أذى - والمراد ما يكون من الجبليات البشرية استقصاء له، ومبالغة فى

(١) ينظر: البخارى (٤٧٠٩)، مسلم (الإيمان: ٢٧٢)، مسند أحمد (٢/ ٢٨٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٧٧)، السيرة الشامية (٣/ ٧٩)، الخصائص الكبرى (١/ ٢٥٢).

تطهير قلبه الشريف، وذكر العلقة فى غير المرة الأولى وهو فى بنى سعد، وقول المَلَك: هذا حظ الشيطان منك، وَهْمٌ من بعض الرواة كما تقدم تحقيق ذلك مبسوطًا ـ.

واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسوت من ماء زمزم، ثم أتى بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا ـ والمراد كمالهما فلا ينافى ما تقدم فى قصة الرضاع ـ فأفرغه فى صدره وملأه حِلْمًا، وعِلْمًا، ويقينًا، وإسلامًا ـ وكل هذه معان والله قادر على تجسيمها كما تقرر فيما تقدم ـ ثم أطبقه، ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوّة، ثم أُتِى بالبُرَاق مُسْرَجًا مُلْجَمًا ـ وهو دابة؛ أى يشبهها إذا ليس هو ذكر ولا أنثى ولا هو من جنس ما يركبه الآدميون. قال القليوبى: ويذكر ويؤنث؛ فلذلك اختلفت الروايات فى إعادة الضمير إليه. وهو من ذوات الأربع كما يؤخذ من قوله مُسْرَجًا مُلْجَمًا. انتهى ـ دون البغل وفوق الحمار، أبيض، يضع حافره عند منتهى طرفه، مضطرب الأذنين، إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه ـ وهذا أبلغ من الطيران ـ فاستصعب عليه، فوضع جبريل يده على مَعْرَفته ثم قال له: ألا تستحى يا بُرَاق؟ فوالله ما ركبك قطّ أكرم على الله منه. فارْفَضَّ عرقًا، وقَرَّ حتى ركبه ـ[1].

واختلفوا فى حكمة نفرته منه، فقيل: ليعرّفه جبريل راكبه رتبته. وقيل: ليعده أن يركبه إلى المحشر ليختص بذلك دون بقية أفراد جنسه التى أعدّها الله له فى الجنة ترعى فى مروجها وهى أربعون ألف براق. وقيل: عجبًا وتيهًا بركوب هذا الجناب العظيم له. وقيل: لبعد عهده بركوب الأنبياء. وقيل: غير ذلك.

وكان الأنبياء يركبونه، وفى كلام ابن دِحْية: أنه لم يركبه أحدٌ غير نبينا ﷺ، ووافقه على ذلك الإمام النووى، ومن ثم عدَّه الجلال السيوطى فى «الخصائص الصغرى» من خصائصه على أحد القولين، والمعتمد الأول.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٤)، الترمذى (٣١٣١) وقال: حسن غريب. والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٦٢).

وقيل: أن الذى خُصَّ به ركوبه مُلجمًا مُسرجًا. وإنما لم يكن على شكل الفرس إشارة إلى أن ركوبه فى سِلم وأنس لا حرب وخوف، وركوبه ﷺ البغلة فى الحرب؛ لأنه عنده كالسلم لقوة شجاعته وشدة توكله، وإلى ظهور هذه المعجزة بوقوع هذا الإسراع الباهر من دابة على هذا الشكل؛ إذ هى أبلغ من حمله إلى ذلك المحل، ومن حمل الريح أو الملائكة أو الجن كما وقع لسليمان عليه الصلاة والسلام بل فى كون أعظم الملائكة خُدَّامًا له هنا الغاية القصوى فى الشرف وعلو المرتبة.

وصح أن جبريل حمله على البراق رديفًا له وفى بعض الروايات: وجبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يساره. وعند أبى سعيد: كان الآخذُ بركابه جبريل، وبزمام البراق ميكائيل، فساروا حتى مروا بيثرب، فأمره جبريل أن ينزل ويصلى، وبمدين[1] فأمره بذلك، وببيت لحم[2] الذى ولد فيه عيسى عليه السلام فأمره بذلك. وأراه عجائب أخرى إلى أن وصل إلى بيت المقدس ودخل من بابه اليمانى، ثم نزل فربطه النبى ﷺ بالحلقة التى تربطه بها الأنبياء عليهم السلام. وفى رواية: أن جبريل عليه السلام ربطه. ويجمع بأن النبى ﷺ ربطه بالحلقه خارج باب المسجد تأدبًا، فأخذه جبريل فربطه فى زاوية المسجد فى الحَجَر الذى هو الصخرة التى خرقها بأصبعه وجعله داخلاً عن باب المسجد، فكأنه يقول له ﷺ إنك لست ممن يكون مركوبه على الباب بل يكون داخلا.

والمراد بالصخرة: الحَجَر الذى بالباب لا الصخرة المعروفة كما هو المتبادر من بعض الروايات. ثم دخل النبى ﷺ، وبعث الله له جماعة من الأنبياء، وفى رواية أُتى بأرواح الأنبياء. قال فى «المنح»: أى مع أجسادهم لرواية: ثم

(١) هى مدينة قوم شعيب، وهى قريبة من تبوك، وبها البئر التى استقى بها موسى لغنم شعيب، وهى واقعة الآن فى الأردن.

(٢) هى بلدة قرب بيت المقدس ولد بها عيسى عليه السلام، وهى الآن قريبة من مدينة القدس بفلسطين. (مراصد الاطلاع ١/٢٣٨).

دخلتُ المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد. وهذا هو الراجح؛ لأن الأنبياء أحياء فى قبورهم على الراجح يصلون ويصومون ويحجون زيادة فى أجورهم؛ إذ لا تكليف بعد الموت.

ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفًا، فقدمنى جبريل فصليت بهم. وقد اختلف فى هذه الصلاة هل كانت فرضًا أو نفلاً. وإذا قلنا إنها كانت فرضًا، فهل الصبح أو العشاء؟ وقد قيل بكل، وليسا بشىء سواء قلنا صلى بهم قبل العروج أو بعده؛ لأن أوّل صلاة صلاها النبى ﷺ من الخمس مطلقًا الظهر بمكة بالاتفاق، ويمكن حملها على الصلاتين المفروضتين عليه بالغداة والعشى قبل ليلة الإسراء فلا ينافى الاتفاق المذكور. ومن ثم قال بعضهم: من الصلاة المفروضة عليه قبل ليلة الإسراء. وفى «فتاوى النووى» ما يؤيده، لكن قال فى «إنسان العيون»: والذى يظهر والله أعلم أنها كانت من النفل المطلق، ولا يضر وقوع الجماعة فيها إذ الغرض من تلك الصلاة الإعلام بعلو مقامه، وأنه المقدم لا سيما فى الإمامة وإن لم تكن شرعت إذ ذاك الجماعة.

وفى رواية لأحمد: فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. وفيها زيادة على رواية جماعة منهم فيؤخذ بتلك الزيادة. ثم أثنى كل نبى من المرسلين على ربه بثناء جميل، فقال النبى ﷺ: «كلكم أثنى على ربه وأنا مُثْنٍ على ربى» ثم شرع يقول بما ألهمه الله: «الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل علىَّ الفرقان فيه تبيان كل شىء، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتى وسطًا، وجعل أمتى هم الأوّلون والآخرون، وشرح لى صدرى، ووضع عنى وزرى، ورفع لى ذكرى، وجعلنى فاتحًا خاتمًا» فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: بهذا فضلكم محمد ﷺ.

وفى رواية البخارى: أُتى ﷺ ليلة الاسراء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن، فقال جبريل: الحمد لله الذى هداك للفطرة، لو أخذت

الخمر لغوت أمتك ولم يتبعك منهم إلا القليل[1].

(وَ) لما فرغ ﷺ من إمامته نُصِبَ له المعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم فلم تر الخلائق أحسن منه. أما ترى الميت حين يشق بصره طامحًا إلى السماء بعد خروج روحه فإن ذلك عجبه بالمعراج الذى نصب لروحه لتعرج عليه، وذلك شامل للمؤمن والكافر إلا أن الكافر تردّ روحه بعد عروجها تحسّرًا وندامة، وتبكيتًا له.

ولذلك المعراج مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب أى عشر مراقى، وهو المراد بقول بعضهم: كانت المعاريج ليلة الإسراء عشرة: سبع إلى السموات، والثامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى المستوى، والعاشر إلى العرش والرفرف؛ فأطلق على كل مرقاة معراجًا.

قال بعضهم: وكانت الدرجة؛ أى المرقاة تهبط كالإبل ليصعد عليها النبى ﷺ فترفعه إلى مكانها، والظاهر أن درج المعراج كدرج الجنة بين كل درجة خمسمائة عام. قال بعضهم: وهو من جنة الفردوس منضد باللؤلؤ، عن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة.

و (عُرِجَ) بالبناء للمفعول أى صُعِدَ (بِهِ) ﷺ فى تلك الليلة ومعه جبريل ـ عليه السلام ـ وتركا البراق مربوطًا بالصخرة إلى عودهما ليركبه ﷺ مع رجوعه بعد نزوله إلى مكة. وما قيل أنه صعد عليه، وأنه كان يصعد به إلى كل سماء فى خطوة لأنه يضع حافره عند منتهى طرفه كما مر وهو ينظر كل سماء من الأخرى خيال باطل ووهم فاسد وأبطله القليوبى؛ لوجوه ذكرها فى شرحه على قصة المعراج فراجعه.

(إِلَى السَّمَوَاتِ) السبع كما فى رواية ابن هشام والبيهقى وغيرهما. وبين السماء والأرض خمسمائة سنة كما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة،

(١) أخرجه البخارى (٣٨٨٧)، أحمد فى مسنده (٤/٢٠٨)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٧٧)، المنتظم لابن الجوزى (٣/٢٦)، شرح السنة (١٣/٣٣٧).

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة، وكسف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض».

وفى رواية عن أبى هريرة: «وفى السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله ـ أى مع إضافة بعد ما بين الأرضين إليه كما فى الرواية ـ ثم فوق ذلك ثمانية أوعال[1] بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم الله تعالى فوق ذلك» أى سلطانه وملكه وعظمته.

ويصير مجموع ما ذكر فى هذه الرواية مسيرة عشرة آلاف سنة؛ أى من سنى الدنيا على معنى أنه لو فرض مشى الإنسان لقطع مقدار ذلك فى عشرة آلاف سنة كما يؤخذ من تفسير البيضاوى وحواشيه لزاده وغيره عند قوله تعالى فى سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2].

ولم يتعرض فى الرواية لمقدار ما بين ركب الأوعال وظهورهن فليحرر.

وروى الطبرانى فى «الأوسط»، وابن راهويه وغيرهما عن الربيع بن أنس قال: السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية مرمرة بيضاء، والثالثة حديد، والرابعة نحاس، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء.

زاد ابن أبى حاتم: وما فوق ذلك صحارى من نور، ولا يعلم ما فوق ذلك إلا الله سبحانه وتعالى. وهذا كما تراه مخالف لما مر من أن فوق ذلك بحر وفوق البحر ثمانية أوعال. . . إلخ.

---

(١) حديث الأوعال لم يصح. قبح الله واضعه.

(٢) سورة المعارج: ٤.

ويحتمل أن يقال: أن المراد أن تلك الصحارى فوق تلك الأوعال التى فوق البحر، وفوق الجميع العرش كما قاله الحلبى فى «حواشيه على الابتهاج» للنجم الغيطى، لكن قال القليوبى فى «معراجه»: إن هذه الأوعال لم تصح روايتها عند أهل السنة، ولم يقل بها علماء الهيئة، ولم يوجد ما يدل عليها فى المعاريج الآتية.. انتهى.

قال بعضهم: وكان العروج به ﷺ من القبة التى يقال لها قبة المعراج عند يمين الصخرة، وادَّعى عدم الاختلاف فى ذلك، فلما ارتفعت المرقاة بهما صاعدة تبعتها الصخرة أيضًا صاعدة، فقال لها جبريل: قفى، فوقفت محلها، وهى كذلك إلى يوم القيامة. وكانت النساء إذا دخلن تحتها يفزعن منها وتسقط الحوامل من شدة الفزع، فبنى تحتها جدار قصير لدفع ذلك، قاله القليوبى - واستمرا فى صعودهما حتى انتهيا - أو انتهى النبى ﷺ لأنه المقصود وجبريل تابع - إلى باب سماء الدنيا، فاستفتح جبريل فانفتح (فَرأَى) ﷺ أى عاين وأبصر (آدَمَ) عليه الصلاة والسلام، قيل: اسم أعجمى ولذا منع من الصرف، وقيل: عربى مشتق من أديم الأرض أى ظاهر وجهها، سمى به لخلقه منه، أو من الأدمة وهى منزلة بين البياض والسمرة. وأصله أأدم أبدلت الهمزة ألفًا، وعلى أنه عربى يكون منع صرفه للعلمية ووزن الفعل، ويقال له: الخليفة، ويكنى أبا محمد، وأبا البشر، والإنسان.

وفى صحيح مسلم: «إن الله خلق آدم يوم الجمعة»[1] واختصه بأمور: خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، واصطفاه، وأكرم ذريته، وعلمه جميع الأسماء، وجعله أول الأنبياء، وعلمه ما لم يعلمه الملائكة المقربين، وجعل من نسله الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين.

وفى حديث أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال: رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر

(١) الجامع الكبير (٢/ ٤٥٢).

الأرض؛ جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب»[1].

وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى:

النَّاسُ كالأرضِ ومنها هُمُ ... مِنْ خَشَنِ اللمسِ وَمِنْ لينِ

فجلمد تدمى به أرجل ... وأثمد يوضعُ فى الأعيُنِ

وذلك بعد أن خرقا البحر الذى بين السماء والأرض المسمى بالمكفوف الذى جميع بحار الدنيا بالنسبة إليه كقطرة من البحر المحيط[2]، وقيل: إنه من الرمل. وهذا أبلغ وأعظم من انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام.

وهكذا يقال فى البحر الذى فى السماء السابعة على ما مر **(فِى)** السماء **(الأُولَى)** أى سماء الدنيا؛ لكونها أقرب السموات، ولكونه أول الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ناسب أن يكون فى أول السموات وذلك بعد أن استفتح جبريل - كما مر - فقيل: من بالباب؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَ قَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبًا به وأهلاً حيّاه الله من أخٍ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. وهكذا فى كل سماء إلى السماء السابعة.

وفى استفتاح جبريل دليلٌ على أنه صادف أبواب السموات مغلقة، وإنما لم تهيأ للنبى ﷺ وإن كان أبلغ فى الإكرام لئلا يظن أنها لا تزال مفتوحة، وليعلم أن ذلك فُعِلَ من أجله تشريفًا له ﷺ.

وقول الخازن: من معك؟ يُشعر بأنهم أحسوا معه برفيق وإلا لكان السؤال أمعك أحد؟ وذلك الإحساس إما بمشاهدة؛ لكون السماء شفافة، وإما لأمر معنوى بزيادة النور.

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٩٥٥) وقال: حسن صحيح، أبو داود (٤٦٩٣)، أحمد فى مسنده (٤/ ٤٠٠)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١).

(٢) السيرة الشامية (٣/ ١١٧)، وعزاه لابن حبيب.

وفى إخبار جبريل باسمه محمد دليلٌ على أن الاسم أرفع من الكُنْيَة.

وقول الخازن أوَ قَدْ أُرْسِلَ إليه؟ فيه دليلٌ على أن أهل العلم العلوى يعرفون رسالته ومكانته؛ لأنهم سألوا عن وقتها لا عنها ولذا أجابوا بقولهم: مرحبًا به، ونعم المجىء جاء.

وقول الخازن مرحبًا به... إلخ، دليلٌ على أن الحاشية إذا فهموا مِن سيدهم عزّا وإكرامًا لوافد أن يبشروه بذلك، وإن لم يأذن لهم فيه، ولا يكون فى ذلك إفشاء للسر؛ بل هو من تعجيل البشرى.

(وَ) الحال أنه (قَدْ جَلَّلَهُ) بفتح الجيم وتشديد اللام؛ أى غطَّاه وستره (الوَقَارُ) بفتح الواو والقاف؛ أى الحلم والرزانة (وَعَلاَهُ) هو لازم لما قبله أى ستره وعمه قُرِىءَ بفتح اللام المخففة وهو الأظهر كما قال بعضهم. ويحتمل تشديدها أى جعله عاليًا وهو كناية عن تعظيمه. فقال: «يا جبريل من هذا؟» قال: أبوك آدم، فَسَلِّم عليه. قال ﷺ: «فسلمت عليه» فقال: مرحبًا بالنبى الصالح والابن الصالح، ودعا له بخير. ورأى عن يمينه أرواح المؤمنين فإذا نظر إليهم ضَحِك، وعن يساره أرواح الكفار فإذا نظر إليهم بكى ـ أى أنه يكشف له عنهم وهم فى النار التى هى مستقر أرواحهم ـ ورأى النيل والفرات ـ أى انتهاءهما بالنسبة إلى السموات وإلا فابتداؤهما من سدرة المنتهى كما يأتى.

وحكمة رؤيته لآدم فى السماء الأولى التى هى سماء الدنيا ما مر، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة فى أول انتقاله إلى العالم العلوى، وللإشارة إلى ما سيقع له من نظير ما وقع لآدم، فإنه كان فى أمن من جوار الله فى الجنة فأخرجه عدوه إبليس منها، وهذه القصة يشبهها الحالة الأولى من أحوال النبى ﷺ وهى هجرته إلى المدينة وخروجه من حرم الله تعالى وجوار بيته، وكان أعداؤه سببًا لخروجه؛ لتماديهم على إيذائه وتواطئهم على ذلك وهمّهم بقتله فكربه ذلك وغمه، وشقّ عليه لفراق مألفه ووطنه كما وقع لآدم عند خروجه

من الكرب والغم والبكاء على فراقها.

(وَ) رأى (فِي) السماء (الثَّانِيَة) كما فى رواية وهو الأصح، وفى أخرى أنه رأى عيسى ويحيى فى الثالثة ـ ابنى الخالة ـ وفى الثانية يوسف عليه السلام.

(عِيسَى) لفظ عبرانى معناه السيد، وقيل: من العَيَس بفتح العين والياء وهو بياض تعلوه حمرة لبياض لونه، ويقال له: المسيح، عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، المذكور فضله فى غير آية قرآنية، وتقدم أنه رُفع إلى السماء وهو ابن ثمانين أو ثلاث وثلاثين سنة، ومدة بقائه فى السماء ـ كما قاله السيوطى ـ ليست محسوبة من عمره، فهى كحياة الأرواح لا يحتاج فيها لمأكل ومشرب، وقيل: قُوتُه التسبيح كالملائكة، وهو حىٌّ إلى أن ينزل إلى الأرض فى آخر الزمان.

وحكمة نزوله دون غيره من الأنبياء: الرد على اليهود فى زعمهم أنهم قتلوه فيبين الله كذبهم وأنه الذى يقتلهم. وقيل: حكمته دنو أجله ليدفن فى الأرض إذ كل مخلوق من تراب لا يموت فى غيره. انتهى من كلام ابن قاسم فى «الإفتاء».

ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقى دمشق ـ أى وهى موجودة اليوم ـ واضعًا كفيه على أجنحة مَلَكين لست ساعات مضين من النهار، حتى يأتى مسجد دمشق يقعد على المنبر، فيدخل المسلمون المسجد، وكذا النصارى واليهود، وكلهم يرجونه، ويأتى مؤذن المسلمين ثم يؤذن، وتخرج اليهود والنصارى من المسجد، ويُصلى بالمسلمين صلاة العصر.

ويكون مقرِّرًا للشريعة النبوية لا رسولاً إلى هذه الأمة، ويكون قد علم بأمر الله فى السماء قبل أن ينزل، ولا يتمذهب بمذهب بل يحكم بشريعة النبى ﷺ كما أخبر، فيكون حكمًا عدلاً، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ـ أى يرفع الجزية وهى الخراج ـ فلا يقبل إلا الإسلام، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، ويتزوّج امرأة اسمها راضية، ويولد له، ويمكث أربعين

سنة إلى أن يتوفاه الله تعالى، ويُصَلَّى عليه ويُدفن بالمدينة المنورة مع النبى ﷺ فى قبره كما فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

لكن قال الفاسى فى «مطالع المسرات»: وضعف ابن حجر حديث: دفن عيسى عليه السلام مع نبينا ﷺ؛ فالصحيح أنه يدفن عنده فى بيته لا معه فى قبره.

وهو من أمة محمد ﷺ وصحابى؛ لأنه اجتمع فى حياته بالنبى ﷺ ليلة الإسراء، وحينئذ فهو أفضل الصحابة لنبوته وقد ألغز التاج السبكى فى ذلك حيث يقول:

مَنْ باتفاقِ جميعِ الخلقِ أفضل من ... خيرِ الصحابِ أبى بكرٍ ومِنْ عُمَرِ
ومِنْ علىٍّ ومِنْ عُثمان وهو فتًى ... من أمةِ المُصطفى المُختارِ مِنْ مُضَرِ

ولا ينافى كونه حاكمًا بشريعة محمد ﷺ عدم قبول الجزية فى زمنه؛ لأن هذا من شرعنا أيضًا إذ الحكم بقبولهما لاغٍ بنزول عيسى، وبعد نزوله إما الإسلام وإما السيف.

مهمة

وقع للحافظ السيوطى فى تكملة تفسير «المحلى» و «شرح النقابة» وغيرهما من كتبه: الجزم بأن عيسى رُفِعَ وهو ابن ثلاث وثلاثين ويمكث بعد نزوله سبع سنين، قال الزرقانى: ومازلت أتعجب منه حتى رأيته فى «مرقاة الصعود»[1] رجع عن ذلك، قال فى شرح حديث: «فيمكث فى الأرض أربعين سنة» وقد جمع ابن كثير بأن مكثه فى الأرض سبع سنين كما فى مسلم إذا أضيف إلى مدة عمره حين رُفِع وهى ثلاث وثلاثون سنة، صار مكثه فى الأرض أربعين سنة، لكن ورد فى عدة أحاديث من طرق مختلفة ما يفيد أنه ينزل فيمكث أربعين سنة وهو المشهور وإن لم يكن فى بعضها التصريح بذلك.

(١) المراد: «مرقاة الصعود شرح سنن أبى داود» اختصره البجمعوى المالكى المغربى. وقد طبع فى القاهرة ١٢٩٨ هـ.

(ابْنُ) مريم بنت عِمْرَان بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وعِمْرَان هذا غير عِمْرَان أبى موسى؛ لأنه: عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وبينهما ألف وثمانمائة سنة، وأما قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [1] فقال المفسرون: إنه رجل صالح عابد كان فى زمنه السيدة مريم فشبهوها به فى كونها كانت من الصالحات، وليس المراد منه هارون أخا موسى لما علم أن بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة.

(البَتُولُ مِنْ) التبتيل: وهو الانقطاع إلى الله وعن الدنيا، أو المنقطعة عن الأزواج، ويطلق أيضًا على فاطمة بنت سيد المرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لانقطاعها عن نساء زمانها ونساء الأمة فضلاً ودينًا وحسبًا (البَرَّة) بفتح الباء وتشديد الراء؛ أى الصديقية المطيعة المتوسعة فى طاعة الله تعالى غاية وسعها وجهدها (التَّقِيَّةُ) من التقوى أى البريئة عما سوى الله تعالى.

(وَ) رأى ﷺ أيضًا فى السماء الثانية مع عيسى (ابْنُ خَالَتِه) إيشاع (يَحْيَى) ابن زكريا عليهما الصلاة والسلام ـ: مشتق من الحياة، أطلق عليه إطمئنانًا لقلبىّ أبويه أنه يحيا كثيرًا، وأنه حيا به رحم أمه بعد عقمها؛ إذ رحم العاقر بمنزلة الميت فى عدم الانتفاع منه بالولد.

فسلَّم عليهما فردَّا عليه السلام، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ودعيا له بخير.

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما: «ما من أحد يلقى الله عز وجل إلا وقد هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكريا؛ فإنه لم يهم ولم يعمل»[2].

وقيل: «أوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل أن قل لسارة ـ وكان اسمها يسارة ـ إنى أريد أن أخرج منكما عبدًا لا يهم بمعصية اسمه حيى فهبى له من

(١) سورة مريم: ٢٨.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٩٢)، ابن كثير فى تفسيره (٥/٣٥٢)، ابن عدى فى الكامل (٦/٢٢٤٨). وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٠٩): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانى، وفيه على بن زيد، ضعفه الجمهور.

اسمك حرفًا، فوهبت له أول حرف من اسمها وهو الياء فصار يحيى، وصارت سارة».

وولد يحيى قبل عيسى بستة أشهر.

(الَّذِى أُوتِىَ) أعطى (الحُكْمَ) بضم الحاء؛ يعنى الحكمة وفهم التوراة (فِىْ صِبَاهُ) قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [1] وقيل: المراد بالحكم النبوة؛ أى أحكم الله عقله فى صباه واستنبأه، وفيه ما تقدم، وقُتِلَ ظُلمًا وأخذ رأسه ووضع فى طَسْت، وغضب الله على قاتليه وسلَّط عليهم بُخْتَنَصَّر. وفى حديث: «إن يحيى بن زكريا سيد الشهداء يوم القيامة وقائدهم إلى الجنة».

وكان يحيى أول من آمن بعيسى، وكان سن زكريا حين بشر بيحيى اثنتين وتسعين سنة ـ وعن ابن عباس: مائة وعشرين سنة ـ وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة.

تنبيه

استشكل بعضهم جعل يحيى وعيسى ابنى خالة بأن امرأة عِمْرَان وهى حِنَة جدة عيسى إنما هى أخت إيشاع أم يحيى فيكون عيسى حينئذ ابن بنت خالة يحيى لا ابن خالته نفسها، قال: وأجيب بأن الأخت كثيرًا ما تطلق على بنت الأخت فبهذا الاعتبار جعلهما ابنى خالة، قال: وقيل: كانت إيشاع أخت حِنَة من الأم، وأخت مريم من الأب؛ بناء على أن عِمْرَان نكح أولاً أم حِنَة فولدت له إيشاع، ثم نكح حِنَة بناء على حِلٍّ نكاح الربائب فى شرعهم فولدت له مريم، فكانت إيشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم؛ لأنها أخت حِنَة من أمها. وفيه: أن نوحًا بُعِثَ بتحريم نكاح المحارم إلا أن يقال المراد نكاح محارم النسب دون المصاهرة.

وحكمة رؤيته ولقيه لعيسى ويحيى فى السماء الثانية؛ لأنهما المُمْتَحَنَان باليهود، وأما عيسى فكذبته اليهود وآذته وهَمُّوا بقتله فرفعه الله، وأما يحيى

(١) سورة مريم: ١٢.

فقتلوه، ففيه الإشارة إلى أن نظير ما وقع له ﷺ بعد انتقاله إلى المدينة فصار إلى حالة ثانية من الامتحان وكانت محنته ﷺ فيها باليهود وعادوه وآذوه وهمّوا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه فنجّاه الله تعالى كما نجّى عيسى، ثم سمُّوه فى الشاة فلم تزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهْرَه كما قال عند الموت. ومن ثم قال بعضهم: مات ﷺ شهيدًا بالسم فيكون ﷺ سيد الشهداء، ولا ينافيه ما تقدم أن يحيى سيد الشهداء يوم القيامة؛ لأن ذلك يكون حينئذ بالنسبة لغير نبينا ﷺ. وأيضًا فعيسى ﷺ كانت الحواريون أنصاره والنبى ﷺ كانت الأنصار أنصاره.

(وَ) رأى ﷺ **(فِيْ)** السماء **(الثَّالِثَةَ)** على أصح الروايتين كما مر **(يُوسُفَ)** بتثليث السين مع الواو والهمز؛ ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ ولذلك سماه النبى ﷺ كريمًا كما فى حديث ابن عمر: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1]. على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم. وهو أكرم الناس كما قال ﷺ؛ وإنما كان أكرم الناس لأنه عريق فى الكرم لكونه نبيًا ابن نبىّ هكذا إلى آخر الأربعة، فلم يكن أحد يشاركه فى ذلك إلا إخوته إن قلنا بنبوّتهم. وسئل بعضهم عن يوسف فقال: الأسف فى اللغة الحزن، والأسيف المقيد، واجتمعا فى يوسف عليه السلام. وقصته مشهورة.

(الصِّدِّيقُ) أى بليغ الصدق فى أقواله وأفعاله وأحواله، وفى تصديق غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله **(بصورته)** خلقته **(الجمالية)** أى المنسوبة للجمال فسلَّم عليه، فرد عليه السلام ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ودعا له بخير. وقد ثبت فى حديث المعراج من رواية مسلم: أن رسول الله ﷺ لما أخبر برؤيته ليوسف فى الثالثة قال: «فإذا هو قد أُعطى شَطْر الحُسن» وفى رواية: «فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله، قد فضل الناس بالحسن

(١) أخرجه البخارى (٣٣٩٠).

كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[1].

فإن قيل: هذا يدل على أن يوسف كان أحسن من جميع الناس. أجيب بأن الترمذى روى من حديث أنس: «ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم صوتًا، وأحسنهم وجهًا» فيُحمل ما فى حديث المعراج من قوله: «أعطى شطر الحسن وأحسن ما خلق الله. . . إلخ»[2] على غير نبينا ﷺ، وحمل بعضهم قوله: «أعطى شطر الحسن» على أن المراد أن يوسف أعطى شطر الحسن الذى أوتيه نبينا ﷺ. وفيه نظر؛ لأن المتكلم لا يدخل فى عموم كلامه، على ما فيه؛ ولأن حقيقة الحسن الكامل كامنة فيه ﷺ لأن الذى تم معناه دون غيره فهى غير منقسمة بينه و بين غيره وإلا لما كان حسنه تامًا؛ لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه فلا يكون تامًا.

ومن ثم قال بعضهم: المراد بقوله: «أُعْطى شطر الحسن»: أنه أُعْطى مثل شطر حسن نبينا محمد ﷺ لا أنه أُعْطى شطر حسنه، فالأحسن أن يقال: أن الحديث مخصوصٌ بغير النبى ﷺ. ولله در البوصيرى حيث أشار إلى ذلك بقوله فى البُرْدَة:

فَهْوَ الذى تَمَّ مَعْنَاهُ وصُورتهُ ... ثمَّ اصطفاهُ حبيبًا بارىءُ النَّسَمِ

مُنَزَّهٌ عن شريكٍ فى محاسنِه ... فجوهرُ الحُسنِ فيه غيرُ مُنْقَسِمِ[3]

وقد قال بعض العلماء: إن من تَمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمى مثله، فيكون ما نشهده من خلق بدنه آيات على ما يتضح من عظيم خلق نفسه الكريمة، وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس، وإنما لم يُفتتن بالنبى ﷺ كما افتتن بيوسف عليه السلام؛ لأن جماله

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩٨).

(٢) ذكره ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء (٢/ ٨٤٠)، وانظر: إتحاف السادة المتقين (٦/ ٤٧٠)، والمغنى عن حمل الأسفار (٢/ ٢٦٨).

(٣) المجموعة النبهانية (٣/ ٥).

ﷺ سُتر بجلاله فلم يمكن أحدًا أن يتأمل فيه، وفى ذلك قالت عائشة رضى الله عنها:

ولو علموا فى مصر أوصاف خَدّه لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد

لوامى زليخا لو رأين جبينه لآثرن بالقطع القلوب على الأيدى[1]

وقد حكى القرطبى فى كتاب الصلاة عن بعضهم أنه قال: لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته.

ولقد أحسن البوصيرى أيضا حيث قال:

أعْيَا الورى فهمُ مَعْنَاهُ فليس يُرى للقُرْبِ والبُعْدِ فيه غيرُ مُنْفَحِمِ

كالشَّمْسِ تظهرُ للعينين مِنْ بُعُدٍ صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ من أَمَمِ[2]

وهذا مثل قوله:

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء

والتشبيهات الواردة فى حقه ﷺ كما هنا فى قوله: كالشمس تظهر... إلخ. وقوله: كما مثل النجوم الماء، ونحو ذلك: إنما جرى على عادة الشعراء والعرب، أو على سبيل التقريب والتمثيل؛ وإلا فذاته ﷺ أعلا وأغلا من كل مخلوق. وسيأتى مزيد لذلك.

قال الإمام النووى نقلا عن الثعلبى: أقام يعقوب وأولاده بعد قدومهم على يوسف بمصر أربعًا وعشرين سنة، فلما حضر يعقوب الوفاة أوصاهم أن يدفنوه ببيت المقدس، وتوفى يعقوب عن مائة وسبع وأربعين سنة، وعاش يوسف بعده ثلاثًا وعشرين سنة، وتوفى عن مائة وعشرين سنة، ودفن فى نيل مصر، فأستخرجه موسى ـ عليه السلام ـ حين خرج مع بنى إسرائيل وحمله إلى الشام.

وحكمة رؤيته ﷺ ليوسف فى السماء الثالثة: الإشارة إلى حالة ثالثة تشبه

---

(١) أعيا: أعجز. والمنفحم: الساكت عجزًا فى المناظرة.

(٢) المجموعة النبهانية (٤/٦). وتكل: تعجز. والطرف: البصر. والأمم: القرب.

حالة يوسف وما جرى له مع إخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم، ثم ظفر بهم فصفح عنهم، وكذلك نبينا ﷺ جرى له مع قريش: نصبوا له حربًا وأرادوا هلاكه وكانوا سببًا فى إخراجه من بين أظهرهم، ثم ظفر بهم فى غزوة الفتح فصفح عنهم، وقال: «أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم»[1].

قال ابن أبى جمرة: لأن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة على صورته.

وأيضًا مناسبة لُقْيِه له فى السماء الثالثة: أن الثالثة من سنى الهجرة وقعت فيها غزوة أحد، ومما اتفق فيها من المناسبة شيوع قتل النبى ﷺ فناسب ما حصل للمسلمين من الأسف على فقد نبيهم ما حصل ليعقوب من الأسف على يوسف، لاعتقاده أنه فُقد إلى أن وَجَدَ ريحه بعد تطاول الأمد.

وأيضًا من المناسبة: وقوعه ﷺ فى تلك الغزوة فى حفرة حفرها أبو عامر الفاسق مكيدة للمسلمين، فأخذ علىّ - كرم الله وجهه - بيده، واحتضنه طلحة حتى قام ﷺ. وقد وقع ذلك ليوسف من إلقائه فى غيابة الجُبّ حتى استنقذه الله تعالى على يد من شاء.

(وَ) رأى ﷺ (فِى) السماء (الرَّابِعَة) على كلا الروايتين، وفى أخرى: أن المرئى فيها هارون، وإدريس فى الثانية، ولكن الأصح ما ذكر هنا: جده أخنوخ الملقب بـ (إدْرِيسُ) بوزن إفعيل من الدرس؛ لكثرة درسه على ما قيل، وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب، وأول من خاط الثياب، وأول من لبس المخيط وكان مَنْ قَبْلَه يلبسون الجلود، وأول من اتخذ السلاح، وأول من قاتل الكفار. وقال أبو معشر: وهو أول من تكلم فى العلويات من الحركات النجومية، وأول من علم الكيميا، وأول من بنى الهياكل ومجدً الله فيها، وأول من نظر فى علم الطب وتكلم فيه، وأنذر فى الطوفان وكان يسكن صعيد مصر فبنى هنالك الأهرام والبرابى وصوًر فيها

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٣٩٩٠-) لابن أبى الدنيا فى ذم الغضب، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة.

جميع الصنعات، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده حرصًا على تخليدها وخيفة أن يذهب رسمها من العالم، وأُنزل عليه ثلاثون صحيفة، ثم رفعه الله مكانًا عليًا. قاله فى «مصابيح التنوير».

قال المقريزى[1]: ويقال إن الطوفان لما نضب ماؤه لم يوجد تحت الماء قرية سوى «نهاوند» وجدت كما هى، وأهرام مصر وبرابيها: وهى التى بناها هرميس الأول الذى تسميه العرب إدريس، وكان قد ألهمه الله علم النجوم فدلَّته على أنه سينزل فى الأرض آفة، وأنه سيبقى بقية من العالم يحتاجون فيها إلى علم، فبنى هو وأهل عصره الأهرام والبرابى، وكتب عِلْمَه فيها. .

وقول المصنف رحمه الله **(الَّذى رَفَعَ اللهُ مَكَانَهُ وأَعْلاَهُ)** يشير إلى قوله تعالى: **﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًا﴾**[2] والمراد بالمكان: السماء الرابعة على الأصح، وقيل: السادسة، وقيل: السابعة، وقيل: الثانية كما مر. فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال له: مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم دعا له بخير.

وكان رفعه إليها حيًا على تمام ثلاثمائة وخمس وستين، أو ست وستين سنة من عمره، واختلفوا فى أنه فى السماء ميت أو حىّ، فقال قوم: ميت، وقال آخرون: حىّ.

وكان السبب فى رفعه: أنه كان يُرْفع له عليه السلام كل يوم من العبادة مثل ما يُرْفع لأهل الأرض فى زمانه، فعجب منه الملائكة وتمنوا صحبته، واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربه فى زيارته فأذن له، فأتاه فى صورة بنى آدم، وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه. فعل ذلك ثلاثة أيام فأنكره وقال له الليلة الثالثة: إنى أريد أن أعلم من أنت؟ قال: أنا ملك الموت استأذنت ربى أن أصحبك. قال: فلى إليك حاجة. قال: وما هى؟ قال: تقبض روحى. قال له ملك الموت: مالك

(١) هو أحمد بن على بن عبد القادر، أبو العباس الحسينى، العُبيدى، تقى الدين المقريزى، مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، ولد ونشأ ومات فى القاهرة. الأعلام (١/ ١٧٧).

(٢) سورة مريم: ٥٧.

فى سؤالك قبض الروح. قال: لأذوق كرب الموت وغمّه، فأكون أشد استعداداً، فأوحى الله إليه أن اقبض روحه، فقبضها، ثم ردها إليه بعد ساعة. ثم قال له إدريس عليه السلام: لى إليك حاجة أخرى. قال: وما هى؟ قال: ترفعنى إلى السماء أنظر إليها وإلى الجنة والنار، فأذن الله تعالى فى رفعه، فلما قرب من النار قال: لى إليك حاجة. قال: وما هى؟ قال: تسأل مالكًا يفتح لى أبوابها فأردها، ففعل. ثم قال: كما أريتنى النار فأرنى الجنة، فذهب به إليها، فاستفتح، ففتحت له أبوابها فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت: أخرج لتعود إلى مقرك، فتعلَّق بشجرة وقال: لا أخرج منها. فبعث الله إليه ملكًا فقال له: مالك لا تخرج؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (١) وقد ذقته، وقال : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ (٢) وقد وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٣) فلست أخرج، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى مَلَك الموت عليه السلام: دعه فإنه بإذنى دخل، وبإذنى يخرج، فهو حى هناك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (٤). ومن ثم قيل: إن المراد بالمكان الجنة، وقيل: فى قصته غير ذلك.

ورفعه حيّا إلى السماء الرابعة خاص به دون الأنبياء ولا يرد أن النبى ﷺ رفع إليها حيّا لأنه ﷺ جاوزها.

وقول إدريس له: «مرحبًا بالأخ الصالح» استشكل بأنه أب من آباء النبى ﷺ وأنه جدٌّ أعلا لنوح. أجيب بأجوبة أحسنها قول النووى ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس فى ذلك ما يمنع كون إدريس أبًا لنبينا ﷺ، فإن قوله: «الأخ الصالح» قاله تأدبًا وتلطفًا وهو أخ وإن كان ابنًا، والأنبياء إخوة، والمؤمنون إخوة.

(١) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٢) سورة مريم: ٧١.

(٣) سورة الحجر: ٤٨.

(٤) سورة مريم: ٥٧.

وحكمة رؤيته ﷺ له فى السماء الرابعة: للإيذان بحالة رابعة وهى علو شأنه ومنزلته ﷺ. وفيه أنه رأى موسى وإبراهيم فى مكان أعلى من مكان إدريس، وكذا زاد عليه ﷺ فى الارتفاع إلى أعلى الجنان وأرفع الدرجات.

(وَ) رأى ﷺ **(فِى)** السماء **(الخَامِسَة)** على كلا الروايتين - لا الرابعة كما مر - نبى الله وأحد رسله الكرام **(هَارُونُ)** بن عِمْرَان أخا موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، فسلم عليه فرد عليه السلام، ثم قال له مثل ما تقدم، ودعا له بخير. وأشار المصنف بقوله: **(المُحَبَّبُ فِى الأُمَّةِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ)** أى المنسوبة لإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام، ومعناه: صفوة الله، وقيل: عبد الله، إلى ما ذكره الإمام النووى - رحمه الله تعالى - فى «تهذيبه» قال: روينا فى تاريخ دمشق عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال فى حديث الإسراء: «ثم صعدت إلى السماء الخامسة، وإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء، ونصفها أسود، تكاد تضرب سرته من طولها، قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا المحبب فى قومه، هذا هارون بن عمران»[1].

ولعل هذا كما فى «الابتهاج» هو حكمة رؤيته ﷺ لهارون: للإشارة إلى أنه يكون محببًا فى قومه بعد بغضهم له، وأنه ينال من اليهود الأذى ثم الانتصار عليهم والإيقاع بهم، وللإشارة إلى إحرازه ﷺ فصاحة هارون - عليه السلام - والزيادة عليه؛ فإنه عليه السلام كان فصيح اللسان، وقد وصفه موسى - عليه السلام - بذلك فقال: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾[2] وقد حاز نبينا الرتبة العليا من الفصاحة.

وكان هارون أسنَّ من موسى - عليهما السلام - بسنة، وكان أطول من موسى. وأخرج ابن عساكر حديثًا عن النبى ﷺ: «أن موسى دفن أخاه هارون فى شِعْب أُحد».

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٩٣).

(٢) سورة القصص: ٣٤.

قال فى «إنسان العيون»: وفيه قبض، فواراه موسى فيه، وكانا قَدِمَا حاجّين أو مُعتمرين. قال الزرقانى فى «شرح المواهب»: روى هذا المعنى فى حديث أسنده الزُّبير بن بكَّار فى كتاب «فضائل المدينة» عن رسول الله ﷺ، كذا فى الروض.

قال فى «الفتح»: وسند الزُّبير فى ذلك ضعيف جدًّا، ومنقطع وليس بمرفوع.. انتهى. بل فى «النور» عن ابن دِحْية: أنه باطل بيقين؛ إنما مات بنص التوراة فى موضع على ساعة من مدينة حيلة من مدن الشام.. انتهى. قال: وبه تعلم أنه لا يصح الجمع بأنه يقال للمدينة: شامية.

وعبارة الحلبى فى «إنسان العيون» ـ بعد نقله ما تقدم عن ابن دِحْية ـ ونصُّ التوراة أنه دفن بجبل من جبال بعض مدن الشام، وعليه فيصح الجمع، وقد يقالُ للمدينة: شامية. وأيضًا فالحديث إن كان ضعيفًا يؤيد باستخراج ابن عساكر له عن النبى ﷺ لكن إبطال ابن دِحْية له بمرضه، وقيل: قبره بجبل مشرف قبلى بيت المقدس يقال له: طور هارون. وفى الأنوار: الأكثر أن موسى وهارون ماتا فى التِّيه. وبه صرح فى «إنس الجليل». وأن موسى مات بعد هارون بسنة.. انتهى. وفى «النور» بنحو خمسة أشهر، قال القسطلانى وغيره: مات هارون قبل موسى بنحو أربعين سنة.

(وَ) رأى ﷺ (فِى) السماء (السَّادِسَةِ) على كلا الروايتين لإبراهيم كما فى الرواية الأخرى؛ لأن الأصح: ما هنا نبى الله ورسوله الكريم وصفيه المخصوص بالتكليم (مُوسَى) بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم. فسلَّم عليه فردَّ عليه السلام، ثم قال له مثل ما تقدم، ودعا له بخير. وعمران هذا غير عمران أبى مريم كما مر بيان ذلك.

وحكمة رؤيته له فى السماء السادسة: للإيذان بحصول حالة له تشبه حالة موسى بما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك بقوله ﷺ: «لقد

أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر» وللإشارة إلى أن موسى أراد أن يُقيم الشريعة فى الأرض المقدّسة وحمل قومه على ذلك فتقاعدوا عنه وقالوا: ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ (١) فغضب الله عليهم وأوقعهم فى التيه، وآل أمره إلى قهر الجبابرة وإخراجهم من أرضهم، وكذلك أراد نبينا ﷺ فى هذه السنة أن يدخل بمن معه مكة يقيم بها شريعة الله وسنة إبراهيم فصدُّوه فلم يدخلها فى هذا العام، ثم دخلها فى العام القابل وآل أمره ﷺ إلى أن فتح مكة، وقهر المتجبرين والمستهزئين من قريش. فكان لقاؤه لموسى تنبيهًا على التأسى به، وحصول حالة تشبه حالة موسى.

وقوله ـ رحمه الله ـ: (الَّذى كَلَّمَهُ الله ونَاجَاهُ) يشير به إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (٣) وإنما اختص بالكليم مع أن النبى ﷺ كلَّمه أيضًا؛ لأن موسى سمعه فى الأرض وهى محل خطاب البشر؛ فكان خطابه فى محلٍّ عُهِدَ فيه خطاب البشر فناسب تسميته كليمًا، بخلاف نبينا ﷺ فإنه سمعه فى السماء وهى لم يُعْهَد فيها خطاب البشر فلذلك لم يسم به.

ولما ولد موسى كان من أمره مع فرعون ما قص الله فى كتابه العزيز، وقد وقع من موسى العناية بهذه الأمة فى أمر الصلاة ما لم يقع لغيره كما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

(وَ) رأى النبى ﷺ (فِى) السماء (السَّابِعَة) على الأصح كما فى الروايتين ـ وفى الأخرى أن المرئى فيها موسى ـ أفضل الأنبياء بعده أباه النبى الرسول الكريم الجليل (إِبْرَاهِيمُ) بن تاروح ـ أو تارح كآدم، أو تيرح ـ بن ساروخ بن ناحور بن فالغ بن عابر بن شالخ ـ أو شليخ ـ بن أرفخشد بن سام بن نوح

---

(١) سورة المائدة: ٢٢.

(٢) سورة النساء: ١٦٤.

(٣) سورة مريم: ٥٢.

كما أخرجه ابن المنذر بسند صحيح عن مجاهد وغيره عن ابن جريج وغيره.

وقد أجمع أهل الكتابين على أن آزر عم إبراهيم وحملوا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ (1) على المجاز، والعرب تسمى العم أبًا كما تقدم تحقيق ذلك.

وإبراهيم لفظ سريانى معناه بالعربية: أب رحيم، عليه أفضل الصلاة والتسليم. فسلم عليه فردّ عليه السلام وقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح، ودعا له بخير.

(الَّذِى جَاءَ رَبَّهُ بِسَلاَمَةِ القَلْبِ) أى القلب السليم (وَحُسْنُ طَوِيَّةٍ) أى والطوية الحسنة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (2) أى خالص من آفات القلوب أو من العلائق، وقيل: حزين. ومعنى المجىء به: إخلاصه له كأنه جاء به متحفًا إياه (وَحَفِظَهُ) الله تعالى (مِنْ نَارِ نَمْرُودُ) بن كنعان (وَعَافَاهُ) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (3) فكانت كما مر بيان ذلك فى قصته مبسوطًا وهى مفصلة فى سورة الأنبياء وكتب التواريخ، وهو أوّل الناس ضَيَّفَ الضيف، وأوّل الناس اختتن وقص شاربه ورأى الشيب فلما رآه قال: يا رب، ما هذا؟ قال تعالى: وقار. قال إبراهيم: رب زدنى وقارًا.

وقال للنبى ﷺ ليلة الإسراء: أقرئ أمتك منِّى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر (4).

ومر فى حديث أنه قال: مُرْ أُمتك أن يكثروا من غراس الجنة. قال: «وما

(1) سورة الأنعام: ٧٤.

(2) سورة الصافات: ٨٣، ٨٤.

(3) سورة الأنبياء: ٦٩.

(4) أخرجه الترمذى (٣٤٦٢) وحسنه. مشكاة المصابيح (٢٣١٥)، وعزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٤٢٨٨) للطبرانى.

غراس الجنة؟» قال: لا حول ولا قوة إلا بالله[1].

والصحيح: أن سيدنا إبراهيم الخليل ولد بكوثى من إقليم بابل[2] بالعراق، وأنزل عليه عشر صحف، وأن الله أكرمه بأن جعل له لسان صدق فى الآخرين أى ثناء حسنًا فليس أحد من الأمم إلا يحبه، وأكرمه بالخلة، وجعل أكثر الأنبياء من ذريته، وختمهم بنبينا محمد ﷺ.

وهاجر إبراهيم من العراق إلى الشأم، قيل: بلغ من العمر مائة وسبعين سنة، وقيل: مائتى سنة، ودفن فى الأرض المقدّسة وقبره معروف فى البلدة المعروفة بالخليل[3] بينها وبين القدس دون مرحلة.

وفى بعض التواريخ: أن آزر ـ وهو عمه ـ كان من أهل حران[4] ونقله إلى بابل أرض نمرود، واسم أمه نونا وقيل أينونا، وكان إبراهيم تاجرًا وتجارته فى البز، وكانت البغال تتناسل وكانت أسرع الدواب فى نقل الحطب لنار إبراهيم فدعا عليها فقطع الله نسلها.

قالوا: وسبب موته أنه أتاه مَلَكٌ فى صورة شيخ كبير، فضيَّفه على حسب عادته، فكان يأكل وهو يسيل طعامه ولعابه على لحيته، فقال إبراهيم: يا عبد الله، ما هذا؟ قال: بلغت الكبر الذى يكون صاحبه هكذا. قال: وكم أتى عليك؟ قال: مائتا سنة ـ ولإبراهيم يومئذ مائتا سنة ـ فكره الحياة لئلا يصير إلى هذا الحال، فمات بلا مرض، عليه الصلاة والسلام.

وحكمة رؤيته ﷺ له فى السماء السابعة؛ لأنه الأب الأخير أى الأدنى ممن لقيه فى السموات فناسب أن يتجدد للنبى بلقيه أنس؛ لتوجهه بعده إلى عالم

(١) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٢٧٥) لابن أبى حاتم وابن مردويه.

(٢) هى ناحية من نواحى الكوفة بالعراق، كان بها إحدى عجائب الدنيا، وهى حدائق بابل المعلقة، كما قامت بها حضارة وثنية قديمة، وهى من المدن المشهورة بالعراق الآن.

(٣) هى بلدة بفلسطين بها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وكان اسمها قديمًا «حبرون». (مراصد الاطلاع ١/ ٤٨٠).

(٤) هى مدينة قديمة من ديار مضر بينها وبين الرها مسيرة يوم، وهى أول مدينة بنيت بعد الطوفان، وهى مهاجر الخليل إبراهيم عليه السلام. (مراصد الاطلاع ١/ ٣٨٩).

آخر؛ وللإشارة إلى دخوله فى السنة السابعة من الهجرة مكة هو وأصحابه مُلَبِّين مُعْتَمِرين، محييًا لسنة إبراهيم، ومقيمًا لرسمه الذى كانت الجاهلية أماتت ذكره وبدَّلت أمره، وللإشارة إلى أن منزلته ﷺ أرفع المنازل، فلذلك ارتفع النبى ﷺ من منزلة إبراهيم وهى أرفع المنازل إلى قاب قوسين وأدنى.

تنبيه

وقع سؤاله ﷺ من جبريل عن كل أحد من الأنبياء الذين رآهم فى السموات كما ورد بقوله: «من هذا يا جبريل؟» فيقول: هذا أبوك آدم... إلى آخره، واستُشْكِل بأنه كيف أمَّ الأنبياء فى بيت المقدس وسلَّم عليهم وعرفهم ثم يسأل عنهم تلك الليلة حين رآهم فى السموات من جبريل؟ فإنه لو رآهم وعرفهم قبل ذلك لما احتاج إلى سؤال جبريل لقرب العهد. وأجيب بأنه يحتمل أنه رآهم فى بيت المقدس على حالة من تصوّر الأرواح بصورة الأجساد أو من حضور الأجساد بالأرواح، ثم لما رآهم فى السموات رآهم على حالة غير التى رآهم عليها فى الأرض فلذلك سأل عنهم، أو أنه رآهم فى الموضعين على حالة واحدة لكن لما شاهدهم تلك الساعة فى الأرض ثم رآهم فى منازلهم فى السماء سأل عنهم تعظيمًا للقدرة الإلهية، واستثباتًا لا تعجبًا؛ فإنه عَالِم أن الله الذى أصعده إلى هذا المكان فى لحظة قادرٌ على نقلهم إلى السموات فى أسرع من طرفة عين سبحانه وتعالى.

وذكر الغيطى: أن اقتصار الأنبياء اللاقين له تلك الليلة على وصفه بالصلاح مع النبوّة والأخوة أو النبوّة، وتواردهم كلهم عليه إنما هو لأن الصلاح يشمل خصال الخير، والصالح هو الذى يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فمن ثم كانت كلمة جامعة شاملة لسائر الخصال المحمودة، ولذا لم يقل أحد منهم: مرحبًا بالنبى الصادق، ولا بالنبى الأمين.

قال: وقال بعضهم: صلاح الأنبياء صلاحٌ خاص لا يتناوله عموم الصالحين، واحتُجَّ على ذلك بأنه قد تمنى بعض الأنبياء أن يلحق بالصالحين،

ولا يتمنى الأعلى الإلحاق بالأدنى. ولا خلاف أن النبوّة أعلا من صلاح الصالحين المضاف إلى الأمم؛ فصلاح الأنبياء صلاحٌ كامل؛ لأنهم يزول بهم كل فاسد فلهم كمال الصلاح، ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أو منه من الفساد. . انتهى.

(ثُمَّ) بعد أن جاوز السموات عُرِجَ به عُروجًا ثامنًا على ما تقدّم (إِلَى) أن وصل إلى (سِدْرَة) بكسر السين المهملة وسكون الدال واحدة السِّدْر؛ شجر النَّبق، وهى شجرة لها ساق هو أصلها ولها فروع: فأصلها فى السماء السادسة أو السابعة، وفروعها فوق السماء السابعة فى جوف السماء الثامنة المسماة بالكرسى التى جميع أجرام النجوم مثبتة فيها ما عدا السبعة السيارة، ورؤية أهل الأرض لها لكون السماء شفافة ولذلك نسب زينتها إلى سماء الدنيا مجازاً.

قال كعب: هى شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهى علم الخلائق. ويجمع بين هذا وما قبله بأن أصلها فى السماء السادسة وأعلاها فى السماء السابعة، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش كما يؤخذ من «حاشية الجمل على تفسير الجلالين» وغيرها؛ فيكون انتهاؤها فى محاذات منتهى الكرسى من أعلاه، وهذا لا يظهر إلا على القول باتحاد العرش والكرسى لما فى بعض الأحاديث: «إن رؤوس حملة العرش تخرق العرش فتكون فوقه»[1].

ولا ينافيه ما فى حديث ابن عباس وغيره: من أن العرش على ظهورهم؛ لإمكان طول أعناقهم بحيث تجاوز ظهورهم مسافة طويلة؛ وعلى هذا فإن قلنا: أنه ﷺ جاوز السِّدْرة يكون قد رقى العرش. وجاء فى أخبار ضعيفة منكرة ما يؤيده، والحديث الضعيف يحتج به فى مثل هذا الباب الذى هو باب الفضائل التى ليست فيها حكم شرعى.

(١) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر!.

وإن قلنا إنه جاوز السِّدْرة ولم يرق العرش ـ وهو الصحيح ـ فيكون مجاوزته لها بمعنى مفارقته لها من المحل الذى انتهى إليه عندها إلى محل أرقى منه وهو المستوى الذى سمع فيه صريف الأقلام، ومنه إلى محل أرقى منه وهو مقام المكافحة ـ وسيأتى الكلام عليهما ـ لا بمعنى أنه جاوزها أى ارتقى من المحل المذكور حتى جاوزها من أعلاها.

وسيأتى عن الشيخ القزوينى أنه لم يثبت مجاوزته إلى ما وراء السِّدْرة، فيكون المستوى والمقام اللذان رقى إليهما عند مفارقته لسدرة المنتهى دون العرش فى محاذاة السِّدْرة من جانبها. هذا إذا قلنا ارتفاع السدرة مقدار ما مر، وأن الكرسى هو العرش، وأما إذا قلنا أن السِّدْرة تحت الكرسى ـ كما سيأتى فى رواية قريبًا ـ وأن الكرسى غير العرش أو هو هو: فمجاوزته لها حينئذ إلى محل أرقى منها ظاهر، كما جرى عليه بعضهم. هذا ما ظهر لى والعلم عند الله، ولعل به يجتمع اختلاف كثير من الروايات فتأمل.

وقد جاء فى وصف السِّدْرة أحاديث كثيرة منها ما فى صحيح مسلم وغيره عن ابن مسعود، وابن عباس مرفوعًا أن النبى ﷺ قال: «رأيت السِّدْرة يغشاها فَرَاشٌ من ذهب، ورأيت على كل ورقة ملكًا يُسبح الله».

واخرج عَبْدُ بن حُمَيْد، عن سلمة بن وهرام فى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [1] قال: استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبى ﷺ فأذن لهم، فغشيت الملائكة السِّدْرة لينظروا إلى النبى ﷺ[2].

وجاء فى رواية: «أنه يسير الراكب فى ظلها سبعين عامًا لا يقطعها، ويستظل منها مائة ألف راكب، ورقها كآذان الفيلة، الورقة منها تظل الخلق»[3].

(١) سورة النجم: ١٦.

(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(٣) أخرجه البخارى (٥/٦٦)، أحمد فى مسنده (٤/٢٠٨)، البيهقى فى الدلائل (٢/٣٧٧).

وفى رواية: «تكاد الورقة تغطى هذه الأمة»[1].

وفى رواية: «لو أن الورقة الواحدة ظهرت لغطت هذه الدنيا»[2].

وحينئذ يكون المراد بكونها كآذان الفيلة فى الشكل ـ وهى الاستدارة ـ لا فى السعة.

وفى رواية: «لو وضعت ورقة منها فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض، ونبقها كَقِلال هَجَر»[3].

وفى بعض الروايات: «إن أغصانها تحت الكرسى، يخرج من أصلها نهران ظاهران من الجنة: النيل، والفرات، ونهران باطنان فى الجنة: الكوثر، ونهر الرحمة»[4].

ومعنى كونهما باطنين: أنهما لم يخرجا من الجنة أصلاً، ومعنى كون النيل والفرات ظاهرين: أنهما يخرجان منها، وقيل المراد بالباطنين: سيحان، وجيحان، أى يبطنان فى الجنة ولا يظهران إلا بعد خروجهما منها لوجودهما فى الخارج بخلاف النيل والفرات فإنهما يستمران ظاهرين فيها إلى أن يخرجا منها.

وفى بعض الروايات: «أن سيحان وجيحان لينبعان من أصل شجرة المنتهى» بل فى بعض الروايات ما يرد ذلك فليسا هما المراد بالباطنين، ومن ثم ترك ذكرهما فى حديث المعراج.

قال بعضهم: ويحتمل أن يتفرعا من النيل والفرات بعد خروجهما من الجنة فهما لم يخرجا من أصل السِّدْرة، ولم يبطنا فى الجنة أصلاً لكن جاء فى «مسلم» أنهما يخرجان من أصلها. فعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعًا:

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٦٦)، ابن كثير (٥/ ٢٠)، تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٧٦).

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٧٦).

والقِلال: الجرار. وهَجَر: مدينة، هى قاعدة البحرين. وربما قيل: الهجر. وقيل: ناصية البحرين كلها هجر. (مراصد الاطلاع ٣/ ١٤٢٥).

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٧٦).

«سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، كل من أنهار الجنة»[1].

قال القرطبى: ما فى الجنة نهر إلا ويخرج من أصل سدرة المنتهى.

وقد يقال: لا منافاة؛ لأن المراد إما خروجه بنفسه أو أصله الذى يتفرع منه، فالأنهار التى تخرج من أصل سدرة المنتهى أربعة بناء على أن سيحان وجيحان لا يخرجان من الجنة، أو ستة بناء على أنهما يخرجان منها، وهما غير سيحون وجيحون فإنه لم يرو أنهما من الجنة إلا فى خبر ضعيف رواه الواحدى.

وذكر صاحب «النهاية» أن جيحون نهر وراء خراسان[2] عند بلخ[3] وسكت عن بيان سيحون.

وذكر العلامة الطحاوى من علماء الحنفية فى بعض حواشيه: أن سيحون نهر خجند[4]، وجيحون نهر ترمذ[5]، والفرات نهر الكوفة.

وفى المراصد: أن جيحان نهر بالمصيصة وعليه عندها قنطرة من حجارة رومية قديمة عريضة، فيدخل إلى المصيصة فيمد أربعة أميال ونصف فى بحر الشام، وقال فى المصيصة: إنها على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم كانت من الأماكن التى يرابط بها المسلمون قديمًا.

وقال فى جيحون: هو وادى خراسان وعليه مدينة اسمها جيحان، مخرجه من جبل يقال له: ربوساران يتصل بناحية السند والهند وكابل[6].

---

(١) صحيح مسلم (الجنة ب ١٠: ٢٦)، أحمد (٢/ ٢٨٩)، مشكاة المصابيح (٥٦٢٨)، الدر المنثور (١/ ٣٧)، تفسير البغوى (٦/ ١٧٧).

(٢) خراسان: بلاد واسعة على أول حدودها العراق وآخرها مما يلى الهند وطخارستان وغزنة وسجستان، ومن أهم مدنها: مرو، ونيسابور، وهراة، وبلخ. (مراصد الاطلاع ١/ ٤٥٥).

(٣) بَلْخ: مدينة مشهورة بخراسان بينها وبين ترمذ عشر فراسخ وأهم أنهارها نهر جيحون.

(٤) خُجَند: بلدة مشهورة ببلاد ما وراء النهر على شاطئ سيحون، بينها وبين سمرقند مسيرة عشرة أيام وتمتاز بكثرة بساتينها.

(٥) ترمذ: مدينة مشهورة فى بلاد ما وراء النهر، وهى موطن الإمام الترمذى، وهى من أشهر مدن جمهورية أوزبكستان المسلمة حاليًا.

(٦) كابل: إحدى ثغور طخارستان قديمًا، تقع بين الهند وسجستان، وهى الآن عاصمة جمهورية أفغانستان. (مراصد الاطلاع ٣/ ١١٤١).

ومنه عين تخرج من موضع يقال له: عندمس فى أوله عدة أنهار تجتمع، فيكون منها هذا النهر العظيم، وتمد بعده حتى تصل إلى خوارزم[1]، ثم يصب فى بحيرة خوارزم، بينها وبين خوارزم ستة أيام.

وقال فى سيحان: نهر كبير بالثغر من نواحى المصيصة ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال فيصب فى بحر الروم، وهو سيحون الذى يأتى.

وقال فى سيحون: نهر مشهور بما وراء النهر قرب خجند بعد سمرقند[2] ويجمد فى الشتاء حتى يجوز على جمده القوافل فى حدود الترك.. انتهى.

وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرْضِ﴾ [3] أنه النيل والفرات، ثم أن الله يرفعهما ويذهب بهما عند رفع القرآن وذهاب الإيمان وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [4] ذكره السهيلى رحمه الله تعالى.

وإضافة السِّدْرة إلى (الْمُنْتَهَى) اسم مكان بمعنى موضع الانتهاء، أو مصدر ميمى بمعنى الانتهاء فإنه من منتهى الجنة إما من إضافة الشىء إلى مكانه: كقولك أشجار بلدة كذا؛ فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه مَلَكٌ ولا روحٌ من الأرواح، أو من إضافة المحل إلى الحال فيه: كقولك كتاب الفقه؛ وعلى هذا فالتقدير سدرة عندها أو فيها منتهى العلوم. أو المراد بالمنتهى: هو الله تعالى؛ وحينئذ يكون التقدير: المنتهى إليه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [5] فإضافة السِّدْرة إلى المنتهى من إضافة الملك إلى من ملكه؛ فالإضافة إليه كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم.

قاله الغيطى: وإنما قيل لها سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهى عندها لا

---

(١) خوارزم: مدينة مشهورة فى بلاد ما وراء النهر، وهى من أشهر من أوزبكستان حاليًا.

(٢) سمرقند: مدينة مشهورة فى بلاد ما وراء النهر، تقع على جنوب وادى الصغد فى جمهورية أوزبكستان حاليًا.

(٣) سورة المؤمنون: ١٨.

(٤) سورة المؤمنون: ١٨.

(٥) سورة النجم: ٤٢.

يجاوزها، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ. وقيل: لأنه ينتهى إليها ما يهبط من فوقها فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض كما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود. وقيل: لأنه ينتهى إليها من مات على سنة النبى ﷺ وهم المؤمنون حقًا، وقيل غير ذلك.

واختيرت السِّدْرة دون غيرها وإن كان أفضل منها النخل ثم العنب؛ لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظلٌّ مديد، وطعمٌ لذيذ، ورائحةٌ زكية. فكانت بمنزلة الإيمان الذى يجمع القول، والعمل، والنية. فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول. قاله ابن دِحْية.

قال النجم الغيطى: عد بعضهم رفعه ﷺ إلى سدرة المنتهى معراجًا ثامنًا منًا بالنسبة إلى السموات السبع، وسُئِلَ عن حكمة هذا المعراج الثامن وأجاب بما حاصله: أن السنة الثامنة اشتملت على فتح مكة وإليها المنتهى ومنها المبتدأ؛ لأن الأرض كلها دحيت من مكة فلذلك سميت أم القرى، وسدرة المنتهى ينتهى إليها علم الخلائق، ومكة ينتهى إليها أهل الآفاق ونحو ذلك.

ثم عُرِجَ به ﷺ عروجًا تاسعًا على ما مر **(إِلَى أَنْ)** وصل إلى مستوى **(سَمْعِ)** سماعًا محققًا فيه **(صَرِيفِ)** بفتح الصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء؛ قال النورى وغيره: صوت حركة. **(الأَقْلاَمِ بِالأُمُورِ المَقْضِيَّة)** والأقلام جمع قلم وهو جسم نورانى خلقه الله يكتب ما كان وما يكون من أقضية الله تعالى ووحيه، وما ينسخون من اللوح المحفوظ، ونؤمن بصحة ذلك ونمسك عن الجزم بتعيين حقيقته إذ لا يعلم حقيقتها إلا الله علام الغيوب، وما يتأوّل هذا ويحيله إلا ضعيف النظر والإيمان؛ إذ قد جاءت به الشريعة. ودليل المعقول لا يحيله، والله تعالى يفعل ما يشاء ويُحكم ما يُريد حكمة من الله وإظهاراً لما شاء من غيبه لمن شاء من ملائكته وسائر خلقه، وإلا فهو غنىٌّ عن الكتب والاستذكار.

وجاءت الأخبار بأن اللوح المحفوظ فُرِغ من كتابته وَجَفَّ القلمُ بما فيه قبل

خلق السموات والأرض، وإنما هذه الكتابة المجددة فى صحف الملائكة كالفروع المتنسخة من الأصل، وفيه المحو والإثبات على ما ورد فى الأثر. وأصلُ اللوح المحفوظ الذى انتُسِخ منه اللوح هو علم الغيب القديم فى أزل القدم، وهو الذى لا مَحْو فيه ولا إثبات حيث لا لوح ولا قلم.

وجمع الأقلام للتعظيم وإلا فالمراد قلم واحد وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [1] كذا قال بعضهم، لكن قال القرطبى: إن القلم هنا للجنس.

وذكر العارف بالله الشعرانى: أن الأقلام التى سمع رسول الله ﷺ صريفها ليلة الإسراء هى التى تجرى بما يحدث فى العالم من الأحكام. قال: وعدتها ثلاثمائة وستون قلمًا على عدد درج الفلك. قال: ورتبة هذه الأقلام دون رتبة القلم الأعلى، ودون اللوح المحفوظ، ويسمى اللوح المحفوظ أعنى من المحو فلا يمحى ما كتبه القلم الأعلى، فهذه الأقلام دائمًا فى ألواح المحو والإثبات، ولهذا دخل النسخ فى الشرع الواحد[2].. انتهى.

وحكمة هذا المعراج التاسع والمناسبة بينه وبين العام التاسع: الإشارة إلى انفساخ العزم بالقَدَر، وإلى جفاف القلم عما كتب، وذلك لما عزم ﷺ فى ذلك العام على غزوة تبوك وخرج فى ثلاثين ألفًا، ومع هذا الاجتهاد فى الاستعداد لم يَلْقَ النبى ﷺ فيها حربًا، ولا افتتح بلدًا؛ وذلك لأن أجل فتوح الشام لم يكن حَلَّ بعد، فانفسخ العزم بالقَدَر. قاله فى «الابتهاج».

ثم عُرِجَ به ﷺ عروجًا عاشرًا وترقّى **(إِلَى مَقَامِ الْمُكَافَحَةِ)** بالكاف والفاء والحاء المهملة؛ أى المواجهة من غير ستر وحجاب كما يأتى، وهذا المقام هو **(الَّذِى قَرَّبَهُ اللهُ)** تعالى **(فيه وأَدْنَاهُ)** وأعده للخطاب، وفرض الصلوات، وهو الذى عناه فى قوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ

(1) سورة القلم: ١.

(2) هذا من الأقوال التى لا يوجد ما يؤيدها من نقل صريح عن المعصوم ﷺ.

أَدْنَى﴾ (1) قال بعضهم: فى الكلام قلبٌ أى قابى قوس: أى قدر ما بين قابى القوس؛ لأن كل قوس له قابان وبينهما شىء قليل جداً فبينهما غاية القرب. وقال العلامة ابن حجر: والمراد تشبيه قربه ﷺ المعنوى بالاعتبار المذكور بقرب قاب القوس إذا ألصق بقرب قاب قوس آخر، والمراد بالقرب المعنوى: أى زيادة عن غيره باعتبار ما خصه الله به من الكمالات، ويؤيده قول جماعة: إن الضمير المسند إليه «دنا» عائدٌ إلى الرب: أى دنا الرب سبحانه وتعالى من محمد ﷺ فتدلى.

ومعلوم أن معنى الدنوّ من الله تعالى كمعنى نزوله تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير(2)، بمعنى أنه يتلطف بعباده ويتنزل فى خطابه لهم فيطلق على نفسه ما يطلقونه على أنفسهم، فهو فى حقهم حقيقة بالنسبة لدنوهم لغير الله عز وجل وفى حقه تعالى مجاز، كما هو فى حقهم بالنسبة إلى الله؛ لأن دنو الله من العبد ودنو العبد من الله تعالى بالرتبة والمكانة والمنزلة، وإجابة الدعوة، وإعطاء الأمنية، لا بالمكان، والمسافة، والنقلة. وهذا القول محكى عن ابن عباس وأنس، ولم يقل أحد أن المراد الدنو من الله حسّاً كما قد يتوهمه من يقول بالجهة بل المراد الدنو بما ذكرناه من تعظيم المنزلة، وتشريف الرتبة، وإشراق أنوار المعرفة، ومشاهدة أسرار الغيب، والقدرة، وبسط الأنس، والإدلال والاكرام،وستأتى الإشارة إلى ذلك فى كلام المصنف ـ رحمه الله تعالى.

ورأيت بعضًا آخر ذكر أن فاعل تدلى: الرفرف، وفاعل دنا: محمد، أى تدلى الرفرف لمحمد ﷺ حتى جلس عليه، ثم دنا محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى: أى قرب منه قرب تشريف كما مر لا قرب مكان تعالى الله عن ذلك.

---

(1) سورة النجم: ٨، ٩.

(2) جزء من حديث أخرجه البخارى (٣/ ٢٩) (١١٤٥)، ومسلم (١/ ٥٢١).

(وَأَمَاطَ) أى رفع وأزال (لَهُ حُجُبَ الأَنْوَارِ الجَلاَلِيَّة) أى المنسوبة للجلال والعظمة. واعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يحجبه شىء، وما ذكر من الحجب فى هذا المحل الرفيع ـ بفرض صحتها ـ إنما هو بالنسبة إلى المخلوق فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعانى الأسماء،والصفات، والأفعال، والأنوار، والظلمات. كلٌ له مقامٌ من الحجب معلوم، وحظٌ من الإدراك والمعرفة مقسوم، وأقرب الخلق إلى الله تعالى: الملائكة الحافون والمكرمون، وهم محجوبون بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس والقيومية حجب الذات بالصفات، وهم فى الحجب عنه على طبقات مختلفات، كلٌ على مقام معلوم ودرجات، وبالجملة فالمخلوقات كلها ما كانت حجابًا عن الخالق، فقومٌ محجوبون برؤية النِّعَم عن المُنْعِم، وبرؤية الأحوال عن المحوّل، وبرؤية الأسباب عن المسبب. وقوم حجبوا عن العلم بالعلم، وبالفهم عن الفهم، وبالعقل عن العقل. وذلك كله من معنى حجاب النعم عن المنعم والمواهب عن الواهب. وقومٌ حُجِبوا بالشهوات المباحة. وقوم بالشهوات المحرمات والمعاصى والسيئات. وقومٌ حُجِبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا. اللهم لا تحجب قلوبنا عنك فى الدنيا ولا أبصارنا فى الآخرة يا كريم.

ورد أن النبى ﷺ لما جاوز سدرة المنتهى غشيته سحابة من نور فيها الألوان ما شاء الله، فوقف جبريلُ ولم يسر معه، فقال له النبى ﷺ: «أتتركنى أسير منفردًا؟!». فقال جبريل: وما منا إلا له مقامٌ معلوم. فقال ﷺ: «سر معى ولو خطوة». فسار معه فكاد أن يُحْرَق من النور والجلال والهيبة وصغر وذاب حتى صار قدر العصفور.

وإنما لم يحصل للنبى ﷺ مثل ما حصل لجبريل من المشقة وعدم الطاقة؛ لأن النبى ﷺ مُرَادٌ ومطلوب فأعطاه الله قوة واستعدادًا لتحمل هذا المقام بخلاف غيره. ولذلك لما تجلى الله للجبل اندكَّ وغار فى الارض وخَرَّ موسى صعقًا من الجلال؛ لأن موسى طالبٌ ومُرِيد ومحمدٌ مطلوبٌ ومُرَاد، وفرق

كبير بين المقامين؛ نقله العلامة البجيرمى فى حواشيه على شرح المنهج من تقرير شيخه العلامة الحفنى.

وقد أسر الله نبيه ﷺ فى هذا المقام بما لا يحصى من العلوم كما فى رواية ابن عباس رضى الله عنهما: «أتانى جبريل وكان سفيرًا بى إلى ربى إلى أن انتهى إلى مقام، ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، أفى مثل هذا المقام يترك الخِل خَليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور. فقال النبى ﷺ: يا جبريل، هل لك من حاجة إلى ربك؟ قال: يا محمد، سل الله لى أن أبسط جناحى على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه. قال النبى ﷺ: ثم زجَّ بى فى النور زجا، فخرق بى سبعين ألف حجاب ليس فيها حجاب يشبه حجابًا، وانقطع عنّى حس كل مَلَك وإنسى، فلحقنى عند ذلك استيحاش، فنادانى مناد بلغة أبى بكر: قف إن ربك يُصلى - وفى رواية: فسمعت صوتًا كصوت أبى بكر يقول: قف فإن ربك يصلى - فعجبت من سبق أبى بكر إلى ذلك المحل ومن صلاة ربى.. انتهى.

قال: فبينا أنا أتفكر فى ذلك فأقول هل سبقنى أبو بكر فإذا النداء من العلى الأعلى: ادن يا خير البرية، ادن يا أحمد، ادن يا محمد، ليدن الحبيب، فأدنانى ربى حتى كنت كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

قال: وسألنى ربى فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفى - بلا تكييف ولا تحديد - فوجدت بَرْدها، فأورثنى علم الأولين والآخرين وعلَّمنى علومًا شتى، فعلمٌ أخذ علىَّ كتمانه؛ إذ علم ربى لا يقدر على حمله أحد غيرى، وعلم خيَّرنى فيه، وعلمنى القرآن فكان جبريل عليه السلام يذكرنى به، وعلم أمرنى بتبليغه إلى العام والخاص من أمتى»[1].

قال: ولقد عاجلتُ جبريل فى آية نزل بها، فعاتبنى ربى وأنزل علىّ:

(١) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١).

وفى رواية قال: لما وصلتُ إلى المستوى سمعتُ مناديًا يقول: تقدم يا أكرم الخلق، فدنوتُ حتى بلغت أمام العرش فسمعت النداء أيضًا: ادن يا محمد. فدنوت حتى وصلت إلى العرش فرأيت أمرًا عظيمًا لا تناله الألسن، ثم قطر عليّ منه قطرة فما أخطأت فمى، فوقعت على لسانى فلم أر أحلى منها ولم يذق أحد مثلها، فأورثنى الله بها علم الأولين والآخرين(٢).

وفى «المواهب»: فقطر على لسانى ثلاث قطرات، فأورثنى بكل قطرة منها علمًا: فعلمٌ أمرنى بكتمانه عن سائر الخلق، وعلمٌ أمرنى بإفشائه للخواص ممن يصحبنى، وعلمٌ أمرنى بأفشائه لأمتى(٣).

ووجدت بهامش قصة الإسراء «للنجم الغيطى» نقلاً عن كتاب «شفاء الصدور» بعد أن قال: فما ذاق الذائقون شيئًا قط أحلى منها، ما صورته: فأنبائى الله علم الأولين والآخرين ونوّر قلبى، وغشى نور عرشه بصرى فلم أر شيئًا، فجعلت أرى بقلبى ولا أرى بعينى، ورأيت من خلفى ومن بين كتفى كما رأيت أمامى... الحديث. وسيأتى عن القاضى عياض صاحب «شفاء الصدور» فى مبحث الشمائل: أن رؤيته من خلفه كانت له بعد ليلة الإسراء كما أن موسى كان يرى النملة السوداء فى الليلة الظلماء بعد ليلة الطور.

ثم قلت: اللهم إنه لما لحقنى استيحاش قبل قدومى عليك سمعت مناديًا ينادى بلغة تشبه لغة أبى بكر فقال لى: قف فإن ربك يصلى، فعجبت من هاتين، هل سبقنى أبو بكر إلى هذا المقام وأن ربى لغنى عن أن يصلى؟ فقال تعالى: إنى لغنى عن أن أصلى لأحد وإنما أقول: سبحانى سبحانى سبقت رحمتى غضبى، اقرأ يا محمد: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ

---

(١) سورة طه: ١١٤.

(٢) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(٣) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [1] فصلاتى رحمة لك ولأمتك[2].

وفى رواية: وأما صلاتى فهى قولى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [3] الآية.

قال: وأما أمر صاحبك يا محمد: فإن أخاك موسى كان أُنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه قلنا: وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال: هى عصاى، وشُغِلَ بذكر العصا عن عظيم الهيبة، وكذلك أنت يا محمد لما كان أُنسك بصاحبك أبى بكر، وأنت خلقت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك فى الدنيا والآخرة؛ خلقنا ملكًا على صورته وهو يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يُراد منك.

ثم قال تعالى: وأين حاجة جبريل؟ فقلت: «اللهم أنت أعلم؟ فقال: يا محمد قد أجبته فيما سأل ولكن فيمن أحبك وصحبك ـ أى اتبعك فى دينك ـ عاملاً بسنتك ـ وهو مراد جبريل بالأمة فى قوله: أن أبسط جناحى لأمتك على الصراط[4].

* * *

(١) سورة الأحزاب: ٤٣.

(٢) حديث باطل. (انظر: أسنى المطالب).

(٣) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٤) انظر آراء العلماء فى تلك المسألة فى السيرة الشامية (٣/٥٥).

[اختلاف العلماء فى رؤية النبى ﷺ لربه ليلة المعراج]

ثم أشار المصنف ـ رحمه الله ـ إلى الخلاف الواقع بين العلماء قديمًا وحديثًا فى رؤية النبى ﷺ للبارئ سبحانه وتعالى جازمًا بوقوعها، وأنها بعينى رأسه على أصح الأقوال عند المحققين فقال: (**وَأَرَاهُ بِعَيْنَىْ رَأْسِهِ مِنْ حَضْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ مَا أَرَاهُ**) وفيه رد على من أنكر المعراج بجسده الشريف، وأبهم المرئى لعدم القدرة على الإحاطة به، إذ رؤيته تعالى لا تكيف.

وأما جواز الرؤية للمؤمنين فى الآخرة فمتفق عليها بين العلماء المحققين وأئمة الدين. وأما فى الدنيا فلم تثبت لغير نبينا ﷺ، ومن ادعاها فى الدنيا فهو ضالٌ بل قيل بكفره. وقد نقل جماعة: أنها لا تحصل للأولياء فى الدنيا. قال ابن الصلاح: فإنّ شيئًا مُنِعَ منه كليم الله موسى واختلف فى حصوله لنبينا ﷺ كيف يُسمح به لمن لم يصل لمقامهما.

وأما رؤيته تبارك وتعالى فى الموقف لمؤمنى الجن والإنس فحاصلة قطعًا، وكذلك فى الجنة لمؤمنى الإنس، وأما لمؤمنى الجن فعلى الراجح، وكذا المؤمنات على الصحيح. وسواء فى ذلك مؤمنوا هذه الأمة ومؤمنوا الأمم السابقة، وكذلك أهل الفَتْرة على القول بنجاتهم وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان.

ويخرج بالمؤمنين: الكفار والمنافقون فلا يرونه تعالى على الراجح لقوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾[1]، ولأنهم ليسوا من أهل الإكرام والتشريف، وقيل: إنهم يرونه ثم يحجبون فتكون الحجبة حسرة عليهم. قال الجلال السيوطى: وله شواهد رويناها عن الحسن البصرى.

وأما الملائكة: فقيل: يرونه، وقوّاه الجلال السيوطى، وقيل: لا رؤية

(١) سورة المطففين: ١٥.

للملائكة أصلا، وقيل: إن جبريل يراه دون سائر الملائكة.

ولا يراه سائر الحيوانات غير العقلاء حتى الحيوانات التى تدخل الجنة مثل: ناقة صالح، وكبش إسماعيل كما هو ظاهر كلامهم.

والرؤية فى الجنة على حسب المراتب، فمنهم من يراه فى مثل يوم الجمعة والعيد، ومنهم من يراه كل يوم بكرة وعشيًا وهم الخواص، ومنهم من لا يزال مستمرًا فى الشهود.

وقد اختلف فى رؤية الله تعالى فى المنام فمعظم المثبتين للرؤية على جوازها من غير كيفية وجهة، ونقل بعضهم عن الإمام النووى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: قال القاضى عياض: اتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى فى المنام، وقالوا: لو رآه الإنسان على صفة لا تليق بجلاله من صفات الأجسام ـ لأن ذلك المرئى غير ذات الله تعالى إذ لا يجوز عليه سبحانه التجسيم ـ ولاختلاف الأحوال بخلاف رؤية النبى ﷺ فى المنام فرؤيته تعالى كسائر أنواع الرؤيا من التمثيل والتبجيل.

وحكى عن كثير من السلف أنهم رأوه عز وجل فى المنام كالإمام أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه، والإمام أبى حنيفة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ فإنه نقل عنه: أنه رأى ربه تسعًا وتسعين مرة، وأنه قال: فقلت فى نفسى: إن رأيته تبارك وتعالى تمام المائة لأسألن منه بم ينجو الخلائق من عذاب يوم القيامة. قال: فرأيته سبحانه وتعالى، فقلت: يا رب، بم ينجو عبادك يوم القيامة من عذابك؟ فقال سبحانه وتعالى: من قال بالغداة والعشى سبحان الأبدى الآبد، سبحان الواحد الأحد، سبحان الفرد الصمد، سبحان رافع السماء بغير عمد، سبحان من بسط الأرض على الماء فجمد، سبحان من خلق الخلق فأحصاهم عددًا، سبحان من قسم الرزق ولم ينس أحدًا، سبحان الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، سبحان الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. نجا من عذابى. والمنامات فى ذلك كثيرة.

والمناسبة بين هذا المعراج العاشر من سنى الهجرة أمرٌ بيِّن واضح إذ اجتمع فى هذا العام اللقاءان اللذان أحدهما: لقاء البيت وحج الكعبة ووقوف عرفة، وإكمال الدين وإتمام النعمة على المسلمين. واللقاء الثانى: الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الوعد الحق، وإلى الوسيلة وهى المنزلة الرفيعة التى لا تنبغى إلا لعبد واحد اختاره الله تعالى على خلقه وهو محمد ﷺ.

(وبَسَطَ لَهُ) ﷺ **(بِسَاطُ الإِدْلاَلِ)** من الدلال، وفى بعض النسخ الإجلال: أى التعظيم **(فِيْ المَجَالِى الذَّاتِيَّة)** أى المنسوبة للذات؛ أشار بذلك إلى قول الجوهرى فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أى دلل، ومنه ما جاء فى رواية صحيحة أن البارئ سبحانه وتعالى قال لنبيه ﷺ بعد المراجعة والمناشدة وتخفيف الصلوات سل. فقال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليمًا، وآتيت داود ملكًا عظيمًا، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا، وسخرت له الجن والإنس والشياطين والرياح، وأعطيته ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده، وعلمت موسى التوراة، وعيسى الإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم؛ فلم يكن للشيطان عليهما سبيل». فقال له ربه تبارك وتعالى: قد اتخذتك حبيبًا، وأرسلتك إلى الخلق كافة، وجعلت أمتك هم الأوّلون وهم الآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى، وجعلتك أوّل النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا، وأعطيتك سبعًا من المثانى لم أعطها نبيًا قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى ولم أعطها نبيًا قبلك، وجعلتك فاتحًا خاتمًا»[1].

وقد ورد فى بعض أخبار الإسراء مما ذكره العلامة ابن مرزوق فى شرحه

(١) جزء من حديث طويل عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٢٨٣) لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبزار وأبى يعلى، وأخرجه البيهقى فى الدلائل (٢/ ٤٠٢)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٦٧)، وكشف الأستار (١/ ٣٨).

لبردة المديح: أنه ﷺ لما كان من ربه تعالى قاب قوسين قال: «اللهم أنت عذبت الأمم بعضهم بالحجارة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالمسخ. فما أنت فاعل بأمتى؟!. قال: أُنزل عليهم الرحمة، وأُبدل سيئاتهم حسنات، ومن دعانى منهم لبيته، ومن سألنى أعطيته، ومن توكل علىَّ كفيته، وفى الدنيا أستر على العصاة، وفى الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة محبوبه لما حاسبت أمتك.

ولما أراد ﷺ الانصراف قال: «يا رب، لكل قادم من سفرة تحفة فما تحفة أمتى؟». قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم إذا ماتوا، وأنا لهم فى القبور، وأنا لهم فى النشور»[1].

تتمة

سُئل الشيخ القزوينى عن وطء النبى ﷺ العرش بنعله، وقول العرب جل جلاله، ولقد شرف العرش بنعلك يا محمد. هل ثبت ذلك أم لا؟! فأجاب بما نصه: أن ذلك ليس بصحيح ولا ثابت بل وصوله ﷺ إلى ذروة العرش لم يثبت فى خبر صحيح، ولا حسن، ولا ثابت أصلاً، وإنما صح انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب، وأما إلى ما وراءها لم يصح وإنما ورد ذلك فى أخبار ضعيفة أو منكرة لا يعرج عليها.

قال بعض المحدثين: ما ذكره الشيخ القزوينى هو الصواب. قال: ولم يرد فى قصة الإسراء والمعراج فى حديث أحد أنه كان فى تلك الليلة فى رجله نعل وإنما ذلك وقع فى قول بعض القصاص الجهلة، ولم يذكر العرش بل قال: وأتى البساط فهم يخلع نعله فنودى لا تخلع... إلخ، وهذا باطلٌ لم يُذكر فى شيء من الأحاديث بعد الاستقراء التام. وفى بعضها لم يذكر السِّدْرة بل ذكر فيها: أنه انتهى إلى مستوىً سمع فيه صريف الأقلام فقط، ومن ذكر أنه جاوز ذلك فعليه البيان؛ وأنى له بذلك؟.

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة.

وما ذكر فى السؤال ـ يعنى المتقدم ـ من أنه ﷺ رقى العرش بنعله، فقاتل الله من وضعه ما أعدم حياءه وأدبه، وما أجرأه على اختلاق الكذب والافتراء على سيد المتأدبين ورأس العارفين ﷺ. . انتهى ملخصًا.

ثم أشار المصنف رحمه الله تعالى ـ بعد الإشارة لما وقع من الرؤية والمناجاة والكلام ـ إلى ما وقع من فرض الصلاة وما وقع من المراجعة فيها بقوله:

(وَفَرَضَ) الله تعالى؛ أى أوجب **(عَلَيْه)** ﷺ **(وَعَلَى)** جميع **(أُمَّته)** أى أمة دعوته من تبع منهم ومن لم يتبع؛ فالكفار مخاطبون بفروع الشريعة: أى خطاب عقاب عليها فى الدار الآخرة لا خطاب طلب لها منهم فى الدنيا؛ أى فهم معاقبون على ترك الفروع فى الآخرة زيادةً على عقاب الكفر، زيادة كيف لا زيادة كم؛ إذ لا آخر لعقاب الكفر لقوله عز وجل: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ الآية[1].

فهم غير مطالبين بها فى الدنيا بل ولا يصح منهم فعلها؛ لأن من شرط صحتها الإسلام.

(خَمْسِينَ صَلاَة) فى كل يوم وليلة كما فرضت على يهود بنى إسرائيل على ما ورد فى حديث لكن قيل أنه موضوع. والحكمة فى تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء: أنه ﷺ لما عُرِجَ به إلى السماء رأى تلك الليلة تَعَبُّد الملائكة: منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد. فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات فى ركعة واحدة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

وفى اختصاص فرضها بالسماء دون سائر العبادات فإنها فرضت بالأرض: التنبيه على مزيتها على غيرها من الفرائض كما قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[2].

---

(١) سورة المدثر: ٤٢، ٤٣.

(٢) أخرجه مسلم (الصلاة: ٢١٥)، أبو داود (٨٧٥)، النسائى (٢/٢٢٦)، أحمد فى مسنده (٢/٢٤١)، البيهقى فى السنن (٢/١١٠).

(ثُمَّ انْهَلَّ) بهمزة وصل ونون ساكنة وهاء مفتوحة ولام مشدّدة من باب الانفعال؛ أى سال وانصب (سَحَابُ الفَضْلِ) إضافته إلى الفضل من إضافة المشبه به للمشبه؛ أى الفضل الذى كالسحاب، مُسلمًا لأمر ربه بما فرض عليه وعلى أمته، فمر على الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلم يقل شيئا؛ لأن مقام الخلة التسليم والرضا بل التلذذ، إلا أنه فى مروره عليه صاعدًا قال له: يا بُنى إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلّها فى أمتك فافعل. كما جاء عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ.

ثم مر ﷺ على موسى قال: ونعم الصاحب كان لكم، فسأله عما فُرِض عليه وعلى أمته، فأخبره، فأشار عليه أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف لأمته فإنهم لا يطيقون ذلك. وإنما فعل ذلك معه لأنه الكليم ومقامه مقام الإدلال والانبساط، فرجع وسأل ذلك، فحطّ عنه خمسًا، ثم رجع إلى موسى فسأله عما حطّ عنه فأخبره، فأمره بالرجوع أيضًا وسؤال التخفيف، فرجع وحطّ عنه خمسًا، ولم يزل هكذا إلى تسع مرات. فأمره بالرجوع أيضًا وقال: إن بنى إسرائيل فرض عليهم صلاتان فما قاموا بهما. قال ﷺ: «وقد استحيت من ربى»[1].

وفى رواية: «علمت أنها عزيمة من ربى فلا أراجعه». فقال تعالى: هى خمسٌ وهنّ خمسون لا يُبدل القول لدىّ».

وهو معنى قول المصنف: (فَرُدَّتْ) أى الخمسون باعتبار العدد لا باعتبار الثواب؛ إذ لم ينقص منه شىء بعد المراجعة (إِلَى) صلوات (خَمْسٍ عَمَلِيَّة) أى منسوبة للعمل باعتبار العدد. قيل: وفى هذا وقوع النسخ قبل البلاغ. وقد اتفق أهل السنة والمعتزلة على منعه، ورد بأن هذا وقع بعد البلاغ بالنسبة للنبى

(١) أخرجه البخارى (٣٨٨٧، ٣٤٩٢، ٣٢٠٧، ٧٥١٧)، أحمد فى مسنده (٤/٢٠٨)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٧٧)، ابن عبد البر فى التمهيد (٨/٣٨)، البغوى فى شرح السنة (١٣/٣٣٧)، ابن الجوزى فى المنتظم (٣/٢٦)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ١١٤).

ﷺ؛ لأنه كلف بذلك ثم نسخ فكان يصليها نفلاً، فقد قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى[1] - رحمه الله -: وما قيل من أن الخمس ليلة الإسراء ناسخة للخمسين إنما هو فى حقه ﷺ - لبلوغه له - لا فى حق الأمة: أى لعدم بلوغه لهم، فإذا نُسخ فى حقه ﷺ نُسخ فى حق أمته كما هو الأصل إلا إن ثبتت الخصوصية بدليل صحيح. كذا قرره بعضهم.

وقرر العلامة الحفنى ما فى «الخصائص الصغرى» للسيوطى - رحمه الله تعالى - من أن وجوب الخمسين لم يُنْسخ فى حقه ﷺ وإنما نُسخ فى حق أمته: أى فكان يصليها فرضًا، ولعل مستنده فى ذلك رواية: «فَرَضَ الله على أمتى ليلة الإسراء خمسين صلاة، فلم أزل أراجعه وأسأله التخفيف حتى جعلها خمسًا فى كل يوم وليلة»[2]. أى على الأمة كما هو المتبادر من قول موسى له ﷺ: أن أمتك لا تطيق ذلك.

وحكمة جعلها خمسين ثم نسخها مع أن الله تعالى علم فى أزله أنها خمس: إظهار شرفه ﷺ عند الملائكة بقبول شفاعته فى التخفيف. وقيل غير ذلك.

قال النجم الغيطى - رحمه الله -: قال بعضهم: دلت مراجعته ﷺ فى طلب التخفيف تلك المرات كلها على أنه علم أن الأمر فى كل مرة لم يكن على سبيل الإلزام بخلاف المرة الأخيرة وفيها ما يشعر بذلك كقوله: ﴿لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾[3] يعنى أنها فى العمل خمس وفى الثواب خمسين؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، ويؤيده قوله ﷺ: «فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام حتى قال الله: يا محمد، إنهن خمس صلوات

---

(1) هو زين الدين أبو يحيى، زكريا بن محمد السنيكى الأنصارى، المصرى الشافعى، القاضى شيخ الإسلام، الحافظ المفسر، الصوفى، حامل لواء الفقه الشافعى ومحرر مشكلاته. له تصانيف كثيرة منها: «شرح ألفية العراقى والبخارى» وغيرها. توفى سنة (٩٢٦ هـ). انظر: شذرات الذهب (٨/ ١٣٤)، هدية العارفين (١/ ٣٧٤)، الكواكب السائرة (١/ ١٩٦).

(2) أخرجه مسلم (كتاب الإيمان حديث رقم ٢٦٥)، البيهقى فى الدلائل (٢/ ٣٧٣).

(3) سورة ق: ٢٩.

فى كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشر، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له سيئة واحدة»[1].

كما قال: (وَلَهَا) أى لتلك الخمس (أَجْرُ الخَمْسِينَ كَمَا شَاءَهُ) أى أراده الله تعالى (فِي الأَزَلِ وَقَضَاهُ) بمعنى أراده الله تعالى، ولينظر هل كانت الخمسون المنسوخة بعشر أمثالها أيضًا فتكون خمسمائة صلاة أم كانت من غير مضاعفة.. قف وحرر.

تنبيه

هل فرضت الصلوات الخمس ركعتين ركعتين حينئذ ثم زيد بعد الهجرة فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر كما فى قول عائشة، أو من حينها فى الحضر أربعًا أربعًا وفى السفر ركعتين ركعتين كما هو قول ابن عباس - رضى الله عنهما.

قال الشيخ الشرقاوى وغيره: إن الصلوات الخمس كانت لكل عشرة منها فى وقت صلاة من الخمس: أى بتكرر كل واحد عشر مرات، وكانت كل صلاة منها ركعتين حضراً وسفراً فجملتها مائة ركعة، ثم بعد التخفيف استمرت الخمس كذلك بعد الهجرة بنحو شهر، ثم حصل زيادة فى المغرب والرباعيات واستمرت على ما كانت عليه.

وقيل: إن الخمس فرضت هكذا ابتداء عند التخفيف فى الحضر أربعًا أربعًا إلا المغرب فثلاثًا، والصبح فركعتان، وكذا الجمعة. وفى السفر ركعتين ركعتين. والصحيح الأول.

وفى فرض الصلوات الخمس كلها على النبى ﷺ وأمته دون سائر الرسل وأممهم تشريف وتفخيم خاص به وبهم فإن مجموع هذه الصلوات الخمس لم تفرض على من قبله وإنما ورد كما فى «التحفة»: أن الصبح لآدم، والظهر

(١) أخرجه مسلم (فرض الصلاة: ٢٥٩)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٨٤).

لداود، والعصر لسليمان، والمغرب ليعقوب، والعشاء ليونس ـ صلى الله على نبينا وعليهم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

قال بعضهم: والحكمة فى جعل الصلوات فى اليوم والليلة خمسًا: أن الحواس لما كانت خمسًا والمعاصى تقع بواسطتها كانت كذلك لتكون ماحية لما يقع فى اليوم والليلة من المعاصى بسبب تلك الحواس.

قيل: وجعلت مثنى وثلاث ورباع؛ ليوافق أجنحة الملائكة، كأنها جعلت أجنحة للشخص يطير بها إلى الله تبارك وتعالى.

(ثُمَّ) هبط ﷺ إلى بيت المقدس، ولم يُصل ولم يَرَ الأنبياء ولا غيرهم كما عليه الجمهور، وركب البراق بعد حَلّه من خرق الصخرة التى ربطه فيها جبريل عند صعوده ﷺ.

(وَعَادَ) منه إلى مكة المشرفة (فِى لَيْلَتِه) تلك على الراجح عند الجمهور، والظاهر المناسب أن جبريل لم يفارقه، ويدل له ما يأتى: أنه لما كان بذى طوى قال لجبريل: «إن قومى لا يصدقونى...» إلخ.

وعلى فرض أنه ليس معه أحد فهو آمن من المخاوف ومن إضلال الطريق، ولعل كراهة السفر للمنفرد لم تكن شرعت إذ ذاك، أو أنه لبيان الجواز.

ومر فى طريقه بعير[1] لقريش، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت، وصرع بعير عليه غرارتان[2] سوداء وبيضاء، فسلم عليهم النبى ﷺ فقال بعضهم: هذا صوت محمد.

ورأى بعيرًا ضل وجمعه واحد منهم.

ثم لما كان بذى طوى قال لجبريل: «إن قومى لا يصدقونى». فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ يصدقك أبو بكر[3].

---

(١) العير: الإبل بأحمالها.

(٢) الغرارتان: تثنية غِرارة وهى الجُوالق.

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ١٤٤). وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ١٥٥) والخصائص الكبرى (١/ ٢٩٠) لسعيد بن منصور وابن مردويه.

ووافى مكة قبل الصبح، فخرج إلى المسجد الحرام وقعد معتزلاً حزينًا، فمر به عدو الله أبو جهل فجلس إليه وقال كالمستهزىء: هل استفدت الليلة من شىء؟ فقال ﷺ: «نعم أُسرى بى الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم». فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه.

قال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى؟ قال: «نعم». قال أبو جهل: يا معشر بنى كعب بن لؤى، هلموا. فانقضت إليه المجالس فجاءوا حتى جلسوا إليهما، فقال: حدّث قومك بمثل ما حدثتنى.

فقال: «إنى أُسرى بى الليلة» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم». فكذبوه وصاروا عند ذلك ما بين مصفق وواضع يده على رأسه متعجبًا، وضجّوا وعظموا ذلك. قال المُطْعِمُ بن عَدِىٍّ: كل أمرك قبل اليوم كان أَمَمًا ـ أى سهلاً ـ غير قولك اليوم، ثم كذبه وقال: نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مَصْعِدًا شهرًا، ومُنْحَدِرًا شهرًا تزعم أنك أتيته فى ليلة، واللات والعُزَّى لا أصدقك. فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يا مُطْعِم، بئس ما قلت لابن أخيك؛ جبهته وكذبته، أنا أشهد أنه صادق[1].

وهو المراد بقوله رحمه الله: (وَصَدَّقَهُ الصِّدِّيقُ) أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وقال: إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك فى خبر السماء فى غدوة أو روحة، فلذلك سمى الصِّدِّيق كما مر.

(وَ) صدقه أيضًا (كُلُّ ذِى) صاحب (عَقْلٍ) يمنع صاحبه من الوقوع فى مهوات تنقيص أحد من رسل الله فضلاً عن تكذيبهم.

(وَ) صدقه كل ذى (رَوِيَّة) تأن فى الأمور وتدبر؛ لأنه يلزم من تكذيب

(١) المنتظم (٣/ ٣٠)، مسند أحمد (١/ ٣٠٩)، وعزاه الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٤، ٦٥) للبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

الرسول تكذيب البارىء سبحانه وتعالى المؤيد له بالمعجزة القائمة مقام قوله تعالى: صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى.

(وَكَذَّبَتْهُ قُرَيْشٌ وَارْتَدَّ) من كان قد أسلم منهم؛ لعدم رسوخ الإيمان فى قلوبهم وتمكنه من أفئدتهم لكونهم لم يكونوا من ذوى التمكين الصادق فى التصديق؛ فلضعف إيمانهم زلزلهم هذا الحادث العظيم عما كانوا قد اتصفوا به من الدين القويم؛ فكانوا من جملة (مَنْ أَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ) الرجيم المتمرد من الجن. والتعريف للجنس أو للاستغراق، ويجوز أن يكون للعهد، ويعلم غيره بطريق الدلالة فيحتمل أن يكون المراد إبليس أو هو وأعوانه، والمشهور أن إبليس هو أبو الجن كما أن آدم عليه الصلاة والسلام أبو البشر ويسمى: عزازيل، وقيل: الحارث، ويكنى أبا مرة، ولاَقِسْ بزنة فاعل، أو لاقيس بزيادة ياء وهو الأشهر الأصح.

وفى «اليواقيت» للإمام الشعرانى: أنه ليس بأب الجان؛ فإن الجان كانوا قبله؛ وإنما هو أول من عصى، ومرتبته أن يوسوس للناس بما يُهلكهم أو يُنقص مقامهم عند الله من حيث لا يشعرون، ولكن قد أخبر الله تعالى أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون؛ أى يضيفون إليه أمر الإغواء مع الغفلة عن الله تعالى وتقديره، فمن أخذ وسوسته مع الحذر منه ولم يعمل بها نجا من كيده.

ومن دسائسه التى تخفى: أن يجدّ الإنسان فى طاعة فيوسوس له بفعل غيرها لينقله منها، فإن حفظ الله العبد أطلعه على أن هذا الفعل تلبيس من الشيطان فيجتنبه ويرد الشيطان خاسئًا، وإن لم يحفظ الله العبد ـ والعياذ بالله ـ هلك مع الهالكين.

(وَأَغْوَاهُ) فأهواه فى دركات الجحيم وأنواع العذاب الأليم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!!.

وبعد أن أخبرهم بذلك وانزعجوا وعظموا ذلك سأله المشركون عن علامة تدلهم على صدقه فقالوا: يا محمد! صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ - وفى القوم من سافر إليه - فذهب ينعتُ لهم حتى التبس عليه النعت، فكرب كربًا ما كرب مثله، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عُقَيْل أو عِقَال[1]، وهذا أبلغ مما قيل أنه وضع حيث يراه، ولا استحالة فيه؛ فقد أُحْضِرَ عرشُ بلقيس فى طرفة عين. وقيل: أطلعه الله عليه وهو فى مكانه - فقالوا: فكم للمسجد من باب؟ - ولم يكن عدّها - فجعل ينظر إليها ويعدّها بابًا بابًا، ويُعْلِمَهُم، وأبو بكر يقول: صدقت، صدقت، أشهد أنك رسول الله ﷺ. فقال القوم: أما النعت: فوالله لقد أصاب. ثم قالوا: يا محمد، أخبرنا عن عيرنا. قال: «أتيتُ على عير بنى فلان بالرَّوحاء قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا فى طلبها، فانتهيتُ إلى رحالهم فليس بها منهم أحد - أى مستيقظ - بل بعضهم ذهب فى طلب تلك الناقة، وبعضهم كان نائمًا، وإذا قدح ماء فشربت منهم، ثم انتهيتُ إلى عير بنى فلان بمكان كذا وكذا فيها جمل عليه غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذيت تلك العير نفرت وصرع ذلك البعير وانكسر، ثم انتهيت إلى عير بنى فلان فى التَّنعِيم[2] يقدمها جمل أورق[3] عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان وها هى ذه تطلع عليكم من الثنية».

قالوا: فمتى تجيء؟ - يعنى العير المتقدم ذكرها - قال: «يوم الأربعاء» فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولى النهار ولم تجيء، فَدَعَا النبى ﷺ فزيد له فى النهار ساعة، وحُبست عليه الشمس حتى دخلت العير[4] -

(١) الوفا ص (١٢٧)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٣)، مسند أحمد (١/ ٣٠٩).

(٢) التَّنعيم: خارج الحرم، وهو أدنى الحلِّ إليه، على طريق المدينة، منه يحرم المكيون بالعمرة، على ثلاثة أميال من مكة. (مراصد الاطلاع ١/ ٢٧٧).

(٣) جمل أورق: أى فى لونه بياض إلى سواد. وقيل: يضرب لونه إلى الخضرة.

(٤) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٤٠٤).

وقد وقع له مثل ذلك فى حفر الخندق أيضًا، ولصلاة علىٍّ كرم الله وجهه - فاستقبلوا الإبل، فقالوا: هل ضلّ لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا العير الأخرى، فقالوا: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة ماء؟ فقال: رجل أنا والله وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريقت فى الأرض. فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [1]. أى لقريش فإن منهم من ارتد، ومنهم من نافق، ومنهم من عابه وكذّبه، ومنهم من صدّق كلامه وصوّبه، ومنهم من توقف فى حاله وأمره، ومنهم من هو متردد فى سره. فلم تتفق كلمتهم على تصديقه فى هذه القضية ولم يذعنوا لما منحه الله وخصه به من بين سائر البرية ﷺ.

فإن قيل: كيف استباح النبى ﷺ شُرْبَ الماء الذى فى القدح وهو مِلْكٌ لغيره وأملاك الكفار لم تكن استبيحت يومئذ ولا دماؤهم؟ فالجواب كما فى «الابتهاج»: أن العرب فى الجاهلية كان فى عُرْف العادة عندهم إباحة اللبن لابن السبيل فضلاً عن الماء، وكانوا يعهدون بذلك إلى رُعاتهم ويشترطون عليهم عند عَقْد إجاراتهم أن لا يمنعوا اللبن من أحد مرَّ بهم، فكيف الماء؟ وللحكم بالعرف فى الشريعة أصولٌ تشهد له.. انتهى.

* * *

(١) سورة الإسراء: ٦٠.

[تعليم جبريل رسول الله ﷺ الصلاة]

ثم الذى يظهر أنه لما فرغ من محاجّة قريش وانصرفوا جاءه جبريل بعد الزوال ليعلمه كيفية الصلاة التى فُرضت عليه وعلى أمته؛ لأنهم أجمعوا على أن أول صلاة صلاها بعد الإسراء هى الظهر يومه، وأنه ﷺ جمع الصحابة وأخبرهم بأن جبريل جاءه ليعلمهم الصلوات التى فرضت عليهم وأوقاتها، فأحرم جبريل إمامًا عند البيت، وأحرم النبى ﷺ وأصحابه خلف جبريل فهو الإمام لهم لكنهم لم يروا جبريل والنبى ﷺ راء له.

كان النبى كالرابطة لهم خلافًا لمن زعم أنهم مقتدون بالنبى ﷺ إلا إن أراد صورة المتابعة المذكورة، وكذا بقية الصلوات فى اليومين، وإنما لم يجب صبح ذلك اليوم لأنها متوقفة على التعليم ولم يوجد.

واختيرت صلاة الظهر ابتداء إشارة إلى ظهور دينه ﷺ على سائر الأديان ظهورها على سائر الصلوات. وفى توقف مجىء العير على يوم الأربعاء دليل على أن اليومين اللذين صلى بهم جبريل قبله يوما الإثنين والثلاثاء، ويلزم منه أن يكون الإسراء ليلة الإثنين، وبه قال ابن دحْية كما تقدم. . والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفِ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

[عرض النبى ﷺ نفسه على القبائل]

(ثُمَّ) بعد أن مكث ﷺ ثلاث سنين من أوّل نبوته مستخفيًا ونزل قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (1) فى السنة الرابعة من ابتداء رسالته، وأراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعده له، وأبى إلا أن يتم نوره: أمره كما فى حديث على ـ رضى الله عنه ـ أن يعرض نفسه على قبائل العرب ليظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فزاد ﷺ فى إعلان أمر ربه، وَجَدَّ واجتهد وبالغ و (عَرَضَ) أظهر (نَفْسَهُ عَلَى) كل قبيلة (مِنْ القَبَائِلِ) الواردة إلى مكة وغيرها من العرب، واستمر على ذلك مدة عشر سنين، وفى هذه المدة وقع جميع ما تقدم من العرض، والهجرة إلى الحبشة، والخروج إلى الطائف، والإسراء، وأعاد العرض هنا مراعاة لالتزام ترتيب الوقائع لوقوع العرض قبل الإسراء وبعده؛ ولأن العرض فيما تقدم لم يكن إلا على من كان يظن منه الإجابة.

فلما نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ بالغ فى الإظهار والتعميم؛ فكان ﷺ يتبع الحاج بمنى والموقف يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة يأتى إليهم فى منازلهم بعكاظ(2)، ومجنة(3)، وذى المجاز(4) ـ أسواق عظام تأتى إليها سائر القبائل من الآفاق البعيدة ـ ويخبرهم (بِأَنَّهُ رَسُولَ الله) إليهم، ويدعوهم إلى توحيده، وعلى أن يمنعوه ممن يؤذيه حتى يبلغ رسالة ربه كما كان يصنع

(1) سورة الحجر: ٩٤.

(2) عكاظ: مكان بين مكة والطائف تقام فيه سوق للعرب فى موضع كان يسمى «الأيثداء» وبه كانت حرب الفجار، التى شارك النبى ﷺ فيها وهو طفل صغير. (مراصد الاطلاع ٢/١٥٣).

(3) المجنة: بلدة كانت بمر الظهران قرب جبل يقال له: «الأصفر» وهو بأسفل مكة، وكانت تقام بها سوق للعرب. (مراصد الاطلاع ٢/٤٨٥).

(4) ذى المجاز: سوق للعرب يقع خلف عرفة. وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يومًا من ذى القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيه أيام الحج.

(فِيْ) فى كل عام فى (الأَيَّامِ المَوْسِمِيَّةِ) أى المنسوبة إلى المواسم، وكان موسمهم فى رجب.

فعن أبى طارق ـ رضى الله عنه ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب، يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». وخلفه رجل يقول: يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذب. فسألت عنه فقيل: إنه غلام عبد المُطَّلب. فقلت: ومن هذا الرجل الذى يكذبه؟ فقيل: هو عمه عبد العُزَّى. يعنى أبا لهب لعنه الله[1].

وفى السيرة الشامية عن بعضهم قال: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى، ورسول الله ﷺ يقف فى منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بنى فلان، إنى رسول الله ﷺ يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله عز وجل ما بعثنى به» قال: وخلفه رجل أحول يقول: يا بنى فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعُزَّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه. فقلت لأبى: من هذا الرجل يتبعه ويرد عليه ﷺ ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العُزَّى بن عبد المُطَّلب[2].

قال بعضهم: فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ كبير السن لا يقدر أن يوافى معهم المواسم، فلما قدموا عليه سألهم عما كان فى موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش أَخُ بنى عبد المُطَّلب يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يده على

---

(١) أخرجه الترمذى (ثواب القرآن: ٢٤)، أبو داود (السنة: ٢٠)، ابن ماجه (المقدمة: ١٣)، الدارمى (فضائل القرآن: ٥)، ابن الجوزى ص (١٨٠)، البيهقى فى الدلائل (٥/ ٣٨٠)، أحمد فى المسند (٣/ ٤٩٢)، الطبرانى فى الكبير (٥/ ٥٦) (٨/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه النسائى (٨/ ٥٥)، الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١١)، البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٣٨١)، الدارقطنى (٣/ ٤٤)، الطبرانى فى الكبير (٨/١٥)،، البيهقى فى السنن (٥/ ٣٨٠).

رأسه ثم قال: يا بنى عامر هل لها من تلاف؛ أى تدارك؟! هل لها من مطلب؟! والذى نفس فلان بيده ما يقولها ـ أى ما يدعى النبوة أحد ـ كاذبًا من بنى إسماعيل قط، وإنها لحق وإن رأيكم غاب عنكم.

وذكر الواقدى ـ رحمه الله ـ أنه ﷺ كان يأتى بنى عبس،وبنى سليم، وغَسَّان، وبنى محارب، وفزارة، ومُرَّة، وبنى نصر، وعذرة، والحضارمة فيردون عليه أقبح ردّ ويقولون: عشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.

ومن جملة تعنتهم كما فى الحديث أنهم قالوا له: قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدًا ولا عيشًا، ولا أقل مالاً منا، فسل ربك فليزل عنا هذه الجبال التى ضيَّقت علينا، ويبسط لنا فى بلادنا، ويفجر لنا فيها أنهارًا كالشام، ويحيى لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيهم قُصَىّ بن كِلاَب؛ فإنه كان شيخًا صادقًا، فإن صدقوك صدقناك.

ولم يكن أحد من العرب أقبح ردًا عليه من بنى حنيفة ـ وهم أهل اليمامة ـ قوم مُسيلمة الكذاب، وقيل لهم بنو حنيفة: لأن أمهم حنيفة، قيل لها ذلك لحنف كان فى رجلها، وثقيف ومن ثم جاء: شر قبائل العرب بنو حنيفة وثقيف.

لطيفة

ترفع هو ﷺ وأبو بكر إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: وأى ربيعة من هامتها أو مِنْ لهازمها؟ قالوا: بل الهامة العظمى. قال: من أيها؟ قالوا: من ذُهل الأكبر. قال: منكم حامى الذمام، ومانع الجار فلان؟ قالوا: لا. قال: منكم قاتل الملوك وسالبها فلان؟ قالوا: لا. قال: منكم صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فلستم من ذُهل الأكبر، أنتم من ذُهل الأصغر. فقام إليه شاب فقال: إن على سائلنا أن نسأله، يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، فمن أنت؟ قال أبو بكر: أنا من قريش. فقال الفتى: بَخٍ بَخٍ، أهل الشرف

والرياسة. قال: فممن أى قريش أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة. فقال: أمنكم قُصَىّ الذى كان يدعى مُجَمِّعًا؟ قال: لا. قال: أمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه؟ قال: لا. قال: أمنكم شيبة الحمد مُطعم طير السماء الذى كان وجهه يضىء كالقمر فى الليلة الظلماء؟ قال: لا. وسكت الغلام تأدبًا فلم يقل شيئًا غير ذلك.

واجتذب أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ زمام ناقته ورجع إلى النبى ﷺ وأخبره بذلك، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال له علىٌّ: لقد وقعت من الأعراب على باقعة ـ أى داهية ـ قال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق[1].

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه ﷺ لقى جماعة من شيبان ابن ثعلبة وكان معه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ.

وعن على ـ كرم الله وجهه ـ أن أبا بكر سألهم وقال لهم: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبى أنت وأمى هؤلاء غرر ـ أى سادات ـ فى قومهم، وفيهم مفروق بن عمر، وهانىء ـ بالهمز ـ ابن قَبِيْصَةَ ـ بفتح القاف ـ ومثنى بن حارث، والنعمان بن شريك. وكان مفروق بن عمر قد غلبهم جمالاً ولسانًا، فقال له أبو بكر رضى الله عنه: كيف العدد فيكم؟ قال له مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة. قال: كيف المنعة فيكم؟ قال: علينا الجهد ولكل قوم جد. قال: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ قال: إنا لأشد ما يكون غضبًا حين نلقى، وأشد ما يكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد من الخيل على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يُديلنا ويُديل علينا، لعلك أخو قريش. قال أبو بكر: أوَ قَدْ بلغكم أنه رسول

(١) الأسرار المرفوعة ص (١٦٩) وعزاه لابن لال فى مكارم الأخلاق، والديلمى، وزاد السيوطى نسبته لأحمد فى الزهد وابن السمعانى فى تاريخه.

فيها هو ذا؟ قال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك. فإلى من تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال:

«أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله ﷺ، وإلى أن تؤونى وتنصرونى، فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد».

قال: وإلى من تدعو أيضًا يا أخا قريش؟

فقال ﷺ: « ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [1]».

قال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم عرفناه، ثم قال: وإلى ما تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: « ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى﴾ [2] الآية». فقال: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أُفِكَ قوم صرفوا عن الحق كذبوك وظاهروا عليك.

ثم قال: هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا. فقال هانىء: قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى إن تركنا ديننا على دينك بمجلس جلسته إلينا لزلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا،ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر.

ثم قال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى: قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة، وإن أحببت أنا نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب دون ما يلى أنهار كسرى فعلنا، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا وأن لا نأوى مُحدثًا.

---

(١) سورة الأنعام: ١٥١.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟».

فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذلك.

فتلا رسول الله ﷺ: « ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية[1]». ثم نهض رسول الله ﷺ[2].

ولا زال رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل فى كل موسم ويقول: «لا أكره أحدًا على شىء، من رضى بالذى أدعوه إليه فذاك، ومن كره لم أكرهه؛ إنما أريد منعى من الأذى حتى أبلغ رسالة ربى».

فلم يقبله أحد من تلك القبائل، وأتى رسول الله ﷺ رجل من همدان فأجابه ثم خشى أن لا يتبعه قومه فجاء إليه فقال: آتى قومى فأخبرهم، ثم آتيك العام المقبل. قال: فانطلق الرجل، وجاء وفد الأنصار ـ وهم الخزرج والأوس ـ فى رجب[3].

* * *

(١) سورة الأحزاب: ٤٥.

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٢٣ ـ ٤٢٧)، أبو نعيم فى دلائل النبوة (١/٢٣٧ ـ ٢٤١)، وابن الجوزى فى المنتظم (٣/٢١).

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٣، ٤١٤).

[العقبة الأولى]

قال أهل السير: لما كانت السنة التاسعة من المبعث النبوى خرج رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب على حسب عادته فلقى رهطًا من الخزرج عند العقبة أراد الله بهم خيرا فقال: «من أنتم؟» قالوا: من الخزرج. قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟». فجلسوا، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان من صنيع الله لهم أن يهود المدينة كانوا يقولون لهم إن نبيّا يبعث الآن قد أظلَّ زمانه نتبعه ونقتلكم معه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [1]. فلما سمعوا ذلك عرفوا أنه الذى كانت اليهود تذكره لهم، وقال بعضهم لبعض: والله إنه النبى الذى توعدكم به اليهود فلا يسبقونكم إليه. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام[2].

(فَآمَنَ) صدق (بِه) ﷺ (ستَّةٌ) من الخزرج ليس فيهم أحد من الأوس وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرَارَةَ[3]، وعَوْفُ بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عَفْرَاء[4]، ورافع بن مالك بن العَجْلان[5]، وقُطْبَة بن عامر بن حَدِيدة[6]، وعقبة

(١) سورة البقرة: ٨٩.

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٣٠).

(٣) هو أسعد بن زُرَارَة عُدَس النجارى، أحد شجعان الخزرج وأشرافها فى الجاهلية والإسلام، كان أول من قدم المدينة مسلمًا مع ذكوان بن عبد قيس، وهو أحد النقباء الاثنى عشر، ولم يكن فى النقباء أصغر منه سنًا، شهد العقبتين، وتوفى عام (١ هـ) ودفن بالبقيع. (الإصابة ١/ ٥٥).

(٤) هو عوف بن عفراء، أخو معاذ ومعوذ، شهد بدرًا وقال للنبى ﷺ أثناء المعركة: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده، فقال ﷺ: «أن يراه قد غمس يده فى القتال حاسرًا» فنزع عوف درعه وتقدم حتى قتل شهيدًا. (الإصابة ٤/ ٧٣٩).

(٥) رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو الأنصارى، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وأول من أسلم من الخزرج، وله رواية عن النبى ﷺ. (الإصابة ٢/ ٤٤٤).

(٦) هو قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارى، الخزرجى، شهد العقبة وبدرًا وجميع المشاهد مع النبى ﷺ، وكان معه راية بنى سلمة يوم الفتح، وتوفى فى خلافة عمر بن الخطاب. (الإصابة ٤/ ٥٢١).

ابن عامر بن نابى، وجابر بن عبد الله بن رياب بمثناة تحتية.

وفى «سيرة مُغْلَطاى» وكذا فى «الفتح» نقلاً عن موسى بن عقبة أنهم ستة، وقيل: ثمانية وهم: مُعاذ بن عفراء بدل أخيه عوف بن الحارث، وأسعد بن زُرَارَة، ورافع بن مالك، وذَكْوَان بن عبد قيس[1]، وعبادة بن الصامت[2] - وذكره بعض أهل السير بدل جابر بن عبد الله بن رياب - ويزيد بن ثعلبة[3]، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان[4]، وعُوَيْم بن ساعدة.

وهؤلاء الستة (مِنَ الأَنْصَارِ) أصله جمع ناصر كأصحاب وصاحب على تقدير حذف ألف ناصر لزيادتها فهو ثلاثى يجمع على أفعال قياسًا، ويقال: جمع نصير كشريف، وأشراف على القياس، وجمعوا جمع قلة وإن كانوا ألوفًا؛ لأن جمع القلة والكثرة إنما يعتبران فى نكرات الجمع أما فى المعارف فلا فرق بينهما.

ثم وضعه النبى ﷺ علمًا على هؤلاء ومن تبعهم من قبيلتى الخزرج والأوس باعتبار ما آل إليه أمرهم، وفازوا به دون غيرهم من نصره ﷺ وإيوائه ومن معهم، ومواساتهم بأموالهم وأنفسهم فهم من الذين (اخْتَصَّهُمُ اللهُ) تعالى (بِرِضَاهُ) فقال ﷺ للستة المتقدمين: «تمنعون ظهرى حتى أُبلغ رسالة ربى؟» فقالوا: دعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله أن يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما تدعوننا إليه فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن أجابوا فلا أحد أعزّ منك، وموعدك الموسم القابل. فلما وصلوا إلى المدينة لم يبق دار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، فلم يقع لهؤلاء الستة أو الثمانية مبايعة،

(١) هو ذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر الأنصارى الخزرجى، شهد العقبة وأحد، وقال عنه ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى رجل يطأ بقدمه غداً خضرة الجنة فلينظر إلى هذا» فاستشهد فى المعركة. (الإصابة ٢/٤٠٦).

(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى، صحابى جليل، عرف بالورع، شهد العقبة وبدراً وجميع المشاهد، كما حضر فتح مصر، وولى القضاء بفلسطين، وتوفى بالرملة سنة (٣٤ هـ) وروى عن النبى ﷺ (١٨١) حديثً. (تهذيب التهذيب ٥/١١١).

(٣) هو يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أحرم، شهد العقبة الثانية (الإصابة ٧/ ٦٥٠).

(٤) هو أبو الهيثم بن التيهان بن مالك بن عتيك الأنصارى الأوسى، شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، وآخى النبى ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، وله رواية فى الحديث، توفى سنة (٢٠ هـ). (الإصابة ٧/٤٤٩).

ويسمى هذا ابتداء إسلام الأنصار.

قال فى «إنسان العيون»: وربما سمَّاه بعضهم: «العقبة الأولى»؛ لوقوع الاجتماع عند العقبة.

* * *

[العقبة الثانية]

(وَحَجَّ) أى قصد مكة (مِنْهُمْ) أى من الأنصار (فِى) موسم العام (القَابِلِ) أى السنة التى تلى تلك السنة (إِثْنَا عَشَرَ رَجُلاً) خمسة من الستة المذكورين قبل غير جابر والبقية منهم: خمسة من الخزرج أيضًا وهم: مُعاذ بن عَفْرَاء، وأخوه عوف، وذَكْوَان بن عامر، وعُبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وعياش بن عباد، واثنان من الأوس وهما: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وعُوَيْم بن ساعدة[1] - رضى الله عنهم.

وهذه هى «العقبة الثانية» أى بالنسبة لما قبلها، وقد يقال لها العقبة الأولى بالنسبة لوقوع المبايعة عندها إذ ما قبلها لم يقع فيه غير الاجتماع والإسلام كما علمت.

فأسلموا وقبلوا ما اشترطه عليهم (وَبَايَعُوهُ) ﷺ (بَيْعَةً حَقِّيَّةً) بفتح الحاء المهملة فقاف مكسورة فمثناة تحتية مشدّدتين فهاء نسبة للحق ضد الباطل، أى لم يكن فى أنفسهم غير الصدق والوفاء وبذل أنفسهم دون رسول الله ﷺ.

قيل: وبايعهم ﷺ على بيعة النساء أى على وفق بيعتهم التى أنزلت عند فتح مكة وهى: أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف،

---

(١) هو عويم بن ساعدة بن قيس، أبو عبد الرحمن، شهد العقبتين وبدرًا وأحدًا والأحزاب، وتوفى فى حياة النبى ﷺ، وقيل فى خلافة عمر بن الخطاب. (الاستيعاب ٣/١٢٤٨).

والسمع والطاعة فى العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم. قال: فإن أوفيتم فلكم الجنة، ومن غشى من ذلك شيئًا كان أمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[1]. وفى رواية: «فإن رضيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فإن جئتم بحدٍّ فى الدنيا فهو كفارة لكم فى الدنيا، وإن سترتم عليه فأمركم إلى الله إن شاء عذب، وإن شاء غفر»[2].

وفى هذا كما فى «إنسان العيون» رد على من قال بوجوب التعذيب لمن مات بلا توبة على من قال بكفر مرتكب الكبيرة.

ولم يُفرض يومئذ القتال، فلم يبايعهم عليه، وهذا الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما بألفاظ متقاربة، لكن لم يقع فى رواية الشيخين بأن المبايعة هذه ليلة العقبة، نعم إخراج البخارى الحديث فى وفود الأنصار ظاهرٌ فى وقوعها ليلتئذ، وبه جزم عياض وغيره، لكن رجَّح الحافظ أن المبايعة ليلة العقبة إنما كانت على الإيواء والنصر وما يتعلق بذلك، وأما على الصفة المذكورة فإنما هى بعد فتح مكة وبعد نزول آية الممتحنة بدليل ما فى البخارى فى حديث عُبادة هذا أنه ﷺ لما بايعهم قرأ الآية كلها، و «لمسلم»: فتلا علينا آية النساء. ثم قال: وإنما حصل الالتباس من جهة أن عُبادة حضر البيعتين معًا، وكانت بيعة العقبة من أجلِّ ما ينمدح به فكان يذكره إذا حدّث تنويهًا بسابقيته، فلما ذكر هذه البيعة التى صدرت على مثل بيعة النساء توهَّم من لم يقف على حقيقة الحال أن بيعة العقبة وقعت على ذلك، وإنما وقعت على الإيواء والنصر وما يتعلق بذلك.. انتهى ملخصًا.

وفى «إنسان العيون»: أقول ليس فى كلام عُبادة ـ رضى الله عنه ـ أن هذه البيعة بيعة العقبة؛ إذ لم يقل: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة العقبة، وإن كان

(١) أخرجه البخارى (مناقب الأنصار: ٣٨٩٣)، مسلم (الحدود: ٤٤).

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٣٦)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٢٢١).

السياق يقتضيه، وحينئذ فلا يحسن أن يكون كلام عُبادة شاهدًا لمن قال: وتلا عليهم آية النساء، بل هو دليلٌ على أن هذه المبايعة متأخرة عن يوم الفتح كما قال الحافظ.. والله أعلم.. انتهى.

وقال القسطلانى: الراجح أن التصريح بأن بيعة العقبة وقعت على وفق بيعة النساء وَهْمٌ من بعض الرواة، والذى دل عليه الأحاديث: أن البيعة ثلاث: العقبة كانت قبل فرض الحرب، والثانية: بعد الحرب على عدم الفرار، والثالثة: على نظير بيعة النساء.. انتهى.

(**ثُمَّ انْصَرَفُوا**) رجعوا إلى أهليهم (**وَظَهَرَ**) شاع وأفشا (**الإِسْلاَمُ بِالَمدِينَة**) طَابة المُستطابة (**فَكَانَتْ مَعْقِلَهُ**) بالعين المهملة والقاف كمسجد؛ أى ملجأه ومحل استقراره (**وَمَأوَاهُ**) أى مسكنه الذى يأوى إليه، فكان أسعد بن زُرَارَة يَجْمَعُ بالمدينة بمن أسلم، وكتب الأوس والخزرج إلى النبى ﷺ أن ابعث إلينا من يُعلمنا القرآن فبعث إليهم مُصعب بن عُمَيْر رضى الله عنه، وكان يُصلى بهم الجمعة. وقيل: وهو أول من صلى بهم الجمعة، وكانوا أربعين رجلاً.

لكن عند ابن إسحاق وغيره: أن أول من صلى بهم الجمعة أسعد بن زُرَارَة. وجُمِعَ بأن أسعد بن زُرَارَة كان المعاون على الجمع، والمُصلى هو مُصعب بن عُمير فنسب التجميع لكل منهما.

وكان مصعب يسمى المقرئ، وأسلم على يديه جمع كثير منهم: سيد الأوس سعد بن مُعَاذ الأشهلى الذى وافق حكمه حكم الله واهتز عرش الرحمن لموته، وأُسَيْد بن حُضَيْر أسلما فى يوم واحد؛ أُسَيْدٌ أوّلا ثم سعد، وقصتهما مبسوطة فى السير، وأسلم بإسلامهما جميع بنى عبد الأشهل فى يوم واحد الرجال والنساء؛ وذلك أن سعدًا لما ذهب لمصعب وأسلم أقبل الى نادى قومه ومعه أُسيد فقال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال فى الرواية: فوالله ما أمسى منهم أحد ـ رجل ولا امرأة ـ إلا

مسلمًا أو مسلمة حاشا الأصيرم وهو عمر بن ثابت بن وقش فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد بأحد ولم يسجد لله سجدة، وأخبر ﷺ أنه من أهل الجنة[1]. ولم يكن فى بنى عبد الأشهل منافق ولا منافقة بل كانوا كلهم حقًا مخلصين رضى الله عنهم.

(وَقَدِمَ عَلَيْهِ) ﷺ بمكة من الأنصار (فِى) العام (الثَّالِث) فى ذى الحجة أوسط أيام التشريق، وهى العقبة الثالثة (سَبْعُونَ) رجلاً (أَوْ) سبعون (وَثَلاثَةٌ) رجال (وَامْرَأَتَانِ) أى منهم: من الخزرج اثنان وستون رجلاً وامرأتان والباقى من الأوس كما يؤخذ مما يأتى عن «الإصابة»، وهو مقتضى كلام الحلبى فى «إنسان العيون» حيث قال بعد أن ذكر عددهم كما ذكر أى منهم أحد عشر رجلاً من الأوس.. انتهى. والمرأتان قد عينهما ابن إسحاق فقال: نَسِيبة - بفتح النون وكسر المهملة كما جزم به فى «الإصابة»، وفى «إنسان العيون» بالتصغير - بنت كعب بن عمرو بن عوف المازنى النجارى وهى أم عُمَارة[2]، وكانت تشهد الحرب مع رسول الله ﷺ، شهدت هذه العقبة مع زوجها زيد ابن عاصم وولديها حبيب، وعبد الله.

وحبيبٌ هذا أخذه مسيلمة الكذاب - لعنه الله - وصار يعذبه ويقول: أتشهد أن محمدًا رسول الله، فيقول نعم. ثم يقول: وتشهد أنى رسول الله، فيقول: لا. فيقطع عضواً من أعضائه، وهكذا حتى فنيت أعضاؤه.

والثانية: أسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى[3] من بنى سلمة.

وفى «الإصابة» وكان من بنى الخزرج إثنان وستون رجلاً وامرأتان وهما: نسيبة وأختها ابنتا كعب.

---

(١) أخرجه البخارى (٣٨٨٩).

(٢) هى نُسَيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف، الأنصارية، أم عمارة، شهدت العقبة الثانية، كما شهدت أحد ودافعت فيها عن النبى ﷺ حتى جرحت، كما شهدت موقعة اليمامة وقاتلت فيها حتى قطعت يدها. (الإصابة ٨/ ١٤٠).

(٣) هى أسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى الأنصارية السلمية، وكنيتها أمُّ منيع، شهدت العقبة الثانية. (الإصابة ٧/ ٤٨٩).

وقيل: الثانية أم مُنيع، وقد أخرج ابن سعد عن الواقدى بسند له إلى أمّ عمارة قالت: كانت الرجال تصفق على يدى رسول الله ﷺ ليلة العقبة والعباس آخذٌ بيده، فلما بقيت أنا وأمّ مُنيع، نادى زوجى غزية بن عمرو: يا رسول الله، هاتان امرأتان حضرتا معنا تبايعانك. فقال: «قد بايعتكما، إنى لا أصافح النساء»[1].

وقيل: أمّ مُنيع هى: أسماء بنت عمرو. والحاصل أنهم اختلفوا فى المرأة الثانية فقيل: أخت نسيبة. وقيل: أسماء بنت عمرو، وقيل: أمّ مُنيع، وقيل: أمّ مُنيع هى أسماء بنت عمرو المذكور.

وأجمل الحاكم هذا العدد فقال: خمسة وسبعون نفسًا.

(مِنَ القَبَائِلِ الأَوْسِيَّةِ وَالخَزْرَجِيَّةِ) أى المنسوبة إلى الأوس والخزرج سُموا باسم جدهما الأعليين الأوس والخزرج الأكبر ولَدى حارثة بن ثعلبة.

قال بعضهم: وكانا فى الأصل أخوين فوقعت العداوة بينهما مدة مائة وعشرين سنة فصارا قبيلتين، فلما بعث الله النبى ﷺ وقعت المحبة بينهما ببركته ﷺ ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً**﴾[2] الآية، وكل قبيلة منهما تشتمل على قبائل.

قال كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ خرجنا حاجين مع مشركى قومنا وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلما وصلنا مكة ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ قبل ذلك فسألنا عنه، فقيل: هو مع العباس. فدخلنا فجلسنا إليه، ثم خرجنا إلى الحج وواعدناه العقبة، فاجتمعنا عند العقبة.

قال: فجاء العباس فتكلم معه، فقال: إن محمدًا منا من حيث علمتم، وقد منعناه وهو فى عزٍّ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وذاك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه.

---

(١) أخرجه النسائى (البيعة: ١٨)، ابن ماجه (٤٣)، أحمد فى مسنده (٦/ ٣٦٥).

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣.

قال: فقلنا: تكلَّم يا رسول الله، فَخُذْ لنفسك ما أحببت. فتكلم فدعا إلى الله، وقرأ القرآن، ورَغَّب فى الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم».

وقال البراء رضى الله عنه: إنَّا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ.

قال: فأخذ البراء بن معرور بيديه فكان أول من ضرب على يديه ﷺ فى البيعة ليلة العقبة، ويقال: أسعد بن زُرَارَة، وتابعه الباقون[1]. (فَبَايَعُوهُ) على ذلك وعلى حرب الأحمر والأسود

وكانت أول آية نزلت فى الإذن بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ [2] الآية. وفى «الإكليل»: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [3] الآية، فإن قيل: كيف بايع النبى ﷺ المرأتين؟ والمبايعة إنما كانت بالمصافحة والنبى ﷺ لا يصافح النساء، قلنا إنما كان يأخذ عليهن العهد بالكلام فإذا حفظن المبايعة قال: «اذهبن فقد بايعتكن» كما تقدم فى رواية ابن سعد عن الواقدى بسند له إلى أمٍّ عمارة.

ولا ينافيه ما رواه الطبرانى فى الأوسط عن معقل بن يسار: «كان [رسول الله ﷺ] يصافح النساء من تحت الثوب» لإمكان الجمع بأن هذا مقيد بالأقارب وذاك بالأجانب. وقال المُناوى: وَزَعْمُ أنه كان يصافحهن بحائلٍ لم يصح. وقيل: مصافحة النساء الأجانب مخصوص به ﷺ لعصمته فلا يجوز لغيره مصافحة أجنبية.

(وأَمَّرَ) بفتح الهمزة والميم مشددة أى ولَّى وخلَّف بالتشديد فيهما (عَلَيْهِمْ اثْنَى عَشَرَ نَقِيبًا) أولياء. قال السهيلى: اقتداء بقوله تعالى فى قوم موسى:

---

(١) مسند أحمد (٣/٣٣٩ ـ ٣٤٠)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٤٣ ـ ٤٤٧)، سيرة ابن هشام (١/٤٣٩)، المنتظم (٣/٣٤)، تاريخ الطبرى (٢/ ٣٦٠).

(٢) سورة الحج: ٣٩.

(٣) سورة التوبة: ١١١.

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[1] (جَحَاجِحَةً) بجيم مفتوحة فحاء مهملة فجيم مكسورة فحاء مهملة جمع جحاجح كذا نقله بعضهم عن «المختار»، وفى «القاموس»: جمع جَحْجَح كالجَحْجَاح بفتح: السيد فى قومه (سَرَاهُ) بفتح السين المهملة جمع سرى بمعناه. قال ابن إسحاق: تسعة من الخزرج: أسعد بن زُرَارَة، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، ورافع بن مالك، وابن جابر، وعبد الله بن عمر، والبراء بن معرور، وسعد بن عبادة، والمنذر ابن عمرو، وعُبادة بن الصامت، وثلاثة من الأوس: أُسَيْد بن حُضَيْر، وسعد ابن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر.

قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التَّيِّهان بدل رفاعة.

وروى البيهقى عن الإمام مالك، حدثنى شيخ من الأنصار: أن جبريل كان يشير له إلى من يجعله نقيبًا[2]، وقال ابن إسحاق، حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم» قالوا: نعم[3].

وفى حديث جابر عند أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم، وابن حبان: مكث ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم بمنى وغيرها يقول: «من يؤوينى، من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة» حتى بعثنا الله له من يثرب... فذكر الحديث[4].

وفيه: «وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم بيثرب، فتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»[5] الحديث.

---

(١) سورة المائدة: ١٢.

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٥٣)، الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ص (٧١).

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٥٢)، أحمد فى مسنده (٣/ ٣٢٢)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٤٦).

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢، ٣، ١٣٩)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٢٤٢)، ابن الجوزى فى الوفا ص (١٨١).

(٥) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٥٢).

وللبزار عن جابر: قال ﷺ للنقباء من الأنصار: «تؤونى وتمنعونى» قالوا: نعم، فما لنا؟ قال: «الجنة».

وعند ابن إسحاق: فقال أبو الهيثم: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال - أى اليهود - حبالاً، وإنَّا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»[1].

قال فى «المواهب» و «شرحه» : وحضر العباس العقبة تلك الليلة متوثقًا لرسول الله ﷺ ومؤكدًا على أهل يثرب، وكان يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، فلما جلس كان أول متكلم فقال: إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه عن قومنا ممن هو على مثل رأينا منه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج فمن الآن فدعوه؛ فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده. فقالوا: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لربك ولنفسك ما أحببت. الحديث ذكره ابن إسحاق.

وقول العباس: قد أبى الانحياز إلا إليكم، ربما يفيد أن غير الأنصار وافقوه على مناصرته فأباهم، ويمكن أن يراد بهم قبيلة شيبان بن ثعلبة كما تقدم حيث قالوا له: ننصرك مما يلى مياه العرب دون ما يلى مياه كسرى، فأبى ﷺ. ويحتمل أن المراد بهم: أهله وعشيرته. والله أعلم.

(وَ) لما بايع السبعون رسول الله ﷺ وفشا الخبر وعلمت قريش أنه ﷺ آوى إلى قوم أهل حرب ونجدة، وجاء أَجِلَّتُهُم وأشرافهم حتى دخلوا شِعْبَ الأنصار، فقالوا: يا معشر الخزرج، بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، والله ما من حى أبغض إلينا

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٤٤٧)، سيرة ابن هشام (٢/ ٤٧ - ٥١)، تاريخ الطبرى (٢/ ٣٦٢).

إذن منكم، فصار مشركو الأوس والخزرج يحلفون لهم ما كان من هذا شيء وصدقوا؛ لأنهم لم يعلموه.

ونفر الناس من منى. وبحثت قريش على خبر الأنصار فوجدوه حقًا، وكانت الأنصار قد صدروا فاقتفوا أثرهم فلم يدركوا إلا سعدًا بن عبادة، والمنذر بن عمرو[1] ـ رضى الله عنهما ـ فأما سعد: فَعُذِّب فى الله، وأما المنذر: فأفلت. ثم أنقذ الله سعدًا من أيدى المشركين.

والتفتوا إلى أصحاب رسول الله ﷺ وضيقوا عليهم وأتعبوهم وأنالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون فى دينه، ومعذب فى أيديهم، وبين هارب فى البلاد، فشكوا للنبى ﷺ واستأذنوه فى الهجرة، ومكث ﷺ أيامًا لا يأذن لهم، ثم خرج مسرورًا فقال: «قد أُخبرت بدار هجرتكم؛ وهى يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها»[2].

* * *

(١) هو المنذر بن خنيس الأنصارى الخزرجى، أحد النقباء الاثنى عشر، شهد بدرًا، واستشهد يوم بئر معونة. (الإصابة ٢١٧/٦).

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٤٥٩/٢)، طبقات ابن سعد (١٥٢/١/١)، صحيح البخارى (١٢٨/٣)، صحيح ابن خزيمة (٢٦٥).

[إذن النبى ﷺ للمسلمين فى الهجرة إلى المدينة]

وحينئذ (هَاجَرَ) أى ترك الإقامة بمكة وانتقل منها (إلَيْهِمْ) إلى الأنصار بالمدينة (مِنَ) أهل (مَكَّةَ ذُو) أصحاب (المِلَّةِ الإسْلاَمِيَّةِ وَ) قوله (فَارَقُوا الأَوْطَانَ) جملة فعلية معطوفة على ما قبلها وفعلها مفسر لفعل الجملة المعطوف عليها، وإنما فعلوا ذلك (رَغْبَةً) أى حبًا وطلبًا. (فِيْمَا أُعِدَّ) أى هيئ من عند الله (لِمَنْ هَجَرَ) أى ترك (الكُفْرَ) وأهله (وَنَاوَأَهُ) أى بعد عنه مفاعلة من النوى وهو البعد؛ فإنهم تركوا أهلهم وعيالهم ومساكنهم وأموالهم وما يعز عليهم فى حب الله وحب رسوله ﷺ، وهذا من أعظم الشواهد القاضية بكمال إيمانهم، وصدق يقينهم. وكانوا يتجهزون، ويترافقون، ويتواسون، ويخرجون، ويخفون ذلك أفواجًا، وفرقًا متقطعة وفرادى.

وكان أول من هاجر من مكة إلى المدينة أبو سَلَمة بن عبد الأسد قبل بيعة العقبة بسنة قدم من الحبشة، فآذاه أهلها، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار فخرج إليهم. وهو أخو المصطفى ﷺ من الرضاعة وابن عمته برَّة، وأول من يُعطى كتابه بيمينه كما رواه ابن أبى عاصم.

وفى الصحيح عن البراء: أول من قدم إلينا مُصْعَب بن عُمير وابن أم مكتوم[1].

وجُمِعَ بأن خروج مُصعب لما كان لتعليم من أسلم بالمدينة لم يعده من الخارجين لأذى المشركين بخلاف أبى سلمة، وفيه أن مُصْعَبًا كان قد رجع إلى مكة مع من خرج من المسلمين من الأنصار إلى الموسم مع حجاج قومه من أهل الشرك ثم عاد مع الأصحاب كما فى «إنسان العيون». والأحسن فى

(١) البخارى (مناقب الأنصار: ٣٩٢٥)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٦٣)، فتح البارى (٧/٢٥٩)، تحفة الأشراف (٢/٥٥).

الجمع أن يقال: إن مُصْعَب بن عُمير أول من قدم إلى المدينة بعد العقبة الأولى، وأبا سَلَمة أول من قدم بعد العقبة الثانية، وعليه يحمل قوله: قبل بيعة العقبة أى الثانية، ويؤيده قوله: وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار أى بعد العقبة الأولى. وجمع الحافظ بحمله الأولية على صفة خاصة؛ أى أن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة بل فراراً من المشركين بخلاف مُصْعَب فكان على نية الإقامة، ولعل هذا هو سبب رجوعه إلى مكة ليقطع علائقه بمكة ويعود إلى المدينة، ثم عامر بن ربيعة وامرأته ليلى، ثم عبد الله بن جحش بأهله، وأخيه أبى أحمد الشاعر، ثم المسلمون أرسالاً ومنهم: عَمَّار ابن ياسر، وبلال، وسعد بن أبى وقاص - كما فى «الصحيح» أنهم هاجروا قبل عمر - ثم عمر بن الخطاب، ثم أخوه زيد وهو أسنّ من عمر وأسلم قبله، وعياش بن أبى ربيعة، وطلحة بن عبيد الله، ثم عثمان بن عفان، وغيرهم ممن يطول ذكره حتى لم يبق مع النبى ﷺ ممن قدر على الخروج إلا على بن أبى طالب، والصديق رضى الله عنهما.

قال فى «فتح البارى»: وكان المشركون يمنعون من قدروا على منعه منهم، فكان أكثرهم يخرج سراً إلى أن لم يبق منهم بمكة إلا من غُلِب على أمره من المستضعفين.

قال فى «الصواعق»: أخرج ابن عساكر عن علىٍّ - رضى الله عنه - قال: ما عَلمْتُ أحداً هاجر إلا مختفيًا إلا عُمَرَ بن الخطاب - رضى الله عنه - فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه وتنكَّب[1] قوسه، وانتضى[2] سهمًا فى يده، وأتى الكعبة - وأشراف قريش بفنائها - فطاف سبعًا، ثم صلى ركعتين خلف المقام، ثم أتى حلقهم واحدةً واحدة، فقال: شاهَتْ الوجوه، من أراد أن تثكلَه أُمّه أو يُوتِمَ وَلَدَه أو يُرْمِلَ زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى[3]. فما تبعه أحد.

(١) تنكَّب قوسه: ألقاها على منكبه.
(٢) انتضى سيفه: أى سلّه من غمده وتركه مُعَدًا فى يده.
(٣) السيرة الشامية (٣/ ٢٢٥).

واستأذن الصديق رسول الله ﷺ فى الهجرة فقال: «لا تعجل لعل الله أن يجعلك صاحبا»[1]. فطمع أبو بكر - رضى الله عنه - فى أن يُهاجر معه ﷺ. وعند البخارى: فقال رسول الله ﷺ: «على رِسْلِك، فإنى أرجو أن يؤذن لى». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك؟! بأبى أنت وأمى. قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَفَ راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر[2].

وظاهر هذا السياق أن علفه للراحلتين كان بعد قول المصطفى له ما ذكر ومعلوم أن ذلك كان بعد مبايعة الأنصار له، والمدة بين المبايعة والهجرة كانت ثلاثة أشهر أو قريبًا منها لأنها كانت فى ذى الحجة، والهجرة فى ربيع الأول. وقال الحافظ ابن حجر: إن بين ابتداء هجرة الصحابة وهجرته ﷺ شهرين ونصفًا على التحرير.. انتهى.

* * *

(١) المنتظم (٣/ ٤٣)، السيرة الشامية (٣/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الكفالة (٤) باب جوار أبى بكر، فتح البارى (٤/ ٤٧٥)، البيهقى فى الدلائل (٢/ ٤٥٩)، ابن حبان (١٤/ ١٨٠).

والسَّمُر: هو ضرب من شجر الطلح، الواحدة سَمُرة.

[سبب هجرة النبى ﷺ بنفسه الكريمة]

(وَ) لما هاجرت الصحابة حذرت و (خَافَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يَلْحَقَ) النبى (ﷺ بِأَصْحَابِهِ) الذين هاجروا (عَلَى الفَوْرِيَّةِ) والعجلة فيخرج عليهم ويأتيهم بما لا طاقة لهم به لعرفهم أنه أجمع لحربهم، فاجتمعوا بدار النَّدْوة ـ وكانت محلاً لمشورتهم لا يقضون أمراً دونها، كما تقدم الكلام عليها مبسوطًا ـ يوم السبت. ولذا ورد: «يوم السبت يوم مكر وخديعة»[1] يتشاورون فيما يصنعون فى أمره عليه الصلاة والسلام، وكانوا مائة رجل.

وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزَّحْمَة؛ لأنه اجتمع فيه أشراف بنى عبد شمس، وبنى نوفل، وبنى عبد الدار، وبنى أسد، وبنى مخزوم، وبنى سهم، وبنى جمح، وغيرهم من قريش من أهل الرأى والحجا، وجاءهم إبليس فى هيئة شيخ جليل[2] عليه بَتٌّ ـ قيل: كساء غليظ، أو طيلسان من خَزّ ـ ووقف على الباب فقالوا: من الشيخ؟ قال: من نجد سمع بالذى اتَّعدتُم له فحضر ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يَعْدَمُكم رأيًا ونُصْحًا. قالوا: ادخل، فدخل وأمرهم أن يعرضوا عليه آراءهم ليختار أنفعها لهم.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم وإنا والله ما نأمنه من الوثوب علينا بمن تبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا.

فقال أبو البخترى بن هشام ـ المقتول كافراً ببدر ـ: احبسوه بالحديد، وأغلقوا عليه بابًا ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله.

فقال النجدى: ما هذا برأى، والله لو حبستموه لَيَخْرُجَنَّ أَمْرُه من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلا تشكوا أن يَثِبُوا عليكم فينتزعوه من

---

(١) مسند الفردوس (٨٩٩٦).

(٢) شيخ جليل: يقال: جَلَّ الرجل وَجَلَّت المرأة إذا أسنَّا.

أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا برأى فانظروا رأيًا غيره.

فقال أبو الأسود بن ربيعة بن عمير: نُخرجه من بين أظهرنا فنغيِّبه من بلادنا فلا نُبالى أين يذهب. فقال النجدى لعنه الله: والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حُسن حديثه، وحلاوة مَنْطقه، وغَلَبَتَه على قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يَحُلَّ على حىٍّ من العرب فيغلب ذلك عليهم من قوله حتى يبايعوه عليكم، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، فدبِّروا فيه رأيًا غير هذا.

فقال أبو جهل لعنه الله: والله إن لى فيه رأيًا ما أراكم وقفتم عليه: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة شابًا جَلْدًا نسيبًا وسيطًا(1)، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يَعْمدوا عليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه، ويتفرّق دَمُه فى القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فيرضون منا بالعَقْل - أى الدِّيَة -.

فقال النجدى لعنه الله: القول ما قال هذا الرجل، هذا هو الرأى لا أرى غيره.

فتفرق القوم على ذلك، وهو معنى قول المصنف: **(فَأْتَمَرُوا)** أى تشاوروا **(بقَتْله)** ﷺ.

فإنْ قيل: لم تمثل الشيطان فى صورة نجدى؟ فالجواب: لأنهم قالوا - كما ذكره بعض أهل السير - لا يدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تِهَامة؛ لأن هواهم مع محمد، فلذلك تمثل فى صورة نجدى.

(فَحَفِظَهُ اللهُ) تعالى **(مِنْ كَيْدِهِمْ وَنَجَّاهُ)** فأتاه جبريل وقال له: لا تَبِتْ الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه. فلما كانت عتمة من الليل أى الثلث الأوّل من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه،

(1) الوسيط: الشريف فى قومه.

فأمر عليه الصلاة والسلام عليًا ـ رضى الله عنه ـ أن يتَّشح ببُرده وينام مكانه، وقال له ـ كما فى رواية ابن إسحاق ـ: «لن يخلص إليك شىءٌ تكرهه منهم»[1] فكان علَىّ أول من شرى نفسه فى الله، ووقى بها رسول الله ﷺ.

واستُشْكِلَ هذا بأنه بعد خبر الصادق: «لن يخلص إليك شىء منهم» تحقق أنه لا يصيبه منهم ضرر، فلم يكن فيه فداء بالنفس والإيثار بالحياة، وأُجيب بجواز أنه أخبره بذلك بعد أمره بالنوم وامتثاله فصدق أنه بالامتثال باع نفسه قبل بلوغ الخبر، ويحتمل أنه فهم أن لن يخلص إليك ما دام البُرْد عليك لجعله ذلك علِّة لأمره بتغطيه به، والبُرْد لا يؤمن زواله عنه بريح وانقلاب فى نوم فصدق على هذا أنه باع نفسه.

وأما معارضته رواية ابن إسحاق: «لن يخلص إليك». بأنه لم يذكرها المقريزى فى «الإمتاع» وإنما فيه أنه أمره أن ينام مكانه لأمر جبريل له بذلك ففاسدة؛ إذ الترك لا يناقض، وزيادة الثقة مقبولة.

وأما ما روى ـ كما فى «الإحياء» ـ: أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى جبريل وميكائيل أنى قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كل منهما الحياة، فأوحى الله إليهما ألا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوة، فنزلا، فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه ينادى جبريل: بَخٍ بَخٍ، من مثلك يا ابن أبى طالب يُباهى الله به الملائكة؟، وفيه نزل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[2].

فقد قال الحافظ ابن تيمية: أنه كذب باتفاق علماء الحديث والسير. وقال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث «الإحياء»: رواه أحمد مختصراً، عن ابن

(١) سيرة ابن هشام (٢/٩٣ ـ ٩٥)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٦٦ ـ ٤٦٨)، السيرة الشامية (٣/٢٣١)، المنتظم (٣/٤٥)، الوفا ص (٢٣٢).

(٢) سورة البقرة: ٢٠٧.

عباس: شَرَى عَلِيٌّ نفسه، فلبس ثوب النبى ﷺ ثم قام مكانه... الحديث.
وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل، ولم أقف لهذه الزيادة على أصل، والحديث منكر.. انتهى.

وَرُدَّ أيضًا بأن الآية فى البقرة وهى مدنية اتفاقًا، وقد صحح الحاكم نزولها فى صُهيب، وقد يقال: لا مانع من تكرر نزول الآية فى حق علىّ ـ كرم الله وجهه ـ وفى حق صُهيب، وحينئذ يكون الشراء فى حق علىّ بمعنى باع أى باع نفسه بحياة المصطفى ﷺ، وفى حق صُهيب بمعنى اشترى أى اشترى نفسه بماله؛ وذلك أنه لما أراد الهجرة قال له الكفار: أتيتنا صُعْلوكًا حقيرًا فَكَثُر مالُك عندنا وبلغت الذى بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك، والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلوا سبيلى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى جعلتُ لكم مالى. فتركوه، فلما قدم المدينة ـ وكانت الآية قد نزلت فى حقه ـ فقام إليه أبو بكر وقال له: ربح بيعك يا أبا يحيى، فقد أنزل الله فيك كذا وقرأ عليه الآية[1].

ونزول هذه الآية بمكة لا يخرجُ سورة البقرة عن كونها مدنية؛ لأن الحكم يكون للغالب.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلَاةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه)

* * *

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٠٠)، البيهقى دلائل النبوة (٢/ ٥٢٢)، المطالب العالية (٤٠٦٣)، طبقات ابن سعد (٣/ ١/ ٦٢).

[هجرته ﷺ وما وقع فى ذلك من الآيات]

(وَ) كان (قَدْ أذِنَ لَهُ) ﷺ (فِىْ الهِجْرَةِ) إلى المدينة بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [1] كما أخرجه الترمذى، وصححه الحاكم. والهِجْرة بكسر الهاء لغة: مفارقة بلد إلى غيره، فإن كانت قربة لله فهى الشرعية كما وقع لكثير من الأنبياء عليهم السلام. قال فى «النسيم»: والهجرة ترك الوطن من الهَجر بكسر الهاء وفتحها وقد تضم.. انتهى.

وأَمَرَه جبريل أن يستصحب معه أبا بكر.

(فَرَقَبَهُ) بفتح القاف؛ من باب قعد؛ أى رصده وانتظره (المُشْرِكُونَ لِيُورِدُوهُ) أى يجعلوه واردًا (بِزَعْمِهِم) بفتح الزاى؛ أى بحسب ظنهم الكاذب وأملهم الخائب جاهلين بحفظ الله له وصيانته منهم (حِيَاضِ) بكسر الحاء؛ جمع حوض (المَنِيَّةِ) أى الموت شبهها بشىء يشرب له حياض فهى مكنية، والحياض تخيل، والإيراد ترشيح. وكان فيهم الحكم بن أبى العاص، وعقبة بن أبى مُعيط، والنَّضْر بن الحارث، وأُمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو لهب، وأبو جهل.

(فَخَرَجَ) ﷺ (عَلَيْهِمْ) وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [2] إلى قوله ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [3] فأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يبصروه (وَ) عند خروجه ﷺ (نَثَرَ) طرح (عَلَى رُؤُوسِهِمْ) كلهم (التُّرَابَ) من كف واحد بيده الشريفة (وَحَثَاهُ) بمعنى نثره. قال البرهان: وحكمة وضع التراب دون غيره: الإشارة لهم بأنهم الأرذلون الأصغرون الذين

(١) سورة الإسراء: ٨٠.
(٢) سورة يس: ١.
(٣) سورة يس: ٩.

أرغموا وألصقوا بالرّغام وهو التراب، أو أنه سيلصقهم بالتراب بعد هذا، وقد صحَّ ما أصاب أحدًا منهم تراب إلا قُتِلَ كافرًا ببدر؛ أى أغلبهم.

فلما انصرف ﷺ أتاهم آت فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا. قال: خيَّبكم الله، والله خرج عليكم وما ترك منكم أحدًا إلا وضع على رأسه تُرابًا وانطلق لحاجته، فما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب. ومع ذلك فقد أخذ الله عقولهم ولم يصدقوه، وجعلوا يطَّلعون فيرون عليًا مُتَّشِحًا بِبُرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم. فلم يزالوا كذلك يزعمون أنهم يوقعون به الفعل حتى أصبحوا واتضح النهار، فقام علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ عن الفراش، فقالوا: والله لقد صَدَقَنَا الذى كان حدَّثنا. فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لى به، وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [1]. وإنما لم يقتحموا عليه ﷺ الجدار؛ لأنهم إنما أرادوا قتله عند طلوع الفجر ليظهر لبنى هاشم قاتلوه، وقيل غير ذلك. ووجود الأسباب المانعة لهم من الوثوب عليه لا ينافى أن المانع لهم عن الوثوب عليه إنما هى حماية الله تعالى الموجبة لخذلانهم وإظهار عجزهم، وفى ذلك تصديق لقوله ﷺ لعلىٍّ: «لا يخلص إليك شىء تكرهه منهم» على ما تقدم.

فإن قيل: هلا نام ﷺ على فراشه؟ قلنا: لو فعل ذلك لفات إذلالهم بوضع التراب على رؤوسهم، وإظهار حماية الله تعالى بخروجه عليهم ولم يبصره أحد منهم.

* * *

(١) سورة الطور: ٣٠.

[صفة خروج رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه إلى الغار]

(وَ) الصحيح أنه ﷺ لما خرج عليهم ونثر على رؤوسهم التراب توجه و (أَمَّ) أى قصد (غَارَ) قال فى «النسيم»: والغار نَقْبٌ فى الجبل كالمغارة فإذا اتسع فهو كهف، والمراد هنا نقب جبل (ثَوْر) بالمثلثة بيمنى مكة على مسيرة ساعة، وقيل: إن بينه وبين مكة ثلاثة أميال وارتفاعه نحو ميل. والغار المذكور فى أعلاه، واسم الجبل: أطحل. نزله ثور بن عبد مناف فنسب له، وفيه من كل نبات الحجاز، وفيه شجر البان، وفى حديث مَرْوِىٌّ فى الهجرة أنه عليه السلام ناداه ثبير لما صعده: «اهبط عنى فإنى أخاف أن تُقْتَلَ على ظهرى فأُعذب»[1] فناداه حراء ـ كما تقدم فى الكلام عليه ـ إلىَّ يا رسول الله فخشى طلبهم فيه لما عهدوه من ذهابه إليه، فذهب إلى ثور دون غيره ـ لحبه الفأل الحسن ـ فقد قيل: الأرض مستقرة على قرن الثور، فناسب استقراره فيه تفاؤلاً بالعلمانية والاستقرار فيما قصده هو وصاحبه.

قال السهيلى: وأحسب فى الحديث أن ثوراً ناداه أيضًا لما قال له ثَبِير: اهبط عنى... إلخ فناداه: إلىَّ يا رسول الله ـ.

وتوارى فيه حتى أتى بيت أبى بكر فى نَحْر الظهيرة[2] فقال: «إنه قد أُذِن فى الخروج» قال: الصحبة يا رسول الله. قال: «نعم». قال: فخذ راحلتى. قال: «بالثمن» ـ أى لتكون هجرته إلى الله تعالى بنفسه وماله رغبة منه فى استكماله فضل الهجرة، وأن تكون على أتم الأحوال، ولا يكون لأحد فيها منة ـ فخرج هو وأبو بكر ثانيًا ليلاً إلى الغار[3].

---

(١) عزاه فى المواهب للقاضى عياض فى الشفا (٢/ ٢١٦).

(٢) نحر الظهيرة: أى أول وقت الحرارة، وهى المهاجرة. ويقال: أول الزوال وهو أشد ما يكون من حر النهار.

(٣) البخارى (كتاب مناقب الأنصار: ٤٥)، فتح البارى (٧/ ٢٣٠)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٤٧٣).

وبهذا علم الجواب عن قوله فى «النور»: لم أقف على ما صنع من حين خروجه إلى أن جاء إلى أبى بكر فى نحر الظهيرة.

ووقع فى البيضاوى: فبيَّت عليًا على مضجعه، وخرج مع أبى بكر إلى الغار.

وفى سيرة الدمياطى: أنه ذهب تلك الليلة إلى بيت أبى بكر فكان فيه إلى الليلة أى المقبلة، ثم خرج هو وأبو بكر إلى جبل ثور. . انتهى.

وفيه: أن الثابت فى الصحيح أنه عليه السلام أتى أبا بكر فى نحر الظهيرة، وفى رواية أحمد: جعل انتهاء خروجه بعد أن بيَّت عليًا على فراشه لحوقه بالغار فيؤيد ما قلنا.

(وَفَازَ) ظفر (الصِّدِّيقُ) أبو بكر رضى الله عنه (فيه) أى فى الغار (بِالْمَعِيَّة) المصاحبة والمرافقة والمؤانسة، وإنما لم يخرج معه علىّ ـ كرم الله وجهه ـ لأنه ﷺ خلَّفه ليؤدى عنه ما عنده من الودائع كما مر فى ترجمته.

وكان الصديق فى طريقه إلى الغار يمشى تارة أمامه، وتارة خلفه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، فقال ﷺ: «ما هذا؟». قال: أخشى الرَّصد[1]، وأتخوف الطَّلَب، وأحفظ الطريق. فقال: «لا بأس عليك، إن الله معنا»[2].

ولما فقدته قريش طلبوا بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة أثره فى كل وجه؛ فوجد الذى ذهب قِبل «ثور» أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع لَمَّا انتهى إلى «ثور»، وشقَّ عليهم خروجه، وجزعوا منه، وجعلوا لمن ردَّه مائة ناقة.

* * *

(١) الرصد جمع راصد كخادم وخدم. وهو الكلأ القليل.

(٢) تاريخ الخميس (١/٣٢٦).

[ذكر إقامتهما فى الغار وما جرى لهما فيه]

ولما أتيا إلى الغار؛ تقدم أبو بكر فى الدخول لاحتمال أن يكون فيه ما يؤذى فيتلقاه عن النبى ﷺ، فلم يجد شيئًا، فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه فى حِجْر أبى بكر. وكان هناك جُحْرٌ فيه حيات وأفاع، فخشى أبو بكر أن يَخْرج منه شىء يؤذى النبى ﷺ فألقمه قدمه، فجعلت الحيَّات والأفاعى تضربنه وتلسعنه، ولم يتحرك مخافة أن يوقظ النبى ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما يبكيك؟» قال: لُدغْتُ. فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده، لكن كان يعاوده ذلك حتى كان سبب موته[1]، على المشهور كما تقدم.

وقد جوزى أبو بكر بأن جُعلَت البركة فى عَقبه - أى نسله - إلى يوم القيامة، وأن ذريته يموتون بتحرك السم فى أعقابهم؛ لينالوا مرتبة الشهادة كما مات جدهم أبو بكر - رضى الله عنه - بتحرك السم عليه شهيداً.

وروى أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما رأى القافة اشتد حزنه وقال: إن قُتلْتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلْتَ أنت هلكت الأمة. فقال ﷺ له: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [2] أى بالمعونة والنصر ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [3] أى أبى بكر؛ لأنه الذى انزعج، وهى أى السكينة أمنة يسكن عندها القلوب ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أى رسول الله ﷺ ﴿بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أى ملائكة يصرفون أبصار الكفار عنه.

(وَأَقَامَ) أى لبث هو والصديق **(فيه)** أى الغار **(ثَلاَثا)** من الليالى على المشهور **(تَحْمِى)** أى تحفظ **(الحَمَائم)** جمع حمام كسحاب، ويقال: حمامة:

---

(١) تاريخ الخميس (١/ ٣٢٧)، الرياض النضرة (١/ ٨٩)، شرح المواهب (١/ ٣٣٥).

(٢) سورة التوبة: ٤٠.

(٣) سورة التوبة: ٤٠.

طائر برى لا يألف البيوت، أو كل ذى طوق، أو كل ما عبّ: أى شرب الماء بلا مص، ويقع واحدته على الذكر والأنثى، ودخول الهاء لإفادة الوحدة لا للتأنيث. قال ابن الحماد: ويقع على الذى يألف البيوت، واليمام. وفى الحديث: «اتخذوا هذه الحمام المقاصيص فى بيوتكم فإنها تلهى الجن عن صبيانكم»[1] أى عن تعلقهم بهم، وأذاهم لهم. قيل: وللأحمر فى ذلك خصوصية، ولعل وجهه أن الجن تحب الألوان الحمر كما ورد فى خبر. قال فى «القاموس»: ومجاورتها أمان من الخدر، والفالج، والسكتة، والجمود، والسبات. ولحمه حمية على نهشة العقرب، مُجَرَّبٌ للبرأ. ودمها يقطع الرعاف. قيل: ومن فوائد اتخاذ الحمام أنه يطرد الوحشة.

(وَالعنَاكِبَ) جمع عنكبوت الدابة المعروفة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل العنكبوت وقال: «إنها جُنْدٌ من جنود الله»[2].

وعن أبى بكر الصديق قال: لا أزال أحب العنكبوت منذ رأيت رسول الله ﷺ أحبها.

وفى «الجامع الصغير»: «جزى الله العنكبوت عنا خيراً فإنها نسجت على الغار»[3].

وفيه أن فى الحديث: «العنكبوت شيطان فاقتلوه»، وفى لفظ: «شيطان مسخه الله فاقتلوه»، فإن صح وثبت تأخره فهو ناسخ له، وإن كان متقدمًا على ما هنا وقد صح فهو منسوخ به.

وقد يُقال كما قال المُناوى: إن ذلك فى مُعَيَّنة نسجت على باب الغار، وأما هذا ففى الجنس بأسره.. انتهى.

أو هى أنواعٌ مختلفةٌ منها ما فيه السم ويؤذى بلدغه؛ كالعقرب، فَيُحْمَل

---

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١١٦/٣٢٦) للشيرازى فى الألقاب والخطيب والديلمى، ورمز فى الجامع الصغير (١٠٢) لضعفه. وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات.

(٢) الخصائص الكبرى (١/٣٠٦).

(٣) عزاه السيوطى فى الجامع الكبير (١٣١٩٩) للديلمى.

حديث الأمر بالقتل عليه. ومن هذا النوع: «الرُّثَيلا» بضم الراء وفتح الثاء المثلثة وتمد؛ كما قاله الجاحظ قال: وتسمى عقرب الحيات؛ لأنها تقتل الحيات والأفاعى.

وقال أبو عمر موسى القرطبى الإسرائيلى: «الرُّثَيلا» اسمٌ يقع على أنواع كثيرة من الحيوانات، وقيل: إنها ستة أنواع، وقيل: ثمانية، وكلها من أصناف العنكبوت. وذكر حذاق الأطباء أن أعظم هذه الأنواع شرًا: المصرية، أما النوعان الموجودان فى البيوت فنكايتهما قليلة، ومنها نوع له زغب يسمونه أهل مصر: أبا صوفة. ونهش هذه الأنواع كلها قريب من لسع العقرب، ومن خواصها أن شرب دماغها مع شىء من الفلفل ينفع من سمها.

وعن عليٍّ - كرم الله وجهه -: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه فى البيوت يورث الفقر.

وفى «حياة الحيوان»: أن ما ينسجه العنكبوت من ظاهر جلدها لا من جوفها. والذى فى كلام ابن حجر أنه طاهر؛ لأنه من لعابها. كذا قال بعضهم وعبارته فى «التحفة» وعن «العدة» و «الحاوى»: الجزم بنجاسة نسج العنكبوت، ويؤيده فى قول الغزالى والقزوينى: إنه من لعابها، مع قولهم إنها تتغذى بالذباب الميت. لكن المشهور الطهارة كما قاله السبكى والأذرعى، أى لأن نجاسته تتوقف على تحقق كونه من لعابها، وأنها لا تغتذى إلا بذلك وإن ذلك النسج قبل احتمال طهارة فمها، وأَنَّى لواحد من هذه الثلاثة.. انتهى.

(حمَاهُ) أى المحل الذى احتمى فيه واختفى به من أعدائه، ومعنى حمايتهما له ﷺ: أن الله تعالى أرسل حمامتين وحشيتين - يقال: إن حمام الحرم من نسلهما - وعنكبوتًا، فباض الحمام فى فم الغار، ونسج العنكبوت على وجهه، فلما جاء الكفار حوالى الغار ينظرون فأعماهم الله تعالى، قال أبو بكر: نظرت إلى أقدامهم فوق رؤسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر

إلى قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1].

وفى التنزيل: ﴿ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[2].

وذكر ابن كثير أن أهل السير ذكروا أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما قال للنبى ﷺ: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، قال له النبى ﷺ: «لو جاؤنا من ههنا، لذهبنا من ههنا»، فنظر الصديق - رضى الله عنه - إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه.

قال ابن كثير وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوى، ولا ضعيف ولسنا نثبت شيئًا من تلقاء أنفسنا. . انتهى.

وتقدم رجلٌ منهم فنظر حمامتين وحشيتين على فم الغار فقال: ليس فى الغار شىء. فقال رجل: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: وما أربكم بالغار؟ إن فيه لعنكبوتًا أقدم من ميلاد محمد[3].

وسبب ظنهم ذلك أن هذين الحيوانين متى أحسًا بالإنسان فرًا منه، ولم يعلموا أن الله تعالى يحفظ من شاء بما شاء من خلقه، وهذا أبلغ فى الإعجاز من مقاومة الأعداء بالجنود.

فائدة

فائدة جليلة نقلها الشيخ أبو العز البستانى فى كتابه «فتح الكريم الوهاب بشرح هداية المرتاب» للسخاوى عن أرباب المعنى فقال: قال أرباب المعنى فى أن العنكبوت شكت إلى ربها فقالت: يا رب، إنى ضعيفة واهنة، وقد زاد ضعفى ووهنى، وعظم مصابى وكسرى لما أنزلت فى كتابك المكنون: ﴿إِنَّ

---

(١) أخرجه البخارى (٣٩٢٢)، مسلم (٢٣٨١)، الترمذى (٣٠٩٦)، البيهقى فى الدلائل (٢/ ٤٨٠)، المنتظم (٣/ ٥٢)، أحمد فى مسنده (١/ ٤)، ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١/ ١٢٣).

(٢) سورة التوبة: ٤٠.

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢٨)، الخصائص الكبرى (١/ ٣٠٤)، المنتظم (٣/ ٥٣)، الوفا ص (٢٤٠).

أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ (١) فأجابها ربها ولبَّاها مولاها وقال: لأجبرن كسرك، ولأشُدَّن وهنك، ولأقوين ضعفك بأن أجعل من ضعيف نسجك، وقليل صنعك آية مشهورة تُذكر على طول الزمان، ويتعجب منها أهل الإيمان؛ بأن أتخذ من ذلك حصنًا حصينًا وحرزًا منيعًا على أكرم خليقتى، وخير بريتى محمد عبدى ورسولى، وحبيبى وخليلى، لا يخرق ذلك الحجاب خوارق الرماح، ولا يقطعه قواطع الصفاح، ولا تزلزله عواصف الرياح، يكون له مبتدأ الانتصار، ولك به أنواع من الافتخار. فسكنت، وشكرت لله.

ورحم الله القائل فى حقها:

ودود القز إن نَسَجَتْ حريرًا   يجلّ لباسه عن كلِّ شىء

فإنَّ العنكبوتَ أجلُّ منها   بما نَسَجَتْ على رأس النبى

وقيل: إن الله أنبت على باب الغار الرَّاءة، بالراء المهملة والمدّ والهمزة: شجرة معروفة، وهى «أم غيلان»، مثل قامة الإنسان، لها خيطان، وزهر أبيض يحشى به «المَخَاد» بالميم والخاء المعجمة والدال المهملة؛ جمع مخدة، وهى الوسادة، فيكون فى الوسادة كالريش لخفته ولينه ـ فحجبت عن الغار أعين الكفار.

وقيل: إن رسول الله ﷺ دعا تلك الشجرة، وكانت أمام الغار فأقبلت حتى وقفت على باب الغار، وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها.

وأخرج أبو نُعَيْم فى «الحلية»، عن عطاء بن ميسرة قال: نسجت العنكبوت مرتين: مرة على داود حين كان طالوت يطلبه، ومرة على النبى ﷺ فى الغار (٢).

وفى «المواهب»: وكذا نسجت على الغار الذى دخله عبد الله بن أُنيس لما بعثه ﷺ لقتل خالد بن نبيح الهُذلى، فقتله، ثم حمل رأسه ودخل فى غار؛

(١) سورة العنكبوت: ٤١.

(٢) حلية الأولياء (٥/١٩٧).

فنسجت عليه العنكبوت، فجاء الطلب فلم يجدوا شيئًا فانصرفوا راجعين.

وفى تاريخ ابن عساكر: أن العنكبوت نسجت أيضًا على عورة زيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب وهو أخو الإمام محمد الباقر وعم جعفر الصادق لما صُلب عريانًا فى سنة إحدى وعشرين ومائة، وأقام مصلوبًا أربع سنين، كما جزم به غير واحد، وقيل: خمس سنين[1].

وكان عبد الله بن أبى بكر - رضى الله عنهما - مع صغر سنه يأتيهما بالطعام كل ليلة ويُدْلِج من عندهما آخر الليل فيصبح بمكة كأنه بائت مع قريش، وكان لا يسمع شيئًا إلا حفظه وأتاهما بخبره.

وكان عامر بن فُهَيرة مولى أبى بكر يأتيهما بلبن غنم كان أعطاها له أبو بكر.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر عبد الله بن أُرَيْقط (اسْمُ أُمِّه) - ولم يُعرف له إسلام، وقيل: أسلم - ليدلهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه أن يأتيهما بعد ثلاث؛ فأتاهما بهما صبح ثلاث كما وعداه فمكثا إلى الليل (وَخَرَجَا مِنْهُ) أى الغار (لَيْلَةَ الإِثْنَيْنِ).

قال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الإثنين، إلا أن محمد بن موسى الخوارزمى قال: إنه خرج من مكة يوم الخميس. قال فى «المواهب»: ويُجمع بينهما بأن خروجه من «مكة» كان يوم الخميس، وخروجه من الغار كان ليلة الإثنين؛ لأنه أقام فيه ثلاث ليال: ليلة الجمعة، وليلة السبت، وليلة الأحد، وخرج أثناء ليلة الإثنين. قال الزرقانى: فقول الحاكم تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الإثنين مجازًا؛ أطلق اليوم مريدًا به الليل؛ لقربه منها، والمراد الخروج من الغار لا من مكة.. انتهى.

وفى «الفصول المهمة» وغيره: أقام ﷺ فى الغار ثلاثة أيام بلياليها، وأتاهما الدليل بعد مضى ساعة من الليلة الرابعة.

(١) المواهب اللدنية (١/ ١٥١).

والصحيح المروى عن البخارى وغيره: أنه أتاهما صبح ثلاث، ولامنافاة لاحتمال أنه أتاهما ثم اشتغل بنحو رعى الأبل والتهيؤ للرحيل حتى دخل الليل، فأتاهما فارتحلا.

وقد علمت مما مرّ أن خروجه من مكة إلى الغار كان ليلاً من بيت نفسه وهو الأصح، وقيل: من بيت أبى بكر. ويجمع بأنه خرج إلى الغار أولاً من بيت نفسه، ثم جاء إلى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة، وخرج ثانيًا مع أبى بكر ليلاً إلى الغار.

وكان خروجهما من خَوْخَة[1]. فى ظهر بيت أبى بكر - كما فى رواية وهب ابن مُنَبه - رضى الله عنه[2]، ومقتضى ذلك أن أبا بكر إنما أقام معه ﷺ فى الغار ليلتين من تلك الثلاث، وما مر عن «المواهب» فى الجمع بأن خروجه من مكة إلى الغار يوم الخميس مخالف لما تقدم من أنه خرج ليلاً، وقد يقال: لا منافاة لجواز إطلاق اليوم وإرادة الليل مجازاً كما مر عن الزرقانى، فيكون قد توارى ﷺ فى الغار تلك الليلة، ثم أتى بيت أبى بكر فى ظهر يوم الخميس، وخرج هو وأبو بكر ليلة الجمعة. فعلى هذا يكون مكثه مع النبى ﷺ فى الغار ثلاث ليال. وما قيل إنه أتى من بيته أولاً - أى بيت أبى بكر -: فقد تقدم عن الدمياطى بما فيه.

وكان خروجه ﷺ من مكة كما فى «المواهب» و «شرحه» لهلال ربيع الأول، وقدم المدينة لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول على الراجح، وسيأتى التصريح به فى كلام المصنف. وعند خروجهما من مكة لقيهما أبو جهل فأعمى الله بصره عنهما.

قالت أسماء بنت أبى بكر: خرج أبى بماله كله، وكان خمسة آلاف درهم.

قال البلاذرى: كان مال أبى بكر يوم أسلم أربعين ألف درهم، وخرج

---

(١) الخَوْخة: باب صغير وسط باب كبير، أو كوة فى ظهر البيت يدخل منها النور.

(٢) المنتظم (٣/ ١٥١)، سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٥)، الوفا ص (٢٣٨).

مهاجرًا للمدينة ومعه خمسة آلاف درهم أو أربعة، فبعث ابنه عبد الله فحملها إلى الغار.

وروى أنه ﷺ قال حين خروجه من مكة: «اللهم أعنى على أهوال الدنيا، وبوائق الدهر[١]، ومصائب الليالى والأيام، اللهم اصحبنى فى سفرى، واخلفنى فى أهلى، وبارك لى فيما رزقتنى، ولك فَذَلِّلْنى، وعلى صالح خُلقى فقومنى، وإليك رب فحببنى، وإلى الناس فلا تكلنى، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض وكشفت له الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن يحل بى غضبك، أو ينزل على سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك، لك العُتْبى عندى حيثما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وفى «المواهب» و «شرحه»: وكان من قوله ﷺ حين خرج من مكة لما وقف على الحَزْوَرَة ونظر إلى البيت: «والله إنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت منك»[٢].

وهذا من أصح ما يحتج به فى تفضيل «مكة» على «المدينة»، وأجاب من قال بتفضيل «المدينة» عليها: بأن التفضيل إنما يكون بعد شيئين يأتى بينهما تفضيل، وفضل المدينة لم يكن حصل حتى يكون هذا حجة، ولو سلم ففى «الحجج المبينة»[٣]: هو مؤوّل بأنه قبل أن يعلم تفضيل «المدينة» أو بأنها خير الأرض ما عدا المدينة كما قاله ابن العربى، وأيضًا فهو معارض بما فى البخارى عن عائشة رفعته: «اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا مكة أو أشد»[٤].

---

(١) بوائق الدهر: غوائله وشروره، واحده بائقة وهى الداهية.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٩٢٥)، ابن ماجه (٣١٠٨)، أحمد فى مسنده (٤/ ٣٠٥).

(٣) هو «الحجج المبينة» للسيوطى، طبع ضمن الحاوى للفتاوى.

(٤) أخرجه البخارى (٦٣٧٢)، مسلم (الحج: ٤٨٠)، أحمد فى مسنده (٦/ ٥٦)، السنن الكبرى للبيهقى (٣/ ٣٣٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٥٦٦)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٢٦٢)، ابن عساكر فى تاريخه (٣/ ٣٠٩)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ٢٢١).

ونحن نقطع بإجابة دعائه ﷺ فقد كانت أحب إليه من «مكة». . انتهى ملخصًا، وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى كتابنا «نزهة الناظرين». وكفى بها شرفًا أنها أول أرض مَسَّ جلد المصطفى ترابها، وأن الإيمان ليأرز إليها من الأقطار.

(وَهُوَ ﷺ) راكب (عَلَى خَيْرِ مَطِيَّةٍ) أى أحسن دابة تمط ـ أى تجدّ فى السير ـ وهى ناقته الجَدْعَاء بالدال المهملة، وهى لغة: المقطوعة الأنف، والمقطوعة الأذن كلها. لكن ذلك كان مجرد لقب لناقته ﷺ. قال فى «القاموس»: الجدْعَاءُ: ناقة رسول الله ﷺ وهى: العضباء، والقصوى، ولم تكن جدعاء، ولا عضباء، ولا قصوى، وإنما هى ألقاب لتلك الناقة.

وفى «إنسان العيون» ما يخالفه، وعبارته: وكان الثمن من تلك الناقة التى هى القصوى ـ وقد عاشت بعده ﷺ وماتت فى خلافة أبى بكر ـ أو الجدعاء أربعمائة درهم، لما علمت أن الناقتين اشتراهما أبو بكر بثمانمائة درهم، وأما ناقته العضباء: فقد جاء أن ابنته فاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ تُحْشَرُ عليها. . انتهى.

ومقتضى كلامه أن التى أخذها النبى ﷺ من أبى بكر هى القصوى، وبه جزم الواقدى، وذكر ابن إسحاق وغيره أنها الجدعاء.

وسارا ومعهما عامر بن فُهَيْرة رديفًا لأبى بكر، وعبد الله بن أُرَيْقط الدليل، وأخذ بهم طريق الساحل أسفل عُسْفَان[1]، ثم أجاز بهما حتى عارض الطريق، ونزلا بقُدَيْد[2]، وكانت مدة مقامه ﷺ بمكة من حين النبوة إلى ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة كما رواه البخارى.

* * *

(١) عُسْفَان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. (معجم البلدان ٤/ ١٢٢).

(٢) قُدَيد: مكان بين خُليص ورابغ. وقيل: هو موضعٌ قرب مكة. (معجم البلدان ٤/ ٢١٣).

[قصة سراقة رضى الله عنه]

(وَ) لما ارتحل ﷺ يوم الثلاثاء من قُدَيْد قبل أن ينفصل منه (تَعَرَّضَ لَهُ) للنبى ﷺ فارس من بنى مُدْلج بالأذية والردّ وهو سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم ابن تميم بن مدلج بن مرَّة بن عبد مناف بن كِنَانَة المُدلجى الصحابى الحجازى ـ رضى الله عنه ـ وجُعْشُم بضم الجيم والشين المعجمة بينهما عين مهملة ساكنة، وما نقله البرهان عن الجوهرى من أنه بفتحها ليس موجوداً فى نسخه كما قيل، قاله فى «النسيم»، أسلم بالجِعْرَانة منصرفه من حُنَيْن والطائف، وفى «الإصابة»: أسلم يوم الفتح، وروى عنه ابن عباس وجابر، وغيرهما. مات سنة أربع وعشرين فى أول خلافة عثمان، وكان شاعراً.

وسبب تعرضه له ما رواه البخارى عنه قال: جاءنا رُسُل كُفَّار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر ديةَ كُلٍّ واحد منهما مائة ناقة من الإبل لمن قتله أو أسره... الحديث[1].

وفيه: أنه لما قرب منهم عَثَرَت فرسه، وسقط عنها، فركبها ثانيًا ودنا حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت إليه وأبو بكر يلتفت، (فَابْتَهَلَ) النبى ﷺ ودعا وتضرع (فيه) فى شأن سُرَاقه (إِلَى الله) مولاه وناصره وكافيه (وَدَعَاهُ) بقوله: «اللهم اكفناه بما شئت» (فَسَاخَتْ) أى غاصت (قَوَائِمُ يَعْبُوبِه) ـ اليعبوب: الفرس السريع الطويل أو الجواد السهل فى عدوه أو البعيدَ القدر فى الجرى ـ (فِى الأَرْضِ الصُلْبَة) بضم الصاد، كما فى «القاموس»: الشديدة (القَوِيَّة) يعنى أن الأرض لم تكن ذات رمل تغوص فيها أيدى الدواب بل كانت شديدة، ومع ذلك فقد غاصت فيها قوائمه حتى بلغت الركبتين كما فى حديث عائشة.

(١) أخرجه مسلم (الزهد: ٢٣١٠)، البخارى (٣٩٠٦)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٨٥).

وفى حديث أسماء عند الطبرانى: فوقعت لمنخريها. وللبراء: فارتطمت به فرسه إلى بطنها. وللإسماعيلى: فساخت فى الأرض إلى بطنها.

قال سُرَاقة: فلما رأيت ذلك زجرتُ الفرس فنهضت، ولم تكد تخرج يديها، (وَ) لما رأى سُرَاقة ذلك، ورأى عند استواء فرسه قائمة غباراً ساطعًا من أثر يديها فى السماء كالدخان نادى رسول الله ﷺ (وَسَأَلَهُ الأَمَانَ) أى مما وقع فيه هو وفرسه وقال: الأمان يا محمد. (فَمَنَحَهُ) أعطاه (إِيَّاهُ) بأن دعا له ﷺ لما علم من صدقه. ثم قال: أعلم أنكما قد دعوتما علىَّ فادعوا لى، ولكما أن أردّ الناس عنكما، ولا أخبر بكما. قال: فركبت فرسى حتى جئتهما، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فأخبرتهما أخبار ما يريد بهما الناس، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يقبلا شيئًا وقالا: «اخف عنا». قال سُرَاقة: فسألته كتابًا آمن به. فأمر عامر بن فُهَيْرة، وقيل أبا بكر ـ رضى الله عنهما ـ ولا مخالفة لاحتمال أنه ﷺ أمرهما بكتابة ذلك وأحدهما كتب ـ قال: فكتب لى فى رقعة من أَدْم أخرجتها له يوم حنين، فنفذها، وأمننى ومن يلوذ بى[1]. . انتهى.

ولما أراد الانصراف قال له: «كيف بك يا سُرَاقة إذا أُلبست سوارىّ كسرى؟». وتقدم أنه أتى بهما عمر ـ رضى الله عنه ـ فألبسهما أياه إظهاراً للمعجزة، وتحقيقًا لخبره ﷺ، وقال له: قل الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سُرَاقة، ورفع بها عمر ـ رضى الله عنه ـ صوته.

ولما رجع سُرَاقة ـ رضى الله تعالى عنه ـ صار يردّ عنهم الطلب، لا يلقى أحداً إلا ردّه، يقول: اختبرت الطريق فلم أر أحداً. وقد قال سُرَاقة: خرجت وأنا أحب الناس فى تحصيلهما، ورجعت وأنا أحب الناس فى أن لا يعلم بهما أحد.

وفى «الفصول المهمة»: لما اتصل خبر مسيره ﷺ إلى المدينة وذلك فى اليوم

(١) الصحيح أنه أخرجها للنبى ﷺ يوم خيبر. انظر دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٤٨).

الثانى من خروجه ﷺ من الغار جمع الناس أبو جهل ـ لعنه الله ـ وقال: بلغنى أن محمدًا قد مضى نحو يَثْرب على طريق الساحل ومعه رجلان آخران، فأيكم يأتينى بخبره؟ فوثب سُرَاقة وقال: أنا، أبا الحكم. ثم إنه ركب راحلته واستجنب فرسه، وأخذ معه عبدًا أسود، وكان ذلك العبد من الشجعان المشهورين، فسارا فى أثر النبى ﷺ سيرًا عنيفًا حتى لحقا به وساق نحو ما تقدم إلى أن قال: ورجع سُرَاقة إلى مكة فلا زال به أبو جهل ـ لعنه الله ـ حتى اعترف وأخبرهم بالقصة. وفى ذلك يقول سراقة مخاطبًا لأبى جهل لعنه الله:

أبا حكَمٍ والله لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادى إذ تسيخ قوائمُهُ

عَلِمْتَ ولم تَشْكُكْ بأنَّ محمدًا ... رسولٌ ببرهانٍ فمن ذا يُقاومُهُ [1]

وسياق هذه الرواية يدل على أنه خرج خلف النبى ﷺ من مكة؛ لكنه مخالف لما تقدم أنه خرج خلفه من قُدَيْد، وقد يقال: لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون لما خرج من مكة سلك طريقًا غير الذى سلكه رسول الله ﷺ فلم يجده وسبقه على قُدَيْد، فلما أخبر بمرورهم فعل ما تقدم.

قال فى «إنسان العيون»: ولا مانع من أن يخرج بعد خروجهم من الغار ويسبقهم على قُدَيْد، ولا ينافى فى قوله: جاءنا رسول كفار قريش؛ لأنه يجوز أن يكون ذلك هو الحامل لسُرَاقة على الذهاب إلى مكة، وفى كلام بعضهم أنه أرسل بهذين البيتين إلى أبى جهل، ولا منافاة لجواز أنه أرسلهما إليه قبل أن يشافهه بهما.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٨٩)، دلائل النبوة لأبى نعيم ص (٢٤٤).

[قصة الراعى]

ولما رجع سُرَاقة سارا ليلتهما كلها حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يُرى فيه أحد؛ نزلا عند صخرة طويلة لها ظل، قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: فسويت بيدى مكانًا ينام فيه رسول الله ﷺ فى ظلها، ثم بسطت له فروة كانت معى، ثم قلت له: يا رسول الله، نم وأنا أتحسس وأتعرف من تخافه، فنام رسول الله ﷺ، وإذا براعٍ يقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذى أردنا ـ وهو الظل ـ فلقيته، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل مكة، فسمَّاه، فعرفته، فقلت له: هل فى غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب لى. قال: نعم، فأخذ شاة فحلب لى فى قَعْبٍ معه، فأتيت النبى ﷺ فوقفت حتى استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله، اشرب من هذا اللبن، فشرب ـ لأنه جرت عادة العرب بإباحة مثل ذلك لابن السبيل كما تقدم ـ ثم قال النبى ﷺ: «ألم يأن للرحيل؟» قلت: بلى قد آن الرحيل يا رسول الله[1].

وهذا قطعًا غير قصة العبد الراعى الذى استسقياه اللبن فقال: ما عندى شاة تحلب غير أن ههنا عَنَاقًا[2] أَخْدَجَت[3] عام أول، وما بقى لها لبن، فقال: «ادع بها»، فاعتقلها ﷺ ومسح ضرعها ودعا ربه حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بِمِجَنٍّ[4] فحلب فسقى أبو بكر، ثم حلب فسقى الراعى، ثم حلب فشرب، فقال الراعى: بالله من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك. قال: «أو تراك تكتم علىَّ حتى أخبرك؟» قال: نعم. قال: «فإنى محمد ﷺ» قال: أنت الذى تزعم

(١) مسند أحمد (١/ ٢)، المنتظم (٣/ ٥٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٤٩٧)، البداية والنهاية (٣/ ١٩٤).
(٢) العناق: الأنثى من ولد الماعز قبل استكمالها الحول.
(٣) يقال أخدجت الشاة إذا جاءت بولدها ناقص النمو.
(٤) المِجن: الترس، سمى مجنًا لأنه يوارى حامله أى يستره، ولعله المحلب أى الإناء الذى يحلب فيه.

قريش أنه صابئ؟. قال: «إنهم ليقولون ذلك؟!» قال: فأشهد أنك نبى، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى، وأنا متبعك. قال: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا»[1] وإنما قال له ذلك خوفًا عليه من الإيذاء.

* * *

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٢/٤٩٧)، وعزاه السيوطى فى الخصائص (١/٣١٢) للحاكم وصححه وأبى يعلى والطبرانى، وأورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٩٤).

[قصة أم معبد رضى الله عنها]

(ثُمَّ) اجتاز و (مَرَّ) هو ﷺ وأبو بكر فى طريقهما (بقُدَيْد)[1] بضم القاف وفتح الدال الأولى على وزن صُهَيب موضع بين رَابِغ[2] وخُلَيص[3]، وهو محل سُرَاقة كما تقدم (عَلَى أُمِّ مَعْبَد) رضى الله عنها، واسمها عاتكة بنت خالد، ولعلها كانت بطرفه الأخير الذى يلى المدينة، ومنزل سُرَاقة بطرفه الذى يلى مكة، وكانت مسافته متسعة (الخُزَاعِيَّةَ) نسبة إلى «خُزَاعة» قبيلة مشهورة من الأزد سمُّوا بذلك لأنهم تخزَّعوا أى تخلفوا عن قومهم وأقاموا بمكة.

وكانت أم مَعْبَد بَرْزَة ـ بالراء والزاى أى بارزة المحاسن[4] ـ تَسْقى وتُطْعم من يمر بها (وأَرَادُوا) أى سألوا وطلبوا (ابْتِيَاعَ) شراء (لَحْمٍ أَوْ لَبَنٍ مِنْهَا) وكانت لا تعرفهم (فَلَمْ يَكُنْ خِبَاؤُهَا) بكسر الخاء المعجمة والمد، واحد الأخبية وهو من وبر أو صوف، ولا يكون من شعر، وهو على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت، كذا فى «المختار»، لكن المراد هنا ما هو أعم من ذلك، والمراد أنه لم يكن منزلها (لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ) المطلوب لهم (قَدْ حَوَاهُ) جمعه واحتوى عليه، أى لم يجدوا عندها شيئا ـ وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم[5] للشراء، وفى رواية: ما أعوزناكم القِرى؛ لأنهم كانوا مُسْنِتين أى مُجدبين (فَنَظَرَ) ﷺ (إِلَى شَاةٍ) تطلق على كلا نوعى الغنم من الضأن والمعز كما مر، وعن أم مَعْبَد رضى الله عنها: أن هذه الشاة بقيت إلى خلافة

---

(١) قُدَيد: موضع قرب مكة، وهو لفظ التصغير، سميت قديدًا لتقدد السيول بها. (الاشتقاق ص ٥١٩، معجم ما استعجم ٣/ ١٠٥٤).

(٢) رَابِغ: واد يقطعه الحاج بين البَزْواء والجُحْفَة دون عَزْوَر. (معجم البلدان ٣/ ١١).

(٣) خُلَيْص: حصن بين مكة والمدينة، وهو على ثلاث مراحل من مكة. (معجم البلدان ٢/ ٣٨٧).

(٤) وقيل: البرزة: الكبيرة.

(٥) أعوزناكم: أحوجناكم.

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سنة ثمان عشرة[1]، وقيل: سبع عشرة، ويقال لتلك السنة: عام الرمادة، جدبت الأرض فيها إجدابًا شديدًا حتى جعلت الوحوش تأوى إلى الإنس، ويذبح الرجل الشاة فيعافها لخبث لحمها، وكانت الريح إذا هبت ألقت ترابًا كالرماد؛ فسمى ذلك العام عام الرمادة (فِيْ) كِسْرِ[2] (البَيْت) الخيمة (خَلَّفَهَا) بتشديد اللام أى أخرها ومنعها (الجُهْدُ) بضم الجيم: الهزال (عَن) اللحاق بالغنم التى فى (الرَّعِيَّة) المرعى، فسألها فقال: «هل بها من لبن؟» فقالت: هى أجهد من ذلك، والله ما ضربها فحلٌ قط (فَاسْتَأْذَنَهَا فى حَلْبِهَا فَأَذِنَتْ) أى قالت: نعم شأنك إن رأيت بها حلبًا فاحلبها (وَقَالَتْ: لَوْ كَانَ بِهَا حَلَبٌ) بفتح اللام وسكونها لبن فى الضرع (لأَصَبْنَاهُ).

فدعا ﷺ الشاة أن تأتيه. وفى رواية: فبعث مَعْبَدًا وكان صغيرًا فقال: «ادع هذه الشاة» ثم قال: «يا غلام هات فَرْقًا (فَمَسَحَ الضَّرْعُ) بفتح الضاد وسكون الراء (مِنْهَا) أى من الشاة، زاد فى رواية: وظهرها، وَسَمَّى (وَدَعَا الله) تعالى (مَوْلاَهُ وَوَلِيَّهُ) أى قال: اللهم بارك لنا فى شاتنا (فَدَرَّتْ) واجْتَرَّتْ، وهاجت، وتَفَاجَّتْ، أى فتحت ما بين رجليها للحلب. ثم دعا ﷺ بإناء ـ وهو الفَرْق المذكور ـ يُرْبِضُ الرَّهْط؛ أى يرويهم، بحيث يغلب عليهم الرى فيربضون وينامون. والرَّهْط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من التسعة إلى الأربعين. (وَحَلَبَ) فى الفَرْق المذكور (وَسَقَى) أم مَعْبَد حتى رويت، ثم حلب، ثَجًّا ـ أى بقوة ـ لكثرة اللبن حتى علاه البهاء. وفى رواية: «حتى علته الثُمَالة» بضم المثلثة أى الرغوة وسقى (كُلاًّ) أى كل واحد (مِنَ القَوْمِ وَأَرْوَاهُ) وعلا بعد نهل. ثم شرب آخرهم وقال: «ساقى القوم آخرهم شربًا»[3]، (ثُمَّ حَلَبَ) أى مرة ثالثة (وَمَلأَ الإِنَاءَ) المعهود ـ وهو الفَرْق المذكور ـ (وَغَادَرَهُ)

(١) المنتظم (٣/ ٦٢)، الوفا ص (٢٤٧).

(٢) كسر الخيمة: جانبها.

(٣) أخرجه الترمذى (١٩٥٦)، ابن ماجه (٣٤٣٤).

تركه (لَدَيْهَا) عندها، زاد فى رواية فقال: «ارفعى هذا لأبى مَعْبَد إذا جاءك». (آيَةً) علامة ومعجزة (جَلِيَّةً) بفتح الجيم وكسر اللام وشد المثناة تحت، ظاهرة على نبوته، ثم ركبوا.

(فَجَاءَ) زوجها (أَبُو مَعْبَد) قال السهيلى: لا يعرف اسمه. قال العسكرى: اسمه أكثَم بالثاء المثلثة ابن أَبى الجون، ويقال: ابن الحارث، وقيل: خنيس، وقيل: عبد الله - عند المساء يسوق غنمًا عجافًا (ورَأَى اللَّبَنَ) الذى حلبه ﷺ (فَذَهَبَ به العُجْبُ إِلَى أَقْصَاهُ وَقَالَ: أَنَّى) بفتح الهمزة وتشديد النون أى من أين (لَكَ هَذَا) اللبن (وَلاَ حَلُوبَ بِالبَيْت) أى ليس فيه ذات لبن تُحلب (تَبِضُّ) بفتح المثناة الفوقية وكسر الموحدة أو بضمها وتشديد الضاد المعجمة، أى تسيل وترشح (بِقَطْرَة لَبنيَّة؟ فَقَالَتْ:) لا والله إلا أنه (مَرَّ بنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ) وحكت له ما تقدم، فقال: حِليه لى وصِفيه. فقالت حليته وصفته (كَذَا) و (كَذَا جُثْمَانُهُ) بضم الجيم وسكون المثلثة أى شخصه (وَ) كذا وكذا (مَعْنَاهُ) أى صفته، أشار بذلك إلى ما ورد أن أبا مَعْبَد لما قال لها صِفيه لى، قالت: رأيتُ رجلاً ظاهر الوَضَاءة[1]، مُتَبلج[2] الوجه، حَسَن الخَلْق، لم تُعبْه تُجْلة[3]، ولم تُزْرِ به صَعْلة[4]، وسيمٌ قسيم، فى عينيه دَعَجٌ[5]، وفى أشفاره وَطَفٌ[6]، وفى صوته صَحَل[7]، أحْوَر[8] أكْحَل، أزجٌ أقْرن، شديد سواد الشعر، فى عنقه سَطَع[9]، وفى لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سَمَا[10]

(١) الوَضَاءة: الحُسن والبهجة، والوضىء: الجميل.
(٢) أبْلَج الوجه: أى مُشْرقه مُسْفره.
(٣) الثَّجلة: عظم البطن واسترخاء أسفله.
(٤) الصَّعلة: صغر الرأس، وهى أيضًا الرقة والنحول فى البدن.
(٥) الدَّعج: شدة سواد العين فى شدة بياضها.
(٦) الأشفَار: جمع شُفُر بضم الشين وقد تفتح، وهو طرف العين الذى ينبت عليه الشعر. والوَطف: الطول، والمراد أن فى شعر أجفانه طولاً. ويروى الغَطف.
(٧) الصَّحَل: بحة فى الصوت تجعله غير حاد.
(٨) الأحور: الشديد سواد أصول الأهداب خلقةً.
(٩) السطع: أى النور، وقيل: الطول.
(١٠) إذا تكلم سما: أى علا برأسه ويده.

وعلاه البهاء، فكأن منطقه خَرَزَاتٌ نظمٍ يَتَحَدَّرن، حلو المنطق، فصل لا نزْرٌ ولا هذر، أنضر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، رَبْعَةٌ لا تشنؤه[1] من طول، ولا تقتحمه عينٌ من قِصَر[2]، غُصْنٌ بين غُصْنَين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفُّون به؛ إذا قال سمعوا لقوله، وإن أمر تَبَادروا إلى أمره، محفودٌ[3] مَحْشُودٌ[4]، لا عابسٍ ولا مُفْنِد[5].

وفى «الأجوبة المسكتة» لابن عون ـ رحمه الله ـ قيل لأم مَعْبَد ـ رضى الله عنها ـ: ما بال صفتك لرسول الله ﷺ أشبه به من سائر صفات من وصفه، أى من الرجال؟ قالت: أما علمتم أن نظر المرأة إلى الرجل أشفى من نظر الرجل إلى الرجل.

(فَـ) لما سمع هذا الوصف ووعاه (قَالَ: هَذَا) والله (صَاحِبُ قُرَيْشٍ) أى الذى يقول إنه رسول الله (وَأَقْسَمَ) أى حلف (بِكُلِّ إلَهِيَّة) بكسر الهمزة وفتح اللام وكسر الهاء وشد التحتية بعدها هاء؛ أى ذات منسوبة للآله بمعنى موصوفة بكونها آلهة مستحقة للعبادة نسبة الجزء لكله؛ أى بكل إله معبود بحق كالله تعالى، وباطل كاللات والعُزَّى، لزعمه تعدد الآلهة؛ لأنه كان فى ذلك الوقت مشركًا، والمراد أنه حلف بجميع الآلهة تأكيدًا للقسم. وضبطها بعضهم: إليه بفتح الهمزة وكسر اللام فمثناة تحتية مشدَّدة بعدها هاء؛ أى يمين.

وروى أنه قال: والله (بِأَنَّهُ لَوْ رَآهُ لآمَنَ بِه، وَاتَّبَعَهُ، وَدَانَاهُ) أى قاربه بأن يصدقه فيما جاء به من النبوة وتبعه فيقرب منه، وفى بعض النسخ: أدناه؛ أى قربه إليه وأكرمه. ويدل للأول: ما روى أنه قال: والله لو رأيته لاتبعته،

---

(١) لا تشنؤه: لا تبغضه لفرط طوله.

(٢) لا تقتحمه عين من قصر: أى لا تتجاوزه إلى غيره احتقارًا له.

(٣) المحفود: الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون فى طاعته.

(٤) المحشود: أى له حشد وجماعة.

(٥) لا مفند: لا يكثر اللوم على من وقع منه ذنب. والمفند: الهرم.

ولأجتهدن أن أفعل. وفى رواية: لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وفى «الخصائص الكبرى» أنه ﷺ بايع أم مَعْبَد - أى أسلمت - قبل أن يرتحلوا عنها. وفى كلام ابن الجوزى أن أمَّ مَعْبَد هاجرت وأسلمت، وكذا زوجها هاجر وأسلم.

وفى «وفاء الوفا»: هاجرت هى وزوجها، وأسلما.

وفى «الخلاصة»: فخرج أبو مَعْبَد فى أثرهم ليسلم، فيقال: أدركهم ببطن ريم فبايعه، وانصرف.

وفى «شرح السنة» للبغوى: وهاجرت هى وزوجها، وأسلم أخوها حبيش ابن الأشعر، واستشهد يوم الفتح، وكان أهلها يُؤَرِّخُون بيوم نزول الرجل المبارك.

قالت أم مَعْبَد - رضى الله عنها - فى وصف تلك الشاة: وكنا نحلبها صبوحًا وغبوقًا؛ أى بكرة وعشية، وما فى الأرض قليل ولا كثير، أى مما يتعاطى الدواب أكله[1].

وفى «ربيع الأبرار» للزمخشرى عن هند بنت الجون أنه ﷺ لما كان بخيمة خالتها أمّ مَعْبَد قام من رقدته فدعا بماء فغسل يده، ثم تمضمض، ومجَّ ذلك الماء فى عَوْسَجة إلى جانب الخيمة؛ فأصبحت وهى أعظم دوحة - أى شجرة ذات فروع كثيرة - وجاءت بثمر كأعظم ما يكون فى لون الورس، ورائحة العنبر، وطعم الشهد، ما أكل منها جائعٌ إلا شبع، ولا ظمآن إلا روى، ولا سقيم إلا برىء، ولا أكل من ورقها بعير ولا شاة إلا درّ، فكنا نسميها المباركة، فأصبحنا في يوم من الأيام وقد سقط ثمرها واصفر ورقها، ففزعنا لذلك، فما راعنا إلا نعي رسول الله ﷺ. وقال: والعجب كيف لم يشتهر

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١/ ٢٣٠)، دلائل النبوة لأبى نعيم (٢٨٣)، الخصائص الكبرى (١/ ٣١١)، تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/ ٣٢٦)، الوفا ص (٢٤٧).

أمر هذه الشجرة كما اشتهر أمر الشاة.

وطلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم مَعْبَد فسألوا عنه ووصفوه لها فقالت: ما أدرى ما تقولون؟ قد ضاقنى حالب الحائل. فقالوا: ذلك الذى نريده.

ولا ينافى هذا ما فى «فتح البارى» من أن سُرَاقة لما رجع قال لقريش: قد عرفتم بصرى بالطريق وبالأثر، وقد استبرأت لكم فلم أر شيئًا. لجواز أنه قال ذلك لبعضهم ممن لاقاه. وبعضهم ذهب إلى أم مَعْبَد فقالت له ما تقدم، فلما لم يقفوا على أثر رجعوا جميعًا.

ولازال كفار قريش بمكة لا يعلمون أين توجه رسول الله ﷺ وأبو بكر حتى سمعوا هاتفًا يذكرهما ويذكر أم مَعْبَد - رضى الله عنها - فى أبيات:

جزى اللهُ ربُّ النـاسِ خَيْرَ جزائهِ ... رفيقين قالا خَيْمَتَى أُمِّ مَعْبَدِ

هما نزلا بالغـارِ ثم ترحلا ... فأفْلَح من أمْسَى رفيقَ مُحَمَّدِ

ليُهْنِ بنى كعبٍ مكـان فتاتِهم ... ومَقْعَدها للمؤمنين بمرْصَدِ

سلـوا أُختَكُمْ عن شاتها ولبانها ... فإنكمُ إن تسألوا الشاة تَشْهَدِ

دعاها بشاةٍ حـائلٍ فتحلَّبَتْ ... عليـه صريحا ضَرَّةُ الشاة مُزْبِدِ

فغادرهـا رهنًا لديها لحـالبٍ ... تزودها فى مصـدرٍ ثم مَوْرِدِ

فيالَ قُصَىِّ مـا زَوَى الله عنكمُ ... به من فعالٍ لا تُجارى وسَؤْدَدِ

فما حملت من ناقة فوق ظهرهـا ... أبر وأوفى ذمة من مُحَمَّدِ

فعلموا توجهه ﷺ ليثرب.

قال فى «إنسان العيون» نقلاً عن بعضهم: وتقديم قصة سُرَاقة على قصة أم مَعْبَد هو ما فى الأصل، وقد التزم فيه ترتيب الوقائع، وقضية الترتيب ذكر قصة أم مَعْبَد قبل قصة سراقة؛ لأنه هو الصحيح الذى صرح به جماعة.

أقول: ومما يدل لذلك ما تقدم من أن كفار قريش لم يعلموا أين توجه ﷺ حتى سمعوا الهاتف يذكر أم مَعْبَد.

قال: وقد تبع الأصيلى فى ذلك شيخه الدمياطى حيث قدَّم خبر سُرَاقة على قصة أمّ مَعْبَد إلا أن يقال: الدمياطى لم يلتزم الترتيب، فلا يحسن تبعيته.

وهنا قصة أخرى فيها زيادة ونقص، قيل: هى قصة أم مَعْبَد، وقيل: هى غيرها؛ وهى أنه ﷺ اجتاز بغنم فقال: لراعيها: «لمن هذا؟ قال: لرجل من أسلم. فالتفت ﷺ لأبى بكر وقال: «سَلِمْتَ إن شاء الله» وقال للراعى: «ما اسمك» قال: مسعود. فالتفت ﷺ لأبى بكر وقال: «سَعدت إن شاء الله».

* * *

[لقاء رسول الله ﷺ فى طريق المدينة بُريدة الأسلمى وتفاؤله باسمه]

وفى «الإمتاع»: ولقى بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب ـ بضم الحاء المهملة وفتح الصاد ـ الأسلمى رضى الله عنه، فى ركب من قومه فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. وفى «الشرف»: فلما رآه ﷺ قال: «من أنت؟» قال: بُرَيْدَة بن الحُصَيْب، فالتفت النبى ﷺ وقال: «يا أبا بكر بَرَدَ أمرُنا وصَلُح» قال: «ممن أنت؟». قال: من أسلم. فقال النبى ﷺ: «سلمنا» ثم قال: «ممن» قال: من بنى سهم. قال: «خرج سهمك يا أبا بكر» ـ أى لأنه ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير ـ ثم قال بُرَيْدَة: من أنت؟ قال: «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله» فقال بُرَيْدَة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فأسلم بُرَيْدَة وكذلك من كان معه، وصلَّوا خلفه العشاء الأخيرة.

ثم قال بُريدة: يا رسول الله، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحلَّ بُرَيْدَة عمامته، ثم شدَّها فى رمح، ثم مشى بين يديه، وقال له ـ كما فى «الوفا» ـ: تنزل علىَّ يا نبى الله. فقال رسول الله ﷺ: «إن ناقتى هذه مأمورة». فقال بُرَيْدَة: الحمد لله أسلمت بنو أسلم ـ يعنى قومه ـ طائعين غير مكرهين[1].

* * *

(١) الوفا برقم (٣٣١)، المنتظم (٣/٥٦)، أخلاق النبوة (٩٤٩، ٩٦٩).

[قدومه ﷺ المدينة وفرح أهل المدينة برسول الله ﷺ]

ولما سمع المسلمون بخروجه ﷺ من مكة كانوا يَغْدون كل غَدَاة إلى الحَرَّةِ ينتظرونه حتى يردهم حَرُّ الظهيرة، فرجعوا يومًا بعد أن طال انتظارهم؛ وإذا رجلٌ من اليهود صعد على أطم - أى محل مرتفع - من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه، فَبَصُر برسول الله ﷺ وأصحابه، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا صاحبكم - وفى رواية جدكم أى حظكم - الذى تنظرونه.

فسار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرَّة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل فى بنى عمرو بن عوف بقباء وذلك يوم الإثنين.

(المَدينَةُ) النبوية علم لها بالغلبة فلا يستعمل معرفًا إلا فيها، والمنكَّر: اسم لكل مدينة. من مَدَنَ بالمكان. أقام، أو من دَانَ: أطاع، إذ يطاع السلطان فيها، وهى أبياتٌ كثيرة تجاوز حد القُرى، ولم تبلغ حد الأمصار، ونسبوا للكل مدينى، وللمدينة النبوية مدنى، للفرق. كذا قرره جمعٌ. قاله المُناوى.

وما قيل من أنها علم بالغلبة؛ كالنجم للثريا إذا أطلق فهى المرادة وإن أريد غيرها قيد فغير صواب؛ ففى الحديث: «تنفى الناس - أى أشرارهم - كما ينفى الكير خبث الحديد»[1].

وفى بعض الروايات: «لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها».

قيل: وذلك كان فى حياته ﷺ، وقيل: يكون ذلك فى زمن الدجال؛ فقد جاء: «إن الدجال يرجف بأهلها فلا يبقى منافق ولا كافر إلا خرج إليه»[2].

وبهذا ونحوه استدل من قال كون المدينة تنفى الخبث ليس عامًا فى الأزمنة،

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/٣٠٧)، والسيوطى فى الجامع الكبير (١١٧٠٨) وعزاه لابن أبى شيبة.

(٢) مسلم (الحج ب ٨٨: ٤٧٧)، مشكاة المصابيح (٢٧٤٠)، فتح البارى (٨٨١٤).

ولا فى الأشخاص؛ لأن المنافقين كانوا بها، وخرج منها جماعة من خيار الصحابة؛ كعليٍّ، وطلحة، والزبير، وأبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل.

وقد قال ﷺ: «أى أرض مات بها رجل من أصحابى كان قائدهم ونورهم يوم القيامة». وفى رواية: «فهو شفيع لأهل تلك الأرض»[1].

وأما قوله ﷺ: «والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون». أى خير لهم من بلاد الرخاء بدليل صدر الحديث: «يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلم إلى الرخاء هلم إلى الرخاء، والمدينة خيرٌ لهم لو كان يعلمون، والذى نفسى بيده لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله تعالى من هو خير منه»[2].

وتقدم ذكر أسمائها، ومنها: يثرب وهو اسم محل فيها سميت كلها به، وقيل: ذلك المحل يسمى بذلك لأنه نزل به يثرب من نسل نوح - عليه الصلاة والسلام -، وفى الحديث: «من سمَّى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى، هى طابة، هى طابة، هى طابة». قال ذلك ثلاثًا. وفى رواية: «فليستغفر الله، فليستغفر الله، فليستغفر الله، هى طَيْبَة، هى طَيْبَة، هى طَيْبَة، هى طائب»[3] ككاتب.

قيل: إنما سميت طَيْبَة لطيب رائحة من مكث بها، وتزايد روائح الطيب بها. ولا يدخلها طاعون، ولا دجال، ولا يكون بها مجذوم.

وتسميتها بيثْرب فى القرآن إنما هو حكاية لقول المنافقين؛ أى بعد نهيهم عن ذلك وقوله ﷺ لما رآها: «إلا يثرب» ونحو ذلك من كل ما وقع من كلامه ﷺ كان قبل النهى عن ذلك كما فى «إنسان العيون».

وإنما كُرِهت تسميتها بيثْرِب؛ لأن يَثْرِب مأخوذةٌ من التثريب وهو المؤاخذة

(١) لم أعثر عليه فيما تحت يدى من مصادر.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٥)، ابن حبان (٣٧٣٤).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٨٥)، أبو يعلى (١٦٨٤)، والبخارى فى تاريخه، وابن شبة فى تاريخ المدينة. وقال الهيثمى فى المجمع: رجاله ثقات.

بالذنب، ومنه قوله تعالى: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [1] ومن الثَّرَب بالتحريك وهو الفساد.

(وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ ثَانِى عَشَرَ رَبِيعَ الأَوَّل) وبه جزم النووى فى كتاب السير من «الروضة» وهو الراجح كما مر عن «المواهب» و «شرحه». وقيل: لثمان منه، وقيل: خرج فى صفر، وقدم فى ربيع. وقال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الإثنين، ودخوله المدينة كان يوم الإثنين. وفى «الاستيعاب»، عن الكلبى: قدم المدينة يوم الجمعة، وسيأتى ما يجمع به بينهما.

(وَأَشْرَقَتْ) أضاءت (به) ﷺ (أَرْجَاؤُهَا) جوانبها (الزَّكِيَّة) الكثيرة الخير والبركات (وَتَلَقَّاهُ الأَنْصَارُ) إلى ظاهر الحَرَّة (وَنَزَل بِقُبَاءَ) فى بنى عمرو بن عوف كما تقدم، وسرى السرور إلى القلوب بحلوله ﷺ فى المدينة. فعن البراء ـ رضى الله عنه ـ قال:

«ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء مثل فرحهم برسول الله ﷺ».

وقوله: وأشرقت به أرجاؤها: أشار به إلى ما رواه الترمذى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ [قال]: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة؛ أضاء منها كل شىء»[2].

وما رواه ابن خيثمة، والدارمى، عن أنس ـ أيضًا ـ: شهدت يوم دخول النبى ﷺ المدينة فلم أر يومًا أحسن منه، ولا أضوأ.

وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير ـ أى الأسطحة ـ عند قدومه يقلن بقولهن: طلع البدر علينا. . . إلخ.

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن جهراً:

(١) سورة يوسف: ٩٢.

(٢) الخصائص الكبرى (١/ ٣١٢) وعزاه لابن سعد فى الطبقات.

طلع البدرُ علينا من ثنيَّاتِ الوَدَاع
وجبَ الشكرُ علينا ما دَعَا لله داع
أيها المبعوثُ فينا جئت بالأمرِ المُطَاع[1]

واستشكل بأن ثنيات الوَدَاع ليست من جهة القادم من مكة، بل من جهة الشام عند مسجد الراية ومسجد النفس الزكية، قرب «سَلْع» فقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى «الهدى» فى غزوة تبوك: ثنيات الوداع من جهة الشام، لا يطؤها القادم من مكة.

وأجيب بأنه ﷺ جاء من جهتها فى دخوله المدينة عند خروجه من قُبْاء.

ونقل الحافظ ابن حجر عكس ذلك وقال: ثنية الوَدَاع من جهة مكة، لا من جهة تبوك، بل هى مقابل لها كالمشرق والمغرب. قال: إلا أن يكون هناك ثنية أخرى فى تلك الجهة.

ومن ثم قال العراقى: ويحتمل أن تكون الثنية التى من كل جهة يصل إليها المشيعون يسمونها بثنية الوداع.

قال الخميس: إن هذا هو الحق ويؤيده جمع الثنيات؛ إذ لو كان المراد التى من جهة الشام لم تجمع، فلا ينافى ما قاله ابن القيم، ومن هنا قيل لها: ثنية الوداع؛ لأن المودع يمشى مع المسافر من المدينة إليها.

وهو اسمٌ قديم جاهلى، وقيل: إسلامى؛ سمى ذلك المحل لذلك.

وسياق كلام المصنف: «وقدم المدينة، ونزل بقُبَاء» يُعلم منه أن المدينة تطلق ويراد بها ما يشمل قُبَاء، وهو المراد بدخوله المدينة يوم الإثنين على ما تقدم، ولعل ما فى بعض الروايات: دخل المدينة يوم الجمعة، الذى حكم الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ بشذوذه، المراد دخوله المدينة بعد خروجه من قُبَاء فلا منافاة، ومما يدل على أن دخوله المدينة وخروجه من قُبَاء كان يوم الجمعة قول بعضهم: ولبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف فى قُبَاء بقية يوم

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٢/٥٠٦)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٢٥٤).

الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس، وخرج يوم الجمعة[1].

والمنقول عن البخارى ومسلم، كلاهما عن أنس - كما فى «المواهب» و «شرحه» -: أنه ﷺ أقام بقُبَاء بضع عشرة ليلة.

ولعله وقع خروجه يوم الجمعة أيضًا؛ لأن البضع ما بين الثلاث إلى التسع، ومن أحد عشر إلى عشرين كما فى «القاموس» فلا يخالف من قال: إن خروجه من قُبَاء إلى المدينة كان يوم الجمعة.

وعن ابن عقبة: اثنتين وعشرين ليلة، وفى «الهدى»: أربعة عشر يومًا، وهو الذى فى صحيح مسلم، فليتأمل.

وقُبَاء معدودة من العالية، وحكمة التفاته ﷺ إلى العالية التفاؤل له ولديته بالعلو.

* * *

(١) المنتظم (٣/ ٦٥)، الوفا ص (٢٥٢).

[بناء مسجد قباء]

(وأَسَّس) أى النبى ﷺ (مَسْجِدُهَا عَلَى تَقْوَاهُ) روى ابن زُبَالة: أنه كان لكلثوم ابن الهدم، مَرْبد ـ وهو الموضع يبسط فيه التمر لييبس ـ فأخذه منه ﷺ فأسسه وبناه مسجداً.

وهو أول مسجد بنى فى الإسلام، وأوّل مسجد بنى لجماعة من المسلمين عامة، وأول مسجد صلَّى فيه النبى ﷺ بأصحابه جماعة ظاهراً.

وقد اختلف فى المراد بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [1] هل هو مسجد قُبَاء أو مسجد المدينة؛ ذهب قوم إلى الأول وهو الصحيح الذى عليه الجمهور فى تفسير الآية، وهو ظاهرها، وبه جزم عروة ابن الزبير عند البخارى وغيره. وذهب آخرون منهم: أبو عمرو، وأبو سعيد، وزيد بن ثابت إلى الثانى، وحجته قوية جاءت فيه أحاديث كثيرة صحيحة جزم الإمام مالك بصحتها. قال ابن رشد: إنه الصحيح. قال الدولابى وغيره: لا اختلاف لأن كلاً منهما أسس على التقوى. وكذا قال السهيلى. وزاد غيره: إن قوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يقتضى مسجد قُبَاء؛ لأن تأسيسه فى أول يوم حل النبى ﷺ بدار الهجرة. وجاء أنه ﷺ لما أراد بناءه قال: «يا أهل قُبَاء ائتونى بأحجار من الحَرَّة»؛ فجمعت عنده أحجار كثيرة، فخطَّ القبلة، وأخذ حجراً فوضعه، ثم قال: «يا أبا بكر خذ حجراً فضعه إلى جنب حجرى»، ثم قال: يا عمر خذ حجراً وضعه إلى جنب حجر أبى بكر»، ثم قال: «يا عثمان خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر»[2].

قال بعضهم كأنه ﷺ أشار إلى ترتيب الخلافة، وسيأتى مستنده فى ذلك

---

(١) سورة التوبة: ١٨.

(٢) المطالب العالية (٤/ ١٧).

فى أمره لهم بذلك أيضًا عند بنائه لمسجده الشريف.

وبعد تحوله ﷺ إلى المدينة كان يأتيه يوم السبت ماشيًا وراكبًا[1].

وقال ﷺ: «من توضأ وأسبغ الوضوء، ثم جاء مسجد قُبَاء فصلى فيه، كان له أجر عمرة»[2].

وروى الترمذى والحاكم وصححاه: أن النبى ﷺ قال: «صلاة فى مسجد قُبَاء كعمرة»[3].

وفى رواية: «من صلى فى مسجد قُبَاء يوم الإثنين ويوم الخميس انقلب بأجر عمرة».

وكان عمر - رضى الله عنه - يأتيه فيهما، وقال: لو كان بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل[4].

وصحح الحاكم، عن ابن عمر: أنه ﷺ كان يكثر الاختلاف إلى قباء راكبًا وماشيًا.

وتقدم أن النبى ﷺ خلَّف عليًا بمكة ليؤدى عنه الودائع فأقام بعده ﷺ ثلاثة أيام، ثم لحقه وأدركه بقُبَاء، وكانت مدة مقامه مع النبى ﷺ ليلة أو ليلتين.

وأمر النبى ﷺ وهو بقُبَاء بالتأريخ فكتب من حين الهجرة. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أخواله من بنى النجار فجاءوا فى أكثر من خمسمائة نفر متقلدين بالسيوف، فقالوا لرسول الله ﷺ وأصحابه: اركبوا آمنين مطاعين. فاجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول الله، أخرجت ملالاً لنا أم تريد دارًا خيرًا من دارنا؟ قال: «إنى أمرت بقرية تأكل القرى» يعنى المدينة.

---

(١) أخرجه البخارى (١١٩٣)، مسلم (٣/٤٨١)، أبو داود (٢٠٣٨)، أحمد فى مسنده (٢/١٥٥)، ابن حبان (١٦٢٨)، النسائى (٦٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة (٢/٣٧٣)، أحمد فى مسنده (٣/٤٨٧)، ابن ماجه (١٤١٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٤١١).

(٤) مثير الغرام الساكن ص (٤٧٥)، الوفا ص (٤-٨) وعزاه لرزين.

فخرج ﷺ من قُبَاء وهو راكبٌ ناقته الجدعاء أو القصوى أو العضباء، والناس معه عن يمينه وشماله وخلفه، منهم الماشى والراكب، فعرض له قبائل الأنصار وبنو سالم وغيرهم، واحداً واحداً يعدونه النصرة والمنعة بنزوله عندهم، فلم ينزل عند أحد منهم، وأدركته الجمعة فى بنى سالم فصلاَّها فى بطن الوادى ـ وادى «ذى صلب» بالباء ـ فى المسجد الذى يسمى بمسجد الجمعة ـ من حينئذ ـ وهو على يمين السالك نحو قُبَاء، وكانت هذه أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمدينة.

وهذا واضح إن كان ﷺ أقام بُقَبَاء الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس. وأما على أنه بضع عشرة ليلة فيبعد أن يقيم بها تلك المدة ولم يصل الجمعة. وقد رأيت فى كلام بعضهم أنه ﷺ كان يصلى الجمعة فى مسجد قُبَاء فى إقامته هناك.

* * *

[دخوله ﷺ المدينة
ونزوله فى بيت أبى أيوب الأنصارى]

ثم توجه بعد الصلاة على راحلته للمدينة وأرخى زمامها، فتلقاه جماعة من أهل دور الأنصار ويأخذون بخطام ناقته ويقولون: يا رسول الله هلم إلينا. فيقول: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة فحيث بركت نزلت»[1]. فصارت تنظر يمينًا وشمالاً إلى أن بركت عند بيته المشهور الآن بالحجرة الشريفة التى كانت بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أو عند محل باب المسجد، أو محل المنبر الآن، ثم قامت الناقة من غير أن تزجر، وسارت غير بعيد، وبركت تجاه دار أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ فنزل ﷺ هناك وقال: «هذا المنزل إن شاء الله تعالى، اللهم أنزلنا منزلاً مباركًا وأنت خير المنزلين، أربع مرات»[2] وهو فى شرقى المسجد، فأقام عنده.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١٨٣)، البداية والنهاية (٣/ ١٩٦)، الوفا ص (٣٣٦)، المنتظم (٣/ ٦٧)، سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٥).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١/ ٣٢).

[بناء المسجد النبوى فى المدينة]

ثم أراد أن يبنى مسجده الشريف ـ أى مع إدخاله الموضع الذى بركت فيه ناقته أولاً ـ وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبدًا لِسَهْل وسُهَيل غلامين يتيمين من الأنصار، وكانا فى حجر أسعد بن زُرَارَة، فساوم رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير.

وكان جداراً ليس له سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، وكان فيه شجر غرقد، ونخل، وقبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالنخل فقطعت، وصفت فى قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره: مائة ذراع، وفى الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعلوا أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع بالحجارة، ثم بنوه باللَّبِن.

وجاء أنه ﷺ عند الشروع فى البناء وضع لَبِنَة ثم أمر أبا بكر أن يضع لَبِنَة، ثم عمر لَبِنَة بجانب لبنة أبى بكر، ثم عثمان بجانب لَبِنَة عمر، كما أمرهم بذلك عند بناء مسجد قُبَاء كما تقدم؛ أى وقال ﷺ: «هؤلاء الخلفاء بعدى»[1] أخرجه الحاكم فى المستدرك، وصححه، وفى رواية: «هؤلاء ولاة الأمر بعدى»[2].

وجعل ﷺ يبنى معهم، وينقل اللَّبِن والحجارة ويقول:

«اللَّهُمَ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة فاغفر للأنصار والمُهَاجِرهْ»[3]

وجعل قبلته من اللبن، وقيل: من الحجارة. وجعل له ثلاثة أبواب: باب فى مؤخره الذى هو جهة القبلة اليوم، وباب عاتكة أى باب الرحمة، وباب

(1) مرآة الجنان (1/39)، دلائل النبوة للبيهقى (2/553).

(2) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (2/553)، المطالب العالية (4/17).

(3) فتح البارى (7/239)، دلائل النبوة للبيهقى (2/539)، الوفا ص (349)، المنتظم (3/8)، البداية والنهاية (3/214).

آل عثمان أى باب جبريل، وهذان البابان لم يغيرا بعد أن صرفت القبله. ولما صرفت ـ وذلك بعد أن صلى إليها سبعة عشر شهراً ـ سدَّ النبى الباب الذى كان فى مؤخره إذ ذاك، وفتح بابًا حذاءه.

وجعل عُمُدَه الجذوع، وسقفه بالجريد، ولم يبن إذ ذاك إلا بيتين لسودة وعائشة ـ رضى الله عنهما ـ كما حققناه فى «نزهة الناظرين». فقول بعضهم: وبنى مساكنه إلى جنبه باللَّبِن، ثم تحول إليها من دار أبى أيوب الأنصارى، ليس كذلك.. والله أعلم.

وكان قد مكث ﷺ فى بيت أبى أيوب الأنصارى إلى أن تم بناء المسجد، وقد مكث فى بناء ذلك من شهر ربيع الأول إلى شهر صفر من السنة القابلة، وذلك اثنا عشر شهراً، وقيل: سبعة أشهر.

وكان ﷺ حين قدم قد بلغ من العمر ثلاثًا وخمسين سنة، ثم استمر ﷺ على مجاهدة الأعداء، وتبليغ الأحكام والأنباء بالمدينة عشر سنين حتى دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وأكمل الله له ولأمته دينهم، وأتم عليه وعليهم نعمته.

* * *

[السنة الأولى من الهجرة]

ففى السنة الأولى: تمت صلاة الحضر، وغزا غزوة الأبواء، وصلى الجمعة، وبنى مسجده وبعض مساكنه، ومسجد قُبَاء، وأُرِيَ عبد الله بن زيد صفة الأذان، وأسلم عبد الله بن سلام[1]، ومات أسعدُ بن زُرَارَة.

[السنة الثانية]

وفى السنة الثانية: غزا غزوة بُواط، وغزوة بدر الأولى، وغزوة ذى العُشَيْرَة، وغزوة بدر العظمى، وغزوة بنى قَيْنُقَاع، وغزوة السويق، وغزوة قَرْقَرة الكدر، وحولت القبلة إلى الكعبة، وفُرِض رمضان، وزكاة الفطر، وزكاة المال الأولى فى شعبان، والثانية فى رمضان قبل العيد بيومين، والثالثة فى شوال، ومات عثمان بن مَظْعُون، ودخل عَلِىٌّ بفاطمة، وضحى ﷺ بكبشين، وتوفيت ابنته رُقَيَّة، وولد النعمان بن بشير وعبد الله بن الزبير.

[السنة الثالثة]

وفى السنة الثالثة: بعث سرية كعب بن الأشرف، وغزا غزوة أنمار، وغزوة أحد، وغزوة حمراء الأسد ـ موضع على ثلاثة أميال من المدينة ـ وتزوج عثمان بأم كلثوم، وتزوج ﷺ بحفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة الهلالية، وولد الحسن بن على بن أبى طالب، وحُرِمت الخمر. وفى «إنسان العيون»: أن تحريم الخمر كان فى السنة السادسة، أو فى الرابعة عند بعضهم.

[السنة الرابعة]

وفى السنة الرابعة: غزا غزوة بنى النَّضير، وغزوة الخندق، وغزوة بدر الموعد، وغزوة ذات الرِّقاع، وفيها صلى صلاة الخوف، وقصرت الصلاة،

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى، أبو يوسف، وكان من أحبار يهود المدينة، وكان اسمه فى الجاهلية: «الحصين» فسماه النبى ﷺ: عبد الله، توفى بالمدينة سنة (٤٣ هـ). (تجريد أسماء الصحابة ١/ ٣١٥).

ونزلت آية التيمم، وتوفيت زينب الهلالية، وتزوّج أم سلمة وزينب بنت جحش، وولد الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ ورجم اليهوديان، ونزل الحجاب.

[السنة الخامسة]

وفى السنة الخامسة: غزا دَوْمَةَ الجَنْدَل، وغزوة المُرَيْسيع، وفيها: وقع حديث الإفك، وغزوة قُريظة، وتزوج جويرية بنت الحارث ورَيْحَانة بنت زيد القرظية، وسابق بين الخيل. وفى «إنسان العيون»: وفيها نزلت آية التيمم، وآية الحجاب.

[السنة السادسة]

وفى السنة السادسة: غزا غزوة بنى لحيان، وغزوة الغابة، وقحطت الناس واستسقى لهم، وخرج ليعتمر فَصُدًّ من الحُديبية،فحلَّ ونحر وبايع بيعة الرضوان، وفُرِض الحج. وفى «إنسان العيون»: أن فرضه كان فى الخامسة.

[السنة السابعة]

وفى السنة السابعة: غزا غزوة خيبر، وسمَّته اليهوديةُ فى الشاة، وتزوج ميمونة بنت الحارث، واعتمر عمرة القضاء، وبعث رسله إلى الملوك، وتزوج صفية بنت حيى وأم حبيبة بنت أبى سفيان، وقدم حَاطب من عند المُقوقس بمارية بنت شمعون القبطية، وأختها شيرين، وبغلته دُلْدل، وحماره يَعْفُور، وقدم جعفر بن أبى طالب وأصحابه من الحبشة، وأسلم أبو هريرة وعِمْرَان بن حُصَين، وحُرِّمت الحُمُر الأهلية ومُتْعَة النساء.

[السنة الثامنة]

وفى السنة الثامنة: بعث سرية مؤتة؛ فأصيب بها زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة، وغزا غزوة الفتح، وغزوة حُنين، وغزوة الطائف، واعتمر من الجِعْرَانَة[1]، وولد له إبراهيم من سريته مارية،

(١) الجعرانة: ماءٌ بين الطائف ومكة، وهى إلى مكة أقرب. (معجم البلدان ٢/ ١٤٢).

وعمل مِنبَره، وتوفيت ابنته زينب، ووهبت سودة يومها لعائشة، وحج عتاب ابن أَسَيد بالناس.

[السنة التاسعة]

وفى السنة التاسعة: غزا غزوة تبوك، وهدم مسجد الضرار، ومات عبد الله ابن أبى، وحج أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بالناس، وأمر عليًا أن يقرأ بالموسم سورة براءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُرْيَان، وآلى من نسائه، وتوفيت ابنته أم كلثوم، وصلى على النجاشى يوم مات، وتتابعت عليه الوفود؛ وكانت تسمى سنة الوفود.

[السنة العاشرة]

وفى السنة العاشرة: مات إبراهيم، وحج ﷺ حجة الوداع واعتمر معها، وأسلم جرير بن عبد الله البجلى.

* * *

[وفاة رسول الله ﷺ]

وتوفى ﷺ ضحوة يوم الإثنين فى ربيع الأول وله ثلاث وستون سنة، وغسَّله علىّ، والعباس، وكفن فى ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص، ولا سراويل، ولا عمامة. وصلوا عليه فرادى، وحفر له فى موضع فراشه، وفرش تحته قطيفة حمراء كان يتغطاها وكان قد أمرهم بذلك، وهو من خصائصه ﷺ كما قاله وكيع، وأطبق عليه سبع لبنات ﷺ.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلَاةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ)

* * *

[كمال خلقته وجمال صورته ﷺ]

ولما فرغ المؤلف ـ رحمه الله تعالى وشكر سعيه ـ من ذكر مولده ونشأته، وبعض ما اتفق له فى خلال عمره الشريف من أحواله سيما بعثته وهجرته: شرع فى الكلام على بعض أوصافه الحميدة، وصفاته السديدة التى لا يمكن استيعابها لأحد من البشر، ولا يحيط بها إلا مانحه؛ بارىء النسم والصور.

ومن تمام الإيمان به: اعتقاد أنه لم يجتمع فى بدن آدمى من المحاسن الظاهرة ما اجتمع فى بدنه ﷺ وكذا بقية أوصافه الفائقة: كالعلم، والكرم، والشجاعة، والخلق الحسن، وغيرها، إذ المحاسن الظاهرة أعلام على الأخلاق الباطنة، ولأجل ذلك لما اختص ﷺ من جمال الصورة الظاهرة بما لم يشاركه فيه مخلوق كان ذلك آية باهرة، وحجة ظاهرة، على اتصاف نفسه من الأخلاق بما لم يشاركه فيه مخلوق بل يجب علينا أن نعتقد ذلك، وأنه قد بلغ فيها الغاية التى لم يصل إليها أحد من خلق الله، كما قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَكَانَ ﷺ) فى حياته، بل وبعد مماته، وكذا فى آخرته كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ [1] على ما قاله بعض أهل التحقيق من أن المعنى: وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة، فلا يزال يترقى فى الكمالات كل لحظة.

(أَكْمَلُ) أى أتم (النَّاسِ) البشر الذين هم أحسن المخلوقات كلها صورًا كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [2] فغيرهم من باب أولى (خَلْقًا) بفتح فسكون، وهو فى الأصل التقدير والإيجاد، وقيل: وهو فى

---

(١) سورة الضحى: ٤.

(٢) سورة التين: ٤.

الإيجاد مجاز، وإن استعمل فيه كثيراً، والمراد به اسم المفعول الذى هو هيئة الإنسان وصورته، وقدَّمه على ما بعده؛ لتقدمه عليه فى الوجود، ونصبه على التمييز أى من جهة الهيئة المخلوقة فى تناسب الأعضاء، وصفاء البشرة، واعتدال القامة (وَخُلُقًا) بضمتين أو بضم فسكون. قال فى «النسيم»: هو فى الأصل الطبيعة والجبلة، ويطلق على الصفات المعنوية الراسخة فى النفس، وهو للنفس والصورة الباطنة وأوصافها بمنزلة الخلق للصور الظاهرة، وترتيب الثواب والعقاب على هذه.

وقال الراغب: هما فى الأصل بمعنى، وخص الفتح بالهيئة والصورة المدركة بالبصر، والضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، وهو كيفية راسخة فى النفس تقتضى سهولة صدور الأفعال عنها من غير احتياج لفكر ورويّة، ويطلق على ما يترتب على تلك الكيفية، ويخص فى العُرْف بما يتعلق من معاشرة الناس.. انتهى.

وقال الشيخ زاده: هو مَلَكة نفسانية تسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة، ونفس الإتيان بها شىء، وسهولة إتيانها شىء آخر؛ فالحالة التى باعتبارها تحصل تلك السهولة: هى الخلق، وسمى خُلقًا لرسوخه وثباته، وصيرورته بمنزلة الخلقة التى جبل عليها الإنسان؛ وإن توقف حصولها على عمل وطول رياضة ومجاهدة.. انتهى.

وهذا معناه بحسب الأصل فى غير نبينا ﷺ، أما بالنسبة إليه ﷺ: فهو طبيعة مجبول عليها من أصل خلقته ﷺ، بل لم تزل أنوار المعارف تشرق فى قلبه حتى اجتمع فيه من خصال الكمال ما لا يحيط به عدّ ولا يحصره حدّ، ومن ثم أثنى الله عليه فى كتابه العزيز فقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [1]، فوصفه بالعظم، وزاد فى المدحة بإتيانه بِعَلَى المشعرة بأنه ﷺ استعلى على معالى الأخلاق، واستولى عليها، فلم يصل إليها مخلوق غيره.

(١) سورة القلم: ٤.

ووصفه بالعظم دون الكرم الغالب وصفه، أى الخلق به لأن كرمه يراد به السماحة والدماثة، وخلقه ﷺ غير مقصور على ذلك؛ بل كما كان عنده غاية الرحمة للمؤمنين؛ عنده غاية الغلظة والشدة على الكافرين باعتبار ما آل إليه أمره ﷺ بعد نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [1] وإلا فهو ﷺ قبل ذلك كان مأمورًا بالصبر على تحمل أذاهم والإعراض عنهم فاعتدل فيه الإنعام والانتقام.

أما دعاؤه ﷺ: «واهدنى لأحسن الأخلاق...» الحديث، فإنه للعبودية والخضوع، وإلا فهو مجبولٌ على أكرم الأخلاق وأعظمها؛ وذلك كله ناشىء عن كمال عقله الذى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها إلا كحبة رملة من بين جميع رمال الدنيا، كما فى رواية أبى نُعَيْم، وابن عساكر، عن وهب: أنه وجد فى أحد وسبعين كتابًا أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جنب عقله ﷺ إلا كحبة رملة من بين جميع رمال الدنيا[2].

ومحل العقل القلب على الأصح، والقلوب محل الإخلاص، وأسرار البارئ، وأجل قلب أُودعه ذلك قلب نبينا ﷺ، وقد جعل الله للنفوس أعلامًا على أسرار القلوب فمن تحقق بسر الله الأكبر اتسعت أخلاقه لجميع الخلق، وقلب رسول الله ﷺ أوسع قلب اطَّلع الله عليه ـ كما ورد، ومما يقطع بصحة ذلك سياسته ﷺ للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة، وصبره على طبائعهم المتنافرة المتباعدة، حتى قاتلوا دونه أهاليهم، وهجروا فى رضاه أوطانهم وأحبابهم، مع أنه لم يَطَّلع على سِيَر الماضين، ولا تَعَلَّم من العقلاء المحدثين.

---

(١) سورة التحريم: ٩.

(٢) عزاه السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ١١٤) لأبى نعيم فى الحلية وابن عساكر.

لطيفة

جاء يهودى إلى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وقال له: قال الله تعالى فى صفة نبيكم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) فقال: نعم. فقال: صف لى خلقه حتى أعرف عِظَمَهُ. فقال أبو بكر: اذهب إلى عمر. فذهب إليه وقال له ما قال لأبى بكر، فقال: اذهب إلى عثمان. فذهب إليه وقال له ما ذكر. فقال: اذهب إلى على. فذهب إليه وقال له ما ذكر. فقال علىٌّ ـ كرم الله وجهه ـ: صف لى ما فى الدنيا من النعم. فقال اليهودى: لا أستطيع ذلك. فقال: كيف لا تستطيع أن تصف شيئًا وصفه الله بالقلة؟ حيث قال عز من قائل: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (٢) وتطلب أن أصف لك شيئًا وصفه الله بالعظمة حيث قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣) فأعجب اليهودى الجواب فأسلم فى الحال.

وما ذكره المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من قوله: أكمل الناس خَلْقًا وخُلُقًا هو كالقاعدة والأساس لما سيذكره بعد من تفاصيل ذلك (ذَا) صاحب (ذَات) تقدم الكلام عليها فى أول الكتاب (وَ) ذا (صِفَات) معان زائدة على الذات محسوسًا ومعقولاً فهو فى المعنى كالتفسير لما قبله. (سَنِيَّة) نسبة للسنا بالقصر أى مضيئة نيرة.

(مَرْبُوعُ القَامَةِ) أى معتدلها لا هو بالطويل البائن أى المفرط فى الطول مع اضطراب القامة، ولا بالقصير البائن أى المفرط فى القصر مع اضطراب القامة، بل كان معتدلاً إلى الطول أقرب. ولا ينافى ذلك وصفه بالربعة كما فى خبر؛ لانها أمر نسبى، فمن وصفه بالربعة أراد الأمر التقريبى ولم يرد التحديد، ومن ثم قال ابن أبى هالة: أطول من المربوع، وأقصر من المشذب،

(١) سورة القلم: ٤.
(٢) سورة النساء: ٧٧.
(٣) سورة القلم: ٤.

وهو البائن الطول في نحافة.

وعند البيهقى وابن عساكر: لم يكن يماشيه أحدٌ من الناس إلا طاله، ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسب إلى الربعة[1].

وفى «خصائص ابن سبع»: كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين. قال بعضهم: جعل الله له هذا فى رأى العين معجزة خصّه الله بها لئلا يرى يفوق أحد عليه بحسب الصورة، وليظهر من بين أصحابه تعظيمًا له بما لم يسمع، فإذا فارق تلك الحالة زال المحذور، وعلم التعظيم، فظهر كماله الخفى.

* * *

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٢٩٨)، ابن عساكر فى تاريخه (١/ ٣٣٣).

[صفة لونه ﷺ]

(أَبْيَضُ اللَّوْنِ) صفة مشبهة للفاعل، وفى رواية: أَزْهَرُ اللون، ليس بالآدم، ولا بالأبيض الأمهق. والأزْهَر: الأبيض المستنير المشرق، وهو أحسن الألوان أى ليس بالشديد البياض، والآدم: الشديد السمرة، والأَمْهَق: الشديد البياض الذى لا يخالطه شىء من الحُمْرَة - وليس بنير؛ كالجصِّ ونحوه، بل كان (مُشْرَبًا) بتشديد الراء وتخفيفها من الأشراب - وهو خلط لون بلون كأن أحد اللونين مسقى بالآخر، أى ممزوجًا (بِحُمْرَة) وهذا اللون أحسن الألوان؛ لدلالته على قوة المزاج واعتداله. وبهذا تجتمع ظاهر الروايات المتخالفة فى حكاية لونه الشريف.

وأما وصف أنس - رضى الله عنه - لعنقه الكريم بقوله: «كأنه صيغ من فضة»[1] فلم يرد به شدة بياضه بل حسن منظره، وما كان يعلو بياضه من الإضاءة ولمعان الأنوار، والبريق الساطع.

وفى حديث ابن عباس - رضى الله عنهما -: «لم يكن لرسول الله ﷺ ظلٌ، ولم يقم مع شمس إلا غلب ضوءه ضوء الشمس، ولم يقم مع السراج إلا غلب ضوءه ضوء السراج»[2].

تنبيه

قال المحقق ابن حجر - رحمه الله -: قال أئمتنا الشافعية - رحمهم الله -: من قال إن النبى ﷺ كان أسود، أو غير قرشى، أو توفى فى أهرد كَفَرَ؛ لأنَّ نَعْتَه ﷺ بغير صفته نفى له وتكذيب، ومنه يعلم أن كل صفة ثبتت له بالتواتر نفيها كفر[3].

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل (١٢)، ابن الجوزى فى الوفا ص (٤٠٩).
(٢) السيرة الشامية (٢/ ١٥)، الخصائص الكبرى (١/ ١١٦).
(٣) يراجع السيرة الشامية (٢/ ٢١).

[صفة عينيه وحاجبيه ﷺ]

(وَاسِعُ) شق (العَيْنَيْنِ) وعند الترمذى: أدْعَج العينين، وهو شدة سواد حدقة العين فى شدة بياضها مع سعتها (أَكْحَلُهُمَا) من الكَحَل بفتحتين وهو كما فى «القاموس»: أن يعلو منابت الأشفار سواد خلقة، أو أن يسود مواضع الكحل، وحذف العاطب فيه وفيما قبله وما بعده من الصفات المذكورة هنا ليكون أدعى إلى الإصغاء إليه وأبعث للقلوب على تفهم خطابه؛ كما أشار إليه فى «البدر المنير»، وجاء بالمعانى المسرودة على نمط التعديد؛ إشعار أبان كُلاً منها مستقل بنفسه، قائم برأسه، صالح لانفراده بالغرض.

(أَهْدَبُ) صفة مشبهة من الهُدُب، بضم الهاء والدال، ويجوز تسكينها. قال فى «نسيم الرياض»: والأهدب: الطويل الهدب أو الكثير، ففيه حذف مضاف؛ أى أهدب شعر (الأشْفَارِ) جمع شُفر بضم الشين وقد تفتح، طرف الجفن، غشاء العين الأعلى والأسفل، وهدب العين مما يزينها ويمنع شعاع الشمس عنها وسقوط شىء من الأجرام الصغيرة فيها إذا كانت مفتوحة، ويُعين على اجتماع نور بصرها، ويمنع من تفرقه، وإنما خلقت هذه الأجفان وأهدابها لتقى العين الأذى، وهى تمسحه فى انطباقها وانفتاحها، وتذب عنها بأهدابها.

(قَدْ مُنِحُ) بالبناء للمفعول أى أُعطى (الزَّجَجَ) بالنصب مفعول ثان لما قبله وهو بفتح الزاى وجيمين معجمتين الأولى منهما مفتوحة، تقوس الحاجبين مع طول كما فى «القاموس». وفى «الأساس»: الدقة والاستقواس. وفى «الفائق»: دقة الحاجبين وسبوغهما. والسبوغ التمام والطول. وقوله: (حَاجِبَاهُ) نائب الفاعل وهو مفعوله الأول، وهما الشعر النابت فوق العينين بينه وبينهما بياض فى منحدر، والمعنى: أنه ﷺ كان مُقَوَّس الحاجبين مع

طول وامتداد، أو كان دقيقهما مع طول واستقواس. وفى رواية أم مَعْبَد: «كان أَزَجّ أَقْرَن[1]». وفى حديث هند بن أبى هالة: «أزجّ[2] الحواجب، سوابغَ[3] فى غير قَرَن».

وقد جمع المحقق ابن حجر فى «أشرف الوسائل» بينهما بأنه كان بين حاجبيه فرجة دقيقة لا تبين إلا لمتأمل؛ فهو غير أقْرَن فى الواقع، وإن كان أقْرَن بحسب الظاهر عند من لم يتأمله؛ لأنهما سبغا حتى كادا يلتقيان.. انتهى.

وقد أصاب الشيخ ـ رحمه الله ـ فى هذا الجمع لما فيه من الجمع بين ما هو محمود عند العرب، وما هو محمود عند العجم؛ فكأنه ﷺ جمع بين لطافة العرب، وظرافة العجم، إلا أنه يرد عليه ما تقدم عن أم مَعْبَد من أن نظر المرأة إلى الرجل أشفى من نظر الرجل إلى الرجل؛ حين قيل لها: «ما بال صفتك أشبه به من سائر صفات من وصفه؟» إلا أن يقال: المراد بالرجل: الرجل الأجنبى، وهند هذا ليس بأجنبى منه ﷺ فله زيادة تأمل عن غيره، وقد وصفه بغير أقْرَن ويعبر عن افتراق الحاجبين بالبَلَج ـ بفتحتين ـ نقاء ما بينهما من الشعر، وفى «فيض القدير»: أن العرب تحب البَلَج، وتكره القَرَن.

* * *

(١) القرن: اتصال شعر الحاجبين.

(٢) أذج الحواجب: أى مقوس الحواجب مع طول فى طرفه وامتدادها.

(٣) سوابغ: أى كاملات. أى حاجبيه كاملات تكاد تلتقيان.

[صفة فمه ﷺ وأسنانه]

(مُفَلَّجُ) بضم الميم وفتح الفاء واللام مشددة فجيم، أى متباعد ما بين (الأَسْنَان) العظام النابتة فى اللحيين الأعلى والأسفل، والمراد بالأسنان هنا: الثنايا تغليبًا، أو مطلقٌ أريد به الخاص؛ لأن تفريج ما بين غيرها عيب، قال بعضهم: الفَلَج بالتحريك: فرجة ما بين الثنايا. وقال ابن دُرَيْد وتبعه صاحب «القاموس»: إنه لا يقال رجل أَفْلَجَ إلا إذا ذكر معه الأسنان: أى إذا قيد بها سواء كان بلفظ الأسنان، أو الثنايا، أو غيرهما؛ لئلا يلبس برجل أفلج أى بعيد ما بين القدمين أو اليدين؛ فإنه ورد استعماله مطلقًا فى كلامهم دون الأوّل فإنه ورد مقيداً.

قال العلامة ابن حجر: الصحيح: أن الفَلَج انفراج ما بين جميع الأسنان كما قاله صاحب «المحكم».

وفى رواية: «أشْنَب» والشَنَب بفتح الشين المعجمة والنون بعدها موحدة: دقة الأسنان مع البياض والبريق والتحديد، وكان ﷺ إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من ثناياه، ويحتمل أن يراد ذلك بحقيقته من مشاهدة نور حسيّ يخرج من فيه إذا تكلم معجزة له، وقيل: هو بردها وعذوبتها.

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: أخرج أحمد، وغيره: «أنه ﷺ شرب من دلو، فصبّ فى بئر ففاح منها رائحة المسك»[1].

وأبو نعيم «أنه بَزَق فى بئر بدار أنس فلم تكن بالمدينة بئر أعذب منها»[2].

والطبراني: «أن نسوة مضغن قديدة مضغها، فمتن ولم يوجد لأفواههن خُلُوف»[3].

(١) الخصائص الكبرى (١/ ١٠٥).

(٢) الخصائص الكبرى (١/ ١٠٥).

(٣) الخصائص الكبرى (١/ ١٠٥).

و «أنه مسح بيده وبها ريقه ظهر عُتْبَة وبطنه فلم يُشم أطيب منه رائحة»[1].

وابن عساكر: أن الحسن اشتد ظمأه فأعطاه لسانه فمصَّه حتى رَوِى[2].

و «بصق يوم خيبر بعينى علىٍّ وبهما رمد فبرىء»[3].

فائدة

عدة الأسنان اثنان وثلاثون، فى كل لحى ستة عشر: ثنيتان وهما، أوسط الأسنان، وَرَبَاعيتان يكتنفانهما يمينًا وشمالاً، فنابان، فضاحكان، فستة أضراس، فناجذان كذلك، فما بين النابين للقطع، وهما للكسر، وما وراءهما من الأضراس والنواجذ للطحن، وقد تطلق الأسنان على ما بين النابين من الثنايا والرَّبَاعيات فقط. قال بعضهم: ولعله المراد.. انتهى.

(وَاسِعُ الفَمِ) وفى رواية: «ضليعُ الفَمِ» أى عظيمه، وقيل: بمعناه، وهو محمودٌ عند العرب، بل تذم ضيق الفم. وكان لسعة فمه ﷺ يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، كما فى رواية الترمذى وغيره، ففيه إيماء إلى قوة فصاحته وسعة بلاغته، (حَسَنُهُ) أى الفم، بتناسب ما اشتمل عليه من أجزائه: كالشفتين كما هو ظاهر.

* * *

(١) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٢): رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير، ورجال الأوسط رجال الصحيح غير أم عاصم فإنى لم أعرفها.

(٢) الخصائص الكبرى (١/ ١٠٦) وعزاه لابن عساكر.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١١٧)، أحمد فى مسنده (١/ ٩٩)، فتح البارى (٧/ ٦٠٦)، البداية والنهاية (٧/ ٣٥٢).

[صفة جبينه ووجهه ﷺ]

(وَاسِعُ الجَبِينِ) وفى رواية: «صَلْتُ الجَبِينْ»؛ أى واضحه، أى ليس عليه شعر يغمه. وفسر المحقق ابن حجر سعة الجبين بوضوحه، وذكر أنه بمعنى صَلْت الجبين فى رواية، وعظيم الجبهة فى أخرى. والجبين: ما فوق الصدغ، وهو ما اكتنف الجبهة من يمين وشمال، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، والمراد بسعته: امتداده طولاً وعرضًا، وسعة الجبين محمودة عند كل ذى عقل سليم؛ قال فى «النسيم»: والظاهر من العبارة أنه أريد بالجبين الجبهة؛ إذ لم يقل جبينين بالتثنية. قال: وفيه أيضًا أن سعة الجبين مما يدل على قوة العقل والفهم والحواس، إذا لم يكن مُفْرَطًا. قال: وسعة الجبين: حسنها، أو شخوصها، أو طولها، كما قيل.

(ذَا جَبْهَةٍ هلاَلِيَّة) بكسر الهاء، أى منسوبة للهلال، والمراد به: القمر أوّل طلوعه. وبالجبهة ما يليها من كلا طرفيها من النزعتين والصدغين كذلك، وذلك ما بين الحاجبين وشعر الرأس المحيط بذلك من أعلاه، أو المراد به: القمر ليلة كماله فى إضاءتها ولمعانها وإشراقها، أخذًا من رواية هند بن أبى هالة: «يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر» وحينئذ يكون المراد بالجبهة: جميع الوجه؛ من باب تسمية الكل باسم الجزء على سبيل المجاز المرسل، فعلى الأوّل فيه تشبيه جبهته بالقمر أوّل طلوعه فى اللمعان والتقويس، وعلى الثانى فيه تشبيه وجهه به ليلة كماله فى الإضاءة، والإشراق البروق والميل إلى الاستدارة. ولا مانع من إرادة كل منهما لاشتمال وجهه الشريف على ذلك كله بل كان أحسن من القمر.

وتشبيه بعض صفاته بنحو الشمس والقمر إنما هو جَرَىٌ على عادة الشعراء العرب، أو على التقريب والتمثيل، وإلا فلا شىء يعادل شيئًا من أوصافه

كما مر تحقيق ذلك؛ إذ هى أعلا وأجلّ من كل مخلوق.

ويؤيد ذلك ما فى رواية هناد بن السرى، عن جابر بن سَمُرة قال: «رأيت رسول الله ﷺ فى ليلة إضحيان[1] وعليه حُلَّة حمراء فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندى أحسن من القمر»[2] لأن نوره ظاهر فى الآفاق والأنفس، مع زيادة الكمالات الصورية والمعنوية. وفى الحقيقة كل نور خلق من نوره، فنور وجهه ذاتى لا ينفك عنه ساعة فى الليالى والأيام، ونور القمر مكتسب مستعار ينقص تارة ويخسف أخرى، وما أحسن ما قاله الأديب صاحبنا الشيخ إبراهيم الخليل المصرى فى نونيته:

بدرٌ ولكن قَـدَ تَعَـالى شأنه ... عما يشين البدر مِنْ نُقْصَانِ

ولله در الآخر حيث قال:

إذا عبتها شبّهتها البدر طالعًا ... وحسبك من عيبٍ لها شبه البدرِ

هذا، وقد ورد فى مسلم عن جابر بن سمرة أن رجلاً قال له : أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً[3].

قال أبو عبيدة: لا يريد أنه كان فى غاية التدوير، بل كان فيه سهولة ما، وهى أحلا عند العرب والعجم خلافًا للترك، ويؤيده قوله: (سَهْلُ الخَدَّيْنِ) هكذا فى وصف ابن أبى هالة. قال المُناوى: وهو بمعنى غير مرتفع الوجنتين، وهو بمعنى خبر البزار والبيهقى: «كان أسِيل الخدَّين»، وذلك أعلا وأغلا وأحْلَى عند العرب.

* * *

(١) إضحيان: أى مقمرة مضيئة من أولها إلى آخرها.

(٢) أخرجه الترمذى (٢٨١١)، والبيهقى فى الدلائل (١/ ١٩٦).

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب باب (٢٣)، الترمذى (٣٦٣٦)، البيهقى فى الدلائل (١/ ١٩٥)، أحمد فى مسنده (٤/ ٨١ و ٥/ ١٠٤).

[صفة أنفه الشريف ﷺ]

(يُرَى) بالبناء للمفعول (فِى) وسط قصبة (أَنْفِه) الشريف (بَعْضُ) نائب الفاعل (احْدَيْدَاب) مضاف إليه ما قبله وهو بإهمال الحاء والدالين نوع من الارتفاع لا الانخفاض كما توهمه بعضهم (حَسَنُ العِرْنِين) بكسر العين المهملة وسكون الراء وكسر النون الأولى: ما صلب من عظم الأنف أو كله، أو ما تحت مجتمع الحاجبين أو أوله؛ حيث يكون الشَّمَم، جمعه عرانين.

(أَقْنَاهُ) أى مرتفع وسطه مع نزول الأرنبة، وهذا التفسير الذى ذكرناه يدفع ما قد يتوهم من التعارض بين وصفه بأنه كان أشمّ مع تتالى القَنَى والشَّمَم، أى فى بعض الأقوال؛ إذا القَنَى ارتفاع قصبة الأنف مع نزول الأرنبة وهى رأس الأنف مما يلى الفم. والشَّمَم: استواء قصبة الأنف مع ارتفاع يسير فى الأرنبة، وبينهما من التضاد ما لا يخفى إذ ذاك فيه نزول الأرنبة، وهذا فيه ارتفاعها، وأما فى بعض الأقوال فلا منافاة، ففى «القاموس»: والشَّمَم: ارتفاع قصبة الأنف، وحسنها، واستواء أعلاها، وانتصاب الأرنبة، أو ورود الأرنبة فى حسن استواء القصبة.

قال فى «النسيم»: وجمع بينهما بأن القَنَى كان خفيفًا، فإن زيادته غير ممدوحة كما فى الفَلَج، وقد أشار المصنف إلى هذا الجمع بقوله: حسن العِرْنين ويدل عليه قول ابن أبى هالة: أَقْنَى العِرْنين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله لشم، وقال مفسرا للشَّمَم المنفى فى نحو كلام ابن أبى هالة: الشَّمم فى الأنف: ارتفاع وسط قصبة الأنف مع استواء أعلاه، وإشراف أرنبته قليلا. وقال مبينا لمعنى قول ابن أبى هالة: أَقْنَى العِرْنين إلى قوله: أشمّ: يعنى أن وسطه فيه استواء مع أعلاه وأسفله، ولكنه لتلألؤه يظن أن فيه ارتفاعًا قليلاً جدًا لا يعد شممًا.

قال: وقيل الشَّمَم: طول الأنف مع سيلانه ودقّته. والأول أصح وأشهر، وهو من صفات الجمال والمدح، وعلامة السؤدد فى الرجال.

والشَّمَم يعبر به أيضًا عن عزة النفس وعدم التنزل فى الأمور، وهو مما يمدح به.. انتهى.

والأنف: أسم لمجموع القصبة، والمارن، وما تحتها من الطباق الثلاث المشتملة على المنخرين اللذين هما الخرقان من خارج إلى داخل الفم والدماغ.

* * *

[بعد ما بين منكبيه ﷺ]

(بَعِيدُ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ) بفتح الميم وسكون النون فكاف مكسورة فموحدة، وهو ما بين الكتف والعنق كذا فى «النسيم». وفى «القاموس»: مجتمع رأس الكتف والعضد مذكر. وقال ابن حجر: مجمع عظم العضد والكتف، وهو بمعنى ما فى «القاموس». وقال فى معناه: أى عريض أعلى الظهر، وهو مستلزم لعرض الصدر، ومن ثم وقع عند ابن سعد: رحيب الصدر.. انتهى.

وفى «النسيم»: أن المراد ببعدهما: سعتهما. قال: وهو أقوى للبدن والبطش. قال: وعبر عنه تارة بالبعد، وتارة بالعظم، والكل واحد.. انتهى.

* * *

[صفة يديه ﷺ]

(سَبْطُ) بفتح السين المهملة وموحدة ساكنة أو مكسورة، كما فى رواية البخارى (الكَفَّيْنِ) تثنية كف، وهذا الوصف ذكره السيوطى فى «خصائصه» وفى رواية: بَسْط بموحدة ومهملتين، وهما بمعنى، والمراد: أن فى كفه

وأصابعه ﷺ طولاً غير مفرط، وهو مما يُحمد فى الرجال؛ لأنه أشد لقبضهم، ويُذم فى النساء.

وجاء فى وصف الكفين الكريمين: أنهما كانا شَثنين ـ أى غليظين ـ، وجاء فى رواية: رَحْب الكفين.

قال فى «البحِائى»: كبيرهما، وهو محمول على ظاهره من كبر الجوارح لدلالته على كمال الخلق، وفى رواية: رحب الراحة. قال الزمخشرى: رحب الراحة دليل الجود، وصغرها دليل البخل.

وقيل: معنى رحب الراحة: واسع القوة، ومنه حديث ابن عوف: «قلدوا أمركم رحب الذراع ـ أى واسع القوة ـ عند الشدائد»، ومقتضى كلام العسقلانى وغيره: أن مَنْ أَوَّل هذه الألفاظ بالكناية عن جوده وسماحته ـ وإن كان الواقع كذلك ـ لكن لا يناسب المقام؛ لأنه لبيان صفاته الصورية إلا أن يُقال الكناية لا تمنع إرادة المعنى الحقيقى كما أفاده المُناوى، وقد أحسن العلامة ابن حجر فى تفسير رَحْب الراحة بوسع الكف حسًا ومعنى.

* * *

[ضخامة كراديسه ﷺ]

(ضَخْمُ) بفتح الصاد وسكون الخاء المعجمتين، أى عظيم (الكَرَادِيسِ) بفتح الكاف آخره سين مهملة، جمع كُرْدُوس؛ كل عظمين التقيا فى مفصل نحو الركبة، والمَنْكِب، والورك، والمرفق. وقيل: رؤوس العظام. وكيف ما كان فهو يدل على وفور المادة، وكثرة الحرازة، وكمال القوى الدماغية، وقوة الحواس الباطنة.. انتهى مناوى.

وقال غيره: هو يدل على نجابة صاحبه.

* * *

[صفة عقبه ﷺ]

(قَليلُ لَحْمِ العَقِبِ) وهو مؤخر القدم، وفى رواية الترمذى: مَنْهوس العَقِب، وهو بمعناه؛ فقد قال شعبة: قلت لسماك: ما مَنْهوس العَقِب؟ قال: قليل لحم العَقِب. ومنهوس بالمهملة والمعجمة.

* * *

[صفة لحيته ﷺ]

(كَثٌّ) بفتح الكاف وتشديد المثلثة، أى عظيم (اللِّحْيَة) بكسر اللام أشهر من فتحها، وهى الشعر النابت على الذَقَن ـ بفتح أوليه ـ مجتمع عظمى اللحيين، والمراد كثير شعرهما من غير طول فيه ولا دقة، وكانت تملأ أعلى صدره كما ذكره فى «فتح البارى» من حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال فيه: «قد ملأت لحيته من هذه إلى هذه حتى كادت تملأ نحره».

قال فى «النسيم»: والحاصل أن لحيته ﷺ معتدلة طولاً وعرضًا غير خفيفة.

* * *

[صفة رأسه ﷺ]

(عَظيمُ الرَّأسِ) ولفظ رواية ابن أبى هالة: «عظيم الهامة». قال العلامة ابن حجر: ووصفه بذلك ورد من طرق صحيحة، وهو دالٌّ على كمال القوى الدماغية من الحواس الخمس الباطنة، وبكمالها يتميز الإنسان عن غيره.. انتهى.

قال فى «النسيم»: وليس المراد من عظمها أنها مفرطة فى الكبر بل إنها كبيرة كبرًا نسبيًا؛ لأن صغرها وإفراط كبرها غير ممدوح؛ لدلالته على قلة العقل، والخفة فى الأول، والبلادة وقلة الفهم فى الثانى.. انتهى.

فائدة

مجمع الحواس فى الرأس عشر: خمس ظاهرة وهى: العين، والأذن، والشم، والذوق، واللمس، ويشاركه فى هذا سائر البدن، وخمس باطنة وهى: الحس المشترك، ومركزة مقدم الدماغ، والقوة المصورة وهى أعلى منه، والقوة الخيالية وهى فى وسط الدماغ، فالقوة الحافظة وهى فى مؤخر الدماغ، والقوة الوهمية أعلا منها، والحواس الظاهرة توصل للباطنة، وهى توصل للنفس، والمحرك للحواس القلب.

* * *

[صفة شعره ﷺ]

(شَعْرُهُ) ينتهى (إِلَى الشَّحْمَةِ الأُذُنِيَّةِ) كما فى رواية الشيخين عن البراء، وفى رواية: ذا وفرة، وهو بمعناه كما قاله السيوطى، وفى رواية: فوق الجُمَّة ودون الوَفْرَة، وفى أخرى: إلى أذنيه، وفى أخرى: بين أذنيه وعَاتقه، وفى الصحيحين: إلى أنصاف أذنيه، وفى رواية: يضرب مَنْكِبيه، وفى أخرى: إلى كتفيه أو مَنْكِبيه.

قال العلامة ابن حجر: وجُمِعَ بينهما بأن مما يلى الأذن من الشعر هو الذى يبلغ شحمتها، وما خلفهما هو الذى يضرب مَنْكِبيه، أو أن ذلك لاختلاف الأوقات، وكان إذا غفل عن تقصيرها بلغت المَنْكِب، وإذا قصرها كانت إلى الأذن أو شحمتها أو نصفها، فكانت تطول وتقصر بحسب ذلك.. انتهى.

وكان ﷺ لا يحلقه إلا للنسك، وحلقه أربع مرات.

قال المُناوى: ولعل ما وصف به شعره من الأوصاف المذكورة كان قبل حلقه له فى عمرة الحُدَيبية سنة ست؛ فإنه بعد ذلك لم يترك حلقه مدة يطول فيها أكثر من كونه يضرب مَنْكِبيه؛ فإنه فى سنة سبع اعتمر عمرة القضاء، وفى ثمان اعتمر من الجِعْرَانة، وفى عشر حج.. انتهى.

وقد وُصِفَ شعره ﷺ بأنه كان رَجْلاً - أى متوسطًا بين الجعُودة - وهى تكسره الشديد -، والسُّبوطة - وهى عدم تكسره أصلاً - فكان وسطًا بينهما.

وكان ﷺ يَسْدِل شعره موافقة لأهل الكتاب، ثم فَرَقَ، ويجوز الفَرْق والسَّدْل، والفَرْق أفضل؛ لأنه الذى رجع إليه ﷺ.

* * *

[صفة خاتم النبوة]

(وَ) كان ﷺ (بيْنَ كَتِفَيه) تثنية كَتِف ـ بفتح أوله وكسره مع سكون ثانية فيهما أو بفتح فكسر، أى عند أعلى أيسر الكتفين (خَاتَمُ النُّبُوة) وقد أسبقنا الكلام عليه فيما تقدم فى الرضاع فليراجع (قَدْ عَمَّهُ النُورُ وَعَلاَهُ) البهاء.

وقد اختلفت الآثار فى تشبيه ذلك الخاتم على أنواع كثيرة: بيضة الحمام، شعر مجتمع، بضعة ناشزة، بندقة شامة، شىء يُختم به، تفاحة، شامة خضراء محتفرة فى اللحم، شامة سوداء تضرب إلى صفرة وحولها شعرات، زر الحجلة ـ أى البشخانة، وَزَعْمُ أنها الطائر المعروف وزرها بيضها، مردود.

قال المحققون: ولا اختلاف فى الحقيقة؛ بلّ كل شبه بما سنح له، وكلها ألفاظ مردها واحد وهو: قطعة لحم بارزة عليها شعر إذا قلّ قيل كبيضة الحمام، وإذا كثر قيل كجمع الكف؛ أى على هيئته، لكنه أصغر منه. ويشكل عليه رواية: محتفرة فى اللحم، ويجاب عنه: بأنه يحتمل بأن فى حواليها احتفاراً ليزداد ظهورها وتميزها عن الجسد، قاله فى «المنح».

ويؤيده ظاهر الروايات أو صريحها أنه كان ناتئًا عن جسده بحيث يمكن القبض عليه باليد، ويصرح به نصًا قول أبى سعيد رضى الله عنه: «أنه كان بضعة ناشزة هكذا، وأشار بإبهامه».

قال القليوبى: وما روى أنه كان مكتوبًا عليه: لا إله إلا الله، أو محمد رسول الله أو غير ذلك فباطلٌ لا يجوز اعتقاده.. انتهى.

* * *

[عرقه وطيب ريحه ﷺ]

(وَ) كان (عَرَقُهُ) بفتح العين والراء المهملتين آخره قاف، ما يسترشح من بدنه الشريف لحرٍّ ونحوه (كَاللُّؤْلُؤِ) فى الصفاء والبياض (وَعَرْفُهُ) بفتح المهملة وسكون الراء آخره فاء، أى رائحته التى تُشَمّ منه (أَطْيَبُ) أشد طيبًا وزكاء (مِنَ النَفَحَاتِ) بفتحات جمع نَفْحة، بفتح النون وسكون الفاء وحاء مهملة، الرائحة الطيبة (المِسْكِيَّةِ) بكسر الميم فسين مهملة فكاف، أى المنسوبة للمسك، وهو فى الأصل دم يتجمد عند بعض الظباء فى زمن معين بناحية من أقصى بلاد الترك تسمى تُبّت بمثناتين فوقًا نبتين أولهما مضمومة بينهما موحدة مشددة، فتحكمه حتى تلقيه. وخصه: لأنه أطيب الطيب وأشهره، بل هو مع خلطه بماء الورد أفضل أنواع الطيب.

ورائحة بدنه الشريف وعرقه أطيب من أنواع الغوالى، والطيب طيبًا خلقيًا خصه الله به تكرمة ومعجزة له ﷺ كما جاء ذلك فى أحاديث كثيرة، قال علىٌّ كرم الله وجهه: «كأن عرق رسول الله ﷺ اللؤلؤ، ولريح عَرْف رسول الله ﷺ أطيب من المسك الإذفر».

وكانت أم سُلَيم ـ والد أنس رضى الله عنهما ـ: تجمع عرقه ﷺ وتجعله فى الطيب، فقال: «يا أم سُلَيْم ما هذا؟» قالت: عرقك أدُوف به طيبى».

وفى رواية قالت: «نجعله لطيبنا وهو أطيب الطيب».

وعن أنس: كنا نعرف رسول الله ﷺ إذا أقبل بطيب ريحه.

وعن جابر: لم يكن يمر فى طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه، من طيب عَرَقه.

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى زوَّجت ابنتى، وأحب أن تعيننى بشىء، فقال: «ما

عندى شىء، ولكن ايتنى بقارورة واسعة الرأس، وعود شجرة» فأتاه بهما، فجعل النبى ﷺ يَسْلت العرق من ذراعيه حتى امتلأت القارورة، قال: «فخذها وأمر ابنتك أن تغمس هذا العُود فى القارورة، وتتطيب به» فكانت إذا تطيبت به يشمّ أهل المدينة رائحة ذلك الطيب، فسموا: «بيت المطيبين» وإلى غير ذلك من الأحاديث.

قال فى «النسيم»: ورد فى حديث ابن حماد عن أنس أن ظهور النفحات منه ﷺ ظهر بعد الإسراء، قال: وهو ظاهر لأنه طيب العنصر، لكنه لما اتصل بالملأ الأعلى والجنان، وهبَّت عليه نفحات القدس ازداد طيبًا. قال: وكان له طيب لا يشبه طيب الدنيا، فله طيب ذاتىّ، وطيب مكتسب من العالم الأقدس لا يفارقه، وهو أطيب الطيب. قال: ولا ينافيه حديث: «حبِّبَ إلىَّ من دنياكم ثلاث: الطيب»؛ لأن الطيبات للطيبين، والزائد قابل للزيادة.. انتهى.

* * *

[صفة مشيه ﷺ]

(وَ) كان ﷺ إذ التفت التفت جميعًا، وإذا مشى (يَتَكَفَّأ) بفتحات مشدد الفاء آخره همزة وقد يترك تخفيفا، أى يميل إلى سنن المنثنى، أى إلى قدامه؛ كالسفينة فى جريها كما أفاده ابن حجر، وفى «النسيم» نحوه، وفسر بعضهم التكفؤ: بالميل يمينًا وشمالاً، قال: كما تتكفأ السفينة، وخطأه الأزهرى وقال: إن هذا مشية المختال، فلا يصح أن تكون مشيته ﷺ كذلك. لكن أجيب بأن المذموم منه ما كان مستعملاً مقصودًا لا ما كان خلقة وجبلَّة.

(فِى مِشْيَتِه) بكسر الميم، أى هيئة مشيه، ومن سرعة مشيه ﷺ كان يتخيل لناظره أنه (كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ) بنون بين التحتية والحاء المهملة، من الانحطاط: النزول والإسراع، وأصله الإنحدار من علو إلى أسفل.

(مِنْ) ابتدائية: كهى فى قولك: نزلت من كذا إلى كذا، فلا حاجة إلى ما تكلفه بعضهم من جعلها بمعنى فى، ولعل الذى أحوجه إلى ذلك تفسير بعضهم للصبَب بالحدور مع أنه ليس مرادًا، وإنما المراد مكانه كما صرح به بعضهم (صَبَب) بفتح الصاد المهملة وموحدتين الأولى منهما مفتوحة، أى عال مرتفع قد كان (ارْتَقَاهُ) صعده وعلاه؛ أى كان مشيه ﷺ فى منخفض الأرض كمشيه فى نزوله من مرتفعها؛ فعن علىٍّ ـ كرَّم الله وجهه: «إذا مشى يتكفأ كأنما ينحط من صبَب» وفى أخرى عنه: «كأنما ينزل من صبَب»، وفى أخرى عنه: «إذا انحدر كأنما ينحدر من صبَب».

وروى جماعة من حديث ابن أبى هالة فى وصفه: «أنه كان إذا زال، زال تقلّعًا، ويخطو تكفأً، ويمشى هونًا ذريع المشية كأنما ينحط من صبَب».

قال فى «شرح السنة» يريد أنه كان يمشى مشيًا قويًا، يرفع رجليه من الأرض رفعًا ثابتًا، لا كمن يمشى اختيالاً ويقارب خطاه.

(وَ) كان ﷺ (يُصَافِحَ المُصَافِحَ) بكسر الفاء والنصب، وهو من يريد مصافحته، والمصافحة المفاعلة بمعنى جعل كل من المتصافحين يده على يد الآخر، وفى النهاية: أنها إلصاق صفح الكف بالكف عند الملاقاة؛ أى كأن يمس صفحة يد من أراد مصافحته (بِيَدِه) أى بصفحة يده الكريمة (فَيَجِد) المصافح عقب ذلك (مِنْهَا) أى من يد نفسه بسبب مصافحة النبى ﷺ له (سائر) من السُؤْر ـ بضم السين وإسكان الهمزة من البقية ـ فيكون بمعنى باقى. قال العلامة ابن حجر فى «فتح المبين»: ويأتى ـ خلافًا للحريرى ـ بمعنى الجميع من سور المدينة؛ لأنه جامع محيط بها.. انتهى.

وبه قال الجوهرى: وأفاد فى «القاموس» أن استعماله بالمعنى الثانى وَهْمٌ أو قليل. والمناسب هنا للمعنى الأوّل أى باقى ذلك (اليَوْمِ رَائِحَةً عَبْهَرِيَّةً) لا تشبه رائحة طيب الدنيا و «العَبْهَرِيَّة» نسبة للعَبْهَر ـ بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح الهاء آخره راء مهلمة ـ: النرجس، والياسمين، ونحوهما، مما له رائحة طيبة، كما فى «القاموس» وغيره، بل الرائحة المكتسبة من عَرْف رسول الله ﷺ كانت أطيب من جميع ذلك كلّه كما قال أنس ـ رضى رضى الله عنه ـ: ما شممت عَنْبراً، ولا مِسْكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ.

هذا والمصافحة سنّة مجمعٌ عليها عند الملاقاة، وأما ما اعتاده الناس بعد صلاتى الصبح والعصر فقد قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ فى «الأذكار»: لا أصل له فى الشرع على هذا الوجه، ولكن لا بأس به فإن أصل المصافحة سنة، وكونهم حافظوا عليها فى بعض الأحوال، وفرّطوا فيها فى كثير من الأحوال أو أكثرها لا يُخرِج ذلك البعض عن كونه من المصافحة التى ورد الشرع بأصلها.

قال: وقد ذكر الشيخ الإمام أبو محمد بن عبد السلام ـ رحمه الله تعالى ـ فى كتابه «القواعد»: أن البدع على خمسة أقسام: واجبة، ومحرمة،

ومكروهة، ومستحبة، ومباحة، قال: ومن أمثلة البدع المباحة: المصافحة عقب الصبح والعصر، والله أعلم.. انتهى.

وكذا عند الحنفية مباحة على الأصح، كما قاله الخفاجى لما فيها من الإشارة إلى أنه كان قدم من غيبته؛ لأنه كان عند ربه يُناجيه.

قال النووى: وينبغى أن يحترز من مصافحة الأمرد الحسن الوجه فإن النظر إليه حرام، وقد قال أصحابنا: كل من حرم النظر إليه حرم مسه، بل المسُّ أشد.

ويستحب مع المصافحة البشاشة بالوجه، والدعاء بالمغفرة وغيرها.

وفى «كتاب ابن السنى»: عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسلمين إذا التقيا فتصافحا، وتكاشرا بود ونصيحة تناثرت خطاياهما بينهما».

وفى رواية: «فتصافحا، وحمدا الله تعالى، واستغفرا، غفر الله عز وجل لهما».

وفيه عن أنس، عن النبى ﷺ: «ما من عبدين متحابين فى الله يستقبل أحدهما صاحبه فيصافحه، فيصليان على النبى ﷺ إلا لم يتفرقا حتى تغفر ذنوبهما ما تقدم منها وما تأخر».

وفيه عن أنس ـ أيضًا ـ قال: ما أخذ رسول الله ﷺ بيد رجل ففارقه حتى قال: «اللهم آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

وأما حَنْى الظهر فى كل حال لكل أحد فيكره؛ فقد روى الترمذى وابن ماجه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له؟ قال: «لا». قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: «لا». قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «نعم».

قال النووى: قال الترمذى: حديث حسن، ولم يأت له معارض، فلا مصير إلى مخالفته، ولا تغتر بكثرة من يفعله ممن ينسب إلى علم وصلاح

وغيرهما من خصال الفضل فإن الاقتداء إنما يكون برسول الله ﷺ.

وأوّل من جاء بالمصافحة أهل اليمن كما فى حديث رواه أبو داود فى سننه بإسناد صحيح عن أنس قال: لما جاء أهل اليمن، قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم أهل اليمن وهم أوّل من جاء بالمصافحة».

(وَ) كان ﷺ **(يَضَعُهَا)** أى يضع يده الشريفة **(عَلَى رَأْسِ الصَّبِيِّ)** أىّ صبى كان ترحمًا وعطفًا، وإيناسًا، كما عُرف من أخلاقه الكريمة **(فَيُعْرَفُ)** بالبناء للمفعول والفاء سببية **(مِنْهُ)** نائب الفاعل **(لَهُ)** أى لذلك الصبى فيتميز **(مِنْ بَيْنِ)** جميع **(الصِّبْيَةِ)** بكسر الصاد المهملة وسكون الموحدة، جمع صبى **(وَيُدْرَاهُ)** بالبناء للمفعول أيضًا بمعنى يُعرف؛ أى يعرف الناس أن النبى ﷺ مسح على رأسه لشدة فوحه بالرائحة الحاصلة من مسه ﷺ، ويحتمل أن يستمر مدة طويلة أو يومه ذلك.

روى عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أنها قالت: كان عرق رسول الله ﷺ فى وجهه مثل اللؤلؤ، أطيب ريحًا من المسك الإذفر، وكأن كفه كف عطَّار، مسها بطيب أو لم يمسها به، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على الصبى فيُعرف من الصبيان من ريح ما على رأسه.

* * *

[صفة وجهه ﷺ]

(يَتَلأْلأُ) يستنير ويضىء (وَجْهُهُ الشَّرِيفُ) ﷺ (تَلأْلُؤِ) أى كتلألؤ (القَمَرِ) آثره على الشمس لما مر.

(فِي اللَّيْلَةِ الْبَدْرِيَّةِ) أى ليلة أربع عشرة؛ لأن القمر فيها نهاية ضيائه وكماله. وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: كنت أخيط بالسحر فطفىء السراج، فسقطت الإبرة منى، فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله ﷺ فتبينت الإبرة بشعاع وجهه، فأخبرته، فقال: «لا يا حميراء، الويل ثم الويل لمن حُرِمَ النظر إلى وجهه». وسمى القمر فى تلك الليلة بدراً؛ لأنه يبدر أى يسبق طلوعه غروب الشمس.

وقوله: (يَقُولُ...) إلخ كلام مستأنف فصله لاستقلاله. (نَاعِتُهُ) واصفه: (لَمْ أَرَ) بصرية، أو علمية، أو هما معًا (قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ) أى من يساويه فى حسنه وكماله، واعلم أن هذه العبارة تستعمل فى نفى الشبيه من غير ملاحظة القبلية والبعدية، ثم نفى المثل يدل عرفًا على كونه أحسن من كل أحد كما يقال: ليس فى البلد مثل زيد، والسر فيه: أنه إذا نفى المثل الذى هو أقرب إليه من الأحسن فى مقام ذكر المحاسن، فكان نفى الأحسن بالأولى. والمعنى: يقول واصفه: لم أر قبله ولا بعده من يساويه فى أوصافه أى من كل وجه، فلا ينافى وقوع شبهه فى بعض الأجزاء، كما كان يشبهه الحسن والحسين رضى الله عنهما؛ لأن المنفى عموم الشبه، والمثبت نوع منه، وأيضًا فقد تقدم أن ما وقع من تشبيه بعض صفاته بالقمر والشمس وتمثيل وإلا فلا شىء يعادله أو يماثله. (وَلاَ بَشَرَ) بالفتح، على أن «لا» عاملة عمل «إن»، أو رفعها على أنها عاملة عمل «ليس» أى ليس إنسان (يَرَاهُ) فيه زيادة مبالغة فى نفى عدم وجود ثانٍ له فى الوجود يشبهه ﷺ، ومع ذلك فلم يظهر كمال جماله وتمام حسنه، وإلا لما طاقت الأعين رؤياه.

[صفاته المعنوية عليه الصلاة والسلام]

[حياؤه ﷺ]

(وَ) من أوصافه الكريمة وأخلاقه الفخيمة أنه (كَانَ ﷺ شَدِيدُ الحَيَاءِ) بالمد، لغة: تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به، من الحياة، ومنه الحَيَا للمطر لكنه مقصور. وشرعًا: خُلُق يبعث على اجتناب القبيح، ويحض على ارتكاب الحسن، ومجانبة التقصير فى الحق.

والحياء أقسام منها: حياء الكرم، وحياء المحب من محبوبه، وحياء العبودية، وحياء المؤمن من نفسه، وهذا أكمل أنواع الحياء إذا المستحيى من نفسه أجدر بالاستحياء من غيره. وبحسب حياة القلب يزداد الحياء فكلما كان القلب أحيى؛ كان الحياء أتم. والحياء المحمود من جملة الخلق الحسن؛ لأن به ملاك الأمر وحسن المعاشرة للخلق والمعاملة للحق، ومن ثم قال ﷺ: «الحياء خير كله». «وإذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وقد صح أنه لا يأتى إلا بخير وأنه من الإيمان، وجعل منه وإن كان غريزة؛ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم.

وكان الحياء فيه ﷺ كغيره من أخلاق الكمال الموجودة فيه ﷺ سجية أى خلقًا غريزيًا طبيعيًا، والاختلاف فى كون حسن الخلق غريزيًا، أو مكتسبا؛ يتعين أن يكون محله فى غيره ﷺ وتمسك من قال إنه غريزى بحديث البخارى: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم». وتمسك من قال: إنه مكتسب بحديث الأشج: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة» قال: يا رسول الله قديمًا كان فى أو حديثًا؟ قال: «قديمًا» الحديث.

فترديد السؤال وتكريره يشعر بأن منه ما هو جِبِلّى، ومنه ما هو مكتسب، وهذا هو الحق، ومن ثم قال بعضهم: هو جبلة فى نوع الإنسان ولكنهم

متفاوتون فيه؛ فمن غلب عليه حسنه فهو المحمود وإلا أُمِر بالمجاهدة حتى يصير حسنًا.

وقال القرطبى: الحياء المكتسب هو الذى جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلف به دون الغريزى، غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب حتى يكاد أن يكون غريزيًا. وقد جُمِعَ له ﷺ النوعان فكان فى الغريزى أشد حياء من البِكْر فى خِدْرِها، وزاد فى «الفتح» فقال: وكان فى الحياء المكتسب فى الذروة العليا.

* * *

[تواضعه ﷺ]

(وَ) كان ﷺ شديد (التَوَاضُعِ) التخضع، والتخشع، ولين الجانب. قال فى «النسيم»: التواضع: إظهار أنه وضيع، وهو أشرف الناس، فالصيغة للتكلف فى الأصل. قال فى «الشفا»: وحسبك أنه ﷺ خُيِّرَ بين أن يكون نبيّا ملكًا، أو نبيّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيّا عبدًا، فقال له إسرافيل ـ عليه السلام ـ عند ذلك: فإن الله قد أعطاك ما تواضعت له، إنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع.

قال فى «أشرف الوسائل»: واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع ـ وهو التذلل والتخشع ـ إلا إذا دام نور تجلى الشهود فى قلبه؛ لأنه حينئذ يذيب النفس ويصفّيها من غش الكِبْر والعُجْب؛ فيلين ويطيع الحق والخلق بمحو آثارها، وسكون وجهها، ونسيان حقها، والذهول عن النظر إلى قدرها، ولما كان الحظ الأوفر لنبينا ﷺ كان أشد الناس تواضعًا. ثم ذكر بقية كلام «الشفا» قال: ومن ثم لم يأكل متكئًا حتى فارق الدنيا، ولم يقل لشىء فعله أنس خادمه أُفٍّ قط، وما ضرب أحدًا من عبيده وإمائه، وهذا أمر لا يتسع له الطبع البشرى لولا التأييد الإلهى.

وفى رواية مسلم: ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ.

وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: ما ضرب ﷺ شيئًا قط، ولا امرأة، ولا خادمًا إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شىء من محارم الله فينتقم.

وسُئلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى بيته؟ قالت: ألين الناس، بسّامًا ضحّاكًا، لم أره قط مادًا رجليه بين أصحابه.

وعنها: ما كان أحد أحسن خُلُقًا من رسول الله ﷺ؛ ما دعاه أحد من

أصحابه إلا قال لبيك.

وخرَّج الترمذى، عن أنس قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك.

قال فى «أشرف الوسائل»: أى تواضعًا وشفقة عليهم وإسقاطًا لبعض الحقوق المتعينة عليهم، واختاروا إرادته على إرادتهم لعلمهم بكمال تواضعه وحسن معاشرته لهم.

قال: ولا يعارض ذلك قوله ﷺ: «قوموا لسيدكم» أى سعد بن معاذ لَمَّا جاء على حمار؛ لأن هذا حقٌّ للغير فأعطاه رسول الله ﷺ له، وأمرهم بفعله، بخلاف قيامهم له فإنه حق له تركه تواضعًا. ويؤيد مذهب من ندب القيام لكل قادم فيه فضيلة علم أو نسب أو صلاح أو صدقة: قيامه ﷺ لعكرمة بن أبى جهل لَمَّا قدم عليه، ولعدى بن حاتم كلما دخل عليه، ولحليمة يوم حنين إكرامًا لها واعترافًا بحقها، خلافًا لمن وهم فيه؛ لأن الحديث الضعيف يعمل به فى الفضائل اتفاقًا بل إجماعًا كما قاله الإمام النووى ـ رحمه الله تعالى ـ انتهى ملخصًا. وتقدم البحث فى ذلك فى الرضاع مبسوطًا فراجعه.

وكان ﷺ من شدة تواضعه (يَخْصِفَ) بفتح المثناة التحتية وكسر الصاد المهملة آخره فاء، أى يخرز (نَعْلَهُ) أى ما يُلبس فى القدم؛ روى عنه ﷺ: أنه كان فى الطواف فانقطع شَسَعُهُ، فقال له بعض أصحابه: ناولنى أصلحه. فقال: «هذا أُثرة، ولا أحب الأُثرة» وهى ـ بالضم ـ الاستئثار أى الانفراد بالشىء.

وكان ﷺ يلبس النعال السبتية ـ بكسر السين ـ: المدبوغة التى أزيل شعرها، وكانت نعلاه مَخْصُوفَتين؛ أى مطبقتين طاقًا على طاق بالخرز؛ كان لهما قِبَالان لكل واحد، تثنية قِبَال، وهو أحد سيور النعل، وكان يُدخل أحد القِبَالين بين الإبهام والتى تليها، والآخر بين الوسطى والتى تليها ـ وهى

البنصر ـ ويجمعها إلى السير الذى بظهر قدمه ـ وهو الشِراَك، وكان شِراَكه مثنيّا، وكانت نعله مُخَصَّرة؛ أى لها خصر أو قطع خصراها، ومُلَسَّنة وهى: التى فيها طول ولطافة على هيئة اللسان، أو التى جعل مقدمها على هيئته، وأما صفتها فى الطول والعرض وغير ذلك فاختلف فيه.

(ويَرْقَعُ) بفتح الياء وسكون المهملة وقاف مفتوحة خفيفة ويجوز الضم والتشديد كما فى «النسيم» قال: إلا أن الضبط الأوّل أولى لمناسبة ما قبله وما بعده من الأفعال الثلاثية (ثوبه) قميصًا كان أو غيره، ورقع الثوب إنما يحسن إذا خلق لما قيل: إن الثوب إذا خلق جزء منه كان طرحه من الكبر والمباهاة والتكاثر فى الدنيا، وإذا رقعه كان بعكس ذلك، وقد ورد أن عمر ـ رضى الله عنه ـ طاف وعليه مرقعة باثنتى عشر رقعة فيها من أدم. ورقع الخلفاء ثيابهم، وذلك شعار الصالحين وسنة المتقين.

قال الزين العراقى: لكن إنما يشرع ذلك بقصد التقلل من الدنيا وإيثار غيره على نفسه، أما فعله بخلاً على نفسه أو غيره فهو مذموم؛ لخبر: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، وكذا ما يفعله حمقى الصوفية وجهًا لهم من تقطيع الثياب الجدد ثم ترقيعها ظنّا أن هذا زى الصوفية وهذا غرور محرم؛ لأنه إضاعة مال، وثياب شهرة.. انتهى.

وكان ﷺ يخيط ثوبه أيضًا بنفسه كما صح عن عائشة ـ رضى الله عنها، وفى رواية لأحمد: «ويرقع دلوه»، وفى أخرى له: «ويفلى ثوبه».

(وَ) كان ﷺ (يَحْلُبُ) بضم اللام وكسرها من باب نصر وضرب (شَاتَهُ) تقدم معناه (وَيَسِيْرُ فِيْ خِدْمَةِ أَهْلِه) من أزواجه وخدمه (بِسِيرَةٍ) بكسر السين، واحدة سير كسدرة وسدر، أى طريقة (سَرِيَّةٍ) بفتح السين أى شريفة حسنة، يفعل ذلك كثيراً لا دائمًا مع كثرة عبيده وخدمه وتشوّق الناس لخدمته، لكنه يحب فعل ذلك بنفسه تواضعًا وتشريعًا.

وروى فى بعض السير: أنه كان فى سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال

رجل: عليَّ ذبحها، وقال الآخر: عليَّ سلخها، وقال الآخر: عليَّ طبخها، فقال رسول الله ﷺ: «عليَّ جمع الحطب». فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال: «قد علمتُ أنكم تكفوني ولكنى أكره أن أتميّز عليكم، وإن الله يكره من عبده أن يراه متميّزًا من أصحابه».

وروى أنه ﷺ كان فى بيته فى مهنة أهله - أى خدمتهم - يفلى ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويقمّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويخدم نفسه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق». . . الحديث.

وفى فتح البارى نقلاً عن ابن بطال «أنه قال: من أخلاق الأنبياء: التواضع، والبعد عن التنعم، وامتهان النفس؛ ليستن بهم، ولئلا يخلدوا إلى الرفاهية المذمومة، كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ ».

* * *

[حبه ﷺ للمساكين]

(وَ) كان ﷺ (يُحِبّ المَسَاكِينَ) الشاملين للفقراء عُرْفًا، والفرق بينهما اصطلاح فقهى، والمسكين مأخوذ من السكون، ويكون بمعنى المتذلل الخاضع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا».. الحديث.

قال بعض العلماء: ولا يجوز أن يطلق على النبى ﷺ أنه فقير أو مسكين، وإن أطلقه هو على نفسه الشريفة.. انتهى.

والمراد أنه ﷺ كان يخص المساكين بمزيد محبته وأكيد مودته؛ قصدًا لجبر خواطرهم الكسيرة بسبب ما اتصفوا به من الفقر والمسكنة المزدرين عند أكثر الناس ما لم يقترن بذويها مرجح آخر من صلاح وعلم ونحوهما؛ وذلك لأن المسكنة، والخضوع، والتذلل، والتواضع، والضعف علامات أهل الجنة، كما أن ضدها علامات أهل النار، كما يدل على الأول قوله ﷺ: «ألا أخبرك عن ملوك الجنة: رجل ضعيف مستضعف ذو طِمْرَين لو أقسم على الله لأبره».

وقوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة: كل مسكين لو أقسم على الله لأبره». وعلى الثانى قوله ﷺ: «لا أخبرك بأهل النار: كل جَعْظَرى، جوَّاظ، مُسْتَكْبِر، جَمَّاع، منوع».

(وَ) من محبته فيهم كان (يَجْلِسُ) كثيرًا (مَعَهُمْ) توددًا إليهم، وتحننًا عليهم، وكما كان يجلس ﷺ إلى من ذُكِر، [كان] يأمر بمجالستهم، كما رواه أبو نعيم فى «الحلية» من حديث ابن عمر مرفوعًا: «تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبراء الله، وتخرجوا من الكِبْر».

وعن أبى ذر أنه ﷺ قال له فيما أوصاه به: «أحب المساكين وجالسهم».

قال بعض المحققين: أى لأن مجالستهم ترق القلب، وتزيد فى التواضع.. انتهى.

وقد أورد فى «فتح البارى» فى ذم ترك مجالسة الضعفاء والمساكين، مما أخرجه عبد بن حُمَيد، من حديث ابن عباس رفعه: «السفه بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس». . الحديث، وفى آخره: «والغمص أن يجيئ شاخصًا بأنفه، وإذا رأى ضعفاء الناس لم يُسَلِّم عليهم، ولم يجلس إليهم محقِّرًا لهم».

وكما كان يأمر بمجالسة المساكين؛ كان يأمر بمجالسة من ينفع الجليس من الكبراء والعلماء العاملين؛ فقد أخرج الطبرانى عن أبى جُحَيْفَة ـ رضى الله عنه ـ رفعه: «جالسوا الكبراء، وسائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء».

(وَ) كان ﷺ (يَعُودُ مَرْضَاهُمْ) أى المساكين كمرضى غيرهم (وَيُشَيِّعَ جَنَائِزَهُمْ) كذلك. فيندب لنا ويتأكد علينا التأسى به ﷺ فى ذلك، وترك كثير من ذوى الكبر، ورؤية النفس له من أقوى الدلائل على غباوتهم وفرط جهالتهم، نسأل الله السلامة.

قال فى «أشرف الوسائل»: وآثر قوم العزلة ففاتهم بسببها خيرات كثيرة وإن حصل لهم بها خير كثير، إلا أن الأكمل العزلة عن الشر فقط، والمحافظة على الخير مع التحفظ مما أمكن من طرق الشر وأسبابه. قال: فإنْ ضَعُفَ حال الإنسان عن المحافظة كانت العزلة فى بعض الأحوال خيراً له.

* * *

[عطفه ﷺ على المساكين]

(وَ) كان ﷺ (لا يَحْقِرُ) بفتح التحتية وسكون المهملة وكسر القاف، من باب ضرب ـ أى لا يهين ولا ينقص (فَقِيرًا دَفَعَهُ) بالدال، أى ألصقه (الفَقْرُ) بالدقعاء ـ أى التراب ـ من الجوع فصار ذليلاً. قال فى «القاموس»: الدفع ـ محركة ـ الرضى بالدون من المعيشة، وسوء احتمال الفقر، وكفرح لصق بالتراب والدوقعة الفقر والذل والجوع، وفى النسخ: «أوقعه» بالواو أى حطه عن منزلته (وَأَشْوَاهُ) أصاب شواه ـ بكسر الشين المعجمة ـ وهو ما كان غير مقتل، يقال: لشواه إذا أصاب شواه لا مقتله، والمراد: أضعفه وصيَّره صغيرًا حقيرًا فى أعين أهل الدنيا، وكان الفقير والغنى عنده ﷺ سواء.

وقد ورد: «من أهان فقيرًا لأجل فقره فقد ذهب ثلثا دينه». وقال ﷺ مادحًا للفقر بقوله: «تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر». وقد ورد بسند لا بأس به: «الفقر مع الصبر وصف محمود، فإن الغنى هو الله تعالى».

ولا ينافى فى ذلك ما ورد: «كاد الفقر أن يكون كفرًا» لأن ذلك بالنسبة لمن لم يرض بقضاء الله، بل ربما أداه إلى تسخط الرزق، والاعتراض على الله، والتصرف فى ملكه؛ كما فعل ابن الراوندى فى قوله:

كم عاقل عاقل أعيتْ مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مَرْزُوقَا
هذا الذى تَرَكَ الأوهامَ حائرة ... وَصَيَّرَ العالم النحرير زِنْدِيقَا

وإلا فالفقر نعمة من الله تعالى داع إلى الإنابة والالتجاء إليه، والطلب منه، وهو حلية الأنبياء، وزينة الأولياء، وزىّ الصالحين، ومن ثم ورد خبر: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحبًا بشعار الصالحين» فهو نعمة جليلة، بيد أنه مؤلم شديد التحمل؛ فالفقر خيرٌ من وجه، وشرٌّ من وجه، وليس بخير محض، ولا بشر محض، بل هو سبب للأمرين معًا، يُمدح مرة، ويُذم أخرى، والبصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم.

[سماحته ﷺ]

(وَ) كان ﷺ (يَقْبَلُ) غالبا (المَعْذِرَةَ) أى الاعتذار ممن اعتذر إليه فى ارتكاب أمر غير لائق صادقًا كان فى اعتذاره أو كاذبًا، ويحكم فيه بالظاهر ويكل سريرته إلى الله تعالى، كما وقع لكعب بن زهير وغيره. وقد صح أنه ﷺ قَبِلَ من المتخلفين عنه فى غزوة تبوك عذرهم حين اعتذروا إليه فى تخلفهم، ووكل سرائرهم إلى الله حتى نزل القرآن بفضيحة منافقيهم وتوبة الصادقين المخلصين.

ومن هذا عفوه ﷺ عن حاطب بن أبى بلتعة - رضى الله عنه - لما اعتذر إليه.

(وَ) كان ﷺ (لاَ يُقَابِلُ أَحَدًا بِمَا) بشىء من القول أو الفعل (يَكْرَهُ) أى يكرهه بل يغضى عنه وإن كان حقيقًا بذلك ما لم تقتضيه مصلحة شرعية ترجح فعله على تركه، وذلك عند الإمكان فلا يرد: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (1). وروى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظلمها ما لم ينتهك من محارم الله شىء».

قال العلماء: وإنما لم ينتقم النبى ﷺ ممن ظلمه مع أن مرتكبها قد باء بأثم عظيم سيَّما لبيد بن الأعصم الذى سحره، واليهودية التى سمَّته؛ لأنه حق آدمى يسقط بالعفو بخلاف حقوق الله. فإن قلت: ظُلْمُهُ ﷺ إيذاءٌ له، وإيذاؤه كفر، وهو حق الله فكيف يسقط بعفوه؟.

أجيب عنه: لا نسلم أن مطلق إيذائه كفر؛ ألا ترى إلى من جذب رداءه حتى أثَّر فى عنقه فعفا عنه وأعطاه حمل بعيريه. قالوا: والحاصل أن إيذاءه

(1) سورة التوبة: 92.

إنما يصدر من مسلم جاف، وهذا له نوع عذر، فلم يكفر وعفا عنه، أو منافق، وقد أُمِرَ أن يتحمل أذاهم لئلا ينفر الناس منه، كما قال ﷺ وقد قيل: ألا تقتلهم؟ قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» أو من كافر معاهد؛ فمصلحة تألفه اقتضت عدم مؤاخذته بجريمته، أو حربى وهو غير ملتزم للأحكام. وفى الحديث: الحث على العفو، والحلم، واحتمال الأذى، والانتصار لدين الله، وأنه يسن لكل ذى ولاية التخلق بهذا الخلق الكريم، فلا ينتقم لنفسه، ولا يهمل حق الله.

* * *

[شفقته ورحمته ﷺ]

(وَ) كان ﷺ (يمشى مع) المرأة (الأرملة) المسكينة المحتاجة التى لا كافل لها فى قضاء حاجتها. قال بعضهم: والأرامل: المساكين من رجال ونساء، ويقال لكل واحد من الفريقين على انفراده: أرمل، وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالاً، والواحد أرمل وأرملة، والأرمل الذى ماتت زوجته، وسواء كانا غنيين أو فقيرين.. انتهى.

(وَ) يمشى مع (ذَوِى) أصحاب (العُبُودِيَّة) وهم الأرقاء، وعُلِمَ منه أنه ﷺ كما كان يماشى المرأة والعبد وإن كانا بالنسبة إلى ضدهما ناقصين كذلك كان يماشى المسكين وإن كان مستحقراً عند العامة، وقد روى أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ حديثًا ذكر فيه: «أنه ﷺ كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة، والمسكين، والعبد، حتى يقضى له حاجته».

* * *

[غضبه ﷺ لله]

(وَ) كان ﷺ (لاَ يَهاَبُ) يخاف (المُلُوكَ) بضم الميم واللام، جمع مَلِك - بفتح الميم وكسر اللام - أى السلاطين، بل المُلُوك كانت تخافه، وكانوا يهابونه، ويهادنونه، ويوالونه، برّهم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم؛ لدخولهم تحت وطأته بإسلام أو مسالمة.

وذكر فى «بهجة المحافل»: أنه ﷺ كتب إلى ملوك الأقاليم يخوفهم ويهددهم، ويدعوهم إلى طاعته، فمنهم من اتبعه على دينه؛ كالنجاشى، وملوك اليمن، وعُمَان، ومنهم من هادنه وأتحفه بالهدايا؛ كهرقل، وملك إيلة، والمُقَوْقس صاحب مصر، ومنهم من تعصًى فأظفره الله به. . انتهى.

(و) كان (يغضب لله) أى لانتهاك حرمته (ويرضى لرضاه) ولا يغضب لنفسه، ولقد أُوذى فى قومه حتى وطىء ظهره، وأدمى وجهه، وكسرت ربَاعيته، ولو دعا عليهم لهلكوا، ومع ذلك فأبى أن يقول إلا خيراً، وقال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون».

وكان يقول: «إنما بعثت رحمة، ولم أُبعث عذابًا ونقمة». وقوله ﷺ يوم الخندق حين شغلوه عن صلاة العصر: «اللهم املأ قلوبهم ناراً»؛ لأن الحق لله تعالى، وكان ﷺ يشتد فى حدود الله وحقوقه ودينه حتى قطع يد السارق إلى غير ذلك.

* * *

[آدابه فى مشيه ﷺ]

(وَ) كان ﷺ (يَمْشِى) غالبًا (خَلْفَ أَصْحَابِه) رضى الله عنهم، ويقدمهم أمامه (وَيَقُولُ) مبينًا لهم حكمة ذلك: (خَلّوا) بالخاء المعجمة (ظَهْرِى) أى خلفى (لِلْمَلائِكَةِ) جمع مَلَك بفتح اللام (الرُّوحَانِيَّةِ) بضم الراء، أى المنسوبين للروح ـ بزيادة الألف والنون على غير قياس ـ ولعلهم غير الموكلين بالإنسان فى دفع ما لم يقدر عليه.

قال فى «القاموس»: والروح ما به حياة الإنسان، والقرآن، والوحى، وجبريل، وعيسى، والنفخ، وأمر النبوة، وحكم الله وأمره، وملك وجهه كوجهه الإنسان وجسده كالملائكة، وقيل: هو مَلَكٌ عظيم من أعظم الملائكة خَلْقًا، وقيل: حاجب الله يقوم بين يدى الله يوم القيامة، وهو أعظم الملائكة لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة، فالخلق إليه ينظرون فمن مخافته لا يرفعون طرفهم إلى من فوقه، وقيل: هو مَلَكٌ له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل تسبيحة مَلَكًا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة. والرُوحانى ـ بالضم ـ ما فيه الروح، وكذلك النسبة إلى المَلَك والجن، وجمعه روحانيون، والرَوح ـ بالفتح ـ الراحة والرحمة، ونسيم الريح. وبالتحريك: السعة، وسعة فى الرجلين دون الفحح.

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ أروح. ومكان روحانى: طيب.

ولعل وجه اختصاص أصحابه بالتقديم؛ لينظر إلى أحوالهم، وليزداد بهم باستشعار من خلق الكون بأسره لأجله، خلقهم الناظر إليهم بعينى رأسه، وإن كان لا يخفى عليه حالهم مع تقدمه عليهم أيضًا؛ كما ورد فى الصحيح: «وإنى لأراكم من وراء ظهرى»، لكن هذا النظر الخاص لا يعرفه كل واحد

منهم بخلاف نظره إليهم على العادة فإنه واضح لكل أحد. قال بعضهم: وحكمة ذلك أن الملائكة يحرسونه من أعدائه؛ وذلك من بعض عصمة الله له.

وفى «المنح»: كأنه يسوقهم تواضعًا، وإرشادًا إلى ندب كون كبير القوم وراءهم، ولا يدع أحدًا يمشى خلفه، أو ليختبر حالهم، وينظر إليهم حال تصرفهم فى معاشهم وملاحظتهم لإخوانهم فيكمل من يحتاج إلى التكميل، ويعاقب من يليق به المعاقبة، ويؤدب من يناسبه التأديب، وهذا شأن الوالى مع رعيته، أو لغير ذلك.. انتهى.

وهذا ـ أعنى رؤيته ﷺ من خلفه ـ قد ثبت فى حديث أبى هريرة، عن أنس، عند الشيخين، وعند عبد الرزاق فى جامعه، والحاكم عن أبى هريرة، وعند الحُمَيدى فى مسنده، وابن المنذر فى تفسيره، والبيهقى عن مجاهد مرسلاً. ثم اختلف فى هذه الرؤية فقيل: هى رؤية إدراك بالبصر وهو الصحيح، ومذهب أهل الحق عدم توقف الرؤية على شعاع ولا مقابلة، كما لا يتوقف على الآلة التى هى العين برؤيته ﷺ من خلفه، وعلى هذا كانت بعينى رأسه على طريق خرق العادة فى عدم المقابلة، وقيل: إنها رؤية البصيرة وصحيح أيضًا. وقيل: المراد بها العلم؛ إما بالوحى أو بالإلهام، وهو ضعيف خلاف الظاهر.

وأما القول بأنه كان له ﷺ عينان من خلفه كسم الخياط فهو مرغوب عنه ساقط. قال عياض: وكان ذلك له بعد ليلة الإسراء، كما كان موسى يرى النملة السوداء فى الليلة الظلماء من عشرة فراسخ بعد ليلة الطور.

* * *

[سيرته ﷺ في ركوبه]

(وَ) كان ﷺ (يَرْكَبُ البَعِيرَ) جملاً كان أو ناقة، وقيل: هو الجمل البازل، وهو الموافق للاستعمال.

(وَ) يركب أيضًا (الفَرَسَ) يطلق على الذكر والأنثى من الخيل، وقال بعضهم: الفرس الأنثى من الخيل، كما أن الحصان الذكر من الخيل، والمراد هنا الجنس. وروى الحاكم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ «أن النبى ﷺ كان يسمى الأنثى من الخيل فرسًا» أى جريًا على عادة العرب إذ لم يُسمع فى كلامهم فرسه بالهاء.

(وَ) يركب أيضًا (البَغْلَةَ) فقد صح: أنه ﷺ ركب يوم حنين بغلته البيضاء التى يقال لها فضة.

(وَ) يركب أيضًا (حِمَارًا) أهليًا (بَعْضَ المُلُوكِ) وهو المُقَوْقس (إليه أهداه) كما تقدم، وهذه سنة الأنبياء قبله.

وفى «مختصر السيرة» للمحب الطبرى: أنه ﷺ ركب حِماراً عُرْيًا إلى قُبَاء، ومعه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فقال: «أحملك؟» فقال: ما شئت يا رسول الله. قال: «اركب»، فوثب ليركب فلم يقدر، فاستمسك به ﷺ فوقعا جميعًا، ثم ركب وقال له مثل ذلك، ففعل، فوقعا جميعًا، ثم ركب وقال له مثل ذلك، فقال: لا والذى بعثك بالحق ما رميتك ثالثًا. . انتهى.

وكان لكمال تواضعه يُرْدِف خلفه وأمامه، صغيراً وكبيراً، ذكراً وأنثى.

وفى «النسيم» نقلا عن الشمنى: أن بعضهم جمع من أردفه النبى ﷺ على فرس وغيره فبلغوا نيفًا وأربعين. . انتهى.

* * *

[خيله ودوابه ﷺ]

وكان له ﷺ من الإبل المعدة للركوب ثلاثة: ناقة يقال لها القصوى، وناقة يقال لها الجدعاء، وناقة يقال لها العَضْبَاء ـ بفتح العين المهملة ـ وهى التى كانت لا تُسْبَق، فسُبِقَت فشقّ ذلك على المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه».

ويقال: إن العضباء هذه لم تأكل، ولم تشرب بعد وفاته ﷺ حتى ماتت. وقد جاء أن ابنته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ تُحشر عليها كما تقدم، وقيل: التى كانت لا تُسْبَق فَسُبِقَتْ هى القصوى.

وكان له ﷺ من الخيل المتفق عليه منها سبعة:

«السَّكْب» ـ بالسكون أو الفتح ـ وكان أدهم، أغر، مُحَجَّلاً، طلق اليمين، قيل له السكب: تشبيهًا بسكب الماء انصبابًا لشدة جريه، وهو أول فرس ملكه، اشتراه من أعرابى من بنى منحر بعشرة أواقى، وكان تحته يوم أحد.

و «سَبْحَة» ـ بمهملتين بينهما موحدة ـ اشتراه من رجل من جُهينة بعشرين من الإبل، وهو الذى سابق عليه فسبق ففرح به؛ سمى بذلك لحسن مد يده فى الجرى.

و «المُرتَجز»، وكان أشقر، سمى بذلك لحسن صهيله.

و «لِزاز» ـ بكسر اللام ثم زاى مكررة ـ أهداه له المُقَوْقس.

و «اللخيف» ـ بالمعجمة أو المهملة مصغرًا أو مكبرًا روايتان.

و «الضَّرب»، ويقال له: «الطَّرب» أهداه له فَرْوَة بن عمرو الجُذَامىّ.

و «الورْد» أهداه له تميم الدارى.

و «الصَرِم» بفتح أوله المهمل وكسر ثانيه.

و «ملاوح».

و «البحر» اشتراه من تجار قدموا من البحرين فسبق عليه ثلاث مرات فمسح وجهه وقال: ما أنت إلا بحر.

وكان له ﷺ من البغال ست: بغلة شهباء اسمها «دُلْدُل» ـ بضم الدالين المهملتين ـ أهداها له المُقَوْقس كما مر، وهى أول بغلة ركبت فى الإسلام، وكبرت وبقيت إلى زمن معاوية وزالت أضراسها وكان يدق لها الطعام، وعميت. وسئل ابن الصلاح أكانت أنثى أم ذكرًا، أو التاء للموحدة؟ فأجاب بالأول. ونقل بعضهم إجماع أهل الحديث على أنها كانت ذكرًا. وموتها بسهم رماها به رجل.

و «فضة» لصفاء لونها، وهبها من أبى بكر رضى الله عنه.

و «إيلة» أهداها له ملك إيلة ولذا سمى بذلك.

وأخرى أهداها له كسرى، وأخرى من دَوْمَة الجَنْدَل، وأخرى أهداها له النجاشى أصحمة ملك الحبشة.

وكان له ﷺ من الحمير ثلاثة: أحدها «عُفَيْر»، وآخر «يَعْفُور» قال بعضهم: وليسا اسمين لحمار واحد كما يتوهم؛ فإن عُفَيراً أهداه له المُقَوْقس، ويَعْفُوراً أهداه له فَرْوَة بن عمرو، وقيل بالعكس.

ومات «يَعْفُور» منصرفه من حجة الوداع، وقيل: ألقى نفسه فى بئر ابن التَّيهَان يوم موته ﷺ. وكان يرسله ﷺ للرجل فيأتى بابه فيقرعه برأسه فيعلم أنه يطلبه.

والثالث أعطاه أياه سعد بن عبادة الأنصارى رضى الله عنه.

وعدَّ بعضهم حُمُرَه أربعة.

وكان له من الغنم؛ قيل: مائة، وقيل: سبعة أعنز كانت ترعاها أم أيمن.

وكان له شاة يختص بشرب لبنها.

وأما البقر: فلم ينقل أنه اقتنى شيئًا منها، واقتنى ﷺ الديك الأبيض، وكان يبيته معه فى البيت.. والله أعلم.

[صبره ﷺ على الجوع]

(وَ) كان ﷺ (يَعْصِبُ) أى يربط ربطًا خفيفا (عَلَى بَطْنِه الحَجَرَ) بالراء لا بالزاى كما زعمه بعضهم (مِنَ الجُوعِ) تارة، ويشبع تارة، كما قاله ابن القيم.

روى ابن أبى الدنيا: أصاب النبى ﷺ جوع يومًا فعمد إلى حَجر فوضعه على بطنه ثم قال: «ألا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا رُبَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم».

قال فى «أشرف الوسائل» بعد أن ساق ما ورد فى ذلك من الأحاديث: وبما تقرر علم أن الصواب صحة الأحاديث، وأنه ﷺ شدَّ الحَجَر ـ بالراء ـ شدًا خفيفًا لما أحس به من الجوع اختيارًا للثواب.. انتهى باختصار.

وقد ترك المصنف «الطى» أى لف الخاصرة، فكما كان يعصبه بحجر كان يعصبه فى بعض الأوقات بعصابة كما فى صحيح مسلم، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «جئت رسول الله ﷺ يومًا فوجدته جالسًا مع أصحابه يعظهم وقد عصب بطنه بعصابة، فقالوا من الجوع.

واستدلال بعضهم للطى المذكور بما رواه البخارى، عن جابر، قال: مكث ﷺ لم يذق طعامًا ثلاثًا وهم يحفرون الخندق، فقالوا: يا رسول الله، إن ههنا كدية من الجبل قد عجزت معاولنا عنها، فقال ﷺ: «رشوها بالماء»، فرشوها به، ثم جاء فأخذ المعول ثم قال: «بسم الله» فضرب ثلاثًا فصارت كثيبًا، قال جابر: فحانت منى التفاتة فإذا رسول الله ﷺ قد شدّ على بطنه حجرًا. بعيد جدًا إلا أن يقال: أن العصابة المذكورة كانت على حَجَرٍ أيضًا. ويؤيده رواية الترمذى، عن أبى طلحة ـ رضى الله عنه ـ قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله

ﷺ عن بطنه عن حجرين» ولعل ذلك كان للجوع أيضًا، ويؤيده قولهم: «من الجوع». أو لحكمة أخرى أبداها العينى فى أواخر «مختصر الظهيرية» كما نقله بعضهم عن خطه، وهى: فإن قيل: ما الحكمة أن نبينا ﷺ كان يشد الحجر على بطنه؟ فقيل: قيل للجوع، وليس بشىء، ولكن لما أمر الله تعالى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ببناء الكعبة، وأمره بوضع الحَجَر الأسود فيه؛ سقط من يده فانكسر منه قطعة، فأمر الله جبريل ـ عليه السلام ـ أن يضع تلك القطعة فى جبل الغار إلى وقت خروج محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأبى بكر من الغار، فأعطاه جبريل ـ عليه السلام ـ تلك القطعة وقال له: اربط هذا الحَجَر على وسطك لترى من خلفك كما ترى من أمامك. . انتهى.

وهذا كما تراه ـ بفرض صحته ـ معارض لكلام المصنف، وقد يقال: لا منافاة لأن ذلك كان للجوع، وهذا لما ذكر، على أن الأحاديث ليس فيها التصريح بأن ربط الحَجَر كان من الجوع. أما حديث ابن أبى الدنيا فليس فيه الربط، وأما حديث أنس فليس فيه تعرض للحَجَر، وأما حديث جابر ففيه ذكر الحَجَر، لكن هل كان للجوع؟ لا يعلم منه مع أنه قد استشكل ما ذكر من العصب والطى للجوع بقوله ﷺ: «أبيتُ عند ربى يُطعمنى ويَسقينى»؛ لأن من هذا حاله لا يعصب أحشاءه.

ولكن قد صرح بذلك ابن القيم وغيره، وتبعهم المصنف وجمعٌ من المحققين: كابن حجر وغيره، لما فى رواية مسلم المارة فقالوا: من الجوع، ولما رواه ابن سعد، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ: «كان ﷺ يشدّ صلبه بالحَجَر من الغَرَث ـ بغين معجمة وراء مفتوحة فمثلثة ـ الجوع، ومثل ذلك لا يقال من بادىء الرأى.

وقد أجيب عن الاستشكال المذكور بأن معنى الحديث: أبيتُ مستحضراً جلال ربى فيعطينى قوّة الطاعم والشارب، وقيل معناه: يخلق فىَّ من الشبع والرِّى مثل ما يخلقه فيمن أكل وشرب.

قال العزيزى فى «الفتح»: والفرق بينه وبين ما قبله أنه على الأوّل يُعْطَى القوّة من غير شبع ولا رِىّ بل مع الجوع والظمأ، وعلى الثانى يُعْطَى القوّة مع الشبع والرِّى.. انتهى. وصحح النووى الأول. فالمراد بذلك: أنه ضُمَّت له قوة بدنه، ونضارة جسمه حتى أن من رآه لا يظن به جوعًا ولا عطشا.

وفائدة هذا العصب: انضمام الأحشاء على المعدة فتخمد الحرارة بعض خمود؛ لأن المعدة إذا امتلأت بالطعام اشتغلت الحرارة بهضمه، وإذا خلت عن الطعام طلبت الحرارة رطوبة الجسم فيتألم الإنسان، فبالعصب تضعف تلك الحرارة.

(وَ) ما ذكر هنا من اتصافه ﷺ فى كثير من أوقاته بالجوع إلى أن احتاج إلى شدّ الحجر على بطنه وقاية لألم الجوع لم يكن عن اضطرار وعجز وإنما كان اختياراً منه، كيف لا والحال أنه ﷺ كان (قَدْ أُوتَى) بمد الهمزة المضمومة مبنيًا لما لم يسم فاعله،أى أعطاه الله تعالى (مَفَاتِيحَ) بالنصب مفعول ثان لأوتى، ومفعوله الأول نائب الفاعل (الخَزَائِنِ) بفتح الخاء المعجمة جمع خِزانة بكسرها: مكان الخزن، ولا يفتح كما فى «القاموس» (الأَرْضِيَّة) أى المنسوبة إلى الأرض، والمراد: معادنها من الذهب، والفضة، وزمرد، وياقوت، ونحوها من جواهرها، أو البلاد التى فيها، أو الممالك التى فُتحت لأمته بعده، كما أشار إليه فى «فيض القدير».

قال فى «النسيم»: أنه ورد فى الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أوتيت بمقاليد الدنيا على فرس أَبْلَق عليه قطيفة سندس». وفى رواية: «بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدى». قال: هو محمولٌ على ظاهره ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ﴾ [1] إذ هو كناية عن أن الله تعالى مكَّنه من ذلك، أو أن الله أراده وصرفه بالفعل فيها وقاد جميع أهلها له.

قال فى «فيض القدير»: وحكمة كون الحامل ـ أى للمفاتيح ـ فرسًا الإشارة

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩.

إلى أنه ﷺ أوتى العز إذ الخيل عز كما جاء فى عدة أخبار، وكونه أَبْلَق ولم يكن لونًا واحدًا إشارة إلى استيلاء أمته على خزائن جميع ملوك الطوائف من الأحمر، والأسود، والأبيض، على اختلاف ألوانها وأشكالها. . انتهى.

(وَ) كيف يتصور أيضًا ذلك والحال أنه قد **(رَاوَدَتْهُ)** أى طلبت منه **(الجِبَالُ)** وإسناد المراودة للجبال مجاز؛ لأن الله هو الذى خيره فى ذلك كما هو صريح الأحاديث، ويحتمل أن يكون حقيقة إذ لا مانع من أن يخلق الله فيها إدراكًا ونطقًا وتراوده حقيقة (بأن تكون ذهبًا، وفضة، وزمردًا، ونحو ذلك، وتسير معه حيث شاء **(فَأَبَاهُ)** أى امتنع منه فلم يقبل ذلك. والمراد بالجبال: جبال تِهَامَةَ - بالكسر - أى مكة شرفها الله تعالى كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة، فقد روى: أن جبريل - عليه السلام - نزل عليه ﷺ فقال: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أتحب أن تكون لك هذه الجبال ذهبًا وفضة تكون معك حيث ما كنت؟ فأطرق ساعة ثم قال: «يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، يجمعها من لا عقل له» فقال له جبريل: ثبَّتك الله بالقول الثابت.

وروى الطبرانى بإسناد حسن: أنه ﷺ كان ذات يوم وجبريل على الصفا فقال: «يا جبريل، والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق». فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هزَّة من السماء أفزعته. فقال ﷺ: «أمر الله القيامة أن تقوم؟». قال: لا ولكن إسرافيل نزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل - عليه السلام - فقال: إن الله تعالى سمع ما ذكرت، فبعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض وأمرنى أن أُسَيِّر معك جبال تِهَامَةَ زُمُرّدًا، وياقوتًا، وذهبًا، وفضة، فإن شئت نبيّا ملكًا، وإن شئت نبيّا عبدًا، فأومأ إليه جبريل أن تواضع فقال: «نبيّا عبدًا» ثلاثا.

وروى أنه ﷺ قال: «عَرَضَ علىَّ ربى بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يومًا، وأشبع يومًا، فإذا شبعت حمدتك، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك».

وبما تقرر علم أنه ﷺ لم يكن فقيراً فى المال قط، ولا حاله كحال فقير، بل كان أغنى الناس بالله فقد كفى أمر دنياه فى نفسه وعياله.

وقوله ﷺ: «اللهم أحينى مسكينًا» الحديث المراد به استكانة القلب لا المسكنة الشرعية، ذكره البدر الزركشى عن بعض الفقهاء. قال العلامة ابن حجر: وخبر: «الفقر فخرى وبه افتخر» باطل.

* * *

[آدابه ﷺ فى كلامه]

(وَكَانَ ﷺ يُقِلُّ) بضم أوله وكسر ثانيه من أقل مثقلاً مقابل أكثر أى يُقلل (اللَّغْوِ) وهو الساقط الذى لا يعتد به من كلام وغيره، والمراد به هنا: الكلام المتعلق بالدنيا؛ أى الذى لا فائدة فيه كما ورد عنه ﷺ: «أنه كان ﷺ طويل الصمت قليل الضحك». ويؤخذ من كلام «القاموس»: أنه يطلق على الإثم؛ حيث قال: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ﴾ [1] أى الإثم فى الحلف إذا كفَّرتم.

قال البيضاوى: اللَّغْو ما لا عقد معه كما سبق به اللسان، أو تكلم به جاهلاً معناه، أو كقول العرب: لا والله، وبلى والله، لمجرد التأكيد، والمعنى: لا يؤاخذكم بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه.

وظاهر قول المصنف: «يُقِلُّ اللَّغْو» يقتضى أنه قد يقع فى كلامه ﷺ لغو، والجواب: أن المراد من ذلك المبالغة فى النفى؛ لأن القلة قد تستعمل فى نفى أصل الشىء، كما قاله ابن الأثير. ومن تتبع الآيات القرآنية، وتصفح كلام العرب وجد كثيراً من ذلك، والمراد منه: المبالغة فى النفى وتأكيده كقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [2] وقوله: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [3] فإنه يقتضى أن قتلهم قد يكون بحق، وأن الآيات قد يكون لها الثمن الكثير وليس كذلك؛ لان المراد أن قتلهم لا يكون بحق، وأن كل ثمن لها لا يكون إلا قليلاً، وكقولهم: فلان لا يسرع إلى الخناء، وقلما رأيت مثل هذا الرجل، فإنهم إنما يريدون أنه لا يقرب إلى الخناء وأن مثل هذا الرجل لم ير لا قليلاً ولا كثيراً إذا أريد به نفى الخناء، ونفى رؤية المثل، وإلى غير ذلك.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٥.

(٢) سورة آل عمران: ٢١.

(٣) سورة البقرة: ٤١.

فلا يعترض على المصنف بما هو، والمتبادر من كلامه من وقوع اللغو فى كلامه ﷺ أحيانًا حاشاه من ذلك، بل لم يكن ينطق عن الهوى، وكلامه - حتى مزاحه - لم يكن يخلو عن فائدةٍ مَا، بل فوائد، فكيف يكون شيء منه وإن قلَّ لغلو؟.

* * *

[آدابه ﷺ فى السلام]

(وَ) كان ﷺ (يَبْدَأُ) من البداءة. وفى «الشمائل» للترمذى يبدر أى يسبق (مَنْ لَقِيَهُ) من المسلمين (بِالسَّلاَمِ) أى التحية من صغير وكبير، وحرٍّ ورقيق، وإن استوقفه المُسَلِّم عليه صابره ووقف معه حتى يكون هو المُنْصَرِف؛ لما فى ذلك من جلب المودة والألفة؛ ولأن ثواب المبتدىء أعظم من ثواب الرادّ، وقد حث على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «أفشوا السلام».

* * *

[سيرته ﷺ فى صلاته]

(و) كان ﷺ (يُطِيْلُ) بضم فكسر أى يُطول (الصَّلَاَةَ) أى التى يُطلب فيها التطويل: كالجمعة، والظهر، والصبح، ويأمر بالإطالة، لكن ليس ذلك عامًا لجميع الأوقات، وإنما هو فى حال دون حال، ووقت دون وقت، فكان ﷺ يؤثر التخفيف تارة، والتطويل أخرى. ففى «أشرف الوسائل»: أن صلاته ﷺ كانت مختلفة باختلاف أحواله؛ فتارة يؤثر التخفيف كأن يكون وراءه من له شغل، أو يعرض له مقتض للتخفيف، وإن كان قد أراد التطويل كأن يسمع بكاء الصبى، وتارة يؤثر التطويل كأن لا يكون وراءه أحد، أو وراءه من يؤثر التطويل.

قال: وحكمة ذلك بيان جواز كل من الأمرين، لكن الأفضل للإمام التخفيف إلا إن وُجِدَتْ الشروط السابقة ـ أى فى كلامه ـ بأن يؤم فى محل غير مطروق بجماعة محصورين راضيين لفظًا بالتطويل، خاليين عن أجير، وزوجة، ورقيق، وإلا كُرِه التطويل.

وكما أمر ﷺ بالتطويل أمر أيضًا بالتخفيف فقد قال: «إنَّ منكم مُنَفِّرين فأيكم صلَّى بالناس فليخفف فإن فيكم السقيم والضعيف وذا الحاجة».

وورد بسند جيد عن أبى واقد الليثى ـ رضى الله عنه ـ قال: «كان ـ يعنى النبى ﷺ ـ أخف الناس صلاة على الناس، وأطول الناس صلاة لنفسه» أى لأن قرة عينه جعلت فيها ـ كما قد ورد ـ لما كان يحصل له فيها من مجموع الهم على مطالعة جلال الله وصفاته، فيحصل له من آثار ذلك ما تقر به عينه، كما فى «البدر المنير»، وقال: سئل ابن عطاء: هل هذا خاص بنبينا ﷺ أو لغيره فيه شرب؟ فقال: قرة العين بالشهود، على قدر المعرفة بالمشهود، وليس معرفة غيره كمعرفته، فلا قرة عين كقرته.

ونقل عن الترمذى الحكيم أنه قال: إن الصلاة حبيت إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم؛ فلمحمد ﷺ من ربه بحر، ولما سواه أنهار وأودية، فكلٌ إنما ينال من الصلاة من مقامه، فالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ خلفاؤهم الأولياء ينالون من الصلاة مقامًا عاليًا، وليس للعباد والزهاد والمتقين فيها إلا مقام الصدق ومجاهدة الوسوسة، ومن بعدهم من المسلمين لهم مقام التوحيد فى الصلاة، والوسواس معهم بلا مجاهدة، والأنبياء وأعاظم الأولياء فى مفاوز الملكوت، وليس للشيطان أن يدخل تلك المفاوز، وما وراء المفاوز حُجُب وبساتين شغلت القلوب بما فيها عن أن يخطر ببالهم ما وراءها.. انتهى.

* * *

[سيرته ﷺ فى خطبته]

(وَ) كان ﷺ (يُقْصِرُ) بكسر الصاد مخففة، قال فى «القاموس»: وقصره يقصره جعله قصيراً فهو على مثال ضربه يضربه كما هو قاعدته، وهو من القصر أو القصر كعنب ضد الطول وليس المراد بالقصر هنا القصر اللغوى وإنما المراد التخفيف بمعنى التقليل أى الاقتصار على ما لابد منه والإمساك عما فوق ذلك.

ويؤيده ما فى «النهاية»: أن أعرابيًا جاءه ﷺ فقال: علمنى عملاً يدخلنى الجنة. فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسئلة» أى جئت بالخطبة قصيرة وبالمسئلة عريضة يعنى قللت الخطبة وأعظمت المسئلة، وأنه كان إذا خطب فى نكاح قصر دون أهله أى خطب إلى من هو دونه، وأمسك عمن هو فوقه.. انتهى.

(الخُطْبَةُ) بالإفراد، وفى بعض النسخ: «الخطب» بالجمع، وهو الكلام

المجمع، والمراد هنا: ما يؤلف ويقصد به وعظ الحاضرين، وأمرهم بالتقوى، ونهيهم عن التقصير فى حق الله، وأمرهم بالقيام بحقوق ربوبيته تعالى وما خلقوا لأجله، وسواء فى ذلك الخطب الجُمعِيَّة وغيرها كالخطبة لصلاة العيدين، والاستسقاء، والكسوف، وخطب الحج. وهى واجبة فى الجمعة بل شرط لصحتها، مندوبة فى الباقى.

(الجُمَعِيَّة) أى المنسوبة للجُمعة بتثليث الميم وتسكن نسبة الشرط للمشروط فيه، سميت بذلك لاجتماع الناس لها، أو لجمع الخير فيها، أو لجمع خلق آدم فيها، أو لاجتماعه فيها بحواء على عرفات.

ويومها أفضل أيام الأسبوع سوى عرفة، وقد جمع الجلال السيوطى ما ورد فى فضائلها فى رسالة سماها «اللمعة فى فضائل الجمعة».

وليلتها أفضل الليالى بعد ليلة القدر، وليلة القدر أفضل من ليلة الإسراء بالنسبة لنا، أما بالنسبة له ﷺ فليلة الإسراء أفضل كما مر فى أول الكتاب؛ إذ وقع له فيها رؤية البارى تعالى بعينى رأسه على الصحيح.

وفُرضت بمكة ليلة الإسراء، ولم تقم بها لقلة المسلمين أو لخفاء الإسلام، وأول من أقامها بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زُرَارَة، وصلاتها أفضل الصلوات، وهى من خصائص هذه الأمة.

وشاهد ما ذكره المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: ما رواه أبو داود والحاكم عن جابر بن سَمُرَة ـ رضى الله عنه ـ قال: كان ـ يعنى النبى ﷺ ـ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ـ أى الخطبة ـ إنما هى كلمات يسيرات ـ أى لئلا يمل السامعون.

وكما كان ﷺ يقصرها ـ أى بالنسبة لتطويل الصلاة ـ فكانت متوسطة بليغة مفهومة لكل من سمعها، كان يأمر بقصرها كما رواه مسلم فى صحيحه بسنده إلى واصل بن حيان. وقد قيل فى تعليل ذلك: أن الصلاة أصلٌ مقصود بالذات، والخطبة فرع عليها وتوطئة ومقدمة عليها، ومن القضايا الفقهية إيثار الأصل على الفرع بالزيادة والفعل.

[تأليفه ﷺ للقلوب]

(وَ) كان ﷺ (يَتَأَلَّفُ) بفتحات مشدد اللام (أَهْلُ الشَرَفِ) أى يستجلب بمكارم أخلاقه ألفة ذوى الشرف فى قومهم ومحبتهم له ﷺ، وكان يعطيهم المال الكثير، ويترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم؛ كالأقرع بن حابس، وعُيَيْنَة بن حِصْن، والعباس بن مِرْدَاس، وقد عدَّهم فى «القاموس» فبلغوا أحد وثلاثين رجلاً. ومن ثم قال صفوان بن أمية: لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى وإنه لأبغض الناس إلىَّ، فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى.

قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة.

قال القسطلانى: وإنما أعطاه ذلك لأنه علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء وهو الإحسان فعالجه به حتى برىء من داء الكفر وأسلم، وهذا من كمال شفقته ورأفته ورحمته إذ عامله بكمال الإحسان، وأنقذه من حر النيران إلى برد لطف الجنان.. انتهى.

(ويُكْرِمَ أَهْلُ الفَضْلِ) من ذوى الصلاح والشرف؛ يبجلهم، ويعظمهم، ويميزهم على غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم؛ وفاءً بحقهم، وترغيبًا لمن سواهم فى التحلى بحليهم.

وكان من سيرته فى جزأ الأمة: إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم فى الدين دون أحسابهم وأنسابهم؛ لأن أولئك أكرم وأفضل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (1).

وكان يؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد بِشْرَه - أى طلاقة وجهه

(1) سورة الحجرات: ١٣.

وبشاشته ـ ولا خلقة، وقد أمر أُمَّته بذلك فقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

قال العلقمى: قال الدميرى: وهذا الحديث لا يدخل فى عمومه الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [1] فلا يوقر الذمى ولا يصدر فى مجلس وإن كان كريمًا فى قومه لأن الله أذلهم.

وقال أيضًا: والذى أعتقده أن مراد النبى ﷺ بقوله: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» المشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [2].. انتهى.

وكان ﷺ إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس، ويأمر بذلك، يعطى جلساءه بنصيبه، لا يَحْسَبُ جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه.

* * *

(١) سورة الحج: ١٨.

(٢) الحجرات: ١٣.

[مزاحه ومداعبته ﷺ]

(وَ) كان ﷺ (يَمْزَحُ) بفتح الزاى المعجمة ـ أى ينبسط مع غيره من أصحابه بالقول والفعل من غير إيذاء له، وبه فارق الهزأ والسخرية. فمن ذلك ما أخرجه الحافظ عبد الرحمن بن السنى فى كتابه «عمل اليوم والليلة»: عن حُميد بن الورد، عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ قال: رأى النبى ﷺ رجلاً أحمر فقال له: «أنت أبو الورد؟».

قال جبار أحد رواة الحديث: مازحه ـ يعنى بذلك ـ.

ومن ذلك قوله لأخى أنس وكان له «نُغْر» يلعب به، فمات فحزن عليه، فكان ﷺ يقول له: «يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر». وكان يقول لأنس: «ياذا الأُذنين».

وكان رجل من أهل البادية اسمه زهير ـ وفى نسخة زاهر بن حرا ـ وكان قصيراً جدّاً، وكان يهدى للنبى ﷺ بموجود البادية، وبما يستطرف منها، وكان ﷺ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة، وبما يستطرف منها، وكان يقول: «إن زهيراً باديتنا، ونحن حاضروه» وكان يحبه ويداعبه، فجاء يومًا وهو يبيع متاعًا له بالسوق فاحتضنه من خلفه، ووضع يديه على عينيه، فلما عرف أنه ﷺ جعل يلصق ظهره بصدره رجاء بركته.

وفى رواية الترمذى فى «الشمائل»: فاحتضنه من خلفه ولا يبصره فقال: أرسلنى! من هذا؟ فالتفت، فعرف النبى ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبى ﷺ حين عرفه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشترى العبد؟» فقال زهير: يا رسول الله، أتجدنى كاسداً؟ فقال النبى ﷺ: «أنت عند الله لست بكاسد».

وجاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إن زوجى مريض، وهو يدعوك.

فقال: «لعل زوجك الذى فى عينه بياض» فأخبرت زوجها فقال: ويحك! هل أحد إلا وفى عينيه بياض».

وجاءت أخرى فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يُدخلنى الجنة. فقال: «يا أم لا تدخل الجنة عجوز» فولَّت المرأة وهى تبكى، فقال النبى ﷺ: «أخبروها أنها لا تدخل الجنة وهى عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [(1)]».

قالت عائشة رضى الله عنها: سابقته ﷺ أولاً فسبقته، فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى، فضرب كتفى وقال: «هذه بتلك».

وقال لها يومًا وهى تلعب بلُعبها: «ما هذه يا عائشة؟» قالت: خيل سليمان ابن داود. فضحك، وطلب الباب فابتدرته واعتنقته.

وكان ربما أدلع لسانه للحسن بن على، فيرى الصبى حمرة لسانه فيهش إليه.

وأكل ﷺ تمرًا فجاء صُهيب وقد غطّى على عينه ـ وهو أرمد ـ فسلَّم، فأهوى فى التمر يأكل، فقال ﷺ: «تأكل الحلو وأنت أرمد؟» فقال: يا رسول الله، إنما آكل بشق عينى الصحيحة، فضحك النبى ﷺ.

وكان أصحاب النبى ﷺ يتمازحون بالقول والفعل وربما تراموا بالبطيخ، وتحاملوا الحجر لاختبار قوّتهم.

وما ورد عنه ﷺ فى النهى عن المزاح محمولٌ على الإفراط، لما فيه من الشغل عن ذكر الله، والتفكر فى مهمات الدين، وغير ذلك، والذى يَسْلَم من ذلك هو المباح؛ فإن صادف مصلحة مثل: تطييب نفس المخاطب ـ كما كان هو فعله عليه الصلاة والسلام ـ فهو مستحب.

قال فى «بهجة المحافل»: قال العلماء: المزاح فيه ما هو مباح ومذموم، والمذموم: ما داوم عليه وكان فيه إفراط فى الضحك؛ فإن كثرته تقسى

(1) سورة الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧.

القلب، ويؤذن بالغفلة، وتسقط المهابة والوقار، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه».

وأما المباح: فهو ما كان على الندور؛ بتطييب نفس وإيناس، ويلحق بالطاعات ومكارم الأخلاق بحسب المقاصد، وكذلك كان مزاحه ﷺ، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى:

أرِحْ قلبكَ المتعوب بالهزلِ ساعةً   قليلاً وعَلِّله بشىءٍ من المَزح
ولكن إذا أعطيته المَزْحَ فليكنْ   بقدرِ الذى تُعطى الطعامِ من المِلْحِ

(وَ) كان ﷺ مع ممازحته لكثير من أصحابه حتى صغارهم (لاَ يَقُولُ) فى مزاحه معهم (إلاَّ) كما يقول فى جَدّه مقالاً (حَقًا يُحِبُّهُ اللهُ) سبحانه و(تعَالَى) أى يثيب فاعله (ويَرْضَاهُ).

روى الترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قالوا يا رسول الله: إنك قد تداعبنا - أى تلاطفنا - فى القول بالمزاح وغيره. قال ﷺ: «إنى لا أقول إلا حقّا».

وأما قوله المتقدم فى حديثه لزاهر: «من يشترى هذا العبد؟» فعلى تقدير مضاف أى من يشترى متاع العبد.

وسؤالهم عن المداعبة؛ إما ليعلموا هل هى من خواصه؟ فلا يتأسون به فيها، فبين لهم أنها ليست من خواصه، وأن جوازها منوط بقول الحق، وإما لاستبعاد وقوع المزاح منه ﷺ لجليل مكانته وعظيم مرتبته، فكأنهم سألوا عن حكمته فأجابهم. قاله فى «أشرف الوسائل».

وقال فيه أيضًا: بعد أن تكلم على فوائد حديث الزاهر السابق: ومن تأمل مزاحه، وجده لا يخلو عن فوائد عامة، ومصالح تامة،وبشارات عظيمة، وخيرات جسيمة، فهو فى الحقيقة غاية الجد، وليس مزحًا إلا باعتبار الصورة فقط.

* * *

خاتمة

ختم الله لنا بالحسنى وبلغنا من خيرى الدارين فوق المنى

ذكر الحافظ أبو على الحسن بن عبد الملك المعروف بابن القطان فى كتابه «الأحكام لسياق ما لسيدنا محمد ﷺ من الآيات البينات والمعجزات الباهرات والأعلام» كثيرًا من إفراد الخُلُق العظيم النبوى، وصدَّر جميع ذلك بقوله: إن من تأمل أخلاقه ﷺ فى نفسه، ومع ربه جل وعلا، ومع أهله، ومع الناس كافة مؤمنهم وكافرهم، وسياسته العجيبة الحكمية فى جميع أحواله، وصدق لهجته، ولين عريكته، وكرم عشيرته، وحب مخالطيه، وتعزيزهم إياه، وتوقيرهم له، وحرصهم على نيل شىء منه ولو قل كشعرة أو عَرَق أو بصاق أو غير ذلك، وقضائه لحاجات الناس، وكرمه وإيثاره على نفسه، وتنزهه على الخسائس كلها دقها وجلها، وعدله وتسويته فى الحق بين الشريف والمشروف، وتواضعه، وزهده، وقناعته، وشجاعته، وفصاحته، وعلمه، وحلمه، وغضبه لله تعالى، وحيائه وشفقته، ومداراته ورحمته، وكثرة عبادته لربه سبحانه وتعالى، وصبره وشكره، ومراقبته وخوفه، وغير ذلك، من معانى أخلاقه ﷺ، واستوفى ما فى كتب الأئمة من ذلك، ومن شمائله ﷺ التى يشهد لها قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ علم علمًا يقينًا أن ذلك لا يكون إلا لأكرم رسل الله تعالى وأحبهم إليه، وأمكنهم لديه، وأن الكذب وصفات النقص كلها من أمحل المحال عليه، وبهذه المعجزة آمن كثير من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، ولله در القائل:

يا أيها المتعاطى وصف سؤدده ... لا تعرضَنَّ لكيل البحر بالغَمْرِ

فإنَّه كان مطبوعًا على شيمٍ ... معدومة المثلِ لم يُخْلَقْنَ فى البشرِ

جعلنا الله تعالى بمنه وفضله وكرمه من التابعين له، السالكين سواء طريقه، المقتدين به فى أقواله وأفعاله وسائر شريف خلاله، بجاهه العظيم، إنه هو

الرءوف الرحيم.

(وَهَاهُنَا وَقَفَ بِنَا جَوَادُ) الفرس البين الجودة كما فى «القاموس» وإضافته إلى (المَقَالُ) أى القول من إضافة المشبه به للمشبه (عَنِ الاطِّرَادُ) بتشديد الطاء المكسورة التسابق (فِىْ الحَلْبَةِ) بفتح الحاء المهملة وسكون اللام موحدة، هى الدفعة من الخيل التى تجتمع للسباق من كل أوب، تجمع على حلائب، هذا معناه بحسب الأصل، والمراد به هنا: العبارات البليغة فى بيان قصة المولد الشريف، ولذا وصفها بقوله: (البَيَانيَّة) أى المنسوبة للبيان وهو المنطق الفصيح المعرب عما فى الجنان نسبة الجزئيات لكليها (وبَلَغَ ظَاعِنُ) بالظاء المشالة، اسم فاعل ظعن بمعنى ارتحل وإضافته إلى (الإمْلاَء) من إضافة المشبه به للمشبه، والإملاء ـ بكسر الهمزة ـ إلقاء الكلام على من يكتبه كما مر فى أول الكتاب (فِى فَدَافِد) بفتح الفاء الأولى وكسر الثانية ودالين مهملتين، جمع فَدْفَد كجعفر، الفلاة، وإضافته إلى (الإيضَاحِ) من إضافة المشبه به للمشبه، أى وههنا وقف بنا القول الشبيه بالجواد، وبلغ المقصود به (مُنْتَهَاهُ) أى انتهاؤه وهو تأدية المعانى على الوجه المرغوب، والمبادرة بالإتيان بالعبارات البينة الواضحة فى الدلالة على المراد مع التزام التسجيع، من أول التأليف إلى منتهاه، وتحرى كون ذلك كله على فقرتين فقط أولهما: بالهاء المسبوقة بالياء ـ التحتية المشددة ـ ثانيهما: بهاء مسبوقة بألف، وذلك حسن من أنواع فنون البديع.

ووصل الإملاء؛ أى الكلام المملى إلى منتهاه وغايته فى الإيضاح، الشبيه بالفَدْفَد فى الاتساع، ولا يخفى ما فيه من البلاغة ومدح هذا التأليف، بل ومدح المؤلف أيضًا من باب التحدث بالنعمة؛ حيث أشار إلى أن إلقاء هذه العبارات من غير تكلف وصعوبة كما لا يخفى.. والله أعلم.

(عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَة وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْه)

ولما فرغ المصنف رحمه الله تعالى وشكر سعيه من ذكر مولده الشريف، وبعض ما اتفق له فى خلال عمره من الأحوال الباهرة، والمعجزات الظاهرة؛ سيما أخلاقه الشريفة، وشمائله الحنيفة، عقب ذلك بدعوات نفيسة وجعلها خاتمة الكتاب، رجاء القبول من الملك الوهاب ببركة هذا الجناب فقال:

(اللَّهُمَّ) ، قال العزيزى فى «شرح الجامع الصغير»: الميم عوض عن حرف النداء؛ أى يا الله، ولذا لا يجتمعان إلا لضرورة الشعر، وهى كلمة كثر استعمالها فى الدعاء، وقد جاء عن الحسن البصرى: اللهم: مجتمع الدعاء، وعن النضر بن شُمَيل: من قال اللهم سأل الله بجميع أسمائه.. انتهى.

وقال الشيخ الجزولى: هو توجه للمطلوب، وطلب لحصول المرغوب بالتوسل بالاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى.

ولُفِظَ به بصيغة حذف فيها ياء النداء المتضمنة لوجود البينونة النفسانية؛ إذ حذفها يقتضى زوال ذلك، قال: وتعويض الميم من حرف النداء فى لفظ الجلالة يقتضى قوة الهمة فى الطلب والجزم به، وإنما جعل هذا الاسم الأعظم فى أوائل الأدعية غالبًا؛ لأنه جامع لجميع معانى الأسماء الكريمة وهو أصلها.

(يَا بَاسِطَ) الباسط اسم من أسمائه تعالى، وله معان يقصد فى كل مقام بما يناسبه، والمراد به هنا: الموسع **(اليَدَيْنِ)** أى الإرادة والقدرة **(بِالعَطِيَّةِ)** الشىء المعطى **(يَا مَنْ إِذَا رُفِعَتْ إِلَيْهِ أَكُفُّ العَبْدُ)** بفتح الهمزة وضم الكاف وشد الفاء، جمع كف وهو اليد، أو إلى الكوع كما فى «القاموس». **(كَفَاهُ)** أى لم يحوجه إلى غيره.

ورفع اليدين فى الدعاء سُنَّة وهو من آداب الدعاء، ومن آدابه أيضًا: أن يتخير الأوقات الفاضلة كأن يدعو فى السجود، وعند الأذان والإقامة، ومنها: تقديم الوضوء، والصلاة، واستقبال القبلة، وافتتاحه بالحمد والصلاة على النبى ﷺ، وختمه بها وجعلها فى وسطه أيضًا، وللدعاء شروط تقدم ذكرها

في الكلام على البسملة.

وفي رفع اليدين إلى جهة السماء إشارة إلى القبلة العليا وهو البيت المعمور، وإلى جهة عرش من يناجيه. وكان ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه تفاؤلا بحصول المراد.

(يَا مَنْ تَنَزَّه) عما لا يليق بجلاله تعالى **(فِي ذَاتِه)** فيه جواز إطلاق الذات عليه تعالى، وهو الصحيح كما مر في أول الكتاب **(وَ)** جميع **(صِفَاتِه)** جمع صفة **(الأَحدِيَّة)** المنسوبة للأحد نسبة الموصوف لصفته، والأحد كالواحد المنفرد في الذات والصفات والأفعال إلا أن الأحد أبلغ لدلالته على زيادة تأكيد في صفة الوحدانية. قاله العلامة ابن حجر في «التحفة».

تنبيه

فرَّقوا بين الواحد والأحد، وأصله «وحد»: بأن «أحد» يختص بأولي العلم، وبالنفي إلا إن أريد به الواحد، والأول كما في الآية، ووصفًا بالله دون واحد، ووحدوا بأن نفيه نفي للماهية بخلاف نفي الواحد إذ لا ينفي الاثنين فأكثر، وبأنه يستعمل للمؤنث أيضًا نحو: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [1] والمفرد والجمع نحو: ﴿مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [2] وبأن له جمعًا من لفظه وهو: الأحدون والآحاد. وقال أبي عبيد بترادفهما، ولكن الغالب استعمال أحد بعد النفي اختيار له.. انتهى بعبارته.

قال الأزهري: الفرق بينهما أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول: ما جاء في أحد، والواحد اسم بني لمفتتح العدد، تقول: ما جاء في واحد من الناس، ولا تقول جاءني، قالوا: أحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى.

وقال غيره: الأحد الذي ليس بمنقسم ولا متحيز فهو اسم لمعنى الذات، فيه

(١) سورة الأحزاب: ٣٢.

(٢) سورة الحاقة: ٤٧.

سلب الكثرة عن ذاته، والواحد وصف لذاته فيه سلب النظير والشريك عنه، فافترقا.

وقال السهيلى: أحد أبلغ وأعم؛ ألا ترى أن «ما فى الدار أحد» أعم وأبلغ من «ما فيها واحد».

وقال بعضهم: وقد يقال إنه الواحد فى ذاته وصفاته وأفعاله، والأحد فى وحدانيته؛ إذ لا يقبل التغيير ولا التشبيه بحال.

(**عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا نَظَائِرُ**) جمع نظير وهو المساوى ولو فى بعض الوجوه. (**وَأَشْبَاهُ**) جمع شبيه وهو المساوى فى أغلب الوجوه، وأما المثيل: فهو المساوى فى جميع الوجوه. والمراد بالنظائر والأشباه: مطلق المناظرة والمشابهة فيشمل المماثل، فليس له تعالى مشابه، ولا مناظر، ولا مماثل، فى ذاته ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله؛ لوجوب مخالفته تعالى للممكنات ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً: ليس كمثله شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع البصير.

(**يا من تفرد**) أى توحد بذاته بدون صنع، واسم الفاعل منه منفرد بمعنى متوحد، وإطلاقه على الله من جهة الاسمية والوصفية متوقف على وروده على المختار؛ فإن ثبت وروده فذاك، وإن لم يثبت: فإن وعى القول بالاكتفاء بورود ما يشاركه فى مادته ومعناه أو بجواز إطلاق ما لا يوهم نقصًا مطلقًا فكذلك.

وأما ما قيل من أنه على سبيل التوصيف دون التسمية كما ذهب إليه الغزالى فخلاف المختار؛ لأن المختار أن صفاته تعالى توقيفية كأسمائه كما نص عليه اللقانى فى «جوهرة التوحيد» حيث قال:

واختير أن أسماءه توقيفيه كذا الصفات فاحفظ السمعيه

(**بِالقِدَمِ**) والمراد بالقِدَم فى حقه تعالى القِدَم الذاتى؛ وهو عدم افتتاح الوجود، وإن شئت قلت : هو عدم الأولية للوجود، وأما القِدَم فى حقنا

فالمراد به الزمانى؛ وهو طول الزمان، وضبط بسنة، حتى إذا قال: كل من كان من عبيدى قديمًا فهو حر، عُتِقَ من له سنة، وهذا مستحيل فى حقه تعالى، وكذلك القِدَم الإضافى كقدم الأب بالنسبة للابن. فتحصل من هذا أن القِدَم ثلاثة أقسام: ذاتى، وزمانى، وإضافى.

(وَالبَقَاءُ) والمراد به فى حقه تعالى عدم الآخرية للوجود، وإن شئت قلت: عدم اختتام الوجود، ودليل البقاء أنه لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القِدَم، وهو محال لثبوته، وما ثبت قِدَمه استحال عَدَمه.

(وَالأَزَلِيَّة) أتى بياء المصدرية للدلالة على أن الأزلى هو الذى لا افتتاح لوجوده ولا نهاية، فهو بمعنى القِدَم. قال فى «التوقيف»: الأزل: القِدَم، ليس له ابتداء، ويطلق مجازًا على من طال عمره. ومرَّ ضبطه. والأزل: استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب الماضى، كما أن الأبد استمراره كذلك فى المآل.

قال شيخنا: واعلم أن لهم فى القديم والأزلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن القديم هو الموجود الذى لا ابتداء لوجوده، والأزلى ما لا أول له عدميًا أو وجوديًا، فكل قديم أزلى ولا عكس.

الثانى: أن القديم هو القائم بنفسه، الذى لا أول لوجوده، والأزلى ما لا أول له عدميًا أو وجوديًا، قائمًا بنفسه أو بغيره، وهذا هو الذى يفهم من كلام السعد.

الثالث: أن كلاً منهما ما لا أول له عدميًا أو وجوديًا قائمًا بنفسه أولاً، وعلى هذا فهما مترادفان.

فعلى الأول: الصفات السلبية لا توصف بالقِدَم وتوصف بالأزلية، بخلاف الذات العلية والصفات الثبوتية فأنها توصف بالقِدَم والأزلية.

وعلى الثانى: الصفات مطلقًا لا توصف بالقِدَم وتوصف بالأزلية، بخلاف الذات العلية فإنها توصف بكل منهما.

وعلى الثالث: كل من الذات والصفات مطلقًا يوصف بالقِدَم والأزلية.. انتهى.

وقال فى «التوقيف» بعدما تقدم عنه: والأزلى ما ليس بمسبوق بالعَدَم، والموجود ثلاثة لا رابع لها: أزلى أبدى وهو الحق سبحانه وتعالى، ولا أزلى ولا أبدى وهو الدنيا، وأبدى غير أزلى وهو الآخرة، وعكسه محال؛ إذ ما ثبت قِدَمه استحال عَدَمه.. انتهى.

والقول بأن ما ثبت قِدَمه استحال عَدَمه قضية قد اتفق عليها العقلاء؛ كما فى «العكارى على الكبرى». وأورد عليه عدمنا فى الأزل فإنه قديم؛ بناء على القول بترادف القديم والأزلى، فلم جاز انقطاعه بوجودنا فيما لا يزال؟

أجيب: بأن هذه القاعدة إنما هى فى القديم الوجودى؛ إذ الدليل إنما قام فيه كما ذكره الإمام ابن ذكرى واستظهره العلامة الأمير.

(**يَا مَنْ لاَ يُرْجَى غَيْرُهُ**) فى قضاء الحاجات الدنيوية والأخروية (**وَلاَ يُعَوَّلُ**) أى لا يعتمد فى ذلك (**عَلَى سِوَاهُ**) غيره تعالى (**يَا مَنْ اسْتَنَدَ الأَنَامُ**) المخلوقات بأسرها (**إِلَى قُدْرَتِهِ القَيُومِيَّةِ**) أى المنسوبة للقيوم ـ اسم من أسمائه تعالى الحسنى ـ بمعنى عظيم القيام بنفسه بأمور خلقه نسبة الصفة لموصوفها (**وَأَرْشَدَ**) أى دل (**بِفَضْلِهِ مَنْ اسْتَرْشَدَهُ**) أى طلب إرشاده (**وَاسْتَهْدَاهُ**) أى طلب هدايته.

(**نَسْأَلُكَ بِأَنْوَارِكَ**) جمع نور، قال الله تعالى: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [1] (**القُدُسِيَّةِ**) المنسوبة للقدس بمعنى الطهارة والتنزه عما لا يليق (**الَّتِى أَزَاحَتْ**) بالزاى المعجمة والحاء المهملة، أى أزالت (**مِنْ ظُلُمَاتِ الشَّكِّ دُجَاهُ**) بضم الدال المهملة وفتح الجيم، جمع دُجْية وهى الظلمة، والضمير للشك (**وَنَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِشَرَفِ الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّةِ**) أى المنسوبة لمحمد ﷺ نسبة المسمى لاسمه.

(**وَمَنْ هُوَ**) ﷺ (**آخِرُ الأَنْبِيَاءِ**) عليهم الصلاة والسلام (**بِصُورَتِهِ**) أى جسمه

(١) سورة النور: ٣٥.

ومستخصاته (وَأَوَّلُهُمْ بِمَعْنَاهُ) أى حقيقته ونوره ـ وقد مر بيان ذلك فى أول الكتاب ـ ونتوسل إليك (بِآلِهِ) أصله: أول كجمل؛ بدليل تصغيره على أويل، وقيل: أصله: أهل؛ بدليل تصغيره بأهيل، وهو مردود. ولا يضاف آل إلى ما فيه شرف فلا يقال: آل الإسكاف.

(كَوَاكِبُ) جمع كوكب، وهو النجم كما فى «القاموس» وإضافته إلى (أَمْنِ) من إضافة السبب للمسبب (البَرِيَّةِ) بموحدة مفتوحة فراء مهملة مكسورة فتحتية مشددة، إلى المخلوقات (وَسَفِينَةَ السَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ) وإضافة السفينة للسلام من إضافة السبب للمسبب، والكلام من باب التشبيه البليغ؛ أى الذين هم كالكواكب فى الأمن بهم من الضلال، وكالسفينة فى السلامة بهم من المخاوف، أشار بذلك إلى ما رواه الحاكم على شرط الشيخين، وصححه: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتى أمان لأهل الأرض من الاختلاف، فإذا خالفهما قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس».

وما أخرجه الإمام أحمد فى «المناقب»، عن علىٍّ ـ كرم الله وجهه ـ: «النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهب النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتى أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض».

وما جاء من طرق عديدة يقوى بعضها بعضًا: «إنما مثل أهل بيتى فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا».

وفى رواية لمسلم: «ومن تخلف عنها غرق»، وفى رواية: «هلك».

قال بعضهم: يحتمل أن المراد بأهل البيت الذين هم علماؤهم لأنهم الذين يهتدى بهم كالنجوم. قال: ويحتمل ـ وهو الأظهر عندى ـ أن المراد بهم: سائر أهل بيته، فإن الله لما خلق الدنيا بأسرها من أجل النبى ﷺ جعل دوامها بدوامه ودوام أهل بيته؛ لأنهم يساوونه فى أشياء منها: فى السلام عليه وعليهم، وفى الصلاة عليه وعليهم فى التشهد، وفى الطهارة؛ قال الله

تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [1]، وفى تحريم الصدقة، وفى المحبة؛ قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [2]. وقال: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [3] ولأنه قال فى حقهم: «اللهم إنهم منى وأنا منهم»؛ ولأنهم بضعة منه بواسطة أن فاطمة أمهم بضعته فأقيموا مقامه فى الأمان.. انتهى ملخصًا مع زيادة. قال ابن حجر فى «الصواعق»: ووجه تشبيههم بالسفينة ـ فيما مر ـ أن من أحبهم وعظَّمهم شكرًا لنعمة مُشَرِّفهم ﷺ، وأخذًا بهدى علمائهم نجا من ظلمات المخالفات، ومن تخلف عن ذلك غرق فى بحر كفر النعم، وهلك فى مفاوز الطغيان، وقد مر ما يتعلق بهم من الأحاديث الواردة فى فضلهم وغير ذلك فى أول الكتاب.

(وَ) نتوسل إليك **(بِأَصْحَابِهِ أُولِى)** بضم الهمزة وكسر اللام، أى أصحاب **(الهِدَايَة)** أى الدلالة فى طريق الخير.

قال صاحب «الأنوار»: والهداية: دلالة بلطف، ولذلك تستعمل فى الخير. وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [4] وارد على التهكم، ومنه الهداية، وهوادى الوحش لمقدماتها، والفعل منه هدى. وهداية الله تعالى تتنوع أنواعًا لا يحصيها عد، لكنها تنحصر فى أجناس مترتبة:

الأول: إقامته القوى التى بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه؛ كالقوة العقلية، والحواس الباطنة، والمشاعر الظاهرة.

والثانى: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والفساد، وإليه أشار حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [5]، وقال: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [6].

(1) سورة الأحزاب: ٣٣.
(2) سورة آل عمران: ٣١.
(3) سورة الشورى: ٢٣.
(4) سورة الصافات: ٢٣.
(5) سورة البلد: ١٠.
(6) سورة فصلت: ١٣.

والثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب كما فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (١) وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٢).

والرابع: أن يكشف عن قلوبهم الستائر، ويريهم الأشياء كما هى بالوحى والإلهام، والمنامات الصادقة، وهذا قسم مختص بنيله الأنبياء والأولياء كما فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (٣)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٤).

فالمطلوب: إما زيادة ما منحوه من الهدى، أو الثبات عليه، أو حصول المراتب المرتبة عليه. ذكره الزرقانى فى «شرح المواهب» ثم قال: والخلاف فى أنها الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب وإن لم يصل ـ وهو مذهب أهل السنة ـ أو الموصلة ـ عند المعتزلة ـ مشهور.. انتهى.

فهى عند أهل السنة: الدلالة على طريق توصل إلى المقصود، وصل بالفعل أو لم يصل.

وعند المعتزلة: الدلالة المذكورة لكن بشرط أن يدل بالفعل. ونُقِضَ بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ (٥).. الآية، فإنهم لم يصلوا بالفعل، ومع ذلك سميت دلالتهم على طريق توصل هداية، وأورد بعضهم على الأوّل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (٦) فإنه لا يصح أن يراد منه الدلالة على طريق توصل إلى المقصود، وصل بالفعل أو لم يصل؛ لأنه ﷺ وجدت منه الدلالة على طريق توصل لكنه لم يصل المدلول بالفعل، وأنت خبير بأنه مدفوع من أصله؛ لأن مراد أهل السنة أن الهداية هى الدلالة على طريق توصل، ولهذه الدلالة فردان: الموصلة بالفعل، وغيرها. والمراد بها فى هذه

---

(١) سورة السجدة: ٢٤.
(٢) سورة الإسراء: ٩.
(٣) سورة الأنعام: ٩٠.
(٤) سورة العنكبوت: ٦٩.
(٥) سورة فصلت: ١٧.
(٦) سورة القصص: ٥٦.

الآية: الفرد الأول؛ لأنه هو الذى يصح نفيه، هذا وفى بعض التفاسير تفسير الهداية فى الآية المذكورة بخلق الاهتداء فليراجع.

ثم فى كلام المصنف الرمز لتشبيه الصحابة كالآل بالنجوم، وشاهده حديث: «سألت الرب عما يختلف فيه أصحابى» فقال: «يا محمد أصحابك عندى كالنجوم فى السماء بعضها أضوأ من بعض، فمن أخذ بشىء مما اختلفوا فيه فهو على هدى عندى».

وحديث: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وظاهر هذين الحديثين أن الصحابة كلهم مجتهدون. وهو ما جرى عليه ابن حجر فى «المنح» وعلله بتوفر شروط الاجتهاد فى جميعهم. قال: ولذلك لم يعرف أن واحدًا منهم قلَّد غيره فى مسئلة من المسائل، لكن رجَّح بعضهم أن فيهم المقلدين والمجتهدين. ثم إن بعضهم تكلم فى سند الحديث الثانى حتى قال الشهاب فى «شرح الشفا»: إنه روى من طرق كلها ضعيفة. بل قال ابن حزم: إنه موضوع. لكن قال العارف بالله تعالى الشيخ الشعرانى فى «الميزان»: إنه صحيح عند أهل الكشف، وإن كان فيه مقال.. انتهى

(وَ) أولى (**الأَفْضَلِيَّة**) ياؤه للمصدرية ـ أى كونهم أفضل من غيرهم على تفاوت فى ذلك بينهم، وقد قال العلماء: إن أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان. وتجب محبتهم من حيث الدين والقرب إلى الله ورسوله بحسب فضلهم، ومن حيث نحو قرابة وإحسان؛ لا يجب أن تكون كذلك كما اختاره بعض المتأخرين.

(**الَّذِينَ بَذَلُوا**) بالذال المعجمة، أى أعطوا (**أَنْفُسَهُم لله يَبْتَغُونَ**) أى يطلبون (**فَضَلاً**) أى إحسانًا (**مِنَ الله**) تعالى.

(وَ) نتوسل إليك (**بِحَمَلَة**) جمع حامل والمراد بهم العلماء العاملون (**شَرِيعَتِهِ**) أى أحكامه التى شرعها (**أُولِى**) أصحاب (**المَنَاقِبِ**) جمع منقبة أى

الصفات الجميلة الحميدة (والخُصُوصيَّة) ياؤه للمصدرية - أى كونهم مخصوصين بالمزايا والفضائل (الذينَ استَبْشَرُوا) أى سروا بالبشارة (بنِعْمَة) بكسر النون، وهى كل ملائم تحمد عاقبته، ومن ثم قيل: لا نعمة لله على كافر، وأما النَعْمَة - بالفتح -: فهى التنعم، ومنه قوله تعالى : ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [1] وبالضم : المسرة. والمراد بالنعمة: ثواب أعمالهم (وفَضْل) إحسان زيادة على ذلك (منَ الله) تعالى، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [2] والتنكير فيهما للتكثير والتعظيم (أَنْ تُوَفِّقَنَا) تنازعه كل من نسأل، ونتوسل. والتوفيق خلق قدرة الطاعة فى العبد، والمراد به السداد وموافقة الأعمال للصواب.

(فى) جميع (الأَقْوال) وجميع (الأَعْمَال) وفى بعض النسخ: الأفعال (لإِخْلاَص النيَّة) أى الصدق فيها، ويكون ذلك بالتبرى من الحول والقوة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [3]، وقال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[4].

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: معناه: لكن يناله النيات. وفى «الأذكار» للإمام النووى - رحمه الله تعالى -: وبلغنا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: إنما يحفظ الرجل على قدر نيته.

وقال غيره: إنما يعطى الناس على قدر نياتهم، وروينا عن السيد الجليل أبى على الفضيل بن عياض - رضى الله عنه - قال: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص إن يعافيك الله منهما. فالإخلاص أن يعرف الله حقًا بالوحدانية بغير شك وتشبيه.

---

(١) سورة الدخان: ٢٧.

(٢) سورة يونس: ٢٦.

(٣) سورة البينة: ٥.

(٤) سورة الحج: ٣٧.

وعن حذيفة المرعشى ـ رحمه الله ـ قال: الإخلاص أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن.

قال القشيرى ـ رحمه الله ـ: الإخلاص إفراد الحق سبحانه وتعالى فى الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شىء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى.

وقال غيره: درجات الإخلاص ثلاثة:

عُليا: وهو أن يعمل العبد لله وحده امتثالاً لأمره، وقيامًا بحق عبوديته.

ووسطى: وهو أن يعمل لثواب الآخرة.

ودُنيا: وهو أن يعمل للإكرام فى الدنيا والسلامة من آفاتها، وما عدا الثلاث من الرياء. وقيل غير ذلك.

قال بعضهم: ولا يحرق نبات الإخلاص فى النية شىء مثل أكل الحرام فإنه يعمى البصيرة، ويوهن الدين والبدن والعقل.

وقدَّم التوفيق للإخلاص على غيره مما ذكره اعتناء بشأنه؛ لأن النية للعمل كالروح للبدن، وإخلاصها سبب للوصول، والعمل بدونه بعيد عن القبول؛ ولذلك يقال: الطالبون كثير والواصلون قليل.

(وَ) أن **(تُنْجِحَ)** بضم المثناة فوق فنون ساكنة فجيم مكسورة فحاء مهملة، أى تقضى وتنجز **(لِكُلٍّ مِنَ الحَاضِرِينَ)** أى الذين حضروا لاستماع قراءة قصة المولد الشريف **(مَطْلَبُهُ)** بفتح الميم واللام، أى مطلوبه **(وَمُنَاهُ)** بضم الميم، أى ما تمناه ورجاه **(وَ)** أن **(تُخَلِّصَنَا)** بتشديد اللام أى تطلقنا **(مِنْ أَسْرِ)** أى قيد، **(الشَّهَوَاتِ)** جمع شهوة وهو ما يميل القلب إليه **(وَالأَدْوَاءِ)** بفتح الهمزة وسكون الدال، جمع داء أى الأمراض **(القَلْبِيَّةِ)** أى المتعلقة بالقلب كالكِبْر والحسد والحقد **(وَ)** أن **(تُحَقِّقَ لَنَا مِنَ الآمَالِ)** جمع أمل وهو الرجاء **(مَا بِكَ ظَنَنَّاهُ)** والظن هو التردد الراجح بين طرفى الاعتقاد الغير الجازم **(وَ)** أن

(تَكْفِينَا كُلُّ مُدْلَهِمَّةٍ) بضم الميم وسكون الدال المهملة وفتح اللام وكسر الهاء وشد الميم، أى ذاتٍ سوداء، شديدة السواد. هذا معناه فى الأصل والمراد به هنا المصيبة (وبَلِيَّةً) عطفه على ما قبله لبيان المراد من عطف العام على الخاص فيكون المراد بالمُدْلَهِمَّةِ: الداهية الثقيلة أى المصيبة العظيمة، وهو الأقرب كما قال بعضهم (وَ) أن (لاَ تَجْعَلَنَا مِمَنْ أَهْوَاهُ) أى جعله هاويًا من علو إلى أسفل (هَوَاهُ) أى ميل نفسه للشهوات، والمعنى: أسقطه فى المهاوى والمتالف، من هوَى يهوِى ـ بفتح الواو فى الماضى وكسرها فى المضارع ـ إذا سقط، وأما هوِى يهوَى ـ بكسرها فى الماضى وفتحها فى المضارع ـ فمعناه أحب، وليس مراداً هنا.

(وَ) أن (تُدْنِى) بضم المثناة فوق وسكون الدال المهملة وكسر النون ـ أى تقرب (لَنَا مِنْ حُسْنِ اليَقِينِ) هو التيقن وإزاحة الشك، والاستغراق فى مشاهدة الغيب، وذلك أن اليقين على ثلاثة مراتب:

عين اليقين: وهو العلم الحاصل بالمشاهدة.

وحق اليقين: وهو فناء صفات العبد فى صفات الرب وبقاؤه به علمًا وشهوداً وحالاً، لا علمًا فقط، فالذى يفنى إنما هو صفات العبد لا ذاته على التحقيق خلافًا لمن غلط فيه.

وعلم اليقين: وهو العلم الحاصل من الدليل.

وأعلى هذه المراتب: المرتبة الأولى كما قرره البيضاوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [1] قال: أى الرؤية التى هى نفس اليقين، فإن علم المشاهدة أعلا مراتب اليقين. . انتهى.

وما ذهب إليه بعضهم من أن المرتبة الثانية هى الأعلى؛ فبالنسبة لقوم مخصوصين، ولعلها المرادة هنا كما أشرنا إليها، وإن كانت المرتبة الأولى أعم.

---

(١) سورة التكاثر: ٧.

(قُطُوفًا) بضم القاف، جمع «قطف» ـ بكسرها ـ أى عنقودًا (دَانِيَة) أى قريبة متدلية (جَنِيّه) بفتح الجيم وكسر النون وشد التحتية، فعيلة بمعنى مفعولة أى مجنية، وهى ما يجنى من الشجر ما دام غضًا طريًا وهو الثمر، هذا معناه فى الأصل وليس مرادًا؛ لأنه لا ثمرة فى اليقين حقيقة وإنما ثمرته فوائده المكتسبة المشبهة بثمرة الشجر فى النفع، ففى الكلام استعارة بالكناية حيث شبه حسن اليقين بشجرة كثيرة الثمرة، ورمز له بشىء من لوازمه وهو القطوف، وكل من «دانية» و «جنية» ترشيح أو فيه تشبيه بليغ.

(وَ) أن (تَمْحُوَ عَنَّا) أى تزيل عنا من صحف الملائكة (كُلَّ ذَنْب) أى جرم (جَنَيْنَاهُ) أى اكتسبناه، وهذا هو الغفران على أحد القولين فى معنى الغفران؛ وذلك أن غفر الذنب هو العفو عنه أى عدم المؤاخذة به؛ إما بستره عن أعين الملائكة مع بقائه فى الصحيفة، وإما بمحوه من صحف الملائكة. ذكره شيخنا فى حواشيه على «جوهرة التوحيد» قال: وحكى بعضهم أن الأول هو الصحيح عند المحققين. . انتهى.

وتفسيره للغفران بالعفو يفيد أن العفو كالغفران فيما ذكر. وذكر بعضهم أن العفو هو ترك عقوبة الجرم والستر عليه بعدم المؤاخذة، فهو أعم.

(وَ) أن (تُعمَّ جَمْعَنَا هَذَا) الإشارة فيه للناس المجتمعين لقصة المولد الشريف (مِنْ خَزَائِنِ مَنحَكَ) بكسر الميم وفتح النون، جمع مِنحة بمعنى عطية (السَّنِيَّة) أى المثيرة (بِرَحْمَة) أى نعمة؛ إذ الرحمة رقة فى القلب وعطف وميل روحانى غايته الإنعام، وهذا المعنى مستحيلٌ عليه تعالى باعتبار مبدأه وهو الرقة والميل، جائزٌ باعتبار غايته وهى الإنعام، فيتعين أن يراد من الرحمة فى حقه تعالى معناها باعتبار غايتها وهى الإنعام، وحينئذ يكون فى حقه تعالى مجازًا كما مر (وَمَغْفِرَة) أى محو الذنوب أو سترها؛ أتى به زيادة للاعتناء بشأن الغفران، وإلا فقد علم مما مر.

(وَ) أن (تُدِيمَ) لكل منا (عَمَّنْ سِوَاكَ) أى غيرك (غِنَاهُ) بكسر الغين

المعجمة مكسورا، أى عدم احتياجه.

(اللَّهُمَّ أَمِّنْ) بفتح الهمزة المقصورة وتشديد الميم المكسورة أو الهمزة الممدودة وتخفيف الميم ضد الخوف (الرَّوْعَات) بفتح الراء المشددة والعين المهملة بينهما واو ساكنة، جمع روعة وهى الفزعة والخوف، أى الفزعات المخوفات (وَأَصْلِحِ الرُّعَاة) بضم الراء المشددة جمع راع كقاض وقضاة، وهم ولاة أمورنا (وَ) أصلح (الرَعِيَّة) بفتح الراء وكسر العين وتحتية مشددة، من يتولى الراعى أمرهم (وَأَعْظِمِ الأَجْرَ) أى الثواب (لِمَنْ جَعَلَ هَذَا الخَيْرَ) أى أكرم المجتمعين لاستماع قصة المولد النبوى بوليمة وغيرها؛ كقراءة القرآن، والذكر، بل ولو اقتصر على قراءة المولد فقط لما فيه من إلقاء أحواله الشريفة، وشمائله الجليلة، ومعجزاته المنيفة إلى أسماعهم، وفى ذلك خير جزيل (فِىْ هَذَا اليَوْمِ) أو هذه الليلة إن كان ليلاً (وَأَجْرَاهُ) أى جعله جاريًا ومستمرًا فى كل عام.

وتقدم فى مقدمة الكتاب فى أصل عمل المولد عن الإمام ابن الجوزى: أن مما جرب أن من فعل ذلك كان له أمانًا من ذلك العام.

(اللَّهُمَّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ) عنى بذلك بلده المدينة الشريفة، وهو اسم من أسمائها كما تقدم وأتى به لإطلاقه على غيرها (وَ) اجعل (سَائِر) باقى (بِلاَد) جمع بلد (المُسْلِمِينَ آمِنَةً) اسم فاعل من الأمن ضد الخوف (رَخِيَّةً) بفتح الراء المهملة وكسر الخاء المعجمة من الرخاء، وهو الخِصْب بكسر الخاء المعجمة ضد الجَدْب بسكون الدال المهملة.

(وَأَسْقِنَا) بقطع الهمزة من أسقى قال تعالى: ﴿لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (١) ويوصلها من سقى، قال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢) أى أمطرنا (غَيْثًا) أى مطرًا، ولم يعبر به لأن القرآن العزيز لم يعبر به إلا فى مواضع العذاب نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ (٣)، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة الجن: ١٦.

(٢) سورة الإنسان: ٢١.

(٣) سورة الأعراف: ٨٤.

﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [1] بخلاف الغيث فإنه يعبر به فى مواضع الرحمة نحو ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [2] ولا يكون ذلك إلا لنكتة، ولا يخفاك فصاحة القرآن العظيم الشأن وبلاغته؛ فالمصنف ـ رحمه الله تعالى ـ راعى ما قصده القرآن فذكر الغيث دون المطر.

قال الجاحظ فى «البيان والتبيين» ما نصه: وقد يستخف الناس ألفاظًا وغيرها أحق بذلك منها: ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث.. انتهى.

وهذا كما نراه صريح فيما قلناه.

(يَعُمُّ انْسِيَابِ) بكسر الهمزة وسكون النون وكسر السين المهملة ومثناة تحتية آخره باء موحدة: السيلان والجريان (سَيْبِهِ) بفتح السين المهملة وسكون المثناة التحتية آخره باء موحدة، يأتى لمعان منها: أن يكون مصدر «ساب» بمعنى جرى وهو المناسب هنا، وحينئذ تكون إضافة الانسياب إلى السيب للبيان، وهذا أولى مما جرى عليه بعضهم من أنه فى الأصل: العطاء؛ استعاره لماء المطر؛ إذ لا يصار إلى المجاز إلا عند عدم إمكان الحقيقة.

(السَّبْسَبِ) بسينين مهملتين بينهما موحدة فموحدة آخره: المفازة أو الأرض المستوية البعيدة وهو الأنسب لقوله (وَ) يعم (رُبَاهُ) بضم الراء المهملة وتخفيف الموحدة، جمع رُبوة مثلث الراء، والضم أشهر، الأرض المرتفعة (وَاغْفِرْ لِنَاسِجِ) أى حائك (هَذِهِ الْبُرُودِ) جمع برد: ثوب معروف، والمراد منها جمل الكلام، ففى كلامه استعارة تصريحية حيث شبه جمل الكلام بالبرود، ورشحها بالنسيج، والمراد منه الجمع؛ أى لجامع هذه الجمل (الْمُحَبَّرَةِ) بضم

(1) سورة هود: ٨٢.

(2) سورة الشورى: ٢٨.

الميم وفتح الحاء المهملة وشد الباء الموحدة مفتوحة، أى المزينة تزيينًا مبالغًا فيه، أو الشبيهة بالحِبَر بوزن عنب جمع حِبَرة؛ كعنبة: بُردٌ يمانى غاية فى الحسن والملاحة.

(**المُوْلِدِيَّة**) أى المنسوبة للمولد نسبة الدال للمدلول سيدنا (**جَعْفَرُ**) بن حسن ابن المظلوم عبد الكريم المدفون بجدة، ابن الإمام المحقق صاحب التصانيف العظيمة مجدد القرن الحادى عشر السيد محمد؛ وهو مترجم فى: «النتائج» للحموى، و«النفحات» للذهبى، «والشذور» للبيتى، و«الرحلة» للعياشى، وغيرها، ابن القطب العارف السيد رسول، وهو مترجم فى: «النتائج» و «الفصول» لولده السيد محمد المتقدم ذكره، ابن عبد السيد بن عبد الرسول بن قلندر بن عبد السيد بن عيسى بن الحسين بن بايزيد ابن خِريّت المعارف الشيخ المرشد مربى السالكين من الثقلين عبد الكريم ابن القطب الأعظم الغوث الفرد الجامع عيسى ـ وهو الذى قضت له سوابق العناية بالمجد والإشراق فعمر قرية برزنج فى سواد العراق بإشارة من النبى ﷺ كما يأتى ـ ابن على بن يوسف ابن منصور بن عبد العزيز بن عبد الله بن إسماعيل المحدث ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين السجاد ابن الإمام الشهيد الحسين السبط ابن الإمام أمير المؤمنين على المرتضى وابن فاطمة الزهراء بنت النبى ﷺ.

فبينه وبين النبى ﷺ ثلاثة وعشرون جدًا.

ولد رضى الله عنه يوم الخميس أوائل ذى الحجة الحرام سنة ست وعشرين ومائة وألف بالمدينة المنورة، فنشأ بها فى حجر والديه، وقرأ القرآن على الشيخ إسماعيل اليمنى، ثم جوّده على الشيخ يوسف الصعيدى، والشيخ شمس الدين المصرى، وشرع فى تحصيل العلم، وقرأ على جماعة من العلماء المحققين منهم: السيد عبد الكريم حيدر البرزنجى، والشيخ يوسف الكردى، والسيد عطية الله الهندى.

ثم توجه إلى مكة وجاور بها خمس سنين، وقرأ فيها على جماعة منهم: الشيخ عطاء الله بن أحمد الأزهرى، والشيخ عبد الوهاب الطنطاوى الأحمدى، والشيخ أحمد الأشبولى، وغيرهم، وأجاز له جماعة منهم: الشيخ محمد الطيب الفاسى، عن شيخه الشيخ إبراهيم الدرعى، عن فاطمة بنت شكر الله العثمانية والدة جده السيد محمد بن رسول، عن الشمس الرملى، وغيرهم، ومنهم: السيد محمد الطبرى، عن السيد عبد الرحمن بلفقيه الباعلوى، عن الجد المرحوم السيد محمد بن رسول، وغيرهم. ومنهم: الشيخ محمد بن حسن العجيمى، عن والده. ومنهم: السيد مصطفى البكرى، عن أبى المواهب الحنبلى، والنابلسى. ومنهم: شيخه الشيخ عبد الله الشبراوى المصرى، عن الشيخ محمد الزرقانى، شارح «المواهب» وغيره، والشيخ عطاء الله الأزهرى المتقدم ذكره، عن الشناوى، عن الشرنبلالى، عن المزاحى أيضًا، وغيرهم ممن هو مذكور فى مناقبه «الروض الأعطر».

وأخذ عن مجموعهم الصرف والنحو والمنطق والمعانى والبيان والآداب والفقه وأصوله والفرائض والحساب والأصلين والحديث وأصوله والتفسير والحكمة والهندسة والعروض والكلام واللغة والسير والقراءات والسلوك والتصوف وكتب الأحكام والرجال والمصطلح وغير ذلك.

وأخذ عنه جماعة، وسلك طريق القوم، وهجر الراحة والنوم نَيِّفًا وعشرين سنة حتى برع فى العلوم النقلية والعقلية، وأخذ الطريقة عن السيد عطية الله الهندى، والسيد مصطفى البكرى المتقدمين، وصنف التصانيف العجيبة فى كثير من العلوم المفيدة منها: هذا المولد الحافل الذى لم يسبق بمثله وسماه: «عقد الجوهر فى مولد النبى الأزهر ﷺ».

وتولى منصب الإفتاء على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى - رضى الله عنه - بالمدينة المنوّرة، ومكث فيه إلى أن مات، ومُنِحَ جاهًا واسعًا، ونفوذ كلمة عند الملوك والأمراء بالحرمين، ومصر، والشام، والروم، وغيرها.

وأخذ عنه جماعة من وزراء آل عثمان وأرباب دولتهم، وطار صيته طيران القطِا فى أعماق الآفاق حتى كاد لا يجهله أحد، وانتشرت تصانيفه، وكتبها عنه الأفاضل وأقروا بأنه ليس له فى عصره مماثل.

وكان ذا خلق سنى، متواضعًا بشوشًا، صافى الباطن، عفوًا صفوحًا لا تجد أسمح منه فى الحقوق، ولا أغفر منه للزلات عند استرضائه، مع وفور حِدَّته المُعْترية خيار الأمة، سريع الاستحالة إلى الصفاء، كثير الأريحية، ملاذ أهل البيت النبوى وعمادهم.

يُعد من مشاهير الأشراف الموسويين؛ بل إذا ذكر مشاهيرهم فهو العميد لكثرتهم وعديدهم، زاهدًا، ورعًا، متمسكًا بالكتاب والسنة، كثير الذكر، دائم التفكر، صينًا، مثابرا على فعل الخير بالنفس والمال، كثير البر والصدقة يصدق عليه اسم الجواد.

وكان ذا كرامات ظاهرة وأحوال باهرة منها: أنه دُعى بغتة من مصلاه يوم الجمعة إلى مباشرة المنبر الشريف، وكانت سنة مجدبة فاستسقى فأمطرت السماء مطرًا عظيمًا، ونزل الماء كأفواه القِرَب حتى ترك المدينة قصعة ماء، وسالت الأودية، وأخصبت الأرض بعد جدبها، وامتدحه العلماء بأبيات منها قول بعض الفضلاء:

سقى الفاروقُ بالعباسِ قِدَمَا ونحـنُ بجعفرٍ غيثًا سُقِينَا

فـذاك وسيلةٌ لهم، وهـذا وسيلتُنا إمـام العارفينَا

ومنها: أنه أخبر بوفاته فى يوم كذا وقت كذا، فلما قرب يومه نزل يقرأ درسه بعد صلاة الغداة، فقرأ ثم بكى، وقرأ ثم بكى، إلى أن ختم الدرس، ثم توجه إلى زيارة النبى ﷺ فسلم عليه وبكى بكاءً شديدًا، ثم جاء إلى داره، ثم خرج وتوجه إلى زيارة بعض الأحباء فودّعهم، ثم إلى ذى الأرحام فودّعهم، ثم رحل قبيل الظهر إلى داره والتحف.

أخبر السيد كمال الحلبى فقال: دخل عليه السيد الشيخ أبو الحسن الهندى

ومعه سؤالان وردا من أرض الهند، قال: ففتحهما وأجاب عليهما بيده، وكتب فى إمضائهما: وكتبه المنتقل إلى ربه جعفر البرزنجى، وهذا آخر جواب كتبته فى الدنيا. ثم ناولنيهما وقال: اعطهما للشيخ، ففتحتهما فرأيت ما كتبه فقلت: يا مولاى لا تتفاءل على نفسك. فقال لى: اليوم أى يوم من الأيام؟ فقلت: يوم الأحد. فقال: يوم الأحد، يوم الإثنين، يوم الثلاثاء بعد العصر إنى مفارقكم وسائر إلى الله تعالى، فكان الأمر كما قال رحمه الله تعالى، وإلى غير ذلك من الكرامات الظاهرة.

توفى يوم الثلاثاء بعد العصر لأربعة خلت من شهر شعبان سنة ألف ومائة وسبع وسبعين بتقديم السين فيهما، ودُفِن بالبقيع الشريف قرب أجداده أهل البيت النبوىّ، وعند أرجل جداته بنات النبى ﷺ.

ورؤى بعد موته بثلاث عشرة ليلة فقيل له: فى ماذا تدور؟ فقال:

* فى جنة الفردوس يعلو منزلى *

فانتبه الرائى فإذا هو شطر بيت، فحسبه فإذا هو تاريخ وفاته.

ورثاه جمع من العلماء منهم: الفقيه البارع الشيخ عبد القادر، كتب أبياتًا وكمَّلها بهذا التاريخ.

(مَنْ) أى الذى (إِلَى بَرْزَنْجُ نِسْبَتُهُ وَمُنْتَمَاهُ) هما بمعنى، يقال: انتمى إلى فلان أى انتسب إليه كما مر.

و «برزنج» قرية عمرها القطبان الأعظمان الأخوان: موسى، وعيسى - رضى الله عنهما - بشهرزور من سواد العراق، وذلك لما وردا فى أواخر دولة بنى العباس فى سياحتهما إلى شهرزور ناما تحت شجرة، ورأى السيد عيسى النبى ﷺ يأمره بالإقامة هناك، وقال له: إن قبرك، وقبر أخيك فى هذا المحل، وابنوا المسجد فى هذا المكان، وأشار إليه، وخط دائرة بعصاه وقال: احفروا من هنا - وأشار إليه كذلك - فإنه يخرج منه الماء، ومسح ﷺ بيده الشريفة على ناصيته، فلما انتبه أخبر أخاه الأكبر موسى بذلك، فإذا النور

يسطع من موضع يده الشريفة ﷺ، وكان ـ رضى الله عنه ـ يرخى عمامته على ناصيته دائمًا.

ثم اجتمع إليهما خلق من أهل تلك الناحية وشرعوا أولاً فى بناء المسجد فى ذلك الموضع الذى أشار إليه النبى ﷺ، فقصر أحد جذوعه، فأخذ كل من السيدين بطرف من ذلك الجذع وقالا: بسم الله، فامتد الجذع وطال بحيث زاد من كل طرف ذراعًا، وفى ذلك يقول السيد محمد بن رسول البرزنجى ـ نفعنا الله به ـ إظهاراً للنعمة:

جِذْعَان فخرى يشهدان بمجدى ... جِذْعٌ هنا قَدْ كان حنَّ لجَدِّى

ثانٍ ببرزنج بمسجدها الذى ... موسى وعيسى أسَّسَاهُ بِجَدٍّ

جـدِّى وعمِّى امتـدَّ فى أيديهما ... أَعْظِمْ لخـارقِ جِـذْعنا الممتـدِّ

وقوله: جذع هنا قد كان. . . إلخ يعنى به: الجذع الذى حنَّ للنبى ﷺ لما صنع له المنبر وتركه بعد أن كان يستند عليه لما يخطب.

قال فى «الفصول»: وهذا المسجد باق إلى يومنا هذا معمور.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وفى «الشقائق الأترجية فى أخبار الأشراف البرزنجية»: أخبرنى السيد حسن بن السيد سليمان البرزنجى أنه وضع على طرفيه حديد حفظًا له؛ لأنه كاد يبلى، وأن فى ذلك المسجد بِرْكَة ماء، وكل من نام فيه ليلاً يُلْقَى فى تلك البِرْكَة فلذلك لا ينام فيه أحد. . انتهى.

و« بيت البرزنجين» بيت علم وشرف وولاية، عليهم مدار عمارة شهرزور، يعتقدهم أهل تلك الجهات، ويأتون إليهم بالنذور من سائر تلك الآفاق، ويأتون بالمرضى والمجانين والمكلوبين، فما هو إلا أن يزوروا قبور الأموات منهم، ويأكلوا من طعامهم، ويشربوا من شرابهم، فيشفون بإذن الله تعالى، وهذا الأمر لا يجهله أحد من أهل تلك الناحية، ولابد من واحد منهم على السجادة ببرزنج يطعم الوافدين إليها، ولله در القائل حيث يقول:

وأهل برزنج كرامات لهم ... بالحصر والإحصاء لا تحتد

كمدّ جذع وكإبراء الذى ... وكم وكم وكم وكم كم أسرد

من زارهم فى قبرهم فقد شفى ... من شر ما يخافه لا يجحد

ولله در الآخر حيث قال فى أثناء كلام له:

هم أهلُ بيتٍ طيبٍ قد طهروا ... من كلٍّ رجسٍ جلَّ مظهر مجده

يا أهل برزنج لأنتم فى الورى ... شمسٌ وبدرٌ مع كواكب سَعدِه

فعليكم شمس وزين بدره ... والكلُّ منكم ثابتٌ فى رشدِه

فالله يبقيهم لنا ويديمهم ... حِرْزًا لمن أدنى بخالص ودِّه

ولله در الآخر حيث قال:

فما منهم إلا سرىٌّ وماجدُ ... يدل عليه وصفهُ ومناقبهْ

نجومُ سماءٍ كلَّما غَابَ كوكبٌ ... بدا كوكبٌ تَهْوى إليه كواكبهْ

أمدنا الله بأمدادهم، ونفعنا بأسرارهم **(وَحَقِّقَ)** اللهم **(لَهُ الفَوزُ)** الظفر بالمقصود، وهو القرب إلى الله تعالى كما يفيده قوله: **(بِقُرْبِكَ)** أى الوصول إليك **(وَ)** حقق اللهم له **(الرَّجَاءَ)** ما يترجاه **(وَ)** حقق اللهم له **(الأُمْنِيَّةَ)** بضم الهمزة ما يتمناه **(وَاجْعَلْ)** اللهم **(مَعَ المُقَرَّبِينَ)** أى الواصلين إلى مقام القرب منه تعالى **(مَقِيلَهُ)** بفتح الميم مصدر بمعنى القيلولة، وهى النوم فى وسط النهار.

وفى «النهاية»: إنها الاستراحة فيه وإن لم يكن معها نوم، والمراد: مطلق الإقامة، فقوله: **(وَسُكْنَاهُ)** بضم السين مفسر له **(وَاسْتُرْ لَهُ عَيْبَهُ)** الخلل وما يشين **(وَ)** واستر له **(عَجْزَهُ)** أى عدم انبساط معاركه فى العلوم حتى يقدر على طى التعبير بالعبارات البليغة، أو عجزه عن أداء ما ينبغى فى وصفه ﷺ، وهذا الثانى كما قال بعضهم: بعيد؛ لأن ذلك ليس فى طاقته؛ إذ ترقيه ﷺ لا نهاية له ولا مطمع فى الاطلاع عليه، وبفرضه لا تحدّه العبارة **(وَحَصْرِهِ)** بمهملات أى عجزه عن الكلام **(وَعِيِّهِ)** بكسر العين المهملة وشد التحتية مرادف لما قبله. قال فى «القاموس»: عيى فى المنطق؛ كرضى، عِيا

بالكسر: حصر، وذكر فى باب الراء أن الحصر هو العى بالمنطق. فتفرقة بعضهم بينهما بأن الحصر: العجز عن الكلام البليغ، والعى: العجز عن الكلام مطلقا مما لا ينبغى فاحذره.

(وَكَاتبِهَا وقَارِئِهَا) الضمير فيهما للبرود **(وَمَنْ أَصَاخَ)** بفتح الهمزة والصاد المهملة والخاء المعجمة، أى أمال **(إِلَيْه)** أى إلى القارئ **(سَمْعَهُ وأَصْغَاهُ)** بفتح الهمزة وسكون الصاد المهملة فغين معجمة، بمعنى أصاخ فعطفه عليه للتفسير **(وَصَلِّ وَسَلِّم وبَارِكْ عَلَى أَوَّل)** تقدم تصريفه **(قَابِلٍ)** اسم فاعل قبل كعلم، بمعنى استعدّ، أى أول مستعد **(للتَّجَلِّى)** بالتاء والجيم وتشديد اللام؛ أى النظر والاطلاع **(مِنَ الحَقِيقَةَ الكُلِّيَّه)** الحقيقة الكلية هى: التى انشئت منها نشأتا الخالقية والمخلوقية، فتارة تطلق ويراد بها الحق تعالى، وتارة تطلق ويراد بها أصل المخلوقات، وهى الجوهرة الكلية التى هى النور الذى خلق منه نور محمد ﷺ، كما قال: «أول ما خلق الله نور نبيك من نوره» الحديث، فهى الحقيقة الكلية التى لا تقبل التجزىء.

ولا ينافى ذلك خلق الموجودات منه؛ لأنه كنور مصباح أوقدت منه شموع عديدة، وإن شئت قلت: الحقيقة المحمدية، فأصل الموجودات: النور الذى خلق منه محمد ﷺ، وأصل ذلك النور الحق تعالى، فهى قديمة باعتبار الأصل، وما تفرع منها حادثة بمعنى أن ما وجد فهو بوسائط الحق تعالى، وليست موجودة ـ أى بوصف القديم ـ فيكون الحق قد أوجدنا من موجود قديم فيثبت لنا القدم فمعنى قوله: خلقه من نوره؛ أى بواسطته. وانظر كلام الشيخ ابن العربى ـ قَدَّس سِرَّه ـ فى الباب السادس من «الفتوحات» يظهر لك تحقيق ما قلناه.

وحيث كان الإنسان أشرف المخلوقات وأصلها خصه بعضهم بالذكر هنا، فقال: المراد بالحقيقة الكلية النوع الإنسانى؛ أى فيدخل غيره من باب أولى، ومع ذلك لا يعلم أحد حقيقة تلك الحقيقة غير الله سبحانه وتعالى، فهى من

مواقف العقول. . والله أعلم.

فإن كان المراد بها الحق فـ (مَنْ) فى قوله: (مِنَ الحَقِيقَةَ الكُلِّيَّة) ابتدائية، وإن كان المراد بها الحقيقة المحمدية فهى بيانية، وإن كان المراد بها النوع الإنسانى فهى تبعيضية.

(وَعَلَى آله وأَصْحَابه ومَنْ نَصرَهُ ووَالاَهُ) اتخذه حبيبًا ووليًا، وقدوة وإمامًا (ما شُنِّفَتْ) بضم الشين المعجمة وشد النون المكسورة ففاء مفتوحة، أى زينت (الآذَانُ) بالمدّ جمع أُذُن، وهى الجارحة التى أودع الله فيها قوة السمع (مَنْ) ذكر (وَصْفه الدُّرِّىّ) بضم الدال المهملة وتشديد الراء؛ أى المنسوب للدُّر، من نسبة المشبه للمشبه به (بِأَقْرَاط) بفتح الهمزة جمع قُرْط بضم القاف وكسرها وسكون الراء فطاء مهملة: ما علق فى أسفل الأذن (جَوْهَرِيَّة) أى المنسوبة للجوهر؛ نسبة الجزئى لكليه، ففيه تشبيه بليغ مرشح؛حيث شُبه الأوصّاف بالأقراط، ورشحها بالتشنيف.

(وَ) ما (تَحلَّتْ) بفتحات مهملة الحاء مشددة اللام:أى تزينت (صُدُورُ المَحَافِلِ) بالحاء المهملة وكسر الفاء جمع مَحْفِل بكسر الفاء: موضع الاجتماع (المُنِيفَة) بضم الميم وكسر النون وسكون التحتية ففاء؛ أى المرتفعة العالية أو الشريفة (بعُقُود) بضم العين المهملة جمع عِقد بكسرها، وهو مجمع الخيط والخرز (حُلاَهُ) بكسر الحاء المهملة وضمها وتخفيف اللام؛ أى وصفه وحسنه وجماله ﷺ. وفى كلامه تشبيه المحافل بإنسان ذى صدر على سبيل المكنية، والصدور تخييل، والعقود ترشيح.

وصلى اللهم على سيدنا محمد الفاتح الخاتم.

* * *

وهذا منتهى ما انتهينا إليه من دخول خدور الأفكار لكشف جلاليب العرائس النفائس الأبكار، ومطمح نظر الفكر للغوص فى بحار المعانى؛ ليلتقط منها فرائد درر المبانى.

وقد جاء بحمد الله شرحًا تقر به أعين الناظرين، ويشفى به صدور المصدورين، ينزل من القلوب منزلة الجنان، ومن العيون منزلة الإنسان، كيف وقد بذلت الجهد فى توشيحه وترشيحه، وصرفت الوسع فى تهذيبه وتنقيحه حتى انطوى على كنوز الأسرار النبوية، فتحلت بجواهرها عروسه، وأشرقت فيه أنوار المحمدية فأضاءت فى الخافقين شموسه، مع أنى أبدى الاعتذار لذوى الفضل والاقتدار، وأرجو منه إن رأى خللاً أو عاين زللاً أن يُصلحه بعد التأمل بإحسان، ولا يستغربنَّ ذلك من الإنسان خصوصًا وقد قيل: الصارم قد ينبو، والنار قد تخبو، والجواد قد يكبو، والإنسان محل النسيان:

وما سمى الإنسانُ إلا لنسيه ولا القلبُ إلا أنه يتقلَّبُ

ولا سيما مثلى بالعجز معلوم، وعن الخطأ غير معصوم، والمُصنِّف عثور، والناقد بصير ومأجور.

وأتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن ينفع به ـ كأصله ـ الخاص والعام، ويقبله بفضله كما أنعم بالإتمام، ويغفر لى ولمشايخى ولوالدى وللمسلمين ويجعلنا من جملة أوليائه المقربين، ويديم لنا رضاه إلى أن نفوز بشهوده فى أعلا عليين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم صل وسلم وبارك على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وأصحابه وتابعيه وأحزابه أجمعين، خصوصًا الخلفاء الراشدين: أبا بكر الصديق، وسيدنا عمر بن الخطاب فاروق الدين، وسيدنا عثمان ذى النورين، وسيدنا على أبى الحسنين.

اللهم أحشرنا فى زمرته، واجعلنا من خدام سنته، وأعنا على شكرك وحسن عبادتك وذكرك، والحمد لله على التمام، والشكر له على الختام.

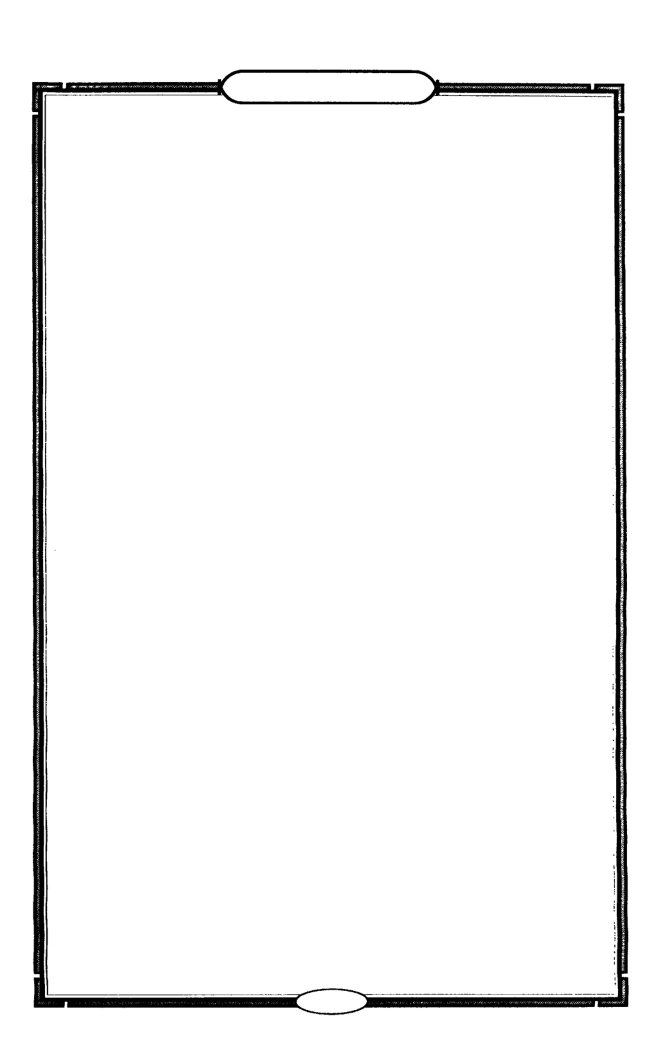
قال جامعه، أقل الخليقة، ومن ليس بشيء فى الحقيقة؛ جعفر بن إسماعيل ابن زين العابدين بن محمد الشريف الحسينى البرزنجى ثم المدنى خادم الإفتاء على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى - رضى الله عنه - بطيبة الطيبة: وافق الفراغ من تسويده يوم الجمعة المبارك لخمس عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ألف ومائتين وتسع وسبعين - بتقديم التاء فى الأولى، والسين فى الثانية - فى الرَوْضَة المعطَّرة؛ التى هى مطلع شموس التوفيق والعناية، ومنبع أنوار المعارف والهداية، وقد قيل صدقًا: من قام بها لا يشقى، ولله در القائل:

إذا قُمْتَ فيما بين قبرٍ ومنبرٍ ... بطيبةَ فاعرف أين منزلك الأرقى
لقد قمت فى دار النَّعيم بروضةٍ ... وَمَنْ قامَ فى دارِ النَّعيمِ فلا يَشْقى

أدام الله لنا الوقوف ببابه، والوقوع على أعتابه، حتى نلقاه بقلب سليم، إنه هو السميع العليم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. . آمين.

* * *

عقد الجوهر
في
مولد النبى الأزهر
صلى الله عليه وسلم



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَبْتَدِئُ الإِمْلاءِ بِاسْمِ الذَّاتِ الْعَلِيَّهْ، مُسْتَدِرًا فَيْضَ الْبَرَكَاتِ عَلَى مَا أَنَالَهُ وَأَوْلاهْ، وَأُثَنِّى بِحَمْدٍ مَوَارِدُهُ سَائِغَةٌ هَنِيَّهْ، مُمْتَطِيًا مِنَ الشُّكْرِ الْجَمِيلِ مَطَايَاهْ، وَأُصَلِّى وَأُسَلِّمْ عَلَى النُّورِ الْمَوْصُوفِ بِالتَّقَدُّمِ وَالأَوَّلِيَّهْ، الْمُنْتَقِلِ فِى الْغُرَرِ الْكَرِيمَةِ وَالْجِبَاهْ، وَأَسْتَمْنِحُ اللهَ تَعَالَى رِضْوَانًا يَخُصُّ الْعِتْرَةَ الطَّاهِرَةَ النَّبَوِيَّهْ، وَيَعُمُّ الصَّحَابَةَ وَالأَتْبَاعَ وَمَنْ وَالاَهْ، وَأَسْتَجْدِيهِ هِدَايَةً لِسُلُوكِ السُّبُلِ الْوَاضِحَةِ الْجَلِيَّهْ، وَحِفْظًا مِنَ الْغِوَايَةِ فِى خِطَطِ الْخَطَإِ وَخُطَاهْ، وَأَنْشُرُ مِنْ قِصَّةِ الْمَوْلِدِ بِحِلاَهْ، وَأَسْتَعِينُ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ الْقَوِيَّهْ، فَإِنَّهُ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

* * *

فَأَقُولُ: هُوَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - وَاسْمُهُ شَيْبَةُ الْحَمْدِ - ابْنِ هَاشِمٍ - وَاسْمُهُ عَمْرٌو - ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ - وَاسْمُهُ الْمُغِيرَةُ - ابْنِ قُصَىٍّ - وَاسْمُهُ مُجَمِّعٌ؛ سُمِّىَ بِقُصَىٍّ لِتَقَاصِيهِ فِى بِلاَدِ قُضَاعَةَ الْقَصِيَّهْ، إِلَى أَنْ أَعَادَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْحَرَمِ الْمُحْتَرَمِ، فَحَمَى حِمَاهْ - ابْنِ كِلاَبٍ - وَاسْمُهُ حَكِيمُ - ابْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَىِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ - وَاسْمُهُ قُرَيْشٌ، وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ الْبُطُونُ الْقُرَشِيَّهْ، وَمَا فَوْقَهُ كِنَانِىٌّ كَمَا جَنَحَ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ وَارْتَضَاهْ - ابْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسٍ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَهْدَى الْبُدْنَ إِلَى الرِّحَابِ الْحَرَمِيَّهْ، وَسَمِعَ فِى صُلْبِهِ النَّبِىُّ ﷺ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى وَلَبَّاهْ - ابْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.

وَهَذَا سِلْكٌ نَظَّمَتْ فَرَائِدَهُ بَنَانُ السُّنَّةِ السَّنِيَّهْ، وَرَفَعَهُ إِلَى الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ أَمْسَكَ عَنْهُ الشَّارِعُ وَأَبَاهْ، وَعَدْنَانُ بِلاَ رَيْبٍ عِنْدَ ذَوِى الْعُلُومِ النَّسَبِيَّهْ، إِلَى الذَّبِيحِ إِسْمَاعِيلَ نِسْبَتُهُ وَمُنْتَمَاهْ، فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ عِقْدٍ تَأَلَّفَتْ كَوَاكِبُهُ الدُّرِّيَّهْ، وَكَيْفَ لاَ وَالسَّيِّدُ الأَكْرَمُ ﷺ وَاسِطَتُهُ الْمُنْتَقَاهْ:

نَسَبٌ تَحسَبُ الْعُلاَ بِحُلاَهُ ... قَلَّدَتْهَا نُجُومَهَا الْجَوْزَاءُ

حَبَّذَا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وَفَخَارٍ ... أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ

أَكْرِمْ بِهِ مِنْ نَسَبٍ طَهَّرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّهْ، أَوْرَدَ الزَّيْنُ الْعِرَاقِىُّ وَارِدَهُ فِى مَوْرِدِهِ الْهَنِىِّ وَرَوَاهْ.

حَفِظَ الإِلَهُ كَرَامَةً لِمُحَمَّدٍ ... آبَاءَهُ الأَمْجَادَ صَوْنًا لاسْمِهِ

تَرَكُوا السِّفَاحَ فَلَمْ يُصِبْهُمْ عَارُهُ ... مِنْ آدَمٍ وَإِلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ

سَرَاةٌ سَرَى نُورُ النُّبُوَّةِ فِى أَسَارِيرِ غُرَرِهِمُ الْبَهِيَّهْ، وَبَدَا بَدْرُهُ فِى جَبِينِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَابْنِهِ عَبْدِ اللهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفِ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

* * *

وَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى إِبْرَازَ حَقِيقَتِهِ الْمُحَمَّدِيَّهْ، وَإِظْهَارَهُ جِسْمًا وَرُحًا بِصُورَتِهِ وَمَعْنَاهْ، نَقَلَهُ إِلَى مَقَرِّهِ مِنْ صَدَفَةِ آمِنَةَ الزُّهْرِيَّهْ، وَخَصَّهَا الْقَرِيبُ الْمُجِيبُ بِأَنْ تَكُونَ أُمًّا لِمُصْطَفَاهْ، وَنُودِىَ فِى السَّموَاتِ وَالأَرْضِ بِحَمْلِهَا لأَنْوَارِهِ الذَّاتِيَّهْ، وَصَبَا كُلُّ صَبٍّ لِهُبُوبِ نَسِيمِ صَبَاهْ، وَكُسِيَتِ الأَرْضُ بَعْدَ طُولِ جَدْبِهَا مِنَ النَّبَاتِ حُلَلاً سُنْدُسِيَّهْ، وَأَيْنَعَتِ الثِّمَارُ وَأَدْنَى الشَّجَرُ لِلْجَانِى جَنَاهْ، وَنَطَقَتْ بِحَمْلِهِ كُلُّ دَابَّةٍ لِقُرَيْشٍ بِفِصَاحِ الأَلْسُنِ الْعَرَبِيَّهْ، وَخَرَّتِ الأَسِرَّةُ وَالأَصْنَامُ عَلَى

الوُجُوهِ وَالأَفْوَاهْ، وتَبَاشَرَتْ وُحُوشُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَدَوَابُّهَا البَحْرِيَّهْ، وَاحْتَسَتِ الْعَوَالِمُ مِنَ السُّرُورِ كَأْسَ حُمَيَّهْ، وَبَشَّرَتِ الْجِنُّ بِإِظْلاَلِ زَمَنِه وَانْتُهِكَتِ الْكَهَانَةُ وَرَهِبَتِ الرَّهْبَانِيَّهْ، وَلَهِجَ بِخَبَرِهِ كُلُّ حَبْرٍ خَبِيرٍ وَفِى حُلاَ حُسْنِه تَاهْ، وَأُتِيَتْ أُمُّهُ فِى الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهَا: إِنَّكِ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ الْعَالَمِينَ وَخَيْرِ الْبَرِيَّهْ، فَسَمِّيهِ إِذَا وَضَعْتِيهِ مُحَمَّدًا؛ لأَنَّهُ سَتُحْمَدُ عُقْبَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

* * *

وَلَمَّا تَمَّ مِنْ حَمْلِه شَهْرَانِ عَلَى مَشْهُورِ الأَقْوَالِ الْمَرْوِيَّهْ، تُوُفِّىَ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ أَبُوهُ عَبْدُ اللهْ، وَكَانَ قَدِ اجْتَازَ بِأَخْوَالِه بَنِى عَدِىٍّ مِنَ الطَّائِفَةِ النَّجَّارِيَّهْ، وَمَكَثَ فِيهِمْ شَهْرًا سَقِيمًا يُعَانُونَ سُقْمَهُ وَشَكْوَاهْ. وَلَمَّا تَمَّ مِنْ حَمْلِه عَلَى الرَّاجِحِ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ قَمَرِيَّهْ، وَآنَ لِلزَّمَانِ أَنْ يَنْجَلِىَ عَنْهُ صَدَاهْ، حَضَرَ أُمَّهُ لَيْلَةَ مَوْلِدِه آسِيَةُ وَمَرْيَمُ فِى نِسْوَةٍ مِنَ الْحَظِيرَةِ الْقُدْسِيَّهْ، وَأَخَذَهَا الْمَخَاضُ فَوَلَدَتْهُ ﷺ نُورًا يَتَلأْلأُ سَنَاهْ:

وَمُحَيًّا كَالشَّمْسِ مِنْكَ مُضِىءٍ	أَسْفَرَتْ عَنْهُ لَيْلَةٌ غَرَّاءُ
لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ الَّذِى كَانَ لِلدِّ	ينِ سُرُورٌ بِيَوْمِهِ وَازْدِهَاءُ
مَوْلِدٌ كَانَ مِنْهُ فِى طَالِعِ الْـ	ـكُفْرِ وَبَالٌ عَلَيْهِم وَوَبَاءُ
يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِه ابْنَتُ وَهْبٍ	مِنْ فَخَارٍ مَا لَمْ تَنَلْهُ النِّسَاءُ
وَأَتَتْ قَوْمَهَا بِأَفْضَلِ مِمَّا	حَمَلَتْ قَبْلُ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ
وَتَوَالَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ	وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهَنَاءُ

هَذَا وَقَدِ اسْتَحْسَنَ الْقِيَامَ عِنْدَ ذِكْرِ مَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ أَئِمَّةٌ ذَوُو رِوَايَةٍ وَرَوِيَّهْ،

فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ تَعْظِيمُهُ ﷺ غَايَةَ مَرَامِهِ وَمَرْمَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

* * *

وَبَرَزَ ﷺ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى الأَرْضِ رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ الْعَلِيَّهْ، مُومِيًا بِذَلِكَ الرَّفْعِ إِلَى سُؤْدُدِهِ وَعُلاَهْ، وَمُشِيرًا إِلَى رِفْعَةِ قَدْرِهِ عَلَى سَائِرِ الْبَرِيَّهْ، وَأَنَّهُ الْحَبِيبُ الَّذِى حَسُنَتْ طِبَاعُهُ وَسَجَايَاهْ، وَدَعَتْ أُمُّهُ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ يَطُوفُ بِهَاتِيكَ الْبَنِيَّهْ، فَأَقْبَلَ مُسْرِعًا وَنَظَرَ إِلَيْهِ وَبَلَغَ مِنَ السُّرُورِ مُنَاهْ، وَأَدْخَلَهُ الْكَعْبَةَ الْغَرَّاءَ وَقَامَ يَدْعُو بِخُلُوصِ النِّيَّهْ وَيَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهْ.

وَوُلِدَ ﷺ نَظِيفًا مَخْتُونًا مَقْطُوعَ السُّرِّ بِيَدِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّهْ، طَيِّبًا دَهِينًا مَكْحُولَةً بِكُحْلِ الْعِنَايَةِ عَيْنَاهْ، وَقِيلَ: خَتَنَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بَعْدَ سَبْعِ لَيَالٍ سَوِيَّهْ، وَأَوْلَمَ وَأَطْعَمَ وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا وَأَكْرَمَ مَثْوَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

* * *

وَظَهَرَ عِنْدَ وِلاَدَتِهِ خَوَارِقُ وَغَرَائِبُ غَيْبِيَّهْ، إِرْهَاصًا لِنُبُوَّتِهِ وَإِعْلاَمًا بِأَنَّهُ مُخْتَارُ اللهِ وَمُجْتَبَاهْ، فَزِيدَتِ السَّمَاءُ حِفْظًا وَرُدَّ عَنْهَا الْمَرَدَةُ وَذَوُو النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّهْ، وَرَجَمَتْ رُجُومُ النَّيِّرَاتِ كُلَّ رَجِيمٍ فِى حَالِ مَرْقَاهْ، وَتَدَلَّتْ إِلَيْهِ ﷺ الأَنْجُمُ الزُّهْرِيَّهْ، وَاسْتَنَارَتْ بِنُورِهَا وِهَادُ الْحَرَمِ وَرُبَاهْ، وَخَرَجَ مَعَهُ ﷺ نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ الْقَيْصَرِيَّهْ، فَرَآهَا مَنْ بِطَاحُ مَكَّةَ دَارُهُ وَمَغْنَاهْ، وَانْصَدَعَ الإِيوَانُ

بِالْمَدَائِنِ الْكِسْرَوِيَّهْ، الَّذِى رَفَعَ أَنُو شَرْوَانُ سَمْكَهُ وَسَوَّاهْ، وَسَقَطَ أَرْبَعٌ وَعَشْرٌ مِنْ شُرُفَاتِهِ الْعُلْوِيَّهْ، وَكُسِرَ سَرِيرُ الْمَلِكِ كِسْرَى لِهَوْلِ مَا أَصَابَهُ وَعَرَاهْ، وَخَمَدَتِ النِّيرَانُ الْمَعْبُودَةُ بِالْمَمَالِكِ الْفَارِسِيَّهْ؛ لِطُلُوعِ بَدْرِهِ الْمُنِيرِ وَإِشْرَاقِ مُحَيَّاهْ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ وَكَانَتْ بَيْنَ هَمَذَانَ وَقُمَّ مِنَ الْبِلاَدِ الْعَجَمِيَّهْ، وَجَفَّتْ إِذْ كُفَّ وَاكِفُ مَوْجِهَا الثَّجَّاجِ يَنَابِيعُ هَاتِيكَ الْمِيَاهْ، وَفَاضَ وَادِى سَمَاوَةَ وَهِىَ مَفَازَةٌ فِى فَلاَةٍ وَبَرِّيَّهْ، لَمْ يَكُنْ بِهَا قَبْلُ مَاءٌ يَنْقَعُ لِلظَّمْآنِ اللَّهَاهْ.

وَكَانَ مَوْلِدُهُ ﷺ بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِالْعِرَاصِ الْمَكِّيَّهْ، وَالْبَلَدِ الْحَرَامِ الَّذِى لاَ يُعْضَدُ شَجَرُهُ وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهْ.

وَاخْتُلِفَ فِى عَامِ وِلاَدَتِهِ ﷺ وَفِى شَهْرِهَا وَفِى يَوْمِهَا عَلَى أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ مَرْوِيَّهْ، وَالرَّاجِحُ أَنَّهَا قُبَيْلَ فَجْرِ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ ثَانِى عَشَرَ رَبِيعٍ الأَوَّلِ مِنْ عَامِ الْفِيلِ الَّذِى صَدَّهُ اللهُ عَنِ الْحَرَمِ وَحَمَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

* * *

وَأَرْضَعَتْهُ ﷺ أُمُّهُ أَيَّامًا ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ الأَسْلَمِيَّهْ، الَّتِى أَعْتَقَهَا أَبُو لَهَبٍ حِينَ وَافَتْهُ عِنْدَ مِيلاَدِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِبُشْرَاهْ، فَأَرْضَعَتْهُ ﷺ مَعَ ابْنِهَا مَسْرُوحٍ وَأَبِى سَلَمَةَ وَهِىَ بِهِ حَفِيَّهْ، وَأَرْضَعَتْ قَبْلَهُ حَمْزَةَ الَّذِى حُمِدَ فِى نُصْرَةِ الدِّينِ سُرَاهْ، وَكَانَ ﷺ يَبْعَثُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَدِينَةِ بِصِلَةٍ وَكِسْوَةٍ هِىَ بِهَا حَرِيَّهْ، إِلَى أَنْ أَوْرَدَ هَيْكَلَهَا رَائِدُ الْمَنُونِ الضَّرِيحَ وَوَارَاهْ، قِيلَ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا الْفِئَةِ الْجَاهِلِيَّهْ، وَقِيلَ أَسْلَمَتْ أَثْبَتَ الْخِلاَفَ ابْنُ مَنْدَهْ وَحَكَاهْ.

ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ﷺ الْفَتَاةُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّهْ، وَكَانَ قَدْ رَدَّ كُلٌّ مِنَ الْقَوْمِ ثَدْيَهَا

لفقرها وأَبَاهْ، فَأَخصبَ عَيْشُهَا بَعْدَ الْمَحْلِ قَبْلَ الْعَشيَّهْ، وَدَرَّ ثَدْيَاهَا بَدُرٍّ درٍّ أَلْبَنَهُ الْيَمِينُ منهُمَا وأَلْبَنَ الآخَرُ أَخَاهْ، وأَصبحَتْ بَعْدَ الْفَقْرِ وَالهُزَالِ غَنِيَّهْ، وَسَمِنَت الشَّارِفُ لَدَيْهَا وَالشِّيَاهْ، وَانجَابَ عَنْ جَانِبِهَا كُلُّ مُلِمَّةٍ وَرَزِيَّهْ، وَطَرَّزَ السَّعْدُ بُرْدَ عَيْشِهَا الْهَنِيِّ وَوَشَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفِ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

* * *

وَكَانَ ﷺ يَشِبُّ فِي الْيَوْمِ شَبَابَ الصَّبِيِّ فِي الشَّهْرِ بِعِنَايَةٍ رَبَّانِيَّهْ، فَقَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ فِي ثَلاَثٍ وَمَشَى فِي خَمْسٍ وَقَوِيَتْ فِي تِسْعٍ مِنَ الشُّهُورِ بِفَصِيحِ النُّطْقِ قُوَاهْ، وَشَقَّ الْمَلَكَانِ صَدْرَهُ الشَّرِيفَ لَدَيْهَا وَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً دَمَوِيَّهْ، وَأَزَالاَ مِنْهُ حَظَّ الشَّيْطَانِ وَبِالثَّلْجِ غَسَلاَهْ، وَمَلآهُ حِكْمَةً وَمَعَانِيَ إِيمَانِيَّهْ، ثُمَّ خَاطَاهُ وَبِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ خَتَمَاهْ، وَوَزَنَاهُ فَرَجَحَ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ الْخَيْرِيَّهْ.

وَنَشَأَ ﷺ عَلَى أَكْمَلِ الأَوْصَافِ مِنْ حَالِ صِبَاهْ، ثُمَّ رَدَّتْهُ إِلَى أُمِّهِ ﷺ وَهِيَ بِهِ غَيْرُ سَخِيَّهْ، حَذَرًا مِنْ أَنْ يُصَابَ بِمُصَابٍ حَادِثٍ تَخْشَاهْ، وَوَفَدَتْ عَلَيْهِ حَلِيمَةُ فِي أَيَّامِ خَدِيجَةَ السَّيِّدَةِ الْمَرْضِيَّهْ، فَحَبَاهَا مِنْ حَبَائِهِ الوَافِرِ بِحِبَاهْ، وَقَدِمَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَقَامَ إِلَيْهَا وَأَخَذَتْهُ الأَرْيَحِيَّهْ، وَبَسَطَ لَهَا مِنْ رِدَائِهِ الشَّرِيفِ بِسَاطَ بِرِّهِ وَنَدَاهْ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا أَسْلَمَتْ مَعَ زَوْجِهَا وَالْبَنِينَ وَالذُّرِّيَّهْ، وَقَدْ عَدَّهُمَا فِي الصَّحَابَةِ جَمْعٌ مِنْ ثِقَاتِ الرُّوَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفِ شَذِيٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ أربعَ سنِينَ خرجتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبوِيَّهْ، ثُمَّ عَادتْ فَوَافَتْهَا بِالأَبْوَاءِ أَوْ بِشعْبِ الْحَجُونِ الْوَفَاهْ.

وَحَمَلَتْهُ ﷺ حَاضِنَتُهُ أُمُّ أَيْمَنَ الْحَبَشِيَّهْ، الَّتِى زَوَّجهَا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بَعْدُ مِنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ موْلاَهْ، وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَرَقَّ لَهُ وَأَعْلَى رُقِيَّهْ، وَقَالَ: إِنَّ لابْنِى هَذَا لَشأْنًا عَظِيمًا فَبَخٍ بَخٍ لِمَنْ وَقَّرَهُ ووَالاَهْ.

وَلَمْ تَشْكُ فِى صِبَاهُ جُوعًا وَلاَ عَطَشًا قَطُّ نَفْسُهُ الأَبِيَّهْ، وَكَثِيرًا مَا غَدَا فَاغْتَذَى بِمَاءِ زَمْزَمَ فَأَشْبَعَهُ وَأَرْوَاهْ.

وَلَمَّا أُنِيخَتْ بِفِنَاءِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مطَايَا الْمَنِيَّهْ، كَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ شَقِيقُ أَبِيهِ عَبْدِ اللهْ، فَقَامَ بِكَفَالَتِهِ بِعَزْمٍ قَوِىٍّ وَهِمَّةٍ وَحَمِيَّهْ، وَقَدَّمَهُ عَلَى النَّفْسِ وَالْبَنِينَ وربَّاهْ.

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ اثْنَتَى عَشَرَةَ سَنَةً رَحَلَ بِهِ إِلَى الْبِلاَدِ الشَّامِيَّهْ، وَعَرَفَهُ الرَّاهِبُ بَحِيرَا بِمَا حَازَهُ مِنْ وَصْفِ النُّبُوَّةِ وَحَوَاهْ، وَقَالَ: إِنِّى أَرَاهُ سَيِّدَ الْعَالَمِينَ وَرَسُولَ اللهِ وَنَبِيَّهْ، قَدْ سَجَدَ لَهُ الشَّجَرُ وَالْحَجَرُ وَلاَ يَسْجُدَانِ إِلاَّ لِنَبِىٍّ أَوَّاهْ، وَإِنَّا لَنَجِدُ نَعْتَهُ فِى الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ السَّمَاوِيَّهْ، وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ قَدْ عَمَّهُ النُّورُ وَعَلاَهْ، وَأَمَرَ عَمَّهُ بِرَدِّهِ إِلَى مَكَّةَ تَخَوُّفًا عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ دِينِ الْيَهُودِيَّهْ.

فَرَجَعَ بِهِ وَلَمْ يُجَاوِزْ مِنَ الشَّامِ الْمُقَدَّسِ بُصْرَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ خمسًا وعشرين سنَةً سَافرَ إلَى بُصْرَى فِى تجارَة لخَديجةَ الْغَنيَّهْ، ومَعَهُ غُلامُها ميْسرَةُ يَخْدمُهُ ﷺ ويَقُومُ بمَا عنَاهْ، ونَزَلَ ﷺ تحتَ شَجَرَة لَدَى صوْمعَة نَسْطُوراَ راهب النَّصْرَانيَّهْ، فعرَفَهُ الرَّاهبُ إذْ مَالَ إلَيْه ظلُّهَا الْوَارفُ وآوَاهْ، وقَالَ : مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذه الشَّجرَة قطُّ إلاَّ نَبىٌّ ذُو صفَات نَقيَّهْ، ورَسُولٌ قَدْ خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِالْفَضَائِلِ وَحَبَاهْ، ثُمَّ قَالَ لميْسَرَةَ: أَفى عيْنَيْه حُمْرَةٌ استظْهَاراً للعَلاَمَة الْخَفيَّهْ، فَأَجَابَهُ بنَعَمْ فَحقَّ لَدَيْه مَا ظَنَّهُ فيه وتَوَخَّاهْ، وَقَالَ لميْسَرَةَ: لاَ تُفَارقْهُ وكُنْ معَهُ بصدْق عزْمٍ وَحُسْنِ طَوِيَّهْ، فَإِنَّهُ ممَّنْ أكْرَمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّة وَاجْتَبَاهْ. ثُمَّ عَادَ إلَى مكَّةَ فَرَأتْهُ خَديجَةُ مُقْبلاً وَهِيَ بَيْنَ نسْوَة فى عُلَيَّهْ، ومَلَكَانِ عَلَى رَأْسه الشَّريف منْ وَضَحِ الشَّمْسِ قَدْ أَظَلاَّهْ، وأَخْبرَهَا مَيْسَرَةُ بأَنَّهُ رَأَى ذَلكَ فِى السَّفَرِ كُلِّه وبمَا قَالَهُ الرَّاهبُ وأَوْدعَهُ لَدَيْه منَ الْوَصيَّهْ، وَضَاعَفَ اللهُ فِى تلْكَ التجارَة ربْحهَا ونَمَّاهْ، فَبَانَ لخَديجةَ بمَا رَأَتْ ومَا سمعَتْ أَنَّهُ رَسُولُ الله تَعَالَى إلَى الْبَريَّهْ، الَّذى خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بقُرْبه وَاصْطَفَاهْ، فخَطَبَتْهُ ﷺ لنَفْسهَا الزَّكيَّهْ، لتَشُمَّ منَ الإيمَان به ﷺ طيبَ ريَّاهْ، فَأَخْبَرَ أَعْمَامَهُ بمَا دعَتْهُ إلَيْه هَذه الْبرَّةُ التَّقيَّهْ، فَرَغبُوا فيهَا لفَضْلٍ وَدينٍ وَجَمَالٍ وَمَالٍ وحَسَبٍ ونَسَبٍ كُلٌّ منَ الْقَوْمِ يهْوَاهْ.

وَخطَبَ أَبُو طَالب وأَثْنَى عَلَيْه ﷺ بَعْدَ أَنْ حمدَ اللهَ بمَحَامدَ سَنيَّهْ، وَقَالَ وَهُوَ وَالله بَعْدُ لَهُ نَبأٌ عَظيمٌ يُحْمَدُ فيه سُرَاهْ، فَزَوَّجَهَا منْهُ ﷺ أَبُوهَا وقيلَ: عَمُّهَا وقيلَ: أَخُوهَا لسَابِقِ سَعَادَتِهَا الأَزَليَّهْ، وأَوْلَدَهَا كُلَّ أَوْلاَده إلاَّ الَّذى باسْمِ الْخَليلِ سَمَّاهْ.

* * *

عطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الكَرِيمْ، بِعَرْف شَذِيٍّ منْ صَلاَة وَتَسْلِيمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

ولَمَّا بلَغَ ﷺ خمسًا وثَلاثِينَ سنَةً بنَتْ قُرَيْشٌ الْكَعْبَةَ لانصداعِهَا بالسُّيول الأَبْطَحيَّهْ، وتَنَازَعُوا فِى رفْعِ الْحجَرِ الأَسْوَد فكُلٌّ أَرادَ رفْعَهُ ورَجاهْ، وعَظُمَ الْقِيلُ والْقَالُ وتَحَالَفُوا علَى الْقِتَالِ وقَوِيَتْ الْعَصَبيَّهْ، ثُمَّ تداعَوْا إِلَى الإنْصَاف وفَوَّضُوا الأَمْرَ إِلَى ذِى رأْىٍ صائِبٍ وأَنَاهْ، فَحكَمَ بتَحْكِيم أوَّل داخِلٍ منْ باب السَّدَنَة الشَّيْبِيَّهْ، فكَانَ النَّبىُّ ﷺ أوَّلَ داخِلٍ فقَالُوا: هذَا الأَمينُ وكُلُّنا نَقبلُهُ ونَرْضَاهْ، فَأَخْبرُوهُ بِأَنَّهُمْ رضُوهُ أَنْ يكُونَ صَاحِبَ الْحُكْمِ فِى هذَا الْمُهِم ووَلِيَّهْ، فوَضعَ ﷺ الْحجَرَ فِى ثَوْبٍ ثُمَّ أَمَرَ أَنْ تَرفَعَهُ الْقَبَائِلُ جَميعًا إِلَى مُرْتَقَاهْ، فَرفَعُوهُ إِلَى مَقَرِّهِ مِنْ رُكْنِ هَاتِيكَ الْبِنيَّهْ، ووَضَعَهُ ﷺ بِيَدِه الشَّرِيفَةِ فِى مَوْضِعه الآنَ وبَنَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بعَرْف شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْه

* * *

ولَمَّا كَمُلَ لَهُ ﷺ أَرْبَعُونَ سنَةً علَى أَوْفَقِ الأَقْوَالِ لِذَوِى الْعَالِميَّهْ، بعَثَهُ اللهُ تَعالَى لِلْعالَمِينَ بَشيراً ونَذيراً فعَمَّهُمْ بِرُحْمَاهْ، وبُدِئَ إِلَى تَمَامِ ستَّة أَشْهُرٍ بالرُّؤْيَا الصَّادقَة الْجَلِيَّهْ، فكَانَ لاَ يرَى رُؤْيَا إِلاَّ جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ صُبْحٍ أَضاءَ سنَاهْ، وإِنَّمَا ابْتُدِئَ بِالرُّؤْيَا تَمْرِينًا لِلْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّهْ، لِئَلاَ يَفْجَأَهُ الْمَلَكُ بِصَرِيحِ النُّبُوَّةِ فَلاَ تَقْوَاهُ قُوَاهْ، وحُبِّبَ إِلَيْه الْخَلاَءُ فكَانَ يَتَعبَّدُ بحِرَاءِ اللَّيَالِيَ الْعَدَديَّهْ، إِلَى أَنْ أَتَاهُ فِيه صَرِيحُ الْحَقِّ ووَافَاهْ، وذَلِكَ فِى يوْمِ الإِثْنَيْنِ لِسَبْعَ عشْرَةَ لَيْلَةً خلَتْ مِنْ شَهْرِ اللَّيْلَة الْقَدْريَّهْ، وثَمَّ أَقْوَالٌ لِسَبْعٍ أَوْ لأَرْبعٍ وعِشْرينَ منْهُ أَوْ لِثَمَانٍ مِنْ شَهْرِ مَوْلِده ﷺ الَّذِى بَدَا فِيه بَدْرُ مُحَيَّاهْ، فقَالَ لَهُ: اقْرأْ فقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغَطَّهُ غَطَّةً قَوِيَّهْ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اقْرَأْ فقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغَطَّهُ غَطَّةً ثَانيةً حتَّى بلَغَ مِنْهُ

الْجَهْدُ وَغَطَّاهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اقرأْ فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغَطَّهُ غَطَّةً ثَالِثَةً لِيَتَوَجَّهَ إِلَى مَا سَيُلْقَى إِلَيْهِ بِجَمْعِيَّهْ، وَيُقَابِلَهُ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ وَيَتَلَقَّاهْ، ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْىُ ثَلاَثَ سِنِينَ أَوْ ثَلاَثِينَ شَهْراً لِيَشْتَاقَ إِلَى انْتِشَاقِ هَاتِيكَ النَّفَحَاتِ الشَّذِيَّهْ، ثُمَّ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِهَا وَنَادَاهْ، فَكَانَ لِنُبُوَّتِهِ فِى تَقَدُّمِ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّ لَهَا السَّابِقِيَّهْ، وَالتَّقَدُّمُ عَلَى رِسَالَتِهِ بِالْبِشَارَةِ وَالنِّذَارَةِ لِمَنْ دَعَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

* * *

وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الرِّجَالِ أَبُو بَكْرٍ صَاحِبُ الْغَارِ وَالصِّدِّيقِيَّهْ، وَمِنَ الصِّبْيَانِ عَلِىٌّ وَمِنَ النِّسَاءِ خَدِيجَةُ الَّتِى ثَبَّتَ اللهُ بِهَا قَلْبَهُ وَوَقَاهْ، وَمِنَ الْمَوَالِى زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَمِنَ الأَرِقَّاءِ بِلاَلٌ الَّذِى عَذَّبَهُ فِى اللهِ أُمَيَّهْ، وَأَوْلاَهُ مَوْلاَهُ أَبُو بَكْرٍ مِنَ الْعِتْقِ مَا أَوْلاَهْ، ثُمَّ عُثْمَانُ وَسَعْدٌ وَسَعِيدٌ وَطَلْحَةُ وَابْنُ عَوْفٍ وَابْنُ الْعَمَّةِ صَفِيَّهْ، وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ أَنْهَلَهُ الصِّدِّيقُ رَحِيقَ التَّصْدِيقِ وَسَقَاهْ.

وَمَازَالَتْ عِبَادَتُهُ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ مَخْفِيَّهْ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فَجَهَرَ بِدُعَاءِ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ، وَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ حَتَّى عَابَ آلِهَتَهُمْ وَأَمَرَ بِرَفْضِ مَا سِوَى الْوَحْدَانِيَّهْ، فَتَجَرَّؤُا عَلَى مُبَارَزَتِهِ بِالْعَدَاوَةِ وَأَذَاهْ، وَاشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْبَلاَءُ فَهَاجَرُوا فِى سَنَةِ خَمْسٍ إِلَى النَّاحِيَةِ النَّجَاشِيَّهْ، وَحَدِبَ عَلَيْهِ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَهَابَهُ كُلٌّ مِنَ الْقَوْمِ وَتَحَامَاهْ.

وَفُرِضَ عَلَيْهِ ﷺ قِيَامُ بَعْضِ السَّاعَاتِ اللَّيْلِيَّهْ، ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾، وَفُرِضَ عَلَيْهِ رَكْعَتَانِ بِالْغَدَاةِ وَرَكْعَتَانِ

بِالْعَشِيَّهْ، ثُمَّ نُسِخَ بِإِيجَابِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِى لَيْلَةِ مَسْرَاهْ.

وَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ فِى نِصْفِ شَوَّالٍ مِنْ عَاشِرِ الْبِعْثَةِ وَعَظُمَتْ بِمَوْتِهِ الرَّزِيَّهْ، وَتَلَتْهُ خَدِيجَةُ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ وَشَدَّ الْبَلاءُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عُرَاهْ، وَأَوْقَعَتْ قُرَيْشٌ بِهِ ﷺ كُلَّ أَذِيَّهْ.

وَأَمَّ الطَّائِفَ يَدْعُو ثَقِيفًا فَلَمْ يُحْسِنُوا بِالإِجَابَةِ قِرَاهْ، وَأَغْرَوْا بِهِ السُّفَهَاءَ وَالْعَبِيدَ فَسَبُّوهُ بِأَلْسِنَةٍ بَذِيَّهْ، وَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى خُضِبَتْ بِالدِّمَاءِ نَعْلاهْ، ثُمَّ عَادَ ﷺ إِلَى مَكَّةَ حَزِينًا فَسَأَلَهُ مَلَكُ الْجِبَالِ فِى إِهْلاكِ أَهْلِهَا ذَوِى الْعَصَبِيَّهْ، فَقَالَ: إِنِّى أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَتَوَلاَّهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْه

* * *

ثُمَّ أُسْرِىَ بِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ ﷺ يَقَظَةً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى وَرِحَابِهِ الْقُدْسِيَّهْ، وَعُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ فَرَأَى آدَمَ فِى الأُولَى وَقَدْ جَلَّلَهُ بِالْوَقَارِ وَعَلاهْ، وَرَأَى فِى الثَّانِيَةِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَتُولِ الْبَرَّةِ النَّقِيَّهْ، وَابْنَ خَالَتِهِ يَحْيَى الَّذِى أُوتِىَ الْحُكْمَ فِى حَالِ صِبَاهْ، وَرَأَى فِى الثَّالِثَةِ يُوسُفَ الصِّدِّيقَ بِصُورَتِهِ الْجَمَالِيَّهْ، وَفِى الرَّابِعَةِ إِدْرِيسَ الَّذِى رَفَعَ اللهُ مَكَانَهُ وَأَعْلاهْ، وَفِى الْخَامِسَةِ هَارُونَ الْمُحَبَّبَ فِى الأُمَّةِ الإِسْرَائِيلِيَّهْ، وَفِى السَّادِسَةِ مُوسَى الَّذِى كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَاجَاهْ، وَفِى السَّابِعَةِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِى جَاءَ رَبَّهُ بِسَلامَةِ الْقَلْبِ وَالطَّوِيَّهْ، وَحَفِظَهُ مِنْ نَارِ نَمْرُودَ وَعَافَاهْ.

ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى إِلَى أَنْ سَمِعَ صَرِيفَ الأَقْلامِ بِالأُمُورِ الْمَقْضِيَّهْ، إِلَى مَقَامِ الْمُكَافَحَةِ الَّذِى قَرَّبَهُ اللهُ فِيهِ وَأَدْنَاهْ، وَأَمَاطَ لَهُ ﷺ حُجُبَ الأَنْوَارِ

الْجَلاَلِيَّهْ، وأَرَاهُ بِعَيْنَىْ رَأْسه مِنْ حَضْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ مَا أَرَاهْ، وبَسَطَ لَهُ بِسَاطَ الإِجْلاَلِ فِى الْمَجَالِى الذَّاتِيَّهْ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِه خَمْسِينَ صَلاَهْ، ثُمَّ انهَلَّ سَحَابُ الْفَضْلِ فَرُدَّتْ إِلَى خَمْسٍ عَمَلِيَّهْ، وَلَهَا أَجْرُ الْخَمْسِينَ كَمَا شَاءَهُ فِى الأَزَلِ وَقَضَاهْ، ثُمَّ عَادَ فِى لَيْلَتِه وَصَدَّقَهُ الصِّدِّيقُ بِمَسْرَاهُ وَكُلُّ ذِى عَقْلٍ وَرَوِيَّهْ، وَكَذَّبَتْهُ قُرَيْشٌ وَارْتَدَّ مَنْ أَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ وَأَغْوَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

* * *

ثُمَّ عَرَضَ نَفْسَهُ ﷺ عَلَى الْقَبَائِلِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ فِى الأَيَّامِ الْمَوْسِمِيَّهْ، فَآمَنَ بِهِ سِتَّةٌ مِنَ الأَنْصَارِ اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِرِضَاهْ، وَحَجَّ مِنْهُمْ فِى الْقَابِلِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً وبَايَعُوهُ بَيْعَةً حَقِّيَّهْ، ثُمَّ انصَرَفُوا وَظَهَرَ الإِسْلاَمُ بِالْمَدِينَةِ فَكَانَتْ مَعْقِلَهُ وَمَأْوَاهْ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ فِى الْعَامِ الثَّالِثِ سَبْعُونَ أَوْ وَخَمْسَةٌ أَوْ وَثَلاَثَةٌ وَامْرَأَتَانِ مِنَ الْقَبَائِلِ الأَوْسِيَّةِ وَالْخَزْرَجِيَّهْ، فَبَايَعُوهُ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ اثْنَى عَشَرَ نَقِيبًا حَجَاحِجَةً سَرَاهْ، فَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ ذَوُو الْمِلَّةِ الإِسْلاَمِيَّهْ، وَفَارَقُوا الأَوْطَانَ رَغْبَةً فِيمَا أُعِدَّ لِمَنْ هَجَرَ الْكُفْرَ وَنَاوَاهْ، وَخَافَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يَلْحَقَ ﷺ بِأَصْحَابِهِ عَلَى الْفَوْرِيَّهْ، فَأْتَمَرُوا بِقَتْلِهِ فَحَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ كَيْدِهِمْ وَنَجَّاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

* * *

وأُذنَ لَهُ ﷺ في الْهجْرَة فَرَقَبَهُ الْمشْركُونَ ليُوردُوهُ بزَعْمهمْ حيَاضَ الْمَنيَّهْ، فَخَرجَ عَلَيْهمْ ونَثَرَ عَلَى رءُوسهِمُ التُّرَابَ وَحثَاهْ، وأَمَّ ﷺ غَارَ ثَوْرٍ وفَازَ الصِّدِّيقُ بالْمعيَّهْ، وقَامَا فيه ثَلاثًا تَحْمى الْحمَائمُ والْعنَاكبُ حمَاهْ، ثُمَّ خرَجَا منْهُ لَيْلَةَ الإثْنَيْنِ وَهُوَ ﷺ عَلَى خَيْرِ مَطيَّهْ.

وتَعَرَّضَ لَهُ سُرَاقَةُ فَابتَهَلَ فيه إلَى الله ودَعَاهْ، فَسَاخَتْ قَوَائمُ يَعْبُوبه فى الأَرْضِ الصُّلْبَة الْقَويَّهْ، وَسَأَلَهُ الأَمَانَ فَمَنَحَهُ ﷺ إيَّاهْ.

ومَرَّ ﷺ بقُدَيْد عَلَى أُمِّ مَعْبَد الْخُزَاعيَّهْ، وأَرَادَ ابتيَاعَ لَحْمٍ أَوْ لَبَنٍ منْهَا فَلَمْ يكُنْ شَيْءٌ منْ ذَالكَ خبَاؤُهَا قَدْ حوَاهْ، فَنَظَرَ إلَى شَاة فى الْبَيْت خَلَّفَهَا الْجهْدُ عَنِ الرَّعيَّهْ، فَاستَأْذَنَهَا فى حَلْبهَا فَأَذنَتْ وقَالَتْ : لَوْ كَانَ بهَا حَلَبٌ لأَصَبْنَاهْ، فَمَسَحَ ﷺ ضَرْعَهَا ودَعَا اللهَ مَوْلاَهُ ووَليَّهْ، فَدَرَّتْ وَحَلَبَ وَسَقَى كُلاً منَ الْقَوْمِ وأَرْوَاهْ، ثُمَّ حَلَبَ ومَلأَ الإنَاءَ وغَادرَهُ لَدَيْهَا آيَةً جَليَّهْ، فَجاءَ أَبُو مَعْبَد ورَأَى اللَّبَنَ فَذَهَبَ به الْعجَب إلَى أَقْصَاهْ، وقَالَ: أَنَّى لَك هذَا ولاَ حَلُوبَ بالْبَيْت تَبضُّ بقَطْرَة لَبَنيَّهْ، فَقَالَتْ: مَرَّ بنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ كَذَا وكَذَا حكَتْ جُثْمَانَهُ ومَعْنَاهْ، فَقَالَ: هذَا صَاحبُ قُرَيْشٍ وأَقْسَمَ بكُلِّ أَليَّهْ، بأَنَّهُ لَوْ رَآهُ لآمَنَ به واتَّبَعَهُ وأَدْنَاهْ.

وقَدمَ ﷺ الْمَدينَةَ يوْمَ الإثْنَيْنِ ثَانىَ عَشْرَ رَبيعٍ الأَوَّل وأَشْرَقَتْ به أَرْجَاؤُهَا الزَّكيَّهْ، وتَلَقَّاهُ الأَنْصَارُ ونَزَلَ ﷺ بقُبَاءَ وأَسَّسَ مَسْجدَهَا عَلَى تَقْوَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَريمْ، بعَرْف شَذيٍّ منْ صَلاَة وَتَسْليمْ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وبَارِكْ عَلَيْه

* * *

وَكَانَ ﷺ أَكْمَلَ النَّاسِ خَلْقًا وَخُلُقًا ذَا ذَاتٍ وَصِفَاتٍ سَنِيَّهْ، مَرْبُوعَ الْقَامَة أَبْيَضَ اللَّوْنِ مُشْرَبًا بِحُمْرَةٍ وَاسِعَ الْعَيْنَيْنِ أَكْحَلَهُمَا أَهْدَبَ الأَشْفَارِ قَدْ مُنِحَ الزَّجَجَ حَاجِبَاهْ، مُفَلَّجَ الأَسْنَانِ وَاسِعَ الْفَمِ حَسَنَهُ وَاسِعَ الْجَبِينِ ذَا جَبْهَةٍ هِلاَلِيَّهْ، سَهْلَ الْخَدَّيْنِ يُرَى فِى أَنْفِه بَعْضُ احْدِيدَابٍ حَسَنَ الْعِرْنِينِ أَقْنَاهْ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ سَبْطَ الْكَفَّيْنِ ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ قَلِيلَ لَحْمِ الْعَقِبِ كَثَّ اللِّحْيَةِ عَظِيمَ الرَّأْسِ شَعْرُهُ إِلَى الشَّحْمَةِ الأُذُنِيَّهْ، وبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ قَدْ عَمَّهُ النُّورُ وَعَلاَهْ.

وَعَرَقُهُ ﷺ كَاللُّؤْلُؤِ وَعَرْفُهُ أَطْيَبُ مِنَ النَّفَحَاتِ الْمِسْكِيَّهْ، وَيَتَكَفَّأُ فِى مِشْيَتِه كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ ارْتِقَاهْ، وَكَانَ يُصَافِحُ الْمُصَافِحَ بِيَدِه الشَّرِيفَةِ فَيَجِدُ مِنْهَا سَائِرَ الْيَوْمِ رَائِحَةً عَبْهَرِيَّهْ، وَيَضَعُهَا عَلَى رَأْسِ الصَّبِىِّ فَيُعْرَفُ مَسُّهُ لَهُ مِنْ بَيْنِ الصِّبْيَةِ وَيُدْرَاهْ، يَتَلأْلأُ وَجْهُهُ الشَّرِيفُ تَلأْلُؤَ الْقَمَرِ فِى اللَّيْلَةِ الْبَدْرِيَّهْ، يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلاَ بَشَرٌ يَرَاهْ.

وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ وَالتَّوَاضُعِ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ وَيَحْلُبُ شَاتَهُ وَيَسِيرُ فِى خِدْمَةِ أَهْلِه بِسِيرَةٍ سَرِيَّهْ، وَيُحِبُّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ وَيَجْلِسُ مَعَهُمْ وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ وَيُشَيِّعُ جَنَائِزَهُمْ وَلاَ يَحْقِرُ فَقِيرًا أَدْقَعَهُ الْفَقْرُ وَأَشْوَاهْ، وَيَقْبَلُ الْمَعْذِرَةَ وَلاَ يُقَابِلُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ وَيَمْشِى مَعَ الأَرْمَلَةِ وَذَوِى الْعُبُودِيَّهْ، وَلا يَهَابُ الْمُلُوكَ وَيَغْضَبُ للهِ تَعَالَى وَيَرْضَى لِرِضَاهْ، وَيَمْشِى خَلْفَ أَصْحَابِه وَيَقُولُ: خَلُّوا ظَهْرِى لِلْمَلاَئِكَةِ الرُّوحَانِيَّهْ، وَيَرْكَبُ الْبَعِيرَ وَالْفَرَسَ وَالْبَغْلَةَ وَحِمَارًا بَعْضُ الْمُلُوكِ إِلَيْه أَهْدَاهْ، وَيَعْصِبُ عَلَى بَطْنِه الْحَجَرَ مِنَ الْجُوعِ وَقَدْ أُوتِىَ مَفَاتِيحَ الْخَزَائِنِ الأَرْضِيَّهْ، وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ بِأَنْ تَكُونَ لَهُ ذَهَبًا فَأَبَاهْ.

وَكَانَ ﷺ يُقِلُّ اللَّغْوَ وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلاَمِ وَيُطِيلُ الصَّلاَةَ وَيُقْصِرُ الْخُطَبَ الْجُمُعِيَّهْ، وَيَتَأَلَّفُ أَهْلَ الشَّرَفِ وَيُكْرِمُ أَهْلَ الْفَضْلِ وَيَمْزَحُ وَلاَ يَقُولُ إِلاَّ حَقًّا

يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهْ.

وَهَا هُنَا وَقَفَ بِنَا جَوَادُ الْمَقَالِ عَنِ الاطِّرَادِ فِى الْحَلْبَةِ الْبَيَانِيَّهْ، وَبَلَغَ ظَاعِنُ الإِمْلاَءِ فِى فَدَافِدِ الإِيضَاحِ مُنْتَهَاهْ.

* * *

عَطِّرِ اللَّهُمَّ قَبْرَهُ الْكَرِيمْ، بِعَرْفٍ شَذِىٍّ مِنْ صَلاَةٍ وَتَسْلِيمْ
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

* * *

اللَّهُمَّ يَا بَاسِطَ الْيَدَيْنِ بِالْعَطِيَّهْ، يَا مَنْ إِذَا رُفِعَتْ إِلَيْهِ أَكُفُّ الْعَبْدِ كَفَاهْ، يَا مَنْ تَنَزَّهَ فِى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ الأَحَدِيَّهْ، عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا نَظَائِرُ وَأَشْبَاهْ، يَا مَنْ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ وَالْقِدَمِ وَالأَزَلِيَّهْ، يَا مَنْ لاَ يُرْجَى غَيْرُهُ وَلاَ يُعَوَّلُ عَلَى سِوَاهْ، يَا مَنْ اسْتَنَدَ الأَنَامُ إِلَى قُدْرَتِهِ الْقَيُّومِيَّهْ، وَأَرْشَدَ بِفَضْلِهِ مَنِ اسْتَرْشَدَهُ وَاسْتَهْدَاهْ، نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِأَنْوَارِكَ الْقُدْسِيَّهْ، الَّتِى أَزَاحَتْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشَّكِّ دُجَاهْ، وَنَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِشَرَفِ الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّهْ، وَمَنْ هُوَ آخِرُ الأَنْبِيَاءِ بِصُورَتِهِ وَأَوَّلُهُمْ بِمَعْنَاهْ، وَبِآلِهِ كَوَاكِبِ أَمْنِ الْبَرِيَّهْ، وَسَفِينَةِ السَّلاَمَةِ وَالنَّجَاهْ، وَبِأَصْحَابِهِ أُولِى الْهِدَايَةِ وَالأَفْضَلِيَّهْ، الَّذِينَ بَذَلُوا نُفُوسَهُمْ للهِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهْ، وَبِحَمَلَةِ شَرِيعَتِهِ أُولِى الْمَنَاقِبِ وَالْخُصُوصِيَّهْ، الَّذِينَ اسْتَبْشَرُوا بِنِعْمَةٍ وَفَضْلٍ مِنَ اللهْ، أَنْ تُوَفِّقَنَا فِى الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ لإِخْلاَصِ النِّيَّهْ، وَتُنْجِحَ لِكُلٍّ مِنَ الْحَاضِرِينَ مَطْلَبَهُ وَمُنَاهْ، وَتُخَلِّصَنَا مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ وَالأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّهْ، وَتُحَقِّقَ لَنَا مِنَ الآمَالِ مَا بِكَ ظَنَنَّاهْ، وَتَكْفِيَنَا كُلَّ مُدْلَهِمَّةٍ وَبَلِيَّهْ، وَلاَ تَجْعَلَنَا مِمَّنْ أَهْوَاهُ هَوَاهْ، وَتُدْنِىَ لَنَا مِنْ حُسْنِ الْيَقِينِ قُطُوفًا دَانِيَةً جَنِيَّهْ، وَتَمْحُوَ عَنَّا كُلَّ ذَنْبٍ جَنَيْنَاهْ، وَتَسْتُرَ لِكُلٍّ مِنَّا عَيْبَهُ وَعَجْزَهُ وَحَصْرَهُ وَعِيَّهْ، وَتُسَهِّلَ لَنَا مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ مَا عَزَّ ذُرَاهْ، وَتَعُمَّ جَمْعَنَا هَذَا مِنْ خَزَائِنِ مِنَحِكَ السَّنِيَّهْ، بِرَحْمَةٍ وَمَغْفِرَةٍ وَتُدِيمَ

عَمَّنْ سِوَاكَ غِنَاهْ.

اللَّهُمَّ آمِنِ الرَّوْعَاتِ وَأَصْلِحِ الرُّعَاةَ وَالرَّعِيَّهْ، وَأَعْظِمِ الأَجْرَ لِمَنْ جَعَلَ هَذَا الْخَيْرَ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَأَجْرَاهْ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ هَذِه الْبَلْدَةَ وَسَائِرَ بِلادِ الْمُسْلِمِينَ آمِنَةً رَخِيَّهْ، وَاسْقِنَا غَيْثًا يَعُمُّ انْسِيَابُ سَيْبِهِ السَّبْسَبَ وَرُبَاهْ، وَاغْفِرْ لِنَاسِجِ هَذِه الْبُرُودِ الْمُحَبَّرَةِ الْمَوْلِدِيَّهْ، جَعْفَرٍ مِنْ إِلَى الْبَرْزَنْجِيِّ نِسْبَتُهُ وَمُنْتَمَاهْ، وَحَقِّقْ لَهُ عَيْنَهُ وَعَجْزَهُ وَحَصْرَهُ وَعِيَّهْ، وَلِكَاتِبِهَا وَقَارِئِهَا وَمَنْ أَصَاخَ إِلَيْهَا سَمْعَهُ وَأَصْغَاهْ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى أَوَّلِ قَابِلٍ لِلتَّجَلِّي مِنَ الْحَقِيقَةِ الْكُلِّيَّهْ، وَعَلَى آلِه وَصَحْبِه وَمَنْ نَصَرَهُ وَوَالاَهْ، مَا شُنِّفَتِ الآذَانُ مِنْ وَصْفِهِ الدُّرِّيِّ بِأَقْرَاطِ جَوْهَرِيَّهْ، وَتَحَلَّتْ صُدُورُ الْمَحَافِلِ الْمُنِيفَةِ بِعُقُودِ حُلاهْ، وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِه وَصَحْبِه أَجْمَعِينَ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

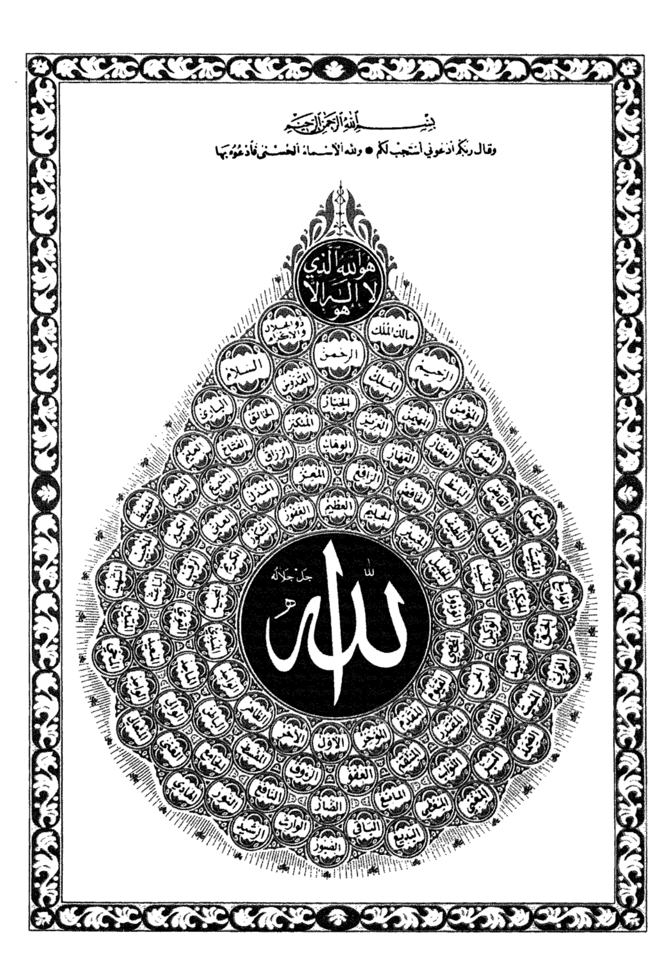
* * *

ثبت بأهم مراجع التحقيق

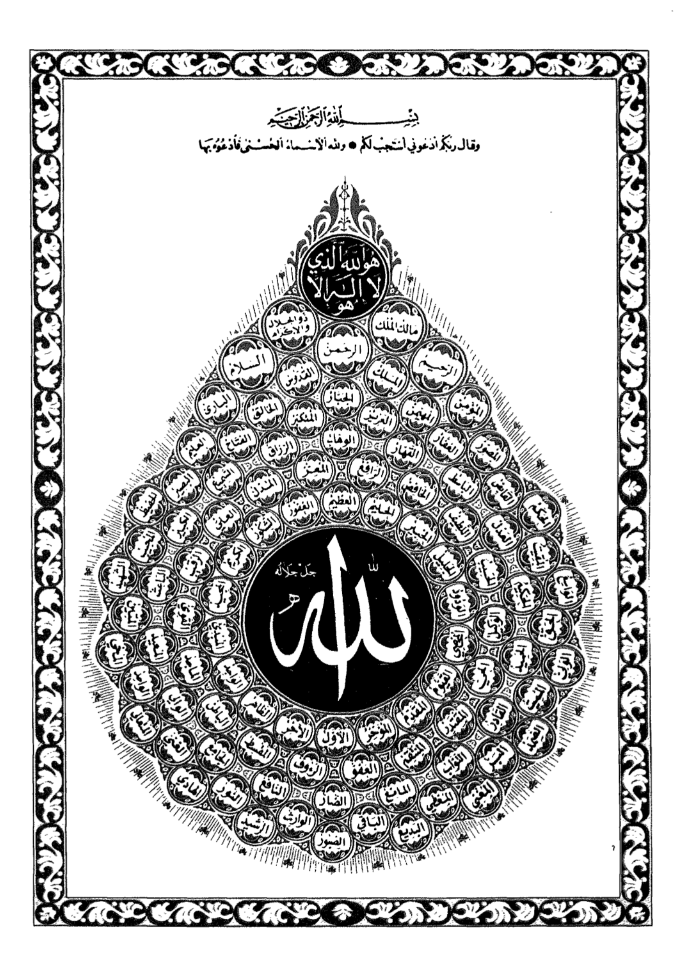
* القرآن الكريم.
* تفسير القرطبى ـ للإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى.
* تفسير الكشاف ـ للإمام محمود بن عمر الزمخشرى.
* تفسير البحر المحيط ـ لأبى حيان التوحيدى.
* صحيح البخارى ـ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى الجعفى.
* صحيح مسلم ـ للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى.
* سنن ابن ماجه ـ للحافظ أبى عبد الله محمد بن القزوينى.
* سنن الترمذى ـ لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة.
* صحيح ابن حبان ـ علاء الدين على بن بلبان الفارسى.
* المستدرك على الصحيحين ـ للحاكم النيسابورى.
* الجامع الكبير ـ للإمام جلال الدين السيوطى.
* تهذيب اللغة ـ لأبى منصور محمد بن أحمد بن طلحة الأزهرى اللغوى.
* الكامل فى اللغة والأدب ـ للإمام أبى العباس محمد بن يزيد المبرد.
* خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ عبد القادر بن عمر البغدادى الحنفى.
* مختار الصحاح ـ محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى.
* حلبة الكميت ـ شمس الدين محمد بن الحسين النواجى.
* شفاء السقام فى زيارة خير الأنام ـ السبكى.
* الكواكب الدرية فى مناقب السادة الصوفية ـ محمد عبد الرءوف المناوى.
* خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ـ ابن زينى دحلان المكى.
* جواهر الأدب ـ أحمد الهاشمى.

* معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ ـ صلاح الدين المنجد.
* الحاوى للفتاوى ـ للشيخ جلال الدين السيوطى.
* دائرة المعارف الإسلامية ـ لجنة من الأساتذة.
* الأعلام ـ خير الدين الزركلى.
* سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ـ محمد خليل المرادى.
* المعجم الشامل للتراث المطبوع ـ محمد عيسى صالحية.
* تاريخ آداب اللغة العربية ـ جورجى زيدان.
* دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدى.
* البداية والنهاية ـ للإمام ابن كثير.
* صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ـ للقلقشندى.
* الأغانى ـ أبو الفرج الأصفهانى.
* المنجد فى اللغة والأعلام ـ لجنة من الأساتذة.
* البريقة المحمودية فى شرح الطريقة المحمدية ـ لأبى سعيد المفتى الخادمى.
* كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ حاجى خليفة.
* إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون ـ البابانى البغدادى.
* هدية العارفين ـ إسماعيل باشا البغدادى.
* نهاية الإرب فى فنون الأدب ـ شهاب الدين النويرى.
* شرح الرسالة القشيرية ـ الشيخ عبد الحليم محمود.
* سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى.
* الأسفار الأربعة ـ صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى.
* إعلام الساجد بأحكام المساجد ـ للشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى الشافعى.
* الشكوى والعتاب ـ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبى.
* الفتاوى ـ عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) المعروف بابن الصلاح.

فهرس الموضوعات



بسم الله الرحمن الرحيم
وقال ربكم ادعوني أستجب لكم • ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها
هو الله الذي لا إله إلا هو
الله جل جلاله
مالك الملك
ذو الجلال والإكرام
الرحمن
الرحيم
السلام
القدوس
الملك
الجبار
المتكبر
الخالق
البارئ
العزيز
المهيمن
المؤمن
المصور
الغفار
القهار
الوهاب
الرزاق
الفتاح
العليم
الرافع
المعز
المذل
الخافض
الباسط
القابض
السميع
البصير
العظيم
الغفور
الحليم
اللطيف
الخبير
العدل
الحكم
الأول
الآخر
الظاهر
الباطن
المؤخر
المقدم
القادر
المقتدر
العفو
الرءوف
المقسط
الجامع
المانع
الضار
النافع
النور
الهادي
البديع
الباقي
الوارث
الرشيد
الصبور



بسم الله الرحمن الرحيم
وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ● ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها
هو الله الذي لا إله إلا هو
مالك الملك
الرحمن
ذو الجلال والإكرام
الرحيم
الملك
القدوس
السلام
الله
جل جلاله

